حياة محمد

حياة محمد

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

بقلم

محمد حسين هيكل

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٤

للمـــؤلف

	سنة
ثورة الأدب	١٩٣٣
ولدى	١٩٣١
تراجم	١٩٢٩
عشرة أيام فى السودان	١٩٢٧
فى أوقات الفراغ	١٩٢٥
جان جاك روسو	١٩٢٣ ١٩٢١
زينب	١٩١٤
دين مصر العام — بالفرنسية	١٩١٢

الإهداء

إلى الذين يبتغون الحق لوجه الحق وحده

الطبعة الثانية ، مزيدة مصححة

المواهب اللدنيــة بالمنح المحمدية ، لأحمد بن محمد بن أبى بكر الخطيب القسطلانى (مطبعة شاهين) .
البداية والنهاية فى التاريخ، لابن كثير الدمشقى (مطبعة السعادة) .
الشفاء للقاضى عياض (نسخة خطية بمكتبة جعفر باشا ولى) .
الأصنام للكلبى (مطبعة دار الكتب المصرية) .
الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، لقطب الدين النهروالى (مطبعة بركهاوس بليبزج) .
أخبار مكة ، لأبى الوليــد محمد بن عبــد الله بن أحمد الأزرقى (مطبعة بركهاوس بليبزج Brockhaus, Leipzig) .
فجر الإسلام ، للأستاذ أحمد أمين .
فى الأدب الجاهلى ، للدكتور طه حسين .
قصص الأنبياء، للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار .
الوحى المحمدى ، للسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار .
تفسير الفاتحة ومشكلات القرآن عن الشيخ محمد عبده .
الإسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده (مطبعة المنار) .
الرحلة الحجازية، لمحمد بك لبيب البتانونى .
اليهود فى بلاد العرب، للدكتور إسرائيل ولفنسون .
محمد المثل الكامل، للأستاذ محمد أحمد جاد المولى .
الإسلام الصحيح ، لمحمد إسعاف النشاشيبى .
فتح العرب لمصر، للدكــتور الفرد بتــلر ، ترجمة محمــد فريد أبو حديد (مطبعة دار الكتب المصرية) .
مفتاح كنوز السنة لفنسنك، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى (مطبعة مصر) .
الإسلام والتجديد فى مصر . تأليف تشارلس آرمز وترجمة الأستاذ عباس محمود .
دائرة معارف القرن العشرين، للسيد محمد فريد وجدى .

سجـــل المراجـــع

المراجــع العربيــة :

القرآن الكريم .

تفصيل آيات القرآن الحكيم ، لجول لابوم ، نظمه بالعربية محمد فؤاد عبد الباقى (مطبعة الحلبى) .

كتب الحديث .

تفسير الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٣٢٩ هـ) .

أسباب النزول ، لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى ، وبهامشه الناسخ والمنسوخ ، لأبى القاسم هبة الله بن سلامة أبى النصر (مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ) .

الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم ، لأبى جعفر النحاس (مطبعة السعادة) .

زاد المعاد فى هدى خير العباد ، لشمس الدين أبى عبد الله الدمشقى المعروف بابن القيم الجوزى (المطبعة اليمنية بمصر سنة ١٣٢٤ هـ) .

سيرة سيدنا محمد رسول الله ، المعروفة بسيرة ابن هشام ، لأبى محمد عبد الملك بن هشام (طبعة جتنجن سنة ١٢٧٤ هـ بعناية المستشرق وستنفلد) .

الطبقات الكبرى ، لمحمد بن سعد كاتب الواقدى (بمطبعة برل بليدن سنة ١٣٢٢ هـ — عنى بطبعه وتصحيحه إدورد سخو Imp. Brill. Leiden) .

المغازى ، لأبى عبد الله محمد بن عمر الواقدى (طبعة البعثة المعمدانية المسيحية بكلكتا سنة ١٨٥٥ م) .

تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (مطبعة برل بليدن) عنى به بارت ونلدكى .

تعريف بالكتاب

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى

منذ وجد الانسان على الأرض وهو مشوق إلى تعرف ما فى الكون المحيط به من سنن وخصائص . وكلما أمعن فى المعرفة ظهرت له عظمة الكون أكثر من ذى قبل ، وظهر له ضعفه وتضاءل غروره . ونبيّ الاسلام صلوات الله عليه شبيه بالوجود . فقد جدّ العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره يتلمسون نواحى العظمة الإنسانية فيه ، ويتلمسون مظاهر أسماء الله جلت قدرته فى عقله وخُلقه وعلمه . ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى شيء من المعرفة، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة؛ وأمامهم جهاد طويل وبعد شاسع وطريق لا نهاية له .

والنبوّة هبة الله لا تُنال بالكسب؛ لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعدّ لها، والقادر على حملها . الله أعلم حيث يجعل رسالته . ومحمد صلى الله عليه وسلم أعِدّ لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه، أحمره وأسوده، إنسه وجنه؛ وأُعدّ لأن يحمل رسالة أكمل دين، ولأن يختم به الأنبياء والرسل، وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم وتُبدّل الأرض غير الأرض والسمٰوات .

عصمة الأنبياء فى التبليغ وأداء أمانة الوحى قضية فرغ العلماء منها ؛ فليس للأنبياء فضل الاختيار فى التبليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوّة واختيارهم لها . وهذا التبليغ نتيجة حتمية للنبوّة لا مردّ لها . غير أن الوحى لا يلازم الأنبياء فى كل عمل يصدر عنهم وفى كل قول يبدر منهم؛ فهم عرضة للخطأ، يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرّهم على الخطأ بعد صدوره، ويعاتبهم عليه أحيانا .

أمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ عن ربه، ولم تبيّن له الطرق التى يتبعها فى التبليغ وفى حماية الدعوة، وتُرِك له أن يتصرف بعقله وعلمه وفطنته، كما يتصرف

المراجـــع الأجنبيـــة

The Spirit of Islam by Sayed Ameer Aly.

Life of Mahomet by Washington Irving.

Life of Mohammad by Sir William Muir.

The Prophet of the Desert by Khaled Goba.

Mohammad by Margaliouth.

Heroes and Hero Worship by Thomas Carlyle.

La Vie de Mahomet par Emile Dermenghem.

Essai sur l'histoire des Arabes par Caussin de Perceval.

L'Islam par Lammens.

Les Grands Iritiés par Edouard Schuré.

Dictionnaire Larousse Art. Mahomet.

Encyclopaedia Britannica Art. Mahomet.

Historian's History of the World.

معروف لقرّاء اللغة العربيـة غنىٌّ بآثاره فيها عن التعريف . وقد درس القـانون واطلع على المنطق والفلسـفة ، ومكنته ظروفه وطبيعة عمـله من الاتصال بالثقافة القديمة والثقافة الحديثـة وأوفى منهما على حظ عظيم ، وناظر وجادل وهجم ودافع فى المعتقدات والآراء وقواعد الاجتماع وفى السياسة وغيرها ، فنضج عقله وكمل علمه واتسع اطلاعه وامتـدّ أفقه ، فأصبح ينـافح عن آرائه بمنطق قوى وحجج باهرة وأسلوب اختص به لا تخفى نسبته الـيه . بهذه الثقافة وهـذه القوّة نسج الدكتور كتابه وقال فى مقدّمته : " لست مع ذلك أحسب أنى أوفيت على الغاية من البحث فى حيـاة محمد ؛ بل لعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة الحديثـة . وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شـبه قوى . فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيـدة سابقة فى هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هـذه المقدّمات العلمية . فاذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضـعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها . وهذه الطريقة العلميـة هى أسمى ما وصلت اليه الانسانيـة فى سبيل تحرير الفكر ، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته " .

أمّا أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه ؛ فقد جعل العقل حكما والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين ، وأنب من يتبع الظن وقال : " إِنَّ الظَّنَّ لا يُغنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا " ، وعاب تقديس ما عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها . ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا فى القرآن وهى معجزة عقلية . وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنّا بمـا تعيا العقولُ به حِرْصًا علينا فلم نَرْتَبْ ولم نَهِمِ

غيره من العلماء والعقلاء. وجاء الوحى مفصلا قاطعا فى كل ما يخص ذات الإله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته؛ ولم يكن كذلك فيما يخص النُّظُم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول. فهناك مجال واسع للبحث عن عظمة النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحى. وهناك مدى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحى. فقد صار مبلِّغا عن ربه داعيا اليه، حاميا لتلك الدعوة ولحرّية الداعين، مدافعا عنهم؛ وأصبح حاكمَ الأمة الإسلامية وقائدَ حربها ومفتيها وقاضيها ومنظِّم جميع الصِّلات والروابط فيها، وبينها وبين غيرها من الأمم. وقد أقام العدل فى ذلك كله، وألّف بين أمم وطوائف ما كان العقل يسيغ إمكان التأليف بينها؛ وظهرت الحكمة والرصانة وبعد النظر وكمال الفطنة وسرعة الخاطر وقوّة الحزم فى كل ما صدر عنه من قول أو فعل، وتفجّرت منه ينابيع العلم والمعرفة، وينابيع البلاغة التى يطأطئ البلغاء رءوسهم أمامها إجلالا وهيبة؛ وفارق الدنيا وهو راض عن عمله مرضىّ عنه من الله ومن المسلمين.

كل هذه النواحى تستحق الدرس والتخصص، وليس فى مقدور شخص واحد أن يفيها حقها، بل ليس فى مكنة شخص واحد أن يُوفى على الغاية فى ناحية من هذه النواحى.

وسيرة محمد صلوات الله عليه وعلى آله كسائر سير العظماء أضيف اليها ما ليس منها، إما عن حب وهوى وحسن قصد، وإما عن سوء قصد وحقد. غير أنها تمتاز عن سير العظماء جميعهم بأن منها شيئا كثيرا ضمه الوحى الإلٰهى وضمن حفظه القرآن المطهر، وشيئا كثيرا رُوى على لسان الحفاظ الثقات من المحدّثين. وعلى هذه الأسس الصحيحة يجب أن تبنى السيرة وأن يستنبط العلماء منها حِكَمَها وأسرارها ودقائقها، وأن تحلل التحليل العلمى النزيه ملاحظا فى ذلك ظروف الوسط وحال البيئة ونواحيها المختلفة من عقائد ونُظم وعاد.

وقد أخرج الدكتور هيكل للناس كتابه "حياة محمد" فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، ويسرّ لى أن أطّلع على جزء منه قبل إتمام طبعه. والدكتور هيكل

والمدينة والدولة والمدرسة، وأحمال المعتقدات والمزاج والصحة والمرض والشهوات، كيف يسهل عليه تطبيق القانون ! . هذا موضع الداء قديما وحديثا؛ وهو سبب تعدّد المذاهب والآراء وسبب تبدلها وتنقّلها من قطر الى قطر ومن أمة الى أمة . والفلسفة والآداب تبدّل ثيابها على تعاقب الأجيال كما تبدّل النساء أزياءها، وقلّ أن تجد فيها شيئا يصونه حرز أو يقيه حصن؛ بل سرى التبدّل الى قواعد العلم التى لم تكن طَوال الأجيال الماضية موضعا للشك . ونظرية النسبية اضطرب لها العلماء وسرعان ما قام من يهدمها . والآراء فى الأمراض وأسبابها وطرق علاجها وفى التغذية لا تزال مطيعة للتبدّل والتحوّل . وهكذا إذا أنعمنا النظر لا نجد أمانا لما أنتجه العقل وحده إلا ما كان البرهان بشروطه متوافرا فيه . ولكن ما نسبة هذه الأشياء التى يتوافر فيها البرهان الى غيرها مما تمليه الظنون وتسطره الأوهام، وتمجه الأذهان المريضة، وتفرضه السياسة، ويبدعه العلماء الذين يجدون كل اللذة فى مخالفة غيرهم و إحداث هذه المذاهب والآراء . ولعل هذه الحيرة ستخفف غلواء العلماء المعتزّين بالعقل وحده وتلويهم يوما من الأيام إلى الدخول فى حمى الحق وحصن اليقين، وهو الوحى الصادق، وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة .

نعود بعد هذا إلى الدكتور هيكل وكتابه :

يقول بعض علماء الكلام إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الإنسان يدل أوضح الدلالة على شمول العلم الإلهى لدقائق الوجود . وأنا أقرّر أيضا أن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين، وسيقرّب إلى العقل الإنسانى طريق فهم ما كان غامضا مبهما، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِم آياتنا فِى الآفاق وفِى أَنفُسِهِم حتَّى يتبيَّن لَهم أنَّه الحقّ أَوَلم يكْفِ بِربِّك أَنه على كلِّ شىء شَهِيد ﴾ . والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قرّبت إلى العقل فهم إمكان تحوّل المادة إلى قوّة وتحوّل القوّة إلى مادة . وعلم استحضار الأرواح فسّر للناس شيئا كثيرا مما كانوا فيه يختلفون ، وأعان على فهم تجرّد الروح و إمكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة فى طى

وأما إن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه . وقد ساير الدكتور غيره من العلماء فى هذا . ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين . أُنظر كتب الكلام ترهم يقرّرون أن أول واجب على المكلف معرفة الله، فيقول آخرون : لا . إن أوّل واجب هو الشك . ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان . وهو و إن كان نوعا من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدّماته قطعية حسية، أو منتهيــة إلى الحس ، أو مدركة بالبداهــة ، أو معتمــدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام ، على ما هو معروف فى المنطق . وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدّمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان .

وقد جرى الإمام الغزالى على الطريقة نفسها . وقد قرّر فى أحد كتبه أنه جرّد نفسه من جميع الآراء ثم فكر، وقدّر ، ورتب، ووازن ، وقرّب ، و باعد ، وعرض الأدلة وهذبها وحللها؛ ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق والى ما اهتدى اليه من الآراء . وقد فعل هذا ليجافى التقليد، وليكون إيمانه إيمان المستيقن المعتمد على الدليل والبرهان؛ ذلك الإيمان الذى لا يختلف المسلمون فى صحته ونجاة صاحبه .

وأنت واجد فى كتب الكلام فى مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس عما ألفته من العقائد، ثم البحث والنظر . فطريق التجريد طريق قديم، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم، والتجربة والاســتقراء التام وليدا الملاحظة، فليس هناك جديد عندنا . ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت فى التطبيق العلمى والعملى فى الشرق، و بعد أن فشا التقليد وأهدر العقل، و بعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناصع وأفادوا منها فى العلم والعمل، رجعنا نأخذها عنهم ونراها طريقة فى العلم جديدة .

هــذا القانون العلمى فى البحث معروف قديما وحديثا . والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير . ولا يتفاوت الناس كثيرا فى معرفة القانون، ولكنهم يتفاوتون جدّ التفاوت فى تطبيق القانون .

تجريد النفس والملاحظة والتجربة والموازنة والاستنباط كلمات سهلة ؛ لكن الانسان الرازح تحت أحمال الوراثة فى دمه وعقله ، وأحمال البيئة فى البيت والقرية

وهذا الاطمئنان يؤيده الواقع ؛ فان ما يرى الآن من عناية الغرب ببحث آثار الشرق ومن عناية علمائه بدراسة الاسلام من نواحيه المختلفة ودراسة تاريخه وأممه قديما وحديثا ، ومن إنصاف بعضهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وما أيّدته التجارب من أن الحق لا محالة غالب ؛ كل ذلك يرشدنا إلى أن الاسلام سينشر لواءه على العالم، وسيكون أشدّ الناس عداوة له اليوم هم أشدّ الناس غيرة عليه ودفاعا عنه ، وسيكون هؤلاء الغرباء عنه هم أنصاره وأهله ، وكما نصره أوّل أمره الغرباء عن البيئة التى نشأ فيها ، فسينصره آخر الأمر الغرباء عن لغته ووطنه . وقد بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وليس للعالم بعده هادٍ ومرشد، وكان دينه أكمل دين بنص الوحى القاطع ، فلا يمكن أن يقف أمره على ما هو عليه الآن ، ولا بد أن يمحو نوره نور غيره ، كما تمحو الشمس أضواء غيرها من الكواكب .

وقد وفِّق الدكتور فى تنسيق الحوادث وربط بعضها ببعض ، فجاء كتابه عقدا منضدا وسلسلة متينة محكمة الحلقات . وقد أبدع فى بيان الأسباب والأغراض والحكم بيانا قويا واضحا يجعل القارئ مطمئن النفس رضىّ القلب يستمتع بما يقرأ ويثلج صدره ببرد اليقين ، فيملك عليه أمره ، ويجبره على متابعة القراءة حتى يوفى على آخر ما بيده من البحث .

وفى الكتاب بحوث قيمة ليست من السيرة ، ولكنها اتصلت بها بسبب الإسهاب فى بيان أغراضها .

وأختم كلمتى هذه بقول سيد الخلق صلوات الله عليه وعلى آله الأطهار ومن اتبعه : " أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل علىّ غضبُك أو تحلّ علىّ سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله " .

محمد مصطفى المراغى

١٥ فبراير سنة ١٩٣٥

الأبعاد . وقد انتفع الدكتور هيكل بشيء من هذا فى تقريب قصة الإسراء فأتى بشيء طريف .

و يطول بى القول إذا أنا عرضت لما فى كتاب الدكتور هيكل من حسنات . وحسبي أن أنبه إلى تلك الحسنات إجمالا ، وسيدرك الناس جماله بأنفسهم ويستمتعون بلذة نتاج الفكر تهديه الأسانيد الصحيحة ، ويهديه المنطق الدقيق تسعده الفطرة الصادقة . وسيرون أن الدكتور كان مخلصا الاخلاص كله للحقيقة ، عامر القلب بما فى الوحى المحمدى من هدى ونور ، وبما فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم من جمال وجلال وعظمة وعبرة ، مطمئنا كل الاطمئنان إلى أن هذا الدين المحمدى سينقذ البشر مما هم فيه من الحيرة ، وينشلهم من ظلمة المادّة ، ويبصرهم بنور الايمان ، ويوجههم الى النور الإلهى ، فيدركون به سعة رحمته التى وسعت كل شيء ، وعظمة مجده الذى تسبح به السموات والأرض وكل شيء فيهما ، وعزته التى تتضاءل أمامها الموجودات . ألا تراه يقول : "وأذهب أبعد مما تقدم فأقول : إن هذا البحث جدير بأن يهدى الإنسانية طريقها الى الحضارة الجديدة التى تلتمسها . وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد فى الإسلام ورسوله وتلتمس هذا النور فى «ثيوزوفية الهند» وفى مختلف مذاهب الشرق الأقصى فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى خليقون بأن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والانصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول الى الحق . فالتفكير الإسلامى على أنه تفكير علمى على الطريقة الحديثة فى صلة الإنسان بالحياة المحيطة به ، وهو من هذه الناحية واقعى بحت ، ينقلب تفكيرا ذاتيا حين يتصل الأمر بصلات الانسان بالكون وخالق الكون" . ويقول : "لكن طلائع القضاء على الوثنية التى تتحكم فى عالمنا الحاضر وتوجه الحضارة الحاكمة فيه تبدو واضحة لكل من يتتبع سير العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العالم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التى انتشرت فى العالم كأثر من آثاره".

تقـــديم الكتاب

محمد عليــه الصــلاة والســلام :

بهـذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه، وله تهـتز ملايين القلوب كل يوم مرّات. وهذه الشفاه والقلوب به تنطق، وله تهتزّ، منذ أربعمائة وألف سنة إلا خمسين. وبهـذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه وتهتز ملايين القلوب الى يوم الدين. فاذا كان الفجر من كل يوم وتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهاب المؤذّن بالناس أنِ الصلاةُ خير من النوم، ودعاهم الى السجود لله والصـلاة على رسوله، فاستجاب له الألوف والملايين فى مختلف أنحاء المعمورة يحيون بالصـلاة رحمة الله وفضله متجلّيين فى مطلع كل نهار. وإذا كانت الظهـيرة وزالت الشمس أهاب المؤذّن بالناس لصلاة الظهر، ثم لصلوات العصر فالمغرب فالعشاء. وفى كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمدا عبد الله ونبيّه ورسوله فى ضراعة وخشـية وإنابة. وهم فيما بين الصلوات الخمس ما يكادون يسمعون اسمه حتى تجَف قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفاه. كذلك كانوا وكذلك سيكونون، حتى يظهر الله الدين القيّم ويتم نعمته على الناس أجمعين.

الأمبراطورية الإسلامية الأولى

ولم يك محمد فى حاجة الى زمان طويل ليظهر دينُه وينتشر فى الخافقين لواؤه. فقد أكمل الله للمسلمين دينهـم قبيل وفاته، ويومئـذ وضع هو خطـة انتشـار الدين: فبعث الى كِسْرَى والى هِرَقْل والى غيرهما من الملوك والأمراء كى يُسلموا. ولم تمض خمسون ومائة سنة من بعد ذلك حتى كان علَمُ الإسـلام خفّاقا من الأندلس فى غرب أوربا الى الهند والى التركستان والى الصين فى شرق آسـيا؛ وبذلك وصلت الشامُ والعراق وفارس وأفغانستان، وقد أسلمت كلها، ما بين بلاد العرب ومملكة ابن السماء، كما وصلت مصرُ وبرقة وتونس والجزائر ومَرّاكُش ما بين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝

المسلمون وعيسى

على أن الإسلام حال بين المسلمين وبين الحط من مقام عيسى . إنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيًّا وجعله مباركا أينما كان وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيًّا ، وبرًّا بوالدته ولم يجعله جبارا شقيّا ، فسلامٌ عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيّا . أمّا المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم يعرّضون بمحمد وينعتونه بأوصاف يبرأ منها المهذَّب من الرجال ، شفاءً لما فى نفوسهم من غِلّ ، واستفزازًا وحفزًا لشهوات الناس الدنيا . وعلى رغم ما يقال من أن الحروب الصليبية وضعت أوزارها منذ مئات السنين ظلّ تعصّب الكنيسة المسيحية على محمد على أشدّه إلى عصور قريبة . ولعله كذلك ما يزال إن لم يك أشد ، وإن كان خفيّا يعمل فى ظلمات التبشير بالدون من الوسائل . ولم يقف الأمر عند الكنيسة بل تعدّاها إلى كتّاب وفلاسفة فى أوربا وفى أمريكا لم تك تصلهم بالكنيسة صلة تذكر .

ولقد يعجب الإنسان أن يظل تعصّب المسيحية على الإسلام بهذه الشدة فى عصر يزعمون أنه عصر النور والعلم ، وأنه لذلك عصر التسامح وسعة الأُفق . ويزداد الإنسان عجبًا إذ يذكر المسلمين الأوّلين وكيف كان اغتباطهم بانتصار المسيحية على المجوسية عظيما حين ظفرت جيوش هِرَقْل بأعلام فارس وكسرت عسكر كِسرَى . فقد كانت فارس صاحبة النفوذ فى جنوب شبه جزيرة العرب منذ أخرج كسرى الأحباش من اليمن . ثم إن كسرى وجّه جيوشه — سنة ٦١٤ ميلادية — تحت إمرة قائد من قوّاده يدعى شَهْرَ بَرَاز(١) لغزو الروم ، فظهر عليهم حين التقى بهم بأذْرِعات وبُصْرَى ، أدنى الشام إلى أرض العرب ، فقتلهم وخرّب مدائنهم وقطع زيتونهم . وكان العرب ، ولا سيما أهل مكة ، يتتبعون أخبار هذه الحرب بتلهف وشغف . فقد كانت القوّتان المتناحرتان أكبر ما تعرف أمم الأرض يومئذ ، وكانت

(١) يذكر الدكتور بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر) أن اسم هذا القائد خوريام وأن (شهربرز) و(شهربراز) و(شراوزيه) وغيرها من الأسماء التى لقب بها فى الكتب المختلفة ليست إلا تحريفا للاسم الفارسى (شهر — ورز) وهو لقب معناه (الخنزير البرى للملك) رمزا للقوة الباسلة ، فكانت صورته ماثلة لذلك على خاتم فارس القديمة وكذلك على خاتم أرمينية . (راجع فتح العرب لمصر ص ٥٣) .

أوربا وإفريقيّة ومبعث محمد عليه السلام . ومن يومئذ الى يومنا هذا بقى علم الإسلام مرفرفا على هذه الربوع جميعا ، خلا الأندلس التى أغارت النصرانيّة عليها فعذّبت أهلها وأذاقتهم ألوانًا من الشدّة والبأس . ولم يطق أهلها صبرًا على الحياة، فعاد منهم من عاد الى إفريقيّة ؛ وردَّ الهول والفزع من ارتدَّ منهم عن دينه ودين أبيه الى دين العتاة المعذِّبين .

على أن ما خسره الإسلام فى الأندلس من غرب أوربا كان له عنه العوض حين فتح العثمانيون القسطنطينية ومكّنوا لدين محمد فيها . هنالك امتدت كلمته إلى البلقان كلها وانبلج نوره فى روسيا وفى بولونيا وخفَقت أعلامه على أضعاف ما كانت تخفِق عليه من أرض أسبانيا . ومن يوم انتشر الإسلام فى صولته الأولى الى يومنا لم يتغلَّب عليه من الأديان متغلِّب ، وإن تغلَّب على أممه من شدائد الظلم وألوان التحكم ما جعلها أشدّ بالله إيمانًا ، ولحكمه إسلامًا ، وفى رحمته وفى غفرانه أملًا ورجاء .

الإسلام والمسيحية

هذه القوة التى انتشر الإسلام بها سرعان ما وقفته وجها لوجه أمام المسيحية وقفة نضال مستميت . لقد تغلّب محمد على الوثنية ، ومحا من بلاد العرب ، كما محا خلفاؤه الأوّلون من بلاد الفرس والأفغان وطائفة كبيرة من بلاد الهند أثرها . ولقد تغلّب خلفاء محمد على المسيحية فى الحيرة واليمن والشام ومصر الى مهد المسيحية مدينة قسطنطين . أَفَقُدِّر على المسيحية ما قُدّر على الوثنية من اضمحلال وهى دين كتاب من الأديان التى أشاد بها محمد ونزل الوحى بنبوّة صاحبها ؟ وهل قدر لهؤلاء العرب ، عرب البادية الزاحفين من شبه الجزيرة الصحراوية القاحلة ، أن يضعوا أيديهم على حدائق الأندلس وبزنطية وسائر بلاد المسيحية ؟ الموت ولا هذا ! واستعر القتال بين أتباع عيسى وأتباع محمد قرونًا متتالية . ولم يقف القتال عند حرب الأسِنّة والمدافع ، بل تعداها الى ميادين الجدل والنضال الكلامى ، جاء المتقاتلون فيها بأسماء محمد وعيسى ، وجعل كل فريق يلتمس الوسيلة لتأليب السواد واستثارة حماسة الجماهير وتعصُّبها .

قالوا إنّا نَصَارَى ذلِكَ بِأنّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ ورُهْباناً وأنّهم لا يَستَكْبِرون ﴾[١] . ثم إنك لترى الدينين يصوّران الحيـاة والخُلُق صورةً تكاد تكون واحدة . وهما فى تصوير الإنسانية ومبدأ خلقها سواء . خلق الله آدم وحوّاء وأسكنهما الجنة وأوحى إليهما ألّا يسمعا إلى نزغ الشيطان فيأكلا من الشجرة فيخرجهما من الجنة . والشيطان عدوّهما الذى أبى أن يسجد لآدم فيما أوحاه الله لمحمد ، والذى أبى أن يقدّس كلمة الله على رواية كتب النصارى المقدّسـة . ووسوس الشيطان لحوّاء وزيّن لهـا ، فزيّنتْ لآدم ، فأكلا من شجرة الخُلْد فبدتْ لهما سوءاتهما ، فاستغفرا ربّهما فبعثهما على الأرض بعضُ ذرّيتهم لبعضٍ عدوّ ، يغريهم الشـيطان فيضلّ قوم ويقاوم الهلاك آخرون . ولتقوى الإنسانية على حرب هذه الغواية بعث الله نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين ، وبعث مع كل رسـول كتابا بلسان قومه مصدِّقا لمـا بين يديه ليبيّن لهم . وكما يقوم فى صف الشـيطان أنصاره من أرواح الشر ، تقوم الملائكة تسبّح بحمـد ربها وتقدّس له . وهؤلاء وأولئك يتنازعون أسـباب الحياة والكون جميعا حتى يوم البعث ، يوم تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت ولا يَسأل حميم حميما .

الخلاف بينهما

وإنك لتجد فى القرآن من ذكر عيسى ومريم وإكرام الله لهما وتقديمه إياهما ماتشعر معه حق الشعور بهذا الإخاء وما يجعلك تتساءل : مابال المسلمين والنصارى إذًا ظلوا على القرون خصومًا متقاتلين ؟ والجواب عن سؤالك أنّ بين الإسلام والنصرانية خلافا على مسائل أساسية كانت موضع جدل شديد فى عهد النبيّ ، جدل لم يتعدّ حدوده إلى العداوة والبغضاء . فالنصرانية لا تقرّ بنبوة محمد كما يقر الإسلام بنبوة عيسى . والنصرانية تقول بالتثليث ، والإسلام ينكر كل ما سوى التوحيد أشد الإنكار . والنصارى يؤلّهون عيسى ويتلمّسون الدليل على ألوهيته فى أنه تكلّم فى المهد وأُوتى من المعجزات ما لم يؤتَه غيره مما هو من عمل الخالق جلّ شأنه . وهم كانوا أيّام الإسـلام الأولى يحـاجّون المسلمين فى ذلك بالقرآن ويقولون : أوليس يقرّ

التوحيد والتثليث

(١) سورة المـائدة آية ٨٢

بلاد العرب تجاورهما وتخضع بعض أجزائها لفارس، وتتاخم الروم بعض أجزائها الأخرى . وشمت كفار مكة بالمسيحيين وفرحوا لهزيمتهم، لأنهم أهل كتاب كالمسلمين، وحاولوا أن يُلصقوا بدينهم عار اندحارهم . أمّا المسلمون فشق عليهم أمر الروم لأنهم أهل كتاب مثلهم، فكان محمد وأصحابه يكرهون أن يظهر المجوس عليهم . وأدّى هذا الخلاف بين مسلمي مكة وكفّارها إلى تنادر الفريقين وإلى تهكم الكفار بالمسلمين، حتى أبدى أحدهم من السرور أمام أبي بكر ما غاظه ودفعه إلى أن يقول : لا تعجل بالمسرّة، فسيأخذ الروم بثأرهم . وأبو بكر معروف بالهدوء ووداعة النفس . فلما سمع الكافر قوله أجابه متهكما : كذبتَ . فغضب أبو بكر وقال : كذبت أنت ياعدوّ الله ! وهذا رِهان عشرة جمال على أن تغلب الروم المجوس قبل عام . وعرف محمد أمر هذا الرهان فنصح إلى أبي بكر أن يزيد فى الرهان وأن يطيل المدة . فزاد أبو بكر فى الرهان إلى مائة بعير إن هُزِمت الفرس قبل تسع سنين . وانتصر هِرَقْل سنة ٦٢٥ م، وهزم فارس واسترد منها الشام واستعاد الصليب الأعظم وكسب أبو بكر رهانه . وفى النبوءة بهذا النصر نزل قوله تعالى فى صدر سورة الروم : ﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ . يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

المبادئ الأوّلية فى الدينين

كان اغتباط المسلمين يومئذ بانتصار هرقل والنصارى عظيما، وظلّت صلة الإخاء بين الذين اتبعوا محمدا والذين آمنوا بعيسى عظيمة طَوال حياة النبيّ وإن تكرر بين الفريقين ما كان من مجادلة، على خلاف ما كان بين المسلمين واليهود من تهادن أوّل الأمر ثم عداوة استحرّت وكان لها من الآثار والنتائج الدامية ما أجلى اليهود عن شبه جزيرة العرب جمعاء . ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ

الأصنام ، بل كان يحاجّهم بالوحى من طريق المنطق ومن كتبهم وما جاء فيها .
فالله تعالى يقول : ﴿ لَقَدْ كفر الَّذِينَ قالوا إِنّ اللهَ هو المَسِيحُ ٱبن مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شيئًا إِنْ أرادَ أن يُهْلِكَ المَسِيحَ ٱبنَ مَرْيَمَ وأُمَّه ومَنْ فى الأرض جميعا ولِلهِ مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما يخلُق ما يشاء واللهُ على كل شيءٍ قَدِيرٌ . وقالت اليَهُودُ والنَّصارَى نحن أبناءُ الله وأحِبَّاؤه قل فَلِمَ يعذِّبكم بِذُنوبِكم بل أنتم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَق يَغْفِرُ لِمَنْ يشاءُ ويُعَذِّبُ مَنْ يشاء ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ لَقدْ كَفَرَ ٱلَّذِين قالوا إِنّ اللهَ هو المَسِيحُ ٱبن مَرْيَمَ وقال المَسِيحُ يا بَنِى إسرائيلَ ٱعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكم إنّه مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فقد حَرَّمَ اللهُ عليهِ الْجَنَّةَ ومأواهُ النارُ وَمَا لِلظّالمين مِنْ أَنْصارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذين قالوا إِنّ الله ثَالِثُ ثَلاثةٍ وما مِنْ إِلهٍ إِلّا إِلهٌ وَاحِدٌ وإِنْ لم يَنْتَهُوا عَمّا يقولون لَيَمَسَّنّ الَّذِين كَفروا مِنهم عذابٌ أليم ﴾[2] . وقال جلّ شأنه : ﴿ وإذْ قال اللهُ ياعيسَى ٱبنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلتَ للنّاسِ ٱتَّخِذُونِى وأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دونِ اللهِ قال سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لى أنْ أقولَ ما لَيْسَ لى بِحَقٍّ إِنْ كنتُ قلتُه فَقَدْ عَلِمْتَه تَعْلَمُ ما فى نَفْسِى ولا أعْلَمُ ما فى نَفْسِك إنّك أنتَ عَلّامُ الغُيوبِ . مَا قُلتُ لهم إلّا ما أمَرْتَنِى به أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وكنتُ عليهم شهيدًا مَا دُمتُ فيهم فلمّا تَوَفَّيْتَنى كنتَ أنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأنتَ على كلّ شيءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبْهم فإنَّهُمْ عِبادُك وإِن تَغْفِرْ لهمْ فإنّك أنْتَ العزيزُ الحكيمُ ﴾[3] .

تقول المسيحيّة بالتثليث وبأنّ عيسى ابنُ الله ، والإسلامُ ينكر إنكارا صريحا باتًّا أن يكون لله ولد : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لم يَلِدْ ولم يُولَدْ . ولم يَكُنْ له كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[4] . وما كان لله أن يتّخذ ولدًا سبحانه . و﴿ إنّ مَثَلَ عِيسَى عندَ الله كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَه من تُرابٍ ثم قال له كُنْ فيكون ﴾[5] . والإسلام دين توحيد فى أشدّ معانى التوحيد صفاءً وقوة ، وفى أشد معانى التوحيد بساطةً ووضوحا . وكل ما يمكن

(١) سورة المائدة آيتى ١٧ و ١٨
(٢) سورة المائدة آيتى ٧٢ و ٧٣
(٣) سورة المائدة الآيات من ١١٦ الى ١١٨
(٤) سورة الاخلاص
(٥) سورة آل عمران آية ٥٩

القرآن الذى نزل على محمد رأينا حين يقول : ﴿ إِذْ قَالَتِ المَلَائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنه ٱسْمُه المَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى الدُّنيا والآخِرةِ ومِنَ المُقَرَّبِينَ . ويُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وكَهْلًا ومِنَ الصَّالِحِينَ . قالتْ رَبِّ أَنَّى يكونُ لِى وَلَدٌ ولم يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قال كَذٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يشاءُ إذا قَضَى أمرًا فإنّما يَقُولُ له كُن فيكُون . ويُعَلِّمُه الكِتَابَ والحِكْمَةَ والتوراةَ والإنجِيلَ . ورسُولًا إِلَى بَنِي إسرائيلَ أَنِّى قد جِئْتُكم بِآيةٍ مِنْ رَبِّكم أَنِّى أَخْلُقُ لكم مِنَ الطِّينِ كهيئةِ الطيرِ فأنفُخُ فِيهِ فيكونُ طَيْرًا بِإذنِ اللهِ وأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأبْرَصَ وأُحْيِي الموتَى بِإذنِ اللهِ وأُنَبِّئُكُم بِما تَأْكُلُون وما تَدَّخِرُون فِي بُيوتِكم إِنَّ فِي ذلِكَ لآيةً لكم إِن كنتم مؤمِنِين ﴾ (١) .

فالقرآن قد ذكر إذًا أنه يُحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص ، ويخلق من الطين طيرا ويخبر بالغيب ؛ وكل هذه خصائص إلهية . هذا رأى نصارى عهد النبيّ الذين كانوا يحاجّونه ويجادلونه ويذهبون إلى أن عيسى إله مع الله . ولقد ذهبت طائفة منهم إلى تأليه مريم أن ألقى الله اليها بكلمته . وكان أصحاب هذا الرأى من نصارى ذلك العهد يعتبرون مريم ثالث الثلاثة : الأب والابن والروح القدس . ولم يكن أصحاب هذا القول بألوهية عيسى وأُمّه إلا طائفة من طوائف النصرانية الكثيرة المتفرّقة يومئذ شِيَعا وأحزابا .

مجادلة النصارى للنبي

كان نصارى شبه الجزيرة يجادلون محمدا على اختلاف نِحَلهم على أساس مذاهبهم . فكانوا يقولون إن المسيح هو الله ، ويقولون هو ولد الله ، ويقولون هو ثالث ثلاثة . وكان القائلون بألوهيته يحتجون بما سبق بيانه . ويحتج القائلون بأنه ولد الله بأنه لم يكن له أب يُعْلَم ، وأنه تكلّم فى المهد صبيًا مما لم يقع لأحد من بنى آدم . ويحتج القائلون بأنه ثالث ثلاثة بأن الله يقول أَمَرنا وخلقنا وقضينا ، ولو كان واحدًا لقال أمرتُ وخلقت وقضيت . وكان محمد يستمع لهم جميعا ويجادلهم بالتى هى أحسن . وهو لم يكن فى جدالهم يشتدّ شدّته فى جدال المشركين وعبّاد

(١) سورة آل عمران الآيات من ٤٥ الى ٤٩

الذين اغتبط المسلمون بنصرهم واعتبروه نصرًا للأديان الكتابية ، لم يكلِّف سادتهم أنفسهم مؤونة البحث فى الدين الجديد ، ولم يلبثوا أن نظروا الى الأمر من ناحيته السياسية وفكروا فيما يصيب ملكهم إذا تمّ للدين الجديد الغَلَب . لذلك بدءوا يأتمرون به و بأهله ، حتى أرسلوا جيشا عرمرما عِدّته مائة ألف فى رواية ومائتا ألف فى رواية أخرى ، مما أدّى إلى غزوة تَبُوك . وقد انسحب فيها الروم أمام المسلمين الذين خرجوا ومحمد على رأسهم لدفع عدوان لم يكن له ما يسوِّغه .

من يومئذ وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية حالف النصر فيها المسلمين قروناً متتالية امتدّت أمبراطوريتهم أثناءها إلى الأندلس غربًا و إلى الهند والصين شرقا ، وآمنت أكثر أجزاء هذه الأمبراطورية بالدين الجديد واستقرّت فيها لغته العربية . فلما آن لدورة التاريخ أن تدور ، طرد النصارى المسلمين من الأندلس وحاربوهم الحروب الصليبيّة وأخذوا يطعنون فى دينهم ونبيهم طعنا كله فحش وكذب وافتراء ؛ ونسوا فى فحشهم ما بلّغ محمد عليه السلام فى أحاديثه ، وما بلّغ القرآن فى الوحى الذى نزل عليه ، من رفع مقام عيسى عليه السلام إلى المستوى الذى رفعه الله اليه .

كتّاب المسيحية ومحمد

جاء فى موسوعة لَارُوس الفرنسيّة خلال العَرْض لآراء كتّاب المسيحية إلى النصف الأوّل من القرن التاسع عشر ممن نالوا من محمد شرّ نيل ما يأتى : "بقى محمد مع ذلك ساحرا ممعنا فى فساد الخُلُق ، لصّ نِياقٍ ، كردينالًا لم ينجح فى الوصول إلى كرسى البابوية ، فاخترع دينًا جديدا لينتقم من زملائه . واستولى القصص الخيالى والخليع على سيرته . وسيرة باهوميه (محمد) تكاد تقيم أدبا من هذا النوع . وقصة محمد التى نشر رِينو وفرانسيسك ميشيل سنة ١٨٣١ تصوِّر لنا الفكرة التى كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه . وفى القرن السابع عشر نظر بِيل فى تاريخ أبى القرآن نظرة تاريخية ، مع ذلك ظلّت مقررات ظالمة ثابتة فى نفسه عنه . على أنه يعترف مع ذلك بأن النظام الخلقى والاجتماعى الذى أقامه لا يختلف عن النظام المسيحى لولا القصاص وتعدّد الزوجات" .

أن يُلقِى ظلًّا على فكرة التوحيـد أو صورته يُنـكره الإسلام ويراه كفرا : ﴿ إنّ اللهَ لا يَغْفِر أن يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مادُونَ ذلك لِمَنْ يَشاء ﴾ (١) . فمهما يكن للصورة المسيحية فى التثليث من صلة تاريخية ببعض الأديان القديمة فهى ليست من الحق عند محمد فى شىء . إنمـا الحق هو الله وحده ، لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فلا عجب إذًا أن تكون بين محمد ونصارى عهده تلك المجادلة بالتى هى أحسن ، وأن يؤيّد الوحى محمدا بمـا تلوت من الآيات .

مسألة صلب المسيح

ومسألة أخرى يختلف فيها الإسلام والنصرانية ، وكانت مثار جدل بينهما فى عهد النبىّ ، تلك مسألة صلب عيسى ليفتدى بدمه خطايا الخَلْق . فالقرآن صريح فى نفى أن اليهود قتلوا المسيح أو صلبوه ، إذ يقول : ﴿ وقَوْلِهِم إنَّا قَتَلْنَا المسيحَ عيسَى ٱبن مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم وإنّ ٱلَّذِين ٱخْتَلفوا فيـه لفى شَكٍّ مِنْـه ما لَهُمْ به من عِلْمٍ إلّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنّ وما قَتَـلُوه يقيناً . بل رَفَعـه اللهُ إليه وكان اللهُ عزيزاً حكيما ﴾ (٢) .

ولئن كانت فكرة افتداء المسيح بدمه خطايا إخوته من بنى آدم جميلةً لا ريب ويستحق ما كُتب فيها دراسةً من نواحيه الشعرية والخُلقية والنفسية ، لقد كان المبدأ الذى قرّره الإسـلام من أنه لا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وأنّ كل امرئ يوم القيامة مجـزىّ بأعماله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، يجعل التقريب المنطقىّ بين العقيدتين غير ممكن ، ويجعل منطق الإسلام من الدقة بحيث لا تُجدى معه محاولات التوفيق ، مع التناقض الواضح بين فكرة الافتداء وفكرة الجزاء الذاتى ﴿ لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًـا ﴾ (٣) .

الروم والمسلمون

هل فكر أحد من نصارى يومئذ فى هذا الدين الجديد وفى إمكان التوفيق بين فكرة التوحيد فيه وبين ماجاء به عيسى ؟ ! نعم ، وآمن به منهم كثيرون . لكن الروم

(١) سورة النسـاء آية ٤٨ (٢) سورة النساء آيتى ١٥٧ و ١٥٨
(٣) سورة لقمان آية ٣٣

الهرطقات كلها وأنه من عمل الشيطان ، والمسلمين بأنهم وحوش ، والقرآن بأنه نسيج من السخافات . وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجدّ فى أمرٍ هذا مبلغ سخافته . مع ذلك فإن پيير المحترم (ڤنرابل) مؤلّف أول رسالة غربية ضد الإسلام قد ترجم القرآن فى القرن الثانى عشر إلى اللاّتينية . وفى القرن الرابع عشر كان پيير پاسْكال من الذين توسعوا فى الدراسات الإسلامية . وقد وصف إنّوسان الثامن محمدا يوما بأنه عدو المسيح . أما القرون الوسطى فلم تكن تحسب محمدا إلا هرطيقا . وكان لريمون ليون فى القرن الرابع عشر، ولغليوم بَسْتِل فى القرن السادس عشر، ولرولان وجانبيه فى القرن الثامن عشر، وللقسيس دِبُرْجلى ولرينان فى القرن التاسع عشر آراء وأحكام مختلفة . على أن الكونت بُولَنْڤِلْيِيه وشُولْ وكوسَّان دِبِرسڤال ودوزى وسبرنجر وبَارْتلمى سانتيلير ودكاسْتْرى وكارلَيْل وغيرهم يظهرون على وجه الإجمال إنصافًا للإسلام ونبيه ويُشيدون فى بعض الأحيان بهما . مع ذلك فإن دُرُوتى يتحدّث فى سنة ١٨٧٦ عن محمد قائلا : « هذا الأعرابىّ المنافق القذر » كما طعن عليه فُوسْتَر من قبل ذلك سنة ١٨٢٢ ، وما يزال للإسلام حتى اليوم محاربون متحمّسون ” .

أرأيتَ الحضيض الذى هوت اليه هذه الطائفة من كُتّاب الغرب ؟ أرأيت إصرارهم ، مع توالى القرون، على الضلال وعلى إثارة العداوة والبغضاء بين أبناء الإنسانية ؟ ! ومن هؤلاء من جاءوا فى العصور التى يسمّونها عصور العلم والبحث والتفكير الحر وتقرير الإخاء بين الإنسان والإنسان . قد يخفّف من أثر هذا الضلال قيام أولئك المنصفين الى حدٍّ ما ، ممن أشار اليهم درمنجم ، ومنهم من يقرّ بصدق إيمان محمد بالرسالة التى عهد الله اليه تبليغها من طريق الوحى، ومنهم من يُشيد بعظمة محمد الروحية وبسموّ خُلقه ورفعة نفسه وجمّ فضائله ، ومن يصوّر ذلك فى أقوى أسلوب وأتمّه روعة، وإن بقى الغرب مع ذلك ينال من الإسلام ونبيه أشدّ النيل، ثم تبلغ منه الجرأة حتى يبث المبشرين فى أنحاء البلاد الإسلامية يذيعون مثالبهم الوضيعة ويحاولون صرف المسلمين عن دينهم الى المسيحية .

وإن واحدًا من المستشرقين الذين عرضوا لحياة محمد بشيء من الإنصاف — ذلك هو الكاتب الفرنسي إميل دِرْمِنْجِم — لَيذكر بعض هذا الذي كتب إخوانه في الدين فيقول[1] : "لمّا نَشِبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتّسعت هوّة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدّةً . ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين الى أشدّ الخلاف . فمن البزنطيين من أوقروا الإسلام احتقارًا من غير أن يكلّفوا أنفسهم — فيما خلا جان داماسين — مؤونة دراسته . ولم يحارب الكتّاب والنظامون مسلمي الأندلس إلا بأسخف المثالب . فقد زعموا أن محمدا لص نياق، وزعموه متهالكا على اللهو، وزعموه ساحرا، وزعموه رئيس عصابة من قطّاع الطرق، بل زعموه قسًّا رومانيا مغيظا مُحْنَقا أنْ لم يُنتخب لكرسي البابوية... وحسبه بعضهم إلٰها زائفا يقرّب له عباده الضحايا البشرية . وإن جِبير دِنُوچَن نفسه، وهو رجل جِدّ، لَيذكر أن محمدا مات في نوبة سكر بيِّن، وأن جسده وجد ملقًى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير، وذلك ليفسِّر السبب الذي من أجله حُرِّم الخمر وحرّم لحم ذلك الحيوان . وذهبت الأُغنيات الى حدّ أن جعلت محمدا صنما من ذهب وجعلت المساجدَ الإسلامية برابيّ ملأى بالتماثيل والصور ! ! وقد تحدّث واضع أُغنية أنطاكية حديث من رأى صنم « ماحوم » مصنوعا من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء . أما أُغنية رولان التي تصوّر فرسان شارلمان يحطّمون الأوثان الإسلامية فتزعم أن مسلمي الأندلس يعبدون ثالوثا مكوّنا من تْرَفاجان وماهوم وأبولّون . وتحسب « قصة محمد » أن الإسلام يبيح للمرأة تعدّد الأزواج ! .

"وقد ظلّت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة . فمنذ رُودُلْف دُلُوهَيْم إلى وقتنا الحاضر قام نِيكُولَادِكيز، وفِيفِس، ومَرَاتْشِي، وهُوتِّنْجَر وبِبْليَانْدر، وپرِيدو وغيرهم فوصفوا محمدا بأنه دجّال، والإسلام بأنه مجموعة

(١) راجع كتاب درمنجم (حياة محمد) ص ١٣٥ وما بعدها .

قد عرف منهم قدّيسين احتذَوْا فى حياتهم مثال السيّد المسيح والحواريين ، فإن التاريخ أيضا قد عرف أن حياة أمم الغرب كانت أبدًا حياة نضال وكفاح وحروب دامية باسم السياسة أو باسم الدين ، وعرف أن بابوات الكنيسة وأرباب السلطة الزمنية كانوا فى نزاع دائم يغالب بعضهم بعضا ، فيتغلّب هذا يوما ويتغلّب ذاك يوما آخر . ولما كان الفوز فى القرن التاسع عشر قد تم للسلطة الزمنية ، حاولت هذه السلطة أن تقضى على الحياة الروحية باسم العلم ، وأن تزعم أن العلم سيحل من الحياة الإنسانية محل الإيمان من الحياة الروحية . وها هى ذى عرفت اليوم ، بعد جهاد طويل ، سوء رأيها وأن ما قصدت اليه مستحيل تحقيقه . والصيحة تعلو اليوم من جوانب الغرب المختلفة يريد أهلُه حياةً روحيّة أضاعوها ، فهم يتلمّسونها فى الثيوزوفيّة وغير الثيوزوفية[١] . ولو أن المسيحية كانت تلائم غرائز الكفاح التى تنشأ بحكم الطبيعة بجزء من حياة أهل الغرب لرأيتهم ، وقد شعروا بعجز الفكرة الماديّة عن أن تُلهمهم المدد الروحىّ ، يعودون إلى الدين المسيحى الجميل دين عيسى بن مريم ، إن لم يهدِهم الله إلى الإسلام ، ولمّا كانوا فى حاجة إلى هذه الهجرة إلى الهند وإلى غيرها يستمدون منها حياةً روحية يشعر الإنسان بالحاجة اليها حاجته إلى التنفّس ، لأنها بعض طبعه ، بل لأنها بعض نفسه وكيانه .

الاستعمار والدعوة ضد الإسلام

وقد عاون الاستعمار الغربىّ أهله على الاستمرار فى الحملة التى أثاروها على الإسلام وعلى محمد ، ودعاهم ليقولوا ما قال أهل مكة حين أرادوا أن يحمِّلوا النصرانية عار

(١) الثيوزوفية مذهب استنبطته مدام بلافاتسكى الأمريكية من أديان الهند ، ومن البوذية والبرهمية منها بنوع خاص ، ودعته دين الحكمة . وقد تأسست لهذا المذهب جمعية فى أمريكا كانت مدام بلافاتسكى رئيستها وتأسست فروع لهذه الجمعية فى بلاد أوربا المختلفة . على أن مدام بلافاتسكى ما كادت تموت حتى انقسمت الجمعية الثيوزوفية إلى ثلاث شعب . ومذهب هذه الجمعية يقوم على وحدة الحياة و يدعو إلى نوع من الرياضة الصوفية لبلوغ الروح مرتبة (النرفانا) البوذية . وهذه المرتبة يبلغها صاحبها حين يصل من رياضته الى الفصل التام بين الروح والتأثر بماديات الحياة ، وحين تسمو الروح بذلك الى مكان من القدسية والطهر تتصل فيه بالأرواح العليا . ومذهب الثيوزوفية يدعو كذلك الى إخاء الإنسانية إخاء عاما تزول معه فوارق الجنس واللغة وكل ما يعتبره الناس عوائق دون هذا الإخاء .

سبب الخصومة بين الإسلام والمسيحية

يجب لذلك أن نبحث عن السبب الذى ترجع اليه هذه الخصومة الهوجاء وهذه الحرب العنيفة التى تثيرها المسيحية على الإسلام . وعندنا أنّ جهل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبى فى مقدّمة ما يدعو إلى هذه الخصومة . والجهل ولا ريب من أعقد أسباب الجمود والتعصب وأشدّها استعصاء . ولقد تراكم هذا الجهل على مرّ القرون وقامت له فى نفوس الأجيال تماثيل وأوثان يحتاج تحطيمها إلى قوّة روحية كبرى كقوّة الإسلام أوّل ظهوره . على أنا نحسب أن ثمة سببًا غير الجهل هو الذى دفع أهل الغرب إلى هذا التعصب و إلى إثارة الحرب الضروس الشعواء التى أثاروها ويثيرونها على الإسلام وعلى المسلمين آنا بعد آن . وليس ينصرف ذهننا الى ما قد يدور بالخاطر من صروف السياسة وحب الظَّفَر بالشعوب لاستغلالها . فتلك فى اعتقادنا نتيجة وليست سببا لهذا التعصب المستعصى حتى على العلم وعلى بحوثه . أمّا السبب فى رأينا فيرجع الى أن المسيحية وما تدعو اليه من الزهد فى الحياة واعتزال العالم ومن العفو والمغفرة ومن المعانى النفسانية السامية ليست مما يلائم طبيعة الغرب الذى عاش ألوف السنين على دين تعدّد الآلهة ، والذى يدعوه مركزه الجغرافى الى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير والضنك وسوء الحال . فاذا قضت الظروف التاريخيّة عليه بأن يدين بالمسيحية فلا مفرّ له من أن يسبغ عليها ثوب الكفاح، وأن يخرجها بذلك عن طبيعتها السمحة الجميلة ، وأن يفسد فيها هذا التناسق الروحى الذى يجعل منها حلقة فى سلسلة الوحدة التى أتمّها الاسلام : هذه الوحدة التى تؤاخى بين الروح والجسد وتزاوج بين العاطفة والعقل، وتسلك الفرد والإنسانية جميعا فى نظام الكون على أنهما بعض منه متّسق وإيّاه فى لا نهاية الزمان والمكان . هذا فى رأينا هو مرجع السبب فى تعصّب الغرب فى موقفه من الإسلام موقفا تجافت الحبشة المسيحية عنه حين احتمى المسلمون بها أوّل ما دعا النبى الى دين الله .

الجهل والتعصب

المسيحية لا تلائم طبيعة الغرب

والى هذا السبب فى رأيى يرجع إغراق الغربيين وغلوهم فى التدّين وفى الإلحاد جميعا إغراق تعصب وكفاح لا يعرف الهوادة ولا يعرف التسامح. واذا كان التاريخ

الجمود والاجتهاد عند المسلمين

ولقد قام بعض علماء المسلمين فى ظروف مختلفة فحاولوا إدحاض مزاعم أولئك المتعصبين من أبناء الغرب . واسم الشيخ محمد عبده هو أنصع الأسماء فى هذا الصدد . لكنهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التى زعم أولئك الكتّاب والمؤرخون الأوربيون أنهم يسلكونها ، لتكون لحجتهم قوتها فى وجه خصومهم . ثم إن هؤلاء العلماء المسلمين ، والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم ، قد اتُّهموا بالإلحاد والكفر والزندقة ، فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الإسلام . ولقد كان اتّهامهم هذا عميق الأثر فى نفوس شباب المسلمين المتعلمين . شعر هؤلاء الشبّان بأن الزندقة تقابل حكم العقل ونظام المنطق فى نظر جماعة من علماء المسلمين ، وأن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد ، كما أن الإيمان قرين الجمود . لذلك جزِعت نفوسهم وانصرفوا يقرءون كتب الغرب يلتمسون فيها الحقيقة ، اقتناعا منهم بأنهم لن يجدوها فى كتب المسلمين . وهم لم يفكّروا فى كتب المسيحية والتاريخ المسيحى بطبيعة الحال ؛ إنما فزِعوا الى كتب الفلاسفة يتلمّسون فى أسلوبها العلمى رِىّ ما فى نفوسهم من ظمأ مُحرِق للحق ، وفى منطقها ضياءً للجَذْوة المقدّسة الكمينة فى النفس الإنسانية ، ووسيلةً الى الاتصال بالكون وحقيقته العليا . وهم واجدون فى كتب الغرب ، سواء منها كتب الفلسفة وكتب الأدب الفلسفى وكتب الأدب نفسه ، الشىء الكثير مما يغرى الإنسان بالأخذ به ، لروعة أسلوبها ودقة منطقها وما يظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجّه الى المعرفة ابتغاء الحق . لذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها ، حرصًا منهم على ألا تثور بينهم وبين الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها ، ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحى بين الإنسان وعوالم الكون اتصالًا يرتفع به الإنسان الى أرقى مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية .

أثر الجمود فى الشباب

اِنصرف هؤلاء الشبان عن التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها . وزادهم انصرافا ما رأوا العلم الواقعىّ والفلسفة الواقعية (الوضعية) يقررانه من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل فى حيز التفكير العلمى ،

هزيمة هرقل والروم أمام فارس . فقـد قالوا ولا يزال الكثيرون منهـم يقولون إن الإسـلام هو السبب فى انحطاط الشعوب الآخذة به وفى خضوعهم لغيرهم . وهذه فرية يكفى لإدحاضها أن يذكر قائلها أن الشعوب الإسلامية ظلّت صاحبة الحضارة الغالبة وصاحبـة السيادة على العـالم المعروف كله قرونا متواليـة ، وأنهـا كانت محطّ رحال العلم والعلمـاء وموئل الحرية التى لم يعرفها الغرب إلا من أمد قريب . فاذا أمكن أن يُنسب انحطاط طائفة من الشعوب إلى الدين الذى يؤمن به أهلها فلا يكون هذا الدين هو الإسلام، وهو الذى حفَز بدو شبه جزيرة العرب وأثارهم ومكّن لهم من حكم العالم .

الإسلام وما صـارت اليـــه الشـــعوب الإسلامية

على أن لهؤلاء الذين يُحمِّلون الإسلام وِزْر انحطاط الشعوب الإسلامية من العذر أن أضيف إلى دين الله شىء كثير لا يرضاه الله ورسـوله ، واعتبر من صُلْب الدين ورُمى من ينكره بالزندقة . وندع الدِّين جانبا ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام . فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبي مالا يصدّقه العقل ولا حاجة إليـه فى ثبوت الرسالة . وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه المستشرقون واعتمد عليه الطاعنون على الإسـلام ونبيّه وعلى الأمم الإسـلامية واتخذوه تُكَأتهم فى مطاعنهم المثيرة لنفس كل منصف . اِعتمدوا عليـه وعلى ما ابتدعوه من عندهم وما زعموا أنهم يكتبونه على الطريقـة العلمية الحديثة، هـذه الطريقة التى تعرِض الحوادث والناس والأبطال فتُصدر بعد ذلك حكمها عادلًا إن هى رأت لإصدار حكم محلّا . فاذا أنت وقفت عنـد ما كتبه هؤلاء رأيته تُمليه شهوة الجـدل والتجريح مصوغًا فى عبارة لا تخلو من براعة تستهوى إخوانهم فى العقيدة إلى الظن بأن البحث العلمى المجرّد النّزاع إلى الحقيقة وحدها يريد أن يستشفّها من وراء كل الحجب ، هو الذى وجّه هؤلاء المتعصّبين من الكتّاب والمؤرخين . على أن السكينة التى يُنزلهـا الله على نفوس الراضين من الناس ، كُتّابا وعلماء ، قـد أدّت بآخرين من أحرار الفكر ومن المسيحيين ليكونوا أدنى الى العدل وأحرص على النَّصَفة .

وعقلى يجب أن يتمثله الوارثون ، وأن يضيفوا اليه وأن يزيدوا سَنَا ضيائه بما يزيد الحقيقة الكامنة فيه ضياء ونورا .

وقد توفّر منهم كثيرون على هذه البحوث يقومون اليوم بها على الطريقة العلمية الصحيحة، والمستشرقون أنفسهم يقدرون لهم ذلك ويُشيدون بفضلهم فيه .

المبشرون والجامدون

وبينا يقوم هذا التعاون العلمى الجديد بأن يُؤتِى خير الثمرات، إذا بنشاط رجال الكنيسة المسيحية لا يفتُر فى الطعن على الإسلام وعلى محمد طعناً لا يقل عما تلوت منه فيما سبقت الإشارة اليه . والاستعمار الغربى يؤيّد بقوّته أصحاب هذه المطاعن باسم حرية الرأى، مع أن أصحاب هذه المطاعن قد أُجْلُوا عن بلادهم وحِيل بينهم وبين ما يسمّونه تثبيت الإيمان فى نفوس إخوانهم فى الدين . وهذا الاستعمار يؤيّد كذلك دعاة الجمود من المسلمين . وكذلك تضافر عمل الاستعمار على تأييد ما دُسّ على الإسلام مما يبرأ الإسلام منه، وعلى سيرة الرسول من خرافات لا يُسيغها العقل ولا يقبلها الذوق ، وعلى تأييد الطاعنين على الإسلام وعلى محمد بما دُسّ على الإسلام وعلى سيرة الرسول .

كيف فكرت فى وضع هذا الكتاب

أتاحت لى ظروف حياتى العملية أن أرى ذلك كله فى مختلف بلاد الشرق الإسلامى ، بل فى البلاد الإسلامية كلها ، وأن أتبيّن ما يُقْصَد اليه من القضاء على الروح المعنوية فى هذه البلاد بالقضاء على حرية الرأى وحرية البحث ابتغاءَ الحقيقة. وقد شعرت بأن علىّ واجباً أقوم به فى هذا الموضوع لإفساد الغاية التى ترمى هذه الخطة اليها، والتى تضرّ الإنسانية كلها ولا يقف ضررها عند الاسلام والشرق . وأىّ أذًى يصيب الإنسانية أكبر من العُقْم والجمود يصيب نصفها الأكبر والأعرق فى الحضارة على حِقَب التاريخ . ولذلك فكرت فى هذا وأطلت التفكير، وهدانى تفكيرى آخر الأمر الى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الإسلامية وهدف مطاعن المسيحية من ناحية، وجمود الجامدين من لمسلمين من الناحية الأخرى ، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة، خالصةً لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده .

وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدى (الميتافيزيقى) ليس هو أيضا من الطريقة العلمية فى شىء . ثم إنهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحا صريحا فى البلاد الغربية، ورأوا البلاد التى تقرر دساتيرها أن مَلِكها هو حامى البروتستنتية أو الكثلكة، أو تقرر أن دين الدولة الرسمى المسيحية، لا تقصد من ذلك الى أكثر من مظاهر الأعياد والمواسم وما يتصل بها؛ فآزدادوا انخراطًا فى هذا التفكير العلمى وحرصًا على الأخذ منه ومما يتصل به من فلسفة وأدب وفن بأوفر نصيب . فلما آن لهم أن ينتقلوا من الدرس الى الحياة العملية، شغلتهم هذه الحياة عن التفكير فى المسائل التى انصرفوا من قبلُ عن التفكير فيها، وظل اتجاههم الفكرى فى تيّاره الأوّل ينظر الى الجمود العقلى مشفقا مزدريًا ، وينهَل من وِرد التفكير الغربى والفلسفة الغربية ، فيجد فيهما لذةً ويزداد بهما إعجابا وعلى ما نَهل صَدْرَ شبابه منهما حرصا . (علم الغرب وأدبه)

وليس ريب فى أن الشرق اليوم فى حاجة أشدّ الحاجة الى النَّهَل من ورد الغرب فى التفكير وفى الأدب والفن . فقد قطع ما بين حاضر الشرق الإسلامى وماضيه قرون من الجمود والتعصّب غَشَّت على تفكيره السليم القديم بطبقة كثيفة من الجهل وسوء الظن بكل جديد . فلا مفرّ لمن يريد أن يصهر هذه الطبقة من الاستعانة بأحدث صور التفكير فى العالم، ليستطيع من هذه السبيل أن يصل بين الحاضر الحىّ وثروة الماضى وتراثه العظيم .

ومن الحق علينا للغرب أن نقول : إن ما يقوم به علماؤه اليوم من بحوث نفيسة فى تاريخ الدراسات الإسلاميّة والدراسات الشرقيّة قد مهّد لأبناء الإسلام وأبناء الشرق أن يتّزيدوا من هذه البحوث فى تلك الدراسات وأن يكونوا أكبر رجاءً فى الاهتداء الى الحق . فهم أقرب بطبعهم الى حسن إدراك الروح الإسلامى والروح الشرقىّ . وما دام التوجيه الجديد قد بدأ فى الغرب ، فواجب عليهم أن يتابعوه وأن يصححوا أغلاطه وأن يبثّوا فيه الروح الصحيح الذى يعيده الى الحياة ويصله بالحاضر، لا على أنه مجرّد دراسة وبحث ، بل على أنه ميراث روحى (جهود التجديد الإسلامى)

وفى كتب التفسير نفسها أشياء جديرة بمراجعة العلماء المتبحّرين فى علوم الكتاب والسنة وتحقيقهم إياها من جديد تحقيقا دقيقا .

المشورة الصادقة

ولمّا تقدّم بى البحث بعض الشىء ألفيت المشورة الصادقة تصل إلىّ من كل صوب ، ومن ناحية الشيوخ أكثر من كل ناحية أخرى بطبيعة الحال . وكانت المعونة الكبرى معونة دار الكتب المصرية ورجالها الذين أمدّونى من ألوان المعونة بما لا يفى الشكر بحسن تقديره . ويكفى أن أذكر أن الأستاذ عبد الرحيم محمود المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب كان يكفينى مؤونة الذهاب الى الدار فى كثير من الأحيان ويستعير لى ما أريد استعارته من الكتب مشمولا بعطف مدير الدار وكبار القائمين بالأمر فيها ، وأن أذكر أنى فى كل مرة ذهبت الى الدار كنت أجد أجمل العون فى البحث عما أريد البحث فيه من موظّفى الدار كبارًا وصغارا ، مَنْ عرفتُ منهم ومن لم أعرف . ثم إنه كانت تستغلق علىّ بعض المسائل أحيانا فأُفضى إلى من آنس فيه المعرفة من أصدقائى بما استغلق علىّ فأجد فى كثير من الأحيان خير العون . وجدتُ ذلك غير مرّة عند الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، ووجدته عند صديقى الضليع جعفر باشا ولى الذى أعارنى عدّة كتب كصحيح مسلم وتواريخ مكة ، ودلنى على غير مسألة من المسائل وهدانى الى مواضعها . وقد أعارنى صديقى الأستاذ مكرم عبيد كتاب المستشرق السير وليم مُوير "حياة محمد" وكتاب الأب لامَنْس "الإسلام" . هذا الى ما وجدت من عونٍ فى مؤلّفات المعاصرين القيّمة ككتاب "فجر الإسلام" للأستاذ أحمد أمين ، و"قصص الأنبياء" للأستاذ عبد الوهاب النّجار ، و"فى الأدب الجاهلى" للدكتور طه حسين ، و "اليهود فى بلاد العرب" لإسرائيل وِلْفِنْسُنْ ، وغير هذه من كتب المعاصرين كثير ذكرته فى بيان المراجع القديمة والحديثة التى استعنت بها على وضع هذا الكتاب .

ولقد كنت كلما ازددت توسُّعًا فى البحث أرى مسائل تنجم أمامى وتستدعى التفكير ومزيدًا من البحث لحلّها . وكما عاونتنى كتب السيرة وكتب التفسير فى الاهتداء

بدأت أُراجع تاريخ محمد، وأُعيد النظر فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ومغازى الواقدىّ، وعدتُ الى كتاب سيد أمير على (روح الإسلام) . ثم حرَصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين ، فتلوت كتاب دِرْ مِنْجِم وكتاب واشنطن إرفِنْج، ثم انتهزت فرصة وجودى فى الأقصر فى شتاء سنة ١٩٣٢ وبدأت أكتب. ولقد تردّدت يومئذ فى أن أجعل البحث الذى أُطالع قرائى به من وضعى أنا خيفة ما قد يقوم به أنصار الجمود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تُفسد علىّ ما أريد . لكن ما لقيت من إقبال وتشجيع من طائفة شيوخ المعاهد ، وما أبدى لى بعضهم من ملاحظات تدل على العناية بالبحث الذى أقوم به ، جعلنى أفكر تفكيرا جِدّيًّا فى إنفاذ ما اعترمت من كتابة حياة محمد على الطريقة العلمية الصحيحة كتابة مفصّلة، ودعانى الى التفكير فى أمثل الوسائل لتمحيص السيرة تمحيصا علميًّا جهد ما أستطيع .

القرآن أصدق مرجع

ولقد تبيّنت أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم . فإن فيه إشارة الى كل حادث من حياة النبىّ العربى يتخذها الباحث منارًا يهتدى به فى بحثه ويمحص على ضيائه ماورد فى كتب السنّة وما جاء فى كتب السِّيرة المختلفة . وأردت جاهدا أن أقف على كل ما ورد فى القرآن متصلًا بحياة النبى، فاذا معونةٌ صادقة فى هذا الباب يقدّمها إلىّ الأستاذ أحمد لطفى السيّد الموظف بدار الكتب المصرية ، هى مجموعة وافية مبوّبة لآيات القرآن المتصلة بحياة من أُوحى الكتاب الكريم إليه . ورحت أدقّق فى هذه الآيات ، فرأيت أن لا بدّ من الوقوف على أسباب نزولها وأوقات هذا النزول ومناسباته . وأعترف بأنى، على ما بذلتُ فى ذلك من جهد ، لم أوفّق لكل ما أردت منه . فكتب التفسير تشير أحيانا اليه وتُهمل هذه الإشارة فى أكثر الأحايين . ثم إن كتاب "أسباب النزول" للواحدى، وكتاب "الناسخ والمنسوخ" لابن سلامة ، إنما تناولا هذا الموضوع الجليل الجدير بكل تدقيق واستيفاء تناولًا موجزا . على أننى وقفت فيهما وفيما رجعت إليه من كتب التفسير على مسائل عدّة استطعت أن أمحص بها ما ورد فى كتب السيرة ، ووجدت فيهما

فى كتب العلمـاء المستشرقين واضحين جليين . عقد كارْليـل فى كتابه « الأبطال » فصلًا عن محمد صوّر فيـه الجَذْوة الإلٰهيـة المقدّسة التى أوحت الى محمد ما أوحت، فصوّر العظمة فى جلال قوّتها . وموير، وإرْفنْج، وسبرِنْجر، وڤيـل، وغيرهم من المستشرقين العلمـاء قد صوّر كل واحد منهم عظمة محمد تصويرا قويًّا، وإن وقف هذا أو ذاك منهم عنـد مسائل اعتبرها مآخذ على صاحب الرسالة الإسلامية، لغير شىء إلا أنه لم يمتحنها ولم يمحِّصها التمحيص العلمىّ الدقيق، ولأنه اعتمد فيهـا على ما ورد فى بعض كتب السِّـيرة أو كُتب التفسير من الروايات المضطربة ، متناسيًا أن أوّل كتب السِّيرة إنمـا كُتب بعد قرنين من عصر محمد دُسّت أثناءهما فى سيرته وفى تعاليمه إسرائيليات كثيرة، ووضعت أثناءهما ألوف الأحاديث المكذوبة . ومع أن المستشرقين يقرِّرون هذه الحقيقة ، تراهم لا يأبون مع ذلك تناسيها ليقرِّروا أمورا يعتبرونهـا صحيحة مع أن أقل التمحيص ينفيها . من ذلك مسألة الغرانيق، ومسألة زيد وزينب ، ومسألة أزواج النبىّ ، ممـا أُتيح لى امتحانه وتمحيصـه فى هذا الكتاب .

الكتاب بداء البحث

لست مع ذلك أحسبنى أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد . بل لعلّى أكون أدنى الى الحق اذا ذكَرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة العلمية الحديثة ، وأن ما بذلت فى هذه السبيل من مجهود لا يُخرج هـذا الكتاب عن أنه بداءة البحث من ناحية علمية إسلامية فى هذا الموضوع الجليل . واذا كان جماعة من العلماء والمؤرخين قد انقطعوا لبحث عصر من العصور، كما انقطع أُولارْ فى فرنسـا لبحث عصر الثورة الفرنسية، وكما انقطع غيره من العلمـاء لبحث عصر أو عصور معيّنة من التـاريخ فى مختلف الأمم ، فحياة محمد جديرة بأن ينقطع لبحثها على طريقة علميـة جامعية أكثر من أسـتاذ يتخصص فيها ويتوفّر عليها . وليس يساورنى شـك فى أن الانقطاع والبحث العلمىّ فى هـذه الفترة القصيرة من حياة بلاد العـرب واتصالهـا بحياة الأمم المختلفـة فى ذلك العصر ، تؤتى نتائجـه العالم كله ، لا الاسـلام والمسلمين وحدهم ، خير الثمرات . فهى تجلو أمام العـلم كثيرا

إلى غاية من تفكيرى أطمئن اليها ، عاونتنى كذلك كتب المستشرقين فى الاهتداء الى غاية أطمئن اليها . على أنى رأيتنى مضطرًّا فى كل المواقف لأقصر بحثى فى حدود حياة محمد نفسه ما لم أضطر الى تناول مسائل أخرى متصلة بهذا البحث اضطرارا . ولو أنى أردتُ أن أبحث كل ما اتصل بهذه الحياة الفيّاضة العظيمة ، لاحتاج الأمرُ الى وضع مجلدات عدّة فى حجم هذا الكتاب . ويحسُن أن أذكر أن كُوسَّانْ دِبِرسْفال وضع ثلاثة مجلّدات بعنوان « رسالة فى تاريخ العرب » جعل المجلّدين الأوّلين منها فى تاريخ قبائل العرب وحياتها ، وجعل الثالث عن محمد وخليفتيه الأوّلين أبى بكر وعمر . وطبقات ابن سعد تقع فى مجلّدات كثيرة يتناول جزؤها الأوّل حياة محمد ، وسائر أجزائها حياة أصحابه . ولم يكن غرضى أوّل ما بدأت البحث ليتجاوز حياة محمد ، فلم أُرِد أثناءه أن أتركه يتشعّب فيحول ذلك بينى و بين الغاية التى إليها قصدت .

في حدود السيرة لا أتعدّاها

وشيء آخر كان يُمسكنى فى حدود هذه الحياة ؛ ذلك روعة جلالها و باهر ضيائها جلالًا وضياءً يتوارى دونهما كل ما سواهما . فما كان أعظم أبا بكر ! وما كان أعظم عمر ! إذ كان كل منهما فى خلافته عَلَماً يحجب سواه ! وما أشدّ ما كان للسابقين الأوّلين الى صحبة محمد من عظمة ثبتت على الأجيال وهى بعدُ مما تفاخر به الأجيال ! لكن هؤلاء جميعا كانوا يستظلّون أثناء حياة النبيّ بجلال عظمته و يستضيئون بباهر لألائه . فليس من اليسير على من يبحث فى سيرة الرسول أن يدعها لشيء سواها . وهو أشد شعورا بذلك إذا تناول البحث على الطريقة العلمية الحديثة على نحو ما حاولت أن أفعل ، هذه الطريقة التى تجلو عظمة محمد على نحو يبهر العقل والقلب والعاطفة جميعا و يغرس فيها من الإجلال للعظمة والإيمان بقوّتها ما لا يختلف فيه المسلم وغير المسلم .

وأنت اذا طرحت جانبًا أولئك المتعصّبين الحمق الذين جعلوا النيل من محمد دأبهم كالمبشرين وأشباههم ، فإنك واجدٌ هذا الإجلال للعظمة والإيمان بقوّتها

كما أنه مهدّد اليوم بالوقوف دون إسعاد الإنسانية . ولا سبيل الى درك هذه السعادة إلا العود إلى حسن إدراك هـذه الصلة الذاتية بالوجود وخالق الوجود فى وحدته التى لا تتغيّر سننها ولا يعتبر للزمان أو المكان فيها إلا وجود نسبى لحياتنا القصيرة . وحياة محمد هى لا ريب خير مثل لدراسة هذه الصلة الذاتية دراسةً علمية لمن أراد، ودراسةً عمليـة لمن تؤهله مواهبـه أن يحاول هذا الاتصال فى مراتب أوّليـة لبعد ما بينه و بين الصـلة الإلٰهيّة التى أفاء الله على رسـوله . وأكبر ظنّى أن هاتين الدراستين خليقتان يوم يُتاح لهما التوفيق أن تُنقذا عالمنا الحاضر من وثنية تورط فيها على اختلاف عقائده الدينية أو العلمية، وثنية جعلت المـال وحده معبودا، وسخّرت كل ما فى الوجود من علم وفن وخُلق ومواهب لعبادته والتسبيح بحمده .

قد يكون هـذا التوفيق ما يزال بعيدا . لكن طلائع القضاء على هذه الوثنية التى تتحكم فى عالمنا الحاضر، وتوجّه الحضارة الحاكمة فيـه ، تبدو واضحة لكل من تتبع سيرة العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العلم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد النبي وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التى انتشرت فى العالم أثرا من آثاره . وإذا أتاحت الدراسة العلمية والدراسة الذاتية لقوى الإنسانية الكمينة مزيدًا من اتصال بنى الإنسان بحقيقة الكون العليا، كان ذلك الحجر الأوّل فى أساس الحضارة الجديدة .

وهـذا الكتاب ليس إلا محاولة بدائية فى هـذه السبيل كما قدّمت . وبحسبى أن يُقنع هـذا الكتاب الناس بمـا فيـه ، وأن يُقنع العلماء والباحثين بضرورة الانقطاع والتخصص لبلوغ الغاية من بحث موضوعه . ولو أنه أثمر أياً من هذين الأثرين أو كليهما لكان ذلك أكبر جزاء أرجو عن المجهـود الذى بذلت فيـه .

والله يجزى المحسنين

محمد حسين هيكل

من المسائل النفسيّة والروحية، فضلًا عما تفيض عليه من ضياء فى نواحى الحياة الاجتماعية والخُلقية والتشريعية، لا يزال العلم يتردد أمامها متأثّرا بهذا النزاع الدينى بين الإسلام والنصرانية، وبهذه المحاولات العقيمة التى يُقصد منها إلى « تغريب » الشرقيين أو تنصير المسلمين مما ثبت على الأجيال إخفاقه واستحالته وسوء أثره فى علاقات أجزاء الإنسانية المختلفة بعضها ببعض.

فائدة البحث إنسانية عامة

وأذهب الى أبعد مما تقدّم فأقول: إن هذا البحث جدير بأن يهدى الإنسانية طريقَها الى الحضارة الجديدة التى نتلمّسها. واذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد فى الإسلام ورسوله وتشيم هذا النور فى ثيوزوفية الهند وفى مختلف مذاهب الشرق الأقصى، فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى جميعا خليقون أن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والإنصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول الى الحق. فالتفكير الإسلامىّ — على أنه تفكير علمى الأساس على الطريقة الحديثة فى صلة الإنسان بالحياة المحيطة به، وهو من هذه الناحية واقعى بحت — ينقلب تفكيرا ذاتيا حين يتصل الأمر بعلاقة الإنسان بالكون وخالق الكون، ويُبدع لذلك فى النواحى النفسية والنواحى الروحية آثارا قد يقف العلم بوسائله حائرًا أمامها، لايستطيع أن يُثبتها ولا أن ينفيها، وهو لذلك لا يعتبرها حقائق علمية، ثم هى تظل مع ذلك قِوام سعادة الإنسان فى الحياة ومقوِّمة سلوكه فيها. فما الحياة؟! وما صلة الإنسان بهذا الكون؟ وما حرصه على الحياة؟! وما هى العقائد المشتركة التى تبعث فى الجماعات القوّة المعنوية التى تضمحل بضعف هذه العقائد المشتركة؟! وما الوجود؟! وما وحدة الوجود؟! وما مكان الإنسان من الوجود ووحدته؟! هذه مسائل خضعت للمنطق التجريدىّ ووجدت منه أدبا مترامى الأطراف. لكنك تجد حلّها فى حياة محمد وتعاليمه أدنى لتبليغ الناس سعادتهم من هذا المنطق التجريدى الذى أفنى فيه المسلمون قرونا منذ العهد العباسى، وأفنى فيه الغربيون ثلاثة قرون منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر مما انتهى بالغرب الى العلم الحديث على نحو ما انتهى بالمسلمين فيما مضى، ثم وقف العلم فى الماضى

تقديم الطبعة الثانية

نفدت طبعة هذا الكتاب الأولى بأسرع من كل ما قدّر لها . فقد صدر منها عشرة آلاف نسخة نفد ثلثها بالاشتراك فى الكتاب أثناء طبعه، ونفد سائرها خلال ثلاثة أشهر من صدوره . ولقد دل الإقبال على اقتناء هذا الكتاب على عناية القرّاء بالبحث الذى يحتويه . لذلك لم يكن بدّ من التفكير فى إعادة طبعه، وفى إعادة النظر فيه .

وموضوع الكتاب هو السبب الأوّل فى الإقبال عليه لا ريب . ولعل الطريقة التى عولج الموضوع بها كانت ذات أثر فى الإقبال عليه كذلك . وأيًّا كان السبب فقد سألت نفسى حين فكرت فى أمر الطبعة الثانية : أفأعيدها صورة من الطبعة الأولى لا أزيد فيها ولا أنقص منها ؛ أم أرجع اليها بالتنقيح والزيادة والتصحيح فيما يتضح لى ضرورة تصحيحه أو تنقيحه أو الزيادة عليه ؟ . ولقد أشار علىّ بعض من أقدُر مشورتهم أن أجعل الطبعة الثانية صورة من الطبعة الأولى كيما تتحقق المساواة بين الذين يقتنون أيًّا من الطبعتين، ولكى يتسع لى زمن المراجعة والتنقيح فيما بعد هذه الطبعة الثانية . وكدت آخذ بهذا الرأى . ولو أننى فعلت لكانت هذه الطبعة فى أيدى القرّاء منذ أشهر . غير أنى تردّدت فى الأخذ بهذه المشورة ثم انتهيت الى ضرورة التنقيح والزيادة لاعتبارات شتّى . وكان أوّل هذه الاعتبارات بعض ملاحظات تفضل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى بابدائها لى حين أطلعته على ما تم طبعه من الكتاب قبل ظهور طبعته الأولى فتفضل بوضع التعريف الذى صدّرت الكتاب به . فلما ظهر الكتاب تفضل بعض الكتّاب والعلماء بالتنويه به فى الصحف والمجلات وعن طريق الإذاعة وأبدَوْا ما عنّ لهم من الملاحظات عليه . وقد أبديت هذه الملاحظات جميعا بعد الثناء الجمّ على مجهود بذلته لست

ملاحظات على الكتاب

تناولت فيهما أمورا مررت بموضوعها لِماماً فى خاتمة الطبعة الأولى ، كما أنى نقّحت وأضفت فى تضاعيف الكتاب ما رأيت تنقيحه أو إضافته بعد الذى هدتنى اليه مراجعاتى وتأملاتى و إجابة لأصحاب الملاحظات عن ملاحظاتهم .

أنصار المستشرقين والرد عليهم

وفى مقدّمة ما أتناوله بالتفنيد رسالة وردت إلىّ من كاتب مصرى ذكر أنها ترجمة عربية لمقال بعث به الى مجلة المستشرقين الألمانية نقداً لهذا الكتاب . ولم أنشر هذه الرسالة فى الصحف العربية لأن بها مطاعن لا سند لها؛ ولذلك تركت لصاحبها أن يحتمل تبعة نشرها إن شاء . ولم أر أن أذكر اسمه فى هذا التقديم اقتناعا منى بأنه سيعدل عن نسبتها اليه بعد أن يقرأ تفنيدها هنا . وخلاصة هذه الرسالة أن البحث الذى قمت به فى "حياة محمد" ليس بحثا علميا بالمعنى الحديث ؛ لأننى اعتمدت فيه على المصادر العربية وحدها ، ولم أرجع الى مباحث المستشرقين الألمان من أمثال "ڤيل" و"جولد زهر" و" نولدكى " وغيرهم ، ولم آخذ بنتائج هذه البحوث؛ ولأننى اعتبرت القرآن وثيقة تاريخية لا محل لريبة فيها ، مع أن مباحث هؤلاء المستشرقين تدل على أنه حرّف و بدّل بعد وفاة النبي وفى الصدر الأول للاسلام ، واسم النبي بعض ما بدّل فيه ؛ فقد كان اسمه " قثم" أو "قثامة" ثم أبدل من بعد وصار "محمدا" ليتسنى وضع الآية : "ومُبَشِّرًا برسولٍ يأتى مِنْ بَعْدِى اسمُه أحمدُ" إشارة الى ما جاء فى الإنجيل عن النبي الذى يجىء بعد عيسى. و يضيف الكاتب الى أقواله هذه أن بحوث المستشرقين دلت كذلك على أن النبي كان يصاب بالصرع ، وأن ما كان يسميه الوحى الذى ينزل عليه إنما كان أثرا لنوبات الصرع التى كانت تعتريه ، وأن أعراض الصرع كانت تبدو على محمد فكان يغيب عن صوابه ،ويسيل منه العرق، وتعتريه التشنّجات، وتخرج من فيه الرّغوة ، فاذا أفاق من نوبته ذكر أنه أُوحى اليه وتلا على المؤمنين به ما يزعم أنه من وحى ربه .

ما يؤاخذوننى به

لم أكن لأعنى بهذه الرسالة ولا بتفنيد ما فيها لولا أن كاتبها مصرى مسلم . ولو أنه كان مستشرقا أو مبشرا لتركته ملقًى حبله على غاربه يقول ما تمليه عليه

أحسبه جديرا بكل هذا التقدير، وأبديت حرصا على ألّا تشوب كتابا عن النبيّ العربى هنة من الهنات ما دام مؤلفه قد وفّق فى وضعه توفيقا أرضاهم ونال تقديرهم. لذلك لم يكن بدّ من أن أعير هذه الملاحظات ما هى جديرة به من عظيم العناية.

ولعل هذا الرضا والتقدير هما اللذان جعلا طائفة من هذه الملاحظات ترد على مسائل كمالية لا تتصل بجوهر الكتاب، ولا بما ورد من الروايات فيه. فمنها ما يرجو أصحابه إيضاح بعض أمور رأوها فى حاجة الى الإيضاح. ومنها ما يرمى الى مزيد من التدقيق فى استعمال حروف الجرّ، أو الى اقتراح بعض ألفاظ بدل أخرى يعتقد الذين اقترحوها أنها أدق تعبيرا عن المعنى المقصود. على أن طائفة من الملاحظات انصبّت على بعض مباحث الكتاب، فدفعتنى الى مزيد من التفكير والمراجعة. ولشدّ ما أحرص على أن تكون هذه الطبعة الثانية أدنى الى إرضاء هؤلاء العلماء جميعا. وإن كنت لا أرى فى البحث كله، كما ذكرت فى تقديم الكتاب، إلا أنه بداءة بحث فى موضوعه باللغة العربية وضع على الطريقة العلمية الحديثة.

ومما أدّى بى كذلك الى تناول الطبعة الأولى بالتنقيح والزيادة، أننى عدت الى تلاوة الكتاب بعدها، بعد أن وقفت على ما أُبدى عليه من ملاحظات لم يغب أكثرها عنى أثناء وضع الكتاب، فاقتنعت بضرورة الإفاضة فى تمحيص بعض ما وردت الملاحظات عليه لإقناع أصحاب هذه الملاحظات بوجهة نظرى وصواب حجتى. وقد هدتنى مراجعاتى التى قمت بها لهذه الغاية الى مواضع للتأمل جديرة بأن يتناولها كل كاتب سيرةَ النبى العربى. ولئن اغتبطت لأننى تناولت فى الطبعة الأولى كل ما أشارت الملاحظات اليه، لأنا اليوم أشد اغتباطا بأن أفيض فى بعض المباحث إفاضة أعتبرها ضرورية فى هذه الدراسة التمهيدية لحياة أعظم إنسان عرفه التاريخ، خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام.

وقد حاولت فى هذا التقديم لطبعة الكتاب الثانية تمحيص طائفة من الملاحظات التى أُبديت على طريقة البحث فى الطبعة الأولى. وأضفت فى آخر الكتاب فصلين

هى أول من تحدّث عن حيـاة النبى العربى . فلا جرم أن تكون العمدة والأساس لكل من يريد أن يكتب سيرته بأسلوب العصر وطريقته . "ونولدكى" و"جولد زهر" و"قيـل" و"سبرنجر" و"موير" وغيرهم من المستشرقين قـد جعلوها عمدتهم فى بحثهم كما جعلتها عمدتى فى بحثى . وقد أبحت لنفسى فى تمحيصها ونقدها ما أباحوه لأنفسهم من حرية ؛ كما أننى لم أُغفـل بعض ما اعتمدوا عليه من كتب المسيحيين الأقدمين وإن أملاها التعصب الدينى للمسيحية ولم يملها النقـد العلمى بحال . فاذا لامنى لائم لأننى لم أتقيد بالنتائج التى وصل بعض المستشرقين اليها، أو لأننى أبحت لنفسى مخالفتهم ونقدهم ، فتلك دعوة الى الجمود العلمى لا تقل رجعيـة ولا تأخرا عن أية دعوة الى الجمود فى الميادين العقلية والروحية جميعا . وما أحسب أحدا من المستشرقين أنفسهـم يوافق على هـذه الدعوة الى الجمود العلمى . ولو أن أحدهم أقرّها لجاز إقرار الدعوة الى الجمود الدينى . وهذا وذاك ما لا أرضاه لنفسى ولا أرضاه لأحد ممن يريدون الاشتغال بالبحوث التاريخية على وجه علمى صحيح . إنما أعمل وأطالب غيرى أن يعمـل على تمحيص ما يقع عليـه من مباحث غيره . فإن اقتنع بها عن بينة وبعد أن يقوم لديه الدليل القاطع عليها فذاك، وإلا فليعمل من ناحيته للوصول الى الحقيقة حتى يقتنع بأنه وصل اليها . هذا ما أدعو اليه شبابنا ورجالنا المعجَبين ببحوث المستشرقين، وهذا ما فعلت . ولى أجر المصيب على ما أصبت فيه، ولى عذر الباحث عن الحقيقة مع صدق القصد فى توخى السبيل اليها اذا أخطأنى التوفيق فى شىء منها .

المستشرقون والمقررات الدينية

ومن الأدلة على تأثر بعض المستشرقين بحرصهم على هـدم المقررات الدينيـة وإسرافهم فى ذلك ما ذهب اليه كاتب الرسالة المصرى المسلم من أن مباحث هؤلاء المستشرقين تدل على أن القرآن ليس وثيقة تاريخية لا محل لريبة فيها ، وأنه حرّف بعد وفاة النبى وفى صـدر الإسلام، وأضيفت اليـه أثنـاء ذلك آيات لأغراض دينية أو سياسية . ولست أناقش صاحب الرسالة من ناحيـة إسلامية فأحاجّه ، وهو مسلم، بما يقرره الإسلام من أن القرآن كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه

أهواؤه وما تنضح به شهواته . وحسبي ما ذكرت فى تقديم الكتاب وفى تضاعيفه إدحاضا لأقوال هؤلاء وأولئك . لكن كاتب هذه الرسالة إنما هو مثل لطائفة من شبابنا ورجالنا المسلمين الذين يتلقّون كل ما يقوله المستشرقون بقبول حسن ويعتبرونه العلم الصحيح المعبر عن الحقيقة الخالصة . والى هؤلاء أوجّه القول هنا لأحذّرهم ما يقع المستشرقون فيه من خطأ . وبعض هؤلاء المستشرقين مخلص فى بحثه على رغم خطئه . لكن الخطأ يتسرب الى بحثه لعدم دقته فى إدراك أسرار اللغة العربية تارة ، ولما يشوب نفوس طائفة من هؤلاء العلماء من الحرص على هدم مقرّرات دين من الأديان ، أو على هدم مقرّرات الأديان جميعا ، تارة أخرى . وهذا وذاك إسراف كان يجمل بالعلماء أن يجتنبوه . ولقد رأينا مسيحيين دفعهم هذا الإسراف الى إنكار أن عيسى وجد على التاريخ ، ورأينا آخرين تخطّوا حدود الإسراف فكتبوا عن جنون عيسى . وإنما دعا الى هذه النزعة فى أوربا ما بين الدين والدولة من نزاع أدّى برجال العلم وبرجال الدين ، كل من ناحيته ، الى الحرص على الغلب لاقتناص السلطان والحكم . أمّا والإسلام برىء من هذا النزاع فليتق الباحثون من أبنائه سلطان هذه الشهوة التى يخضع لها رجال الغرب ، والتى تفسد على العلماء بحوثهم أكثر الأمر . ويجب عليهم لذلك أن يأخذوا حذرهم حين يطّلعون على ما يصدر عن الغرب من مباحث دينية وأن يمحصوا كل ما يصوّره العلماء على أنه حق . فالكثير منه يتأثر بمقدار غير قليل بهذا الماضى الذى جعل الخصومة متصلة بين رجال الدين ورجال العلم قرونا متوالية .

أسباب خطأ المستشرقين

وما ورد فى رسالة هذا المصرى المسلم مما لخصته هنا بالغ فى الدلالة على وجوب هذا الحذر . فأوّل ما يؤاخذنى به أننى اعتمدت على المراجع العربية والإسلامية واتخذتها أساسا لبحثى . ولست أنكر ذلك . على أننى قد رجعت الى كتب المستشرقين ممن ذكرت فى سجل المراجع . لكن المصادر العربية كانت دائما الأساس الأوّل لهذا البحث الذى قمت به . وهذه المصادر العربية كانت الأساس الأوّل كذلك لمباحث المستشرقين جميعا . وهذا طبيعى . فهذه المصادر ، وفى مقدّمتها القرآن ،

الاعتماد على كتاب السيرة من المسلمين

والذين زعموا هـذا الزعم الفاسد من المستشرقين هم قلة بين أشدّ المستشرقين تعصبا . أمّا كثرتهم فيقرّون بأن القرآن الذى نتلوه اليوم انما هو بعينه القرآن الذى تلاه محمد على المسلمين أثناء حياته، لم يحرّف ولم يبدّل . وهم يحرصـون على أن يذكروا هذا وإن أضافوا إليه من عبارات النقد للنظام الذى جُمع القرآن به ولترتيب السور فيه ما لا يدخل تمحيصه فى نطاق هذا البحث . وقد تناول المشتغلون بعلوم القرآن من المسلمين أوجه النقد هـذه ودفعوها . أمّا ما نحن الآن فى صدده فحسْبُنا فيـه أن نقتطف بعض ما ذكر المستشرقون عنـه لعله يقنع المصرى المسلم الذى نناقش هاهنا رسالته، ولعله يقنع الذين يفكرون على شاكلته .

موير ينكر هذه الفـرية

وما أورده المستشرقون من ذلك كثير نختار منه بعض ما كتبه السير وليم مْوِير فى كتابه "حيـاة محمد" ليرى هؤلاء الذين أسرفوا على التاريخ وعلى أنفسهم شـدّة ما أسرفوا حين اطمأنوا الى ما قيـل عن تحريف القرآن وتبديله . وموير مسيحى شـديد الحرص على مسيحيته والدعوة اليها ، شـديد الحرص لذلك على ألّا يدع موضعا لنقد نبىّ الاسلام وكتابه دون الوقوف عنده ومحاولة تدعيمه .

يقول سير وليم موير عند كلامه عن القرآن ودقة وصوله الينا ما ترجمته: "كان الوحى المقدّس أساس أركان الإسلام . فكانت تلاوة ما تيسر منـه جزءا جوهريا من الصلوات اليومية العامة منها والخاصة . وكان القيام بهذه التلاوة فرضا وسـنة يجزى من يؤدّيهما جزاء دينيا صالحا . ذلك كان جماع الرأى فى السُّـنَّة الأولى وهو ما يستفاد كذلك من الوحى نفسه . لذلك وعت القرآنَ ذاكرة كثرة المسلمين الأوّلين إن لم يكونوا جميعا . وكان مبلغُ ما يستطيع أحدهم تلاوته بعضَ المميزات الجوهرية فى العهد الأوّل للأمبراطورية الإسلامية . وقد يسّرت عادات العرب هذا العمل . فقد كانوا ذوى ولع بالشعر عظيم . ولمـا كانت الوسائل لتحرير ما يفيض عن شعرائهم فى غير متناول اليد فقد اعتادوا أن ينقشوا هذه القصائد، كما كانوا ينقشون ما يتعلق بأنسابهم وقبائلهم، على صفحات قلوبهـم . بذلك نمت ملكة الذاكرة غاية النمو ،

الذاكرة العربية

ولا من خلفه . فهو يذهب مذهب المستشرقين من أن القرآن كتاب وضـعه محمد، عن إيمان منه بأن هذا الكتاب وحى الله اليه فى رأى طائفة من هؤلاء المستشرقين، وحرصا منه على إثبات رسالته بمـا يذكر من أن هـذا القرآن وحى الله اليه فى رأى الآخرين . فلأخاطبه اذًا بلغته على أنه من أحرار الفكر الذين لا يريدون أن يتقيدوا إلا بمـا يثبته العلم لهم إثباتا يقينيا .

فـرية تحـريف القرآن

هو يعتمد على المستشرقين وما يقولونه . ومن المستشرقين طائفة تزعم بالفعل فى أمر القرآن ما نقله عنهم . لكن زعمهم هـذا يدل على أنهم إنمـا تدفعهم اليـه أغراض يبرأ منها العلم ولا تخفى على أحد. وحسبُك دليلا على ذلك قولهم : إن عبارة "ومبشِّرا برسول يأتى من بعدى اسمُه أحمدُ" التى وردت فى الآية السادسة من سورة الصف إنما أضيفت بعد وفاة النبي لالتماس الدليل على نبوّة محمد ورسالته من الكتب المقـدّسة السابقة للقرآن . فلو أن الذين قالوا هـذا القول من المسـتشرقين كانوا يخلصون للعلم حقا لمـا لجئوا الى مثل هذا التدليل القائم عندهم على أن التوراة والإنجيل كتابان مقدّسان بالفعل. فلو أنهم كانوا يريدون العلم للعلم لسوّوا بين القرآن والكتب المقدّسة التى سبقته . فإما اعتبروه مقدّسا مثلها، فذكره الكتب المقدسة التى عرفها الناس قبله طبيعى لا محل لرفضه . وإما اعتبروا هذه الكتب كما اعتبروا القرآن وقالوا فى شأنها ما قالوه فى شأنه وقرّروا أن أصحابها وضعوها لأغراض دينية أو سياسية خاصة . ولو أنهم قالوا مثل هـذا القول لقضى المنطق بفساد ما ذهبوا اليه من تحريف القرآن لأغراض سياسية أو دينية . فمـا كان للمسلمين أن يلتمسوا الحجة من هـذه الكتب بعد أن اطمأن ملكهم ودانت لهم الأمبراطورية المسيحية كما دان لهم غيرها من أمم الأرض، وبعـد أن دخل المسيحيون فى الإسلام أفواجا بل أممـا كاملة . هـذا هو المنطق الذى يقتضيه البحث العلمى النزيه . أما اعتبار التـوراة والإنجيل مقدّسين، ونفى هـذه الصفة عن القرآن فأمر لا يسوّغه العلم . وأما القول بتحريفه التمـاسا للحجة من التوراة والإنجيل فهُراء لا يقـرّه التاريخ ولا يرضاه المنطق .

الرجوع الى النبي عند الخلاف

"كذلك كان شأن القرآن أثناء حياة النبي، وكذلك كان شأنه الى عام بعد وفاته : بقي مسطورًا في قلوب الذين آمنوا به، مسجلة أجزاؤه المختلفة في نسخ كانت تزداد كل يوم عددا . وكان لزامًا أن يتطابق هذان المصدران تمام التطابق . فقد كان القرآن منظورا اليه ، حتى فى حياة النبي ، برهبة اليقين بأنه كلام الله ذاته . لذلك كان كل خلاف على نصه يرجع فيه الى النبي نفسه كي يزيله . ولدينا أمثلة من ذلك، إذ رجع الى النبي عمرو بن مسعود وأُبَيّ بن كَعْب . فلما قُبِض النبي كان يرجع عند الخلاف الى النصوص المكتوبة والى ذاكرة أصحاب النبي الأقربين وكتّاب وحيه .

الجمع الأول للقرآن

"فلما فُرِغ من أمر مُسَيْلِمة ، فى حروب الرِّدّة، كانت مذبحة اليمامة قد أتت على كثير من المسلمين ومن بينهم عدد كبير من خير حفّاظ القرآن . هنالك ساورت عمر المخاوف فى أمر الكتاب ونصوصه وما ربما يعلق بها من ريبة اذا أصاب المقدور من اختزنوه في ذاكراتهم فماتوا جميعا . إذ ذاك توجّه الى الخليفة أبي بكر بقوله : " أخشى أن يستحرّ القتل كرة أخرى بين حفّاظ القرآن فى غير اليمامة من المغازى وأن يضيع لذلك كثير منه . والرأى عندى أن تسارع فتأمر بجمع القرآن". وأقرّ أبو بكر هذا الرأى وأفضى برغبته فى إنفاذه الى زيد بن ثابت كبير كتّاب النبي وقال له : " إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك . كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه" . وإذ كان هذا العمل حدثا غير متوقع فقد اضطرب زيد بادئ الرأى وخامره الريب فى صلاحية الإقدام عليه بل فى مشروعيته . فلم يقم به محمد نفسه ولم يأمر أحدا بالقيام به . على أنه انتهى الى النزول على ما أبدى أبو بكر وعمر من رغبة ملحّة . وجهد فى جمع السور وأجزائها من كل جانب ؛ حتى لقد جمع ما كان منها على ورق الشجر وعلى الحجر الأبيض وفى صدور الرجال . ويضيف بعضهم أنه جمع كذلك منها ما كان على الورق وعلى الجلد وعلى عظام الكتف والضلع من الإبل والماعز . وظفرت جهود زيد المتصلة خلال سنتين أو ثلاث بجمع هذه المادة كلها وترتيبها على النحو الذى هى عليه اليوم ،

ثم تناولت القرآن بكل ما أدّت اليه يقظة الروح إذ ذاك من حرص و إقبال. ولقد بلغ بعض أصحاب النبيّ من قوة الذاكرة ودقتها ومن التعلق بحفظ القرآن واستذكاره حدّا استطاعوا معه أن يعيدوا بدقة يقينية كل ما عُرف منه الى يوم كانوا يتلونه .

" على الرغم من هذه القوّة التى امتازت بها الذاكرة العربية فقد كنا فى حلٍّ من ألّا نولى ثقتنا مجموعةً ذلك كل مصـدرها . لكن لدينا من الأسـباب ما يحملنا على الاعتقاد أن أصحاب النبي دوّنوا أثناء حياته نسخا شتّى لأجزاء مختلفـة من القرآن ، وأن هــذه النسخ سجّلت القرآن ، سجلته كله تقريبا . فقد كانت الكتابة معروفة على وجه عام بمكة قبل نبوّة محمد بزمن غير قليل. وكان النبي قد استعمل على تحرير الكتب والرسائل أكثر من واحد من أصحابه بالمدينة . وقد فَك إسار الفقراء من أسرى بدر مقابل قيامهم بتعليم أنصار المدينـة الكتابة . ومع أن أهل المدينـة لم يكونوا مثقّفين تثقيف أهل مكة ، فقد عُرفت مقـدرة الكثيرين منهم على الكتابة قبـل الإسلام . ومن اليسير مع ثبوت هــذه المقدرة على الكتابة أن نستنبط غير مخطئين أن الآيات التى وعتها الذاكرة بدقة قد سجّلتها الكتابة بمثل هذه الدقة .

تحـــرير القرآن فى عهد النبي

" ثم إنا نعرف أن محمدا كان يبعث الى القبائل التى تدخل فى الإسلام واحدا أو أكثر من أصحابه لتعليمهم القرآن وتفقيههم فى الدين . وكثيرا ما نقرأ أن هؤلاء المبعوثين كانوا يحملون معهم أوامر مكتوبة فى شأن الدين . ولقـد كانوا يحملون ما نزل به الوحى بطبيعة الحال، وبخاصة ما اتصل منه بشعائر الاسلام وقواعده، وما يتلى منه أثناء العبادة . والقرآن نفسه ينص على وجوده مكتوبا. وتنص كتب السيرة ، حين تذكر إسلام عمر، على وجود نسخة من السورة المتممة للعشرين (سورة طه) فى حيازة أخته وأسرتها . وكان إسلام عمر قبل الهجرة بثلاث سنوات أو أربع . فاذا كان الوحى يُدوّن ويُتبـادل فى ذلك العصر الأوّل حين كان المسلمون قليلين وحين كانوا يسامون العـذاب ، فمن المقطوع به أن النسخ المكتوبة كثر عددها وتداولها حين بلغ النبي أوج السلطة وحين صار كتابه قانون العرب جميعا .

الى كتاب واحد على اختلاف العصور حجةٌ قاطعة على أن ما أمامنا اليوم إنما هو النص الذى جُمع بأمر الخليفة السيئ الحظ . والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثنى عشر قرنا كاملا بنصٍّ هذا مبلغ صفائه ودقته . والقراءات المختلفة اليوم قليلة الى حدّ يثير الدهشة . وهذا الاختلاف محصور أكثر أمره فى نطق الحروف المتحركة أو فى مواضع الوقف . وهذه مسائل أُبدعت فى تاريخ متأخر، فلا مساس لها بمصحف عثمان .

وحدة الإسلام فى عهد عثمان

" والآن وقد تبين أن القرآن الذى نتلو، إنما هو نص مصحف عثمان لم يتغير، فعلينا أن نبحث أهذا النص هو صورة مضبوطة لما جمع زيد بعد الاتفاق على إزالة ما كان فى التلاوة من أوجه خلاف قليلة العدد قليلة الخطر . وكل ما لدينا مقنع تمام الإقناع بأن الأمر كذلك . فليس فى الأنباء القديمة أو الجديرة بالتصديق ما يلقى على عثمان أية شبهة بأنه قصد الى تحريف القرآن لتأييد أغراضه . صحيح أن الشيعة ادّعوا من بعد أنه أغفل بعض آيات تزكّى عليّاً . لكن العقل لا يسوّغ هذا الزعم ؛ فلم يكن قد نجم أى خلاف بين الأمويين والعلويين حين أُقرّ مصحف عثمان، بل كانت وحدة الإسلام قائمة حينذاك لا يهدّدها شيء . ثم إن عليّاً لم يكن قد صوّر مطالبه فى صورتها الكاملة ؛ فلم يكن غرض من الأغراض إذاً ليدفع عثمان الى ارتكاب إثم ينظر اليه المسلمون بعين المقت غاية المقت . ولقد كان عددٌ كبير ممن وعت قلوبهم القرآن كما سمعوه حين تلاه النبى أحياء حين جمع عثمان المصحف . فلو أن آيات تزكّى عليا كانت قد نزلت لوجدت نصوصها بين يدى أنصاره الكثيرين . وهذان السببان كانا كفيلين بالقضاء على كل محاولة لإغفال هذه الآيات . يضاف الى ذلك أن شيعة على استقلوا بأمرهم بعد وفاة عثمان وبايعوا عليّا بالخلافة . أفيقبل العقل أنهم، وقد وصلوا الى السلطة، يرضون عن قرآن مبتور ومبتور قصداً للقضاء على أغراض زعيمهم ؟! مع ذلك ظلوا يتلون القرآن الذى يتلوه خصومهم ولم يثيروا أى ظل من الاعتراض عليه ؛ بل إن عليا قد أمر بأن تنشر نسخ كثيرة منه، ويقال إنه كتب بخط يده عددا منها . صحيح

وعلى النحـو الذى كان زيد يتلو عليـه القرآن في حضرة محمد فيما يقولون . فلما كملت النسخة الأولى عهد بها عمر الى صيانة حَفْصة ابنته وزوج النبي . وظل هـذا الكتاب الذى جمعـه زيد قائما طِيـلة خلافة عمـر على أنه النص الصادق الصـحيح .

”على أن الخلاف لم يلبث أن بدأ فى طريقة التلاوة ، ناشـئا إما عن الخلاف السابق لنسخة زيد ، وإما عن تحريف تسرّب الى النسخ التى نقلت عن نسخته . وفزع العـالم الإسلامى لذلك أيّمـا فزع . فالوحى الذى نزل من السماء ” واحد “ فأين الآن وحدته ؟ ! ولقد حارب حُذَيْفة فى إرمينية وفى أذرَبيجان ولاحظ اختلاف القرآن عند السوريّين عنه عند أهـل العراق ، بجَزِع لتعدّد ذلك ولمبلغ ما بينه من خلاف. إذ ذاك فزع الى عثمان كيما يتدخل ”ليقف الناسَ حتى لا يختلفوا على كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى “. واقتنع الخليفة. وليدفع الضرّ لجأ كرةً أخرى الى زيد ابن ثابت وعزّزه بثلاثة من قريش . وجىء بالنسخة الأولى من حيازة حفصة ، وعُرِضت القراءات المختلفة من أنحـاء الأمبراطورية ، وروجعت كلها بأتم عناية للمرة الأخيرة . ولقد كان زيد اذا اختلف مع زملائه القرشيين رجح صوت هؤلاء أن كان التنزيل بلسان قريش ، وإن قيل إن الوحى نزل على سـبع لهجات مختلفة من لهجات العرب . وأُرسلت نسخ من هذا المصحف بعد تمام جمعه الى جميع الأمصار فى الأمبراطورية ، وجُمع ما بها من سائر النسخ بأمر الخليفـة وأحرق . ورُدّت النسخة الأولى الى حيازة حفصة .

مصحف عثمان

” ووصل الينا مصحف عثمان . ولقد بلغت العناية بالمحافظة عليه أنا لا نكاد نجـد — بل لا نجد — أى خلاف بين النسخ التى لاعداد لها ، والمنتشرة فى أنحاء العالم الاسلامى الفسيحة . ومع ما أدّى اليـه مقتل عثمان نفسه ، بعد ربع قرن من وفاة محمد ، من قيام شيع مغضبة ثائرة زعزعت ولا تزال تزعزع وحدة العـالم الاسلامى ، فإن قرآناً واحدا قد ظل أبداً قرآنها جميعا . وهذا الإسلام منها جميعا

يعتقدونه كلمة الله . وفى القرآن نُذُر للذين يفترون على الله الكذب أو يخفون شيئا من وحيه . ولسنا نستطيع أن نصدّق أن يجرؤ المسلمون الأوّلون ، فى حماستهم الأولى لدينهم وتقديسهم إياه ، على التفكير فى أمرٍ ذلك مبلغه من مجافاة الإيمان .

ثانيا — تم الجمع خلال سنتين أو ثلاث سنين بعد وفاة محمد ؛ وقد رأينا طائفة من أتباعه يحفظون الوحى كله عن ظهر قلب ، وأن كل واحد من المسلمين كان يحفظ طائفة منه ، وأن جماعة من القرّاء كانت تُعيِّنهم الدولة وتبعث بهم إلى أنحاء المملكة الإسلامية لإقامة الشعائر ولتفقيه الناس فى الدين . من هؤلاء جميعا تكونت حلقة اتصال بين ما تلا محمد من الوحى يوم تلاه و بين ما جمعه زيد . فالمسلمون لم يكونوا صادقى القصد فى جمع القرآن كله فى مصحف واحد فحسبُ ؛ بل كانت لديهم كذلك كل الوسائل التى تكفل تحقيق هذا الغرض ، وتكفل تحقيق ما اجتمع فى الكتاب الذى وضع بين أيديهم بعد جمعه من دقة وكمال .

ثالثا — ولدينا ضمان أوفى للدقة والكمال . ذلك ما كان موجودا منذ حياة محمد من أجزاء القرآن المكتوبة ، والتى كثر لاشك عدد نسخها قبل جمع القرآن . وأكثر الأمر أن هذه النسخ كانت موجودة فى حيازة جميع الذين يستطيعون القراءة . وما دمنا نعرف أن ما جمعه زيد قد تداوله الناس وتلوه بعد جمعه مباشرة فمن المعقول أن نستنبط أنه تناول ما احتوته هذه الأجزاء المكتوبة جميعا واتفق معها ؛ ولذلك حل محلّها بإقرارهم جميعا ؛ فلم يتصل بنا أن الجامعين أغفلوا أجزاء أو آيات أو ألفاظا ، أو أن شيئا مما كان موجودا من هذه اختلف عما حواه المصحف الذى جُمع . ولو أن شيئا من ذلك كان ، للوحظ بلا ريب ولدوّن فى هذه المساند القديمة التى احتوت أدق أعمال محمد وأقواله ، والتى لم تُغفل منها حتى ما كان قليل الخطر .

رابعا — محتويات القرآن ونظامه تنطق بقوةٍ بدقة جمعه ؛ فقد ضمت الأجزاء المختلفة بعضها إلى بعض ببساطة تامة لا تعمُّل ولا فنّ فيها . وهذا الجمع لا أثر فيه

أن الثائرين قد جعلوا من أسباب انتقاضهم أن عثمان جمع القرآن وأمر بإهلاك ما سوى مصحفه من المصاحف . واعتراضهم إنما ينصبّ على إجراءات عثمان لذاتها و يعتبرها محرّمة لا تجوز . لكن لم يشر أحد فيما وراء ذلك الى تحريف فى المصحف أو إبدال؛ فمثل هذا الزعم كان ظاهر الفساد يومئذ؛ وانما أبدعه الشيعة من بعدُ لأغراضهم .

دقة مصحف عثمان وكماله

"نستطيع أن نستنبط إذًا مطمئنين أن مصحف عثمان كان وما يزال صورة مضبوطة لما جمعه زيد بن ثابت مع مزيد فى التوفيق بين الروايات السابقة له و بين لهجة قريش ، ثم استبعاد سائر القراءات التى كانت منتشرة فى أنحاء المملكة . مع ذلك لا تزال أهم مسألة قائمة أمامنا ؛ هذه المسألة هى : هل كان ما جمعه زيد صورة صادقة كاملة لما أوحى الى محمد ؟ والاعتبارات الآتية تبعث اليقين بأنه كان مجموعة صادقة بلغت من حيث إنها كاملة كل ما يمكن بلوغه يومئذ :

أولا — تم الجمع الأول برعاية أبى بكر . وكان أبو بكر تابعا صادق الإخلاص لمحمد، كما كان مؤمنا كامل الإيمان بالمصدر القدسىّ للقرآن؛ وكان اتصاله الحميم بالنبىّ خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياته ، ومظهره فى الخلافة مظهر البساطة والحكمة والتنزه عن المطامع، بحيث لا تدع موضعا لأى فرض آخر . وكان إيمانه بأن ما يوحى إلى صاحبه إنما يوحى إليه من الله ذاته مما يجعل أوّل أغراضه أن يكفل جمع هذا الوحى كله مطهرا كاملا . ومثل هذا القول يصدق على عمر، وقد تم الجمع فى خلافته . وهذا القول يصدق كذلك على المسلمين يومئذ جميعا، لا تفاوت لديهم فيه بين الكاتبين الذين عاونوا على هذا الجمع و بين المؤمن الرقيق الحال الذى كان يحمل إلى زيد ما عنده من الوحى المكتوب على العظام أو على أوراق الشجر ؛ فقد كانوا جميعا تتساوى رغبتهم الصادقة فى استظهار العبارات والألفاظ التى تلاها عليهم نبيهم على أنها رسالة من عند الله . ولقد كان الحرص على الدقة قائما بشعور الناس جميعا؛ لأنه لم ينغرس فى نفوسهم شىء ما انغرس هذا التقديس المرهب لما

مراجعها فيها . لكنا آثرنا نقلها عن أحد المستشرقين لنُظهر شبابنا المولع بكل آثار الغـرب ، من غير تمحيص لها ، على أن الدقة فى البحث العلمى وحسن القصـد الى الحق وحده جديران بهداية من يسلك سبيلهما مخلصا للحقيقـة المجردة من كل زيف، ونَدُلَّه على أن واجب المحقق أن يدقق فى بحثه حتى يصل من الحقيقة الى غايته دون تأثر بهوًى أو شهوة، ومن غير أن يقف به التقليد أو القصور عن بلوغ هذه الغاية . وقد وفِّق المستشرقون للحقّ فى بعض الأحيان ، وقصر هَمُّهم دونه فى أحيان أخرى . وذلك كان شأن أكثرهم فى مسائل متصـلة بحياة النبي العربى أُتيح لنا تمحيصها فى هذا الكتاب .

الطريقة الصحيحة فى البحث

ويجمل بنا فى هـذا المقام أن نذكر أن واجب الباحث ألّا يثبت مسألة من المسائل وألّا ينفيها قبل أن يصل من تمحيصه وبحثه الى الاقتناع الذاتى الصحيح بأنه اطمأن كل الطمأنينة الى الوقوف فيها على الحقيقة كاملة غير مشوبة بشائبة . وشأن المؤرّخ فى ذلك شأن العالم فى الأمور الطبيعية وفى غيرها من العـلوم جميعا . وهذا واجبه، تَنَاوَلَ كتب المستشرقين أو تناولَ كتب العلماء المسلمين . واذا أوجب قصـد الحق والمعرفة علينا أن ننقد وأن نمحّص ما خلّف كتّاب العـرب والكتّاب المسلمون فى الطب والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم، فننفى منها ما لا يثبت أمام النقد العلمى ونثبت ما تقرّه قواعد هذا النقد ، فقصدُ الحق والمعرفة يوجب علينا مثل هـذه الدقة فى أمر التاريخ وإن تعلّق بسـيرة النبيّ عليه الصـلاة والسلام . فالمؤرّخ ليس ناقلا فحسب ، بل هو أيضا ناقد لمـا ينقل ، ممحص إياه لمعـرفة ما ينطوى عليه من حق . والنقد سبيل التمحيص . والعلم والمعرفة أساس هـذا النقد والتمحيص .

أحسبنا، بعد هذا التمحيص الذى نقلناه فى شأن القرآن ودقتـه ، فى حِلّ من إغفال ما جاء فى رسالة ذلك المصرى المسلم، المؤمن بكل ما يكتب المستشرقون، عن آيات يزعمونها أضيفت الى القرآن أو عن اسم النبيّ وأنه لم يكن قُثَم أو قثامة . فهذا كلام لم يُمْلِه الحق بل أملاه الهوى الذى أملى دعوى تحريف القرآن .

ليد تحاول المهارة أو التنسيق . وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لمـا يجمع ؛ فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدّسة ووضع بعضها إلى جانب بعض .

"والنتيجة التى نستطيع الاطمئنان إلى ذكرها هى أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقا فحسبُ، بل كان، كما تدل الوقائع عليه، كاملا، وأن جامعيه لم يتعمدوا إغفال أى شىء من الوحى . ونستطيع كذلك أن نؤكد، استناداً إلى أقوى الأدلة، أن كل آية من القرآن دقيقة فى ضبطها كما تلاها محمد" .

* * *

أطلنا فى اقتطاف عبارات "سير وليم موير" على ما وردت فى مقدّمة كتابه "حياة محمد"[1] . على أن ما اقتطفناه يغنينا عن ذكر ما كتبه "الأب لامَنْس" و"ڤون هامر" ومن يرون هذا الرأى من المستشرقين . هؤلاء جميعا يقطعون بدقة القرآن الذى نتلوه اليوم وبأنه يحتوى كل ما تلاه محمد على أنه الوحى الذى تلقّاه من ربه صادقا كاملا . فاذا ذهبت بعد ذلك قلة من المستشرقين غير مذهبهم وزعموا أن القرآن حرّف غير آبهين لهذه الأدلة العقلية التى ساقها "موير" وكثرةُ المستشرقين، والتى أخذوها عن التـاريخ الإسلامى والعلمـاء المسلمين، كان ذلك تجنيا على الإسلام لم يُمْلِه غير الحقد على الإسلام وعلى صاحب الرسالة الإسلامية . ومهما يبلغ المتجنّون من البراعة فى صياغة تجنيهم فلن يستطيعوا أن يخلعوا عليـه ثوب البحث العلمى النزيه، ولن يستطيعوا أن يخدعوا به من المسلمين أحدا، اللهم إلا الشبان الذين يتوهمون أن البحث الحرّ يقتضيهم أن يُنكروا ماضيهم وأن يُفتنوا عن الحق فيه بمـا زُيِّن لهم من الأباطيل، وأن يؤمنوا بكل مطعن على هـذا المـاضى ولو لم يكن لهذا الطعن ما يسوِّغه من حقائق العلم والتاريخ .

المتجنـون عـلى الإسـلام

كما نستطيع أن نسوق هذه الحجج التى ساقها "السير موير" وغيره من المستشرقين وأن نأتى بهـا من التاريخ الإسلامى وممـا كتب علمـاء المسلمين، وأن نردّها الى

---

(١) راجع موير "حياة محمد" ص XIV الى XXIX

الرجوع الى العلم

الصرع، والذين تُمسكهم طمأنينتهم الساذجة الى أقوال هؤلاء المستشرقين عن سؤال أهل العلم من رجال الطب وعن الرجوع الى كتبه. ولو أنهم فعلوا لما تعذّر عليهم أن يكشفوا عن خطأ هؤلاء المستشرقين خطأً مقصودا أو غير مقصود، ولتبينوا أن النشاط الروحى والعقلى للإنسان يختفى تمام الاختفاء أثناء نوبات الصرع، ويذَر صاحبَه فى حالة آليّة محضة يتحرك مثل حركته قبل نوبته، أو يثور اذا اشتدّت به النوبة فيصيب غيره بالأذى؛ وهو أثناء ذلك غائب عن صوابه، لا يدرك ما يصدر عنه ولا ما يحل به، شأنه شأن النائم الذى لا يشعر بحركاته أثناء نومه؛ فاذا انقضى ما به لم يذكر منه شيئا. وشتّان ما بين هذا وبين نشاط روحى قوى قاهر يصل صاحبَه بالملأ الأعلى عن شعور تام وإدراك يقينى، ليُبلِّغ من بعدُ ما أوحى اليه. فالصرع يعطّل الإدراك الإنسانى وينزل بالإنسان الى مرتبة آليّة يفقد أثناءها الشعور والحس. أمّا الوحى فسموّ روحى اختص الله به أنبياءه ليلقى اليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كى يبلِّغوها للناس. وقد يصل العلم الى إدراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سُننها وأسرارها بعد أجيال وقرون، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهى مع ذلك حقائق يقينية تهتدى قلوب المؤمنين الصادقين الى حقيقتها، على حين تظل قلوب عليها أقفالُها جاهلة إيّاها لغفلتها عنها.

قصور العلم أحيانا

كنا نفهم أن يقول هؤلاء المستشرقون: إن الوحى ظاهرة نفسية شاذّة فى تقدير علمنا وما وصل اليه حتى اليوم؛ فمن المتعذر إذًا تفسيرها على طريقته. لكن هذا القول إنّما يدلّ على أن علمنا — على ما انفسح مداه واتسع أفقه — لا يزال قاصرا عن تفسير كثير من الظاهرات الروحية والنفسية. ولا عيب على العلم فى هذا ولا عجب منه؛ فعلمنا ما يزال قاصرا عن تفسير بعض الظاهرات الكونية القريبة منا. وطبيعة الشمس والقمر وغيرهما من الأفلاك والكواكب لا يزال أمر العلم فيها عند الفروض والاستنباطات؛ وهذه الأفلاك جميعا بعض ما تشهده العين المجرّدة، وما تكشف الآلات المقربة لنا عن كثير من خفاياها. و إلى قرن مضى

ونعود الى تفنيد النقطة الأخيرة من رسالة ذلك المصرى المسلم . فهو يذكر أن مباحث المستشرقين دلّتهم على أن النبي كان يصاب بالصرع وأن أعراضـه كانت تبدو عليه، إذ كان يغيب عن صوابه، ويسيل منه العرق ، وتعتريه التشنُّجات ، وتخرج من فمه الرَّغوة، حتى إذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين به ما يقول إنه وحى الله اليه، فى حين لم يكن هذا الوحى إلا أثرا من نوبات الصرع .

فرية الصرع

وتصوير ما كان يبـدو على محمد فى ساعات الوحى على هـذا النحو خاطئ من الناحية العلمية أفحش الخطأ ؛ فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أى ذكر لمـا مر به أثناءها ؛ بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسيانا تاما ، ولا يذكر شيئا ممـا صنع أو حلّ به خلالها ؛ ذلك لأن حركة الشـعور والتفكير تتعطل فيـه تمـام التعطل . هـذه أعراض الصرع ، كما يثبتها العلم ؛ ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربى أثناء الوحى . بل كانت تتنبه حواسّه المدركة فى تلك الأثناء تنبهًا لا عهد للناس به ، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقّاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه . هذا ، ثم إن نزول الوحى لم يكن يقترن حتمًا بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحى غاية التنبه ، بل كان كثيرا ما يحدث والنبيّ فى تمـام يقظته العـاديّة . وحسبُنا أن نشير الى ما أوردنا فى هذا الكتاب عن نزول سورة الفتح عند قفول المسـلمين من مكة الى يثرب بعد عهد الحُدَيْبِية .

ينفى العلم إذًا أن الصرع كان يعترى محمدا ؛ ولذلك لم يقل به إلا الأقلون من المستشرقين الذين افتَرَوْا على القرآن أنه حرِّف . وهم لم يقولوا به حرصا على حقيقـة يلتمسونها ؛ وانما قالوا به ظنًّا منهم أنهم يحطّون من قدر النبي العربى فى نظر طائفة من المسلمين . أم حسبوا أنهم يُلقون بأقوالهم هذه ظلا من الريبة على الوحى الذى نزل عليه ، لأنه نزل عليه فيما يزعمون أثناء هذه النوبات ؟ إن يكن ذلك فهو الخطأ البيّن ، كما قدّمنا ، وهو ما ينكره العلم عليهم أشدّ الإنكار .

ولو أن نزاهة القصـد كانت رائد هؤلاء المستشرقين لمـا حمّلوا العلم ما ينكره . وهم إنمـا فعلوا ذلك ليخدعوا به أولئك الذين لا يهديهم علمهم الى معرفة أعراض

الى الناس فيجعله هدف مطاعنه . وهذا عجز لا يلجأ اليه عالم ؛ وهو بعد مناقض لقانون الطبيعة الإنسانية ؛ ففي طبيعة الناس أن يُعْنَوْا بالآثار لذاتها ، وأن يستمتعوا بثمراتها دون بحث لا طائل تحته في مصدرها ووسيلة حدوثها ونموّها . وهم لذلك لا يعنُّون أنفسهم بالبحث في أصل الشجرة التي أنبتت الثمرة التي تُعجبهم ولا في السماد الذي أدّى الى ازدهارها ما داموا لا يفكرون في غرس شجرة مثلها أو شجرة أشهى منها ثمرا . وهم حين يبحثون في فلسفة " أفلاطون " أو مسرحيّات " شكسبير " أو فن " رفائيل " لا يتلمَّسون المطاعن في حياة هؤلاء العظماء عنوان مجد الإنسانية وفخارها حين لا يجدون على هذه الآثار مطعنا . فاذا التمسوا المطاعن التي لا سند لها من الحق ، لم يبلغوا من ذلك غايتهم وإن كشفوا عن سوء رأى وحقد يُسقط حجتهم ويحول دون الاستماع لهم . ولن يغير من ذلك أن يُفْرَغ هذا الحقد في قالب العلم ؛ فالحقد لا يعرف الحقيقة . وكبرت الحقيقة أن يكون الحقد لها مصدرا . وهذا شأن مطاعن أولئك المستشرقين على النبي العربي خاتم المرسلين ؛ ولذلك هوت مطاعنهم الى الحضيض .

فرغت الآن من تفنيد رأى أولئك المستشرقين الذين استندت اليهم رسالة ذلك المصري المسلم ، وأقمت الدليل على فساده . فلأنتقل الى طائفة أخرى من الملاحظات التي أبداها بعض المشتغلين بالعلوم الدينية من المسلمين بعد ظهور الطبعة الأولى .

وأكبر ظني ألّا تتكرر أمثال هذه المطاعن الوضيعة التي يأباها العلم وينكرها . فربما كان لهؤلاء المستشرقين من العذر عن إسرافهم من قبلُ أنهم كانوا يحسبون أنهم يكتبون للأوربيين المسيحيين ، وأنهم كانوا يقومون لذلك بواجب قومي أو بواجب ديني تمليه عليهم عقيدتهم وتدفعهم الى اتخاذ العلم بغياً وسيلتَهم الى أدائه . أمّا اليوم وقد توثقت أسباب الاتصال بالبرق والإذاعة ، وبعد أن وثّقت الصحافة والطباعة بين أجزاء العالم ؛ فقد أصبح ما ينشر وما يقال في أوربا أو في أمريكا يعرف ليومه أو لساعته في بلاد الشرق جميعا . فواجب على الذين يريدون الاضطلاع

كانت مخترعات كثيرة تعتبر بعض إبداع الخيال فلا سبيل الى أن تجسّد أمامنا . وها هى ذى قد تجسدت وصرنا نحسبها من البسائط . والظاهرات الروحيـة والنفسية هى اليوم موضع ملاحظة العلماء، لكنها لم تخضع بعـدُ لسلطان العلم كى يستنبط قوانينها الثابتة . وكثيرا ما نقرأ عن أمور شهدها العلماء وأثبتوها ثم أثبتوا معها أنهم لا يجدون لهـا فى السنن الكونية التى استنبطها العلم تأويلا تطمئن اليه قواعده . فعـلم النفس ما يزال ، بوجه عام، غير ثابت السنن فى كثير من الشؤون التى تعرض له . فاذا كان هذا واقعا فى الحياة العادية، كان البِدار الى محاولة تفسير ظاهرات الحياة جميعها على الطريقة العلمية محاولة عقيمة وإسرافا معيبا .

ولقـد كان الوحى بعض ما شهد المسلمون أثنـاء حياة محمد . وكان القرآن كلما ذكره لهم زادهم به إيمانا . وكان منهم أذكياء غاية الذكاء، وكان منهم يهود ونصارى طال الجدال بينهم و بين النبي العربى،ثم آمنوا برسالته ولم ينكروا عليه من أمر الوحى شيئا . ولقد حاول قوم من قريش أن يتّهموه بالسحر وبالجنون، ثم أقروا أنه ليس بساحر ولا بمجنون وتابعوه وآمنوا بمـا جاء به . أمّا وذلك ثابت يقينا فما يأباه العـلم وتتنزه عنـه قواعده إنكار حدوث الوحى والحط من قـدر صاحبه ونعته بأوصاف ينكرها العلم ولا يقرّها . والعالم النزيه القصد الى الحق لا يستطيع أكثر من أن يقرر أن ما وصل اليه العلم حتى هذا الزمان يقصُر دون تفسير الوحى على الطريقة العلمية المـادّية ؛ لكنه لا يمكنه أن ينكر بحال من الأحوال حدوث ظاهرات هذا الوحى ممّـا وصف أصحاب النبي وكتّاب الصدر الأوّل للاسلام . فان أنكرها وحاول تأويلها واتخذ العلم باطلًا وسيلةً الى ذلك كان مبطلا متعنّتا . والتعنت والعلم لا يتفقان .

الطعن فى محمد بعجز عن الطعن فى رسالته

ولئن دل هذا التعنت على شىء لَعلى شدّة حرص أصحابه على التشكيك فى الاسلام . وهم لم يستطيعوا الطعن على هذا الدين لذاته وقد رأوه دينا بلغ غاية السمو مع بساطة و يسر هما مصدر قوته ؛ لذلك لجـأوا الى حجة العاجز حين يدع الأثر العظيم لا يعرض له بمطعن لأن المطاعن لا ترقى اليه، فهو يتناول مَنْ صدر هذا الأثر عنه أو كان وسيلتَه

وهم فى هـذا يجدون من المؤرّخين العرب والمسلمين سـنداً حين ينكرون من حياة النبي العربى كلها ما لا يدخل فى معروف العقل، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع مادعا القرآن اليـه من النظر فى خلق الله، وأن سـنة الله لن تجد لها تبديلا، غير متفق مع تعيير القـرآن للشركين أنهـم لا يفقهون، أن ليست لهم قلوب يعقلون بهـا". ومن هـؤلاء المجادلين فى رفق من يؤاخذنا بأننـا أوردنا مطاعن المستشرقين على النبي مقـدّمة للرد عليهـا؛ وإيراد هـذه المطاعن لا يتفـق مع ما يجب، فى نظرهم، للنبي عليه السلام من إكبار وإكرام. أمّا الذين لجئوا الى العنت فقد ظهروا قبل أن تظهر طبعة الكتاب الأولى وقبـل أن يجمع هذا البحث فى كتاب. وأشـدّ ما استطاعوا أن يؤاخذونى به أننى جعلت عنوان بحثى "حياة محمد" من غير أن أردف هذا العنوان بالصلاة والسلام على رسول الله وإن ذكرتها غير مرة فى غضون البحث. وكنت أحسبهم يرجعون عن عنتهم بعـد أن زيّنت عنوان الطبعة الأولى بالآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]، وبعد أن تناول الكتاب السيرة على الطريقة التى تناولها بها. لكنهم أصرّوا على ملاحظتهم، فدلوا بذلك على تعنّتهـم وعلى جهلهم مع ذلك بحقائق الإسلام اكتفاءً منهم باتباع ما وجدوا عليه آباءهم.

الصلاة على النبي

ونبدأ بدفع هـذه الملاحظة الخاطئة آملين ألّا يعود أصحابها وألّا يعود غيرهم الى إبدائها على أى كتاب يظهر. وإنا ندفعها بالرجوع الى كتب الأئمة من علماء المسلمين حتى يعرف الناس جميعا سموّ الإسلام فوق القيود اللفظية، ويقدروا قيمة الحديث «إنّ هذا الدينَ متينٌ فأوْغِلْ فيه برِفْقٍ، فإن المُنْبَتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبق». فقد ذكر أبو البقاء فى "كلّياته" أن "كتابة الصلاة فى أوائل الكتب قد حدثت فى أثناء الدولة العباسية، ولهذا وقع كتاب البخارى وغيره عاريا عنهـا". وكثرة الأئمة على أن الصلاة على النبي يكفى أن يذكرها المرء مرةً واحدة فى حياته.

(١) سورة الأحزاب آية ٥٦

برسالة المعرفة والحقيقة أن ينزعوا عن عيونهم وعن قلوبهم غشاوة الحواجز القوميـة أو الجنسية أو الدينية، وأن يقدّروا أن ما يقولونه أو يكتبونه سرعان ما يصل علمه الى الناس جميعا فيتناولونه فى مختلف بلاد الأرض بالنقد والتمحيص . فلتكن الحقيقة غير المقيّدة بأى قيد هى رائدنا جميعا ؛ ولنوجّه كل همنا الى أن نربط ما بين ماضى الإنسانية ومستقبلها، على أنها وحدة كبرى لا تُفرّق بينها القوميات ولا الجنسيات ولا الأديان، برابطة ترمى الى تحقيق أسمى غاية تطلّعت اليها الإنسانية منذ نشأتها، رابطة الإخاء الحرّ فى ظل الحق والخـير والجمال ؛ فتلك وحدها هى الرابطـة التى تكفل هداية الإنسانية فى سيرها الحثيث نحو السعادة والكمال .

أصحـاب الملاحظـات من المشتغلين بالشؤون الإسلامية

بَيْنَا يؤاخذنا غلاة المصدّقين لمـا أسرف فيه المستشرقون بأنا نعتمد على المصادر العربيـة ونستند الى ما ورد فيها ، اذا بعض المشتغلين بالعـلوم الدينية الإسـلامية يؤاخذوننا بأننا نرجع الى أقوال المستشرقين ولا نأخذ بكل ما سجلتـه كتب السـيرة وما روته كتب الحـديث متصلاً بسـيرة النبيّ العربى ، وأننا لا ننهج نهج هـذه الكتب .

وعلى هذا الأساس أبدى بعضهم ملاحظات فى أكثرها رفق ومجادلة بالتى هى أحسن ابتغاء الوصول الى الحق، وفى بعضها عَنَتٌ أو جهل لا يرضى أيّهما لنفسه من أوتى حظًّا من العلم . أما الذين جادلوا فى رفق ، فتنصرف أكثر ملاحظاتهم الى أننا لم نذكر ما ورد فى كتب السيرة والحديث من المعجزات، بل قلنا فى خاتمة الطبعة الأولى :

”لحياة محمد حياة إنسانية بلغت أسمى ما يستطيع إنسان أن يبلغ . ولقـد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على أن يقدّر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى اليـه، حتى كان لا يرضى أن تنسب اليه معجزة غير القرآن . ويصارح أصحابَه بذلك“ . وقلنا عند الكلام عن قصة شق الصدر : ” انمـا يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين الى هذا الموقف من ذلك الحادث أن حياة محمد كانت كلها حيـاة إنسانية سامية، وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته الى ما لجأ اليه من سبقه من أصحاب الخوارق .

السيرة وكتب الحديث ولم أنهج فى التعبير عن مختلف الحوادث نهجها . ولقد كان يكفينى ردًّا على هـذا أنى أجرى فى هذا البحث على الطريقـة العلمية الحديثـة وأكتبه بأسلوب العصر ، وأنى أفعل ذلك لأنه الوسيلة الصالحة فى نظر المعاصرين لكتابة التاريخ وغير التاريخ من العلوم والفنون. وما كان لى ، وذلك شأنى ، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها ، وبين هذين و بين النهج والأساليب فى عصرنا الحاضر بون عظيمٌ ، أيسَرُه أن النقد فى الكتب القديمة لم يكن مباحا بالقدر الذى يباح به اليوم ، وأن كثرة الكتب القديمة كانت تُكتب لغاية دينية تعبدية ، على حين يتقيد كتّاب العصر الحاضر بالنهج العلمى والنقد العلمى . كان يكفينى هذا تسويغًا للطريقة التى عالجت بها بحثى ودفعا لكل اعتراض عليه . لكنى رأيت من الخير أن أتبسّط بعض الشىء فى بيان الأسباب التى دعت المفكرين من أئمة المسلمين فيما مضى ، وتدعوهم اليوم ، كما تدعو كل باحث مدقق ، الى عدم الأخذ جزافا بكل ما ورد فى كتب السيرة وفى كتب الحديث ، و إلى التقيد بقواعد النقد العلمى تقيُّدا يعصم من الزلل ما استطاع الإنسان أن يعصم نفسه منه .

الخلاف بين هذه الكتب

وأول هـذه الأسباب ما بين هـذه الكتب من خلاف فى رواية الكثير من الأمور المنسوبة الى النبيّ العربىّ منذ مولده الى وفاته . فقد لاحظ الذين درسوا هذه الكتب أن ما روته من أنباء الخوارق والمعجزات ومن كثير غيرها من الأنباء كان يزيد وينقص دون مسوِّغ إلا اختلاف الأزمان التى وضعت هذه الكتب فيها . فقديمها أقل روايةً للخوارق من متأخرها . وما ورد من الخوارق فى الكتب القديمة أقل بعدًا عن مقتضى العقل مما ورد فى كتب المتأخرين . وهذه سـيرة ابن هشام أقدم السير المعروفة اليوم تُغفل كثيرا مما ذكره أبو الفِداء فى تاريخه ، ومما ذكره القاضى عياض فى كتاب الشفاء ، ومما ذُكر فى كتب المتأخرين جميعا . وكذلك الشأن فى كتب الحديث واختلافها ؛ فبعضها يروى قصـة من القصص وبعضهم يغفلها وبعضهم يضعفها . فلابدّ للباحث فى هذه الكتب جميعا بحثا علميًّا أن يضع مقياسا

قال ابن نجيم فى "البحر الرائق": «وأمّا مُوجَب الأمر فى قوله تعالى: ﴿صلّوا عليه﴾ فهو افتراضها فى العمر مرةً واحدة فى الصلاة أو خارجَها؛ لأن الأمر لا يقتضى التكرار، وهذا بلا خلاف». والخلاف بين الشافعي وغيره على وجوب الصلاة على النبي أثناء الصلاة لا خارجها. والصلاة هى الدعاء. ومعناها فى الآية أن يترحم الله على النبي ويسلّم. وهذا ما أورده علماء المسلمين وأئمتهم فى هذا الموضوع. وهو يدل على إسراف الذين يزعمون وجوب الصلاة على النبي كلما ذُكر اسمه وكلما كُتب، وعلى خطئهم خطأً ما كانوا يقعون فيه اذا عرفوا ما قدّمنا وأن كبار المحدِّثين لم يكونوا يكتبون الصلاة فى أوائل الكتب.

دفع المطاعن وطريقته

أمّا الذين قالوا بأن مقام النبي الكريم يوجب عدم ذكر مطاعن المستشرقين والمبشرين عليه مقدِّمةً للرد عليها، فلا سند لهم فى قولهم هذا إلا عاطفة إسلامية يحمدون عليها؛ أمّا من الناحيتين العلمية والدينية فلا سند لهم؛ والقرآن الكريم يذكر ما كان يقول المشركون عن النبي ويدفعه بالحجة البالغة. هذا، وأدب القرآن أقوم أدب وأسماه؛ فهو يذكر اتهام قريش محمدا بالسحر والجنون، وهو يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهم يقولون إنّما يُعَلِّمُه بَشَرٌ لِسَانُ الذى يُلْحِدُونَ اليه أَعْجَمِىٌّ وهذا لِسانٌ عربىٌّ مُبِينٌ﴾(1). وهو يجرى فى ذلك بالشيء الكثير. ثم إن الحجة لا تُدفع علميًا إلا اذا ذُكرت ودوِّنت بأمانة ودقة. ولقد قصدت من هذا الكتاب الى البحث العلمى توخِّيًا للحقيقة العلمية وحدها. وقصدت به الى أن يقرأه المسلمون وغير المسلمين آملاً أن أُقنعهم جميعا بهذه الحقيقة العلمية. ولا تُبلَغ هذه الغاية الا اذا كان الباحث نزيها فى حرصه على الحقيقة لا يتقيّد باعتبار غير هذا الحرص، ولا يتردّد فى الاعتراف بالحق أيًّا كان مصدره.

كتب السيرة وكتب الحديث

ونعود الى المأخذ الأول الذى أخذنى به بعض المشتغلين بالعلوم الدينية الإسلامية فى رفق ومجادلة بالتى هى أحسن. ذلك قولهم أننى لم آخذ بما سجّلته كتب

(1) سورة النحل آية ١٠٣

الجامعين على الدقة فى التمحيص حرصًا لا يتطرّق اليه ريب . ويكفى أن يذكر الإنسان ما كابده البخارى من مشاقّ وأسفار فى مختلف أقطار الدولة الإسلامية لجمع الحديث وتمحيصه وما رواه بعد ذلك من أنه ألفى الأحاديث المتداولة تربى على ستمائة ألف حديث لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف . وهذا معناه أنه لم يصح لديه من كل مائة وخمسين حديثا إلا حديث واحد . أمّا أبو داود فلم يصحّ لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة . وكذلك كان شأن سائر الذين جمعوا الحديث . وكثير من هذه الأحاديث التى صحت عندهم كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء انتهى بهم الى نفى الكثير منها ، كما كان الشأن فى مسألة الغرانيق . فاذا كان ذلك شأن الحديث وقد جهد فيه جامعوه الأوّلون ما جهدوا فما بالك بما ورد فى المتأخر من كتب السيرة ! وكيف يستطاع الأخذ به دون التدقيق العلمى فى تمحيصه ! .

أثر المنازعات السياسية الإسلامية

والواقع أن المنازعات السياسية التى حدثت بعد الصدر الأوّل من الإسلام أدّت الى اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييدًا لها . فلم يكن الحديث قد دوّن الى عهد متأخر من عصر الأمويين . وقد أمر عمر بن عبد العزيز بجمعه ؛ ثم لم يجمع إلا فى عهد المأمون بعد أن أصبح "الحديث الصحيح فى الحديث الكذب كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود" على قول الدّارَقُطْنىّ . ولعل الحديث لم يُجمع فى الصدر الأوّل من الإسلام لما كان يروى عن النبىّ أنه قال : "لا تكتبوا عنّى شيئا غير القرآن . ومن كتب شيئا غير القرآن فليَمْحُه" ، على أن أحاديث النبىّ كانت متداولة على الألسن من يومئذ وكانت الروايات تختلف فيها . ولقد أراد عمر بن الخطاب أثناء خلافته أن يتدارك الحال فى ذلك بأن يكتب السنن ؛ فاستفتى أصحاب النبى فى ذلك فأشاروا عليه بأن يكتبها . فطفق عمر يستخير الله شهرا . ثم أصبح يومًا وقد عزم اللهُ له (١) فقال : "إنى كنت أَريد أن أكتب السُّنَن

جمع الحديث

(١) أى خلق له أسباب العزم من القوة والصبر .

يعرض عليه ما اختلفت فيه وما اتفقت عليه . فما صدّقه هذا المقياس أقرّه الباحث، وما لم يصدّقه وضعه موضع التمحيص إذا كان مما يقبل التمحيص .

وقد أخذ السلف بهذه الطريقة فى بعض الأمور وأغفلوها فى بعضها . من ذلك قصة الغرانيق التى تذهب الى أن النبي لما ضاق ذرعًا بسادات قريش تلا عليهم سورة النجم حتى إذا بلغ منها قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾(١) . قرأ "تلك الغرانيقُ العلا، وإن شفاعتهن لترتجى" ثم مضى فى قراءة السورة الى آخرها وسجد فسجد المسلمون والمشركون معه . هذه القصة رواها ابن سَعْد فى طبقاته الكبرى ولم يعرِض لها بنقد . ووردت فى الصحيح من بعض كتب الحديث مع اختلاف فى الرواية عن الغرانيق . أمّا ابن اسحاق فروى هذه القصة وقال : إنها من وضع الزنادقة . وذكرها ابن كَثير فى كتاب "البداية والنهاية فى التاريخ" فقال : "ذكروا قصة الغرانيق، وقد أحببنا الإضراب عن ذكرها صفحا لئلا يسمعها من لا يضعها فى مواضعها . إلا أن أصل القصة فى الصحيح " ثم ذكر حديثا عن البخارى فى أمرها وأردفه بقوله : " انفرد به البخارى دون مُسْلِم " . أمّا أنا فلم أتردد فى نفى القصة من أساسها والاتفاق مع ابن اسحاق فى أنها من وضع الزنادقة ؛ وسقت فى تفنيدها أدلةً لم أكتف فيها بما فى هذه القصة من نقض ما للرسل من عصمة فى تبليغ رسالات ربهم، بل استعنت فيها كذلك بقواعد النقد العلمى الحديث .

العصر الذى كتبت فيه

وسبب آخر يوجب تمحيص ما ورد فى كتب السلف ونقده نقدًا دقيقا على الطريقة العلمية ، أنّ أقدمَها كُتب بعد وفاة النبي بمائة سنة أو أكثر، و بعد أن فشت فى الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها الى الذيوع والغَلَب . فما بالك بالمتأخر مما كُتب فى أشد أزمان التقلقل والاضطراب؟ ! وقد كانت المنازعات السياسية سببا فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه ودوّنوا ما اعتقدوه صحيحا منه من جهد وعنت أدّى اليهما حرص هؤلاء

(١) آيتى ١٩ و ٢٠

بنى هاشم وبنى أمية قبل رسالة النبىّ العربى تظهر من جديد . فلما قُتل عثمان وقامت الحرب الأهليّة بين المسلمين وخاصمت عائشة عليا ، وأيّد عليًّا من أيّده ، بدأت الأحاديث الموضوعة تكثر إلى حدٍّ أنكره علىّ بن أبى طالب حتى رُوى عنه أنه قال : "ما عندنا كتابٌ نقرؤه عليكم إلا ما فى القرآن وما فى هذه الصحيفة أخذتُها من رسول الله فيها فرائض الصّدَقة". على أن ذلك لم يقف رواةَ الحديث عن روايته ولم يقف قومًا عن وضع الحديث لهوًى يدعون الناس إليه أو لفضائل يزعمون أنّ الناس أحرص على اتّباعها حين يُنسب إلى رسول الله حديثُها. فلما استتبَّ الأمر لبنى أميّة جعل المحدِّثون المتصلون ببنى أمية يضعفون ما يروى عن علىّ بن أبى طالب وفضائله فى حين جعل أنصار علىّ وأهل بيت النبىّ يزيدون فى هذه الأحاديث ويحاولون إذاعتها بكل الوسائل، كما جعلوا يُعرضون عما يروى عن عائشة أُمِّ المؤمنين . ومن طريف ما يروى فى ذلك ما رواه ابن عَسَاكر عن أبى سعد إسماعيل بن المُثَنَّى الإستراباذىّ إذ كان يعظ بدمشق فقام إليه رجل فسأله عن قول النبى : أنا مدينة العلم وعلىّ بابها . فأطرق إسماعيل لحظةً ثم رفع رأسه وقال : نعم، لا يعرف هذا الحديث عن النبي إلا من كان صدرًا فى الإسلام ؛ إنما قال النبىّ : "أنا مدينة العلم وأبو بكر أساسُها وعمر حِيطانها وعثمان سقفها وعلىّ بابها". وقد سُرّ الحاضرون بذلك وطلبوا إلى اسماعيل أن يذكر لهم إسناده فاغتمّ لعجزه . وكذلك كانت الأحاديث تلفّق لأغراض سياسية ولأهواء عاجلة . وقد كثرت هذه الأحاديث الموضوعة كثرةً راعت المسلمين لمنافاة الكثير منها لما فى كتاب الله . ولم تنجح المحاولات التى بُذلت لوقفها فى زمن الأمويين . فلما كانت الدولة العباسيّة وجاء المأمون بعد قرابة قرنين من وفاة النبىّ كان قد أذيع من هذه الأحاديث الموضوعة عشرات الألوف ومئاتها وكان بينها من التضارب وفيها من التهافت مالا يخطر بالبال . إذ ذاك قام الجامعون بجمع الحديث وتولّى كتّاب السيرة كتابتها . فقد عاش الواقدىّ وابن هشام والمدائنى وكتبوا كتبهم أيّام المأمون . وما كان لهم ولا لغيرهم أن ينازعوا الخليفة فى آرائه مخافة ما يحلّ بهم . لذلك لم يطبّقوا ، بما يجب من الدقة ، هذا المقياس الذى

جامعو الحديث فى عهد المأمون

وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبدا " . وعدل عن كتابتها وكتب فى الأمصار عنها : "من كان عنده شىء فليمحه" . وظلت الأحاديث بعد ذلك تتوالد وتتداول حتى جمع ما صح لدى جامعيه منها فى عهد المأمون .

ومع ما أبداه جامعو الحديث من حرص على الدقة لا ريب فيه ، فقد جرّح بعض العلماء كثيرا من الأحاديث أثبتها جامعوها على أنها صحيحة . قال النووىّ فى شرح مسلم : "قد استدرك جماعة على البخارىّ ومسلم أحاديث أخلّا بشرطهما فيها ونزلت عن درجة ما التزماه" . ذلك أن الجامعين قد جعلوا مقياس السّند والثقة بالرواية أساسهم فى قبول الحديث أو رفضه ؛ وهو مقياس له قيمته ؛ لكنه وحده غير كاف . وعندنا أن خير مقياس يقاس به الحديث وتقاس به سائر الأنباء التى ذُكرت عن النبىّ ما روى عنه عليه السلام أنه قال : "إنكم ستختلفون من بعدى ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فمنى ، وما خالفه فليس عنى" . وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين منذ العصور الأولى ، وما زال المفكرون منهم يأخذون به الى يومنا الحاضر . قال ابن خلدون : "وإننى لا أعتقد صحة سند حديث ولا قول عالم صحابىّ يخالف ظاهر القرآن وإن وثّقوا رجاله ؛ فرب راو يُوثّق للاغترار بظاهر حاله وهو سيئ الباطن . ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها ، كما تنتقد من جهة سندها ، لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض . وقد قالوا : إن من علامة الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة فى الشريعة أو للبرهان العقلى أو للحس والعيان وسائر اليقينيات" . وهذا المقياس الذى جاء فى حديث النبى والذى ذكره ابن خلدون فيما تقدّم يتفق وقواعد النقد العلمى الحديث أدقّ اتفاق .

المقياس الصحيح للحديث

وحق أن المسلمين قد بلغ اختلافهم بعد وفاة النبى حدًّا دعا الدعاة فيهم الى اختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث والروايات . ومنذ قتل لؤلؤةُ بن المغيرة عمر ابن الخطاب ، ومنذ تولّى عثمان بن عفّان الخلافة بدأت الخصومة التى كانت بين

الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة لأنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى، وأن المفتونين بها هم الخرافيّون من جميع الملل، وبيّنت سبب هذا الافتتان، والفروق بين ما يدخل منها فى عموم السنن الكونية والروحية وغيره" .

وقال الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى أول كتاب (الاسلام والنصرانية) : " فالاسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى، فلا يدهشك بخارق العادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلٰهية . وقد اتفق المسلمون، إلا قليلا ممن لا يعتد برأيهم فيه، على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله، فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل، ولا من الكتب المنزلة، فانه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدّقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابا أو يرسل رسولا " .

وأكبر ظنى أن الذين كتبوا السيرة كانوا يُؤْثرون هذا الرأى لولا أحوال العصر أيّام المتقدّمين، ولولا أن ظن المتأخرون أن فى ذكر مالم يرد به القرآن من خوارق ومعجزات مايزيد الناس إيمانًا على إيمانهم؛ لذلك حسبوا أن ذكر هذه المعجزات ينفع ولا يضرّ . ولو أنهم عاشوا إلى زماننا هذا ورأوا كيف اتخذ خصوم الإسلام ما ذكروه منها حجة على الإسلام وعلى أهله لالتزموا ما جاء به القرآن، ولقالوا بما قال به الغزالى ومحمد عبده والمراغى وسائر المدقّقين من الأئمة . ولو أنهم عاشوا فى زماننا هذا ورأوا كيف تُزيغ هذه الروايات قلوبًا وعقائد بدل أن تزيدها إيمانًا وتثبيتا لكفاهم ذكر ما فى كتاب الله من آيات بينات وحجج دامغة .

الروايات التى لا يقرّها العقل والعلم

أمّا ومضرّة الروايات التى لا يقرّها العقل والعلم قد أصبحت واضحة ملموسة، فمن الحق على كل من يعرِض لهذه الأمور أن يرعى جانب الدقة العلمية فى تمحيصها، خدمةً للحق، وخدمةً للاسلام ولتاريخ النبى العربى، وتمهيدًا لما يجلوه البحث فى هذا التاريخ العظيم من حقائق تنير أمام الإنسانية سبيلها الى حضارتها الصحيحة.

رُوى عن النبي عليه السلام من وجوب عرض ما يروى عنه على القرآن، فما وافق القرآن فعن الرسول، وما خالفه فليس عنه .

ولو أن هذا المقياس طُبِّق بما يجب من دقة لتغيَّر بعض ما كتب هؤلاء الأعلام . فالنقد العلمى على الطريقة الحديثـة لا يختلف عن هـذا المقياس فى شىء . لكن أحوال العصر اقتضت هؤلاء الأعلام أن يطبِّقوا هذا المقياس على طائفة ممـا كتبوا ثم لا يطبِّقونه على طائفة أخرى . وقد ورث المتأخرون عن السلف هذه الطريقة فى كتابة السيرة لاعتبارات غير اعتباراتهم . ولو أنهم أنصفوا التاريخ لطبَّقوا الحديث على سيرة النبى العربىّ فى جملتها وفى تفصيلها دون استثناء لأىّ نبأ رُوى عنها لا يتفق وما ورد فى القرآن الكريم؛ فما لم يكن مما تجرى به سُنّة الكون ولم يرد ذكره فى كتاب الله لم يُثبتوه، وما كان مما تجرى به سنّة الكون محّصوه ثم أثبتوا منه ما ثبت لديهم بالدليل اليقينىّ وتركوا منه مالم يقم الدليل عليه .

وقد أخذ بهذا الرأى جماعة من كبار الأئمة من سلف المسلمين، وتابعهم عليـه أئمـة الإسلام الى يومنا هـذا . قال الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغىّ فى التعريف بهذا الكتاب ما يأتى: "لم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا فى القرآن، وهى معجزة عقليّة . وما أبدع قولَ البوصيرى :

لم يَمْتَحِنّا بما تعيا العقولُ به ✻ حرصًا علينا فلم نَرْتَبْ ولم نَهِمِ"

وقال المرحوم السـيّد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار (فى عددها الذى صـدر فى ٣ من مايو سنة ١٩٣٥ ص ٧٩٣) ردًّا على الذين اعترضوا على كتابنا هذا ما نصه : " أهمّ ما ينكره الأزهريّون والطُّرقيون على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات . وقـد حرّرتها فى كتاب الوحى المحمـدىّ من جميـع مناحيها ومطاويها فى الفصل الثانى وفى المقصد الثانى من الفصل الخامس بما أثبتّ به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم بالذات . ونبوّة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته لا يمكن فى عصرنا إثبات آية إلا بهـا ، وأن

على هـذا الكمال وأدعى الى أن يزداد الناس بالرسالة إيمانا . ومقارنة النبي العربي بمن سبقه من الرسل مقارنة مع الفارق . فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو مع ذلك أوّل رسول بعثه الله للناس كافّة ولم يبعثه الى قومه وحدهم ليبيّن لهم . لذلك أراد الله أن تكون معجزة محمد معجزة إنسانية عقليّة لا يستطيع الإنس والجن الإتيان بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . هـذه المعجزة هى القرآن . وهى أكبر المعجزات التى أذِن الله بها . وقد أراد جلّ شأنه منها أن تثبُت رسالة نبيه بالحجة البيّنة والدليل الدامغ، وأراد لدينه أن ينتصر بفضلٍ منه فى حياة رسوله، ليرى الناس فى انتصاره قوّة سلطانه . ولو أراد الله أن تكون المعجزة المـادّيّة وسيلةً الى اقتناع من نزل الإسلام على رسوله بينهم، لكانت ولَذَكَرها فى كتابه . لكن من الناس من لا يصدّقون إلا ما يقرّه العقـل؛ لذلك كانت الوسـيلة الى إقناع الناس كافّةً برسالة محمد أوثق ما تكون اتصالا بقلوبهم وعقولهم، بجعل الله القرآن، حجتَه البالغةَ، معجزة النبيّ الأُمّيّ اليهم، وجعل انتصار دينه وقوّة الإيمان به آتيين من طريق الدليل اليقينيّ والاقتناع الصادق . والدين الذى يقوم على هـذا الأساس أدعى الى أن يؤمن الناس جميعا به على كرّ العصور واختلاف الأمم وتباين اللغات .

ولو أن أمّة غير مسلمة آمنت اليوم بهـذا الدين ولم تحتج الى التصديق بمعجزة غير القرآن لتؤمن، لما طعَن ذلك فى إيمانها ولا نقص من إسلامها . فما دام الوحى لم ينزل بها فلا جناح على من يؤمن بالله ورسوله أن يجعل ما يتصـل به من أمرها محل تمحيص . فما ثبت بالحجة اليقينية أخذ به، وما لم يثبت بهـا فله فيه رأيه، ولا تثريب عليه . فالإيمان بالله وحده لا شريك له لا يحتاج الى معجزة ولا يحتاج إلى أكثر من النظر فى هذا الكون الذى خلقه الله . والشهادة برسالة محمد الذى دعا الناس بأمر ربه الى هـذا الايمان وجنّبهم ما يُزيغ قلوبهم عنه لا تحتاج الى معجزة غير القرآن، ولا تحتاج الى أكثر من تلاوة الكتاب الذى أوحاه الله اليه .

ولو أن أمة غير مسلمة آمنت اليوم بهـذا الدين من غير حاجة الى التصـديق بمعجزة غير القرآن، لكان الذين آمنوا من أبنائها أحد رجلين : رجل لم يتلجلج قلبه

ولو أننا عرضنا كثيراً من الأمور التى ترويها كتبُ السيرة وكتب الحديث على ما فى القرآن لمَا وسعنا إلا أن نأخذ برأى الأئمة المدقّقين . فقد كان أهل مكة يطلبون الى النبي أن يُجرى ربه على يديه المعجزات إذا أرادهم أن يصدّقوه فنزل القرآن يذكر ما طلبوا ويدفعه بحجج مختلفة . قال تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمنَ لك حتى تفْجُرَ لنا من الأرضِ ينبُوعًا . أو تكونَ لك جَنّةٌ من نخيلٍ وعنب فتُفَجّرَ الأنْهَار خِلالَها تفجيرا . أو تُسقط السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفًا أو تأتِىَ بالله والملائكة قَبِيلًا . أو يكونَ لك بيتٌ من زُخْرُفٍ أو تَرْقَى فِى السماء ولن نُؤْمِنَ لرُقِيِّكَ حتّى تُنَزِّلَ علينا كتَابًا نَقْرؤُه قل سبحانَ ربِّى هل كنتُ إلّا بَشَرًا رسولًا ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جَهْد أَيمانهم لئنْ جاءتْهم آيةٌ لَيؤْمِنُنَّ بها قُلْ إنَّما الآيَاتُ عندَ الله وما يُشْعِرُكُم أنّها إذا جاءتْ لا يُؤْمنون . ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يُؤْمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ ونَذَرُهم فى طُغْيانهم يعْمَهُونَ . ولَوْ أنّنا نَزّلْنَا إليهمُ الملائكةَ وكلّمَهُمُ الموتَى وحَشَرْنَا عليهم كُلَّ شيءٍ قُبُلًا ما كانوا ليؤمنوا إلّا أن يشاءَ الله ولكنَّ أكثرَهم يجهَلونَ ﴾[2] . ولم يرد فى كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافّةً على اختلاف عصورهم برسالة محمد إلا القرآن الكريم . هذا مع أنه ذكر المعجزات التى جرت بإذن الله على أيدى مَنْ سبق محمدا من الرسل، كما أنه جرى بالكثير مما أفاء الله على محمد وما وجّه اليه الخطاب فيه . وما ورد فى الكتاب عن النبيّ العربىّ لا يخالف سُنّة الكون فى شيء .

القرآن والمعجزات

أمّا وذلك ما يجرى به كتاب الله ومايقتضيه حديث رسول الله، فأىّ داع دعا طائفة من المسلمين فيما مضى ويدعو طائفة منهم اليوم الى إثبات خوارق مادية للنبي العربى ؟ إنما دعاهم إلى ذلك أنهم تلوا ما جاء فى القرآن عن معجزات مَنْ سبق محمدا من الرسل، فاعتقدوا أن هذا النوع من الخوارق المادّية لازم لكمال الرسالة فصدّقوا ما روى منها وإن لم يرد فى القرآن، وظنوا أنها كلما ازداد عددها كانت أدلّ

المعجزة الكبرى

(١) سورة الإسراء الآيات من ٩٠ الى ٩٣

(٢) سورة الأنعام الآيات من ١٠٩ الى ١١١

قد وقع فيها الخلاف على ما روته حليمة ظئر النبيّ عنها لأمّه ، كما وقع على الزمن الذى حدثت فيه من سنّ محمد . وما روت كتب السيرة وكتب الحديث عن قصة زيد وزينب مردود من أساسه للأسباب التى أبديناها عند الكلام عن هذه القصة أثناء الكتاب . وقد وقع مثل هذا الخلاف على ما حدث أثناء مسيرة جيش العُسْرة الى تَبُوك ؛ فقد روى مسلم فى صحيحه عن مُعَاذ بن جَبَل أنّ النبيّ قال لمن سار معه الى تبوك : " إنكم ستأتون إن شاء الله غدًا عينَ تبوك و إنكم لن تأتوها حتى يُضْحِى النهار ؛ فمن جاءها منكم فلا يَمَسّ من مائها شيئا حتى آتى . فجئناها وقد سبقَنا اليها رجلان والعين مثل الشِّراك تَبِضُّ بشىء من ماء . قال : فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم هل مَسِستما من مائها شيئا؟ قالا نعم . فسبّهما النبى صلى الله عليه وسلم وقال لهما ما شاء الله أن يقول . قال ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلًا قليلًا حتى اجتمع فى شىء . قال : وغسَل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر — أو قال غزير ، شك أبو علىّ أيهما قال — حتى استقى الناس . ثم قال: يُوشِك يا معاذ إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما هاهنا قد ملئَ جِنَانا"[(١)] .

فأما كتب السيرة فتروى قصة تبوك على صورة أخرى لا يرد فيها ذكر المعجزة ، وانما تجرى فيها الرواية على نحو غير ما ورد فى صحيح مسلم . من ذلك ما رواه عنها ابن هشام إذ قال :

" قال ابن إسحاق : فلما أصبح الناسُ ولا ماءَ معهم شَكَوْا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأرسل الله سحابةً فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء . قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لَبِيد عن رجال من بنى عبد الأشهل قال قلت لمحمود : هل كان الناس يعرفون النفاقَ فيهم ؟ قال : نعم ! والله إن كان الرجل لَيعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمّه وفى عشيرته ثم يلبَس بعضُهم بعضًا على ذلك . ثم

(١) صحيح مسلم ج ٧ ص ٦٠ طبعة الآستانة سنة ١٣٣٢ هـ .

ولم يتعثر فؤاده ، بل هداه الله الى الإيمان أوّل ما دُعى اليه ، كما هدى أبا بكر فآمن وصدّق من غير تردّد . وآخر لم يلتمس إيمانه فيما وراء سُنّة الكون من خوارق ، بل التمسه فى خلق الله هذا الكون الفسيح الأرجاء الذى يقصُر تصوُّرنا دون إدراك حدوده فى الزمان أو فى المكان ، وتجرى أموره مع ذلك على سنن لا تحويل لها ولا تبديل ، فاهتدى من سُنّة الله فى الكون الى بارئه ومصوِّره . سواء عند هذين أكانت الخوارق أم لم تكن ، بل هما لا يفكّران فى هذه الخوارق إلا على أنها من آيات فضل الله . ومثل هذا الإيمان يراه الكثيرون من أئمة المسلمين مثلاً أسمى فى الإيمان . ويذهب بعضهم كذلك الى أن الإيمان الصحيح يجب ألّا يكون مصدره خوفاً من عقاب الله أو طمعاً فى ثوابه ، بل يجب أن يكون إيمانا خالصا بالله وفناءً تامًّا فيه . اليه يرجع الأمر كله ، وإنا لله وإنا اليه راجعون .

الإيمان عند أئمة المسلمين

مثل الذين يؤمنون اليوم بالله ورسوله من غير أن تحملهم المعجزات على الإيمان كمثل الذين آمنوا بالله ورسوله فى حياة النبىّ العربىّ . فلم يذكر التاريخ أنّ المعجزات حملت أحدًا منهم على أن يؤمن ؛ بل كانت حجّةُ الله البالغة عن طريق الوحى على لسان نبيه ، وكانت حياة النبىّ فى سموِّها البالغ غاية السمو ، هى التى دعت الى الإيمان من آمن منهم . وإن كتب السيرة جميعا لتذكر أن طائفة من الذين آمنوا برسالة محمد قبل الإسراء قد ارتدّت عن إيمانها حين ذكر النبىّ أن الله أسرى به ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى بارك حوله . ولم يؤمن سُرَاقة بن جُعْشُم ، لمّا اتّبع محمدا حين هجرته الى المدينة ليأتى أهلَ مكة به حيًّا أو ميتًا طمعًا فى مالهم ، على رغم ما روت كتب السيرة من معجزة الله فى سراقة وفى جواده . ولم يذكر التاريخ أن مشركًا آمن برسالة محمد لمعجزة من المعجزات كما آمن سَحَرة فرعون لمّا لقفت عصا موسى ما صنعوا .

المؤمنون فى حياة النبىّ

ثم إن ما ورد فى كتب السيرة والحديث عن المعجزات قد اختُلف فيه أحيانا ، وقد كان على الرغم من ثبوته فى كتب الحديث موضع النقد أحيانا أخرى . وقد أشرنا الى مسألة الغرانيق فى هذا التقديم وذكرناها مفصلة فى الكتاب . وقصة شق الصدر

الغرانيق وتبوك

من أجل ذلك كان خليقا بكل من يتصدّى للبحث فى مثل هذا الموضوع أن يتوجّه به الى الإنسانية كلها لا الى المسلمين وحدهم . فليست الغاية الصحيحة منه دينية محضة كما قد يظن بعضهم ، بل الغاية الصحيحة منه أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلَها الى الكمال الذى دلّها محمد على طريقه . وإدراك هذه الغاية غير ميسور اذا لم يهتد الإنسان الى هذه السبيل بمنطق عقله ونور قلبه ، راضيَ النفس بهذا المنطق ، منشرح الصدر الى هذا النور ؛ لأن مصدرهما المعرفة الصحيحة والعلم الصحيح . فالتفكير الذى لا يعتمد على المعرفة الدقيقة ولا يتقيد مع ذلك بالطرائق العلمية ، كثيرا ما يعرِّض صاحبه لأن يخطئ ويكبو ، وكثيرا ما ينأى لذلك به عن محجة الحق . فطبيعتنا الإنسانية تجعل تفكيرنا يتأثّر بمزاجنا تأثُّراً عظيما . وكثيرا ما يختلف المتساوون علمًا فى تفكيرهم لغير سبب إلا اختلاف أمزجتهم مع إخلاصهم جميعا فى القصد والغاية . فمن الناس العصبيُّ المِزاج ، الحادّ التفكير ، السريعُ الى الاندفاع فيه . ومنهم الصوفىّ النزعة ، الرِّواقىّ المزاج ، الزاهد فى المادة وآثارها . ومنهم المادىّ الهوى ، المتأثر بماديته تأثُّرا يحول بين تفكيره وبين ما يحسّه من قُوى تحيط به هى التى تسيطر على المادة . وغير هؤلاء كثيرون تختلف أمزجتهم ويختلف لذلك نظرهم الى الأمور وتقديرهم إيّاها . وهذا الاختلاف نعمة كبرى على الإنسانية فى ميادين الفن وفى الحياة العملية ، لكنه نقمة على العلم وعلى التفكير القائم على أساسه ابتغاءَ مُثُل الحياة العُليا لخير الإنسانية جمعاء . ودراسة التاريخ يجب أن تكون غايتها نشدان المُثُل العُليا من حقائق الحياة ، ويجب لذلك أن يتجنب من يدرس التاريخ سلطان الهوى وحكم المِزاج . ولا سبيل الى تجنُّبهما إلا أن يتقيد الإنسان بالطريقة العلمية أدقّ التقيُّد ، وألّا يجعل من العلم والبحوث العلمية فى التاريخ أو فى غير التاريخ مطيّة لإثبات هوًى من أهوائه أو نزوةٍ من نزوات مزاجه .

بحوث المستشرقين

ولقد تأثّر كثير من المستشرقين فى بحوثهم التى صيغت صيغة العلم بأهواء أمزجتهم ؛ وكذلك فعل كثيرون من كتّاب المسلمين . وأعجب الأمر فى هؤلاء وأولئك أن يتخذ

قال محمود : لقد أخبرنى رجال من قومى عن رجل من المنافقين معروف نفاقُه كان يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم حيث سار، فلما كان من أمر المـاء بالحِجر ما كان ودعا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم حين دعا فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى النـاس قالوا أقبلنا عليه نقول : ويحك ! هل بعد هذا شيء؟ قال : سحابةٌ مارّة ” .

وهذا الاختلاف على الوقائع يجعل تأكيدها والقطع بها أمراً غير ميسور فى نظر العـلم ، ويقتضى الذيـن يمحصونها ألّا يقفوا عند القول بالراجح والمرجوح قولًا لا يُثبت إحدى الروايتـين ولا ينفى الأُخرى ، وأقلّ ما يجب عليهـم اذا لم تثبت الرواية عندهم أن يُغفلوها . فاذا عثر غيرهم من بعدُ على الأدلة اليقينية عليها فذاك ، وإلّا بقيت غير ثابتة ثبوتًا علميّا .

طريقتى فى البحث

وهـذه هى الطريقة التى جريت عليها منذ بدأت هـذا البحث فى حيـاة محمد صاحب الرسالة الإسلامية . وأنا منـذ اعتزمت القيام بهذه الدراسة إنمـا أردتها دراسةً علميّة على الطريقة الحديثة خالصةً لوجه الحق، ولوجه الحق وحده . ذلك ماقلت فى تقديم هذا الكتاب كما رجوت فى خاتمة طبعته الأولى أن أكون قد وفِّقت لتحقيق ما قصدت اليه ، وأن يكون البحث قد تمّ بحثًا علميا لوجه الحقيقة العلمية وحدها، وأن أكون قد مهّدت به السبيل الى مباحث فى موضوعه أكثر استفاضةً وعمقا ، تجلو أمام العلم من المسائل النفسية والروحية ما يهدى الإنسانيـةَ طريقها الى الحضارة الجديدة التى تلتمسها . وما أشـك أن التعمّق فى البحث يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمناً أن لا سبيل الى تعليلها علميّا ثم اذا مباحثُ علم النفس تفسِّرها وتجلوها واضحةً للمتعقلين . وكلما وقفت الإنسانية على أسرار الكون الروحية والنفسية ازدادت صـلة بالكون وازدادت سعادةً بهـذه الصلة ، كما أنها ازدادت استمتاعا بمـا فى الكون لمـا ازدادت اتصالًا بأسرار القوّة والحركة الكمينة فيه حين عرفت الكهرباء والأثير .

المسلمون وهذه البحوث

وليس الوصول الى هذه النتائج بالأمر الهين . فهو يحتاج الى جَلَدٍ ومثابرة فى البحث والموازنة والتفكير الحر. لكنه ليس كذلك بالأمر المستحيل ولا بالأمر العسير . وهو بعدُ أمرٌ جليل الخطر عظيم الأثر فى مستقبل الإسلام وفى مستقبل الإنسانية كلها . وعندى أن القيام به على وجه صالح يقتضى التفريق بين فترتين مختلفتين من تاريخ لإسلام . أولاهما من بدء الإسلام الى مقتل عثمان . والثانية من مقتل عثمان الى أن أقفل باب الاجتهاد . ففى الفترة الأولى بقى اتفاق المسلمين تامًّا ، لم تغيِّر منه روايات الاختلاف على الخلافة ولا غيرّت منه حروب الردّة ولا فتح المسلمين للبلاد التى فتحوا . أمّا بعد مقتل عثمان فقد دبّ الخلاف بين المسلمين وقامت الحروب الأهليّة بين على ومعاوية واستمرّت الثورات، ظاهرةً تارة، خفيّة أخرى، ولعبت الأهواء السياسية دوراً خطيرا فى الحياة الدينية نفسها . وحسبُ الإنسان ، ليقدر هذا الخلاف ، أن يوازن بين المبادئ التى ينطوى عليها خطاب أبى بكر بعد بيعته حين يقول: "أمّا بعد، أيها الناس، فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنتُ فأعينونى ، وإن أسأت فقوِّمونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوى عندى حتى أُريح عليه حقه إن شاء الله . والقوىّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدعُ قومٌ الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ. ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمّهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ؛ فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله" . وخطاب المنصور العباسىّ بعد تسنّمه ذروة العرش إذ يقول : "أيها الناس ! انما أنا سلطان الله فى أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتأييده، وحارسه على ماله ،أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأُعطيه بإذنه ، فقد جعلنى الله عليه قُفلا ؛ إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقَسْمِ أرزاقكم ؛ وإن شاء أن يُقفلنى عليها أقفلنى ..." . حسب الإنسان أن يوازن بين هذين الخطابين ليرى مدى التغيُّر العظيم فى القواعد الأساسية للحياة الإسلامية فى أقل من قرنين تغيُّرا نقلها من الشورى بين المسلمين الى الحكم المطلق المستمدّ من الحق المقدّس .

كلٌّ مما تزيّنه نزواتُ مزاج الآخر من الوقائع ما يقيمه أساسًا لكتابة يزعمها علمية ابتغى بها وجهَ الحق، في حين هو يتأثر فيها بمزاجه وبهواه أشد التأثر. ودليل ذلك أنه لو كلّف نفسه بعض الجهد في تمحيص ما كتب الآخر تمحيصا نزيها لتداعت أمام نظره الوقائع التي أبدعها خيال صاحبه. ولو أنه فعل وتجرّد جهد طاقته من هوى نفسه وتحصن بقواعد العلم وطرائقه لكانت كتابته أبقى في النفوس أثرًا على خلاف الكتابة التي يدفع اليها الهوى. وقد حاولت أن أبيّن شيئا من أخطاء هؤلاء وأولئك في هذا التقديم للطبعة الثانية متوخّيا في ذلك ما اقتضاه المقام من إيجاز غاية الإيجاز. ولعلّي وفِّقت لبعض ما قصدت اليه من ذلك في نزاهة وإنصاف.

ليس من اليسير أن يقوم المستشرقون في بحوثهم الإسلامية بكل هذه الدقّة وهذا الإنصاف مهما تحسُن نيّتهم ومهما يتحرَّوا الدقة العلمية. فعسيرٌ عليهم أن يحيطوا بكل أسرار اللغة العربية وإن أحاطوا بعلومها. ثم إنهم متأثّرون بالنصرانية الأوربية تأثُّرًا يجعل أكثرهم ينظرون إلى الأديان نظرة تملؤها الريبة، ويجعل الأقلِّين المستمسكين بمسيحيتهم يتأثّرون بما كان بين المسيحية والعلم من نضال فيخضعون في بحوثهم الإسلامية لمثل ما خضع له أمثالهم في بحوثهم المسيحية أو في بحوثهم الدينية بوجه عام، أقصد التأثر بهذا النضال الهدّام. وهذا أمر لا يعاب به المستشرقون المنصفون، فلن يستطيع أحد من الناس أن يتحرّر من حكم بيئته لزمانية والمكانية؛ لكنه يجعل بحوثهم في الأمور الإسلامية تشوبها شوائب تنأى بها عن الحق ولو بمقدار. ومن شأن ذلك أن يُلقي على عاتق العلماء من أهل البلاد الإسلامية، سواء منهم المشتغلون بالعلوم الدينية والمشتغلون بغيرها من العلوم، هذا العبء الجليل العظيم، عبء القيام بهذه المباحث الإسلامية بدقة ونزاهة في حدود الطريقة العلمية. فاذا هم فعلوا مستعينين بمعرفتهم أسرار اللغة العربيّة والحياة العربية فسيكون لبحوثهم من الأثر أن تعدل بالمستشرقين، أو ببعضهم على الأقل، عن كثير من الآراء وتُقنعهم بالنتائج التي وصل اليها علماء البلاد الإسلامية عن طمأنينة نفس وطيب خاطر.

ولو أننا نجحنا فى هـذا لكشفنا أمام الإنسانية أفقا تصعد منه الى معـرفة أسرار الكون النفسيّة والروحيّة ونتصل به عن طريق هذه المعرفة اتصالًا يهيِّئ للإنسانية أسـباب نعمتها وسعادتها، كما أنها ازدادت استمتاعا بمـا فى الكون حين ازدادت اتصالًا بأسرار القوة والحركة الكمينة فيه بعد أن عرفت الكهرباء والأثير . ولو أننا نجحنا فى هذا لكان للإسلام من الفضل على الإنسانية اليوم ما كان له فى الصـدر الأوّل حين خرج به العرب من شبه الجزيرة لينشروا مبادئه السامية فى العالم كله .

وفى مقدّمة ما يجب علينا من ذلك خدمةً للحقيقة وللعـلم وللإنسانية أن نتعمق فى دراسة سيرة النبي العربى تعمّقا يهدى الإنسانية طريقَها الى الحضارة التى تنشدها . والقرآن أصدق مرجع لهذه الدراسة . فهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل ولا تعلق به الريبة، وهو الكتاب الذى بقى ثلاثة عشر قرنا، وسيبقى أبد الدهر، معجزة الحياة فى طهارة نصوصه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا له لَحَافِظُونَ ﴾[1]، كما كان وسيبقى معجزة محمد القائمة منذ أوحاه الله اليه الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فكل ما تعلّق بسيرة محمد يجب أن يعرض على القرآن، فما وافقه كان حقا، وما لم يوافقه لم يكن بحق . وقد حاولت من ذلك فى هـذا البحث البدائى جهد طاقتى . فلما عدت اليه بعـد طبعة هذا الكتاب الأولى شكرت لله توفيقه ورجوته أن يهيئ لمتابعة التعمق فيه تعمقا علميا من يحبوه هدايته ويمده بتسديده .

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا، وإِلَيْكَ أَنَبْنَا، وَإِلَيْكَ المَصِيرُ ﴾

(١) سورة الحجر آية ٩

ولقد كانت هذه الثورات وما أدت اليه من انقلاب بعد آخر فى أسس الحكم سببَ ما آل اليه أمر الدولة الإسلامية من بعـدُ من انحلال وتقهقر . ومع ازدهار الإسـلام والحضارة الإسلامية قرنين كاملين بعـد مقتل عثمان ، ومع ما نشط اليه الإسلام من فتح الممـالك وتدويخ الملوك على يد المغـول وعلى يد السلاجقة بعـد الانحلال الأوّل ، فان الفـترة الأولى التى انتهت بمقتل عثمان هى التى تقررت فيها القواعد الصحيحة للحياة الإسلامية العامة، وهى لذلك وحدها التى يمكن الاعتماد الثابت اليقينى على ما وقع فيها لمعرفة هذه القواعد الصحيحة . أمّا فيما بعد هذه الفترة، فإنه على الرغم من ازدهار العلم والمعرفة أيام الأمويين، وبخاصّة أيام العباسيين، قد اندست يد العبث بهذه القواعد الأساسـية الصحيحة لتقيم مقامها قواعد تتنافى فى كثير من الأحيان وروح الإسـلام تحقيقًا لأغراض سياسية شُعوبية فى أكثر أمرها . وقد كان الأعاجم وكان الذين تظاهروا بالإسلام من اليهود والنصارى هم الذين روّجوا لهذه القواعد الجديدة، غير متورّعين فى تأييـدها عن اختراع الأحاديث ونسبتها الى النبي عليه السـلام ، ولا عن ادعاء أشـياء على الخلفاء الأولين لا تتفق وسيرتهم ولا تلتئم ومزاجهم .

هذه الفترة الأخيرة لا يمكن الاعتماد على ما دوِّن فيها اعتمادا علميا دون تمحيصه ونقـده أدق التمحيص والنقـد بغير تأثر بالأهواء أو بنزعات المزاج الذاتى . وأوّل ما يجب من ذلك أن نردّ مما وقع الخلاف عليه فيها كل ما لا يتفق مع القرآن، وإن نسب ما وقع عليه الخلاف الى النبيّ العربى . أمّا صدر الإسلام الأوّل الى مقتل الخليفـة الثالث فيمكن الاعتماد على ما يروى مباشرةً عنه، ويمكن لذلك أن يتخـذ أيضا أساسا لتمحيص ما جاء بعده . وإنى لأحسبنا اذا فعلنا هـذا كله بدقة علمية قديرين على أن نرسم صورةً صادقة من قواعد الإسـلام الصحيحة ومن الحياة الإسلامية الأولى، هذه الحياة العقلية والروحية التى بلغت من القوة والسـموّ مبلغا دفع عرب البادية من أهل شـبه الجزيرة لينتشروا فى الأرض خلال بضـعة عقود من السنين كى يقيموا فى مختلف الممالك أسمى المبادئ الإنسانية التى عرفها التاريخ .

الفصل الأوّل

بلاد العرب قبل الإسلام

مهد الحضارة الأولى — اليهودية والمسيحية — الفرق المسيحية وتناحرها — مجوسية فارس — شبه جزيرة العرب — طريقا القوافل فيها — اليمن وحضارتها — بقاء شبه الجزيرة على الوثنية

مهد الحضارة الإنسانية

ما يزال البحث فى تاريخ الحضارة الإنسانية وأين كان منشؤها متصلًا إلى عصرنا الحاضر. وكان هذا البحث قد استقر زمانا طويلا عند القول بأن مصر كانت مهد هذه الحضارة، منذ أكثر من ستة آلاف سنة مضت، وأن ما قبل هذا الزمن يرجع الى عصور ما قبل التاريخ مما يتعذّر الكشف عنه بطريقة علمية صحيحة. أمّا اليوم فقد عاد علماء الآثار ينقبون فى العراق وفى سوريا يريدون الوقوف على أصل الحضارة الآشورية والحضارة الفينيقية وتحقيق العصر الذى ترجع هاتان الحضارتان إليه : أهو سابق عصر الحضارة المصرية الفرعونيّة مؤثر فيها ، أم هو لاحقٌ عصر هذه الحضارة متأثر بها ؟ ومهما يُسفر تنقيب علماء الآثار عنه فى هذه الناحية من نواحى التاريخ فهو لا يغيّر شيئا من حقيقة لم يكشف التنقيب فى آثار الصين والشرق الأقصى عما يخالفها ؛ هذه الحقيقة هى أن مهد حضارة الإنسان الأولى، سواء أكان فى مصر أم فى فينيقيا أم فى آشور، كان متصلًا بالبحر الأبيض المتوسط، وأن مصر كانت أقوى المراكز التى أصدرت الحضارة الأولى إلى اليونان وإلى رُومية، وأنّ حضارة عالمنا فى هذا العصر الذى نعيش فيه ما تزال وثيقة الصلة بتلك الحضارة الأولى ، وأنّ ما قد يكشف البحث عنه فى الشرق الأقصى من تاريخ الحضارة فى تلك الأقطار لم يكن له فى عصرما أثرٌ بيّن فى توجيه الحضارات الفرعونية والآشورية والإغريقية، ولم يغيّر من اتجاه تلك الحضارات وتطوّرها الى أن اتصلت بها حضارة الإسلام فأثّرت فيها وتأثّرت بها وتفاعلت وإيّاها تفاعلًا كانت الحضارة العالمية التى تخضع الإنسانية اليوم لسلطانها بعض أثره .

واليونان ، وامتدّت من مصر الى الحبشـة ، وظلّت من بعـدُ قرونا يزداد سلطانها توطّدا ويستظل بلوائها كل من استظل بلواء الروم وكل من طمع فى مودّتها وفى حسن العلاقة بها .

المسـيحية والمجوسية

تُجاهَ هـذه المسيحية التى انتشرت فى ظلّ لواء الروم ونفوذها وقفت مجوسـية الفرس تؤازرها قوى الشرق الأقصى وقوى الهند المعنوية . وقد ظلّت آشور وظلت مدنية مصر الممتدّة فى فينيقيا عصوراً طويلة حائلة دون انتطاح عقائد الغرب والشرق وحضارتيهما . على أن دخول مصر وفينيقيا فى المسيحية أذاب هذا الحائل ووقف مسيحية الغرب ومجوسيّة الشرق وجهًا لوجه . وقد ظلّا عصوراً متصلة وفى نفس كلٍّ من الهيبة لدين الآخر ما أقام مكان ذلك الحائل الطبيعى الأوّل حائلاً آخر معنويا اقتضى قوتيه أن توجِّه كلتاهما جهودها وغزواتها الروحية فى ناحيتها وألّا تفكر فى دعوة الأخرى الى عقيدتها أو حضارتها ، مع ما اتصل بينهما على مرِّ القرون من حروب . ومع أن فارس انتصرت على الروم وحكمت الشام ومصر ووقفت على أبواب بِزنطيـة لم يفكر ملوكها فى نشر المجوسـية أو إحلالها محـل النصرانية ، بل احترم الغزاة عقائد المحكومين ، وعاونوهم على تشييد ما خرّبت الحرب من معابدهم ، وتركوا لهم الحرية فى إقامة شـعائرهم . وكلُّ ما صنع الفـرس أن أخذوا الصليب الأعظم وأبقوه عندهم ، حتى دارت دائرة الحرب عليهم واستردّه الروم منهم . وكذلك ظلّت غزوات الغرب الروحيـة فى الغرب ، وغزوات الشرق فى الشرق ؛ وبذلك كان الحـائل المعنوى فى مثـل مَنَعة الحـائل الطبيعى ، وكفل تكافؤ القوّتين من الناحية الروحية عدم تصادمهما .

بزنطية وارثة روميـة

وكذلك ظل الحال الى القرن السادس المسيحىّ . وفى هـذه الأثناء اشتدّت المنافسة بين رُومية وبزنطية . أمّا روميـة ، التى أظلّت أعلامها ربوع أوربا الى الغال وإلى السلت فى انكلترا أجيـالاً عدّة ، والتى فاخرت العـالم ومازالت تفاخره بعهـد يوليوس قيصر ، فقـد بدأ مجدها ينزوى رويدًا رويدا حتى انفردت بزنطية

حوضا الروم والقلزم

وقد ازدهرت تلك الحضارات التى انتشرت على شواطئ البحر الأبيض أو على مقربة منه فى مصر وآشور واليونان منذ ألوف السنين ازدهارًا ما يزال حتى اليوم موضع دهشة العالم وإعجابه : ازدهرت فى العلم والصناعة والزراعة والتجارة وفى الحرب وفى كل نواحى النشاط الإنسانى . على أن الأصل الذى كانت تصدر تلك الحضارات عنه وكانت تستمدّ قوّتها منه كان أصلا دينيا دائما . حقًّا أن هذا الأصل اختلف ما بين التثليث المصرى القديم مصوّرا فى أوزوريس وإيزيس وهورس مشيرا الى وحدة الحياة فى بلاها وتجدّدها والى اتصال خلد الحياة من الآباء الى الأبناء ، وما بين الوثنية اليونانية فى تصويرها للحق والخير والجمال تصويرا مستمدًّا من مظاهر الكون الخاضعة للحس ، كما اختلف من بعد ذلك اختلافًا هوى بهذا التصوير فى عصور الانحلال المختلفة الى دنيا المراتب . لكنه بقى دائما أصل هذه الحضارات التى شكّلت مصاير العالم ، كما أنه قوِىّ الأثر فى حضارة هذا العصر الحاضر ، وإن حاولت هذه الحضارة أن تتخلّص منه وتقف فى وجهه وقوفا ما يزال الحينَ بعد الحين يستدرجها اليه . ومن يدرى لعله سيُدمجها فيه فى مستقبل قريب أو بعيد مرة أخرى .

فى هذه البيئة التى استندت حضاراتها منذ ألوف السنين الى أصل دينى ، نشأ أصحاب الرسالة بالأديان المعروفة حتى اليوم . فى مصر نشأ موسى وفى حِجر فرعون تُربِّى وهُذّب ، وعلى يد كهنته ورجال الدين من أهل دولته عَرف الوحدة الإلهيّة وعرف أسرار الكون ؛ فلما أذِن الله له فى هداية قومه ببلد كان فرعون يقول لأهله «أنا ربُّكم الأعلى» وقف يجادل فرعونَ وسحرته حتى اضطُّر آخر الأمر فهاجر ومعه بنو إسرائيل الى فِلَسْطِين . وفى فلسطين نشأ عيسى روح الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم . فلما رفع الله عيسى بن مريم اليه ، قام الحَوارِيّون من بعده يدعون الى المسيحية التى دعا اليها . ولقى الحواريون ومن اتبعهم أشدّ العنت ، حتى اذا أذِن الله للسيحية أن تنتشر حَمل عَلَمَها عاهل الروم صاحبة السيادة على العالم يومئذ ، فدانت الأمبراطورية الرومانية بدين عيسى ، وانتشرت المسيحية فى مصر والشام

قوى فى كيان الأمبراطورية الرومانية السياسى ؛ بل ظلّت هذه الأمبراطورية قوية متماسكة، وظلّت هـذه الفرق تعيش فى كنفها فى نوع من النضال لم يتعدّ الجدل الكلامى ولم يتعدّ المؤتمرات اللّاهوتية التى كانت تعقد لتبتّ فى مسألة من المسائل، فلا يكون لقرار طائفة ما من السلطان ما يلزم الطوائف أو الفرق الأخرى . وأظلّت الأمبراطورية هـذه الفرق جميعا بحمايتها، ومدّت لها جميعا فى حرية الجدل بما زاد فى سلطان الأمبراطور المدنى من غير أن يضعف من هيبته الدينية . فقد كانت كل فرقة تعتمد على عطفه عليها ، بل تذهب الى الزعم بأنها تعتمد على تأييـده إياها . وهـذا التماسك فى كيان الأمبراطورية هو الذى طوّع للسيحية أن يظـلّ انتشارها فى مسيره وأن تصـل من مصر الرومانيـة الى الحبشة المستقلة المحالفة للروم فتجعل لحوض البحر الأحمر من المكانة ما لحوض البحر الأبيض ، وأن تنتقل من الشام وفلسطين حيث دان بها أهلها ودان بها العرب الغساسنة الذين هاجروا اليهـا، الى شواطئ الفُرات ليدين بها أهـل الحِيرة ويؤمن بها اللَّخْمِيُّون والمَنَاذِرةُ الذين ارتحلوا من جدب الصحراء وباديتها ليستقرّوا فى هذه المدائن الخِصْبة العامرة ، وليكونوا مستقلّين زمنًا لِتحكُّمِهم الفرس المجوسية من بعده .

انحلال المجوسية

ولقـد أصاب المجوسية فى الفرس من أسباب الانحلال فى هذه الأثنـاء ما أصاب المسـيحية فى الأمبراطورية الرومانيـة . وإذا كانت عبادة النـار قد ظلّت الظاهرة المجوسية البادية للعيان ، فإن آلهة الخير والشر وأتباعها قد انقسمت كذلك عنـد المجوس فرقا وطوائف ، ليس ها هنا مكان عرضها . مع ذلك ظلّ كِيان الفرس السياسى قويّا لم يؤثر فيه هـذا الجدل الدينى حول صـور الآلهة والأفكار المطلقة التى ترتسم وراء هـذه الصور . واحتمت الفرق الدينيـة المختلفة بعاهل الفرس الذى أظلّها جميعا بلوائه والذى ازداد باختـلافها قوّة على قوّة ، أن جعل من اختلافها وسيلةً لضرب بعضها ببعض كلما خيف أن تقوى شوكة إحداها على حساب الملك أو على حساب الفرق الأخرى .

بالسـلطان وأصـبحت وارثة الأمبراطورية الرومانيـة المترامية الأطراف . وبلغ من انحلال رومية من بعـدُ أن أغار الفندال الهمج عليهـا وأخذوا بأيديهم مقاليد حكمها . وكان لهـذه الأحداث أثرها الطبيعى فى المسيحية التى نشأت فى أحضان رومية وذاق الذين آمنوا بعيسى أكبر تضحياتهم هولاً فى ظِلالها .

الفرق المسيحية

بدأت هذه المسيحية تتعدّد مذاهبها وينقسم كل مذهب على توالى الزمن فرقًا وأحزابا، وصار لكل شيعة فى أوضاع الدين وأُسسه رأى يخالف رأى الشيعة الأخرى. وتنكّرت هذه الطوائف بعضها لبعض بسبب خلافها فى الرأى تنكرًا أنتج العداوة الشخصية التى تلمسها حيثما دبّ الضعف الخلُقى والذهنى الى النفوس فجعلها سريعة الى الخوف، سريعة لذلك الى التعصب الأعمى، والجمود القتّال. كان من بين طوائف المسيحية فى تلك الأزمان من ينكرون أن لعيسى جسدًا يزيد على طيف يتبدّى به للنـاس . وكان من بينها من يزاوجون بين شخصه ونفسه زِواجًا رُوحيًّا يحتاج الى كثير من كدّ الخيال والذهن لتصوّره . وغير هؤلاء وأولئك من كانوا يعبـدون مريم ، على حين كان ينكر غيرهم بقاءها عذراء بعـد وضع المسيح . وكذلك كان الجدل بين أتبـاع عيسى جدل أيام الانحلال فى كل أمة وعصر ، يقف عند الألفاظ والأعداد يسبغ على كل لفظ وكل عدد من المعـانى ويُضفى عليـه من الأسرار ويحيطه من ألوان الخيال بمـا يعجز عنه المنطق ولا تُسيغه إلّا سفسطة الجدل العقيم .

قال أحد رهبان الكنيسة : ”كانت أطراف المدينـة جميعا ملأى بالجدل ، سواء فى ذلك الأسواق، وعند باعة الملابس، وصيارفة النقود، وباعة الأطعمة. فأنت تريد أن تبـدّل قطعة من ذهب ، فاذا بك فى جدل عما خلق وما لم يخلق . وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله : الأب أعظم من الابن والابن خاضع له . وأنت تسأل عن حمّامك وهل ماؤه ساخن فيجيبك غلامك : لقد خلق الابن من العدم “ .

على أن هذا الانحلال الذى طرأ على المسيحية فجعلها أحزابا وشيعا، لم يكن ذا أثر

من العيون، تتفجر عن ماء المطر الذى يتسلل خلال أرض البلاد الجرية، فينبت تفجره الخضرة المنتثرة هاهنا وهناك فى واحات تحيط بهذه العيون .

شبه جزيرة العرب مجهولة خلا اليمن

طبيعىٌّ فى بلادٍ هذه حالها أن تكون كصحراء إفريقية الكبرى لا يقيم بها مقيم ولا تعرف الحياة الإنسانية اليها سبيلا . وطبيعى ألا يكون لمن يحل بهذه الصحراء غرض أكثر من ارتيادها والنجاة بنفسه منها ، إلا فى هـذه النواحى القليلة التى تُنبت الكلأ والمرعى . وطبيعى أن تظل هـذه النواحى مجهولة من الناس ، لقلة من يغامر بحياته لارتيادها . وقد كانت بلاد العرب فيما سوى اليمن مجهولة بالفعل من أهل تلك العصور القديمة .

لكن موقعها أنجاها من الإقفار وأمسك عليها أهلها . ففى تلك العصور القديمة لم يكن الناس قد أمِنوا البحر ليتّخذوه مركبًا لتجارتهم أو لأسفارهم . وما تزال أمثال العرب تحت أنظارنا تُنبئنا بما كان من خوف الناس البحر كخوفهم الموت . فلم يكن بدٌّ اذًا للاتجار من أن تجد التجارة لها وسيلة انتقال غير هذا المركب الخطر المخوف . وكان أهم انتقال التجارة يومئذ بين الشرق والغرب، بين الروم وما وراءها والهند وما وراءها . وكانت بلاد العرب هى طريق انتقال هـذه التجارة التى كانت تجتاز اليها عن طريق مصر أو عن طريق الخليج الفارسىّ متخطية البوغاز الواقع على مدخل خليج فارس . فكان طبيعياً إذًا أن يكون بدو شبه جزيرة العرب هم أمراء الصحراء ، كما أصبح رجال السفن فى العصور التى تلت والتى طغى الماء فيها على اليابسة هم أمراء البحر . وكان طبيعيا إذًا أن يرسم أمراء الصحراء هؤلاء طُرق القوافل من أنحائها فيما لا يُخاف خطره ، كما يرسم رجال البحر خطوط سير السفن بعيدةً عن شِعاب البحر ومخاطره . يقول هِيرْن : «لم يكن طريق القافلة شيئا متروكا للاختيار بل كان مقررا بالعادة . ففى هـذه المراحل الفسيحة من الصحراء الرمليّة مما كان رجال القوافل يجتازون ، حَبَتِ الطبيعة المسافرَ بضعة أماكن مبعثرة فى جدب البادية يتخذها موئلًا لراحته . وهناك، فى ظلال

أمراء الصحراء

بلاد العرب بين القوتين

هاتان القوتان المتقابلتان، قوة المسيحية وقوة المجوسية ، قوة الغرب وقوة الشرق ، ومعهما الدويلات المتصلة بهما والخاضعة لنفوذهما ، كانتا فى أوائل القرن السادس الميلادى تحيطان بشبه جزيرة العرب . ومع ما كان لكل واحدة منهما من مطامع فى الاستعمار والتوسّع ، ومع ما كان يبذل رجال الدين فى كلتيهما من الجهود لنشر الدعوة الى العقيدة التى يؤمنون بها ، ظلت شبه الجزيرة وكأنها واحة حصينة آمنة من الغزو إلا فى بعض أطرافها ، آمنة من انتشار الدعوة الدينية ، مسيحيّة أو مجوسية ، إلا فى قليل من قبائلها . وهذه ظاهرة قد تبدو فى التاريخ عجيبة ، لولا ما يفسرها من موقع بلاد العرب ومن طبيعتها وما للموقع والطبيعة من أثر فى حياة أهلها وفى أخلاقهم وميولهم ونزعاتهم .

موقع شبه الجزيرة الجغرافى

فشبه جزيرة العرب مستطيل غير متوازى الأضلاع ، شماله فلسطين وبادية الشام ، وشرقه الحِيرة ودِجْلة والفُرات وخليج فارس ، وجنوبه المحيط الهندى وخليج عَدَن ، وغربه بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) . فهو اذًا حصين بالبحر من غربه وجنوبه ، حصين بالصحراء من شماله ، وبالصحراء وخليج فارس من شرقه . وليست هذه المناعة هى وحدها التى عصمته من الغزو الاستعمارى أو الغزو الدينى ، بل عصمه كذلك ترامى أطرافه . فطول شبه الجزيرة يبلغ أكثر من ألف كيلو متر ، وعرضها يبلغ نحو الألف من الكيلو مترات . وعصمه أكثر من هذا جَدْبُه جدبًا صرف عين كل مستعمر عنه . فليس فى هذه الناحية الفسيحة من الأرض نهر واحد ، وليست لأمطارها فصول معروفة يمكن الاعتماد عليها وتنظيم الضناعة إياها . وفيما خلا اليمن الواقعة جنوب شبه الجزيرة والممتازة بخِصْب أرضها وكثرة نزول المطر فيها ، فسائر بلاد العرب جبال ونجود وأودية غير ذات زرع وطبيعة جرداء لا تيسّر الاستقرار ولا تجاب الحضارة . وهى لا تشجّع على حياة غير حياة البادية وما تقضى به من الارتحال الدائم واتخاذ الجمل سفينة للصحراء وانتجاع مراعى الإبل ، والاستقرار عندها ريثما تجىء الإبل عليها ، ثم الارتحال من جديد انتجاعًا لمرعى جديد . وهذه المراعى التى ينتجعها بدو شبه الجزيرة إنما تنمو حول عين

استكناه أخبارها والتحقق من تفاصيل نُظُمها . لذلك ظلّت شبه الجزيرة مجهولة عند سائر العالم يومئذ، إلى أن أتاحت لها الأقدار، بعد ظهور محمد عليه الصلاة والسلام فيها، أن يقص أخبارها من نزَح عنها من أهلها وأن يقف العالم على كثير مما كان العالم من قبل ذلك فى أتمّ الجهل به .

حضارة اليمن

لم يَنِدّ من بلاد العرب عن جهالة العالم به سوى اليمن وما جاورها من البلاد المتاخمة للخليج الفارسى . وليس يرجع ذلك إلى متاخمتها الخليج الفارسى أو المحيط الهندى أو البحر الأحمر وكفى ، ولكنه يرجع قبل ذلك وأكثر منه إلى أنها لم تكن كسائر شبه الجزيرة صحراوية جرداء لا تَلفت العالم ولا تجعل لدولة من صداقتها فائدة ولا لمستعمر فيها مطمعا ، بل كانت على الضِّدّ من ذلك موطن خِصْب فى الأرض، ومطر منتظِم الفصول فى تهتانه ، ومن ثَمّ موطنَ حضارة مستقرّة ذات مدائن عامرة ، ومعابد قويّة على نضال الزمان . وكان سكّانها من بنى حِمْيَر ذوى فطنة وذكاء وعلم هداهم الى حسن الاستفادة من الأمطار حتى لا تتسرّب الى البحر فوق الأرض المنحدرة الى ناحيته . ولذلك أقاموا سدّ مَأْرِب ، فحوّلوا اتجاه المياه الطبيعى تحويلا تقتضيه حياة الحضارة والاستقرار . فقد كانت الأمطار، الى أن أقيم هذا السدّ، تنزل بجبال اليمن المرتفعة، ثم تنحدر فى وديان واقعة الى شرق مدينة مأرب . وكانت فى انحدارها الأوّل تنزل بين جبلين يقومان عن جانب هذه الوديان يفصل بينهما أربعمائة متر تقريبا ؛ فاذا بلغت مأرب انفرج الوادى انفراجًا تضيع المياه فيه كما تضيع فى منطقة السدود بأعالى النيل . فلما هدى العلم والذكاء أهل اليمن الى إقامة سدّ مأرب شيِّد بالحجر عند مضيق الوادى، وجُعلت له فتحات يمكن تصريف المياه منها وتوزيعها الى حيث يشاء الناس لتروى الأرض وتزيدها خِصْبا وإثمارا .

وإن ما كُشف وما لا يزالُ يكشف عنه حتى اليوم من آثار هذه الحضارة الحميريّة فى اليمن ليدلّ على أنها بلغت فى بعض العصور مكانا محمودا، وأنها صمدت لقسوة الزمان فى عصور قسا على اليمن فيها الزمان .

أشجار النخيل و إلى جانب المياه العذبة التى تجرى من حولها، يستطيع التاجر ودابّة حِمْله أن ينهلا من صيّبها ما أحوجهما اليه العنت الذى لقيا . وأصبحت منازل الراحة هـذه مستودعات للتجارة، وصار بعضها مُقـاما للهياكل والمحاريب، يتُابع التاجر فى حمايتها تجارته، و يلجأ الحاجّ اليها لالتماس العون منها[1] » .

طريقا القوافل

وكانت شبه الجزيرة تموج بطرق القوافل . على أن طريقين منها كانا رئيسيّين: فأمّا أحدهما فيُتاخم الخليج الفارسىّ، و يتاخم دجلة، و يقتحم بادية الشام إلى فلسطين؛ و يصح لمجاورته لحدود البلاد الشرقية أن يسمى طريق الشرق . وأمّا الآخر فيُتاخم البحر الأحمر، و يصح لذلك أن يسمى طريق الغرب . وعن هذين الطريقين كانت تنتقل مصنوعات الغـرب إلى الشرق ومتاجر الشرق الى الغرب، وكانت تُجْبَى إلى البادية أسباب الرخاء والرفاهية . على أن ذلك لم يزد أهلَ الغرب معرفةً بهذه البلاد التى تجتازها تجارتهم . فقد كان الذين يعبرونها من أهل الشرق والغرب قليلين؛ لمـا فى عبورها من مشقّة لا يحتملها إلا الذين اعتادوها منذ نعومة أظفارهم، والمجازفون الذين يستهينون بالحيـاة حتى أضاعها كثير منهم فى هـذه المَهَامِه والفَـدَافِد عبثا . وما احتمال رجل اعتاد بُلَهْنِيـة الحضَر لوعثاء هذه الجبال الجرداء التى تفصل تهامةُ بينها و بين شاطىء البحر الأحمر بفاصل ضيِّق؛ فاذا بلغها المسافر فى تلك الأيام التى لم تعرف غير الجمل مطيّةً للسفر، ظلّ يصعد بين قممها حتى تقذفه إلى هضاب نجد الصحراوية القليـلة الغَناء ! . وما احتمال رجل اعتاد النظام السياسى الذى يكفل للناس جميعا طمأنينتهم لعنت هـذه البادية التى لا يعرف أهلها نظاماً سياسيّا، بل تعيش كل قبيلة بل كل أُسرة بل كل فرد وليس ما ينظّم علاقاته بغـيره إلا روابط عصبيّة الأسرة والقبيلة، أو قوة الحِلْف، أو حِمَى الجوار يرجو الضـعيف به رعاية قوىٍّ إيّاه . فقد كانت حياة البادية فى كل العصور حياةً خارجة على كل نظام عرفه الحضر، مطمئنة إلى العيش فى حمى مبادئ القِصاص، ودفع العُدوان بالعـدوان، واغتيال الضعيف ما لم يجد من يُجيره . وليست هذه بالحياة التى تشجّع على التطلع إلى

(١) نقله موير فى كتابه (حياة محمد) ص XC

ما حاذاها من البلاد، وكانت حليفة الأمبراطورية البزنطية ورافعة علم المسيحية على البحر الأحمر، كما كانت بزنطية رافعة علمها على البحر الأبيض . فلمّا بلغت النجاشي رسالة القيصر بعث مع اليمني ، الذي حمل اليه هذه الرسالة ، جيشا جعل على رأسه أرْياط وفي جنده أبْرَهة الأشْرَم . وغزا أرْياط اليمن وملكها باسم عاهل الحبشة، وظلّ على حكمها حتى قتله أبرهة وجلس على العرش مكانه . وأبْرَهة هذا هو صاحب الفيل، وهو الذي غزا مكة ليهدم الكعبة فأخفق ، على نحو ما سيرى القارئ في الفصل الآتي[1] .

وملك أبناء أبرهة اليمن من بعده وفشا فيها استبدادهم . فلما طال على الناس البلاء خرج سَيْفُ بن ذي يَزَن الحميريّ حتى قَدِم على ملك الروم فشكا اليه ما هم فيه وسأله أن يبعث اليهم من الروم من يكون له ملك اليمن . لكن حِلف القيصر والنجاشي حال دون سماعه شكاية ابن ذي يَزَن ؛ فخرج من عند القيصر حتى أتى النُّعْمَانَ بن المُنْذِر، وهو عامل كِسْرَى على الحيرة وما يليها من أرض العراق .

حكم فارس اليمن

فلمّا دخل النعمان على كسرى أبْرَويز دخل سيف بن ذي يَزَن معه . وكان كسرى يجلس في إيوان مجالسه وقد جمع فيه أجزاء عرش دَارَا ، وكانت موشّاة بصور نجوم المجرّة ؛ فاذا كان في مشتاه وُضعت هذه الأجزاء يحيط بها ستار من أنفس الفِرَاء تتدلّى أثناءه ثُرَيّات من فضة وأخرى من ذهب ملئت بالماء الفاتر

(١) تجرى بعض كتب التاريخ برواية أخرى عن سبب غزو الحبشة اليمن . وهذه الرواية تذهب الى أن التجارة كانت متصلة بين العرب المستعربة بالحجاز وبين اليمن والحبشة . وكانت الحبشة يومئذ ذات شواطئ ممتدّة على البحر الأحمر وصاحبة أسطول للتجارة . وقد طمعت الروم في غزو اليمن للاستفادة من ثروتها وخصبها ، فجهز إيلياس جالس حاكم مصر من قبل أمبراطور الروم لغزو اليمن وضمها الى الأمبراطورية . وركب الجيش البحر الأحمر الى اليمن وغزاها وبلغ نجران . لكن الأمراض فتكت به ويسرت لأهل اليمن مقاومته فارتدّ عنها عائدا الى مصر . ثم كانت بعد هذه الغزوة غزوات قام بها الروم ضدّ العرب في اليمن وفي غير اليمن . لكنها لم تكن أيمن من غزوة جالس حظا . إذ ذاك بدا لنجاشي الحبشة أن ينتقم من اليمن التي فشت فيها اليهودية للروم المسيحيين مثله ، فجهز جيش أرياط فغزا اليمن واستقر بها الى أن أجلاه الفرس عنها .

اليهودية والنصرانية فى بلاد اليمن

على أن هذه الحضارة وليدةَ الخِصْب والاستقرار جلبت على اليمن من الأذى ما منع الجدبُ منه أواسط شبه الجزيرة . فقد ظلّ ملك اليمن فى بنى حمير يتوارثونه حينًا ويثب عليه حميرىّ من الشعب حينا آخر حتى ملكهم ذو نُوَاس الحميرىّ . وكان ذو نواس هذا ميّالًا الى دين موسى، راغبا عن الوثنية التى تورّط فيها قومه . وكان قد أخذ هذا الدين عن اليهود الذين هاجروا الى اليمن وأقاموا بها . وذونواس الحميرىّ هذا هو، فيما يذكر المؤرخون، صاحب قصة أصحاب الأُخدود التى نزل فيها قوله تعالى : ﴿قُتِلَ أصحابُ الأُخْدُودِ . النَّارِ ذاتِ الوَقُودِ . إِذْ هُمْ عليها قُعُودٌ . وهم عَلَى ما يَفْعَلُون بِالمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾(١). وخلاصة هذه القصة أن رجلا صالحا من أتباع عيسى يدعى قيميون، كان قد هاجر من بلاد الروم واستقر بنَجْران فاتبعه أهلها لِمـا رأوا من صلاحه . وظلّ عددهم يزداد حتى استفحل أمرهم . فلما نُمِى خبرهم الى ذى نُوَاس سار الى نجران ودعا أهلها الى الدخول فى اليهوديّة أو يُقتلوا . فلما أبَوْا شقّ لهم أُخدودًا أوقد فيه النار ثم ألقى بهم فيها، ومن لم يمت بالنار قُتل بالسيف ومُثِّل به . وقد هلك منهم، على رواية كتب السيرة، عشرون ألفا . ثم إن أحد هؤلاء النصارى فر من القتل ومن يد ذى نواس وسار حتى أتى قيصر الروم جوستنيان فآستنصره على ذى نُواس . ولمـّا كانت الروم بعيدة عن اليمن كتب القيصر الى النجاشى ليأخذ بالثأر من ملك اليمن . ويومئذ (فى القرن السادس الميلادىّ) كانت الحبشة والنجاشى على رأسها فى ذروة مجدها، بجرى بأمرها على البحار تجارة واسعة، ويمخر لها العُبابَ أسطولٌ قوىّ(٢) يجعلها تتسلّط بنفوذها على

(١) سورة البروج الآيات من ٤ الى ٨ (٢) هذه الرواية وردت فى أكثر الكتب والمراجع . سجلتها دائرة المعارف البريطانية وأخذ بها مؤرخو كتاب (Historian's History of the World) واعتمدها درمنجم فى كتاب "حياة محمد" . على أن الطبرى روى عن هشام بن محمد أنه لمـا ذهب اليمنى يستنجد النجاشى على ذى نواس وأنبأه بما فعل نصير اليهودية بالنصارى وأراه الإنجيل قد أحرقت النار بعضه، قال له النجاشى : "الرجال عندى كثير وليست عندى سفن، وأنا كاتب الى قيصر فى البعثة إلىّ بسفن أحمل فيها الرجال . فكتب الى قيصر فى ذلك وبعث اليه بالانجيل المحرق، فبعث اليه قيصر بسفن كثيرة" . ويضيف الطبرى : "وأما هشام بن محمد فانه زعم أن السفن لمـا قدمت على النجاشى من عند قيصر حمل جيشه فيها فخرجوا فى ساحل المندب" . (راجع الطبرى طبعة المطبعة الحسينية جزء ٢ ص ١٠٦ و ١٠٨) .

انهيار سد مأرب

هذا النزاع الذى كانت اليمن مسرحه منذ القرن الرابع المسيحى كان عميق الأثر فى تاريخ شبه جزيرة العرب من حيث توزيع سكانها . فقد قيل : إن سَدّ مأرِب الذى غيّر الحِمْـيَريّون الطبيعة به لفائدة بلادهم ، قد طغى عليه سَيْل العَرِم فحطّمه ، لأن هذه المنازعات المستمرة صرفت الناس وصرفت الحكومات المتعاقبة عن تعهُّده والاستمرار فى تقويته ، فضعُف فلم يقوَ على صد هذا السيل . وقيل : إن ملك الروم لمّا رأى اليمن موطن نزاع بينه و بين فارس وأن تجارته مهدّدة من جرّاء هذا النزاع ، جهّز أسطولًا يشقّ البحر الأحمر ما بين مصر و بلاد الشرق البعيدة ليجلب التجارة التى تحتاج إليها بزنطية ، و يستغنى بذلك عن طريق القوافل . ويذكر المؤرّخون واقعة يتّفقون عليها ويختلفون فى السبب الذى أدّى إليها . هذه الواقعة هى هجرة أَزْد اليمن إلى الشّمال ، فكلّهم يقول بهذه الهجرة و إن نسبها بعضهم إلى إقفار كثير من مدائن اليمن بسبب اضمحلال التجارة التى كانت تمرّ بها ، وعزاها آخرون الى انقطاع سدّ مأرِب واضطرار كثير من القبائل إلى الهجرة مخافة الهلاك . وأيًّا ما كانت الحقيقة فهذه الهجرة هى السبب فى اتصال اليمن بسائر بلاد العرب اتصال نسب واختلاط ما يزال الباحثون يحاولون حتى اليوم تحديده .

نظام شبه الجزيرة الاجتماعى

إذا كان النظام السياسى قد اضطرب فى اليمن على نحو ما رأيت بسبب الظروف التى مرّت بلاد الحميريين بها ، والغزوات التى كانت تلك البلاد مَيْدانًا لها ، فقد كان هذا النظام السياسى غير معروف فى سائر بلاد شبه الجزيرة . وكل نظام يمكن أن يوصف بأنه نظام سياسىّ على المعنى الذى نفهمه نحن اليوم أو الذى كانت الأمم المتحضرة تفهمه فى تلك الأيام ، كان مجهولًا فى ربوع تهامة والحجاز ونَجْد وتلك المساحات الشاسعة التى منها كانت تتكوّن بلاد العرب . فقد كان هؤلاء الناس ، كما لا يزال أكثرهم حتى اليوم ، أهل بادية لا يألَفون الحضَر ، ولا يطيب لهم المُقام ولا الاستقرار بأرض معيّنة ، ولا يعرفون غير دوام الارتحال والنقلة طلبًا للمرعى و إرضاءً لهوى نفوسهم التى لم تعرف غير حياة البادية ولا تطيق

ونُصب فوقها تاجه العظيم يضرب فيــه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة مشدودًا إلى السقف بسلسلة من ذهب . وكان يلبس نسيج الذهب ويتّشح بحلىّ الذهب ؛ فما يلبث من يدخل إلى مجلسه أن تأخذه هيبته حين يراه . وكذلك كان شأن سيف بن ذى يزن . فلما تطامنَ وسأله كسرى عن أمره وما جاء فيه قص عليه أمرَ الحبشة وظُلمَها اليمن . وتردّد كسرى بادئ الرأى ، ثم بعث معه جيشًا على رأسه وَهْرِز من خير بيوت فارس وأكثرها فروسـيّة وشجاعة . وتغلّب الفـرس وأجلوا الحبشان عن اليمن بعد أن ملكوها اثنتين وسبعين سنة . وظلّت اليمن فى حكم فارس حتى كان الإســلام ودخلت مع سائر البلاد العربيــة فى دين الله وفى الأمبراطورية الإسلاميـــة .

حكم شيرويه فارس

على أن الأعاجم الذين تولّوْا أمر اليمن لم يكونوا تابعين بصورة مباشرة الى ملك فارس . وكان الأمر كذلك بنوع خاص بعــد أن قتل شِيرَوَيْهِ أباه كسرى أبرويز وقام فى الملك مقامه . فقد خُيِّل اليه فى غَرارة سذاجته أن العوالم تسير على هواه ، وأن ممــالك الأرض تعمل لملء خزائنه ولتزيد فيما أغرق فيه نفسه من نعيم . ثم إن هذا الملك الشابّ انصرف عن كثير من شؤون الملك الى مُتَعه وملذّاته ؛ فكان يخرج للصيد فى تَرَفٍ لم تسمع بمثله أُذن ؛ كان يخرج يحيط به الشبّان الأمراء فى ثياب حمر وصفر وبَنَفْسَجِيّة ومن حولهم حَمَلة البُزاة والخدم يُمسكون الفُهود الأليفة بالكمامات ، والعبيد حملة الطيب ومطاردو الذُّباب والموسيقيون . وليُشْعِر نفسَه فى قُرّ الشــتاء ببهاء الربيع كان يجلس وحاشيته على بساط فسيح صُوِّرت عليه طرق المملكة ومزارعها وفيها الأزهار المختلفــة الألوان من ورائها الأحراش والغابات الخُضر والأنهار ذات اللون الفضىّ . على أن فارس ، رغم انصراف شيرويه إلى مَسَرّاته ، كانت ما تزال محتفظة بمجدها ، وكانت المنافسَ القوىَّ لسلطان بزنطية ولانتشار المسيحيــة ، وإن كان اعتلاء شيرويه عرشها قد آذن بأُفول هذا المجد ومهّد لغزو المسلمين من بعدُ إياها ولانتشار الإسلام فيها .

التى يأوى اليها التجار يقطعون عندها متاعب رحلاتهم المضنية، ويجدون بها هيا كل عبادة يشكرون فيها الآلهة أن منّت عليهم النجاةَ من أخطار الفلوات ، وأن جلبت تجارتهم سالمةً الى حيث وصلوا . من هذه البلاد مكّة والطائف ويَثْرِب وأشباهها من الواحات المنتثرة بين الجبال أو خلال رمال الصحراء . تأثّرت هذه البلاد بطبائع البادية، فكانت أقرب الى البداوة منها الى الحضارة فى نظام قبائلها وطوائفها وفى أخلاق أهلها وعاداتهم وفى شدّة نفورهم من كل حَدٍّ لحريتهم، وإن أكرهتهم حياة الاستقرار على نوع من الحياة غير ما اعتاد أهل البادية . وسترى شيئا من تفصيل ذلك عند الكلام فى الفصول الآتية عن مكة وعن يثرب .

وثنية العرب وأسبابها

هذه البيئة الطبيعية وما ترتب عليها من هذه الأحوال الخُلقية والسياسية والاجتماعية كان لها أثرٌ مشابه فى الحال الدينية . فهل تأثّرت اليمن، بطبيعة اتصالها بمسيحية الروم ومجوسية الفرس، بهذين الدينين وأثّرت بهما فى سائر بلاد شبه الجزيرة ؟ هذا ما يتبادر إلى الذهن ؛ وهو كذلك بنوع خاص فى أمر المسيحية .

نشاط المسيحية

فالمبشرون بدين عيسى كان لهم فى ذلك العصر ما لهم اليوم من نشاط فى الدعوة إلى دينهم والتبشير به . وفى طبيعة حياة البادية من تحريك المعانى الدينية فى النفس ما ليس فى طبيعة حياة الحضَر . فى حياة البادية يتّصل الإنسان بالكون فى كثير من صور لا نهاية الوجود وألوانها ، ويشعر بضرورة تنظيم ما بينه وبين الوجود فى لانهايته . أمّا رجل الحضر فمحجوب عن لا نهاية الوجود بمشاغله، محجوب عنها بحماية الجماعة إياه لقاء نزوله للجماعة عن جانب من حريته . وإذعانُه لسلطان الحاكم كى ينال حمايته يقصُر به عن الاتصال بما وراء الحاكم من القوى الطبيعية القويّة الأثر فى الحياة، ويُضعف لذلك عنده روح الاتصال بعناصر الطبيعة المحيطة به . ولا شىء من ذلك يحول بين رجل البادية والمعانى الدينية التى تحرّكها حياة البادية فى النفس .

تُرى هل أفادت المسيحيّة الجمّة النشاط منذ عصورها الأولى من هذه الظروف كلها فى سبيل ذيوعها وانتشارها ؟! ربما انتهى الأمر الى ذلك لولا أمور أخرى

حياة غيرها . وأساس حياة البادية، حيث وُجدت من بقاع الأرض ، إنما هى القبيلة . والقبائل الدائمة التَّجْوال والتَّرحال لا تعرف قانونًا كالذى نعرف، ولا تخضع لنظام كالذى نخضع له ، ولا تصبر على مادون الحرّية كاملةً للفرد وللأسرة وللقبيلة كلها . وإذا كان أهل الحضر يرضَون النزول باسم النظام عن جانب من حريّتهم للمجموع أو للحاكم المطلق مُقابل ما ينعَمون به من طُمأنينة ورخاء، فرجل البادية الزاهد فى الرخاء البَرِم بطمأنينة الاستقرار ، لا يخدعه عن شىء من حريّته الكاملة رجاءٌ فيما يفرَح به أهل المدن من جاه أو مال، ولا يرضى بما دون المساواة الكاملة بينه وبين أفراد قبيلته جميعا وبين قبيلته وغيرها من القبائل . وإنما ينتظم حياتَه ما ينتظم سائرَ الخلق من حبّ البقاء والحرص عليه والدفاع عنه، على أن يكون ذلك كله متّفقًا مع قواعد الشرف التى تمليها عليه حياة البادية الحرة . لذلك لم يكن أهل هذه البادية يقيمون على ضيمٍ يُراد بهم ، بل كانوا يدفعونه بقوتهم، فإن لم يستطيعوا دفعه تخلَّوْا عن مواطنهم وارتحلوا عن شبه الجزيرة كلها إذا لم يكن من هذا الارتحال بدٌّ . ولذلك لم يكن شىء أيسر عند هذه القبائل من القتال إذا نبت خلاف لم يتيسر فى ظلال قواعد الكرامة والمروءة والشرف الفصل فيه .

الخلال البدوية

ومِن ثَمَّ نجمت فى كثير من هذه القبائل خِلال الكرم والشجاعة والنجدة وحماية الجار والعفو عند المقدرة وما الى ذلك من خلال تقوَى فى النفس كلما قاربت حياة البادية، وتضعُف وتضمحلّ فيها كلما أوغلت فى أسباب الحضارة . ولذلك، ولما قدّمنا من أسباب اقتصادية، لم تطمَع بزنطية ولا طمعت فارس فيما سوى اليمن من بلاد شبه الجزيرة التى لم تكن لتخضع ؛ لأنها تُؤْثر على الخضوع هجرة الوطن، ولأن أفرادها وقبائلها لا يدينون بالطاعة لنظام قائم ولا لهيئة حاكمة تخضعهم أو تتسلط عليهم .

وقد أثّرت هذه الطبائع البدوية ، الى حدّ كبير، فى البلاد القليلة التى نشأت فى أنحاء شبه الجزيرة بسبب تجارة القوافل على نحو ما قدّمنا ، هذه البلاد الصغيرة

وثنيتهم التى وُلدوا فيها وتابعوا آباءهم عليها . ولذلك ظلّت عبادة الأصنام مزدهرة عندهم، حتى امتدّ شىء من أثرها إلى جيرانهم نصارى نَجْران ويهود يثرب الذين تسامحوا فى أمرها ثم احتملوها ثم اطمأنّوا اليها ، أن كانت من صِلَات التجارة الحسنة بينهم وبين هؤلاء العرب الذين يعبدونها لِتُقَرِّبهم إلى الله زُلْفَى .

انتشار الوثنية

ولعل تناحر الفرق المسيحية لم يكن وحده السبب فى إصرار العرب على وثنيّتهم؛ فقد كانت الوثنيات المختلفة ما تزال لها بقايا فى الأمم التى انتشرت المسيحية فيها . كانت الوثنية المصرية والوثنية الإغريقية ما تزالان تتبدّيان من خلال المذاهب المختلفة، ومن خلال بعض المذاهب المسيحية نفسها. وكانت مدرسة الإسكندريّة وفلسفتها ما تزال ذات أثر، إن يكن أقلّ كثيرا ممـا كان فى عهد البطالسة وفى أوّل العهد المسيحى ، فقد كان على كل حال ما يزال متغلغلاً فى النفوس ، وما يزال منطقه البرّاق المظهر، وإن يكن سفسطائىّ الجوهر ، يُغرى بهذه الوثنيّة المتعددة الآلهة، القريبة بآلهتها إلى سلطان الإنسان، المحبَّبة لذلك إليه . وأكبر ظنِّى أن هذا هو ما يشتدّ بالنفوس الضعيفة الى الحرص على الوثنيّة فى كل الأزمان، وفى زماننا هذا. النفوس الضعيفة أعجز من أن تسمو حتى تتصل بالوجود كله كيما تدرك وَحْدته ممثّلةً فيما هو أسمى من كل ما فى الوجود : ممثّلةً فى الله ذى الجلال . وهى لذلك تقف عند مظهر من مظاهر هذا الوجود كالشمس أو كالقمر أو كالنار، ثم تضعُف عن السموّ الى تصور ما يدل هذا المظهر عليه من وحدة الوجود .

هذه النفوس الضعيفة تكتفى بوَثَنٍ يتمثّل لها فيه معنًى مبهم وضيع من الوجود ووحدته، فتتصل بهذا الوثن وتخلع عليه من صور التقديس ما لا نزال نراه فى بلاد العالَم جميعا، على رغم ما يزعم هذا العالم من تقدُّم فى العلم وسموّ فى الحضارة . من ذلك ما يراه الذين يزورون كنيسة القِدِّيس بطرس فى رومية؛ فهم يرون قَدم التمثال المُقام بها للقِدّيس تَبرِيها قُبلاتُ عِباده المؤمنين، ثم تُضطرّ الكنيسة الى تغييرها كلما انبرت. وما نحسبنا ونحن نرى ذلك إلا نلتمس العذر لأولئك الذين لمّا

حالت دونه وأبقت بلاد العرب كلها واليمن معها على الوثنيّة دين آبائها وأجدادها ، إلّا قليلا كان من القبائل التى لانت للدعوة المسيحية .

المسيحية واليهودية

فقد كانت أقوى مظاهر الحضارة العالمية فى ذلك العصر تُحيط ، كما رأيت ، بحوضَى البحر الأبيض (بحر الرُّوم) والبحر الأحمر (بحر القُلْزُم) . وكانت المسيحية واليهودية تتجاوران فى ذلك المحيط تجاورًا إلا يكن فيه عِداءٌ ظاهر فليست فيه مودّة ظاهرة . وكان اليهود وما يزالون الى يومئذ يذكرون ثورة عيسى بهم وخروجه على دينهم ، فكانوا يعملون فى الخفية ما استطاعوا لصدّ تيار المسيحية التى أخرجتهم من أرض المَعَاد ، والتى استظلت بلواء الروم فى أمبراطوريتها الفسيحة المترامية الأطراف ؛ وكان لليهود فى بلاد العرب جالياتٌ كبيرة يقيم أكثرها فى اليمن وفى يَثْرِب . ثم كانت مجوسية الفرس تقف فى وجه القوّات المسيحية حتى لا تعبر الفرات إلى فارس ، وتؤيّد بقوّتها المعنوية أوضاع الوثنية حيثما وُجدت الوثنية .

تناحر الفرق المسيحية

وكان سقوط رومية وزوال سلطانها بعد انتقال عاصمة حضارة العالم إلى بزنطية وما تلا ذلك من بوادر التحلّل ، قد أكثر الشِّيع فى المسيحية كثرةً جعلتها — كما قدّمنا — تتناحر وتقتتل وتَهْوِى من عليا مراتب الإيمان الى الجدل فى الصور والألفاظ وفى مبلغ قدسية مريم وتقدّمها على ابنها المسيح أو تقدّمه عليها ، جدلًا هو النذير أنّى وُجد بتدهور ما يجرى فى شأنه وما يحتدم من أجله ؛ ذلك بأنه يذر اللُّبّ ويأخذ بالقشور ، ويظلّ يكدّس من هذه القشور فوق اللُّبّ ما يخفيه وما يجعل من المحال على الناس إدراكه أو اختراق حجب القشور اليه .

وقد كان ما يحتدم جدل نصارى الشام حوله غيرَ ما يحتدم جدل أهل الحِيرة أو أهل الحبشة حوله . ولم يكن اليهود بطبيعة صلتهم بالنصارى ليعملوا على تهدئة هذا الجدل أو التسكين من حدّته . لذلك كان طبيعيا أن يظلّ العرب الذين يتصلون فى رحلتى الشتاء والصيف بنصارى الشام وبنصارى اليمن ومن يفدون عليهم من نصارى الحبشة بعيدين عن أن ينتصروا لفريق على فريق ، مطمئنّين إلى

بل كان أكثرهم يتخذ له صنمًا أو نُصُبا فى بيتـه، يطوف به حين خروجه وساعة أوبته و يأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم فى السفر . وهـذه الأصنام جميعا ، سواء منها ما كان بالكعبة أو حولها وما كان فى مختلف جهات بلاد العرب و بين مختلف قبائلها ، كانت تعتبر الوسـيط بين عبادها و بين الإله الأكبر . وكان العرب لذلك يعتبرون عبادتهم إيّاها زُلْفَى يتقرّبون بها الى الله ، و إن كانوا قد نسوا عبادة الله لعبادتهم هذه الأصنام .

مكانة مكة

وعلى الرغم من أن اليمن كانت أرقى بلاد شـبه الجزيرة كلها حضـارةً بسبب خِصْبها وحسن تنظيم انحدار الميـاه إلى أرضها، لم تكن مع ذلك مطمح بصر أهل هـذه البلاد الصحراويّة المترامية الأطراف ، ولم يكن الى معابدها حجيجهم؛ و إنمـا كانت مكة وكانت كعبتهـا بيت إسمـاعيل مَثَابة الحاجِّ؛ إليهـا كانت تشدّ الرحال وتشخص الأبصار ، وفيهـا أكثر من كل جهـة سواها كانت تُرْعَى الأشهر الحُرُم . لذلك ولمركزها الممتاز فى شؤون تجارة بلاد العرب كلها ، كانت تعتبر عاصمة شبه الجزيرة . ثم أراد القـدر من بعدُ أن تكون مَسْقَط رأس محمد النبيّ العربى ؛ فتكون بذلك مُتَّجَهَ نظر العالم على توالى القرون، وتظلّ لبيتها العتيق قدسيته، وتبقى لقريش فيها المكانة السامية، و إن ظلّت وظلّوا جميعا أدنى إلى خشونة البداوة التى كانوا عليها منذ عشرات القرون .

يكن الله قد هداهم الى الإيمان، والذين كانوا يرون تناحر جيرانهم النصارى و بقاء أوضاع الوثنية بينهم، حين يقيمون على عبادة الأوثان التى كان يعبد آباؤهم . وكيف لا نعذرهم وهذه الأوضاع متأصّلة فى العالم باقية بقاءً لم ينقطع حتى اليوم وما أحسبه ينقطع أبدا ؛ بقاءً يفسّر هذه الوثنية التى يرتضيها المسلمون اليوم فى دينهم ، وهو الذى جاء حربًا على الوثنيّة ، وهو الذى قضى على كل عبادة غير عبادة الله ذى الجلال .

عبادة الأصنام

ولقد كانت للعرب فى عبادة الأوثان أفانين شتى يصعُب على باحث اليوم أن يحيط بها . فقد حطّم النبي الأصنام وأمر أصحابه بتحطيمها حيثما ثَقِفوها ، وتناهى المسلمون عن التحدّث عنها بعد أن عَفَّوْا على آثارها وأزالوا من الوجود فى التاريخ وفى الأدبِ كل ما يتّصل بها . على أن ما ورد من ذكرها فى القرآن وما تناقلته الروايات فى القرن الثانى للهجرة عنها بعد إذ أمِن المسلمون فتنتها ، ينبئ عما كان لها قبل الإسلام من جليل المكانة وما كانت عليه من مختلف الصور، ويدلّ على أنها كانت درجات فى القدسية. ولقد كان لكلّ قبيلة صنم تدين له بالعبادة. وكانت هذه المعبودات الجاهلية تختلف ما بين الصنم والوثَن والنُّصُب . فالصنم ما كان على شكل الإنسان من معدن أو خشب . والوثن ما كان على شكله من حجر . أمّا النصب فصخرةٌ غير ذات صورة معينة تُجرى عليها قبيلة من القبائل أوضاع العبادة لما تزعمه من أصلها السماوىّ أن كانت حجرا بركانيًّا أو ما يشبهه . ولعلّ أدق الأصنام صنعًا ما كان لأهل اليمن . ولا عجب، لحظّهم من الحضارة لم يعرفه أهل الحجاز ولا عرفه أهل نجد وكِنْدة . على أن كتب الأصنام لا تُشير بالدقة الى شيء من صور هذه الأصنام إلا ما قيل عن هُبَل من أنه كان من العقيق على صورة الإنسان، وأن ذِراعه كسرت فأبدله القرشيون منها ذراعًا من ذهب . وهُبَل كبير آلهة العرب وساكن الكعبة بمكة ، يحجّ اليه الناس من كل فجٍّ عميق . ولم يكن العرب ليكتفوا بهذه الأصنام الكبرى يقدّمون اليها صلواتهم وقرابينهم ،

قومه يعبدونها . فلما شبّ إبراهيم ورأى الأصنام يصنعها أبوه ثم رأى قومه من بعد ذلك كيف يعبدونها وكيف يخلعون على هـذه القطع من الخشب التى مرّت بين يديه ويدى أبيه كل ذلك التقديس، ساوره الشك فى أمرها، وسأل أباه : كيف يعبدها وهى من صنع يده ؟ ! وتحدث إبراهيم بذلك الى الناس؛ فاهتم أبوه لأمره مخافة ما يجرّه من بوار تجارته . لكن إبراهيم كان ممن يحترمون عقولهم ويريدون أن يحملوا الناس بالحجـة على الاقتناع بآرائهم . فانتهز غفلةً من الناس فذهب الى هـذه الآلهة فكسرها إلّا كبيرها . فلما جىء به على أعين الناس قيل له : ﴿ أأنتَ فعلتَ هـذا بآلِهتنا يا إبراهيمُ . قال بل فعَله كَبِيرُهم هـذا فاسألوهم إن كانوا ينْطِقون ﴾ [1] .

وإنما فعل إبراهيم هذا بعد إذ فكر فى ضلال عبادة الأصنام وفيمن تجب له العبادة. ﴿ فلما جَنّ عَلَيْهِ اللّيْلُ رأى كَوْكَبًا قال هـذا رَبِّى فلمّا أفَلَ قال لا أُحبّ الآفِلِينَ . فلمّـا رأى القَمَرَ بازِغًا قال هذا رَبِّى فلمّـا أَفَلَ قال لَئِنْ لم يَهْدِنِى ربِّى لأكُونَنّ من القَوْمِ الضّالِّينَ . فلمّا رأى الشّمْسَ بَازِغَةً قال هذا ربِّى هذا أكبرُ فلما أَفَلَتْ قال يَاقَوْمِ إنى بَرِىءٌ مِمّـا تُشرِكُونَ . إنّى وَجّهْتُ وَجْهِىَ لِلّذِى فَطَرَ السّمٰواتِ والأرْضَ حَنِيفًا وما أنَا مِن المُشْرِكين ﴾ [2] .

ولم ينجح إبراهيم فى هداية قومه بل كان جزاؤه منهم أن ألقوه فى النار . وأنجاه الله منها؛ ففرّ إلى فلسطين مستصحبًا معه زوجه سارَة . ومن فَلَسْطِين ارتحل إلى مصر، وبها يومئذ ملوك العَمَاليق (الهكسوس) . وكانت سارة جميـلةً، وكان الملوك الهكسوس يأخذون الجميلات المتزوّجات ؛ فأظهـر إبراهيم أن سارة أختـه خشية أن يقتله الملك ليتّخذها له زوجا . وأراد الملك اتخاذها زوجا، فرأى فى المنام أنها ذات بعل فردّها الى إبراهيم بعد أن عاتبه وأعطاه هدايا من بينها جارية تدعى هاجَر . ولمـا كانت سارة قد ساخت السنين الطّوال مع إبراهيم ولم تلد، دفعته ليدخل بهاجر، فدخل بها فلم تُبطئ أن ولدت له إسماعيل . وبعد أن شبّ إسماعيل وترعرع حملت سارة وولدت إسحاق . إبراهـيم وسارة بمصر

(١) سورة الأنبياء آيتى ٦٢ و ٦٣ (٢) سورة الأنعام الآيات من ٧٦ الى ٧٩

الفصل الثانى

مكة والكعبة وقريش

موقع مكة — ابراهيم واسماعيل — قصة الفداء والذبح — زمزم — زواج إسماعيل من جرهم — بناء الكعبة — ولاية جرهم أمر مكة — قصىّ وأولاده — اجتماع أمر مكة لقصى القرشى — هاشم وعبد المطلب — وظائف مكة الزمنية والدينية — الحاج الى الكعبة — قصة أبرهة والفيل — عبد الله بن عبد المطلب — قصة فدائه

موقع مكة

فى وسط طريق القوافل المحاذى للبحر الأحمر ما بين اليمن وَفِلَسْطين ، تقوم عدّة سلاسل من الجبال تبعد نحو الثمانين كيلو مترا من الشاطئ . وهى تحيط بواد غير فسيح ، تكاد تحصره لولا مَنَافذ ثلاثة ، يصله أحدها بطريق اليمن ، ويصله الثانى بطريق قريب من البحر الأحمر (بحر القُلْزُم) عند مرفأ جُدّة ، ويصله الثالث بالطريق المؤدّى إلى فلسطين . فى هذا الوادى المحصور بين الجبال تقوم مكة . ومن العسير معرفة تاريخ قيامها . وأكثرُ الظنّ أنه يرجع إلى ألوف من السنين خلتْ . والثابت أنّ واديها اتُّخذ من قبلِ أن تبنى موئلًا لراحة رجال القوافل ، بسبب ما كان به من بعض العيون ، وأن رجال القوافل هؤلاء كانوا يجعلون منها مَضارب لخيامهم سواء منهم القادمون من ناحية اليمن قاصدين فلسطين ، والقادمون من فلسطين متّجهين إلى اليمن . والراجح أن إسماعيل بن إبراهيم أوّل من اتخذها مُقامًا وسكنًا ، بعد أن كانت مجرّد مَحَلّة للقوافل وسوقا للتجارة يقع فيها التبادل بين الآتين من جنوب شبه الجزيرة والمنحدرين من شمالها .

وإذ كان إسماعيل أوّل من اتخذ مكة مقامًا وسكنًا فإن تاريخها فيما قبل ذلك غامض كل الغموض . وربما أمكن القول بأنها اتُّخذت مُقامًا للعبادة قبل أن يجىء إسماعيل اليها ويقيم بها . وقصة مجيئه اليها تدعونا إلى أن نلخِّص قصة أبيه إبراهيم عليهما السلام : فقد وُلد إبراهيم بالعراق لأب نجّار كان يصنع الأصنام ويبيعها من

إبراهيم عليه السلام

قالت : ذهب به يحتطب لنا من هذا الشِّعْب . قال الشيطان : والله ما ذهب به إلّا ليذبحه . قالت الأم : كلا ! هو أشفق به وأشدّ حبا له . قال الشيطان : إنه يزعم أن الله أمره بذلك . فأجابت الأمّ : إن كان الله قد أمره بذلك فليطع أمر ربّه . فانصرف الشيطان خاسئا . ثم لِحق بالآبن وهو يتبع أباه ، وألقى إبليس عليه ما ألقى على أمّه ، وأجاب الآبن بما أجابت هى به . فأقبل الشيطان على إبراهيم يذكر له أن المنام الذى رأى خدعة من الشيطان ليذبح ابنه ثم ينـدَم ولات ساعة مَنْدَم . فصرَفه إبراهيم ولعنه ، فنكَص إبليس على عقبيه خَزْيان مُحْنَقا أنْ لم ينل من إبراهيم ولا من زوجه ولا ابنه ما أراد أن ينال منهم . ثم إن إبراهيم أفضى الى ابنه برؤياه وسأله رأيه فى الأمر . قال : يا أبت افعَلْ ما تُؤمَرُ . ثم قال فى رواية القصة الشعرية : يا أبتاه ! إذا أردت ذبحى فاشدُدْ وَثاقى لئلا يصيبك شىء من دمى فينقص أجرى . وإنّ الموت لشديد ولا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدت مسّه ، فاشْحَذْ شَفْرتك حتى تُجْهِز علىّ ، فاذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فاكْبُبْنى على وجهى ولا تُضجعنى لجنبى ، فإنى أخشى إن أنت نظرتَ الى وجهى أن تُدركك الرّقة فتحول بينك وبين أمر ربك فىّ . وإن رأيت أن تردّ قميصى الى أمِّى فإنّه عسى أن يكون أَسْلَى لها عنّى فافعلْ . قال إبراهيم : نِعم العون يا بُنَىّ أنت على أمر الله ! . ثم إنه همّ بالتنفيذ فشدّ كِتَافَ الغلامَ وتلّه للجبين وأراد أن يقتله ، فنُودى أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا ، وافتُدى الغلام بكبش عظيم وجده إبراهيم على مقربة منه فذبحه وحرّقه .

هذه قصة الذبح والفداء . وهى قصة الإسلام لأمر الله غاية الإسلام والتسليم لقضائه كل التسليم .

ابراهيم يذهب باسماعيل وأمه الى وادى مكة

وشبّ إسحاق الى جانب إسماعيل ، وتساوى عطف الأب على الاثنين ، فأغضب ذلك سارَة أن رأت هذه التسوية بين ابنها وابن هاجر أمَتها غير لائقة بها ، وأقسمت لا تساكن هاجر ولا ابنها حين رأت إسماعيل يضرب أخاه . وأحسّ إبراهيم أن العيش لن يطيب وهاتان المرأتان فى مكان واحد . عند ذلك ذهب بهاجَر وبابنها

من الذبيح

يختلف الرواة هاهنا فى مسألة إقدام إبراهيم على ذبح إسماعيل والفداء وهل كانت قبل ميلاد إسحاق أو بعده، وهل كانت بفلسطين أو بالحجاز. وإن مؤرخى اليهود ليذهبون الى أن الذبيح إنما كان إسحاق ولم يكن إسماعيل . وليس ها هنا مقام تمحيص هذا الخلاف . وفى رأى الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجّار فى كتاب «قصص الأنبياء» أنّ الذبيح هو إسماعيل . ودليله من التوراة نفسها أن الذبيح وصف فيها بأنه ابن إبراهيم الوحيد ؛ وكان إسماعيل هو الابن الوحيد الى أن وُلد إسحاق . فلمّا ولدت سارة لم يبق لإبراهيم ابن وحيد أن كان له إسماعيل وإسحاق . والتسليم بهذه الرواية يقتضى أن تكون قصة الذبح والفداء بفلسطين . وكذلك يكون الأمر إذا كان الذبيح إسحاق ؛ فقد ظل إسحاق مع أمه سارة بفلسطين ولم يذهب إلى الحجاز . فأما الرواية التى تذهب الى أن الذبح والفداء إنما كانا فوق مِنًى فتجعل الذبيح إسماعيل . ولم يرد فى القرآن ذكر لاسم الذبيح مما جعل المؤرّخين المسلمين يختلفون فيه .

قصة الفداء فى القرآن

وقصة الذبح والفداء أن إبراهيم رأى فى منامه أن الله يأمره بأن يقدّم ابنه قُربانا له فيذبحه؛ فسار وابنه فى الصباح: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ معه السَّعْىَ قال يابُنَىَّ إنّى أرَى فِى المَنَامِ أنّى أذبَحُكَ فانظُرْ ماذا تَرَى قال يا أبتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ستَجِدُنِى إنْ شاء اللهُ مِن الصَّابِرِينَ . فلمَّا أَسْلَمَا وتَلَّه لِلجَبِينِ . ونَادَيْناه أنْ يا إبراهيمُ . قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا إنَّا كَذلِك نَجْزِى المُحْسِنِين . إنَّ هذا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ . وفَدَيْنَاه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

القصة فى رواية التاريخ

وتصوّر بعض الروايات هذه القصة تصويرا شعريًّا تدعونا روعته أن نقصّه هنا وإن لم يقتض الحديث عن مكة قصصه . ذلك أنّ إبراهيم لمّا رأى فى المنام أنه يذبح ابنه وتحقق أن ذلك أمر ربّه ، قال لابنه : يا بُنَىّ خذ الحبل والمُدية وانطلق بنا الى هذه الهضبة لنحتطب لأهلنا . وفعل الغلام وتبع والده . فتمثّل الشيطان رجلًا فجاء أُمَّ الغلام فقال لها : أتدرين أين يذهب إبراهيم بابنك ؟

(١) سورة الصافات الآيات من ١٠٢ إلى ١٠٧

اليها أن تُقرئ زوجها السلام وتقول له : الآن استقامت عتبةُ بيتك . ووُلد لإسماعيل من هذا الزواج اثنا عشر ولدا هم آباء العرب المُسْتَعْرِبة . هؤلاء العرب الذين ينتمون من ناحية خُؤولتهم فى جُرْهُم الى العرب العاربة أبناء يَعْرُب بن قَحْطان . فأمّا أبوهم إسماعيل بن إبراهيم فيمُتّ من ناحية أُمومته الى مصر بأوثق نسب ، ومن ناحية أبوّته الى العراق والى فلسطين والى حيث نزل إبراهيم من أرض الله .

مناقشة القصة

هذه القصة من قصص التاريخ يكاد ينعقد الإجماع على جملتها من ذهاب إبراهيم و إسماعيل الى مكة و إن وقع خلاف على التفاصيل . والذين يعرِضون لتفاصيل حوادثها بالنقد يروونها على أن هاجر ذهبت باسماعيل الى الوادى الذى به مكة اليوم ، وكانت به عيون أقامت جُرْهُم عندها ، فنزلت هاجَر منهم أهلًا وسهلًا لمّا جاء إبراهيم بها وبابنها . فلما شبّ إسماعيل تزوّج جُرْهُميّة ولدت له أولاده . وكان لهذا التلاقح بين إسماعيل العِبْرِىّ المِصرىّ و بين هؤلاء العرب ما جعل ذُرّيته على جانب من العزم وقوّة البأس والجمع بين فضائل العرب والعِبْريّين والمصريّين . واذًا فما ورد عن حَيرة هاجَر لمّا نضَب الماء منها ، وعن سعيها سبعاً بين الصفا والمروة ، وعن زمزم وكيف نبع الماء منها ، موضع شك عندهم .

فأمّا سير وليم موِير فيرتاب فى ذهاب إبراهيم و إسماعيل الى الحجاز و ينفى القصة من أساسها و يذكر أنها بعض الإسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال ليربطوا بها بينهم و بين العرب بالاشتراك فى أبوّة إبراهيم لهم أجمعين ، أن كان إسحاق أبًا لليهود . فاذا كان أخوه إسماعيل أبا العرب فهم اذًا أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود ، وتيسر لتجارة اليهود فى شبه الجزيرة . و يستند المؤرخ الانكليزى فى رأيه هذا الى أن أوضاع العبادة فى بلاد العرب لاصلة بينها و بين دين إبراهيم لأنها وثنيّة مُغْرِقة فى الوثنية ، وكان إبراهيم حنيفًا مسلما . ولسنا نرى مثل هذا التعليل كافيا لنفى واقعة تاريخيّة . فوثنية العرب بعد موت

ميمّما الجنوب حتى وصل الى الوادى الذى تقوم مكة اليوم به . وكان هذا الوادى ، كما قدمنا ، مَضْرِبَ خيام القوافل فى الأوقات التى تَفْصِل فيها القوافل من الشام الى اليمن أو من اليمن الى الشام ، ولكنه كان فيما خلا ذلك من أوقات السنة خلاءً أو يكاد . وترك إبراهيم إسماعيل وأمّه وترك لهما بعض ما يتبلّغان به . واتخذت هاجَرُ عريشا أوَتْ اليه مع ابنها . وعاد إبراهيم أدراجَه من حيث أتى . فلما نفِد الماء والزاد جعلت هاجر تُجيل طرفها فيما حولها فلا ترى شيئا ، فجعلت تُهرول حتى نزلت الوادى تلتمس ماء ، وهى — فيما يقولون — لا تنفكّ فى هَرْوَلتها بين الصَّفَا والمَرْوَة ، حتى اذا أتمّت السعى سبعًا عادت الى ولدها وقد ملكها اليأس ، فألفته قد فحَص الأرض بقدمه فنبع الماء من الأرض ، فارتوت وأروت إسماعيل معها وحبست الماء عن السيل حتى لا يضيع فى الرمال . وأقام الغلام وأمّه ترد عليهم العرب أثناء رحلاتهم ، فينالان من الخير ما يكفيهم أسباب العيش الى أن تمرّ بهم قوافل أخرى . زمزم

على أنّ زمزم التى تفجّر ماؤها قد استهوت بعض القبائل للمقام على مقربة منها . وجُرْهُم أولى القبائل التى أقامت والتى يقول بعض الرواة : إنها كانت هناك قبل أن تجىء هاجَر وابنها ، على حين تذهب روايات أخرى الى أنها لم تُقِم إلا بعد أن تفجّرت زمزم وجعلت العيش فى هذا الوادى الأجرد مستطاعا . وشبّ إسماعيل وتزوّج فتاة من جُرْهُم ، وأقام وإياها مع الجُرْهُميين فى هذا المكان الذى شيّد به البيت الحرام وقامت مكة بعد ذلك من حوله . ويذكرون أن إبراهيم استأذن سارة يوما فى زيارة إسماعيل وأُمّه فأذنت له فذهب . فلما سأل عن بيت إسماعيل وعرفه قال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيّد ما نعيش به . فسألها أعندها ضيافة من طعام أو شراب ؟ فأجابت بأن ليس عندها شىء . فانصرف إبراهيم بعد إذ قال لها : اذا جاء زوجك فأقرئيه منّى السلام وقولى له : غيِّر عَتَبَة بيتك . فلما أخبرت إسماعيل بما ذكر أبوه سرّحها وتزوّج جُرْهُميّة أخرى بنتَ مُضَاض بن عمرو . وقد أكرمت هذه وِفادة إبراهيم لمّا جاءَ بعد ذلك بزمن . فلما انصرف طلب زواج إسماعيل

كيف رفع إبراهيم البيت مثابةً للناس وأمنا ، ليتوجّه الناس فيه إلى الله مؤمنين به وحده، ثم أصبح من بعد ذلك موئل الأصنام وعبادتها ؟ وكيف كانت أوضاع العبادة تؤدّى فيه بعد إبراهيم وإسماعيل وفى إية صورة كانت تؤدّى؟ ومتى تغيّرت هذه الأوضاع وتغلّبت عليها الوثنية؟ هذا مالا يحدّثنا التاريخ المعروف عنه؛ وكل ما هنالك فروض يحسبها أصحابها تصف ما كان واقعا . فالصابئون من عُبّاد النجوم كان لهم سلطان كبير فى بلاد العرب . وقد كان هؤلاء — فيما يقولون — لا يعبدون النجوم لذاتها وإنما كانوا، فى بداءة أمرهم، يعبدون الله وحده ويعظّمون النجوم على أنها مظاهر خلقه وقدرته . ولما كانت كثرة الناس الكبرى أقصر من أن يحيط ذهنها بمعنى الألوهية السامى فقد اتّخذوا من النجوم آلهة . وكانت بعض الأحجار البركانية يخال الناس أنها ساقطة من السماء، منحدرةٌ لذلك من بعض النجوم؛ ومن ثَمّ اتُّخذت أوّلَ أمرها مظاهر لهذه الآلهة الرفيعة وقُدِّستْ بهذه الصفة، ثم قدّست لذاتها، ثم كانت عبادة الأحجار؛ ثم بلغ من إجلالها أن كان العربىّ لا يكفيه أن يعبد الحجر الأسود بالكعبة، بل كان يأخذ معه فى أسفاره أى حجر من أحجار الكعبة يصلّى إليه ويستأذنه فى الإقامة والسفر ، ويؤدّى إليه كل ما يؤدّى للنجوم وخالق النجوم من أوضاع العبادة . وعلى هذا النحو استقرّت الوثنية وقُدِّست التماثيل وقُرِّبت لها القرابين .

التطور الدينى فى بلاد العرب

هذه صورة يصوّرها بعض المؤرخين لتطوّر الأمر فى بلاد العرب من بناء إبراهيم البيت لعبادة الله، وكيف آل أمره بعد ذلك فصار مستقرَّ الأصنام . وقد ذكر هيرودوت ، أبو التاريخ المكتوب، عبادة اللات فى بلاد العرب، وذكر ديودور الصَّقَلِّىّ بيت مكة الذى تعظّمه العرب؛ فدلّ ذلك على قدم الوثنية فى شبه الجزيرة، وعلى أن دين إبراهيم لم يستقرّ فيها طويلا .

الانبياء العرب

ولقد قام فى هذه القرون أنبياء دَعَوْا قبائلهم فى بلاد العرب إلى عبادة الله وحده، فرفضوا وأصرّوا على وثنيّتهم : قام هود فدعا عادًا، وكانت تقيم فى شمال حَضْرَمَوْتَ،

إبراهيم وإسماعيل بقرون كثيرة لا تدلّ على أنهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم الى الحجاز وحين اشترك وإسماعيل فى بناء الكعبة . ولو أنها كانت وثنيّة يومئذ لمَا أيّد ذلك رأى سير موير ؛ فقد كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام وحاول هو هدايتهم فلم ينجح . فاذا دعا العربَ الى مثل ما دعا اليه قومَه فلم ينجح وبقى العرب على عبادة الأوثان لم يطعن ذلك فى ذهاب إبراهيم وإسماعيل الى مكة . بل إن المنطق ليؤيد رواية التاريخ . فإبراهيم الذى خرج من العراق فارًّا من أهله الى فلسطين والى مصر ، رجل أَلِف الارتحال وألف اجتياز الصحارى ؛ والطريق ما بين فلسطين ومكة كان مطروقا من القوافل منذ أقدم العصور . فلا محلّ اذًا للريبة فى واقعة تاريخية انعقد الإجماع على جملتها .

والسير وليم مْوِير والذين ارتأَوْا فى هذه المسألة رأيه يقولون بإمكان انتقال جماعة من أبناء إبراهيم وإسماعيل بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب واتصالهم وإياهم بصلة النسب . وما ندرى ، وهذا الإمكان جائز عندهم فى شأن أبناء إبراهيم وإسماعيل ، كيف لا يكون جائزا فى شأن الرجلين بالذات ! وكيف لا يكون ثابتا قطعًا ورواية التاريخ تؤكده ! وكيف لا يكون بحيث لا يأتيه الريب وقد ذكره القرآن وتحدّثت به بعض الكتب المقدّسة الأخرى !

بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة

ورفَع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت الحرام . و ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بيتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وهُدًى لِلعالَمِين . فِيهِ آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَقامُ إِبراهِيمَ ومَنْ دَخَلَه كان آمِنًا ﴾[1] . ويقول تعالى : ﴿ وإِذْ جَعَلْنَا البيتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وأَمْنًا واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبراهِيمَ مُصَلًّى وعَهِدْنا إلى إِبراهِيمَ وإِسماعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والعَاكِفِين والرُّكَّعِ السُّجُودِ . وإِذْ قال إِبراهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هـذَا بَلَدًا آمِنًا وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمنَ مِنْهُم بِاللهِ واليومِ الآخِرِ قال ومَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُه قَلِيلًا ثم أَضْطَرُّه إلى عَذَابِ النَّارِ وبِئْسَ المصِيرُ . وإِذْ يَرْفَعُ إِبراهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البيتِ وإِسماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾[2] .

(١) سورة آل عمران آيتى ٩٦ و ٩٧ (٢) سورة البقرة الآيات من ١٢٥ الى ١٢٧

البيت مع أبيه إبراهيم اقتضى تطوُّر مكة ، لتصير حَضَرًا أو ما يُشبه الحضر، زمانًا طويلا . ونقول : ما يشبه الحضر، أن ظلّت مكة وما تزال وفى طباع أهلها بقايا متخلِّفة من معانى البداوة الأولى . ويريد بعض المؤرّخين أن يذكر أنها ظلّت على بداوتها إلى أن اجتمع أمرها لقصىّ فى منتصف القرن الخامس للميلاد . وعسير أن نتصوّر بقاء بلد له ما لمكة وبيتها العتيق من القدسية فى حالة البادية مع ما يُثبت التاريخ من أن أمر البيت بقى بعد إسماعيل فى يد جُرْهُم أخوال بنيه أجيالا متعاقبة أقاموها حوله، ومع أن مكة كانت ملتقى طرق القوافل إلى اليمن وإلى الحيرة وإلى الشام وإلى نجد، كما كانت تتصل من البحر الأحمر القريب منها بتجارة العالم — عسير أن نتصوّر بقاء بلد له هذه المكانة من غير أن يدنيه اتصاله بالعالم من مراتب الحضارة . فمن الحق لذلك أن نقدر أن مكة ، وقد دعاها إبراهيم بلدًا ودعا الله له أن يكون آمنا مطمئنا ، قد عرفت حياة الاستقرار أجيالا طويلةً قبل قصىّ .

تغلب قريش

وظل أمر مكة لجرهم بعد أن غلبوا العماليق عليها إلى عهد مُضَاض بن عمرو ابن الحارث . ولقد راجت تجارة مكة خلال هذه الأجيال رواجا أمّر مُتْرَفيها وجعلهم ينسوْن أنهم بواد غير ذى زرع وأنهم لذلك فى حاجة إلى الدأب المتصل واليقظة الدائمة . وبلغ من نسيانهم أن نضَب ماء زمزم وأن قامت بنفس عرب خُزَاعة الرغبة فى الوثوب إلى مناصب الأمر فى البلد الحرام .

ولم يُجْدِ تحذير مُضَاضٍ قومَه عاقبة ما انغمسوا فيه من ترف، وأيقن أن الأمر زائل عنه وعنهم . فعمَد إلى زمزم فأعمق حفرها وإلى غزالتين من ذهب كانتا بالكعبة مع طائفة من الأموال التى كانت تهدى إلى البيت الحرام ، فدفنها بقاع البئر وأهال الرمال عليها ، آملًا أن يعود له الأمر يومًا فيفيد من الكشف عنها . وخرج ومعه بنو إسماعيل من مكة . ووَلِيت خُزاعةُ أمرها وظلّت تتوارثه حتى آل إلى قصىّ بن كلاب الجَدّ الخامس للنبىّ .

إلى عبادة الله وحده فما آمن به إلا قليل ؛ فأما كثرة قومه فاستكبروا وقالوا له : ﴿ يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وما نَحْنُ بِتارِكِى آلِهَتِنا عن قَوْلِك وما نحن لكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(١). وأقام هود يدعوهم السنين فلا تزيدهم دعوته إلا عتوًّا فى الأرض واستكبارا . وقام صالح يدعو للإيمان ثمود، وكانت مساكنهم بالحِجْرِ بين الحجاز والشام إلى وادى القُرَى فى الجنوب الشرقىّ من أرض مَدْيَن القريبة من خليج العَقَبة؛ ولم تُثمر دعوة صالح ثمود أكثر مما أثمرت دعوة هود عادا . وقام شُعَيْب فى شعب مدين، وكانوا بالحجاز، يدعوهم إلى الله فلم يسمعوا له فهلكوا ونزل بهم ما نزل بعاد وثمود . وغير هؤلاء من الأنبياء قصّ القرآن قصصهم ودعوتَهم قومهم لعبادة الله وحده، واستكبار قومهم وإقامتهم على عبادة الأوثان وعلى التوجه بقلوبهم لأصنام الكعبة وحجّهم إليها كل عام من كل صَوْب فى بلاد العرب وحَدَبٍ . وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾(٢) .

مناصب الكعبة

أفكانت تُحيط بالكعبة منذ إنشائها مناصب كالتى تولاها قُصَىّ بن كِلاب فى منتصف القرن الخامس الميلادىّ حين اجتمع له ملك مكة ؟ فقد اجتمعت لِقُصَىّ الحِجابة والسِّقاية والرِّفادة والنَّدْوة واللّواء والقِيادة . والحِجابة : سِدانة البيت أى تولِّى مفاتيحه . والسقاية : إسقاء الحَجيج الماءَ العذب الذى كان عزيزا بمكة وإسقاؤهم كذلك نبيذ التمر . والرِّفادة : إطعام الحاجّ جميعا . والندوة : رياسة الاجتماع كل أيّام العام . واللواء : راية يلوونها على رمح وينصبونها علامةً للعسكر إذا توجّهوا إلى عدو . والقيادة : إمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب . وكانت هذه المناصب كلها معتبرة فى مكة وكأنها تحيط بالكعبة مُتَّجِه أنظار العرب جميعا فى عباداتهم . وأحسبها لم تَنبت كلها دفعةً واحدة منذ أُقيم البيت، بل نشأت واحدة تلو أخرى ، مستقلًا بعضها عن الكعبة ومكانتها الدينية، متصلًا بعضها بالكعبة من طبعه .

مكة قبل قصى

لم تكن مكة حين بناء الكعبة ، على خير ما يمكن أن يصوره خيالنا ، لِتزيدَ على قبائل من العماليق ومن جُرْهُم . فلما استقرّ بها إسماعيل ورفع قواعد

(١) سورة هود آية ٥٣ (٢) سورة الإسراء آية ١٥

ولا يتزوّج رجل إلا فى هذه الدار. وبنت قريش بأمر قصىّ حول الكعبة دورَها ، وتركوا مكانًا كافيا للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين طريقا يُنْفَذ منه الى المَطاف .

أبناء قصى

وكان عبد الدار أكبرَ أبناء قصىّ ، لكنّ أخاه عبدَ مَنَاف كان قد تقدّم عليه أمام الناس وقد شرُف فيهم . فلما كبِر قصىّ وضعُف بدنه ولم يبق قادرًا على تولّى أمور مكة جعل الحِجابة لعبد الدار وسلّم إليه مفتاح البيت ، كما أعطاه السِّقاية واللواء والرِّفادة . وكانت الرِّفادة قسطًا تخرجه قريش كل عام من أموالها فتدفعه إلى قصىّ يصنع منه فى موسم الحج طعامًا ينال منه من الحاجّ من لم يكن ذا سعة ولا زاد . وكان قصىّ أوّل من فرض الرِّفادة على قريش حين جمعهم واعتزّ بهم وأخرج وإيّاهم خُزاعة من مكة . فرضها عليهم وقال لهم : « يا معشر قُرَيش إنكم جيرانُ الله وأهل بيته وأهل حَرَمِه ، وإن الحاجّ ضيف الله وزوّار بيته ، وهم أحق الأضياف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج حتى يصدُروا عنكم » .

بنو عبد مناف

وتولّى عبد الدار مناصب الكعبة كأمر أبيه وتولّاها أبناؤه من بعده . لكن أبناء عبد مناف كانوا أشرف فى قومهم وأعظم مكانةً . لذلك أجمع هاشم وعبد شمس والمطّلب ونَوْفَل بنو عبد مناف على أن يأخذوا ما بأيدى أبناء عمومتهم . وتفرّق رأى قريش : تنصُر طائفةٌ هؤلاء وأخرى أولئك . وعقد بنو عبد مناف حِلْف المُطَيَّبين لأنهم غمَسوا أيديهم فى طِيب جاءوا به إلى الكعبة وأقسموا لا ينقضون حِلْفَهم . وعقد بنو عبد الدار حِلْف الأحلاف . وكان هؤلاء وأولئك يوشكون أن يقتتلوا فى حرب تُذيب قريشا لولا أن تداعى الناس الى الصلح على أن يُعطوا بنى عبد مناف السِّقاية والرفادة ، وأن تبقى الحِجابة واللِّواء والنَّدوة لبنى عبد الدار . ورضى الفريقان بذلك ، وظل الأمر عليه الى أن جاء الإسلام .

هاشم
(سنة ٤٦٤ م)

وكان هاشم كبير قومه ، وكان ذا يسار ، فولِىَ السِّقاية والرِّفادة ، ودعا قومه الى مثل ما دعاهم اليه قصىّ جدّه ، دعاهم الى أن يخرج كُلٌّ منهم من ماله ما ينفقه

قصى بن كلاب (سنة ٤٠٠ م)

وكانت أمّ قصىّ فاطمةُ بنت سعد بن سَيَل قد تزوّجت من كلاب فولدت له زُهْرة وقُصَيًّا . ثم هلك كلاب وقصىّ طفل فى المهد . وتزوّجت فاطمة من ربيعة بن حَرَام، فرحل بها إلى الشام وهناك ولدت له دُرّاجا . وكبِر قصىّ وهو لا يعرف لنفسه أبًا غير ربيعة . ووقع بينه وبين آل ربيعة شرّ، فعيّروه أنه فى جوارهم وأنه ليس منهم . وشكا قصىّ إلى أمه ما عُيِّر إياه فقالت : يا بنى إنك والله لأكرم منهم أبًا، أنت ٱبن كِلاب بن مُرَّة وقومُك بمكة عند البيت الحرام . وقدِم قصىّ مكة وأقام بها، وعُرِف عنه فيها من الجدّ وحسن الرأى ما جعله موضع احترام أهلها وأهله فيها . وكانت سِدانة البيت فى خُزاعة لِحُلَيْل بن حُبْشِيّة، وكان رجلا ثاقب النظر حسن التقدير، فما لبث حين خَطب قصىّ اليه ابنته حُبَّى أن رحّب به وزوّجه منها . واستمرّ دأب قصىّ فى السعى والتجارة ، فكثرت أمواله كما كثر أولاده وعظُم بين قومه شرفه . ومات حُلَيْل بعد أن أوصى بمفتاح البيت الحرام لحُبَّى زوج قصىّ . واعتذرت حُبَّى عن ذلك وجعلت المفتاح لأبى غُبْشَانَ الُخزاعىّ . وكان أبو غبشان سكّيرا، فأعوزه الشراب يوماً فباع مفتاح البيت قُصَيًّا بزقٍّ من خمر . وقدرت خُزاعة ما يصيب مكانتها بمكة اذا بقيت سِدانة الكعبة لقصىّ بعد أن كثر ماله وبعد أن بدأت قريش تجتمع حوله ، فأنكروا أن يكون لغيرهم منصب من المناصب المتّصلة بالبيت الحرام . واستنفر قصىّ قريشا ، ورأت بعض القبائل أنه أحكم المقيمين بمكة وأعظمهم قدرًا ، فانضمّوا له وأجلَوْا خزاعةَ عن مكة ،واجتمعت مناصب البيت كلها لقصىّ وأقرّ القوم له بالملك عليهم .

بناء منازل مكة

ويذهب البعض ، كما قدمنا ، إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة الى أن تولّى قصىّ أمرها . ويعلّلون ذلك بأن خزاعة وجُرْهُمًا قبلها لم يريدوا أن يكون الى جوار بيت الله بيت غيره ، وأنهم لم يكونوا يقيمون ليلَهم بالحرم بل يذهبون إلى الحِلّ . ويُضيف هذا البعض أن قصيًّا لما تمّ له أمر مكة جمع قريشا وأمرهم أن يبنوا بها ،وابتدأ هو فبنى دار النَّدْوة يجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا فى أمور بلدهم . فقد كان من عاداتهم ألّا يتمّ أمر إلا باتفاقهم؛ فلم تكن تُنكح امرأة

ج أثناء الموسم . فزوّار الله وحجّاج بيته هم ضيف الله ، وأحق
يف الله . وكذلك كان يطعم الحاجّ جميعا حتى يصدُروا عن مكة .
هاشم عند هـذا ، بل اتصل بِرّه وكرمه بأهل مكة أنفسهم .
فاء لهم من الطعام وثَرَد لهم الثريد بما جعلهم ينظرون من
اة بوجه باسم . وهاشم هـو كذلك الذى سنّ رحلتى الشـتاء
لشتاء الى اليمن ، ورحلة الصيف الى الشام . وبهـذه المظاهر
ة وسمتْ مكانتها فى أنحاء شبة الجزيرة جميعا ، واعتُبرت العاصمة
ع هـذا الازدهار لأبناء عبد مناف أن يعقدوا مع جيرانهم
لام : عقد هاشم بنفسـه مع الأمبراطورية الرومانية ومع أمـير
ن جِوار ومودّة ، وحصل من الأمبراطور على الإذن لقريش بأن
ن وطُمأنينة . وعقـد عبد شمس معاهدةً تجارية مع النجاشى ،
طّلب حِلفًا مع فارس ومعاهدةً تجارية مع الحِمْـيَريين فى اليمن .
ة مَنَعَةَ جاه كما ازدادت يسارا ، وبلغ أهلها من المهارة فى التجارة
ـم فيها مدانٍ من أهل عصرهم . كانت القوافل تجىء اليها من
ر عنها فى رحلتى الشتاء والصيف ، وكانت الأسواق تُنْصَب فيما
هـذه التجارة فيها ؛ ولذلك مهر أهلها فى النسيئة والربا وفى كل
ن أسباب المعاملات .

قدّم به السنّ وهو فى مكانته على رياسة مكة لا يفكر أحد
بَل لابن أخيه أُميّة بن عبد شمس أنه قد بلغ مكاناً يسوّغ له هذه
قدر وغُلِب على أمره ، وبقى الأمر لهاشم . وترك أُميّة مكة الى
كاملة . وإن هاشما لفى رحلته يوماً عائدًا من الشام ماراً بيثرب
شرف وحسب تُطِلّ على قوم يتّجرون لهـا ؛ تلك سَلْمى بنت
د أُعجب هاشم بها وسأل أهى فى عصمة رجل؟ فلما عرَف أنها

هو فى إطعام الحـاجّ أثناء الموس
الضيف بالكرامة ضيف الله . وكن

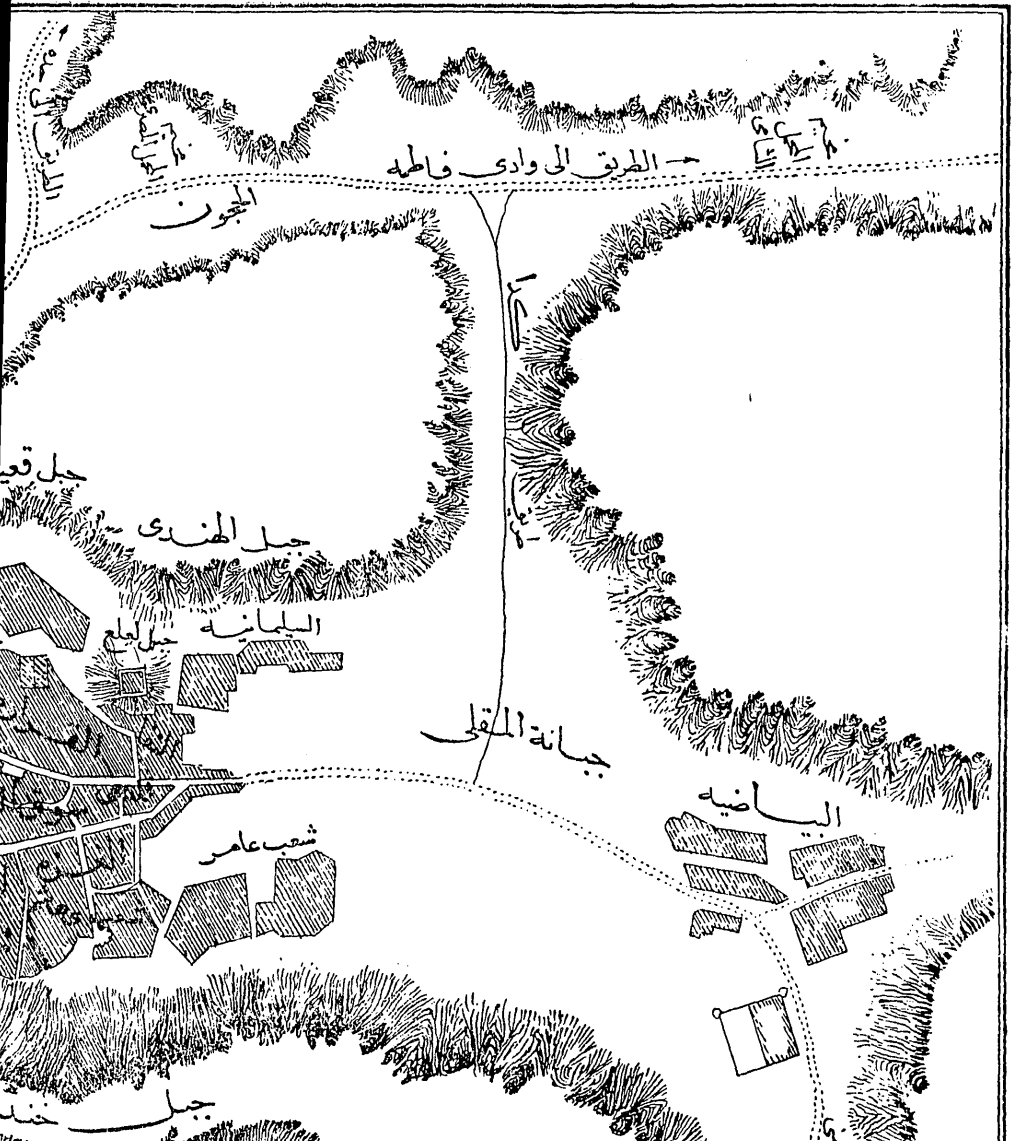
ازدهار الحياة بمكة

لم يقف أمر هاشم عند هـ
أصابتهم سـنةٌ (١) ، فجاء لهم من الط
جـديد الى الحيـاة بوجه باسم
والصيف : رحلة الشتاء الى اليمن
كلها ازدهرت مكة وسمتْ مكا
المعترف بها . وطوّع هـذا الاز
معاهدات أمن وسلام : عقد ها
غَسّان معاهدة حسن جِوار ومودّ
تجوب الشام فى أمْن وطُمأنينة .
كما عقـد نَوْفَلٍ والمطّلب حِلْفًا مع
وكذلك ازدادت مكة مَنَعَةَ جاه كما
أن أصبحوا لا يدانيهـم فيها مدانٍ
كل صوب وتصدُر عنها فى رحل
حولهـا لتصريف هـذه التجارة
ما يتصل بالتجارة من أسباب المع

وظل هاشم نتقدّم به السن
فى منافسته ، حتى خُيِّل لابن أخي
المنافسة ؛ لكنه لم يقدِر وغُلِب ع
الشام عشر سنوات كاملة . وإن
إذ رأى امرأةً ذات شرف وحس
عمرو الخزرجيّة . وقد أُعجب هاش

(١) السنة : الجدب .


جبل عمر
جبل قعيقعان
الطريق الى اليمن
الحرم الشريف
خندمه


الطريق الى وادى فاطمه
الحجون
جبل قعيقعان
جبل الهندى
السليمانيه
جبل لعلع
جبانة المعلى
شعب عامر
الباضيه
جبل خندمه
الطريق الى منى

عصمتها بيدها ، خطبها الى نفسها ،
معه بمكة زمنًا عادت بعده الى المدينة
نتها بيثرب .

المطلب
أثناء إحدى رِحلات الصيف ، فخلَفه
مغر من أخيه عبد شمس ولكنه كان
مـا تُسميه الفيض لسماحته وفضله .
أن تبقى الأمور تسـير سيرتَها مطمئنة

. فذهب الى يثرب وطاب الى سَلْمَى
لمطَّلبُ الفتى على بعيره ودخل به مكة ،
عبد المطلب . قال المطلب : وَيْحكم !
. على أن هذا اللّقب غلَب على الفتى
منذ وُلد .

عبـــد المطلب (سنة ٤٩٥ م)
ل هاشم . لكنّ نوفلًا أبى ووضع يده
أخوالَه بيثرب على عمه كى يردّوا عليه
نصرته ، فاضطُرّ نوفل الى ردّ ماله اليه .
قاية والرِّفادة من بعد عمـه المطلب .
قاية بنوع خاص ، شيئا غير قليل من
بناء إلا ولده الحارث . وكانت سقاية
آبار عِدّة مبعثرة حول مكة ، فتوضع
كثرة الولد عونًا على تيسير هـذا العمل
ب من ولد حين ولِى السقاية والرِّفادة
.

مطاقة وأنها لا ترضى زوجًا إلا أن تكون عصمتها بيد
فرضيت لعلمها بمكانته من قومه . وأقامت معه بمكة زمنًا
حيث ولدت له ولدا دعته شَيْبة ظلّ فى حضانتها بيثرِب .

ومات هاشم بعد سنين من ذلك بغَزَّة أثناء إحدى رِ
أخوه المطّلب فى مناصبه . وكان المطّلب أصغر من أخيه
ذا شرف فى القوم وفضل ، وكانت قريش إنما تُسميه ال
وطبيعى ، وذلك مكان المطلب من قومه ، أن تبقى الأم
هانئـــة .

وفكر المطّلب يومًا فى ابن أخيه هاشم . فذهب الى
أن تدفع اليه الفتى وقد بلغ أشُدّه . وأردف المطّلبُ الفتى
فظنته قريش عبدًا له جاء به ، فتصايحت : عبد المطلب
إنما هو ابن أخى هاشم قدِمتُ به من يثرب . على أن هذ
فدُعى به ونسى الناس اسم شيبة الذى دُعى به منذ وُلد .

وأراد المطلب أن يردّ على ابن أخيه أموال هاشم . لـ
عليها . فلما اشتدّ ساعد عبد المطلب استعدى أخوالَه بيثرب
حقّه . وأقبل ثمانون فارسًا من خَزْرَج يثرب لنصرته ، فاضطُ
وقام عبد المطّلب فى مناصب هاشم ، له السِّقاية والرِّفادة
وقد لقى فى القيام بهذين المنصبين ، وبالسقاية بنوع خا
المشقّة ؛ فقد كان الى يومئذ وليس له من الأبناء إلا ولده
الحاجّ يؤتى بهـا ، منذ نضبت زمزم ، من آبار عِدّة مب
فى أحواض الى جوار الكعبة . وقد كانت كثرة الولد عو
والإشراف عليـه . فأمّا ولم يكن لعبد المطلب من ولد
إلا الحارث فقد عناه الأمر وطال فيه تفكيره .

عبد المطّلب الفتى بيـده وذهب به ينحره حيث كانت تنحر العرب عنـد زمزم بين إساف ونائلة . إذ ذاك قامت قريش كلها من أنديتها تُهيب به أن لا يفعل ، وأن يلتمس عن عدم ذبحه عند هُبَل عذرا . وتردّد عبد المطلب لدى إلحاحهم وسألهم ما عساه يفعل لترضى الآلهة؟ قال المغيرة بن عبـد الله المخزومىّ : إن كان فـداؤه بأموالنـا فديناه . وتشاور القوم واستقرّ رأيهم على الذهاب الى عَرّافة بيثرب لهـا فى مثل هـذه الأمور رأى . وجاءوا العرّافة فاستمهلتهم الى الغـد ثم قالت لهم : كم الدِّيَة فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل . قالت : فارجِعوا الى بلادكم ثم تقرّبوا وقرّبوا عشرًا من الإبل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإنْ خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم . وفعلوا ، وجعلت القـداح تخرج على عبد الله فيزيدون فى الإبل حتى بلغت مائة ؛ عند ذلك خرجت القداح على الإبل . فقالت قريش لعبـد المطلب وكان أثناء ذلك كله واقفا يدعو ربّه : قد رضى ربّك يا عبد المطلب . قال عبد المطلب : لا والله ، حتى أضرب عليها ثلاث مرّات . وفى المرات الثلاث خرجت القِداح على الإبل ؛ فاطمأن عبد المطلب الى رضا ربه ونُحرت الإبل ثم تُركت لا يُصَدّ عنها إنسان ولا سبع .

بذلك تجرى كتب السيرة فتصف طرفًا من عادات العرب وعقائدها وأوضاع هـذه العقائد ، وتدلّ فى نفس الوقت على ما بلغت مكة فى بلاد العرب من مقام كريم ببيتها الحرام . ويروى الطبرى ، استدلالا على قصة الفداء هذه ، أن آمرأة من المسلمين نذرت إن فعلت كذا لتنحرن ابنها . وفعلت ذلك الأمر ، ثم ذهبت الى عبد الله بن عمر فلم ير فى فُتياها شيئا ، فذهبت الى عبـد الله بن العبّاس فأفتاها بأن تنحر مائة من الإبل ، كما كان الأمر فى فداء عبد الله بن عبد المطلب . فلما عرف ذلك مروان والى المدينة أنكره وقال : لا نَذْرَ فى معصية .

أدّت مكانة مكة ومقام بيتها الحرام الى إقامة بعض البلاد البعيدة معابد فيها ، لعلّها تصرف الناسَ عن مكة وعن بيتها . فأقام الغَساسنةُ بيتاً بالحِيرة ، وأقام أَبْرَهَةُ

حفر زمزم

وكانت العرب ما تفتأ تذكر زمزم منذ طمّها مُضاض بن عمرو الجُرْهُمىّ منذ قرون خلت وتمنى لو أنها كانت لا تزال باقية . وكان عبد المطلب بطبيعة مركزه أكثرهم تفكيرا فى هذا الأمر وأشدّهم تمنّياً أن يكون . ولقد ألحّ الرجاء به حتى كان يهتِف به الهاتف أثناء نومه يحضّه على أن يحفر البئر التى تفجّرت تحت أقدام جَدّه إسماعيل . وألحّ الهاتف يدلّه على مظانّ وجودها . وألحّ هو باحثا عن زمزم حتى اهتدى اليها بين الوثنين إسَاف ونائلة . وجعل يحفر مستعيناً بابنه الحارث حتى نبع الماء وظهرت غزالتا الذهب وأسياف مُضَاض الجرهمىّ . وأرادت قريش أن تُشارك عبد المطلب فى البئر وفيما وُجد فيها . فقال لهم : لا ! ولكن هَلُمّ الى أمر نَصفٍ بينى و بينكم ، نضرب عليها بالقِداح نجعل للكعبة قِدْحَين ، ولى قدحين ، ولكم قدحين . فمن خرج قدحاه على شىء كان له ، ومن تخلّف قدحاه فلا شىء له ؛ فارتضوا رأيه ؛ ثم أعطوا القداح صاحب القداح الذى يضرب بها عند هُبَل فى جوف الكعبة . فتخلّف قدحا قريش وخرجت الأسياف لعبد المطلب والغزالتان للكعبة . فضرب عبد المطّلب الأسياف باباً للكعبة وضرب فى الباب غزالتى الذهب حليةً للبيت الحرام . وأقام عبد المطّلب فى سِقاية الحاجّ بعد أن يسرّتها زمزم له .

النذر والوفاء به

وأحسّ عبد المطلب قلة حَوْله فى قومه لقلة أولاده ، فنذَر إن وُلد له عشرة بنين ثم بلغوا معه أنه يمنعوه من مثل ما لقى حين حفَر زمزم لَيَنْحَرَنّ أحدهم لله عند الكعبة . وتوافى بنوه عشرة أنِس فيهم المقدرة على أن يمنعوه ؛ فدعاهم الى الوفاء بنذره فأطاعوا . وفى سبيل هذا الوفاء كتب كل واحد من الأبناء اسمه على قِدْح ، وأخذها عبد المطلب وذهب بها الى صاحب القداح عند هُبَل فى جوف الكعبة . وكانت العرب كلما اشتدت بها الحَيْرة فى أمر لجأت الى صاحب القداح كى يستفتى لها كبير الآلهة الأصنام عن طريق القداح . وكان عبد الله بن عبد المطّلب أصغر أبنائه وأحبّهم لذلك اليه . فلما ضرب صاحب القداح القداح التى عليها أسماء هؤلاء الأبناء ليختار هُبَل من بينها من ينحَره أبوه ، خرج القِدْح على عبد الله ؛ فأخذ

عبد المطلب وقومه الى مكة ؛ فنصح للناس أن يخرجوا منها الى شعاب الجبل خيفة أبرهة وجيشه حين يدخلون البلد الحرام لهدم البيت العتيق .

وكانت ليلة ليلاء تلك التى فكر فيها القوم فى هجر بلدهم وما هو نازل به وبهم . ذهب عبد المطّلب ومعه نفر من قريش فأخذ حلقة باب الكعبة وجعل يدعو ويدعون يستنصرون آلهتهم على هذا المعتدى على بيت الله . فلما انصرفوا وخلت مكة منهم وآن لأبرهة أن يوجّه جيشه ليُتِمّ ما اعتزم فيهدم البيت ويعود أدراجه الى اليمن ، كان وباء الجُدَرِيّ قد تفشّى بالجيش وبدأ يفتك به . وكان فتكه ذريعًا لم يُعْهَد من قبلُ قطّ . ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر . وأصابت العدوى أبرهة نفسه ، فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة الى اليمن . وفر الذين كانوا يدلّون على الطريق ومات منهم من مات . وكان الوباء يزداد كل يوم شدّة ، ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب . وبلغ أبرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض . فلم يقم إلا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه . وبذلك أرّخ أهل مكة بعام الفيل هذا ، وقدّسه القرآن بذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (١) ﴾ .

مكانة مكة بعد الفيل

زاد هذا الحادث الفذّ العجيب فى مكانة مكة الدينية ، وزاد تبعًا لذلك فى مكانتها التجارية ، وزاد أهلها انصرافاً عن التفكير فى شىء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة ، ومحاربة كل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها .

ترف أهل مكة

وزاد المكيين حرصًا على مكانة مدينتهم ما كانت تُتيحه لهم من رخاء وترف على أوسع صورة يستطيع الذهن تصوّرها للترف فى هذه الجهة الصحراوية البلقع الجرداء . فقد كان لأهلها غرامٌ بالنبيذ أىّ غرام ، وكانوا يجدون فى النشوة به نعيما أىّ نعيم ! نعيما يسّر لهم أن يطلقوا لشهواتهم أعنّتها ، وأن يجدوا فى الجوارى

(١) سورة الفيل .

الأشرم بيتاً باليمن ، فلم يُغنِ ذلك العرب عن بيت مكة ولا هو صرفهم عن البلد الحرام . وقد عُنى أبرهة بزخرفة بيت اليمن غاية العناية وجلب له من فاخر الأثاث ما خُيِّل اليه معه أنه صارفٌ العرب وصارفٌ أهل مكة أنفسهم اليه . فلما رأى العرب لا تتّجه إلا الى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن يدَعون البيت، الذى بنى ولا يعتبرون حجهم مقبولاً إلا بمكة، لم يجد عامل النجاشي وسيلةً إلا هدم بيت إبراهيم و إسماعيل . وتهيأ للحرب فى جيش لجب من الحبشة تَقدّمه على فيل عظيم ركبه . وسمعت العرب بذلك، فخافت العاقبة وعظُم عليها أن يُقدم رجل حبشيّ على هدم بيت حجهم ومقام أصنامهم . وهبّ رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكها يدعى ذَانَفَر، فاستنفر قومه ومن أجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة أبْرَهة وصدّه عما يريد من هدم بيت الله . لكنه لم يستطع أن يصمُد لأبرهة بل هُزم وأُخذ أسيرًا ، وهُزم كذلك نُفَيْل بن حبيب الخَثْعَميّ حين جمع قومه من قبيلتى شَهْرَان وناهِس وأُخِذ كذلك أسيرًا ،فأقام نفسه دليلًا لأبرهة وجيشه . فلمّا نزل أبرهة الطائف كلّمه أهلُها بأن بيتهم ليس هو البيت الذى يريد، إنما هو بيت اللّات، و بعثوا معه من يدلّه على مكة .

عام الفيل (سنة ٥٧٠ م)

فلما اقترب أبرهة من مكة بعث رجلًا من الجيش على فرسان له، فساق اليه أموال أهل تِهامة من قريش وغيرهم و بينها مائة بعير لعبد المطّلب بن هاشم . وهمّت قريش ومن معهم من أهل مكة بقتاله، ثم رأوا أن لا طاقة لهم به . و بعث أبرهة رجلًا من رجاله يدعى حُناطَة الحميرى سأل عن سيد مكة فذهبوا به الى عبد المطلب بن هاشم ، فأبلغه رسالة أبرهة اليه أنه لم يأتِ لحرب و إنما جاء لهدم البيت ، فان لم تحاربه مكة فلا حاجة به لدماء أهلها . فلما ذكر له عبد المطّلب أنهم لا يريدون حرباً سار به حُناطة ومع عبد المطلب بعض أبنائه و بعض كبراء مكة حتى بلغوا معسكر الجيش . وأكرم أبرهة وِفادة عبد المطّلب وأجابه الى ردّ إبله اليه . لكنه أبى إباءً تامًّا كل حديث فى أمر الكعبة ورجوعه عن هدمها، و رفض ما عرض عليه وفد مكة من النزول له عن ثلث ثروة تهامة . وعاد

أبرهة والكعبة

وكانت منازل أهل مكة تُحيط بدارة الكعبة، تقترب منها أو تبتعد عنها تبعًا لما لكل أُسرة ونفذ من جلالِ خَطَر وجليلِ مقام؛ فكان القرشيون أقربهم إليها دارًا وأكثرهم بها اتّصالا، كما كانت لهم سِدانتها وسِقاية زمزم وكل ألقاب التشريف الوثنية التى قامت فى سبيلها حروب، وانعقدت من أجلها أحلاف، ووُضعت من أجلها بين القبائل معاهدات صلح كانت تحفظ فى الكعبة تسجيلًا لها، وإشهادًا لآلهتهم على ما فيها حتى تُنزل غضبها بمن يُخِلّ بتعهّداتها. وفيما وراء منازل قريش كانت تجىء منازل القبائل التى تليها فى الخطر، ثم تلى هذه منازل من دونهم، حتى تكون منازل العبيد والخلعاء المستهترين. وكان النصارى واليهود بمكة عبيدًا، كما قدّمنا، فكان مُقامهم بهذه المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء؛ ولذلك كان ما يتحدثون به من قصص دينية عن النصرانيّة واليهودية بعيدًا عن أن يتّصل بسمع أمجاد قريش وأشراف أهل البلد الحرام. على أن بُعْدَه، كما أتاح لهم أن يصمّوا دونه آذانهم، قد جعله بحيث لا يشغَل بالهم، وهم قد كانوا يسمعون مثله أثناء رحلاتهم كلمّا مرّوا بدير من الأديار أو صومعة من الصوامع.

على أنّ ما بدأ يقال يومئذ عن نبىّ يظهر بين العرب قد أخذ يُقِضّ بعض المضاجع. ولقد عتب أبو سفيان يومًا على أُمية بن أبى الصَّلْت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر. وربما كان من حق أبى سفيان يومئذ أن يقول لصاحبه: إن هؤلاء الرهبان إنما يتحدّثون من ذلك بما يتحدّثون لأنهم فى جهل من أمر دينهم، فهم فى حاجة إلى نبىّ يدلّهم عليه؛ أمّا ونحن نتخذ الأصنام ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى فلا حاجة بنا الى شىء من هذا، ويجب علينا أن نحارب كل حديث من مثله. كان من حقّه أن يقول هذا؛ لأنه فى تعصُّبه لمكة ووثنيّتها لم يكن يقدّر أن ساعة الهدى بالباب، وأن نبوة محمد عليه السلام اقتربت، وأن من بلاد العرب الوثنيّة المتدابرة سيضىء العَالَمَ كلَّه نور التوحيد وكلمة الحق.

والعبيد الذين يتّجرون فيهـم والذين يشترونهم متعًا تُغريهم بالمزيد منهـا، ويغريهم ذلك بالحرص على حريتهم وحرية مدينتهم، وباليقظة للذود عن هذه الحرية ودفع كل معتد أثيم تحدّثه نفسه بالعدوان عليها. ولم يكن شيء أشهى إليهم من أن يجعلوا سَمَرَهم وشرابَهم في سُرّة المدينة حول بناء الكعبة. هناك إلى جانب ثلاثمـائة صنم أو تزيد، لكل قبيـلة من قبائل العرب بينهـا صنم أو أكثر، كان أكابر قـريش والمقـدّمون من أهل مكة يجلسون، يقصُّ كلٌّ منهم أمر ما اتّصـل به من أخبار البادية واليمن وجماعة المَنَاذِرة في الحِـيرة والغَسَاسنة في الشام، ممـا ترد به القوافل أو يتناقله سكّان البادية. وكان ذلك يصل إليهم على سبيل الرواية تتناقلها قبيلة عن قبيلة، وكأنّ كل قبيلة لها مُذيع وملتقط لاسلكيّ يتلقى الأنباء ويُذيعها. يقص كلٌّ ما اتصل به من أخبار البادية ويروى روايات جيرانه وأصحابه ويشرب نبيذه ويُعِدّ نفسه بعد سمر الكعبة لسمر أكثر إشباعا لأهوائه وإمتاعًا لشهواته. وتطلّ هذه الأصنام بعيونها الجرية على مجالس السمر هذه، وللسامرين فيها من الحماية أن جعلت الكعبة بيتًا حرامًا ومكة بلدًا آمنا، وللأصـنام على السامرين ألّا يدخل مكة كتابيّ إلا أن يكون أجيرا لا يتحدّث بشيء من أمر دينـه ومن أمر كتابه. ولذلك لم تكن ثمـة جاليات من اليهود كما كانت بيثرب، ولا من النصارى كما كانت بنجـران. بل كانت كعبتها قـدس أقداس الوثنيّة تحميها من كل مجدّف في أمرها، وتحتمى بهـا من العُدوان عليها. وكذلك استقلّت مكة بنفسها، كما كانت تستقلّ قبائل العرب بنفسها، لا ترضى لغيرها عليها سلطانا، ولا ترضى من استقلالها بديلا، ولا تُعْنَى من الحياة بغير هذا الاستقلال في حمى أوثانها، لا تُضَارُّ قبيلة قبيلةً أُخرى، ولا تفكر طائفة من القبائل في الارتباط لتكون جمـاعةً قويّة، لهـا ما للروم أو للفرس من مطامع في السيادة والغزو. ومن ثَمَّ ظلّت القبائل جميعا ولا كيان لها غير كيان البداوة تنتجع في ظلاله المرعى، وتعيش في كنفه عيشا خشـنا، يحبّبه إليها ما فيـه من استقلال وحرية وأنفة وفروسية.

الفصل الثالث

محمد : من ميلاده الى زواجه

زواج عبد الله من آمنة — وفاة عبد الله — مولد محمد — رضاعه فى بنى سعد — قصة الملكين — مقامه خمس سنوات بالبادية — موت آمنة — كفالة عبدالمطلب إياه — موت عبدالمطلب — كفالة أبى طالب إياه — خروجه إلى الشام فى الثانية عشرة من عمره — حرب الفجار — يرعى الغنم — خروجه فى تجارة خديجة الى الشام — زواجه بخديجة

زواج عبد الله من آمنة

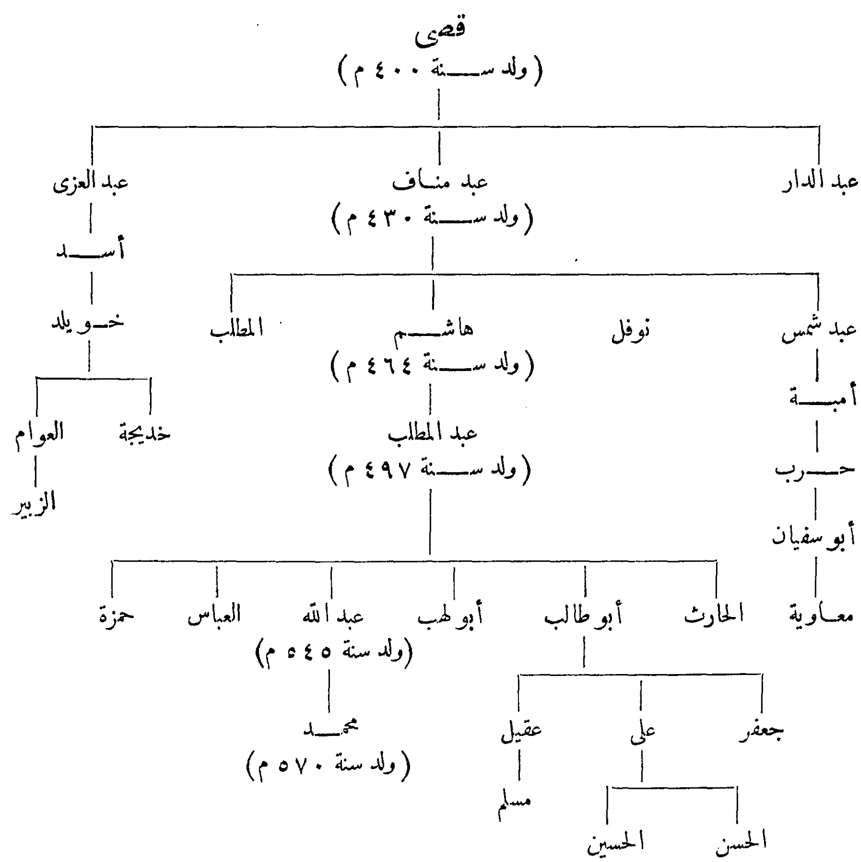
كان عبد المطّلب قد جاوز السبعين أو ناهزها حين حاول أَبْرَهَةُ مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق . وكان ابنه عبد الله فى الرابعة والعشرين من سنّه . فرأى أن يزوّجه، فاختار له آمنة بنت وَهْب بن عبد مَنَاف بن زُهْرة سيّد بنى زهرة إذ ذاك سنًّا وشرفا . وخرج به حتى أتى منازل بنى زُهْرة ،ودخل و إيّاه عند وَهْب وخطب إليه ابنته . ويذهب بعض المؤرّخين إلى أنه إنما ذهب إلى أُهَيْب عمّ آمنة ، لأن أباها كان هلك وكانت هى فى كفالة عمّها . وفى اليوم الذى تزوّج عبد الله فيه من آمنة تزوّج عبد المطلب من ابنة عمها هالة ، فأولدها حمزة عمّ النبىّ وضريبه فى سنّه .

وأقام عبد الله مع آمنة فى بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب حين يتم الزواج فى بيت العروس . فلما انتقل و إيّاها إلى منازل بنى عبد المطلب لم يُقم معها طويلا ، إذ خرج فى تجارة إلى الشام وتركها حاملا . وتختلف الروايات فى أمر عبد الله وهل تزوّج غير آمنة ، وهل عرضت عليه نساء غيرها أنفسهن . والوقوف لتقصّى أمثال هذه الروايات لا غناء فيه . وكل ما يمكن الاطمئنان اليه أن عبد الله كان شابًّا وسيما قويّا ، فلم يكن عجيبًا أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه . فلمّا بنى بها تقطّعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين . ومَنْ يدرى ! لعلهن قد انتظرن أَوْبته من رحلته الى الشام ليكنّ زوجات له مع آمنة . على أنه بعد أن مكث فى رحلته هذه الأشهر التى يقتضيها الذهاب إلى غَزَّة والعود منها عرّج على

عبد الله بن عبد المطلب

وكان عبد الله بن عبد المطلب فتى وسيما جميل الطلعة . وكانت أوانس مكة ونساؤها مُعْجَبات لذلك به . وزادهن إعجاباً حديث الفداء والمائة من الإبل التى لم يرض هُبَل بما دونها فداءً له . لكن القدر كان قد أعدّ عبد الله لأكرم أبوّة عرف التاريخ، وقد أعدّ آمنة بنت وهب لتكون أُمًّا لابن عبد الله؛ لذلك تزوّجها. ولم تك إلا أشهر بعد زواجه منها حتى مات، لم يُنجِه من الموت فداءٌ أيًّا كان نوعه . وبقيت آمنة من بعده لِتلد محمدًا ولتموت ومحمد ما يزال طفلا (١) .

(١) وهذه شجرة النسب ومعها أهم تواريخ ميلاد أصحابها على وجه التقريب :



واختلف المؤرّخون كذلك فى الشهر الذى ولد فيه وإن كانت كثرتهم على أنه وُلد فى شهر ربيع الأوّل . وقيل : وُلد فى المحرّم . وقيل : وُلد فى صفر . والبعض يرجح رجبا على حين يرجح آخرون شهر رمضان .

كذلك اختلف فى تاريخ اليوم من الشهر الذى وُلد فيه؛ فقيل : وُلد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأوّل ، وقيل لثمان ليال ، وقيل لتسع . والجمهور على أنه ولد فى الثانى عشر من شهر ربيع الأوّل ، وهو قول ابن إسحاق وغيره .

وكذلك اختُلف فى الوقت الذى وُلد فيه أنهارًا كان أم ليلا ، كما اختُلف فى مكان ولادته بمكة . ويرجّح كُوسَّانَ دِبِرْسِفَال فى كتابه عن العرب أن محمدا وُلد فى ٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ ، أى عام الفيل ، وأنه وُلد بمكة بدار جدّه عبد المطلب .

وفى سابع يومٍ لمولده أمر عبد المطّلب بجزور فنُحرت ، ودعا رجالًا من قريش فحضروا وطَعِموا . فلما علموا منه أنه أسمى الطفل محمدا سألوه لِمَ رغِب عن أسماء آبائه؟ فقال : أردت أن يكون محمودًا فى السماء لله وفى الأرض لخلقه .

المراضع

اِنتظرت آمنة مجىء المَرَاضِع من بنى سعد لتدفع به الى إحداهن كعادة أشراف العرب من أهل مكة . ولا تزال هذه العادة متّبعة عند أشراف مكة إذ يبعثون أبناءهم إلى البادية فى اليوم الثامن من مولدهم ثم لا يعودون الى الحضَر حتى يبلُغوا الثامنة أو العاشرة . ومن قبائل البادية مَنْ لها فى المراضع شهرة ، ومن بينها قبيلة بنى سَعْد . وفى انتظار المراضع دفعت آمنة بالطفل الى ثُوَيْبة جارية عمه أبى لَهَب ، فأرضعته زمنًا كما أرضعت من بعدُ عمه حمزة ؛ فكانا أخوين فى الرضاع . ومع أن ثُوَيْبة لم تُرضعه إلا أيّامًا فقد ظلّ يحفظ لها خير الودّ ويصلها ما عاشت ؛ ولما ماتت فى السنة السابعة من هجرته الى المدينة سأل عن ابنها الذى كان أخًا له فى الرضاع ليصله مكانها فعلم أنه مات قبلها .

وجاءت مَراضع بنى سَعْد الى مكة يلتمسن الأطفال لإرضاعهم . وكُنّ يُعْرِضن عن اليتامى لأنهن كنّ يرتجين البِرّ من الآباء . أمّا الأيامَى فكان الرجاء فيهن

أخواله بالمدينة يستريح عندهم من وعثاء السفر ليقوم بعد ذلك فى قافلة الى مكة؛ لكنه مرض عند أخواله فتركه رفاقه؛ حتى إذا بلغوا مكة أخبروا أباه بمرضه. ولم يلبث عبد المطلب حين سمع منهم أن أوفد الحارث أكبر بنيه إلى المدينة ليعود بأخيه بعد إبلاله. وعلم الحارث حين بلغ المدينة أن عبد الله مات ودُفن بها بعد شهر من مسير القافلة إلى مكة، فرجع أدراجَه ينعَى أخاه الى أهله ويُثير من قلب عبد المطّلب ومن قلب آمنة همًّا وشجنًا لفقد زوج كانت آمنة ترجو فى حياته هناءة وسعادة، وكان عبد المطلب عليه حريصا حتى افتداه من آلهته فداءً لم تسمع العرب من قبلُ بمثله.

موت عبد الله وتركته

وترك عبد الله من بعده خمسةً من الإبل وقطيعًا من الغنم وجاريةَ هى أم أيْمَن حاضنة النبيّ من بعدُ. ربما لا تكون هذه الثروة مظهر ثَراء وسعة؛ لكنها كذلك لم تكن تدلّ على فقر ومَتْرَبة. ثم إن عبد الله كان فى مقتبل عمره فكان قديرا على الكسب والعمل والبلوغ الى السعة فى المال، كما أن أباه كان ما يزال حيًّا، فلم يؤل اليه شيء من ميراثه.

مولد محمد (سنة ٥٧٠ م)

وتقدّمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى. فلما تمّ لها الوضع بعثت الى عبد المطلب عند الكعبة تخبره أنه ولد له غلام. وفاض بالشيخ السرور حين بلغه الخبر، وذكر ابنه عبد الله وقلبه مفعم بالغبطة لخَلَفه، وأسرع إلى زوج ابنه وأخذ طفلها بين يديه، وسار حتى دخل به الكعبة وسمّاه محمدا. وكان هذا الاسم غير متداول بين العرب، لكنه كان معروفا. وردّ الجدّ الصبيَّ إلى أُمه وجعل وإياها ينتظر المراضع من بنى سعد لتدفع الأمّ بوليدها الى إحداهن، على عادة أشراف العرب من أهل مكة.

وقد اختلف المؤرّخون فى العام الذى ولد محمد فيه؛ فأكثرهم على أنه عام الفيل (٥٧٠ ميلادية)، ويقول ابن عبّاس: إنه وُلد يوم الفيل. ويقول آخرون: إنه وُلد قبل الفيل بخمس عشرة سنة. ويذهب غير هؤلاء إلى أنه ولد بعد الفيل بأيام أو بأشهر أو بسنين، يقدّرها قوم بثلاثين سنة ويقدّرها قوم بسبعين.

فشقّا بطنى فالتمسا فيه شيئا لم أدر ماهو » . ورجعت حليمة ورجع أبوه الى خِبائهما . وخشى الرجل أن يكون الغلام أصابته الجن ، فاحتملاه الى أُمّه بمكة . ويروى ابن إسحاق فى هذه الواقعة حديثا عن النبيّ بعد بعثه . لكن ابن إسحاق يحتاط بعد أن يقصّ هـذه القصة ويذكر أن السبب فى ردّه الى أُمه لم يكن حكاية الملكين وإنما كان، على ماروته حليمة لآمنة ، أن نفرًا من نصارى الحبشة رأوه معها حين رجعت به بعـد فِطامه، فنظروا اليه وسألوها عنه وقلّبوه ثم قالوا : لنأخذنّ هـذا الغلام فلنذهب به الى ملكنا وبلدنا؛ فإن هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره، ولم تكد حليمة تنفلت به منهـم . وكذلك يرويها الطبرى ، لكنه يُحيطها بالريبـة إذ يذكرها فى هــذه السنة من حياة محمد، ثم يعود فيذكر أنهـا وقعت قُبيل البعث وسنّه أربعون سنة .

لا يطمئنّ المستشرقون ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه ويرونها ضعيفة السند . فالذى رأى الرجلين فى رواية كتّاب السيرة إنما هو طفل لا يزيد على سنتين إلا قليلا ، وكانت كذلك سنّ محمد يومئـذ . والروايات تجمع على أن محمدا أقام ببنى سعد الى الخامسة من عمره . فلو كان هذا الحادث قد وقع وسنّه سنتان ونصف سنة، ورجعت حليمة وزوجها إذ ذاك به إلى أُمّه،لكان فى الروايتين تناقض غير مقبول . ولذلك يرى بعض الكتّاب أنه عاد مع حَلِيمة مرة ثالثـة . ولا يرضى المستشرق سيروليم مْوِير أن يشير إلى قصـة الرجلين فى ثيابهما البيضاء ، ويذكر أنه إن كانت حليمة وزوجها قد نبَها لشيءٍ أصاب الطفل فلعلّه نوبةعصبية أصابته ، ولم يكن لها أن تؤذى صحته لحسن تكوينه . ولعل آخرين يقولون : إنه لم يكن فى حاجة إلى من يشقّ بطنه أو صدره ما دام الله قـد أعدّه من يوم خلقه لتلقِّ رسالته . ويرى دِرْ مِنْجِم أن هــذه القصة لا تستند إلى شيء غير ما يفهم من ظاهر الآية : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾[1]

(١) سورة الانشراح الآيات من ١ الى ٣ .

قليـلا ؛ لذلك لم تُقبل واحدة من أولئك المراضع على محمد ، وذهبت كلٌّ بمن ترجو من أهله وافر الخير .

حليمـة بنت أبي ذؤيب

على أنّ حَليمة بنت أبى ذُؤَيب السَّـعْدية التى أعرضت عن محمد أوّل الأمر كما أعرض غيرها ، لم تجد من يدفع إليهـا طفلها ؛ ذلك أنها كانت على جانب من ضعف الحال صرف الأمّهات عنها . فلما أجمع القوم على الانطلاق عن مكّة قالت حليمة لزوجها الحارث بن عبد العُزّى : والله إنى لأكره أن أرجع مع صواحبي ولم آخذ رضيعا . والله لأذهبن الى ذلك اليتيم ولآخذنه ! . وأجابها زوجها : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعـل لنا فيـه بركة . وأخذت حليمة محمدا وانطلقت به مع قومها الى البادية . وكانت تحدّث أنها وجدتْ فيه منذ أخذته أىّ بركة : سَمِنتْ غنمُها وزاد لبنُها وبارك الله لها فى كل ماعندها .

وأقام محمد فى الصحراء سنتين تُرضعه حليمة وتحضنه ابنتُها الشَّيماء ، ويجـد هو فى هواء الصحراء وخشونة عيش البادية مايُسرع به الى النمو ويزيد فى وَسامة خَلْقه وحسن تكوينه . فلما أتمّ سـنتيه وآن فِصاله ذهبت به حليمة الى أمّه ثم عادت به الى البادية ، رغبـةً من أمه ، فى رواية ، ومن حليمة فى رواية أخرى ؛ عادت به حتى يغلُظ وخوفا عليه من وباء مكة . وأقام الطفل بالصحراء سنتين أُخريين يمرح فى جوّ باديتها الصحو الطلق لا يعرف قيدًا من قيود الروح ولا من قيود المـادّة .

قصة شق الصـدر

فى هـذه الفترة وقبل أن يبلُغ الثالثة تقع الرواية التى يقصّونها من أنه كان مع أخيه الطفل من سنّه فى بَهْمٍ لأهله خلف بيوتهم ، إذ عاد أخوه الطفل السعدىّ يعدو ويقول لأبيه وأمه : ذلك أخى القرشىّ قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأضجعاه فشقّا بطنـه ، فهما يَسُوطانه (١) . ويروى عن حليمة أنهـا قالت عن نفسها وزوجها : « فخرجتُ أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائمـا ممتقعا وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالَكَ يابنىّ ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثيابٌ بيض فأضجعانى

(١) أى يخوضانه ويقلّبانه .

في كفالة جده عبد المطلب

من يبحث عنه حتى ردّه عليه وَرَقة بن نَوْفل فيما يروون . وكفَل عبد المطّلب حفيدَه وأغدق عليه كل حبّه وأسبغ عليه جمّ رعايته . كان يوضع لهذا الشيخ، سيِّد قريش وسيِّد مكة كلها، فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش إجلالًا لأبيهم؛ فاذا جاء محمد أدناه عبد المطّلب منه وأجلسه على الفراش معه وربَّت على ظهره، وأبدى من آيات عطفه ما يمنع أعمام محمد من تأخيره إلى حيث يجلسون .

اليتم

وزاد في إعزاز الجدّ لحفيده أنّ آمنة خرجت بابنها الى المدينة لتُرِيَ الغلامَ فيها أخوال جدّه من بني النجّار، وأخذت معها أمَّ أيْمَن الجارية التي خلّفها عبد الله من بعده. فلما كانوا بها أرَتِ الغلامَ البيتَ الذى مات أبوه فيه والمكان الذى دُفن به؛ فكان ذلك أوّل معنى لليتم انطبع في نفس الصبيّ. ولعل أُمّه حدّثته طويلا عن هذا الأب المحبوب الذى غادرها بعد مُقامه معها أياما معدودة ليجيئه بين أخواله أجلُه . فقد كان النبيّ بعد هجرته إلى المدينة يقصّ على أصحابه حديث تلك الرحلة الأولى الى المدينة مع أُمّه، حديث محبٍّ للمدينة محزون لمن تحوى القبورُ من أهله بها . ولما تمّ مكثهم بيثرب شهرًا اعتزمت آمنة العودة فركبت وركب من معها بعيريهما اللذين حملاهما من مكة . فلما كانوا في أثناء الطريق بين البلدين مرِضت آمنة بالأبْوَاء[1] وماتت ودُفِنت بها؛ وعادت أمُّ أَيْمن بالطفل الى مكة منتحبًا وحيدا، يشعر بيتم ضاعفه عليه القدر فيزداد وحشة وألما . لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنّات الألم لفقد أبيه وهو مايزال جنينا، وها هو ذا قد رأى بعينيه أمّه تذهب كما ذهب أبوه وتدع جسمه الصغير يحمل همَّ اليتم كاملا .

موت آمنة

زاد ذلك في إعزاز عبد المطّلب إيّاه . مع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمةً عميقة في نفسه، حتى وردت في القرآن إذ يذكر الله نبيّه بالنعمة عليه فيقول : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾[2]. ولعل جوى هذه الذكرى كان يَخِفُّ

موت عبد المطلب وأثره

(١) الأبواء : قرية بين المدينة والجحفة بينها وبين المدينة ثلاثة وعشرون ميلا .

(٢) سورة الضحى آيتى ٦ و ٧

وأن ما يشير القرآن إليه إنما هو عمل روحىّ بحت ، الغاية منه تطهير هذا القلب وتنظيفه ليتلقّ الرسالة القدسيّة خالصا ويؤدّيها مخلصا تمام الإخلاص محتملاً عبء الرسالة المضنى .

وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحادث أن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية ، وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه مَنْ سبقه من أصحاب الخوارق . وهم فى هذا يجدون من المؤرّخين العرب والمسلمين سندًا حين ينكرون من حياة النبىّ العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر فى خلق الله ، وأن سنّة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعيير القرآن المشركين أنهم لا يفقهون أن ليست لهم قلوب يعقلون بها .

محمد فى البادية

وأقام محمد فى بنى سعد إلى الخامسة من عمره ينهَل من جوّ الصحراء الطلق روحَ الحرّية والاستقلال النفسىّ ، ويتعلّم من هذه القبيلة لغة العرب مصفّاة أحسن التصفية ، حتى لقد كان يقول من بعدُ لأصحابه : «أنا أعْربكم ، أنا قرشىٌّ واستُرْضعت فى بنى سعد بن بكر» . وتركتْ هذه السنوات الخمس فى نفسه أجمل الأثر وأبقاه ، كما بقيت حليمة وبقى أهلها موضع محبّته وإكرامه طَوالَ حياته . أصابت الناس سـنةٌ (١) بعد زواج محمد من خديجة ؛ فجاءته حليمة فعادت من عنده ومعها من مال خديجة بعيرٌ يحمل الماء وأربعون رأسا من الغنم . وكانت كلما أقبلت عليه مدّ لها طرَف ردائه لتجلس عليه سِيَما الاحترام . وكانت الشّيْماء ابنتها بين من أُسر مع بنى هوازن بعد حصار الطائف ، فلما جىء بها إلى محمد وعرَفها أكرمها وردّها إلى أهلها كما رغبت .

وعاد إلى أمّه بعد هذه السنوات الخمس . ويقال : إن حليمة التمسته وهى مقبلةٌ به على أهله فلم تجده ؛ فأتت عبد المطلب فأخبرته أنه ضلّ منها بأعلى مكة . فبعث

(١) سـنة : جـدب .

على ما تدلّه عليه أنباء كتب النَّصرانيــة . وتذهب بعض الروايات الى أن الراهب نصح الى أهله ألّا يوغلوا به فى بلاد الشام خوفاً عليه من اليهود أن يعرفوا منه هذه الأمارات فينالوه بالأذى .

فى هــذه الرّحلة وقعت عينا محمد الجميلتان على فسحة الصحراء وتعلقتا بالنجوم اللامعة فى سمائها الصافية البــديعة، وجعل يمر بمَدْيَن ووادى القُــرَى وديار ثمود، وتستمع أذناه المُرْهَفتان الى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضى نَبَئِها . وفى هــذه الرحلة وقف من بلاد الشام عنــد الحدائق الغنّاء اليانعة التى أنسته حدائق الطائف وما يُروى عنها، والتى تبدَّتْ له جنّاتٍ الى جانب جَدْب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء فيما حول مكة . وفى الشام كذلك رأى محمد أحبار الروم ونصرانيتهم، وسمع عن كتابهم وعن مناوأة الفرس من عبّاد النار لهم وانتظارهم الوقيعة بهم . ولئن كان بعدُ فى الثانيةَ عشرةَ من سنّه لقد كان له من عظمة الروح وذكاء القلب ورجحــان العقل ودقــة الملاحظة وقــوّة الذاكرة وما الى ذلك من صفات حَباه القدر بها تمهيدًا للرسالة العظيمة التى أعدّه لهــا — كان له من ذلك كله ما جعله ينظر الى ما حوله ومَنْ حوله نظــرة الفاحص المحقق، فلا يســتريح الى كل ما يسمع ويرى، فيرجع الى نفسه يسائلها : أين الحقّ من ذلك كله ؟ .

والراجح أن أبا طالب لم يُفِدْ مالاً كثيرا من رحلته تلك، فلم يعد من بعــدُ الى رحلة مثلها، بل قنع بحظه وأقام بمكة يكفل فى حدود ماله القليل أولاده الكثيرين. وأقام محمد مع عمه قانعاً بنصيبه يقوم من الأمر بمــا يقوم به مَنْ هُمْ فى مثل سنّه . فاذا جاءت الأشهر الحُرُم ظلّ بمكة مع أهله أو خرج وإيّاهم الى الأسواق المجاورة لهــا بعُكَاظ ومَجَنَّة وذِى المجَاز يستمع لإنشاد أصحاب المذهَّبات والمعلَّقات وتَلْتَهِــم أُذناه بلاغتهم فى غَزَلِهم وفخرهم وذكرهم أنسابهــم ومغازيهم وكرمهم وفضلهــم، ثم يَعْرِض ذلك على بصيرته تلفِظ منه ما لا تُسيغ وتُعْجَب بما تراه جديراً بالإعجاب . ويستمع الى خطب الخطباء، ومن بينهــم اليهود والنصارى الذين كانوا يَنْقِمون

بعض الشّيء لَو أن عبد المطلب عُمِّر أكثر مما عمِّر؛ لكنه مات فى الثمانين من عمره ومحمد مايزال فى الثامنـة . وحزِن محمد لموت جدّه حزنه لموت أُمّه . حزن حتى كان دائم البكاء وهو يتبع نعشه الى مقرّه الأخير، وحتى كان دائم الذكر من بعد ذلك له، مع ما لقى من بعـدُ فى كفالة عمه أبى طالب من عناية ورعاية، ومن حماية امتدّت الى ما بعد بعثه ورسالته، ودامت الى أن مات عمه . والحق أنّ موت عبد المطلب كان على بنى هاشم جميعا ضربة قاسية . فإنه لم يكن من أبنائه من كان فى مثل مكانته عزما وقـوّةَ أيْدٍ وأصالةَ رأيٍ وكرمًا وأثرًا فى العـرب جميعا . ألم يكن يطعم الحاجّ ويسقيهم ويَبَرُّ أهل مكة جميعا اذا أصابهم شرٌّ أو أذى! وها هم أولاء أبناؤه لم يصل أحد منهم الى مكانتـه، أن كان فقيرهم عاجزا عن مثل عمله، وكان غنيّهم حريصا على ماله . لذلك ما لبث بنو أُمية أن تهيئوا ليأخذوا المكانة التى طمعوا فيها من قبلُ دون أن يخشَوْا من بنى هاشم مزاحمة تخيفهم .

في كفـالة عمـه أبى طالب

آلت كفالة محمد إلى أبى طالب وإن لم يكن أكبر إخوته سنًّا؛ فقد كان الحارث أسنَّهم، وإن لم يكن أكثرهم يسارا . وكان العبّاس أكثرهم مالا ، لكنه كان على ماله حريصا؛ لذلك احتفظ بالسِّقاية وحدها دون الرِّفادة . فلا عجب أن كان أبو طالب على فقره أنبلَهم وأكرمهـم فى قريش مكانةً واحتراما، ولا عجب أن عهد اليه عبد المطلب بكفالة محمد من بعده .

وقد أحبّ أبو طالب ابن أخيه كحب عبد المطّلب له . أحبّه حتى كان يقدّمه على أبنـائه ، وكان يجد فيـه من النجابة والذكاء والبرّ وطيب النفس ما يزيده به تعلّقا . ولقد أراد أن يخرج يومًا فى تجارة له الى الشام حين كان محمد فى الثانيةَ عشرةَ من عمره؛ ولم يفكر فى استصحابه خوفًا عليـه من وعثاء السفر واجتياز الصحراء . لكن محمدا أبدى من صادق الرغبـة فى مصاحبة عمه ما قضى على كل تردّد فى نفس أبى طالب . وصحِب الغلامُ القافلة حتى بلغ بُصْرَى فى جنوب الشام . وتروى كتب السيرة أنه التقى فى هذه الرّحلة بالراهب بَحِيرَى وأن الراهب رأى فيه أمارات النبوة

الرحـلة الأولى الى الشـام

فأنذرتهم هوازن الحرب بعُكاظ العام المقبل . وقد ظلّت هذه الحرب تنشَب بين الفريقين أربع سنوات متتابعة انتهت بعدها إلى صلح من نوع صلح البادية ؛ ذلك بأن يدفع من كانوا أقلَّ قتلى دِيةَ العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر. ودفعت قريش دية عشرين رجلًا من هوازن، وذهب البرّاض مثلا فى الشقاوة .

لم يحقّق التاريخ سنّ محمد أيام حرب الفِجَار؛ فقيل: كان ابن خمس عشرة سنة؛ وقيل : كان ابن عشرين . ولعل سبب الخلاف أن هـذه الحرب استطالت أربع سنوات تجعل حاضر أوّلها وهو فى الخامسة عشرة يلحق آخرَها فى جوار العشرين .

وقد آختُلف فيما قام به محمد من عمل فى هذه الحرب، فقال أُناس : إنه كان يجمع السهام التى تقع من هوازن و يدفعها الى أعمامه ليردّوها إلى صدور خصومهم، وقال آخرون : بل اشترك فيها ورمى السهام بنفسه . وما دامت الحرب المذكورة قد امتدّت فتراتها فى سنوات أربع ، فليس ما يمنع صحة الروايتين ؛ فيكون قد جمع السهام لأعمامه أوّل الأمر ورمى من بعـد ذلك . وقد ذكر رسول الله الفجار بعد سنوات من رسالته فقال : قد حضرتُه مع عُمومتى و رميت فيه بأسهم، وما أُحِبّ أنى لم أكن فعلت .

وقد شعرت قريش بعد الفِجَار بأن ما أصابها وما أصاب مكة جميعًا بعد موت هاشم وموت عبد المطّلب من تفرّق الكلمة وحرص كل فريق على أن يكون صاحبَ الأمر، قد أطمع فيها العرب بعد أن كانت أمنع من أن يطمع فيها طامع. إذ ذاك دعا الزُّبَيْر بن عبد المطّلب، فاجتمعت بنو هاشم ، وزُهْرة، وتَيْم، فى دار عبد الله بن جُدْعان ، فصـنع لهم طعامًا فتعاقدوا وتعاهدوا بالله المنتقم لنكونن مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقُّـه ما بَلّ بحرٌ صُوفةً . وقد حضر محمد هذا الحلف الذى سمّته العرب حِلْف الفُضُول ؛ وكان يقول « ما أُحِبّ أنّ لى بحِلْفٍ حَضَرتُه فى دار ابن جُدْعان حُمْرَ النَّعَم ولو دُعيت به لأجبتُ » . حلف الفضول

من إخوانهـم العرب وثنيتهم ويحدّثونهم عن كتب عيسى وموسى ويدعونهم إلى ما يعتقدونه الحق ، ويزن ذلك بميزان قلبه فيراه خيراً من هذه الوثنية التي غرق فيها أهله ، ولكنه لا يطمئن كل الطمأنينة اليه . وكذلك جعل القدر يوجّه نفسَه منذ نعومة أظفاره الوجهة التي تُهَيِّئه لذلك اليوم العظيم ، يوم الوحى الأول، حين دعاه ربه لتبليغ رسالته : رسالة الهدى والحق للناس كافّة .

حرب الفجار

وكما عرف محمد طرق القوافل فى الصحراء مع عمه أبى طالب ، وكما استمع إلى الشـعراء والخطباء مع ذويه فى الأسـواق حول مكة أثناء الأشهر الحُرُم، عرف كذلك حمل السلاح إذ وقف إلى جانب أعمامه فى حرب الفِجَار . وحرب الفجار تلك كانت بعض ما يَثُـور ويتّصل بين قبائل العرب من الحروب . وقـد سُمِّيت الفجار لأنهـا وقعت فى الأشهر الحرم إذ تمتنع قبائل العـرب عن القتال ويعقدون أسـواق تجارتهم بعُكَاظ بين الطائف ونَخْـلة وبمجنّة وذى المَجَـاز على مقربة من عَرَفات لتبادل التجارة وللتفاخر والجدل وللحج بعـد ذلك عند أصنامهم بالكعبة . وكانت سـوق عكاظ أكثر أسـواق العرب شهرة ؛ فيها أَنشـد أصحاب المعلَّقات معلقاتهم ، وفيهـا خطب قُسّ ، وفيها كان اليهود والنصارى وعبّاد الأصنام يحدّث كلٌّ عن رأيه وعقيدته آمنًا ، لأنه فى الشهر الحرام .

على أن البَرّاض بن قَيْس الكِنَانىّ لم يحترم هذه الحرمة حين غافل أثناءها عُرْوة الرّحال بن عُتْبَةَ الهَوَازِنىّ وقتله . وسبب ذلك أن النُّعْمان بن المُنْذر كان يبعث كل سنة قافلةً من الحِيرة إلى عُكَاظ تحمل المسك وتجىء بديلاً منه بالجلود والحبال وأنسجة اليمن المزركشة . فعرَض البرّاض الكنانىّ نفسه عليـه ليقود القافلة فى حماية قبيلته كنانة ؛ وعرَض عُرْوة الهَوازنىّ نفسَه كذلك على أن يتخطّى إلى الحجاز طريق نَجْد . واختار النُّعمان عُرْوة ؛ فأحفظ ذلك البرّاضَ فتبعه وغاله وأخذ قافلته . ثم أخبر بِشْرَ القرشىّ أنّ هَوَازِنَ سـتأخذ بثأرها من قُريش . ولحقت هوازن بقريش قبـل أن يدخلوا الحـرم فاقتتلوا . وتراجعت قريش حتى لاذت من المُتْتَصِرين بالحرم،

هو يتنفّس هواءه ولو لم يتنفّسه قضى ؟ أليست تُحييه أشعّة الشمس و يغمُره ضياء القمر و يتّصـل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعا، هـذه الأفلاك والعوالم التى يرى فى فسحة الكون أمامه، متصلًا بعضُها ببعض فى نظام محكم، لا الشمس ينبغى لها أن تُدْرِكَ القمر ولا الليلُ سابقُ النّهارِ ؟ ! واذا كان نظام هـذا القطيع من الغـنم أمام محمد يقتضى انتباهه و يقظته حتى لا يعدو الذئب على شاة منها وحتى لا تضـلّ إحداها فى مَهَامِهِ البادية، فأىّ انتباه وأية قوة تحفَظ على نظام العالم كلّ إحكامه؟ وهذا التفكير والتأمُّل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير فى شهوات الإنسان الدُّنيا والسموّ به عنها بمـا يبديان له من كاذب زُخْرُفها . لذلك ارتفع محمد فى أعماله وتصرّفاته عن كل ما يمسّ هذا الاسم الذى أطلق عليه بمكة وبقى له : "الأمين" .

يدل على ذلك كله ما حدّث هو عنـه ، من أنه كان يرعى الغنم مع زميـل له ، فحدّثته نفسه يومًا أن يلهو كما يلهو الشباب ، فأفضى الى زميله هذا ذاتَ مساء أنه يودّ أن يهبط مكة ، يلهو بها لهو الشـباب فى جُنح الليل ، وطلب لذلك اليه أن يقوم على حراسة أغنامه . لكنه ما إن بلَغ أعلى مكة حتى اسـترعى انتباهَه عرس زواج وقف عنده ثم ما لبث أن نام . ونزل مكة ليلةً أُخرى لهذه الغاية، فامتلأت آذانه بأصوات موسيقيّة بارعة كأنمـا هى موسيقِى السماء، فجلس يستمع ثم نام حتى أصـبح . وماذا عسى أن تفعل مُغْرِيات مكة بقلب مهذَّب ونفس كلها تفكيرٌ وتأمُّل ؟ ماذا عسى أن تكون هذه المغريات التى وصفنا والتى لا يستريح اليهـا من يكون دون محمد سموًّا بمراحل كثيرة ! لذلك أقام بعيدًا عن النقص لا يجد لذّةً يذوقها أطيب لنفسه من لذة التفكير والتأمُّل .

حياة التفكير والتأمل

وحياة التفكير والتأمُّل وما تسـتريح اليه من عمل بسـيط كرعى الغنم ، ليست بالحياة التى تدُرّ على صاحبها أخلافَ الرزق أو تفتح أمامه أبواب اليسار . وما كان محمد يهتمّ لذلك أو يُعْنَى به ،وقد ظلّ طول حياته أشدّ الناس زهدا فى المـادة ورغبة عنها . وما إقباله عليها وكان الزهد بعض طبعه، وكان لا يحتاج من الحياة الى أكثر

لم تكن حرب الفجار ، كما رأيت ، تستغرق إلا أياماً من كل عام ؛ أمّا سائر العام فكان العرب يرجعون فيه إلى أعمالهم المعروفة يزاولونها دون أن تترك الحرب فى نفوسهم من المرارة مايحول بينهم وبين التجارة والربا والشراب والتسرِّى والأخذ من مختلف ألوان اللهو بأوفر نصيب . أفكان محمدٌ يشاركهم فى هذا ؟ أم أن رقّة حاله وضيق ذات يده وكفالة عمه إيّاه جعلته بمنأى عنها ينظر الى التّرَف نظرة المحروم المشتهى؟ أمّا أنه نأى عنها فذلك ما يشهد به التاريخ . لكنه لم ينأ عنها عجزًا عن النيل منها؛ فقد كان الخُلَعاء المقيمون بأطراف مكة والذين لا يجدون من أسباب الرزق الا الضنك والإملاق يجدون الوسيلة اليها، بل كان بعضهم أشد من أمجاد مكة وأشراف قريش إمعانًا فيها وإدمانًا لها . إنما كانت نفس محمد مشغوفة بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف . وكأنّ حرمانه من التعلُّم الذى يتعلّمه بعض أنداده من أبناء الأشراف جعله أشدّ للمعرفة تشوقا، وبها تعلّقا؛ كما أن النفس العظيمة التى تجلّت من بعدُ آثارُها وما يزال يغمر العالَم ضياؤها، كانت فى توْقها الى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذى يصبو إليه أهل مكة، الى نور الحياة المتجلِّى فى كل مظاهر الحياة لمن هداه الحقّ اليها ، ولا كتناه ما تدلّ هذه المظاهر عليه وما تحدّث الموهوبين به . ولذلك ظهر منذ الصبا الأول مظهرَ الكمال والرجوليّة وأمانة النفس، حتى دعاه أهل مكة جميعا : "الأمين" .

رعيه الغنم

ومما زاده انصرافًا إلى التفكير والتأمُّل اشتغاله برَعْى الغنم سِنِى صِباه تلك . فقد كان يرعى غنم أهله ويرعى غنم أهل مكة ، وكان يذكر رعيَه إيّاها مغتبطا . وكان يقول : ما بعث الله نبيًّا إلا راعى غنم ، ويقول : بُعث موسى وهو راعى غنم ، وبُعث داود وهو راعى غنم ، وبُعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجْيَاد . وراعى الغنم الذكىّ القلب يجد فى فسحة الجوّ الطلق أثناء النهار وفى تلألؤ النجوم إذا جَنّ الليل موضعًا لتفكيره وتأمُّله يسبح منه فى هذه العوالم ، يبتغى أن يرى ما وراءها، ويلتمس فى مختلف مظاهر الطبيعة تفسيرًا لهذا الكون وخَلْقه . وهو يرى نفسه، ما دام ذكىّ الفؤاد عليم القلب ، بعضَ هذا الكون غيرَ منفصل عنه . أليس

فخرج أبو طالب إليها فقال لها : هل لك يا خديجة أن تستأجرى محمدا ؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببَكْرَين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة بِكَار . وكان جواب خديجة : لو سألتَ ذلك لبعيدٍ بَغِيض فعلنا ، فكيف وقد سألتَه لحبيبٍ قريب ! وعاد العمّ إلى ابن أخيه يذكر له الأمرَ ويقول له : هذا رزقٌ ساقه الله إليك .

محمد فى تجارة خديجة

خرج محمد مع مَيْسَرة غلام خديجة بعد أن أوصاه أعمامه به . وانطلقت القافلة فى طريق الصحراء إلى الشام مارّةً بوادى القُرَى ومَدْيَن وديار ثمود وبتلك البقاع التى مرّ بها محمد مع عمّه أبى طالب وهو فى الثانيةَ عشرةَ من عمره . وأحيت هذه الرّحلة فى نفسه ذكريات الرحلة الأولى ، كما زادته تأمُّلا وتفكيرا فى كل ما رأى وسمع، من قبل سفره، بالشام أو بالأسواق المحيطة بمكة . فلما بلَغ بُصْرَى اتّصل بنَصْرانية الشام وتحدّث إلى رُهبانها وأحبارها وتحدّث إليه راهب نسطوريٌّ وسمع منه . ولعلّه أو لعل غيره من الرهبان قد جادل محمدا فى دين عيسى، هذا الدين الذى كان قد انقسم يومئذ شِيَعًا وأحزابا ، كما بسطنا من قبل . واستطاع محمد بأمانته ومقدرته أن يتّجر بأموال خديجة تجارةأوفر ربحًا مما فعل غيره من قبل . واستطاع بحلو شمائله وجمال عواطفه أن يكسب محبّة ميسرة وإجلاله . فلما آن لهم أن يعودوا ابتاع لخديجة من تجارة الشام كل ما رغِبت إليه أن يأتيها به .

فلمّا بلغت القافلة مَرّ الظَّهْرَان فى طريق عودتها، قال ميسرة : يا محمد، أسْرِعْ إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف ذلك لك. وانطلق محمد حتى دخل مكة فى ساعة الظَّهيرة ؛ فرأته خديجة ، وكانت فى عِلّيّةٍ لها، وهو على بعيره . ونزلت حين دخل دارها واستقبلته . واستمعت إليه يقصّ بعبارته البليغة الساحرة خبر رحلته وربح تجارته وما جاء به من صناعة الشام، وخديجة تُنصت مغتبطة مأخوذة . وأقبل ميسرة من بعدُ فروى لها عن محمد ورقّة شمائله وجمال نفسه ما زادها علمًا به فوق ما كانت تعرف من فضله على شباب مكة . ولم يك إلا ردُّ الطَّرْف حتى انقلبت غِبْطتها حُبًّا جعلها وهى فى الأربعين من سنّها، وهى التى ردّت

مما يقيم صُلْبه؟! . أليس هو القائل : نحن قومٌ لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ؟ أليس هو الذى عُرِف عنه كلَّ حياته حرصُه على شَظَف العيش ودعوةُ الناس الى الاستمتاع بخشونة الحياة ؟ والذين يتوقون الى المـال ويلهثون فى طلبه إنما يبتغونه لإرضاء شهوات لم يعـرف محمد طَوَال حياته شيئا منها . واللذّة النفسيّة الكبرى ، لذة الاستمتاع بما فى الكون من جمال ومن دعوة الى التأمّل ، هذه اللذّة العظيمة التى لا يعرفها إلا الأقلّون ، والتى كانت لذة محمد منذ نشأته ومنذ أرتْه الحياة فى نعومة أظفاره ذكرياتٍ بقيت مطبوعة فى نفســه داعية الى الزهـد فى الحياة ، وأُولاها موت أبيـه وهو ما يزال جنينا ، ثم موت أُمّه ثم موت جَدّه ، هذه اللذّة ليست فى حاجة الى ثروة من المـال وإن تكن فى حاجة الى ثروة نفسية طائلة يعرف الإنسان معها كيف يعكُف على نفسه ويعيش بها وفى دخيلتها . ولو أنّ محمدا تُرِك وشأنه يومئذ لمَـا نازعته نفسه الى شيء من المـال ولظلّ سعيداً بهذه الحال ، حال الرُّعاة المفكرين الذين ينتظمون الكون فى أنفسهم ، والذين يحتويهم الكون فى حبّة قلبه .

خديجـــة

لكن عمه أبا طالب كان ، كما قدّمنا ، حليفَ فقر كثيرِ عيال . لذلك رأى أن يجد لابن أخيه يومًا سببا للرِّزق أوسع مما يجيئه من أصحاب الغنم التى يرعى . فبلغه يومًا أن خديجة بنت خُوَيْلِد تستأجر رجالًا من قريش فى تجارتها . وكانت خديجة امرأةً تاجرةً ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالهـا يضاربون لهـا به بشيء تجعله لهم . ولقــد زاد فى ثروتها أنها ، وكانت من بنى أسَد ، قد تزوّجت مرّتين فى بنى مخزوم بمـا جعلها من أوفر أهل مكة غِنًى . وكانت تقوم على مالها بمعونة أبيها خُوَيْلد وبعض ذوى ثِقتها . وقد ردّت خِطْبةَ الذين خطبوها من كبار قريش ، لأنها كانت تعتقد أنهم ينظرون الى مالها ، واعتزمت أن تقف جهدها على تنمية ثروتها . وإذ علم أبو طالب أنها تجهِّز لخروج تجارتها الى الشام مع القافلة نادى ابن أخيه ، وكان يومئــذ فى الخامسة والعشرين من ســنّه ، وقال له : يا بن أخى ، أنا رجل لا مالَ لى ، وقد اشتدّ الزمان علينا ، وقد بلغنى أن خديجة استأجرت فلانًا ببَكْرَين ، ولسنا نرضَى لك بمثــل ما أعطته . فهل لك أن أكلِّمها ؟ قال محمد : ما أحببتَ !

من قبلُ أعظم قريش شرفًا ونسبا ، تودّ أن تتزوّج من هـذا الشاب الذى نفَذت نظراته ونفـذت كلماته إلى أعماق قلبها . وتحـدّثت فى ذلك إلى أختها على قول ، وإلى صديقتها نُفيسـة بنت مُنْيَةَ على قول آخر . وذهبت نفيسـة دَسِيسًا إلى محمد فقالت له : ما يمنعك أن تتزوّج ؟ قال : ما بيـدى ما أتزوّج به . قالت : فإن كُفِيتَ ذلك ودُعِيت إلى الجمال والمـال والشرف والكفاءة ألَا تجيب ؟ . قال : فمَنْ هى ؟ أجابت نفيسة بكلمة واحدة : خديجة . قال محمد : كيف لى بذلك ! . وكان قد أنِس هو أيضا إلى خديجة وإن لم تحدّثه نفسه بزواج منها ، لِمَـا كان يعلم من ردِّها أشراف قريش وأغنياءها . فلمّـا قالت له نفيسة جوابا عن سؤاله : علَىَّ ذلك ، سارع إلى إعلان قبوله . ولم تبطئ خديجـة أن حدّدت الساعة التى يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزّواج . وزوّجها عمها عمرو بن أسد أن كان خويلد قد مات قبل حرب الفِجَار ، مما يكذِّب ما يروَى من أنه كان حاضرا ولم يكن راضيًا هذا الزواج ، فسقتْه خديجة خمرًا حتى أخذت فيه ، وحتى زوّجها محمدا .

وهنا تبدأ صفحة جديدة من حياة محمد : تبدأ حياة الزوجيّة والأبوّة . الزوجية الموفقة الهنية من جانبه وجانب خديجة جميعا ، والأبوّة التى تعرف من الآلام لفقد الأبناء ما عرف محمد فى طفولته لفقد الآباء .

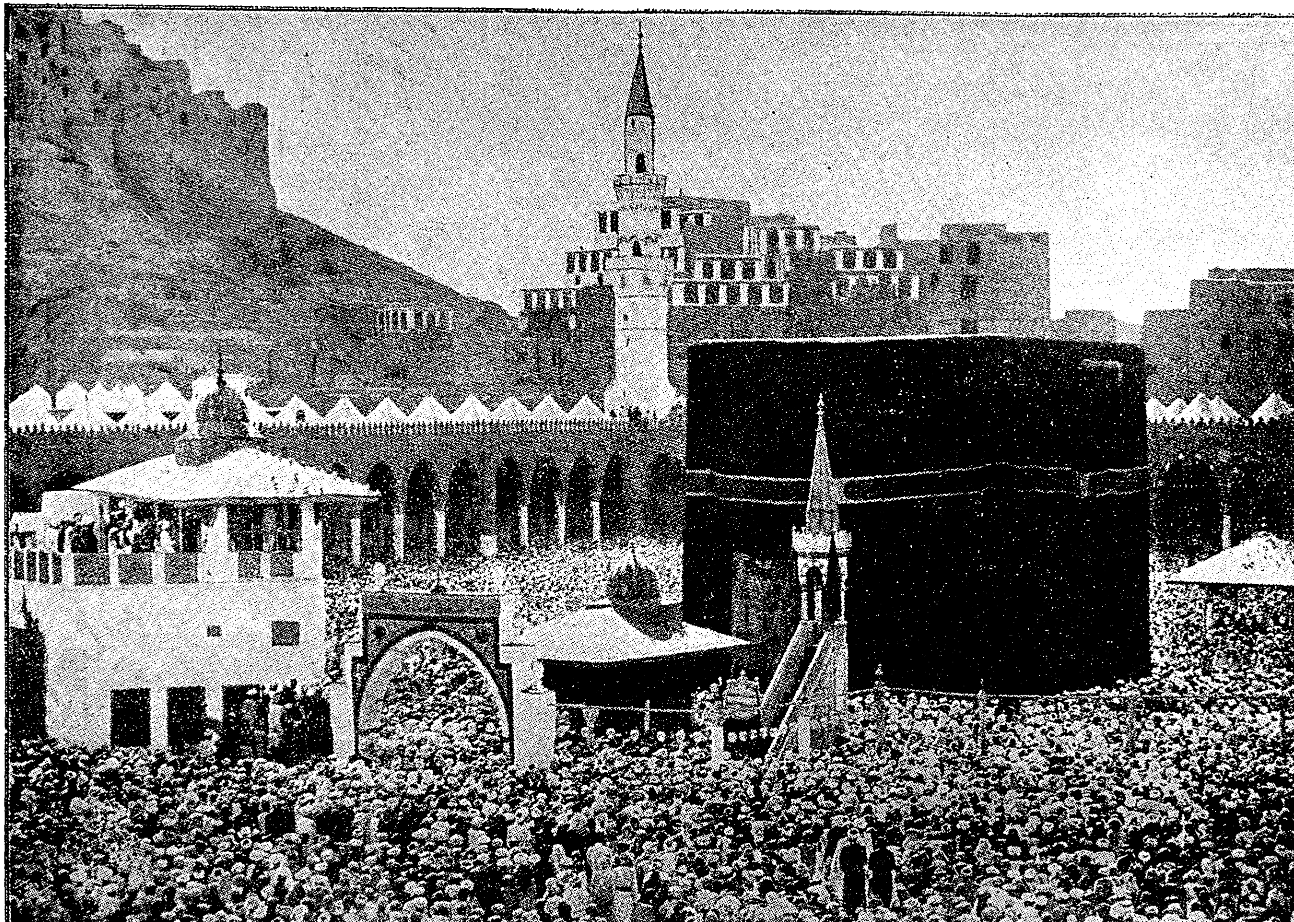
الفصل الرابع
من الزواج الى البعث

صفة محمد — بناء المكيين الكعبة — حكم محمد بينهم فى الحجر الأسود — حكماء قريش والوثنية — أبناء محمد و بناته — موت أبنائه — زواج بناته — ميل محمد للعزلة — تحنثه فى حراء — الرؤيا الصادقة — أوّل الوحى

تزوّج محمد من خديجة بعد أن أصدقها عشرين بكرة . وانتقل الى بيتها ليبدأ وإيّاها صفحة جديدة من حياته؛ ليبدأ حياة الزوجية والأُبوّة ، وليبادلها من جانبه حبّ شابّ فى الخامسة والعشرين لم يعرف نزوات الشباب ولا طيشه ، ولا هو عرف هذا الحب الأهوج يبدأ كأنه الشعلة المتوهّجة لينطفئ من بعد ذلك سراجه ، وليرزق منها البنين والبنات ، فيحتسب ولديه القاسم وعبد الله الطاهر الطيب[1] بما يثير فى نفسه لاعج الحزن والألم ، وتبقى له بناته وهو بهنّ البرّ والشفقة ، وهنّ له الإكرام والإعزاز الخالص .

وكان محمد وسيم الطَّلْعة رَبْعة فى الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، ذا شعر رَجْلٍ شديد سواده ، مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين منوّنين متّصلين ، واسع العينين أدعجهما ، تشوب بياضهما فى الجوانب حمرة خفيفة وتزيد فى قوّة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما أهداب طوال حوالك ، مستوى الأنف دقيقه ، مفلّج الأسنان ، كَثّ اللّحية ، طويل العنق جميله ، عريض الصدر ، رَحْب الساحتين ، أزهر اللون ، شَثْن الكفين والقدمين (أى غليظهما) ، يسير ملقيا جسمه الى الأمام مسرع الخطو ثابته ، على ملامحه سِيَما التفكير والتأمّل ، وفى نظرته سلطان الآمر الذى يخضع الناس لأمره . فلا عجب وتلك صفته أن تجمع خديجة صفة محمد

(١) الذى عليه أكثر أهل النسب أن الأبناء الذكور للنبيّ صلى الله عليه وسلم من خديجة اثنان : القاسم وعبد الله ويلقب بالطاهر وبالطيب . وقيل : إن أبناءه الذكور منها ثلاثة ، وقيل أربعة .



الكعبـــة المكرمة

وسقفتها ، أن يصيبها من ربّ الكعبة المقدسة شرٌّ وأذى . فقد كانت تحيط بها في مختلف عهود الجاهليّة أساطير تخيف الناس من الإقدام على تغيير شيء من أمرها، وتجعلهم يعتبرون ذلك بِدْعا محرّما . فلما طغى عليها السيل لم يكن بدٌّ من الإقدام ولو في شيء من الخوف والتردد . وصادف أن رمى البحر إذ ذاك بسفينة قادمة من مصر مملوكة لتاجر رومى اسمه باقوم فحطمها . وكان باقوم هذا بَنَّاءً على شيء من العلم بالنجارة . فلما سمعت قريش بأمره خرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش الى جُدّة فابتاعوا السفينة من الرومى ، وكلموه في أن يَقْدَم معهم الى مكة ليعاونهم في بناء الكعبة ؛ وقبل باقوم . وكان بمكة قبطىّ يعرف نَجْر الخشب وتسويته ؛ فوافقهم على أن يعمل لهم ويعاونه باقوم .

هدم الكعبة وبناؤها

ثم إن قريشا اقتسمت جوانب البيت أربعة ، لكل قبيلة جانب تقوم بهدمه وبنائه . على أنهم تردّدوا قبل هدمها مخافة أن يصيبهم أذى . وأقدم الوليد بن المغيرة في شيء من الخوف، فدعا آلهته وهدم بعض الجانب من الركن اليمانىّ . وأمسى القوم ينتظرون ما الله فاعل بالوليد . فلما أصبح ولم يُصبه شيء أقدموا يهدمون وينقلون الحجارة، ومحمد ينقل معهم، حتى انتهى الهدم الى حجارة خُضْرٍ ضربوا عليها بالمعول فارتدّ عنها ؛ فاتخذوها أساسا للبناء فوقه . ونقلت قريش أحجار الجرانيت الأزرق من الجبال المجاورة وبدأت في البناء . فلما ارتفع الى قامة الرجل وآن أن يوضع الحجر الأسود المقدّس في مكانه في الجانب الشرقىّ، اختلفت قريش أيُّهم يكون له فخار وضع الحجر في هذا المكان . واستحرّ الخلاف حتى كادت الحرب الأهليّة تَنْشَب بسببه . تحالف بنو عبد الدّار وبنو عَدِىّ أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم ، وأقسموا على ذلك جَهْد أيمانهم ، حتى قرَّب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما وأدخلوا أيديهم فيه توكيدا لأيمانهم، ولذلك سُمُّوا "لعَقَة الدم" . فلما رأى أبو أُمَيّة بن المغيرة المخزومىّ ما صار اليه أمر القوم، وكان أسنَّهم وكان فيهم شريفا مطاعا ، قال لهم : اجعلوا الحَكَم فيما بينكم أوّل من يدخل من باب الصَّفا . فلما رأوْا محمدا أوّل من دخل قالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه،

حكم محمد في أمر الحجر الأسود

بين حبّه والإذعان له . ولا عجب أن تُعفيه من تدبير مالها لتقوم هى على هذا التدبير، كدأبها من قبل، وأن تدع له ماشاء من فسحة الوقت ليفكر وليتأمّل .

وأقام محمد وقد أغناه الله بزواج خديجة فى ذِروة من النسب وسعة من المـال، وأهل مكة جميعا ينظرون إليه نظرة غبطة وإكبار . وكان فى شغل عن نظرتهم بمـا أسبغه الله عليه من فضله، وبمـا يبشّره به خِصْب خديجة من عقب صالح . لكن ذلك لم يصرفه عن الاختلاط بهم والأخذ معهم بنصيب فى الحياة العامة على ما كان يفعل من قبلُ . بل لقــد زاده جاهًا بينهم ومكانة فيهم، وزاده لذلك تواضعا على جمّ تواضعه . فلقد كان على عظيم ذكائه وظاهر تبريزه حسن الإصغاء الى محدّثه، لا يلوى عن أحد وجهه، ولا يكتفى بالقاء السمع الى من يحدّثه، بل يلتفت اليه بكل جســمه . وكان قليل الكلام، كثير الإنصات، ميّالا للجدّ من القول، وإن كان لا يأبى أن يشارك فى مفاكهة وأن يمزح ثم لا يقول إلا حقّا . وكان يضحك أحيانا حتى تبــدو نواجذه . فاذا غضِب لم يظهــر لذلك من أثر الغضب الا نَفْرة عرق بين حاجبيه، أن كان يكظِم غيظه ولا يريد أن يظهر غضبه، لمَـا جُبِل عليه من سعة الصدر وصدق الهمّة والوفاء للناس، ومن البر والجود وكرم العشرة، وما كان عليه الى جانب ذلك من ثبات العزيمة وقوّة الإرادة وشــدة البأس ومَضاء التصميم مضاء لا يعرف التردد . وهذه الصفات مجتمعةً فيه كانت ذات أثر عميق فى كل من اتصل به، فمن رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبّه . فما كان أعظم أثرها إذًا فيما اتّسق بينه وبين خديجة الزوج الوفيّة من مودة صادقة ووفاء كامل .

إعادة بناء الكعبة

لم ينقطع محمد عن مخالطة أهــل مكة والأخذ معهم بنصيب فى الحياة العامة . وكانوا يومئــذ فى شغل بمـا أصاب الكعبــة، فقد طغى عليهـا سيل عظيم انحدر من الجبال فصدع جدرانها بعــد توهينها . وكانت قريش من قبل ذلك تفكر فى أمرها . فهى لم تكن مسقوفة وكانت لذلك عُرضة لانتهاب السارقين ما تحتوى من نفائس . لكن قريشا كانت تخشى، إن هى شــدّت بنيانها ورفعت بابهـا

اليهود والنصارى ، ممن كانوا يخافون صاحب السلطان ، على تعيير العرب عبادة الأوثان . وانتهى ذلك بكثير من أهل مكة ومن القرشيين أنفسهم إلى أن زالت من نفوسهم قدسيّة الأصنام ، وإن ظل أمجاد مكة وسادتها يظهرون لها التقديس والعبادة . ولهؤلاء من العذر ما للذين يرون في الدين القائم وسيلة من وسائل ضبط النظام وعدم تَبَلْبُل الأفكار ، وفي عبادة الأصنام بالكعبة ما يحفظ على مكة مكانتها الدينيّة والتجارية . ولقد ظلّت مكة بالفعل تَنْعَم من وراء هذه المكانة بالرخاء واتصال التجارة . لكن ذلك لم يغيّر من انحلال قدسية الأصنام في نفوس المكيّين أنفسهم .

بدء انحلال الوثنية

ذكروا أن قريشا اجتمعت يوما بنخلة تُحيي عيد العُزَّى ، فخَلَص منهم أربعة نَجِيًّا هم زيد بن عمرو وعثمان بن الحُوَيْرِث وعبيد الله بن جَحْش وورقة بن نَوْفَل ؛ فقال بعضهم لبعض : « تعلَّموا ، والله ما قومكم على شيء وإنهم لفي ضلال . فما حجر نُطيف به لا يسمع ولا يُبصر ولا يضرّ ولا ينفع ، ومن فوقه يجري دم النُّحُور ! . يا قوم التمسوا لكم دينا غير هذا الدين الذي أنتم عليه » . أمّا ورقة فدخل النّصرانية ، وقيل : إنه نقل إلى العربية بعض ما في الأناجيل . وأمّا عبيد الله بن جحش فظلّ فيما هو فيه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، وهناك دخل في النصرانية ومات عليها ، وأقامت امرأته أُمُّ حَبِيبة بنت أبي سفيان على الإسلام حتى صارت من أزواج النبيّ وأمهات المؤمنين . وأمّا زيد بن عمرو ففرّ من زوجه ومن عمّه الخطّاب ، وطوّف في الشام وفي العراق ثم عاد ولم يدخل في يهوديّة ولا نصرانيّة ، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان ، وكان يقول وهو مستند إلى الكعبة : « اللهم لو أني أعلم أيّ الوجوه أحبّ إليك لعبدتك به ، ولكني لا أعلمه » . وأمّا عثمان ابن الحويرث ، وكان من ذوي قرابة خديجة ، فذهب إلى بزنطية وتنصّر وحسُنت مكانتُه عند قيصر ملك الروم . ويقال : إنه أراد أن يُخضع مكة لحماية الرُّوم وأن يكون عاملَ قيصر عليها ، فطرده المكيّون فاحتمى بالغَساسِنة في الشام ، وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكة ، فوصلت الى الغساسنة هدايا المكيّين ، فمات ابن الحويرث عندهم مسموما .

وقصّوا عليه قصتهم . وسمع هو لهم ، ورأى العداوة تبدو فى عيونهم ، ففكر قليلا ثم قال : هَلُمّ إلىّ ثوبا ، فأُتى به ؛ فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ، ثم قال : ليأخذ كبيرُ كلّ قبيلة بطَرَف من أطراف هذا الثوب ؛ فحملوه جميعا الى ما يُحاذى موضع الحجر من البناء ، ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه فى موضعه . وبذلك انحسم الخلاف وانفضّ الشرّ . وأتمّت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانى عشرة ذراعا ، ورفعوا بابها عن الأرض ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا . وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفّين ، وجعلوا فى ركنها الشآمى من داخلها دَرَجًا يُصعد به الى سطحها . ووُضع هُبَلُ فى داخل الكعبة ، كما وضعت فى داخلها النفائس التى تعرّضت من قبل بنائها وسقفها لمطامع اللصوص .

اختُلف فى سنّ محمد حين بناء الكعبة وحين حكمه بين قريش فى أمر الحجر ، فقيل : كان ابن خمس وعشرين ، وقال ابن إسحاق : كان ابن خمس وثلاثين . وسواء أصحّت الأولى أم الأخرى من هاتين الروايتين فان إسراع قريش الى الرضا بحكمه أوّلَ مادخل من باب الصفا ، وتصرّفه هو فى أخذ الحجر ووضعه على الثوب وأخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة ، يدُلّ على ما كان له من مكانة سامية من نفوس أهل مكة ومن تقدير جم لما عُرف عنه من سمو النفس ونزاهة القصد .

انحلال السلطة فى مكة وأثره

وهذا الخلاف بين القبائل ، وهذا التحالف بين لَعَقَة الدم ، وهذا الاحتكام لأول مُقْبِل من باب الصفا ، يدلّ على أن السلطة فى مكة كانت انحلّت فلم يبق لرجل منها ما كان لقُصَىّ ولا لهاشم ولا لعبد المطلب من سلطان . ولقد كان لتنازع بنى هاشم وبنى أميّة السلطانَ بعد وفاة عبد المطلب أثره فى ذلك لا ريب . وكان الانحلال فى السلطة جديرا بأن يجرّ على مكة الأذى ، لولا ما كان لبيتها العتيق فى نفوس العرب جميعا من قدسيّة . على أن انحلال السلطان قد أدّى إلى نتيجته الطبيعية؛ أدّى إلى مزيد من حرية الناس فى التفكير والجهر بالرأى ، و إلى إقدام

من قومه لاستقامته ونجاح تجارته . وكان هـذا الزواج موفّقا على الرغم مما كان بعد الإسـلام ، حين أرادت زينب الهجـرة من مكة الى المدينـة ، من فرقة بينهما سنرى من بعدُ تفصيلها . وزوّج رُقَيّة وأم كلثوم من عُتْبة وعُتَيْبة ٱبنى عمه أبى لهب . ولم تبق هاتان الزوجتان مع زوجيهما بعد الإسلام إذ أمر أبو لهب ابنيه بتسريحهما فتزوّجهما عثمان واحدة بعد الأخرى . وكانت فاطمة ما تزال طفلة فلم تُزَوّج من علىّ إلا بعد الإسلام .

حياةَ طمأنينة ودَعة إذًا كانت حياةُ محمد فى هذه السنين من عمره . ولولا احتسابه بنيـه لكانت حيـاة نعمة بمودة خديجة ووفائها ، وبهذه الأُبوّة السعيدة الراضية . طبيعىٌّ لذلك أن يترك محمد نفسـه لسجيّتها ، سجيّة التفكير والتأمل ، وأن يستمع إلى قومه فيما كان حِوارهم يقع عليه من أمور أصنامهم ، وما كان النصارى واليهود يقولونه لهم ، وأن يفكر ويتدبّر ، وأن يكون أشدّ من كل قومه تدبّرا وتفكيرا . فهذا الروح القوىّ الملهم ، هذا الروح الذى أعدّته الأقدار ليبلّغ الناسَ من بعـدُ رسالاتِ ربه ويوجّه حياة العالم الروحيـة الاتجاه الحقّ ، لا يمكن أن يظل مطمئنا الى ما غرِق الناس فيه إلى الأذقان من ضلال ، ولا بدّ أن يلتمس فى الكون أسباب الهدى ، حتى يُعِدّه الله ليلقى عليه ما قَدّر فى الغيب من رسالته . ومع عظيم توجُّهه الى هذه الناحية الروحية وشديد تعلقه بهـا لم يكن يريد لنفسه أن يكون من طراز الكهّان ولا أراد أن ينصب نفسه حكيما على نحو ما كان ورقة بن نوفل وأمثاله ؛ إنمـا كان يريد الحق لنفسه ، فكان لذلك كثير التفكير ، طويل التأمل ، قليل الإفضاء الى غيره بما يجيش بنفسه من آثار تفكيره وتأمُّله .

التحنث

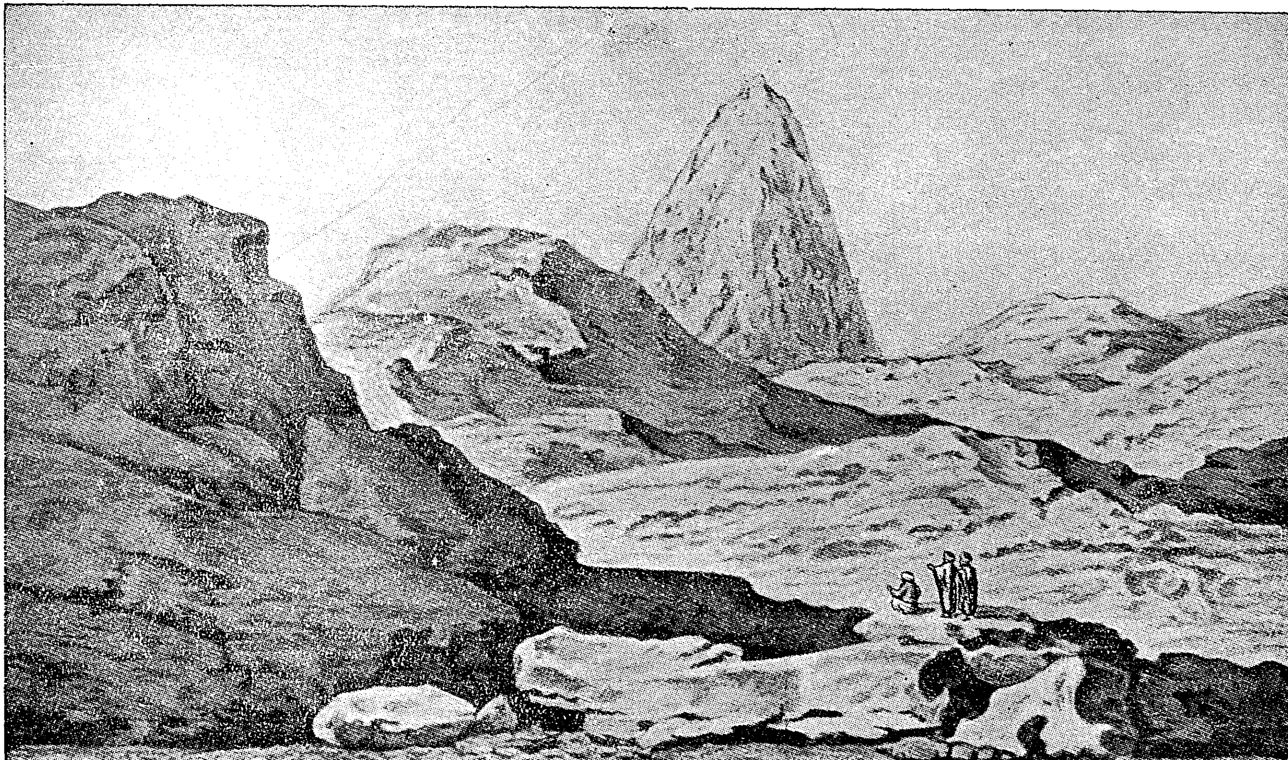
وقـد كان من عادة العرب إذ ذاك أن ينقطع مفكروهم للعبادة زمنـا فى كل عام يقضونه بعيـدا عن النـاس فى خلوة ، يتقربون إلى آلهتهم بالزهـد والدعاء ، ويتوجهون إليهـا بقلوبهم يلتمسون عنـدها الخير والحكمة . وكانوا يسمّون هـذا الانقطاع للعبادة التحنُّف أو التحنُّث . وقد وجد محمد فيه خير ما يمكّنه من الإمعان

أبناء محمد

تعاقبت السنون ومحمد يشارك أهلَ مكة فى حياتها العامة، ويجد فى خديجة خير النساء حقّا: الوَدود الوَلُود التى وهبت كل نفسها له، والتى أنجبت له من الأبناء القاسم وعبد الله الملقب بالطاهر وبالطيِّب، ومن البنات زينب ورقيّة وأم كلثوم وفاطمة. أمّا القاسم وعبد الله فلم يُعرف عنهما إلا أنهما ماتا طفلين فى الجاهليّة لم يتركا على الحياة أثرا يبقى أو يذكر؛ لكنهما من غير شك قد ترك موتُهما فى نفس أبويهما ما يتركه موت الابن من أثر عميق، وترك موتهما من غير شك فى نفس خديجة ما جرح أُمومتها جرحين داميين. وهى لا ريب قد ٱتّجهت عند موت كل واحد منهما فى الجاهلية الى آلهتها الأصنام تسألها: ما بالها لم تشملها برحمتها وبِرّها، وما بالها لم ترحم قلبها من أن يَهْوِى به الثُّكْل ليتحطّم على قرارة الحزن مرّة فمرّة!. وقد شعر معها زوجها لا ريب بالألم لوفاة ٱبنيه، كما حزّ فى قلبه هذا الألم الحىّ ممثّلة صورته فى زوجه يراه كلما عاد الى بيته وجلس اليها. وليس يتعذّر علينا أن نقدّر عمق هذا الحزن السحيق فى عصر كان البنات يُوأْدَنَ فيه، وكان الحرص على العقب الذكر يوازى الحرص على الحياة بل يزيد عليه. وبحسبك مظهرا لهذا الألم أن لم يُطِقْ محمد على الحرمان صبرا، حتى إذا جىء بزيد بن حارثة يُشترى، طلب الى خديجة أن تبتاعه ففعلت، ثم أعتقه وتبنّاه، فكان يُدْعى زيد بن محمد، واستبقاه ليكون من بعدُ من خيرة أتباعه وصحبه. ولقد حزن محمد من بعدُ حين مات ابنه إبراهيم أشدّ الحزن بعد أن حرّم الإسلام وَأْدَ البنات، وبعد أن جعل الجنة تحت أقدام الأمهات. فلا ريب إذًا أن قد كان لما أصاب محمدا فى بنيه ما هو جدير بأن يترك فى حياته وتفكيره أثره. ولا ريب فى أنه ٱستوقف تفكيرَه ولفَت نظره فى كل واحدة من هذه الفواجع ما كانت خديجة تتقرّب به الى أصنام الكعبة، وما كانت تنحر لهُبَل وللّات والعُزّى ولَمَنَاة الثالثة الأخرى، تريد أن تتفادى ممّا ألمّ بها من ألم الثكل، فلا تُفيد القرابين ولا تجدى النحور.

بناته

وأمّا البنات فقد عُنِى محمد بتزويجهن من أكْفاء لهن. فزوّج زينب كُبْراهن من أبى العاص بن الرَّبيع بن عبد شمس، وكانت أمّه أختا لخديجة، وكان فتى مقدّرا



جبـل حراء حيث كان بدء الوحي ، ويعرف الآن بجبـل النـور

فيما شُغلت به نفســه من تفكير وتأمل ، كما وجد فيــه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة يلتمس أثناءها الوسـيلة الى ما برح شوقه يشتدّ إليــه من نِشْدان المعرفة واستلهام مافى الكون من أسبابها . وكان بأعلى جبل حِراء — على فرسخين من شمال مكة — غار هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنُّث ، فكان يذهب إليه طَوال شهر رمضان من كل ســنة يقيم به مكتفيا بالقليل من الزاد يُحمل إليــه ، ممعنا فى التأمل والعبادة ، بعيدا عن ضجّة الناس وضـوضاء الحياة ، ملتمسا الحق ، والحق وحده . ولقــد كان يشتدّ به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفســه وينسى طعامه وينسى كل مافى الحياة ؛ لأن هذا الذى يرى فى حياة الناس مما حوله ليس حقا . وهناك كان يقلّب فى صحف ذهنه كل ما وعى فيزداد عمّــا يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازورارا .

فى غار حراء

وهو لم يكن يطمع فى أن يجد فى قَصص الأحبار وفى كتب الرهبان الحقّ الذى ينْشُد ، بل فى هذا الكون المحيط به : فى السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفى الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللّألاء ، وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعّة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرَّطب النّدىّ ، وفى البحر وموجه ، وفى كل ما وراء ذلك ممــا يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود . فى هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا ، وكان ابتغــاءَ إدراكها يسمو بنفســه ساعات خلوته ليتّصل بهذا الكون وليخترق الحُجُب إلى مكنون سرّه . ولم يكن فى حاجة إلى كثير من التأمّل ليرى أن ما يباشر قومُه من شؤون الحيــاة وما يتقرّبون به إلى آلهتهم ليس حقّا . فمــا هذه الأصــنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تَخْلُق ولا تَرزق ولا تدفع عن أحد غائلة شرٍّ يصيبه ! . وهُبَل واللّات والعُزّى ، وكل هــذه الأنصاب والأصنام القــائمة فى جوف الكعبة أو حولهــا ، لم تخلق يوما ذبابة ولا جادت مكة بخير ! . ولكن ! أين الحق إذًا ؟ . أين الحق فى هذا الكون الفسيح بأرضه وسماواته ونجومه ؟ أهو فى هذه الكواكب المضيئة التى تبعث إلى النــاس النور والدِّفء ، ومن عندها ينحدر ماء المطر ، فيكون للناس ولأهل الأرض كافّة من خلائق ، حياة بالمــاء والنور

التماس الحقيقة

والدفء ؟ كلّا ! فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء . أهو فيما وراء هذه الأفلاك من أثير لا حدّ ولا نهاية له ؟ ولكن ما الأثير ؟ ! وهذه الحياة التى نحيا اليوم فتنقضى غدا ، ما أصلها وما مصدرها ؟ ! أهى مصادفة تلك التى أوجدت الأرض وأوجدتنا عليها ؟ لكن للأرض وللحياة سُننا ثابتة لا تبديل لها ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها . وما يأتى الناس من خير أو شر ، أفيأتونه طواعية واختيارا ، أم هو بعض سليقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه ؟ فى هذه الأمور النفسية والروحية كان محمد يفكر أثناء انقطاعه وتعبّده بغار حِراء . وكان يريد أن يرى الحق فيها وفى الحياة جميعا . وكان تفكيره يملأ نفسه وفؤاده وضميره وكل ما فى وجوده ، ويشغله لذلك عن هذه الحياة وصبحها ومسائها . فاذا انقضى شهر رمضان عاد الى خديجة وبه من أثر التفكير ما يجعلها تسائله تريد أن تطمئنّ الى أنّه بخير وعافية .

أفكان محمد يتعبّد أثناء تحنّثه ذاك على شرع بذاته ! هذا أمرٌ اختلف العلماء فيه . وقد روى ابن كثير فى تاريخه طرَفا من آرائهم فى الشرع الذى كان يتعبّد عليه . فقيل شرع نوح ، وقيل إبراهيم ، وقيل موسى ، وقيل عيسى ، وقيل كل ما ثبت أنه شرعٌ عنده اتّبعه وعمِل به . ولعلّ هذا القول الأخير أقوم من كل ما سبقه ، فهو الذى يتّفق وما شُغِف محمد به من التأمّل ، ومن التفكير على أساس هذا التأمل .

الرؤيا الصادقة

وكان اذا استدار العام وجاء شهر رمضان ذهب الى حِراء وعاد الى تفكيره ، يُنضِجه شيئا فشيئا وتزداد به نفسه امتلاء . وبعد سنوات شغَلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه ، صار يرى فى نومه الرؤيا الصادقة تنبلج أثناءها أمام باصرته أنوار الحقيقة التى ينْشُد ، ويرى معها باطل الحياة وغرور زُخْرُفها . إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلّوا سبيل الهدى ، وأن حياتهم الروحيّة قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام وما إليها من عقائد متصلة بها ليست دونها ضلالا . وليس فيما يذكر اليهود وما يذكر النصارى ما يُنقذ قومه من ضلالهم . ففيما يذكر هؤلاء

قال محمد — وقد خاف أن يُخْنَق مرّة أخرى — : ماذا أقرأ ؟ ! قال الملك : ﴿ اقْرَأْ بِٱسْمِ ربِّك الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ . ٱقْرَأْ وربُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى علَّم بِالقلمِ . علّم الإنسانَ ما لَمْ يعلَمْ ﴾ (١) . فقرأها وانصرف الملك عنه وقد نُقِشَتْ فى قلبـــه (٢) .

لكنه ما لبث أن استيقظ فزِعا يسأل نفســه : أىَّ شىء رأى؟ ! أتراه أصابه ما كان يخشَى من جِنّة؟ وتلفّت يَمْنةً ويَسْرة فلم يَرَ شيئا . ومكث برهة أصابته فيها رِعْدة الخوف وتولّاه أشدّ الوجل . وخاف ما قد يكون بالغار ففرّ منه وكله حيرة لا يستطيع تفسير ما رأى . وانطلق هائمــا فى شِعاب الجبل يُسائل نفسه عَمّن دفعه ليقرأ . لقد كان إلى يومئذ يرى وهو فى تحنُّثه الرؤيا الصادقة تنبلج من خلال تأمُّله فتملأ صــدره فتُضىء أمامه وتدلّه على الحــق أين هو، وتُنير له حُجُب الظلمــات التى زَجَّت قريشــا فى وثنيّتهم الى عبادة أصنامهم . وهذا النور الذى أضاء أمامه وهذا الحق الذى هداه سبيلَه هو الواحد الأحد . فمن هذا المذكِّر به وبأنه الذى خلق الإنسان وبأنه الأكرم الذى علّم الإنسان بالقلم ما لم يعلم؟ وتوسّط الجبلَ وهو فى هــذه الحال من فزع وخَشْــية وتساؤل ، فسمع صــوتا يناديه ، فأخذه الرَّوْع ورفع رأسه إلى السماء ، فاذا الملك فى صــورة رجل هو المنادى . وزاد به الفزع الفـــزع ووقَفَــه الرعب مكانه ، وجعــل يصرف وجهه عما يرى ، فاذا هو يراه فى آفاق السماء جميعا ، ويتقــدّم ويتأخّر فلا تنصرف صورة الملك الجميل من أمامه . وأقام على ذلك زمنــا كانت خديجة قد بعثت أثناءه من يلتمسه فى الغار فلا يجده .

(١) سورة العلق الآيات من ١ الى ٥

(٢) كذلك روت كتب الســيرة الأولى . وعليــه ابن اسحاق وابن هشام . وكذلك روى كثير من المحدثين . على أن بعضهم يرى أن بدء الوحى كان فى اليقظة وكان نهارا ، ويذكر حديثا على لسان جبريل طمأن به محمدا حين رأى روعه . وذكر ابن كثير فى تاريخــه ما أورده الحافظ أبو نعيم الأصبهانى فى كتابه (دلائل النبوّة) عن علقمة بن قيس أنه قال : "إن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهــدأ قلوبهم ثم ينزل الوحى بعد" . وأضاف : "وهــذا من قبل علقمة بن قيس نفسه وهو كلام حسن يؤيده ما قبله ويؤيده ما بعده" .

وأولئك حقّ، لكن فيه كذلك ألوانا من الوهم، وصورا من الوثنيّة، لا يمكن أن تتفق مع الحق المجرّد البسيط الذى لا يعرف كلّ هذه المضاربات الجدَليّة العقيمة، ممّا يُمْعِن فيه هؤلاء وأولئك من أهل الكتاب. وهذا الحق هو الله خالق الكون لا إله إلا هو. وهذا الحق هو أن الله رب العالمين. هو الرحمن الرحيم. وهذا الحق هو أن الناس مجزيّون بأعمالهم. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرَهُ. ومَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شرًّا يَرَهُ﴾(١). وأن الجنّة حق والنار حقّ، وأنّ الذين يعبدون من دون الله إلٰها آخر لهم جهنم، وساءت مستقرًّا ومُقاما.

وشارف محمد الأربعين، وذهب الى حِراء يتحنّث وقد امتلأت نفسه إيمانا بما رأى فى رؤاه الصادقة، وقد خلَصت نفسه من الباطل كله، وقد أدّبَه ربّه فأحسن تأديبه، وقد اتّجه بقلبه الى الصراط المستقيم والى الحقيقة الخالدة، وقد اتّجه الى الله بكل روحه أن يَهْدى قومَه بعد أن ضربوا فى تَيْهاء الضلال. وهو فى توجّهه هذا يقوم الليل ويُرْهِف ذهنه وقلبه، ويُطيل الصوم وتثور به تأمّلاته، فينحدِر من الغار الى طرق الصحراء، ثم يعود الى خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه وما يتبين له فى رؤاه. ولقد طالت به الحال ستة أشهر حتى خشى على نفسه عاقبة أمره، فأسرّ بمخاوفه الى خديجة وأظهرها على ما يَرى، وأنه يخاف عبث الجن به. فطمأنته الزوج المخلصة الوفيّة وجعلت تحدّثه بأنه الأمين، وبأنّ الجنّ لا يمكن أن تقترب منه، وإن لم يَدُرْ بخاطرها ولا بخاطره أن الله يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية الى اليوم العظيم، وإلى النبأ العظيم، يوم الوحى الأوّل، ويهيئه به الى البعث والرسالة.

أول الوحى (سنة ٦١٠ م)

وفيما هو نائم بالغار يوما جاءه ملك وفى يده صحيفة فقال له: اقرأ. فأجاب مأخوذا: ما أقرأ!. فأحسّ كأن الملك يخنقه ثم يُرسله ويقول له: اقرأ. قال محمد ما أقرأ. فأحسّ كأن الملك يخنقه كرّة أخرى، ثم يُرسله ويقول له: اقرأ.

(١) سورة الزلزلة آيتا ٧ و ٨

الفصل الخامس

من البعث الى إسلام عمر

حديث خديجة وورقة بن نوفل – فتور الوحى – إسلام أبى بكر – المسلمون الأولون — دعوة محمد أهله للاسلام — إغراء قريش شعراءها بمحمد — ذكر محمد آلهة قريش بالسوء — سفارة قريش إلى أبى طالب — موقف محمد من عمه — تعذيب قريش للسلمين — هجرة المسلمين للحبشة — إسلام عمر

نام محمد وحدّقت به خديجة وقد امتلأ قلبها إشفاقاً وأملًا لهذا الذى سمعت منه. فلما رأته استغرق فى نوم مطمئن هادئ، تركته وخرجت تقلّب فى نفسها هذا الذى ملأ قلبها وأثار هواجسها، وتفكّر فى الغد ترجوه خيرا، وترجو أن يكون زوجها فيه نبيَّ هذه الأمة العربيّة التى غرقت فى الضلال؛ يَهديها دينَ الحقّ ويدلّها على الصراط المستقيم. وتخشاه، مع ذلك، أشدّ الخَشْية على هذا الزوج البارّ الوفىّ الحميم. وطفِقت تعرِض أمام بصيرتها ما قصّ عليها، وتتخيّل الملكَ الجميل الذى تعرّض له فى السماء بعد أن أوحى إليه كلمات ربه، والذى ملأ عليه الوجود كله زمنًا كان يراه أثناءه أينما صرف وجهه، وتستعيد الكلمات التى تلا محمد بعد أن نُقشت فى صدره. جعلت تعرِض ذلك كله أمام بصيرتها فتفترّ شَفَتاها طورا عن ابتسامة الأمل، وتنكمش أساريرها طورا آخر خيفة ما قد يكون أصاب الأمين. ولم تُطِقْ البقاء فى وحدتها طويلا، تنتقل من الأمل الحلو الباسم الى الرّيبة والإشفاق المُخُوف، ففكّرت بأن تُفضى بما فى نفسها الى من تعرف فيه الحكمة ومَحْض النصيحة.

لذلك انطلقت الى آبن عمّها وَرَقة بن نَوْفَل، وكان، كما قدّمنا، قد تنصّر وعرف الإنجيل ونقل بعضه الى العربيّة. فلما أخبرته بما رأى محمد وسمع، وقصّت عليه كل ما حدّثها به، وذكرت له إشفاقها وأمَلَها، أطرق مليّا ثم قال: «قُدُّوس قُدّوس! والذى نفسُ ورقة بيده لئن كنت صدَقْتِنى يا خديجة لقد جاءه الناموس

حديث ورقة لخديجة

فلما ٱنصرفت صورة الملك رجع محمد ممتلئًا بمـا أُوحى اليه ، وفؤاده يَجِفُ وقلبه يضطرب خوفا وهلعا، ودخل على خديجة وهو يقول : زمِّلونى . فزمَّلته وهو يرتعد كأنّ به الحمَّى . فلما ذهب عنه الرّوع نظر الى زوجه نظرة العائذ المستنجد، وقال : يا خديجة! مالى؟! وحدّثها بالذى رأى . وأفضى اليهـا بمخاوفه أن تخدعه بصيرتُه أو أن يكون كاهنا . وكانت خديجة، كما كانت أيام تحنّثه فى الغار ومخاوفه أن تكون به جِنّة، ملك الرحمـة وملاذ السلام لهذا القلب الكبير الخائف الوَجِل . لم تُبْدِ له أى خوف أو ريبة ، بل رَنَتْ اليه بنظرة الإكبار وقالت : أبْشِرْ يا ٱبن عمّ وٱثبُتْ ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبىّ هذه الأمة ، و والله لا يُخزيك الله أبدا، إنك لَتصل الرَّحِم، وتصـدُق الحديثَ، وتحمل الكَلَّ، وتَقْرِى الضيف، وتُعِين على نوائب الحق .

خديجة وزير صدق

واطمأن روع محمد وألقى على خديجة نظرة شـكر ومودّة، ثم أحسّ جسمَه متعبا فى حاجة الى النوم فنام . نام ليستيقظ من بعدُ لحياة روحية قوية غاية القوّة، حيـاة تأخذ بالأبصار والألباب ، ولكنّها حياة تضحية خالصـة لوجه الله والحق والإنسانية . تلك رسالة ربه يبلّغها و يدعو الناس اليها بالتى هى أحسن، حتى يتمّ الله نوره ولو كره الكافرون .

ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصرًا يعلمه". ثم أدنى منه رأسه فقبّل يافوخه . وشعر محمد بصدق ورقة فى قوله وبثقل ما أُلقى عليه ، وطفق يفكر كيف يدعو قريشا إلى ما آمن به وهو يعلم أنهم أحرص ما يكونون على باطلهم ، حتى ليقاتلون فى سبيله ويقتلون ، وهم من بعدُ أهلُه وعشيرته الأقربون .

إنهم فى ضلال ، وإن ما يدعوهم إليه هو الحق . فهو يدعوهم إلى الارتفاع بقلوبهم وبأرواحهم لتتصل بالله الذى خلقهم وخلق من قبلُ آباءهم ، ليعبدوه مُخْلِصين له الدينَ طاهرةً نفوسهم . وهو يدعوهم ليتقرّبوا إلى الله بالعمل الصالح وإيتاء ذى القربى حقّه وابن السبيل ، ولينبذوا عبادة هذه الأحجار التى اتّخذوا منها أصناما يزعمون أنها تغفر لهم ما يمعنون فيه من لهو وفسوق ومن أكل الربا ومال اليتيم ، فاذا عبادتها تحيل نفوسهم وقلوبهم أشدّ من الأصنام تحجُّرا وقسوة ! . وهو يُهيب بهم أن ينظروا إلى ما فى السموات والأرض من خلق الله لتمتثل نفوسهم ذلك كله وتدرك ماله من خطر وجلال ، فتكبُر بما يخلق مما فى السموات والأرض ، وتكبُر بعبادتها خالق الوجود كله وحده لاشريك له ، وتسمو لذلك عن كل وضيع ، وتتعالى عن كل دون ، وتأخذها الرحمة بكل من لم يهده الله وتعمل لهدايته ، وتكون البِرّ بكل يتيم وبكل بائس أو ضعيف . نعم ! إلى هذا أمره الله أن يدعوهم . لكن هذه القلوب القاسية وهذه الأرواح الغلاظ قد يبست على عبادة ما كان يعبد آباؤها ، ووجدت فيه تجارة تجعل مكة مركز تَحجيج عَبَدة الأصنام ! أفيتركون دين آبائهم ويعرِّضون مكانة مدينتهم إلى ما قد تتعرَّض له إذا لم يبق على عبادة الأصنام أحد؟ ! ثم كيف تطهُر هذه القلوب وتخلُص من أدران شهواتها والشهوة تهبط بها إلى إرضاء بَهَميّتها ، فى حين هو ينذر الناس أن يرتفعوا فوق شهواتهم وفوق أصنامهم . وإذا هم لم يؤمنوا به فماذا عساه يفعل ؟ هذه هى المسألة الكبرى ! !

فتور الوحى

انتظر هداية الوحى إيّاه فى أمره وإنارة سبيله ، فاذا الوحى يفتُر ، وإذا جبريل لا ينزل عليه ، وإذا ما حوله سكينة صامتة جعلته فى وحدة من الناس ومن نفسه ،

الأكبر الذى كان يأتى موسى، و إنّه لنبىّ هذه الأمة، فقولى له فَليثبُتْ» . وعادت خديجـة فألفت محمدا ما يزال نائمـا، فحـدّقت به وكلها الحب والإخلاص، وكلها الإشفاق والأمل . وفيما هو فى هَـدْأة نومه إذا به اهتزّ وثقُـل تنفُّسه وبلّل العرق جبينه يقوم ليستمع الى الملك يوحى اليه : ﴿ يأيُّها المُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وثيابَكَ فَطَهِّرْ . والرُّجْزَ فاهْجُرْ . ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . ولِربِّكَ فاصْبِرْ ﴾(١) . ورأته خديجة كذلك فازدادت إشفاقا وتقدّمت اليـه فى رقّة وضراعة أن يعود إلى فراشـه وأن ينام ليستريح . فكان جوابه أو كما قال : انقضى ياخديجة عهد النوم والراحة، فقد أمرنى جبريل أن أُنْذِر الناس وأن أدعوهم الى الله والى عبادته . فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب إلىّ ؟ فجَهدت خديجة تهوّن عليه الأمر وتثبّته . وسارعت فقصّت عليه نبأ ورقة وما حدّثها به، ثم أعلنت اليه فى شوق ولهف إسلامها له وإيمانها بنبوّته .

وكان طبيعيًّا أن تسارع الى الإيمـان به، وقد جرّبت عليـه طَوال حياته الأمانة والصدق وعلوّ النفس وحبّ البرّ والرحمة، وقد رأته فى سنوات تحنُّثه كيف شغلت نفسه بالحق، وبالحق وحده، يطلبه مرتفعا بقلبه و بروحه وبعقله فوق أوهام هذا الناس ممن يعبدون الأصنام ويقرِّبون لها القرابين، وممن يرون فيها آلهة يزعمونها تضرّ وتنفع، ويتوهّمونها خليقة بالعبادة والإجلال . رأته فى سنوات تحنُّثه كما رأت كيف كان حاله أوّل عوده من حِرَاء بعـد البعث وهو فى أشـدّ الحيرة من أمره ؛ ولقد طلبت اليـه متى جاءه الملك أن يخبرها . فلما رآه أجلسته على فخِذها اليسرى ثم على فخذها اليمنى ثم فى حجرها وهو ما يزال يراه، فحسرت وألقت خِمـارها فاذا هو لا يراه ؛ فلم يبق ريب عندها فى أنه ملك وليس بشيطان .

ورقة ومحمد

وخرج محمد من بعـد ذلك يوما للطواف بالكعبة، فلقيه ورقة بن نوفل . فلما قصّ عليه محمد أمره قال ورقة : " والذى نفسى بيده إنك لنبىّ هذه الأمة . ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى . ولتُكَذَّبَنّ، ولتُؤْذَيَنّ، ولتُخْرَجَنّ، ولتُقَاتَلَنّ،

(١) سورة المدثر الآيات من ١ الى ٧

الساجى، والسموات والكواكب والأرض والجبال كُلًّا واحدًا تتصل به الروح الراضية المرضية . هذه هى الحياة التى يجب أن تكون اليها الغاية من سفر هذه الحياة! هذا هو الحقّ وكل مادونه صور منه لا تُغْنِى عنه ! هذا هو الحق الذى أضاء بنوره روح محمد والذى ابتعثه من جديد ليفكر فى الدعوة الى ربّه . وللدعوة الى ربه يجب أن يطهِّر ثيابه ، وأن يهجر المنكر ، وألّا يَمُنّ على أحد دعوةً الى الحق ، وأن ينير للناس سبل العلم بما لم يكونوا يعلمون ، وألّا ينهَر من أجل ذلك سائلا ، ولا يقهر يتيما . حَسْبُه نعمةُ اختيار الله إيّاه لكلمته فليتحدّث عنها . وحسبُه أن الله وجده يتيما فآواه فى كَفَالة جدّه عبد المطلب وعمه أبى طالب؛ وأنه وجده فقيرا فأغناه بأمانته ويسَّر له خديجة شريكة صباه، شريكةَ تحنّثه، شريكة بعثه، شريكة المحبة، الناصحة الرءوف؛ وأنه وجده ضالًّا فهداه برسالته . حسبُه هذا وليدعُ الناس من غير منّ عليهم . ذلك أمر الله الى نبيّه الذى اصطفاه، ماودّعه وما قلاه .

وعلّم الله نبيّه الصلاةَ فصلّى وصلّت خديجة معه . وكان يقيم معهما غير بناتهما علىّ بن أبى طالب الذى كان صبيًّا لمّا يبلغ الحُلُم . ذلك أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة؛ وكان أبو طالب كثير العيال . فقال محمد لعمّه العباس وكان من أكثر بنى هاشم يسارا : « إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة؛ فانطلق بنا اليه فلنخفِّف من عِياله، آخُذ من بنيه رجلًا وتأخذ أنت رجلا فنكفُلهما عنه » . وكفل العبّاس جعفرا وكفَل محمد عليّا ، فلم يزل معه حتى بعثه الله . وفيما محمد وخديجة يصلّيان يوما دخل عليهما علىٌّ مفاجأة فرآهما يركعان ويسجُدان ويتلوان ما تيسّر ممّا أوحاه الله يومئذ من القرآن . فوقف الشابّ دهشا حتى أتمّا صلاتهما ثم سأل : لمن تسجُدان؟ فأجابه محمد أوكما قال : إنما نسجد لله الذى بعثنى نبيّا وأمرنى أن أدعو الناس اليه . ودعا محمدٌ ابنَ عمه الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى دينه الذى بعث به نبيه ، وإلى إنكار الأصنام من أمثال اللّات والعُزّى ، وتلا محمد ما تيسّر من القرآن ؛ فأُخذ علىٌّ عن نفسه وسحره جمال الآيات وإعجازها ، واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه . ثم قضى ليله مضطربا،

الصلاة

وردته إلى مثل مخاوفه قبل نزول الوحى . ولقد رُوى أن خديجة قالت له : ما أُرى ربك إلا قد قلاك . وتولاه الخوف والوجل ، فهما يبتعثانه من جديد يطوى الجبال وينقطع فى حراء ويرتفع بكل نفسه ابتغاء وجه ربه يسأله : لم قلاه بعد أن اصطفاه . ولم تكن خديجة أقل منه إشفاقا ووجلا . ويتمنى الموتَ صادقًا لولا أنه كان يشعر بما أُمر به فيرجع إلى نفسه ثم إلى ربه . ولقد قيل : إنه فكر فى أن يُلقى بنفسه من أعلى حراء أو أبى قُبَيْس . وأى خير فى الحياة وهذا أكبر أمله فيها يذوى وينقضى ! .

نزول سورة الضحى

وإنه لكذلك تساوره هذه المخاوف إذ جاءه الوحى بعد طول فتوره وإذ نزل عليه بقوله تعالى : ﴿والضُّحَى . واللَّيلِ إذا سَجَى . ما ودَّعك ربُّك وما قَلَى . ولَلآخرةُ خيرٌ لكَ منَ الأُولَى . ولَسَوفَ يُعطِيكَ ربُّكَ فترضَى . أَلَمْ يجِدْكَ يتيماً فآوى . ووجدَكَ ضالًّا فهدَى . ووجدكَ عائلًا فأغنَى . فأمَّا اليتيمَ فلا تقهرْ . وأمَّا السائلَ فلا تنهرْ . وأمّا بنعمةِ ربِّكَ فحدِّثْ﴾ (١) .

يا لجلال الله ! أية سكينة للنفس وغبطة للقلب وبهجة للفؤاد ! ! انجابت مخاوف محمد وزال كل روعه وارتسمت على ثغره ابتسامة الرضا وافترت شفتاه عن معانى الحمد وآى التقديس والعبادة . لم يبق لما كانت تخشى خديجة من أن الله قلاه ولم يبق لفزعه وهلعه موضع ، بل تولاه الله وتولاها برحمته ، وأزال كل خشية أو ريبة من نفسه . لا انتحار إذًا ولكن حياة ودعوة الى الله وإلى الله وحده . الى الله العلىّ الكبير تعنو له الجباه ويسجد له مَنْ فى السموات والأرض جميعا . هو وحده الحقّ وكل ما يدعون من دونه الباطلُ . اليه وحده يتوجّه القلبُ ، وبه وحده يجب أن تتعلّق النفس ، وفيه وحده يجب أن تفنى الرّوح . وللآخرةُ خير لك من الأولى . الآخرة التى تُحيط فيها النفس بكل الوجود فى كمال وحدته ، والتى يتناهى إليها المكان والزمان وتُنْسَى فيها اعتبارات هذه الحياة الوضيعة الأولى . الآخرة التى يصير فيها الضحى ولألاء شمسه الباهر ، والليل ودُجاه

الدعوة الى الحق وحده

(١) سورة الضحى .

وكان مَثَل محمد خير ما يزيد الدعوة انتشارا : كان بَرًّا رحيما جَمَّ التواضع كامل الرجولية عَذْب الحديث محبًّا للعدل يُعطى كلّ ذى حقّ حقّه، وينظر الى الضعيف واليتيم والى البائس والمسكين نظرة كلها الأبوّة والحنان والعطف والمودّة . وكان فى تهجّده وسهره الليل وترتيله ما أنزل عليه ودوام نظره فى السموات والأرض والتماس العِبرة من الوجود كله وكل ما فيه، وفى توجّهه الدائم لله وحده، والتماسه حياة الكون كله فى أطْواء نفسه ودخيلة حياته ، مثلاً جعل الذين آمنوا به وأسلموا له أحرص على إسلامهم وأشدّ يقينا بإيمانهم، على ما فى ذلك من إنكار ما كان عليه آباؤهم واحتمال تعرضهم لأذى المشركين ممّن لم يدخل الإيمان فى قلوبهم . آمن بمحمد من تجار مكة وأشرافها من عرفت نفوسهم الطهر والنزاهة والمغفرة والرحمة ، وآمن به كل ضعيف وكل بائس وكل محروم . وانتشر أمر محمد بمكة، ودخل الناس فى الإسلام أَرْسالًا رجالا ونساء .

قريش والمسلمون

وتحدّث الناس عن محمد وعن دعوته . على أن أهل مكة من قُساة الأكباد ومَنْ على قلوبهم أقفالُها لم يعبئوا به أوّل أمره وظنوا أن حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء أمثال قُسّ وأُمية ووَرَقة وغيرهم ، وأن الناس عائدون لا محالة الى دين آبائهم وأجدادهم ، وأنّ هُبَل واللّات والعُزّى وإسافًا ونائلة اللذين كان يُنْحر عندهما ستكون آخر الأمر صاحبة الغَلَب ، ناسين أن الإيمان الصادق لا يغلبه غالب، وأن الحق قد كُتب له الفوز أبدا .

بعد ثلاث سنين من حين البعث أمر الله رسوله أن يُظهر ما خفى من أمره وأن يصدَعَ بما جاءه منه، ونزل الوحى : ﴿ وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ . واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ . فإنْ عَصَوْكَ فقل إنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1] . ﴿ فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ ﴾[2] . ودعا محمد عشيرته الى طعام فى بيته وحاول أن يحدّثهم داعيا إيّاهم الى الله ، فقطع عمه أبو لهب حديثه واستنفر القوم

عشيرته الأقربون

(١) سورة الشعراء الآيات من ٢١٤ الى ٢١٦ (٢) سورة الحجر آية ٩٤

إســلام علي بن أبي طالب

حتى إذا أصبح أعلن إليهما أنه اتّبعهما من غير حاجة لرأى أبي طالب وقال : "لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب ، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله" . وكذلك كان عليّ أوّل رجل أسلم . ومن بعده أسلم زيد بن حارثة مولى النبيّ، وبذلك بقي الإسلام محصورا في بيت محمد فيه وفي زوجه وابن عمه ومولاه . وظلّ هو يفكر كيف يدعو قريشا اليه وهو يعلم ما هي عليه من شدّة البأس وبالغ التعلق بعبادات آبائها وأصنامهم .

إسلام أبي بكر

وكان أبو بكر بن أبي قُحَافة التَّيْميّ صديقا حميا لمحمد يستريح إليه ويعرف فيه النزاهة والأمانة والصدق . لذلك كان هو أوّل من دعاه الى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان ، وأوّل من أفضى إليه بما رأى وبما أُوحى إليه . ولم يتردّد أبو بكر في إجابة محمد إلى دعوته وفي الإيمان بها . وأيّ نفس تنشرح للحق تتردّد في ترك عبادة الأوثان لعبادة الله وحده ! . وأيّ نفس فيها شيء من السموّ ترضى عن عبادة الله عبادة حجرأيًّا كانت صورته ! . وأيّ نفس تتردّد في طهر الثياب وطهر النفس وإعطاء السائل والبرّ باليتيم ! . وأذاع أبو بكر بين أصحابه إيمانه بالله وبرسوله . وكان أبو بكر رجلا وسيما "مألَفًا لقومه مُحَبَّبا سهلا؛ وكان أنسبَ قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشرّ؛ وكان رجلا تاجرا ذا خُلق ومعروف ، وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته" . وجعل أبو بكر يدعو الى الإسلام من وثِق به من قومه ، فتابعه على الإسلام عثمان بن عفّان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عُبَيد الله وسَعْد بن أبي وَقّاص والزُّبير بن العوّام . ثم أسلم من بعد ذلك أبو عُبَيْدة بن الجرّاح وكثيرون غيره من أهل مكة . وكان أحدهم اذا أسلم ذهب الى النبيّ فأعلن اليه إسلامه وتلقّى عنه تعاليمه . وكان المسلمون الأوّلون يستخفُون لعلمهم بما تضمر قريش من عداوة لكل خارج على أوثانها . فكانوا اذا أرادوا الصلاة انطلقوا الى شعاب مكة وصلّوا فيها . وظلّوا على ذلك ثلاث سنوات ازداد الإسلام فيها انتشارا بين أهل مكة ونزل على محمد فيها من الوحى ما زاد المسلمين إيمانا وتثبيتا .

المسلمون الأوّلون

وماله ، وها هو ذا مع ذلك لا يعبأ بهذا المال والمزيد عليه والإكثار منه ، و يدعو الى الحب والعطف والمودّة والتسامح . بل ها هو ذا يجيئه الوحى بأنّ فى الإكثار من الثروة لعنة للروح . أليس يقول : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ[(١)] ﴾ . وأىّ شىء خير مما يدعو اليه محمد ! أليس هو يدعو الى الحرّية ! الى الحرّية المطلقة التى لا حدود لها ! ! الى الحرّية العزيزة على نفس العربىّ إعزازه حياته ! . نعم ! أليس يطلق الناس من التقيّد بأية عبادة غير عبادة الله وحده ! أليس يحطم كل ما بينهم و بينه من أغلال : لا هُبَل ولا اللات ولا العُزّى ولا نار المجوس ولا شمس المصريين ولا نجوم عبّاد النجوم ولا الحواريّون ولا أحد من الإنس أو من الملائكة أو من الجانّ يحجب بين الله والإنسان . وأمام الله ، أمامه وحده لا شريك له ، يُسأل الإنسان عما قدّم من خير أو شرّ . وأعمال الإنسان هى وحدها شفيعه . وضميره هو الذى يزن أعماله ، وهو وحده صاحب السلطان عليه ، وبه يُحَاسَب يوم تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت . أيّة حريّة أوسع مدًى من هذه الحرية التى يدعو محمد اليها ؟ ! وهل يدعو أبو لهب وأصحابه الى شىء من مثلها ؟ ! أم هم يدعون الناس لتظلّ نفوسهم فى رقٍّ وعبودية بما تكدّس عليها من خُرافات حجبت عنها نور الحق وضياء الهدى ! .

شعراء قريش.

على أن أبا لهب وأبا سفيان وأشراف قريش وأمجادها ، أشراف المال وأمجاد اللّهو ، بدءوا يشعرون بما فى دعوة محمد من خطر على مكانتهم ، فرأوا بادئ الرأى أن يحاربوه بالحطّ من شأنه و بتكذيبه فيما يزعم من نبوّته . وكان أوّل ما صنعوا من هذا أن أغرَوْا به شعراءهم أبا سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبد الله ابن الزِّبَعْرَى ، يهجونه ويقارعونه . وتولّت طائفة من شعراء المسلمين الردّ على هؤلاء من غير أن يكون محمد فى حاجة إلى مناقشتهم . هنالك تقدّم غير الشعراء يسألون

مطالبة محمد بالمعجزات

(١) سورة التكاثر .

ليقوموا . ودعاهم محمد فى الغداة كرّةً أخرى . فلما طعموا قال لهم : ما أعلم إنسانا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ؟ قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرنى ربى أن أدعوكم اليه . فأيّكم يؤازرنى على هذا الأمر؟ فأعرضوا عنه وهمّوا بتركه . لكن علياً نهض، وهو ما يزال صبيا دون الحلم، وقال : "أنا يارسول الله عونُك ، أنا حربٌ على من حاربتَ" . فابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم ، وجعل نظرهم يتنقّل من أبى طالب الى ابنه، ثم انصرفوا مستهزئين .

انتقل محمد بعد ذلك بدعوته من عشيرته الأقربين الى أهل مكة جميعا . صعِد الصَّفَا يوما ونادى : يامعشر قريش ! . قالت قريش : محمد على الصفا يهتِف ، وأقبلوا عليه يسألون ما له ؟ قال : أرأيتم لو أخبرتُكم أن خيلا بسَفْح هذا الجبل أكنتم تصدّقونى ؟ قالوا : نعمْ! أنت عندنا غير مُتَّهم وما جرّبنا عليك كذبا قطُّ . قال: فإنّى نذيرٌ لكم بين يدَىْ عذاب شديدٍ. يابنى عبد المطّلب، يا بنى عبد مناف، يا بنى زُهْرة، يا بنى تَيْم، يا بنى مخزوم، يا بنى أسَد، إن الله أمرنى أن أُنْذر عشيرتى الأقربين . وإنى لا أملِك لكم من الدنيا منفعةً ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله . أوكما قال . فنهض أبو لهب وكان رجلا بدينا سريع الغضب فصاح : "تبًّا لك سائر هذا اليوم ! ألهذا جمعتنا !" .

وأُرْتِج على محمد فنظر الى عمه . ثم ما لبث أن جاءه الوحى بقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ . ما أغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذاتَ لَهَبٍ (١) ﴾ .

الإسلام والحرية

لم يَحُلْ غضب أبى لهب ولا خصومة غيره من قريش دون انتشار الدعوة الى الإسلام بين أهل مكة . فلم يكن يوم إلا أسلم فيه بعضهم لله وجهه . وكان الزاهدون فى الدنيا أشدّ على الإسلام إقبالا . أولئك لا تُلهيهم التجارة ولا يلهيهم البيع عن التأمّل فيما يدعوهم الداعى اليه . وهم قد رأوا محمدا فى غنًى بمال خديجة

(١) سورة المسد الآيات من ١ الى ٣

فى أمر هــذا الرجل وما هو لاق منهم وما هم لاقون منه . لقــد كانوا الى يومئذ يسخرون من قوله ، وكانوا إذا جلسوا فى دار النَّـدْوة أو حول الكعبة وأصنامها يجرى ذكره على لسانهم لم يُثِرْ أكثر من ابتسامات استخفافهم واستهزائهم . أمّا وقد حقّر من شأن آلهتهم وسخِر ممّـا يعبدون وما كان يعبد آباؤهم ، ونال من هُبَل ومن اللّات والعُزَّى ومن الأصنام جميعا ، فلم يبق الأمر موضع آستخفاف وسخرية ، بل أصبح موضع جِدٍّ وتدبير . أو لو أُتيح لهـذا الرجل أن يؤلِّب عليهـم أهل مكة وأن يصرِفَهم عن عبادتهم فماذا تؤول إليه تجارة مكة ؟ وماذا يكون مقامها الدينى ؟

ولم يكن عمّــه أبو طالب قد دخل فى دين الله ، لكنه ظلّ حاميا لآبن أخيه قائمـا دونه ، معلنا استعداده للدفاع عنــه . لذلك مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب وفى مقدمتهم أبو سفيان بن حرب فقالوا : « يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قــد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا ، فإمّا أن تكفَّه عنّا وإما أن تُخَلِّى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليــه من خلاف فَسَنَكْفيكه » . فردّهم أبو طالب ردًّا جميــلا . ومضى محمد يشــتدّ فى الدعوة الى رسالتــه ، ويزداد لدعوته أعوانا . وأتمرتْ قريش بمحمد ومشــوا الى أبى طالب مرّةً أخرى ومعهم عُمارة بن الوليد بن المُغيرة ، وكان أنْهَدَ فتًى فى قريش وأجملَه ، وطلبوا اليه أن يتخذه ولدا ويُسـلمهم محمدا فأبى . ومضى محمد فى دعوته ومضت قريش فى آئتمــارها ، ثم ذهبوا الى أبى طالب مرّة ثالثــة وقالوا له : « يا أبا طالب ، إن لك سِنًّا وشرفا ومنزلة فينا ، وقد استنهيناك من آبن أخيك فلم تنهه عنّا ، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعَيْب آلهتنا حتى تكفّه عنّـا أو ننازله وإيّاك حتى يهلِك أحد الفريقين » . وعظُم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يَطِبْ نفسا بإسلام آبن أخيــه ولا خذلانه . ماذا تراه يصنع ؟ بعث الى محمد فقصّ عليه رسالة قريش ثم قال : له «فأبقِ علىّ وعلى نفسك ولا تحمِّلنى من الأمر مالا أُطيق» .

وأطرق محمد إطراقة وقف إزاءها تاريخ الوجود كله برهة مبهوتا لايدرى بعدها ما اتجاه التاريخ

محمدا عن معجزاته التى يُثبت بها رسالته ، معجزات كمعجزات موسى وعيسى . فما باله لا يُحيل الصفا والمروة ذهبا ، ولا ينزل عليه الكتاب الذى يتحدّث عنه مخطوطا من السماء ! ولم لا يبدو لهم جبريل الذى يطول حديث محمد عنه ! ولم لا يُحيي الموتى ولا يسيّر الجبال حتى لا تظل مكة حبيسة بينها ! ولم لا يَفْجُر ينبوعاً أعذب من زمزم ماء وهو أعلم بحاجة أهل بلده إلى الماء ! . ولم يقف أمر المشركين عند التهكم بالمسألة فى هذه المعجزات ، بل كانوا يزدادون تهكما ويسألونه : لم لا يوحى اليه ربه أثمان السلع حتى يضاربوا على المستقبل . وطال بهم اللّجاج ، فردّ الوحى لجاجهم بما أنزل على محمد من قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [(١)] ﴾ .

نعم ! ما محمد إلا نذير وبشير . فكيف يطالبونه بما لا يقبل العقل وهو لا يطلب إليهم إلا ما يقبله العقل بل ما يُمليه ويحتمه ! . وكيف يطلبون إليه ما تأنَف منه النفس الفاضلة وهو لا يطالبهم إلا أن يستجيبوا لوحى النفس الفاضلة ! . وكيف يطلبون إليه المعجزات وهذا الكتاب الذى يوحَى إليه ، والذى يهدى الى الحق ، معجزة المعجزات ! . وما لهم يطلبون إليه إثبات رسالته بالخوارق ليتردّدوا من بعد ذلك أيتبعونه أم لا يتبعونه ، وهذه التى يزعمونها آلهتهم ليست إلا حجارة أو خشبا مُسَنَّدة أو أنصابا قائمة فى عُرْض الفلاة لا تملك لهم نفعا ولا ضرّا ، وهم مع ذلك يعبدونها دون أن يطلبوا إليها ما يُثبت ألوهيتها ؟ ! ولو أنهم طلبوه لظلّت خشبا أو حجارة لا حياة فيها ولا حركة لها ، لا تستطيع لنفسها ضرّا ولا نفعا ، ولا تستطيع إذا حطمها محطم عن نفسها دفعا .

طعن محمد على الأصنام

وبادأَهُمْ محمد بذكر آلهتهم وكان من قبلُ لا يذكرها ، وعابها وكان من قبل لا يعيبها ؛ هنالك عظُم الأمر على قريش وحزّ فى صدورهم ؛ وبدءوا التفكير الجِدّ

(١) سورة الأعراف آية ١٨٨

القديمة بين بنى هاشم وبنى أُمية . لكنّ العصبية لم تكن وحدها التى حفَزتهم إلى الوقوف هذا الموقف من قريش كلها فى أمر له من جلال الخطر ما للدعوة إلى نبذ دينهم والخروج على عقائدهم التى وجدوا عليها آباءهم ، بل كان موقف محمد منهم وشدّة إيمانه برأيه بينهم ودعوته الناس بالحسنى إلى عبادة الواحد الأحد ، وما كان شائعا يومئذ بين قبائل العرب جميعا من أن لله دينا غير دينهم الذى هم عليه ، ممّا جعلهم يرون حقًّا لابن أخيهم محمد أن يعالن الناس برأيه كما كان يفعل أُميّة بن أبى الصَّلْت وورقة بن نوفل وغيرهما . فإن يكن محمد على الحق — وذلك ما لاثقة لهم به — فسيظهر الحق من بعدُ وسيكون لهم من مجده نصيب ؛ وإلّا يكن على الحق فسينصرف الناس عنه كما انصرفوا من قبلُ عن غيره ، ثم لن يكون لدعوته من الأثر أن يخرجوا على تقاليدهم وأن يسلموه لخصومه كى يقتلوه .

اعتصم محمد بقومه من أذى قريش ، كما اعتصم فى داره بخديجة من همّ نفسه . فقد كانت له ، بصدق إيمانها وعظيم حبّها ، وزير صدق تسرِّى عنه كل همّه وتقوّى فيه كلَّ عارض ضعف من أثر أذى خصومه وإمعانهم فى مناوأته وإيصال الأذى لأتباعه . وفى الحقّ أن قريشا لم تنم ولم تَعُدْ لِما عرفت من قبلُ من دَعَة النعيم ؛ بل وثبتْ كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذّبونهم ويفتِنونهم عن دينهم ، حتى ألقى أحدهم عبدَه الحبشىَّ بِلَالًا على الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حجرا على صدره وتركه ليموت ، لغير شىء إلا أنه أصرّ على الإسلام . ولم يزد بِلال وهو فى هذه الحال على أن يكرّر كلمة : « أَحَدٌ . أَحَدَ » محتملا هذا العذاب فى سبيل دينه . وقد رآه أبو بكر يوما يُعانى هذا العذاب فاشتراه وأعتقه . واشترى أبو بكر كثيرا من الموالى الذين كانوا يعذَّبون ، ومن بينهم جارية لعمر بن الخطاب اشتراها منه قبل إسلامه . وعذِّبت امرأة حتى ماتت لأنها لم ترض أن ترجع عن الإسلام إلى دين آبائها . وكان المسلمون من غير الموالى يُضْرَبون وتُوَجَّه إليهم أشد صور المهانة . ولم يَسْلَم محمد ، مع منع بنى هاشم وبنى المطلب له ، من هذه الإساءات . كانت أُمّ جميل زوج أبى لَهَب تُلِق النجس أمام بيته فيكتفى محمد بأن يزيله .

إيذاء قريش المسلمين

ما اتجاهه . فى الكلمة التى تفترّ عنهـا شفتا هـذا الرجل حكمٌ على العالم أهو يظلّ فى الضـلال يُمَدّ له فيه، فتطغى المجوسيّة على النصرانيـة المتخاذلة المضطربة وترفع الوثنية بباطلها رأسها الخَرِف الآفِن؛ أم هو يُضيء أمامه نور الحقّ وتُعْلن فيه كلمة التوحيد وتحرّر فيه العقول من رقّ العبوديّة والقلوب من أسر الأوهام، وترتفع فيه النفس الإنسانية لتتصل بالملأ الأعلى . وهـذا عمّه كأنه ضعُف عن نصرته والقيام معه، فهو خاذله ومُسْلِمه . وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافا لا يقوَوْن على حرب ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمـال والعُدّة والعدد . إذًا لم يبق له دون الحق الذى ينادى الناسَ باسمه نصير، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عُدّة . ليكن ! ! إن الآخرة خير له من الأُولى . وليؤدّ رسالتـه وليَدْعُ إلى ما أمره ربه . ولَخَيرٌ له أن يموت مؤمنا بالحق الذى أُوحى إليه من أن يخذله أو يتردّد فيه . لذلك التفت الى عمّـه ممتلئ النفس بقـوّة إرادته وقال له : « ياعمّ، والله لو وضـعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى علىأن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

ياَلَعظمة الحقّ وجلال الإيمان به ! اهتزّ الشيخ لِـما سمع من جواب محمد ووقف كذلك مبهوتا أمام هذه القوة القدسيّة والإرادة السامية فوق الحياة وكل ما فى الحياة . وقام محمد وقد خنقته العَبْرة ممّا فاجأه به عمّه وإن لم تَدُرْ بنفسه خلجةُ ريب فى السبيل الذى يسلُك . ولم تك إلا لحظة آهتز فيها وجود أبى طالب متحيرا بين غَضْبة قومه وموقف ابن أخيـه حتى نادى محمدا أن أقبل . فلمـا أقبل قال له : اذهبْ يآبن أخى فقل ما أحببتَ، فوالله لا أُسلمك لشىء تكرهه أبدا ! .

بنو هاشم يمنعون محمدا من قريش

وأفضى أبو طالب إلى بنى هـاشم وبنى المطلب بقول ابن أخيـه وبموقفه وحديثه عنه يتدفّق بروعة ما شهد وجلال ما شعر به؛ وطلب إليهم أن يمنعوا محمدا من قريش؛ فاسـتجابوا له جميعا إلا أبا لهب فإنه صارحهم العـداوة وآنضمّ إلى خصومهم عليهم . وهم لاريب قد منعوه متأثّرين بالعصبية القوميّـة وبالخصومة

لذلك فى حاجة الى المال أو الجاه أو المكانة السياسية أو الدينيّة . وكان فى ذلك على خلاف مَنْ سبقه من الرسل والأنبياء . فقد وُلد موسى بمصر وفيها فرعون يدين له أهلها بالألوهية وينادى هو فيهم "أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى" وتعاونه طائفة رجال الدين على سَوْم الناس ألوان الظلم والاستغلال والعسف ؛ فكانت الثورة التى قام بها موسى بأمر ربه ثورة على نظام سياسىّ ودينىّ معًا . أليس يريد أن يكون فرعون والرجل الذى يرفع الماء بالشادوف من النِّيل أمام الله سيّين؟ إذًا فما ألوهيّة فرعون وما هذا النظام القائم ! ! يجب أن يُحَطَّم ذلك كله ، ويجب أن تكون الثورة سياسية أوّلا . لهذا لقيت الدعوة الموسويّة منذ بدايتها حربًا من فرعون شعواء . ولذلك آزرت المعجزاتُ موسى ليؤمن بدعوته . ألقى عصاه فاذا هى حيّة تسعى تلقَفُ ما صنع سحرة فرعون . ولم يُجْدِ ذلك موسى شيئا فاضطُرّ الى مغادرة وطنه مصر ، وقد آزرته فى هجرته معجزة انفلاق الطريق فى البحر خلال الماء . وقد وُلد عيسى فى النّاصرة من أعمال فَلَسْطِين ، وهى يومئذ ولاية رومانيّة خاضعة لحكم القياصرة ولظلم المستعمرين بها ولآلهة رومية ؛ فدعا الناس الى الصبر على الظلم والى المغفرة للتائب المُنيب والى ألوان من الرحمة آعتبرها القائمون بالأمر ثورة على تجبّرهم ؛ فآزرت عيسى معجزاتُ إحياء الموتى و إبراء المرضى وسائر ما أيّده به روح القُدُس من عنده . صحيح أن تعاليمهم تنتهى فى جوهرها الى ما تنتهى اليه تعاليم محمد فى جوهرها ، مع خلاف فى التفاصيل ليس هنا موضع إيضاحه . لكنّ هذه العوامل المختلفة ، والعامل السياسىّ فى مقدّمتها ، وجّهت دعوتهما اتجاهها . أما محمد ، وكانت ظروفه ما قدمنا ، فكانت رسالته عقليّة روحيّة أساسها الدعوة الى الحق والخير والجمال دعوةً مجرّدة فى بَدْئها وفى غايتها . ولبعدها عن كل خصومة سياسيّة لم تُزعج النظام الجمهورىّ الذى كان قائما بمكة بأية صورة من صور الإزعاج .

دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة

وقد تأخذ القارئَ الدهشة إذا ذكر ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوىّ . فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة لك فى هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ،

وكان أبو جهل يُلقى عليه أثناء صلواته رحم شاة مذبوحة ضحية للأصنام ، فيتحمّل الأذى ويذهب الى ابنته فاطمة لتعيد إليه نظافته وطهارته . هذا الى جانب ما كان المسلمون يسمعون من لغو القول وهُجْر الكلام حيثما ذهبوا . واستمرّ الأمر على ذلك طويلا ، فلم يزدادوا إلا حرصا على دينهم وابتهاجا بالأذى وبالتضحية فى سبيل عقيدتهم وإيمانهم .

صبر المسلمين على الأذى

هذه الفترة من فترات حياة محمد عليه السلام هى من أشد ما عرف التاريخ الإنسانىّ روعة فى العصور جميعا . فما كان محمد والذين اتّبعوه طلّاب مال ولا جاه ولا حكم أو سلطان، إنما كانوا طلّاب حقّ وإيمان به . وكان محمد طالب هدى للذين يُصيبونه بالأذى وتحريرٍ لهم من رِبْقة الوثنيّة الوضيعة التى تنحدر بالنفس الإنسانية الى خزى المذلّة والهوان . فى سبيل هذه الغاية الروحيّة السامية ، لا فى سبيل شىء آخر، كان الأذى يصله وكان الشعراء يسبّونه، وكانت قريش تأتمر به، حتى حاول رجل قتلَه عند الكعبة . وكان منزله يُرجم، وكان أهله وأتباعه يُهدّدون، فلا يزيده ذلك إلا صبرا وإمعانا فى الدعوة . وامتلأت نفوس المؤمنين الذين اتّبعوه بقوله : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . وهانت عليهم جميعا التضحيات الجسام وهان عليهم الموت فى سبيل الحق وهداية قريش له . وقد تَعْجَب لهذا الإيمان الآخذ بنفوس أولئك المكيين ولمّا يكن الدين قد كمل ولمّا يكن قد نزل من القرآن إلا القليل . وقد تحسب أن شخصية محمد ودماثة طبعه وجميل خُلقه وما عُرف من صدقه وما بدا من صلابة عوده وقوّة عزمه وثبات إرادته ، كان السبب فى كل هذا . ولا ريب قد كان لهذا كله حظه ونصيبه . لكن عوامل أخرى جديرة بالتقدير والاعتبار كان لها هى أيضا فى ذلك نصيب غير قليل .

فقد كان محمد فى بلاد حُرّة هى بالجمهورية أشبه . وكان فى الذّروة والسّنام منها حسبا ونسبا . وكان قد وصل من المال الى مايشاء . وكان الى ذلك من بنى هاشم . اجتمعت لهم سِدانة الكعبة وسِقاية الحاجّ وما شاءوا من مجد الألقاب الدينيّة . فلم يكن

هو وهم باطل غير جدير بالكرامة الإنسانية، ولا هو يتفق مع عقل الإنسان وما كرّم به من القدرة على استنباط سنّة الله من طريق النظر فى خلقه .

هذا جوهر الدعوة المحمدية على ما عرفها المسلمون الأولون . وقد أبلغهم الوحى إياها على لسان محمد فى آى من البلاغة كانت ولن تزال معجزة؛ بجمع لهم بذلك بين الحق وتصويره فى كمال جماله . هنالك ارتقت نفوسهم وسمت قلوبهم تريد الاتّصال بهذا الروح الكريم؛ فهداهم محمد إلى أن الخير هو طريق الوصول، وأنهم مجزيّون عن هذا الخير يوم يتوفّون واجبهم فى الحياة بالتقوى، ويوم تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت . ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(١) .

أىُّ سموٍّ بالعقل الإنسانى أعظم من هذا السموّ ! وأى تحطيم لقيوده أشدُّ من هذا التحطيم ! ! حسبُ الإنسان أن يفهم هذا وأن يؤمن به وأن يعمل عليه ليبلغ الذروة من مراتب الإنسان . وفى سبيل هذه المكانة تهون كل تضحية على من يؤمن بها .

وقد كان من جلال موقف محمد ومن اتبعه أن ازداد بنو هاشم وبنو المطلب منعًا له ودفعًا للأذى عنه . مرّ أبو جهل بمحمد يوما فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتوهين من أمره . فأعرض محمد عنه وانصرف ولم يكلّمه . وكان حمزة، عمه وأخوه من الرضاع، لا يزال على دين قريش؛ وكان رجلا قويًّا مخوفا؛ وكان ذا ولع بالصيد، فاذا رجع من صيده طاف بالكعبة قبل أن يعود إلى داره . فلما جاء فى ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من أذى أبى جهل ملأه الغضب، وذهب إلى الكعبة ولم يقف مسلّما على أحد ممن كان عندها كعادته، ودخل المسجد فألفى أبا جهل فقصد اليه، حتى اذا بلغه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّة منكرة . وأراد رجال من بنى مخزوم أن ينصروا أبا جهل؛ فمنعهم حسمًا للشرّ ومخافة استفحاله معترفا إسلام حمزة

(١) سورة الزلزلة آيتى ٧ و ٨

ثم بالموازنة والترتيب، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدّمات العلمية. فاذا وصلت الى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، ولكنها تظّل علميةً ما لم يُثبت البحث العلمى تسرّب الخطأ الى ناحية من نواحيها. وهذه الطريقة العلميّة هى أسمى ما وصلت اليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر. وهاهى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته. فكيف اقتنع الذين اتبعوه بدعوته وآمنوا بها؟ نزعوا من نفوسهم كل عقيدة سابقة وبدءوا يفكرون فيما أمامهم. لقد كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم. فأىّ صنم هو الحق وأى صنم هو الباطل؟ وكان فى العرب وفى البلاد التى تجاورها صابئة ومجوس يعبدون النار، وكان فيها الذين يعبدون الشمس. فأىّ هؤلاء على الحق، وأيهم على الباطل؟ لنَذَرْ هذا كله إذًا جانبا ولْنَمْحُ أثره من نفوسنا ولنتجرّد من كل رأى ومن كل عقيدة سابقة، ولننظر. والنظر والملاحظة بطبيعة الحال سيّان. مما لا شبهة فيه أن لكل موجود بسائر الموجودات اتّصالا. فالإنسان تتصل قبائله بعضها ببعض وأممه بعضها ببعض. والإنسان يتصل بالحيوان والجماد. وأرضنا تتصل بالشمس وبالقمر وبسائر الأفلاك. وذلك كله يتصل فى سنن مطّردة لا تحويل لها ولا تبديل. لا الشمس ينبغى لها أن تُدرك القمر ولا الليل سابق النهار. ولو أن إحدى موجودات الكون تحوّلت أو تبدّلت لتبدّل ما فى الكون. فلو أن الشمس لم تُسْعد الأرض بالنور والحرارة على السُّنّة التى تجرى عليها منذ ملايين السنين لتبدّلت الأرض غير الأرض والسماء. وما دام ذلك لم يحدُث، فلا بدّ لهذا الكل من روح يُمسكه، منه نشأ وعنه تطوّر وإليه يعود. هذا الروح وحده هو الذى يجب أن يخضع له الإنسان. أمّا سائر ما فى الكون فهو خاضع لهذا الروح كالإنسان سواء. والإنسان والكون والزمان والمكان وحدةٌ، هذا الروحُ جوهرها ومصدرها. إذًا فلتكن لهذا الروح وحده العبادة. ولهذا الروح يجب أن تتّجه القلوب والأفئدة. وفى الكون كله يجب أن نلتمس من طريق النظر والتأمّل سُننه الخالدة. وإذًا فما يعبد الناس من دون الله أصناما وملوكا وفراعنة ونارا وشمسا إنما

جوهر الدعوة المحمدية

الهجرة الى الحبشة

وزاد ما ينزل بالمسلمين من الأذى ، وبلغ منهم القتل والتعذيب والتمثيل . هنالك أشار عليهم محمد أن يتفرّقوا فى الأرض . فلما سألوه أين نذهب؟ نصح اليهم أن يذهبوا الى بلاد الحبشة المسيحيّة «فان بها مَلِكًا لا يُظْلَم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه» . فخرج فريق من المسلمين عند ذلك الى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفِرارا الى الله بدينهم . وخرجوا فى هجرتين . كانوا فى الأولى أحد عشر رجلا وأربع نساء تسلّلوا من مكة لِواذًا ، ثم أقاموا فى خير جوار من النجاشى ، حتى ترامى اليهم أن المسلمين بمكة أصبحوا بمأمن من أذى قريش فعادوا ، كما سنقصّه من بعدُ . فلما لَقُوا عَنَتَ قريش وأذاهم أبلغ مما كان عادوا الى الحبشة فى ثمانين رجلا غير نسائهم وأطفالهم ، وأقاموا بها الى ما بعد هجرة النبىّ الى يَثْرِب . وهذه الهجرة الى الحبشة كانت أوّل هجرة فى الإسلام .

من حق من يؤرّخ لمحمد أن يسأل : أكان كل القصد من هذه الهجرة التى قام بها المسلمون بأمره ورأيه ، الفِرار من كفّار مكة وما يُلحقون بهم من الأذى، أم أنها كان لها كذلك غرض سياسىّ إسلامىّ رمى محمد من ورائه الى غاية عُليا ؟ . من حق مؤرخ محمد أن يسأل عن هذا بعد الذى ثبت من تاريخ هذا النبىّ العربى فى أطوار حياته جميعا أنه كان سياسيّا بعيد الغور ، كما كان صاحب رسالة وأدب نفس لا يُدانيهما فى السموّ والجلال والعظمة مُدان . ويدعونا الى هذه المسألة ما تجرى به الرواية من أن أهل مكة لم يستريحوا الى خروج من خرج من المسلمين الى الحبشة ، بل بعثوا رجلين الى النجاشى ومعهما الهدايا النفيسة ليقنعوه كى يردّ المسلمين من مواطنهم اليهم . والحبشة ونجاشيها كانوا نصارى ، فليس تخشى قريش عليهم من الناحية الدينية أن يتّبعوا محمدا . فهل تراهم عُنُوا بالأمر و بعثوا يستردّون المسلمين لأنهم رأوا أن حماية النجاشى إيّاهم بعد سماعه أقوالهم قد تكون ذات أثر فى إقبال أهل جزيرة العرب على دين محمد واتّباعهم إياه ؟ أو أنهم خافوا ، إن بقى هؤلاء فى الحبشة ، أن تشتدّ شوكتهم، فاذا عادوا بعد ذلك لمعونة محمد عادوا أقوياء بالمال والرجال ؟ .

سفيرا قريش الى النجاشى

أنه سبّ محمد سبًّا قبيحا . ثم أعلن حمزة إسلامه وعاهد محمدا على نصرته والتضحية في سبيل الله حتى النهاية .

سفارة عتبة ابن ربيعة

ضاقت قريش ذرعا بمحمد وأصحابه إذ رأتهم يزدادون كل يوم قوّة، ثم لا يثنيهم الأذى ولا يصرفهم العذاب عن إيمانهم والجهر به، وعن صلواتهم وأداء فرضها؛ فخُيِّل اليهم أن يتخلّصوا من محمد بما توهّموا من إرضاء مطامعه، ناسين عظمة الدعوة الإسلامية ونزاهة جوهرها الروحيّ السامي عن الخصومة السياسية . فقد رغب عُتْبة بن ربيعة، وكان من سادات العرب، الى قريش وهم في ناديهم أن يكلّم محمدا وأن يعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فيُعطونه أيّها شاء ويكفّ عنهم . وكلّم عتبة محمدا فقال : « يابن أخي إنك منّا حيث قد علمت من المكان في النسب؛ وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم؛ فاسمع منّي أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها . إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد تشريفا سوّدناك علينا، فلا نقطع أمرًا دونك . وإن كنت تريد ملكا ملّكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا(1) تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ » . فلما فرغ من قوله تلا محمد عليه سورة السجدة وعُتبة منصت يستمع الى أحسن القول ويرى أمامه رجلا لا مطمع له في مال ولا في تشريف ولا في مُلك ولا هو بالمريض، وإنما يُدلي بالحق ويدعو الى الخير ويدفع بالتي هي أحسن مع الإعجاز في العبارة . فلما انتهى محمد انصرف عتبة الى قريش مأخوذا بجمال ما رأى وسمع؛ مأخوذا بعظمة هذا الرجل وسحر بيانه . ولم يَرُقْ قريشا أمر عُتبة ولا راقها رأيه أن تترك للعرب محمدا، فإن تغلّبت عليه استراحت قريش وإن اتبعته فلها فخاره . فعادت تناوئ محمدا وتناوئ أصحابه وتصيبهم من البلاء بما كان هو في منجاة منه بمكانته من قومه ومَنعته بأبي طالب وبني هاشم وبني المطّلب .

(1) الرئي : التابع من الجن .

بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألّا نُظْلَمَ عندك" .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شي تقرؤه عليّ ؟

قال جعفر : نعم، وتلا عليه سورة مريم من أوّلها الى قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١) .

جواب النجاشي والبطارقة

فلما سمع البطارقة هذا القول مصدّقا لما فى الإنجيل أُخِذوا وقالوا : هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيّدنا يسوع المسيح . وقال النجاشي : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مِشكاة واحدة . انطَلِقا، والله لا أُسلمهم اليكما . فلما كان الغد عاد ابن العاص الى النجاشي فقال له : إن المسلمين ليقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسِلْ اليهم فسَلْهم عما يقولون فيه . فلما دخلوا عليه قال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبيّنا، يقول هو عبد الله ورسوله ورُوحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراءِ البَتُول . فأخذ النجاشي عودا وخطّ به على الأرض وقال وقد بلغت منه المسرّة أكبر مبلغ : ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخطّ . وكذلك تبيّن للنجاشي بعد سماع الفريقين أنّ هؤلاء المسلمين يعترفون بعيسى ويقرّون النصرانية و يعبدون الله . ووجد المسلمون فى جوار النجاشي أمْنًا ودعة حتى رجعوا الى مكة للمرة الأولى ومحمد ما يزال بها، حين بلغهم أن خصومة قريش هدأت . فلما رأوا المكيّين ما يزالون يُنزلون به وبأعوانه الأذى عادوا الى الحبشة فى ثمانين رجلا غير نسائهم وأطفالهم . أفكانت هجرتاهم هاتان لمجرّد الفِرار من الأذى، أم كان لهما، ولو فى تدبير محمد وحده، غاية سياسية يجمُل بالمؤرّخ أن يجلوها؟

المسلمون ونصرانية الحبشة

ومن حق مؤرّخ محمد أن يسأل : كيف أمِن محمد على أصحابه هؤلاء أن يذهبوا الى أرض الحبشة والنصرانيةُ دين أهلها دين كتاب، ورسولها عيسى يقرّ الاسلام

(١) سورة مريم الآيات من ٢٩ الى ٣٣

كان الرسولان عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي رَبيعة. ولقد دفعا الى النجاشي وإلى بطارقته بالهدايا كي يردّوا المهاجرين من أهل مكة إليها، ثم قالا: «أيها الملك إنه قد ضَوَى[1] الى بلدك منا غِلمانٌ سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم؛ فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه». وكان السفيران قد اتّفقا مع بطارقة النجاشي بعد أن أتحفاهم بهدايا أهل مكة أن يعاونوهما على ردّ المسلمين إلى قريش دون أن يسمع النجاشي كلامهم. فأبى النجاشي أن يفعل حتى يسمع ما يقولون وبعث في طلبهم. فلما جاءوا سألهم:

ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

رد المسلمين على السفيرين

فكان الّذي كلّمه جعفر بن أبي طالب قال:

"أيها الملك، كنّا قوما أهل جاهليّة، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونُسيء الجِوار ويأكل القويّ منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصَنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام — وعدّد عليه أمور الإسلام — فصدّقناه وآمنّا به واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى

---

(١) ضوى: أتى.

والأقوياء والشرّيرون أن يعذّبوا الجسد وأن يحولوا بينه وبين ملاذّه وشهواته وأن يُهلكوه ، لكنهم لن يصلوا الى الروح ما دام صاحبه يريد به سموّا فوق سلطان المادّة وفوق سلطان الزمن واتصالاً بالوجود كله . إنما يُجْزَى الإنسان عن أعماله يوم تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت . يومئذ لا يجزى والدٌ عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، ويومئذ لا ينفع الأغنياءَ مالهُم ، ولا الأقوياء قوتهم ، ولا المتكلمين كلامهم ؛ إنما هى الأعمال وحدها تشهد لصاحبها أو تشهد عليه . ويومئذ يقف هذا الوجود جميعا متسقة وحدته مجتمعا أزله وأبده ، لا يظلم ربُّك أحدا ، ولا تُجْزَوْن إلّا ما كنتم تعملون .

كيف يخاف محمد الفتنة على من علّمهم هذه المعانى ومن بثّها فى نفوسهم فحلّت منهم فى سويداء القلب ومكان العقيدة والايمان ! . ثم كيف يخاف عليهم الفتنة ومَثَلُه حاضرٌ أمامهم بشخصه المحبوب ، حتى ليحبّه أحدهم أكثر من حبّه نفسَه وبنيه وأهلَه . شخصه الذى يضع هذه العقيدة فوق مُلك الأرض والسماء والشمس والقمر ويقول لعمّه : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . شخصه الذى يضىء بنور الإيمان والحكمة والعدل والخير والحق والجمال ، الممتلئ الى جانب ذلك تواضعا وبِرًّا ومودّة ورحمة . لذلك كان مطمئنا الى هجرة أصحابه هؤلاء الى الحبشة كل الاطمئنان . وكان أمْنُهم عند النجاشى وسكينتهم إلى دينهم بين قوم لا تربطهم بهم أواصرعطف أو قربى ، مما جعل قريشا تشعر بما فى إيذائها للسلمين ، وهم منهم وهم أهلوهم وأنسابهم ، من ظلم ومن عَنَتٍ ومن إمعان فى الفجور ، ومن تحميل كل ألوان الأذى لهؤلاء الذين ارتفعت نفوسهم فوق الأذى ، فأصبح لا ينالهم سوء وأصبحوا يرون فى الصبر على البأساء قربى إلى الله ومغفرةً منه .

وكان عمر بن الخطّاب يومئذ رجلا فى فتوّة الرجولية ، بين الثلاثين والخامسة والثلاثين . وكان مفتول العَضَل ، قوىّ الشكيمة ، حادّ الطبع ، سريع الغضب ، محبا للّهو والخمر ، وفيه الى ذلك بِرٌّ بأهله ورقّة لهم . وكان من أشدّ قريش أذى للسلمين

إسلام عمر بن الخطاب

رسالته، ثم لا يخاف عليهم فتنة كفتنة قريش وإن تكن من نوع آخر؟ وكيف أمن هذه الفتنة والحبشة بلاد بها من الخصب ما ليس بمكة فهى أشدّ من قريش فتنة؟ ولقد تنصّر بالفعل أحد المسلمين الذين ذهبوا الى الحبشة، فدلّ تنصّره على أن خوف هذه الفتنة كان جديرا بأن يُساور محمدا وقد كان لا يزال ضعيفا، ولا يزال الذين اتّبعوه فى أشدّ الريب من قدرته على حمايتهم أو الانتصار به على عدوّهم! . وأكبر الظن أن يكون ذلك قد دار بخاطر محمد أن كانت سعة ذهنه وذكاء فؤاده وبعد نظره عِدْلًا لسموّ روحه وكرم نفسه وحسن أدبه ورقة عاطفته . ولقد كان من هذه الناحية مطمئنا تمام الطمأنينة . فقد كان الإسلام يومئذ، والى يوم مات صاحب الرسالة، فى صفاء جوهره لم تشب نقاءه ولا سموّه شائبة . وكانت نصرانية الحبشة كنصرانية نَجْران والحِيرة والشام قد اندسّ اليها من شوائب الخلاف بين مؤلّهى مريم ومؤلّهى عيسى والمخالفين لهؤلاء وأولئك ما لا يُخشى معه على أولئك المسلمين الذين كانوا ينهَلون من نبع الرسالة المصفّى .

وفى الحق أن أكثر الأديان ما كانت تتخطى على الزمان أجيالا معدودة حتى يندسّ إليها نوع من الوثنية، إن لم يكن من هذا الطراز الوضيع الشائع يومئذ فى بلاد العرب فإنه وثنية على كل حال . والإسلام نزل عدوّ الوثنية اللّدود فى جميع صورها وأوضاعها . ثم إن النصرانية تعترف من ذلك التاريخ لطائفة رجال الدين بمكانة خاصة لم يعرفها الإسلام قطّ، وكان يومئذ أشدّ ما يكون عليها سموًّا ومنها براءة . ثم إنه كان يومئذ وبقى فى جوهره دينَ السموّ بالنفس الإنسانية الى الذروة العليا من السموّ . فلم يدع من صلة بين المرء وربه غير العمل الصالح والتقوى، وأن يحبّ الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه . لم تبق أصنام ولم يبق كهنة ولم يبق عَرّافون ولم يبق شيء يحول دون أن تسمو الروح الإنسانية لتتّصل بالوجود كله صلة خير ومعروف، ليكون جزاؤها عند الله أكبر من عملها أضعافا مضاعفة . والروح ! الروح فى الإسلام
الروح الذى هو من أمر الله ! الروح المتّصل بأزل الزمن وأبده ! هذا الروح ما عمل صالحا فلا حجاب بينه وبين وجه الله ولا سلطان لغير الله عليه . يستطيع الأغنياء

الفصل السادس

قصـــــة الغرانيـــــق

عود مهاجرى الحبشـة — الغرانيق العلا — تمسـك المستشرقين بقصتها — أسانيـدهم فى ذلك — ضعف هذه الأسانيد — القصة ظاهرة الكذب ينفيها التمحيص العلمى

عـود مهاجرى الحبشـة

أقام المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة ثلاثة أشهر أسلم أثناءها عمر بن الخطاب، وعلم هؤلاء المهاجرون ما حدث على أثر إسلامه من رجوع قريش عن إيذائها محمدا ومن اتّبعه، فعاد كثير منهـم فى رواية، وعادوا كلّهم فى رواية أخرى إلى مكة. فلمـا بلغوها رأوا قريشا عادت إلى إيذاء المسلمين وإلى الإمعان فى عداوتهم أشدّ ممـا عرف هؤلاء المهاجرون من قبلُ. فعاد منهم إلى الحبشة من عاد، ودخل مكة من دخل مستخفيًا أو بجِوار. ويقال: إن الذين عادوا استصحبوا معهم عددا آخر من المسلمين أقاموا بالحبشـة إلى ما بعـد الهجرة وإلى حين اسـتتباب الأمر للمسلمين بالمدينة.

أىّ داع حفَز مسلمى الحبشة إلى العودة بعـد ثلاثة أشهر من مُقامهم بهـا؟ هنا يرد حديث الغرانيق الذى أورده ابن سعد فى طبقاته الكبرى والطبرى فى تاريخ الرسـل والملوك، كما أورده كثيرون من المفسّرين المسلمين وكتّاب السيرة، والذى أخذ به جماعة المستشرقين ووقفوا يؤيّدونه طويلا. وحديث الغرانيق: أنّ محمدا لمّـا رأى تجنُّب قريش إيّاه وأذاهم أصحابه تمنّى فقال: ليته لا ينزل علىّ شىء ينفِّرهم منى؛ وقارب قومَه ودنا منهم ودنَوْا منه. فجلس يوما فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ (١). فقرأ بعد ذلك: تلك الغرانيق العلا. وإن شفاعتهن لترتجى.

الغرانيق العلا

(١) آيتى ١٩ و ٢٠

ووقيعة فيهم . فلما رآهم هاجروا الى الحبشة و رأى النجاشي حماهم، شـعَر لفراقهم بوحشة ، و بمـا لفراقهم وطنهم من ألم ، يحزّ فى الكبد و يَفْرِى المهجة . وكان محمد يوما مجتمعا مع أصحابه الذين لم يهاجروا فى بيت عند الصفا ، ومن بينهم عمّه حمزة وابن عمـه علىّ بن أبى طالب وأبو بكر بن أبى قُحافة وغيرهم من سائر المسـلمين . وعرف عمر اجتماعهم ، فقصد اليهم يريد أن يقتل محمدا كى تستريح قريش وتعود اليها وحدتُها بعد أن فرّق أمرَها وسفَّه أحلامها وعاب آلهتها . ولقيه نُعَيْم بن عبد الله فى الطريق وعرف أمره فقال له : «والله لقد غشّتك نفسك من نفسك يا عمر! . أتُرى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمدا ؟ ! أفلا ترجع الى أهل بيتك وتُقيم أمرهم! » . وكانت فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما . فلما عرف عُمر من نُعَيْم أمْرَهما كرّ راجعا اليهما ودخل البيت عليهما، فاذا عندهما من يقرأ عليهما القرآن . فلما أحسّوا دنوَّ داخلٍ عليهم اختفى القارئ وأخفت فاطمة الصحيفة . وسأل عمر : ما هذه الهَيْنمةُ التى سمعتُ؟ . فلما أنكرا صاح بهما : لقد علمتُ أنكما تابعتما محمدا على دِينه؛ و بطَش بسعيد . فقامت فاطمة تحمى زوجها فضربها فشجّها . فهاج إذ ذاك هائج الزوجين وصاحا به : نعمْ! أسلمنا، فاقضِ ما أنت قاضٍ . واضطرب عمـر حين رأى ما بأُخته من الدم، وغلبـه برّه وعطفه فآرعوى وسأل أُختـه أن تعطيه الصحيفة التى كانوا يقرءون . فلما قرأها تغيّر وجهه وأحسّ الندم على صنيعه، ثم اهتزّ لمـا قرأ فى الصحيفة وأخذه إعجازها وجلالها وسموّ الدعوة التى تدعو اليها ، فزاد جانبُ البرّ غلبةً عليه . وخرج وقد لان قلبه واطمأنّت نفسه ؛ فقصد الى مجلس محمد وأصحابه عند الصفا، فآستأذن وأعلن إسلامه، فوجد المسلمون فيه وفى حمزة للإسلام مَنَعَةً وللسلمين حِمًى .

وفتّ إسلامُ عمر فى عَضُد قريش ، فأْتمرتْ مرّةً أخرى ما تصنع . والحقّ أن هذا الحادث عزّز المسلمين بعنصر جديد قوىٍّ غاية القوّة جعل موقف قريش منهم وموقفهم من قريش غير ما كان ، واستتبع بين الطرفين سياسة جديدة مليئة بأحداث وتضحيات وقُوًى جديدة أدّت الى الهجرة والى ظهور محمد السياسىّ الى جانب محمد الرسول .

حجج مؤيديه

من وضع الزنادقة . لكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تسـويغه فاستندوا الى الآيات : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ... ﴾ . والى قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (١) . ويفسر بعضهم كلمة "تمنّى" في الآية بمعنى قرأ . ويفسرها آخرون بمعنى الأمنية المعروفة . ويذهب هؤلاء وأولئك، ويتابعهم المستشرقون، الى أن النبيّ بلغ منه أذى المشركين أصحـابه إذ كانوا يقتلون بعضهم ويُلقون بعضا في الصحراء يلفَحهم لظى الشمس المحرقة وقد أوقروهم بالحجارة كما فعلوا ببلال ، حتى اضطُرّ الى الإذن لهم في الهجرة الى الحبشـة، كما بلغ منه جفاء قومه إيّاه وإعراضهم عنه . ولمـا كان حريصا على إسلامهم ونجاتهم من عبادة الأصنام، تقرّب اليهم وتلا سـورة النجم وأضاف اليها حكاية الغرانيق ، فلما سجـد سجدوا معه وأظهروا له الميل لاتّباعه ما دام قد جعل لآلهتهم نصيبا مع الله .

ويضيف سير وليم موير الى هذه الرواية التي وردت في بعض كتب السـيرة وكتب التفسير ، حجـة يراها قاطعة بصحة حديث الغرانيـق . ذلك أن المسلمين الذين هاجروا الى الحبشـة لم يك قد مضى على هجرتهم اليها غير ثلاثة أشهر أجارهم النجاشي أثناءها وأحسن جوارهم . فلو لم يكن قد ترامى اليهم خبر الصلح بين محمد وقريش لمَـا دفعهم دافع الى العـود حرصا على الاتّصال بأهلهم وعشائرهم . وأنّى يكون صلح بين محمد وقريش إذا لم يسعَ محمد اليه وقد كان في مكة أقل نفرًا وأضعف قوة، وقد كان أصحابه أعجز من أن يمنعوا أنفسهم من أذى قريش ومن تعـذيبهم إياهـــم ! .

دفع هـذه الحجج

هـذه هي الحجج التي يسـوقها من يقولون بصحة حديث الغرانيـق . وهي حجج واهية لا تقوم أمام التمحيص . ونبدأ بدفع حجة المستشرق موير . فالمسلمون

(١) سورة الحج آيتا ٥٢ و ٥٣

ثم مضى وقرأ السورة كلها وسجد فى آخرها . هنالك سجد القوم جميعا لم يتخلّف منهم أحد . وأعلنت قريش رضاها عما تلا النبىّ وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ، ولكنّ آلهتنا هذه تشفع لنا عنده . أمّا إذ جعلتَ لها نصيبا فنحن معك . وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم . وفشا أمر ذلك فى الناس حتى بلغ أرض الحبشة . فقال المسلمون بها : عشائرنا أحبُّ إلينا ، وخرجوا راجعين ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبًا من كنانة فسألوهم فقالوا : ذكر آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم ارتدّ عنها فعاد لشتم آلهتهم وعادوا له بالشرّ . وأُتمر المسلمون ما يصنعون ، فلم يُطيقوا عن لقاء أهلهم صبرًا فدخلوا مكة .

وإنما ارتد محمد عن ذكر آلهة قريش بالخير فى مختلف الروايات التى أثبتت هذا الخبر لأنه كبُر عليه قول قريش : « أمّا إذ جعلت لآلهتنا نصيبا فنحن معك » ، ولأنه جلس فى بيته حتى إذا أمسى أتاه جبريل فعرض النبىّ عليه سورة النجم فقال جبريل : أوَ جئتُك بهاتين الكلمتين؟ ! ! مشيرا إلى "تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى". قال محمد : قلتُ على الله مالم يقل . ثم أوحى الله إليه : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (١) . وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشر ويسبّهم ، وعادت قريش لمناوأته وإيذاء أصحابه .

تهافت حديث الغرانيق

هذا حديث الغرانيق ، رواه غير واحد من كتّاب السيرة ، وأشار اليه غير واحد من المفسّرين ، ووقف عنده كثيرون من المستشرقين طويلا . وهو حديث ظاهر التهافت ينقضه قليل من التمحيص . وهو بعدُ حديث ينقض ما لكل نبىّ من العصمة فى تبليغ رسالات ربه . فمن عجبٍ أن يأخذ به بعض كتّاب السيرة وبعض المفسّرين المسلمين . ولذلك لم يتردّد ابن إسحاق حين سئل عنه فى أن قال : إنه

(١) سورة الاسراء الآيات من ٧٣ الى ٧٥

معهم من استطاع اللّحاق بهم . وقد وجدوا هــذه المرة عَنَتاً من قريش إذ حاولت أن تمنعهم من الهجرة .

ليس الصلح الذى يشير اليه المستشرق موير، هو إذاً الذى دعا المسلمين الى العودة من بلاد الحبشة ، إنما هى هــذه الهدنة التى حدثت على أثر إســلام عمر وحماسته فى تأييد دين الله . فتأييد حديث الغرانيق بحجة الصلح تأييد إذاً غير ناهض .

الاحتـــجاج بالآيات مقلوب

أمّا احتجاج المحتجين من كتّاب السيرة والمفسرين بالآيات : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ...﴾ و ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ ...﴾ فهو احتجاج أشـدّ تهافتا من قصة السير موير . ويكفى أن نذكر فى الآيات الأولى قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ لنرى أنه إن كان الشيطان قد ألقى فى أمنيّة الرسول حتى لقد كاد يركن اليهم شـيئا قليلا فقد ثبّته الله فلم يفعل، ولو أنه فعل لأذاقه الله ضعف الحياة وضعف الممات . وإذاً فالاحتجاج بهذه الآيات احتجاج مقلوب . فقصة الغرانيق تجرى بأن محمدا ركن الى قريش بالفعل وأن قريشاً فتنته بالفعل فقال على الله مالم يقل . والآيات هنا تفيد أن الله ثبّته فلم يفعل . فاذا ذكرت كذلك أن كتب التفسير وأسباب النزول جعلت لهذه الآيات موضعا غير مسألة الغرانيق، رأيت أن الاحتجاج بها فى مسألة تتنافى وعصمة الرسل فى تبليغ رسالاتهم وتتنافى وتاريخ محمد كله، احتجاج متهافت، بل احتجاج سقيم .

أمّا الآيات : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ...﴾ فلا صلة لها بحديث الغرانيق البتّة، فضلا عن ذكرها أن الله ينسخ ما يُلقى الشيطان ويجعله فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، ويُحكم الله آياته والله عليم حكيم .

تهافت القصة علميا

وندع هذا الى تمحيص القصة التمحيص العلمى الذى يُثبت عدم صحتها . وأوّل مايدلّ على ذلك تعـدّد الروايات فيها . فقد رويت ، كما سـبق القول ، على أنها : "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى" . ورواها بعضهم : «الغرانقة العلا . إن شفاعتهن ترتجى» . وروى آخرون "إن شفاعتهن ترتجى" دون ذكر الغرانقة

تعدّد الروايات فيها

أسباب عود المهاجرين الى الحبشة

الذين عادوا من الحبشة إنما دفعهم الى العود الى مكة سببان : أوّلها أن عمر بن الخطاب أسلم بعد هجرتهم بقليل. وقد دخل عمر فى دين الله بالحمية التى كان يحارب به من قبلُ بها : لم يُخْفِ إسلامَه ولم يستتر بل ذهب يعلنه على رءوس الملأ ويقاتلهم فى سبيله ؛ ولم يرض عن استخفاء المسلمين وتسلُّلهم الى شِعاب مكة يقيمون الصلاة

١ — إسلام عمر

فيها بعيدين عن أذى قريش ، بل دأب على نضال قريش حتى صلّى عند الكعبة وصلّى المسلمون معه . هنالك أيقنت قريش أن ما تنال به محمدا وأصحابه من الأذى يُوشك أن يثير حربا أهليّة لا يعرف أحدٌ مداها ولا على من تدور دائرتها . فقد أسلم من مختلف قبائل قريش وبيوتاتها رجال تثور لقتل أى واحد منهم قبيلته وإن كانت على غير دينه . فلا مفرّ إذًا من الالتجاء فى محاربة محمد الى وسيلة لا يترتّب عليها هذا الخطر . والى أن تتفق قريش على هذه الوسيلة هادنت المسلمين فلم تنل أحدا منهم بأذى . وهذا هو ما اتّصل بالمهاجرين الى الحبشة ودعاهم الى التفكير فى العود الى مكة .

٢ — ثورة الحبشة

وربما تردّدوا فى هذا العود لو لم يكن السبب الثانى الذى ثبَّت عزمهم . ذلك أن الحبشة شبَّت بها يومئذ ثورة على النجاشى ، كان دينه وكان ما أبدى من عطف على المسلمين بعض ما أذيع فيها من تهم وجِّهت اليه . ولقد أبدى المسلمون أحسن الأمانى أن ينصر الله النجاشى على خصومه ؛ لكنهم لم يكونوا ليشاركوا فى هذه الثورة وهم أجانب ، ولم يك قد مضى على مُقامهم بالحبشة غير زمن قليل . أمّا وقد ترامت اليهم أنباء الهدنة بين محمد وقريش هدنة أنجت المسلمين مما كان يصيبهم من الأذى ، فخير لهم أن يَدَعوا الفتنة وراء ظهورهم وأن يلحقوا بأهليهم . وهذا ما فعلوه كلهم أو بعضهم . على أنهم ما كادوا يبلغون مكة حتى كانت قريش قد ائتمرت ما تصنع بمحمد وأصحابه ، واتّفقت عشائرها وكتبوا كتابا تعاقدوا فيه على مقاطعة بنى هاشم مقاطعة تامّة ؛ فلا يَنكحوا اليهم ولا يُنكحوهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم . وبهذا الكتاب عادت الحرب العَوان بين الفريقين ورجع الذين عادوا من الحبشة وذهب

صدق محمد يأبى صحة القصـــة

بقيت حجـة قاطعة نسوقها للدلالة على استحالة قصة الغرانيق هـذه من حياة محمد نفسه . فهو منـذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرّب عليه الكذب قطُّ حتى سُمِّى الأمين ولمّـا يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . وكان صـدقه أمرا مسلَّما به عند النـاس جميعا ، حتى لقد سأل قريشا يوما بعد بعثه : أرأيتكم لو أخبرتُكم أن خيلا بسفح هـذا الجبل أكنتم تصدِّقونى . فكان جوابهم : نعم ! أنت عندنا غير متّهم وما جرّبنا عليك كذبا قط . فالرجل الذى عُرف بالصـدق فى صِلاته بالناس منذ نعومة أظفاره الى كهولته كيف يصدّق إنسان أنه يقول على ربّه ما لم يقل ، ويخشى الناسَ والله أحقّ أن يخشاه ! . هـذا أمر مستحيل يُدرك استحالته الذين درسوا هذه النفوس القويّة الممتازة التى تعرف الصلابة فى الحق ولا تداجى فيه لأىّ اعتبار . وكيف ترى يقول محمد لو وضعت قريش الشمس فى يمينه والقمر فى شمـاله على أن يترك هـذا الأمر أو يموت دونه ما فعل ، ثم يقول على الله ما لم يوح اليه ، ويقوله لينقض به أساس الدِّين الذى بعثه الله به هدًى وبشرى للعالمين ! .

ومتى رجع الى قريش ليمدح آلهتهم ! بعـد عشر سنوات او نحوها من بعثه ، وبعد أن احتمل هو وأصحابه فى سبيل الرسالة من ألوان الأذى وصنوف التضحية ما احتمل ، وبعد أن أعزّ الله الإسلام بحمزة وعمر ، وبعد أن بدأ المسلمون يصبحون قوّة بمكة ، ويمتـدّ خبرهم الى بلاد العـرب كلها والى الحبشـة والى مختلف نواحى العالم . إنّ القول بذلك حديث خرافة وأُكذوبة ممجوجة . ولقـد شعر الذين اخترعوها بسهولة افتضاحها ، فأرادوا سـترها بقولهم : إن محمدا ما كاد يسمع كلام قريش إذ جعل لآلهتهم نصيبا فى الشفاعة حتى كبُر ذلك عليه ، وحتى رجع الى الله تائبا أوّل ما أمسى ببيته وجاءه جبريل فيه . لكن هذا السَّتْر أحرى أن يفضحها . فما دام الأمر قد كان كبُر على محمد منـذ سمع مقالة قريش ، فما كان أحراه أن يراجع الوحى لساعته ! وما كان أحراه أن يُجْرِىَ الوحىُ الصـوابَ على لسانه ! . وإذًا فلا أصل لمسألة الغرانيق إلا الوضع والاختراع قامت بهما طائفة الذين أخذوا أنفسهم بالكيد للإسلام ، بعد انقضاء الصدر الأوّل .

أو الغرانيق . وفى رواية رابعة : "وإنها لهى الغرانيق العلا" . وفى رواية خامسة : «وإنهن لهن الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى» . وقد وردت فى بعض كتب الحديث روايات أخرى غير هذه الروايات الخمس . وهذا التعدّد فى الروايات يدل على أن الحديث موضوع ، وأنه من وضع الزنادقة ، كما قال ابن إسحاق ، وأن الغرض منه التشكيك فى صدق تبليغ محمد رسالات ربه .

سياق سورة النجم يأباها

ودليل آخر أقوى وأقطع ، ذلك سياق سورة النجم وعدم احتماله لمسألة الغرانيق . فالسياق يجرى بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى . أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى(١)﴾ . وهذا السياق صريح فى أن اللّات والعزّى أسماء سمّاها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان . فكيف يحتمل أن يجرى السياق بما يأتى : "أفرأيتم اللّات والعزّى . ومناة الثالثة الأخرى . تلك الغرانيق العلا . إن شفاعتهنّ لترتجى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذًا قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان"! إن فى هذا السياق من الفساد والاضطراب والتناقض ، ومن مدح اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى وذمّها فى أربع آيات متعاقبة ما لا يسلّم به عقل ولا يقول به إنسان ، وما لا تبقى معه شبهة فى أن حديث الغرانيق مفترى وضعه الزنادقة لغاياتهم ، وصدّقه من يسيغون كل غريب ومن تقبل عقولهم ما لا يسيغ العقل المنطقىّ .

الحجة اللغوية

وحجة أخرى ساقها المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده حين كتب يفنّد قصة الغرانيق . تلك أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق لم يرد فى نظمهم ولا فى خطبهم ، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جاريا على ألسنتهم ، وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنه اسم لطائر مائىّ أسود أو أبيض ، والشابّ الأبيض الجميل . ولا شىء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب .

(١) الآيات من ١٨ الى ٢٣

الفصل السابع

مساءات قريش

إعلان عمر إسلامه وصلاة المسلمين عند الكعبة — صحيفة المقاطعة — جهود قريش فى محاربة محمد — سلاح الدعاية — سحر البيان — جبر النصرانى — تأثر قريش بالدعوة الجديدة — الطفيل الدوسى — وفد النصارى — ما منع قريشا أن تتابع محمدا ! — المنافسة — الخوف على مكانة مكة — الفزع من البعث

فَتّ إسلام عمر فى عضد قريش أن دخل فى دين الله بالحميّة التى كان يحاربه من قبلُ بها . لم يُخْفِ إسلامه ولم يستتر بل ذهب يعلنه على رءوس الملأ ويقاتلهم فى سبيله . ولم يرض عن آستخفاء المسلمين وذهابهم الى شِعاب مكة يُقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قريش ، بل دأب على نضال قريش حتى صلّى عند الكعبة وصلّى المسلمون معه . وأيقنت قريش أن ما تنال به محمدا وأصحابه من الأذى لن يحول دون إقبال الناس على دين الله ليحتموا من بعد ذلك بعمر وحمزة أو بالحبشة أو بمن يقدر على حمايتهم؛ فأْتمرت من جديد ما ذا تصنع ، واتّفقوا فيما بينهم وكتبوا كتابا تعاقدوا فيه على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب مقاطعة تامة ، فلا يَنكحوا اليهم ولا يُنكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم . وعلّقوا صحيفة هذا العقد فى جوف الكعبة توكيدا لها وتسجيلا . وكان أكبر ظنهم أن هذه السياسة السلبيّة، سياسة التجويع والمقاطعة ، ستكون أفعل أثرا من سياسة الأذى والإعنات، وإن لم ينقطعوا عن الإعنات ولا عن الأذى . وأقامت قريش على حصار المسلمين وحصار بنى هاشم وبنى عبد المطّلب سنتين أو ثلاثا ، كانت ترجو خلالها أن تصل من محمد إلى اعتزال قومه إيّاه، فيعود وحيدا ولا يبقى له ولا لدعوته من خطر .

فأمّا محمد فلم يزده ذلك إلا اعتصاما بحبل الله ، ولم يزد أهله والذين آمنوا به إلا ذودا عنه وعن دين الله، ولم يَحُلْ دون انتشار الدعوة إلى الإسلام انتشارا خرج

افتراء على التوحيد

وأعجب ما فى جرأة هؤلاء المفترين أنهم عرضوا للافتراء فى أتم مسائل الإسلام جميعا : فى التوحيد ؛ فى المسألة التى بعث محمد لتبليغها للناس منذ اللحظة الأولى ، والتى لم يقبل فيها منذ تلك اللحظة هوادة ، ولا أماله عنها ما عرض عليه قريش أن يعطوه ما يشاء من المال أو يجعلوه ملكا عليهم . وعرضوا ذلك عليه حين لم يكن قد اتّبعه من أهل مكة إلا عدد يسير . وما كان أذى قريش لأصحابه ليجعله يرجع عن دعوةٍ أمره ربه أن يبلِّغها للناس . فاختيار المفترين لهذه المسألة التى كانت صلابة محمد فيها غاية ما عُرف عنه من الصلابة ، تدلّ على جرأة غير معقولة ، وتدلّ فى نفس الوقت على أن الذين مالوا إلى تصديقهم قد خُدعوا فيما لا يجوز أن يُخْدَع فيه أحد .

لا أصل إذاً لمسألة الغرانيق على الإطلاق ، ولا صلة البتّة بينها وبين عودة المسلمين من الحبشة . إنما عادوا ، كما قدّمنا ، بعد أ ، سلم عمر ونصر الإسلامَ بمثل الحميّة التى كان يحاربه من قبلُ بها ، حتى اضطُرّت قريش لمهادنة المسلمين . وعادوا حين شبت الثورة فى بلاد الحبشة ثورة خافوا مغبّتها . فلما علمت قريش بعودتهم ازدادت مخاوفها أن يعظُم أمر محمد بهم ، فأتمرت ما تصنع . وقد انتهت بوضع الصحيفة التى قرّروا فيها فيما قرروا ألّا ينكحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم ؛ كما أجمعوا فيما بينهم أن يقتلوا محمدا إن استطاعوا .

وتوهين لحجة الخَصْم ، واستعلاء بالدليل على دليله . الدعاية على العقيدة وعلى صاحب العقيدة واتّهامه فيها واتّهامها لذاتها . الدعاية التى لا تقف عند حدود مكة والتى لم تكن مكة بحاجة اليها كحاجة البادية وقبائلها وشبه الجزيرة وسائر أهلها . كان التهديد والإغراء والإرهاب والتعذيب بعض ما يُغنى عن الدعاية فى مكة . لكنها لم تكن لتُغنى عنها شيئا عند الألوف الذين يفِدون إلى مكة كل عام فى التجارة والحج ، والذين يجتمعون فى أسواق عُكَاظ ومَجَنّة وذى المَجَاز ليحجّوا الى الكعبة بعد ذلك مقرِّبين إلى أصنامهم ناحرين عندها ملتمسين منها البركة والمغفرة . لذلك فكرت قريش منذ آستحرت الخصومة بينها وبين محمد فى تنظيم الدعاية عليه . وكانت فى تفكيرها هذا أشد إمعانًا منذ فكّر هو فى مبادأة الحاجّ بدعوتهم الى عبادة الله وحده لا شريك له . وهو قد فكر فى هذا بعد السنين الأولى من بعثه . فهو قد بدأ نبيًّا منذ بعثه إلى أن جاءه الوحى أن ينذر عشيرته الأقربين . فلما أنذر قريشا وأسلم منها من أسلم وألحّ فى الكفر والعناد من ألحّ ، أُلقِىَ عليه أن يدعو قومه العرب جميعا ، ليُلْقَى عليه من بعد ذلك أن يدعو الناس كافّة .

لمّا فكر فى مبادأة الحاجّ من مختلف قبائل العرب بالدعوة الى الله اجتمع نفر من قريش الى الوليد بن المُغيرة يتشاورون ما ذا عسى أن يقولوا فى شأن محمد للعرب القادمين إلى موسم الحج ، حتى لا يختلف بعضهم على بعض ويكذّب بعضهم بعضا . واقترح بعضهم أن يقولوا : إن محمدا كاهن ، فردّ الوليد هذا الرأى أن ليس مايقول محمد بزَمْزَمة[1] الكاهن ولا بسَجْعه . واقترح آخرون أن يزعموا أن محمدا مجنون ، فردّ الوليد هذا الرأى بأنه لا تبدو عليه لهذا الزعم ظاهرة . واقترح غيرهم أن يتّهموا محمدا بالسحر ، فردّ الوليد بأن محمدا لا ينفُث فى العُقَد ولا يأتى من عمل السَّحَرة شيئا . وبعد حوار اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحاجّ من العرب : إن هذا الرجل ساحر البيان ، وإن مايقوله سحر يفرّق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء

اتهام محمد بسحر البيان

(١) الزمزمة : الكلام الخفىّ .

بها من حدود مكة . وذاع أمر الدعوة بين العرب وقبائلها بما جعل الدين الجديد يفشو ذكره فى شبه الجزيرة بعد أن كان حبيسا بين جبال مكة، وما جعل قريشا تزيد إمعانا فى تفكيرها كيف تحارب هـذا الذى خرج عليها وسبّ آلهتها، وكيف تقف دون انتشار دعوته بين قبائل العرب ، هـذه القبائل التى لا غنى لمكة عنها ولا غنى لها عن مكة فى التجارة المتصلة التى تصدر عن أمّ القرى وترِد اليها .

سلاح الدعاية

ولقد كان ما بذلت قريش من مجهود فى محاربة هـذا الخارج عليها وعلى دينها ودين آبائها، وما ثابرت وصابرت السنين الطوال للقضاء على هذه الدعوة الجديدة، يعدو مايتصوّره العقل . هدّدت محمدا وهدّدت أهله وأعمامه . تهكمت به وبدعوته وسخِرت منـه وممّن اتّبعه . أرسلت شـعراءها تهجوه وتفرى أديمه . نالته بالأذى ونالت من اتّبعه بالسوء والعذاب . عرضت عليـه الرشوة وعرضت عليـه الملك وعرضت عليه كل ما يطمع الناس فيه . شرّدت أنصاره عن أوطانهم وأصابتهم فى تجارتهم وفى أرزاقهم . أنذرته وأنذرتهم الحرب وأهوالها وما تجنى وما تدمّر . وهاهى ذى تحاصرهم أخيرا لتُميتهم جوعا إن استطاعت إلى ذلك سبيلا . ومع ذلك ظلّ محمد يشـتدّ فى دعوة الناس بالحسنى إلى الحق الذى بعثـه الله به للناس بشيرا ونذيرا . أفآنَ لقريش أن تُلقى سلاحها وأن تصدّق الأمين الذى عرفته منذ طفولته وكل صباه وشبابه أمينا ؟ ! أم أنها لجأت إلى سلاح غير ما قدّمنا من أسلحة النضال وخيِّل اليها أنها مستطيعة به أن تكسِب الموقعة، وأن تستبقى لأصنامها مكانة الألوهية التى تزعمها ، وأن تستبقى بمكة مُتحفَ هذه الأصنام ومكانَ قدسيتها وكلَّ ما ينالها بسبب هذه الأصنام من قدسية ؟ !

كلّا ! لم يَأْنِ لقريش أن تُذْعِن وأن تُسلم . وهى الآن أشـد ما تكون خوفا من انتشار دعوة محمد بين قبائل العرب بعد أن انتشرت بمكة . وقد بقى لديها سلاح لجأت اليه منذ الساعة الأولى ولا يزال لها فى قوّته وفى مَضائه مطمع . ذلك سلاح الدعاية . الدعاية بكل ما تنطوى عليه من مجادلة وحجج ومهاترة وترويج إشاعات

الواضحة البسيطة التى صوّر فيها على لسان محمد كانت تعلو على ما يقولون ، وما تفتأ لذلك تزداد كل يوم بين العرب انتشارا . قدِم الطُّفَيل بن عمرو الدَّوْسيّ مكة ، وكان رجلا شريفا شاعرا لبيبا ، فمشت اليه قريش تحذِّره محمدًا وأن قوله كالسحر يفرّق بين المرء وأهله ، بل بين المرء ونفسه ، وأنهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكة ، وأنّ الخير فى ألّا يكلّمه ولا يستمع اليه . وذهب الطفيل يوما الى الكعبة ، وكان محمد هناك ، فسمع بعض قوله فاذا هو كلام حسن ؛ فقال فى نفسه : « وَاثُكْلَ أُمِّى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ! فإن كان حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته » . واتّبع محمدا الى بيته وأظهره على أمره وما دار بنفسه ؛ فعرض محمد عليه الإسلام وتلا عليه القرآن ، فأسلم وشهد شهادة الحق ، ورجع الى قومه يدعوهم الى الإسلام ، فلبّاه بعضهم وأبطأ بعض ؛ وما زال الطُّفيل بهم يدعوهم سنين متعاقبة حتى أسلم أكثرهم وانضمّوا الى النبيّ بعد فتح مكة وبعد أن بدأ النظام السياسيّ يأخذ فى الإسلام صورة معيّنة .

الطفيل بن عمرو الدوسى

وليس الطفيل الدَّوْسى إلّا مثلا من كثير . ولم يكن عبّاد الأصنام وحدهم هم الذين يستجيبون الى دعوة محمد . قدِم عليه وهو بمكة عشرون رجلا من النصارى حين بلغهم خبره ، فجلسوا اليه وسألوه واستمعوا له فاستجابوا وآمنوا به وصدّقوه ، ممّا غاظ قريشا حتى سبّوهم وقالوا لهم : « خيّبكم الله من رَكْبٍ ! . بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئنّ مجالسُكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه بما قال ! » . ولم تثنِ مقالة قريش هذا الوفد عن متابعة محمد ولم تردّه عن الإسلام ، بل زادتهم بالله إيمانا على إيمانهم إذ كانوا نصارى وإذ كانوا من قبل أن يستمعوا إلى محمد لله مسلمين .

النصارى

بل لقد بلغ من أمر محمد ما هو أعظم من هذا . بدأ أشدّ قريش خصومة يسائلون أنفسهم : أحقًّا أنه يدعو إلى الدين القيّم وأن ما يَعِدهم وما يُنذرهم هو

أبو سفيان وأبو جهل والأخنس

وزوجه وبين المرء وعشيرته . وكان لهم عند العرب من الحجة على قولهم هذا ما أصابهم فى مكة من فرقة وتخاذل وتناحر ، بعـد أن كانت مكة مضرب المثـل فى العصبية وفى قوّة الرابطـة . وانطلقت قريش فى الموسم تحـذّر الحاجّ الاستماعَ الى هـذا الرجل وسحر بيانه حتى لا يصيبها ما أصاب مكة ، فتكون فتنة تصـلَى نارَها جزيرة العرب جمعاء .

النضر بن الحارث

لكن دعاية كهذه لا يمكن أن تقوم وحدها أو تقـاوم سحر هـذا البيان الذى يومئون اليه . فاذا جاء الحقّ فى هذا البيان الساحر فمـا يمنع الناس أن يؤمنوا به؟! وهـل كان الاعتراف بالعجز وتـبريز الخصم دعاية ناجعـة فى يوم من الأيّام ؟ ! فلتكن لقريش الى جانب هذه الدعاية دعاية أخرى . ولتلتمس قريش هذه الدعاية عند النَّضْر بن الحارث . وقد كان هذا النَّضْر من شياطين قريش . وكان قد قدِم الحِيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وعباداتها وأقوالها فى الخير والشرّ وفى عناصر الكون . فأخذ كلمـا جلس محمد مجلسا يدعو فيـه قومه الى الله ويحذّرهم عاقبـة ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم التى أعرضت عن عبادة الله ، يخلُف محمدا فى مجالسه ويقصّ على قريش حديث فارس ودينها ثم يقول : بمـاذا يكون محمد أحسن حديثا منّى ! . أليس محمد يتلو من أساطير الأوّلين ما أتلو ! . وكانت قريش تذيع أحاديث النضر من طريق الرواية دعاية على ما ينذر محمد الناس به ومايدعوهم اليه .

جبر النصرانى

وكان محمد يُكثر من الجلوس عند المروة الى مبيعة غلام نصرانى يقال له جبر، فكانت قريش تزعم أن جبرا النصرانىّ هذا هو الذى يعلّم محمدا أكثر ما يأتى به ، فاذا كان لأحد أن يخـرج على دين آبائه فالنصرانيـة أولى . وروّجت قريش لزعمها هذا ، فنزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَـا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ ﴾ (١) .

بهـذه الضروب وأمثالها من الدعاية جعلت قريش تحارب محمدا ترجو أن تبلغ بها منه أكثر مما يبلغ منه الأذى وممن اتّبعه العذاب . على أن قوة الحق فى الصورة

(١) سورة النحل آية ١٠٣

فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾(١) . فما دام ذلك أمره فما منع قريشا أن يتابعوه، وأن يعينوه على دعوته ؟ ! وبخاصة بعد إذ لانت قلوبهم ، وإذ أنستهم السنون ما تدفع إليه المحافظة على القديم البالى من جمود النفس ، وإذ رأوا فى دعوة محمد جلالا وكمالا ! .

النزوع إلى الكمال

ولكن ! أحقًّا أن السنين تُنْسِى النفوس جمودها ومحافظتها على القديم البالى ؟ إنما يكون ذلك عند الممتازين ومن فى قلوبهم نزوع دائم الى الكمال . هؤلاء ما يزالون حياتَهم كلها يقلّبون الحقائق التى آمنوا من قبل بها لينفوا ما يعلَق بها من زيف بالغةً ما بلغت تفاهته . وهؤلاء كأنّ قلوبهم وعقولهم بوتقة دائمة الغليان ؛ تتقبّل كل جديد من الرأى يُلْقَ إليها فتصهَره وتطهِّره وتنفى خَبَثه وتستبقى ما فيه من خير وحق وجمال . وهؤلاء يلتمسون الحقّ فى كل شيء وفى كل مكان وعلى كل لسان . بَيْدَ أنّهم فى كل أمة وعصر هم الصفوة المختارة ، وهم لذلك قلة أبدا . وهم يجدون الخصومة دائما ناشبة على أشدّها بينهم وبين ذوى المال والجاه والسلطان ؛ لأن هؤلاء يخافون من كل جديد أن يجنى على ما لهم أو جاههم أو سلطانهم ، وهم لا يعرفون غير هذه فى الحياة حقائق ملموسة . كل ما سوى هذه حقٌّ إذا هو أدّى الى مزيد منها، باطلٌ إذا بعث إلى أصحابها أيسر ظلّ من الريبة إزاءها . رب المال عنده أن الفضيلة حق إذا زادت فى ماله ، باطلٌ إذا حرَمته إياه، وأن الدِّين حق إذا عرف كيف يسخّره لشهواته، باطلٌ إذا وقف فى وجه هذه الشهوات وحطمها . ورب الجاه ورب السلطان فى ذلك كربّ المال سواء . وهؤلاء فى خصومتهم لكل جديد يخافون منه ، يَسْتعدُون السواد الذى يفيد منهم رزقَه على المنادى بهذا الرأى الجديد . وهم يستعدون السواد بتقديس الصروح القديمة التى نخر السوسُ فيها بعد أن فرّ الروح منها . وهم يقيمون هذه الصروح هيا كل من الحجر ليزعموا للسواد البرىء أنّ الروح المقدّس ، الذى لفّوه هم فى أكفانه ، ما برِح فى جلاله بين محبس هذه

(١) سورة عبس الآيات من ١ الى ١٦

الصحيح ؟ . خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخْنَس بن شَرِيق ليلة ليستمعوا إلى محمد وهو فى بيته، فأخذ كلٌّ منهم مجلسا يستمع فيه وكلٌّ منهم لا يعلم بمكان صاحبه . وكان محمد يقوم اللّيل إلا قليلا يرتّل القرآن فى هدوء وسكينة ، و يردّد بصوته العذب آياته القدسيّة على أوتار سمعه وقلبه . فلما كان الفجر تفرّق المستمعون عائدين إلى منازلهم؛ فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ! فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ولنصر محمدا عليكم . فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم فى مثل الموعد الذى ذهب فيه أمس كأنّ رجليه تَحْمِلانِه من غير أن يستطيع امتناعا ليقضى ليله حيث قضاه أمس، وليستمع إلى محمد يتلو كتاب ربه . وتلاقَوْا عند عودتهم مطلع الفجر وتلاوموا من جديد ، فلم يَحُلْ تلاومهم دون الذهاب فى الليلة الثالثة . فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف تعاهدوا ألّا يعودوا لمثل فَعلتهم وإن ترك ما سمعوا من محمد فى نفوسهم أثرا جعلهم يتساءلون فيما بينهم عن الرأى فيما سمعوا، وكلهم تضطرب نفسه ويخاف أن يضعُف وهو سيّد قومه فيضعف قومه و يتابعوا محمدا معه .

ما منعهم أن يتابعوا محمدا؟ إنه لا يريد منهم مالًا ولا فيهم سيادة ولا عليهم ملكا أو سلطانا ؛ وهو بعدُ رجلٌ جمّ التواضع شديد الحب لقومه والبرّ بهم والحرص على هداهم، شديد حساب النفس، حتى ليخشى إساءة المسكين والضعيف ، و يرى فى المغفرة لأذى يحتمله طمأنينةً لقلبه وراحةً لضميره . ألم يقف مع الوليد بن المغيرة يوما وقد طمع فى إسلامه، والوليد سيِّد من سادات قريش، فمرّ به ابن أم مكتوم الأعمى وجعل يستقرئه القرآن، وألحّ فى ذلك حتى شقّ على محمد إلحاحه، لما شغله عما كان فيه من أمر الوليد ، فتولّى عنه وانصرف عابسا ؛ فلما خلا الى نفسه جعل يحاسبها عن صنيعها و يسائلها أأخطأ ؟ حتى نزل عليه الوحى بهذه الآيات : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى . كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ .

عبس وتولى

فيما سمعنا من محمد؟! فكان جواب أبي جهـل : « ما ذا سمعت ؟ : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرَف، أطعَموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطَوْا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الرُّكَب وكنا كفَـرَسَىْ رِهانٍ قالوا مِنّا نبيّ يأتيه الوحى من السماء ! فمتى ندرك مثل هـذه؟ ! والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدّقه » . وللحسد والتنافس والتنازع فى هـذه النفوس البدوية من عميق الأثر ما يخطئ الإنسان اذا هو حاول الإغضاء عنـه أو لم يقـدره حق قدره . ويكفى أن نذكر ما لهذه الشهوات على النفوس جميعا من سـلطان ، لنقـدر أن التخلص من أثرها يجب أن يسـبقه تهـذيب طويل يصقل الفؤاد ويرفع حكم العقل على نزغات الهوى، ويسمو بالعاطفة وبالروح إلى مرقًى يجعلك ترى الحقيقة على لسان خَصْمك بل عدوّك هى الحقيقة على لسان حميمك ووليِّك، وتؤمن بأنك أكثر غنى بملك الحقيقة منك بمال قارون وجاه الإسكندر وملك قيصر . هذه مكانة قلّ من يصل اليها إلا من هدى الله قلبه للحقّ . أمّا سائر الناس فتُعميهم العاجلة من مال ونَشَب ويُعميهم الاستمتاع باللحظـة التى يعيشون فيها عن الارتفاع إلى هـذه المعانى . وهم فى سبيل هـذه العاجلة واقتناص تلك اللحظـة يحاربون ويقاتلون ، لا يحول شىء دون أن يُنشِب أحدهم أظفاره وأنيابه فى عنق الحقّ والخير والفضيلة، وأن يدوس تحت أقدامٍ دَنِسة أطهر معانى الكمال . ما بالك بهؤلاء العرب من قريش وهم يرون محمدا يزداد أنصاره كل يوم عددا، ويخشَوْن يوما يكون فيـه للحق الذى يعلنه السلطان عليهم وعلى من يدين لهم بالطاعة ، ويمتـدّ من وراء ذلك إلى العرب فى مختلف أنحاء الجزيرة ! . دون هذا قطُّ الرقاب إذا استطاعوا قطّها . ودون هذا الدعاية والمقاطعة والحصار والتعذيب والتنكيل يصبّونه على هام خصومهم صبًّا .

الفزع من البعث والحساب

وسبب ثالث منع قريشا من متابعة محمد . ذلك فزعهم من البعث ومن عذاب جهنّم يوم الحساب . فقد رأيتهم قوما مكبّين على اللّهو مسرفين فيه يتّخذون من التجارة ومن الرِّبا إليه الوسيلة، ولا يرى الغنىّ منهم فى شىء من الأشياء رذيلة يتجافى عنهـا . ثم كان لهم من التقـرّب إلى أصنامهم ما يزعمون أنه يكفّر عن سيئاتهـم

الهياكل . والسواد ينصرهم أكثر الأمر؛ لأنه ينظر قبل كل شيء إلى رزقه، ولا يسهل عليه أن يدرك أن أيّة حقيقة لا تطيق أن تبقى حبيسة بين جدران معبد من المعابد بالغا ما بلغ جمـاله وجلاله، وأن فى طبع الحقيقة أن تكون حرّة طليقة تغزو النفوس وتغذوها، لا تفرق فيها بين نفس سيّد ونفس عبـد، ولا يقف نظام من النظم فى سبيلها بالغة ما بلغت قسوته و بطشُ أصحابه فى حمايته. فكيف تريد من هؤلاء الذين كانوا يتسلّلون لِواذًا يستمعون الى القرآن أن يؤمنوا به وهو يؤاخذهم فى كثير ممّـا يرتكبون، وهو لا يفـرِّق بين الأعمى ومن آسـتغنى بكثرة المـال بل بطهارة النفس، وهو ينادى النـاس جميعا : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1] . فاذا ظل أبو سفيان ومن معه على دين آبائهم فليس ذلك إيمـانا منهـم به أو بحق يحتويه، بل هو حرص على نظـام قديم أقامه ثم أفاء الحظّ عليهـم فى ظلّه من بسطة المـال والجاه ما يحرِصون عليه ويحاربون الحياة كلها دونه .

ما منعهم أن يتابعوا محمدا

الحسد والتنافس

وإلى جانب هذا الحرص كان يقوم الحسد والتنافس والتنازع مانعا من إقبال قريش على متابعة النبيّ . كان أمية بن أبى الصَّلْت ممن حدّثوا عن نبيّ يقـوم فى العرب قبل ظهور محمد حتى طمِع هو فى النبوّة؛ وأكلت قلبه الغَيْرة حين لم ينزل الوحى عليه، فلم يرض أن يتابع من ظنه منافسـه مع غلبة الحكمة على شعره، حتى قال عليه السلام يوما وهذا الشعر يُروى أمامه : " أُميّة آمن شعرُه وكفر قلبه " . وكان الوليـد بن المغيرة يقول : " أَيُنَزَّل على محمد وأُترك أنا كبيرَ قريش وسـيِّدَها ويُترك أبو مسعود عَمْرو بن عُمَير الثقفيّ سيّد ثقيف ونحن عظيما القريتين " . وإلى هذا يشـير قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَـةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[2] . ولمـا استمع أبوسفيان وأبوجهل والأخنس إلى القرآن ثلاث ليال متتابعة فى القصة التى روينا، ذهب الأخنس إلى أبى جهل فى بيته فسأله : يا أبا الحكم، ما رأيك

(١) سورة الحجرات آية ١٣ (٢) سورة الزخرف آيتا ٣١ و ٣٢

اليوم وقد تلوته وسمعته من قبلُ مرّات . وأنت تعيد إلى ذهنك إذ تتلوه ما فى القرآن من تصوير جهنم : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ [١] . ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [٢] . يسيرٌ عليك وقد داخلك الروع أن تقدّر ما كان يتولّى قريشا والمترفين منها خاصّة ، إذ كانوا يستمعون إلى هذا القول بعد إذ كانوا من قبل ما ينذرهم به من العذاب بنجوة فى حمى آلهتهم وأوثانهم . ويسيرٌ بعد ذلك أن تقدّر مبلغ حماستهم فى تكذيب محمد ومناوأته والتأليب عليه . فهم لم يكونوا يعرفون البعث ولم يكونوا يعترفون بما يسمعون عنه . لم يكن أحدهم ليتوهّم أنه مجزىّ عن عمل هذه الحياة بعد مفارقته الحياة . إنما كان خوفهم من المستقبل فى هذه الحياة . كان خوفهم من المرض ومن الإصابة فى الأموال والبنين وفى المكانة والجاه . كانت الحياة عندهم غاية الحياة ، فكان كلّ همّهم منصرفا لجمع كل أسباب الاستمتاع فيها ودفع كل ما يخشونه منها . وإذ كان المستقبل غيبا محجوبا أمامهم وكانت نفوسهم تحسّ أن من أعمالهم شرًّا قد يصيبهم الغيب من أجله بأذى ، فقد كانوا يتفاءلون ويتطيّرون : كانوا يستقسمون بالقداح ، ويضربون بالحصى ، ويزجُرون الطير [٣] ، وينحرون للأوثان ؛ كل ذلك يدّرعون به ضدّ مايخافون من هذا المستقبل القريب فى الحياة . أمّا الجزاء بعد الموت ، أمّا البعث والنشور يوم ينفخ فى الصور ، أمّا الجنة التى أُعدّت للمتقين وجهنم التى أُعدّت للظالمين ، أمّا ذلك كله فلم يكن يدور بخاطرهم ، وذلك كله قد سمعوا به فى دين اليهود وفى دين النصارى ، ولكنهم لم يسمعوا عنه تصويرا قويّا مخوفا كالذى يُسمعهم الوحى على لسان محمد ، والذى ينذرهم ، إن هم ظلّوا فيما هم فيه من لهو الحياة أو الاستكثار من المال بظلم الضعيف وأكل مال اليتيم وإهمال المسكين والغلو فى الربا ، بعذاب

(١) سورة قٓ آية ٣٠ (٢) سورة النساء آية ٥٦

(٣) زجر الطير : أن يرمى الانسان الطائر بحصاة أو أن يصيح به ، فان ولاه فى طيرانه ميامنه تفاءل به ، وإن ولاه مياسره تطيّر منه .

وذنوبهم . بحسب الرجل أن يضرب القداح عند هُبَل قبل أن يقدم على أمر ليكون ما تشير به عليه القداح أمر هُبَل . وبحسبه أن ينحر للأصنام لتمحو الأصنام سيئاته وذنوبه! . هو في حِلّ من أن يقتل وينهب ويرتكب الفحشاء ولا يعفّ عن الخنا ما دام قديرا على رِشوة هذه الآلهة بالقرابين والنحور! . وهذا محمد يُعلن إليهم في آيات مُرعبة تخلع من هَوْلها القلوب وتضطرب الأفئدة أن ربّهم لهم بالمرصاد، وأنهم مبعوثون في اليوم الآخر خَلْقا جديدا، وأن أعمالهم هي وحدها الشفيع لهم . ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ . يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾[1] . والصاخة تجيء : ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ . وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ . وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ . كَلَّا إِنَّهَا لَظَى . نَزَّاعَةً لِلشَّوَى . تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى . وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾[2] . ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ . وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾[3] . أتلوت هذا! أسمعته! ألم يأخذك الهول ويتولّك الفزع! . وليس هذا إلا قليلا مما كان يُنذر محمد به قومه . وأنت تتلوه

تصوير يوم الحساب في القرآن

(١) سورة عبس الآيات من ٣٣ الى ٤٢ (٢) سورة المعارج الآيات من ٨ الى ١٨
(٣) سورة الحاقة الآيات من ١٨ الى ٣٧

كانت عندهم فكرة من هذا الغيب المحيط بهم . لكنهم وهم أهل تجارة كانت نفوسهم أكثر للواقع المحسوس قدرا ، ولأنهم أهل لهو وخمر كانوا أشدّ لجزاء الآخرة إنكارا . فكانوا يحسبون ما يلقاه الإنسان فى هذه الحياة من خير أو شرّ جزاء عمله ولا جزاء عنه بعد الحياة . ولذلك كان أكثر ما نزل من الوحى نذيرا وبشيرا قد نزل بمكة فى أوّل الرسالة ، حرصا على الخلاص لأرواح هؤلاء الذين بُعث محمد بينهم . ولقد كان جديرا بأن ينبّههم الى ماهم فيه من غىّ وضلالة ، جديرا بأن يرتفع بهم من عبادة الأصنام الى عبادة الله الواحد القهار .

فى سبيل الخلاص

فى سبيل هذا الخلاص الرّوحى لأهله وللناس كافّة احتمل محمد ومن آمن به من ألوان الأذى وصور التضحية ، ومن آلام النفس والجسد ، ومن الارتحال عن الوطن ، ومن عداوة الأهل والولد ، ما مرّ بك شىء منه . وكأنما كان محمد يزداد لأهله حبًّا وعلى خلاصهم حرصا كلما ازدادوا إيذاءً ومساءة . ويوم البعث والحساب كان آية الآيات التى يجب أن يتنبّهوا لها لتنقذهم من شرّ وثنيتهم ومن التورّط فى آثامهم . ولذلك لم يكن الوحى فى السنوات الأولى يفتُر عن إنذارهم بها وتفتيح عيونهم عليها ، على الرغم من إمعانهم فى إنكارها وفى الازورار عنها ، مما دعاهم إلى إشعال هذه الحرب الضَّرُوس التى لم تهدأ بينهم و بين محمد نائرتها (١) ، حتى تمّ للإسلام النصر ، وحتى أظهر الله دينه على الدين كله .

(١) نائرة الحرب : شرها وهيجها .

خالد فى درك سقر تصطكّ القلوب فزعا من هوله لمجرّد سماع صورته ، ما بالك به محققا تراه البصيرة جاثمـا وراء الخطوة الضيّقة التى يتخطى الإنسان من جانب الحياة الى ناحية الموت ، بعده البعث والنشور ، والرضا أو الثبور .

قريش والجنة

أمّا ماوعد الله المتقين من جنة عَرْضها السموات والأرض لايسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلّا قِيلًا سَلَامًا سلاما ، فيها ماتشتهى الأنفس وتلذّ الأعين ، فكانت قريش فى ريب منها . وكان يزيدها ريبا تعلّقها بالعاجلة ، وحرصها على أن ترى هذا النعيم محقّقا لها فى حياة هذا العالم ، وضيقها بالانتظار الى يوم الجزاء على حين لم تكن هى تؤمن بيوم الجزاء .

معركة الخير والشر

ولقد يأخذ الإنسان العجب كيف أقفلت قلوب العرب دون تصوُّر الحياة الأخرى والجزاء فيها فى حين لاتزال المعركة بين الخير والشرّ قائمة أمام هذا العالم الإنسانى منذ الأزل ، لم تعرف يوما هوادة ولا هى اطمأنّت يوما الى سكينة . كان المصريون القدماء قبل ألوف السنين من بعث محمد يزوّدون الميت زاد الدار الآخرة ويضعون فى أكفانه كتاب الموتى بما فيه من أغنيات ونُذُر ، ويصوّرون على معابدهم صور الميزان والحساب والتوبة والعقاب . وكان الهنود يصوّرون رضا النفس الراضية فى "النرڤانا" وتناسخ روح المسىء فى صور من الخَلْق تتعذّب أثناءها ألوف السنين وملايينها حتى تُلْهَم الحق فتطهر وتعود مرّة أخرى الى الخير طمعا فى بلوغ "النرڤانا" . ولم يكن مجوس فارس لينكروا معركة الخير والشر وآلهة الظلمة والنور . والموسوية والعيسوية تَصِفانِ حياة الخلد ورضا الله وغضبه . أفلم يبلغ هؤلاء العرب شىء من ذلك كله وقد كانوا أهل تجارة يتّصلون فى رحلاتهم وأسفارهم بأهل هذه النِّحَل جميعا ؟! وكيف لايبلغهم! وكيف لا تكون لهم صورة خاصّة منه وهم أهل بادية أشدّ اتصالا باللانهاية وأقرب الى تصوّر ما يشتمل عليه هذا الوجود من أرواح تتبدّى فى لهب الظهيرة وفى غسق الليل ؟ ! أرواح خيِّرة وأخرى شرِّيرة ! أرواح هى التى يحسبونها تسكن جوف الأصنام التى تقرِّبهم الى الله زلفى . لاريب أنه

نقض الصحيفة

على جنبه فيدخل البعير الشعب عليهم . ولما ضاق بما يحتمل محمد وأصحابه من الأذى صدرًا ، مشى الى زهير بن أبى أُميّة ، وكانت أمه عاتِكة بنت عبد المطّلب ، فقال : يا زهير ، أقد رَضِيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت ، لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم ولا يَنكحون ولا يُنكح اليهم ! . أمّا إنّى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبدا . وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة ، على أن يستعينوا على ذلك بغيرهم يقنعونهم به سرّا . واتّفق معهما المُطْعِم بن عَدِىّ وأبو البَخْتَرِىّ ابن هشام وزَمْعة بن الأسود ؛ وأجمع الخمسة أمرَهم وتعاهدوا على القيام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها .

وغدا زهير بن أُميّة فطاف بالبيت سبعا ثم نادى فى الناس : يأهلَ مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلْكَى لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم ! . والله لا أقعد حتى تُشَقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! . وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به : كذبتَ والله لا تُشقّ ! . فتصايح زمعة وأبو البخترىّ والمطعم وهشام بن عمرو كلهم يكذّبون أبا جهل ويؤيدون زهيرا . وأدرك أبو جهل أن الأمر قُضِى بليل ، وأن القوم اتّفقوا عليه ، وأن مخالفتهم قد تثير شرّا ، فأوجس خيفةً وتراجع . وقام المطعم ليشق الصحيفة فوجد الأَرَضَة قد أكلتها إلا فاتحتها « باسمك اللهم » . وبذلك أُبيح لمحمد وأصحابه أن يعودوا من الشِّعب الى مكة وأن يبيعوا قريشا ويبتاعوا منها ، وإن بقيت صِلات الفريقين كما كانت وبقى كل منهم متحفِّزا ليوم يَستعلى فيه على صاحبه .

عصمة محمد فى التبليغ

ذهب بعض كتّاب السيرة إلى أن الذين قاموا فى نقض الصحيفة ممّن كانوا لا يزالون على عبادة الأوثان ، ذهبوا إلى محمد يسألونه ، منعًا للشرّ ، أن يتصالح وقريشا على شىء ، كأن يُسلّم بآلهتهم ولو يطوف بأصابعه . فمالت نفسه إلى شىء من هذا تقديرا لجميلهم ، وقال فيما بينه وبين نفسه : «وما علىّ لو فعلتُ والله يعلم أنى بارّ» .

الفصل الثامن

من نقض الصحيفة إلى الإسراء

فرار المسلمين من مكة الى شعاب الجبل — عدم اختلاطهم بالناس إلا فى الأشهر الحرم — قيام زهير وأصحابه فى نقض الصحيفة — وفاة أبى طالب وخديجة — إيذاء قريش محمدا — ذهاب محمد الى الطائف ورد ثقيف إياه — الإسراء والمعراج

دعوة القبائل فى الأشهر الحرم

ظلت الصحيفة التى تعاقدت قريش فيها على مقاطعة محمد وحصار المسلمين نافذة ثلاث سنوات متتابعة ، احتمى محمد وأهله وأصحابه خلالها فى شِعْب من شعاب الجبل بظاهر مكة، يُعانون الحرمان ألوانا ، ولا يجدون فى بعض الأحايين وسيلة إلى الطعام يدفعون به جوعهم . ولم يكن يُتاح لمحمد ولا للمسلمين الاختلاط بالناس والتحدّث اليهم إلا فى الأشهر الحرم ، حين يفد العرب إلى مكة حاجّين ، وحين تضع الخصومات أوزارها، فلا قتل ولا تعذيب ولا اعتداء ولا انتقام . فى هذه الأشهر كان محمد ينزل الى العرب يدعوهم الى دين الله ويبشّرهم بثوابه وينذرهم عذابه . وكان ما أصاب محمدا من الأذى فى سبيل دعوته شفيعه عند كثيرين؛ حتى لقد زادهم ما سمعوا من ذلك عليه عطفا، وعلى دعوته إقبالا . وهذا الحصار الذى أوقعته قريش واحتماله إياه صابرا فى سبيل رسالته، كسب له كثيرا من القلوب التى لم تبلغ منها القسوة مابلغت من قلب أبى جهل وأبى لهب وأمثالهما.

حصار المسلمين فى الشعب

على أن طول الزمن وكثرة ما أصاب المسلمين من عَنَت قريش ، وهم منهم إخوانهم وأصهارهم وأبناء عمومتهم، جعل كثيرين يشعرون بفَدْح ما ارتكبوا من ظلم وقسوة؛ فلولا أن كان من أهل مكة رجال لديهم على المسلمين عطف يحملون اليهم الطعام فى الشِّعب الذى احتموْا به لهلكوا جوعا . وكان هشام بن عمرو من أحسن قريش فى هذه البأساء عطفا على المسلمين. كان يأتى بالبعير قد أوقره طعاما أو بُرًّا فيسير به جوفَ الليل ، حتى إذا استقبل فم الشِّعْب خلع خِطامه ثم ضرب

ما نؤمن به بعض ما تطيق النفوس الكبيرة ، فان إقرار العظيم بأنه كاد يُفْتَن ليس مما ألف الناس صدوره حتى من العظماء . إنما يخفى هؤلاء أمثال ذلك من الأمور ويكتفون بحساب النفس عليه ولو حسابا عسيرا . فهو شيء إذًا أكبر من العظمة وأعظم من كل عظيم ذلك الذى يُتيح للنفس هذا السمو فتكشف عن الحق كله . ذلك الشيء الذى يسمو على العظمة و يفوق كل عظيم هو النبوة التى تُملى على الرسول صدق الإخلاص فى إبلاغ رسالة الحق جلّ شأنه .

عاد محمد ومن معه من الشِّعب بعد تمزيق الصحيفة، وجعل من جديد يذيع دعوته فى مكة وفى القبائل التى تجيء اليها فى الأشهر الحُرم . ومع ما ذاع من أمر محمد بين قبائل العرب جميعا وما كان من كثرة الذين اتّبعوه، فإنه ظلّ لا يسلَم أصحابه من أذى قريش، ولا يستطيع هو لهم منعا . ولم تمض إلا شهور على نقض الصحيفة حتى بجأت محمدا فى عام واحد فاجعتان اهتزّت لهما نفسه ، هما موت أبى طالب وخديجة دِرَاكا . وكان أبو طالب يومئذ قد نيّف على الثمانين . فلما اشتكى و بلغ قريشا أنه موفٍ على ختام حياته خشيت ما يكون بينها وبين محمد وأصحابه من بعدُ، وفيهم حمزة وعمر المعروفان بشدّتهما وبطشهما . فمشى أشرافها إلى أبى طالب وقالوا له : يا أبا طالب ، أنت منا حيث قد علمت ، وحضرك ما ترى وتخوّفنا عليك . وقد علمتَ الذى بيننا وبين ٱبن أخيك، فادعه نخُذْ له منّا وخذ لنا منه، ليكفّ عنا ونكف عنه، وليدَعَنا وديننا وندعه ودينه . وجاء محمد والقوم فى حضرة عمه . فلما عرف ما جاءوا فيه قال : نعمْ ! كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ! ! قال أبو جهل : نعم وأبيك، وعشر كلمات . قال : تقولون : لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه . قال بعضهم : أتريد يا محمد ان تجعل الآلهة إلٰها واحدا ! ! . ثم قال بعضهم لبعض : والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون، وانطلقوا . وتوفّى أبو طالب والأمر بين محمد وقريش أشدّ مما كان .

موت أبى طالب وخديجة

ومن بعد أبى طالب توفّيت خديجة . خديجة التى كانت سند محمد بما تُوليه

أو إلى أن هؤلاء الذين نقضوا الصحيفة وجماعة معهم خلَوْا بمحمد ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه ويسوّدونه ويقاربونه ويقولون له : أنت سيّدنا ، يا سيّدنا ؛ وأنهم ما زالوا به حتى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون . وهاتان الروايتان هما بعض ما حدّث به سعيد بن جُبَيْر فى الأولى وقَتادة فى الثانية . ويذكرون أن الله عصم محمدا بعد ذلك وأنزل عليه قوله : ﴿ وإن كَادُوا ليَفْتِنُونَكَ عَن الَّذِى أَوْحَيْنا إليك لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنا غَيْرَه وإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَليلا . وَلَوْلا أنْ ثَبَّتْناك لَقدْ كِدْتَ تَركَنُ إليهِم شَيئا قَليلا . إذًا لأَذَقْناكَ ضِعفَ الحَياةِ وضِعفَ المماتِ ثم لا تَجِدُ لك علينا نَصِيرًا ﴾(١) . وهذه الآيات قد نزلت فى زعم أصحاب قصة الغرانيق، فى تلك القصة المكذوبة كما قد رأيت ، وهذان المحدّثان يردّانها إلى قصة نقض الصحيفة . وقد نزلت هذه الآيات فى حديث عطاء عن ابن عباس فى وفد ثَقِيف إذ طلبوا إلى محمد أن يحرّم واديهم كما حُرِّمت مكة ، شجرها وطيرها ووحشها ؛ فتردّد النبى عليه السلام حتى نزلت . ومهما تكن الحقيقة الثابتة التى لا تختلف الروايات عليها للواقعة أو الوقائع التى نزلت الآيات فيها ، فإنها تصوّر ناحية من نواحى العظمة النفسية لمحمد ، كما تصوّر صدق إخلاصه تصويرا قويّا . وهذه الناحية تصوّرها كذلك الآيات التى نقلنا من سورة "عبس" ويشهد بها تاريخ محمد كله . تلك أنه كان يصارح الناس بأنه بشرٌ مثلهم يُوحى ربه إليه لهدايتهم ، وأنه وهو بشر مثلهم معرّض للخطأ لولا عصمة الله إيّاه . فهو قد أخطأ حين عبس لابن أم مكتوم وتولّى عنه ، وهو قد كاد يخطئ فيما نزلت آيات الإسراء فى شأنه ، وكاد يُفْتَن عن الذى أُوحى إليه ليفترى غيره . فإذا نزل عليه الوحى ينبهه إلى ما صنع فى أمر الأعمى ، وفى أمر هذه الفتنة التى كادت قريش تدفعه اليها ، صدق فى تبليغ هذا الوحى إلى الناس صدقَه فى تبليغ رسالات ربه ، ولم يقف حائل من أنفة أو كبرياء ولا وقف اعتبار إنسانى ، حتى مما يسيغ الفضلاء ، دون إعلان هذا الحق فى أمر نفسه . فالحق إذًا ، والحق وحده كان رسالته . وإذا كان احتمال أذى الغير فى سبيل

(١) سورة الإسراء الآيات من ٧٣ الى ٧٥

فرجع السفهاء عنه . وجلس الى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران اليه والى ما هو فيه من شدّة الكرب . فلما اطمأن رفع عليه السلام رأسه الى السماء ضارعا فى شكاية وألم وقال : « اللّهمّ إليك أشكو ضعف قوّتى ، وقلّة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت ربّ المستضعَفين وأنت ربّى . إلى من تَكِلُنى ! الى بعيد يتجهّمنى أو الى عدوّ ملّكته أمرى . إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحلّ علىّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى ؛ ولا حول ولا قوّة إلا بك » .

عداس النصرانى

وطال تحديق ابنى ربيعة به ، فتحرّكت نفساهما رحمة به وإشفاقا من سوء ما لقى ؛ فبعثا غلامهما النصرانىّ عدّاسًا اليه بقِطْف من عنب الحائط . فلما وضع محمد يده فيه قال : باسم الله ، ثم أكل . ونظر عدّاس دهشا وقال : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد ! . فسأله محمد عن بلده ودينه ؛ فلما علم أنه نصرانىّ نينَوىّ قال له : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى ؟ فسأله عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال محمد : ذاك أخى كان نبيّا وأنا نبىّ . فأكبّ عدّاس على محمد يقبّل رأسه ويديه وقدميه . وعجب ابنا ربيعة لما رأيا وإن لم يصرفهما ذلك عن دينهما ولم يمنعهما من التحدّث الى عدّاس حين عاد اليهما يقولان : يا عدّاس ، لا يصرِفنّك هذا الرجل عن دينك فهو خير من دينه .

وكأن ما أصاب محمدا من أذًى خفّف من سخط ثَقيف وإن لم يغيّر من جمودهم عن متابعته . وعرفت قريش الأمر فازدادت لمحمد إيذاء ؛ فلم يصرفه ذلك عن الدعوة الى دين الله . وجعل يعْرِض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم الى الحق ويخبرهم أنه نبىّ مرسل ويسألهم أن يصدّقوه . غير أن عمه عبد العُزّى بن عبد المطّلب أبا لهب لم يكن يدعه ؛ بل كان يتبعه أينما ذهب ويحرّض الناس ألّا يستمعوا له . ولم يكتف محمد بعْرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج بمكة ، بل أتى كِندة

محمد يعرض نفسه على القبائل

من حبها وبرّها ومن رقّة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها . خديجة التى كانت تهوّن عليه كل شـدّة وتزيل من نفسه كل خشية ، والتى كانت مَلَك رحمة يرى فى عينيها وعلى ثغرها من معانى الإيمان به ما يزيده إيمانا بنفسه . وتوفى أبو طالب الذى كان لمحمد حِمًى وملاذا من خصومه وأعدائه . أىّ أثر تركت هاتان الفاجعتان الأليمتان فى نفس محمد عليه السلام ! ! إنهما لجديرتان بأن تتركا أقوى النفوس كَلِيمةً مضعضعة يدسّ اليها اليأس سموم الضعف ، ويدفع اليها الأسى والحزن من لواذع الهم المبرّح ما يجعلها تنهدّ أمامهما ولا تفكر فى شىء سواهما .

قريش يزداد أذاها

ما لبث محمد بعد أن فقـد هذين النصـيرين أن رأى قريشا تزيد فى إيذائه ، وكان من أيسر ذلك أن اعترضه سفيه من سـفهاء قريش فرمى على رأسـه ترابا . أفتدرى ما صنع محمد ! دخل إلى بيته والتراب على رأسه ؛ فقامت اليه فاطمة ٱبنته وجعلت تغسل عنـه التراب وهى تبكى . وليس أوجع لنفوسنا من أن نسمع بكاء أبنائنا ، وأوجع منه أن نسمع بكاء بناتنا . كل دمعة ألم تسيل من مآقى البنت قطرة حَمِيمٍ تهوى على قلبنا فينقبض انزعاجا ، حتى لنكاد من شدّة الانزعاج نصيح ألمـا ؛ وكل أنّة حزن تثير فى الحشا وفى الكبـد أنّات ما أقساها ، تختنق لها حلوقنا وتكاد تَهْمى بالدمع من وقعها عيوننا . وقد كان محمد أبرَّ أبٍ ببناته وأحناه عليهن . فماذا تراه صنع لبكاء هذه البنت التى فقدت منذ قريب أُمّها ، ولبكائها هى من أجل ما أصاب أباها ؟ لم يزده ذلك كله إلّا توجُّهًا بقلبـه الى الله وإيمانا بنصره إيّاه . قال لابنته وعينها تهمِى بالدمع : لا تبكى يا بنيّـة ! فان الله مانع أباك . ثم كان يردّد : والله ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبوطالب .

خـروج محمد الى الطائف (سنة ٦٢٠ م)

وكثرت مَساءات قريش من بعد ذلك لمحمد حتى ضاق بهم ذرعا ؛ فخرج الى الطائف وحيدًا منفردا لا يعلم بأمره أحد ، يلتمس من ثَقِيف النُّصرة والمَنَعَة بهم من قومه ويرجو إسـلامهم . لكنه رجع منهم بشرّ جواب ، فرجاهم ألّا يذكروا من ٱستنصاره بهم شيئا حتى لايشمت به قومه . ولم يسمعوا له بل أغرَوْا به سفهاءهم يسـبّونه ويَصيحون به . ففرّ منهم الى حائط لُعْتبة وشَيْبة ابنى ربيعة فاحتمى به ،

الفجر أَهَبَّنا رسول الله، فلما صلّى الصبح وصلّينا معه قال : يا أمّ هانئ لقد صلّيتُ معكم العِشاءَ الآخرة كما رأيتِ بهذا الوادى ، ثم جئتُ بيت المقدس فصلّيت فيه ثم قد صلّيت صلاة الغَداة معكم الآن كما تَرَيْن . فقلت له : يا نبىّ الله لا تحدِّث بها الناس فيكذّبوك ويُؤذوك . قال : والله لَأُحدِّثنّهموه » .

الإسراء بالروح أم بالجسد

يستند الذين يقولون بأنّ الإسراء والمعراج إنما كانا بروح محمد عليه السلام الى حديث أم هانئ هذا والى ما كانت تقوله عائشة : ما فُقِد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أسرى بروحه . وكان معاوية بن أبى سفيان اذا سئل عن مسرى الرسول قال : كانت رؤيا من الله صادقة . وهم يستشهدون الى جانب ذلك كله بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ (١) . وفى رأى آخرين أن الإسراء من مكة الى بيت المقدس كان بالجسد ، مستدلّين على ذلك بما ذكر محمد أنه شاهده فى البادية أثناء مسراه مما سيأتى خبره ، وأنّ المعراج الى السماء كان بالروح . ويذهب غير هؤلاء وأولئك الى أن الإسراء والمعراج كانا جميعا بالجسد . وقد كثرت مناقشات المتكلّمين فى هذا الخلاف حتى كتبت فيه ألوف الصحف . ولنا فى حكمة الإسراء رأى نُبديه ، ولسنا ندرى أَسُبِقْنا اليه أم لم نُسْبَق . لكنا قبل أن نبدى هذا الرأى ، بل لكى نبديه ، يجب أن نروى قصة الإسراء والمعراج على نحو ما جاءت به كتب السيرة .

تصوير الاسراء فى كتب السيرة

سرد المستشرق دِرمِنْجِم هذه القصة مستخلَصة من مختلف كتب السيرة فى عبارة طليّة رائعة هذه ترجمتها : « فى منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله وصمتت فيها طيور اللّيل وسكنت الضوارى وانقطع خرير الغدران وصفير الرياح استيقظ محمد على صوت يصيح به : أيّها النائم قم . وقام فاذا أمامه الملك جبريل وضّاءَ الجبين أبيض الوجه كبياض الثلج مُرْسلًا شعره الأشقر، واقفا فى ثيابه المزركشة بالدرّ والذهب ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعَش ، وفى يده دابّة

(١) سورة الإسراء آية ٦٠

فى منازلها وأتى كلبًا فى منازلها وأتى بنى حَنِيفة وبنى عامر بن صَعْصعة، فلم يسمع له منهم أحد، وردّوه جميعا ردًّا غير جميل؛ بل ردّه بنو حنيفة ردًّا قبيحا. أما بنو عامر فطمعوا اذا هو انتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده. فلما قال لهم: إن الأمر الى الله يضعه حيث يشاء، لَوَّوْا عنه وجوههم وردّوه كما ردّه غيرهم. رد القبائل دعوته

هل أصرّت هذه القبائل على عناد محمد لمثل الأسباب التى أصرت قريش من أجلها على عناده؟ لقد رأيت بنى عامر وكيف كانوا يطمعون فى الملك اذا هم انتصروا وإيّاه. أمّا ثقيف فكان لها رأى آخر، فالطّائف، فضلًا عن أنها كانت مصيف أهل مكة لجمال مناخها وحلو أعنابها، قد كانت مستقرّ عبادة اللات وكان لها هناك صنم يُعْبَد ويُحَجّ اليه. فلو أنّ ثقيفا تابعت محمدا لفقدت اللّات التى عندها مكانتها، ولقامت بينها وبين قريش خصومة تترك لا ريب أثرها الاقتصادى فى موسم الاصطياف. وكذلك كانت لكل قبيلة علّة محليّة اقتصادية كانت أقوى أثرا فى إعراضها عن الإسلام من تعلّقها بدينها ودين آبائها وبعبادة أصنامها.

محمد يخطب عائشة زاد عناد هذه القبائل محمدا عزلةً، كما زاده إمعان قريش فى أذى أصحابه ألما وهمًّا. وانقضى زمن الحِداد على خديجة. ففكر فى أن يتزوّج، لعلّه يجد فى زوجه من العزاء ما كانت خديجة تأسو به جِراحه. على أنه رأى أن يزيد الأواصر بينه وبين السابقين الى الإسلام متانة وقُرْبى، فخطب الى أبى بكر ابنته عائشة. ولما كانت لا تزال طفلة فى السابعة من عمرها عقد عليها ولم يبْنِ بها إلا بعد سنتين حين بلغت التاسعة. وفى هذه الأثناء تزوّج من سَوْدَةَ أرملة أحد المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة وعادوا الى مكة وماتوا بها. وأحسب القارئ يلمح ما فى هاتين الصلتين من معنى يزداد وضوحا من بعدُ فى صِلات زواج محمد ومصاهرته. ويتزوج من سودة

الإسراء (سنة ٦٢١ م) فى هذه الفترة كان الإسراء والمعراج. وكان محمد ليلة الإسراء فى بيت ابنة عمه هند ابنة أبى طالب، وكنيتها أمّ هانئ. وقد كانت هند تقول: «إنّ رسول الله نام عندى تلك الليلة فى بيتى فصلّى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا. فلما كان قبيل

فى أقل من لمح البصر بحارا شاسعة ومناطق ضياء يُعْشِى وظلمة قاتمة وملايين الحجب من ظلمات ونار وماء وهواء وفضاء يفصل بين كل واحد منها وما بعده مسيرة خمسمائة عام ، تخطّى حُجُب الجمال والكمال والسر والجلال والوحدة ، قامت وراءها سبعون ألف فرقة من الملائكة سُجّدا لا يتحرّكون ولا يُؤْذَن لهم فينطقون . ثم أحسّ بنفسه يرتفع الى حيث المولى جلّ شأنه ، فأخذه الدَّهَش ، وإذا الأرض والسماء مجتمعتان لايكاد يراهما ، وكأنما ٱبتلعهما الفناء فلم ير منهما إلّا حجم سمسمة فى مزرعة واسعة . وكذلك يجب أن يكون الإنسان فى حضرة مَلِك العالم .

« ثم كان فى حضرة العرش وكان منه قاب قوسين أو أدنى ، يشهد الله بعين بصيرته ، و يرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها وتفوق كل ما يحيط به فهمُ الإنسان . ومدّ العلىّ العظيم يداً على صدر محمد والأخرى على كتفه ، فأحسّ النبىّ كأنه أُثْلِج الى فَقَاره ، ثم بسكينة راضية وفناء فى الله مستطاب .

« وبعد حديث لم تحترم كتب الأثر المدقّقة قدسيته أمرَ الله عبدَه أن يصلىّ كل مسلم خمسين صلاة فى كل يوم . فلما عاد محمد يهبِط السماء التقى بموسى ؛ فقال ابن عمران له :

« كيف ترجو أن يقوم أتباعُك بخمسين صلاةً فى كل يوم ! لقد بلوتُ الناس قبلك وحاولت مع بنى إسرائيل كل ما يدخل فى الطوق محاولته ؛ فصدّقنى وعُدْ الى ربّنا واطلب اليه أن ينقُص الصلوات .

« وعاد محمد فنقَص عددَ الصلوات الى أربعين وجدها موسى فوق الطاقة ، وجعل يردّ خليفته فى النبوّة الى الله مرّات عدّة حتى انتهت الصلوات الى خمس .

« وذهب جبريل بالنبىّ فزار الجنّة التى أُعِدّت للمتّقين بعد البعث . ثم عاد محمد على المعراج الى الأرض ، ففكّ البُراق وٱمتطاه وعاد من بيت المقدس الى مكة على الدابّة المجنّحة » .

عجيبة هى البُرَاق، لها أجنحة كأجنحة النّسر، انحنت أمام الرسول فاعتلاها وانطلقت به انطلاق السهم، فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة صوب الشمال ... وصحبه الملك فى هذه الرحلة ثم وقف به عند جبل سِـيناء حيث كلّم الله موسى، ثم وقف به مرّة أخرى فى بيت لَحْم حيث وُلد عيسى، وانطلق بعـد ذلك فى الهواء فى حين حاولت أصوات خفية أن تستوقف النبيّ الذى رأى فى إخلاصه لرسالته أن ليس لغير الله أن يسـتوقف حيث شاء دابّتـه . وبلغ بيت المَقْدِس، فقيّـد محمد دابّته وصـلّى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى . ثم أُتِى بالمعـراج فارتكز على صخرة يعقوب وعليـه صعِد محمد سِراعًا الى السـموات . وكانت السماء الأولى من فضـة خالصة علِّقت اليهـا النجوم بسلاسل من ذهب، وقد قام على كلٍّ منها ملك يحرسها حتى لا تعرُج الشياطين الى عَلْوَ عليها أو يستمع الجنّ منهـا الى أسرار السماء . فى هذه السماء ألقى محمد التحيّة على آدم، وفيها كانت صور الخَلْق جميعا تسبِّح بحمد ربها . والتقى محمد فى السموات الستّ الأخرى بنوح وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى . ورأى فيها ملَكَ الموت عزرائيل، بلغ من ضخامته أن كان ما بين عينيه مسيرة سبعين ألف يوم، ومن سلطانه أن كان تحت إمرته مائة ألف فرقة، وكان يسجّل فى كتاب ضخم أسمـاء من يُولَدون ومن يموتون . ورأى ملك الدمع يبكى خطايا النـاس، وملكَ النقمة ذا الوجه النُّحاسىّ المتصرّف فى عنصر النـار والجالس على عرش من لهب . وقد رأى كذلك ملكا ضخما نصفُه من نار ونصفه من ثلج وحوله من الملائكة فرقة لا تفتُر عن ذكر الله قائلة: اللّهـمّ قد جَمعت الثلج والنار وجمعت كل عبادك فى طاعة سنّتك . وكان فى السماء السابعة مقرّ أهل العدل ملك أكبر من الأرض كلها له سبعون ألف رأس، فى كل رأس سبعون ألف فم، فى كل فم سبعون ألف لسان، يتكلّم كل لسان سبعين ألف لغة، من كل لغة سبعين ألف لهجة، وكلها تسبح بحمد الله وتقدّس له .

« وبينا هو يتأمّل هذا الخَلْق الغريب اذا به ارتفع الى قِمّة سِدْرة المُنْتَهَى، تقوم الى يمين العـرش وتُظِلّ ملايين الملايين من الأرواح الملائكية . وبعـد أن تخطّى

الاراء سندًا عند المتكلمين ، وأنه لا جناح على من يقول بواحد دون غيره من هذه الآراء . فمن شاء أن يرى أن الإسراء والمعراج كانا بالروح فله من السند ما قدمنا وما تكرر فى القرآن وعلى لسان الرسول : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾(١) . وأن كتاب الله هو وحده معجزة محمد ، و﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(٢) . ولصاحب هذا الرأى أكثر من غيره أن يسأل عن حكمة الإسراء والمعراج ما هى ؟ . وهنا موضع الرأى الذى نريد أن نبديه ولا ندرى أسُبِقْنا اليه أم لم نُسْبَق .

الاسراء ووحدة الوجود

ففى الإسراء والمعراج فى حياة محمد الروحيّة معنى سام غاية السموّ . معنى أكبر من هذا الذى يصوّرون والذى قد يشوب بعضه من خيال المتكلمين المخلص حظٌّ غير قليل . فهذا الروح القوىّ قد اجتمعت فيه فى ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غايةَ كمالها . لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبيًّا محدودا بحدود قُوانا المُحِسّة والمدبِّرة والعاقلة . تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد واجتمع الكون كله فى روحه ، فوعاه منذ أزله إلى أبده وصوّره فى تطوّر وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق فى مغالبتها وتغلّبها على الشرّ والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة .

وليس يستطيع هذا السموّ إلا قوّة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانية . فاذا جاء بعد ذلك ممن اتّبعوا محمدا من عجَز عن متابعته فى سموّ فكرته وقوّة إحاطته بوحدة الكون فى كماله وفى جهاده لبلوغ هذا الكمال ، فلا عجب فى ذلك ولا عيب فيه . والممتازون من الناس والموهوبون منهم درجات . وبلوغُنا الحقيقةَ معرّض دائما لهذه الحدود التى تعجز قُوانا عن تخطّيها . وإذا كان من القياس مع الفارق أن نذكر ، لمناسبة ما نحن الآن بصدده ، قصة أولئك المكفوفين الذين أرادوا أن يعرفوا

(١) سورة الكهف آية ١١٠ (٢) سورة النساء آية ٤٨

رواية ابن هشام عن الاسراء

هــذه رواية المستشرق در منجم عن قصــة الإسراء والمعراج . وأنت تقع على ما قصّه منثورا فى كثير من كتب السيرة، وإن كنت تجد فيهـا جميعا خلافا بزيادة أو نقص فى بعض نواحيها . من ذلك مثلا ما روى ابن هشام على لسان النبيّ عليه السلام بعــد أن لقى آدم فى السماء الأولى أنه قال : « ثم رأيتُ رجالًا لهم مشافر كمشافر الإبل ، فى أيديهم قطع من نار كالأفهار (١) يقذفونهـا فى أفواههم فتخرج من أدبارهم . فقلت : مَنْ هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة مال اليتامى ظلمـا . ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أرَ مثلها قطُّ بسبيل آلِ فرعون يمرّون عليهـم كالإبل المَهيومة (٢) حين يُعرَضون على النــار يطئونهم لا يقــدرون على أن يتحوّلوا من مكانهم ذلك . قلت : مَنْ هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هــؤلاء أكَلَة الرّبا . ثم رأيت رجالا بين أيديهــم لحمٌ سمينٌ طيّب إلى جانبــه لحم غَثّ مُنْتِن ، يأكلون من الغثّ المنتن ويتركون السمين الطيّب . قلت : مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحلّ الله من النســاء ويذهبون إلى ما حرّم الله عليهــم منّهن . ثم رأيت نساء معلّقات بثُديِّهن ، فقلت مَنْ هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم ...... ثم دخل بى الجنــة فرأيت فيهـا جارية لَعْساء ، فسألتها لمن أنتِ ؟ — وقد أعجبتنى حين رأيتهـا — فقالت : لزيد بن حارثة . فبشَّر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة » .

وأنت واجد فى غير ابن هشام من كتب السيرة وفى كتب التفسير أمورا أخرى غير هــذه . ومن حقّ المؤرّخ أن يسائل عن مبلغ التدقيق والتمحيص فى أمر ذلك كله وما يمكن أن يُســند منه الى النبيّ بســند صحيح وما يمكن أن يكون من خيال المتصوِّفة وغيرهم . وإذا لم يكن ها هنا مجــال للحكم فى ذلك أو لاستقصائه ، كما أنه ليس هاهنا مجــال القول فى المعراج والإسراء بالجسم ، أو المعراج بالروح والإسراء بالجسم ، أو المعراج والإسراء جميعا بالروح ، فما لاشك فيه أن لكل رأى من هذه

(١) الأفهار : جمع فهر (بكسر فسكون) وهو من الأحجار ما يملأ الكف .

(٢) المهيومة : التى بها هيام وهو داء يأخذ الإبل فى رءوسها مثل الجنون .

بعض أفانين الخيال . وما تزال القوى الكمينة فى الكون تتكشّف لعلمنا كل يوم عن جديد . فاذا بلغ روح من القوة ومن السلطان ما بلغت نفس محمد فأسرى به الله ليلًا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليُرِيَه من آياته ، كان ذلك مما يُقِرّ العلم ، وكانت حكمة ذلك هذه المعانى القويّة السامية فى جمالها وجلالها ، والتى تصوّر الوحدة الروحية ووحدة الكون فى نفس محمد تصويرا صريحا ، يستطيع الإنسان أن يصل الى إدراكه إذا هو حاول السموّ بنفسه عن أوهام العاجلة فى الحياة ، وحاول الوصول الى كنه الحقيقة العليا ليعرف حقيقة مكانه ومكان العالم كله منها .

ريبة قريش وارتداد بعض من أسلم

لم يكن العرب من أهل مكة ليستطيعوا إدراك هذه المعانى ؛ لذلك ما لبث محمد حين حدّثهم بأمر إسرائه أن وقفوا عند الصورة المادّية من أمر هذا الإسراء وإمكانه أو عدم إمكانه ، وحتى ساور أتباعه والذين صدّقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقوله . وقال كثيرون : هذا والله الأمر البيّن . والله إنّ العير لَتطّرِدُ(١) شهرا من مكة الى الشام مدبرةً وشهرا مقبلةً ، أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع الى مكة ! وارتدّ كثير ممّن أسلم . وذهب من أخذتهم الرّيبة فى الأمر الى أبى بكر وحدّثوه حديث محمد . فقال أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . قالوا : بلى ، ها هو ذاك فى المسجد يحدّث الناس . قال أبو بكر : والله لئن كان قد قاله لقد صدَق ، إنه لَيخبرنى إن الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأُصدّقه ، فهذا أبعد مما تعجَبون منه . وجاء أبو بكر الى النبيّ واستمع اليه يصف بيت المَقْدِس ، وكان أبو بكر قد جاءه ، فلما أتمّ النبيّ صفة المسجد قال له أبو بكر صدقت يارسول الله . ومن يومئذ دعا محمد أبا بكر بالصدّيق .

القول بالاسراء بالجسد

ويدلّل الذين يقولون : إن الإسراء بالجسد على رأيهم بأن قريشا لمّا سمعت بأمر إسرائه سألته وسأله بعض الذين آمنوا به عن آية ذلك ، فإنهم لم يسمعوا بشىء من مثله . فوصف لهم عِيرًا مرّ بها فى الطريق فضلّت دابّة من العير فدلّهم عليها ، وأنه شرب من عِير أخرى وغطّى الإناء بعد أن شرب منه . فسألت قريش فى ذلك

(١) أى تتابع سيرها من غير انقطاع .

الفيل ماهو ؛ فقال أحدهم : إنه حبل طويل لأنه صادف ذنبه ، وقال الآخر : إنه غليظ كالشجرة لأنه صادف رجله ، وقال ثالث : إنه مدبّب كالرمح لأنه صادف سنّه ، وقال رابع : إنه مستدير مُلْتَوٍ كثير الحركة لأنه صادف خُرطومه ، فإن هذا المثل مقرونا إلى الصورة التى تتكوّن لدى المبصر من الفيل لأول ما يراه ، يسمح لنا بموازنة ما بين إدراك محمد كنهَ وحدة الكون والوجود وتصويره فى الإسراء والمعراج حيث يتصل بأوّل الزمن من قبل آدم الى آخره يوم البعث ، وحيث تنعدم نهائية المكان ، إذ يُطِلّ بعين البصيرة من لدن سِدْرة المنتهَى إلى هذا الكون يصبح أمامه سَدِيما ، وبين ما يستطيع الكثيرون إدراكه من حكمة هذا الإسراء والمعراج ، إذ يقفون عند تفاصيل ليست من وحدة الكون وحياته إلا كذرّات الجسم بل كالذرّات العالقة به من غير أن يتأثّربها نظامه . أين الواحدة من هذه الذرّات من حياة هذا الجسم ومن نبض قلبه وإشراق روحه وضياء ذهنه وامتلائه بالحياة التى لا تعرف حدّا لأنها تتصل من الوجود بكل حياة الوجود ! .

والإسراء بالروح هو فى معناه كالإسراء والمعراج بالروح جميعا سموّا وجمالا وجلالا . فهو تصوير قوىّ للوحدة الروحية من أزل الوجود الى أبده . فهذا التعريج على جبل سيناء حيث كلّم الله موسى تكليما ، وعلى بيت لَحْم حيث وُلد عيسى ، وهذا الاجتماع الروحى ضمّت الصلاةُ فيه محمدا وعيسى وموسى وإبراهيم ، مظهر قوىّ لوحدة الحياة الدينية على أنها من قِوام وحدة الكون فى مَوْره الدائم الى الكمال .

الإسراء والعلم الحديث

والعلم فى عصرنا الحاضر يُقِرّ هذا الإسراء بالرّوح ويُقِرّ المعراج بالروح ؛ فحيث تتقابل القوى السليمة يشعّ ضياء الحقيقة ، كما أن تقابل قوى الكون فى صورة معيّنة قد طوّع «لماركونى» إذ سلّط تيّارا كهربائيا خاصّا من سفينته التى كانت راسية بالبندقيّة أن يضيء بقوّة موجات الأثير مدينةَ سِدْنِى فى أستراليا . وفى عصرنا هذا يُقِرّ العلم نظريّات قراءة الأفكار ومعرفة ما تنطوى عليه ، كما يُقِرّ انتقال الأصوات من الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتوبات كذلك مما كان يعتبر فيما مضى

الفصـــل التاسع

بيعتا العقبــــــــة

ردّ القبائل لمحمد ردّا غير جميل — بشائر الفوز من ناحية يثرب — صــلات اليهود بالأوس والخــزرج — إسلام بعض اليثربيين — وقعــة بعاث — بيعة العقبة الصــغرى — مصعب بن عمــير — عوده مع الحاج الى مكة بعــد عام — المسلمون من يثرب — بيعــة العقبة الكبرى — أنباؤها عند قريش — ائتمار قريش بمحمد كى تقتــله — إذن محمد لمسلمى مكة بالهجرة الى يثرب

تضعضع المسلمين بعد الإسراء

لم تدرك قريش معنى الإسراء، ولم يدرك كثير ممن أسلموا معناه الذى قدّمنا . لذلك انصرف جماعة من هؤلاء عن متابعة محمد بعد أن اتّبعوه زمنا طويلا . ولذلك ازدادت مساءات قريش لمحمــد وللمسلمين حتى ضاقوا بهــا ذرعا . ولم يبق لمحمد رجاء فى نصرة القبائل إيّاه بعــد إذ ردّته ثقيف من الطائف بشرّ جواب ، وبعد إذ ردّته كِنْدة وكَلْبٌ وبنو عامر وبنو حَنِيفة لمّــا عرض نفسه عليها فى موسم الحج . وشعر محمد بعد ذلك كله بأنه لم يبق له مطمع فى أن يهدى الى الحق من قريش أحدا . ورأت غير قريش من القبائل التى تجاور مكة والتى تجىء من مختلف أنحــاء بلاد العرب حاجّة اليها ، ما صار محمد اليه من عزلة ، وما أحاطته به قريش من عداوة تجعل كل نصيرله عدوًّا لها وعونا عليها، فآزدادت إعراضا عنــه . ومع اعتزاز محمد بحمزة وعمر، ومع طمأنينته الى أن قريشا لن تنال منه أكثر ممــا نالت لمنعته بقومه من بنى هاشم وبنى عبــد المطّلب ، لقد رأى رسالة ربه تقف فى دائرة من اتّبعــه الى يومئــذ ممن يوشكون لقلّتهم ولضعفهم أن يَبِيــدوا أو أن يُفْتَنوا عن دينهم إذا لم يأتهم نصر الله والفتح . وتطاولت الأيّام بمحمد وهو يزداد بين قومه عزلة، وقريش تزداد عليه حقدا . فهل ضعضعت هذه العزلة نفسه أو أوهنت له عزما ؟ ! .

ثبات محمد

كلّا ! بل زاده الإيمان بالحق الذى جاءه من ربه سموًّا على هــذه الاعتبارات التى تَفُتّ فى عضد ذوى النفوس العاديّة ، ولا تزيد أصحابَ النفوس الممتازة إلا سموًّا

فصدّقت العيرانِ ما روى محمد عنهما . وأحسـبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح فى هذا لمـا رأوا فيـه عجبًا بعد الذى عرف العلم فى وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسى للتحدّث عن أشياء واقعـة فى جهات نائية . ما بالك بروح يجمع وحدة الحياة الروحية فى الكون كله و يستطيع بمـا وهبه الله من قوّة أن يتّصل بسرّ الحياة من أزل الكون الى أبده ! .

سَلَفَيْه موسى وعيسى . ولا عجب أن تهيّئ المقادير ليثرب هـذا الحظّ، ليتم لمحمد بها النصر، وللإسلام بها الفوز والانتشار .

الأوس والخزرج واليهـــود

هيّأت المقادير ليثرب هذا الحظّ بمـا لم تهيّئه لبلد آخر . فقد كانـ الأوس والخزرج من عُبّاد الأوثان بيثرب يجاورون يهودها ، جوارا كثيرًا ما شابته البغضاء وما تعدّى البغضاء الى القتال . وإن التاريخ ليروى أنّ المسيحيين فى الشام، ممن كانوا يتّبعون الدولة الرومانية الشرقيـة وكانوا يمقُتون اليهود أشدّ المقت لاعتقادهم أنهـم هم الذين صلبوا المسـيح ونكّلوا به ، قد أغاروا على يثرب ليقتلوا يهودها ؛ فلما لم يظفروا بهم استعانوا بالأوس والخزرج على استدراجهم ، ثم قتلوا عددا منهم غير قليل . وأنزل ذلك اليهود عن مكان السيادة الذى كان لهم، ورفع عربَ الأوس والخزرج الى مكانة غير مكانة العمّال التى كانوا مقصورين من قبلُ عليها . وقد حاول العرب من بعـد ذلك أن يُوقعوا باليهود مرّة أخرى ليزدادوا فى المدينـة العامرة بالزراعة والمـاء سلطانا، فنجحوا فى غدرهم بعض النجاح، ثم فطَن اليهود لوقيعتهم بهـم . بذلك تمكّنت العداوة والبغضاء فى نفوس يهود يثرب لأوسها وخزرجها ، وفى نفوس الأوس والخزرج لليهود . ورأى أتباع موسى أنّ مقابلة القتال بالقتال قد تهوى بهـم الى الفناء اذا وجد الأوس والخزرج حِلْفًا من بنى دينهم العرب على أهل الكتاب هؤلاء . لذلك سلكوا فى سياستهم خطّة غير خطة الغَلَب فى المعارك . لجـأوا الى سياسة الوقيعة والتفريق بأن دسّوا بين الأوس والخزرج وأغرَوْا بينهم بالعـداوة والبغضاء حتى جعلوا كل فريق على أُهبة مستمرة للقتل والقتال . بذلك أمِن اليهود عدوانهم وجعلوا يزيدون فى تجارتهم وفى ثروتهم ويستعيدون ما فقـدوا من سيادة، ويستردّون ما أضاعوا من دار ومن عقار .

الأثر الروحى لجوار اليهـــود

كان لجوار اليهود والعرب بيثرب، فيما خلا هذا النزاع على السيادة والسلطان، أثر آخر أعمق عنـد الأوس والخزرج ممـا كان عند سائر أهـل جزيرة العـرب . ذلك هو الأثر الروحى . فقد كان اليهود ، وهم أهل كتاب ودعاة وحدانية، يعيبون

وإيمـانا . وظلّ محمد، وأصحابه من حوله، أشدّ ما يكون فى عزلته ثقةً بنصر الله له و إعلاء دينه على الدين كله . لم تُزعزع منه أعاصير الحقد، بل جعل يقيم بمكة طَوالَ عامه لا يَعنيه أن ذهب مال خديجـة وماله، ولا يضعضع من نفســه ضيق ذات يده، ولا يتطلّع بروحه الى شيء غير هذا النصر الذى لا ريب عنده فى أن الله مُؤتيـه إيّاه . فاذا جاء موسم الحج واجتمع الناس من أنحاء شـبه الجزيرة بمكة، بادأ القبائلَ فدعاها الى الحق الذى جاء به، غير آبهٍ أن تبدى هذه القبائل الرغبة عن دعوته والإعراض عنه، أو تردّه ردّا غير جميل . و يتحرّش به بعض سفهاء قريش حين إبلاغه الناس رسالته و ينالونه بالسوء، فلا تغيّر مساءاتُهم رضا نفسه وطمأنينتها الى غده . إن الله ذا الجلال قد بعثه بالحق، فهو لا ريب ناصر هذا الحق ومؤيّده . وهو قد أوحى اليه أن يجادل الناس بالتى هى أحسن : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَـهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [(١)] . وأن يقول لهم قولا لَيِّنا لعلهم يَذَّكَّرون أو يَخْشَون . فليصبر على أذاهم، إن الله مع الصابرين .

تباشير الفوز من يثرب

ولم يطل بمحمد الانتظار أكثر من بضع سنين حتى بدت له فى الأفق تباشـير الفوز آتيـةً طلائعها من ناحية يَثْرِب . ولمحمد بيثرب علاقة غير علاقة التجارة : له بها علاقة قُرْبَى، وله فيها قبر كانت أمّه تحج اليه قبل موتها فى كل عام مرّة . أمّا ذوو قرباه بها فأولئك بنو النّجّار أخوال جدّه عبد المطلب . وأما ذلك القبر فقبر أبيه عبد الله بن عبـد المطلب . إلى هـذا القبر كانت تحجّ آمنـة الزوج الوفيّة، وكان يحجّ عبد المطّلب الأب الذى فقـد ابنه وهو فى شَرْخ شبابه وريعان قوّته . وقد صحب محمد أمّه الى يثرب فى السادسة من عمره، فزار معها قبر أبيه ثم قفلا عائدين، فمرِضت آمنة فى الطريق وماتت ودُفِنتْ بالأَبْواء فى منتصف الطريق بين يثرب ومكة . فلا عجب أن تبدأ تباشير الفوز لمحمد من ناحية بلدٍ له به هذه الصلة، والى ناحيته كان يتّجه حين يصلّى جاعلا قبلته المسـجد الأقصى ببيت المقدس، مقام

(١) سورة فصلت آية ٣٤

القرآن . فقال إياس بن معاذ، وكان غلاما حَدَثا، : أَىْ قومِ، هذا والله خير ممـا جئتم فيه . وعاد القوم الى يثرب لم يُسلم منهم غير إياس؛ لأنهم كانوا فى شغل بالتماس الحلف استعداداً لوقعــة بُعَاث التى اصطلى الأوس والخزرج جميعا بنارها بعد قليل من عود أبى الحَيْسَر ومن معه من مكة . لكن كلام محمد عليه السلام ترك فى نفوسهم بعد هذه الوقعة من الأثر ما دعا الأوس والخزرج جميعا ليلتمسوا فى محمد نبيًّا ورسولا وحليفا و إماما .

وقعــة بعاث

كانت وقعة بُعَاث بعــد قليل من عود أبى الحيسر ومن معه إلى يثرب؛ اِقتتل فيها الأوس والخزرج قتالا شديدا أملته عداوة متأصِّلة، حتى لكان كل قوم يسائل بعضهم بعضا إذا هم انتصروا : أيُبقون على أصحابهم أم يستأصلونهم ويُجهزون عليهــم . وكان أبو أُسَيْد حُضَــيْر الكتائب على رأس الأوس ، وكان فى نفسه من الحقد على الخزرج أشدّه . فلما بدأ القتال دارت على الأوس الدائرة، فولَّوْا فرارا نحو نَجْد ؛ فعــيَّرتهم الخزرج . فلما سمع حُضَــيْر تعييرهم طعن بسنان رمحه فخــذَه ونزل وصاح : وَا عَقْراه ! والله لا أَريم حتى أُقتل ! فان شئتم يا معشر الأوس أن تُسلمونى فافعلوا . فعاد الأوس للقتال وبهم من الألم ممـا أصابهم ما جعلهــم يستبسلون مستيئسين، حتى انهزمت الخزرج شرّ هزيمــة . وجعلت الأوس تحرق عليها نخلها ودورها، حتى أجارها سَعْدُ بنُ مُعَاذ الأَشْهَلى . وأراد حضير أن يأتى الخزرج قصرا قصرا ودارا دارا يقتل ويهدم حتى لا يُبقى منهم على أحد، لو لا أن منعه أبو قيس ابن الأَسْلَت إبقاءً على بنى دينهم؛ «بجوارهم خير من جوار الثعالب» .

واستعادت اليهود بعد هــذا اليوم مكانتها بيَثْرِب، حتى رأى المنتصر والمهزوم من الأوس والخزرج جميعا سوء ما صنعوا، وفكّروا فى عاقبــة أمرهم، وتطلّعوا إلى إقامة ملك عليهــم، واختاروا لذلك عبــد الله بن محمد من الخزرج المهزومة لمكانته وحسن رأيه . لكن تَطوُّر الأحوال تطوُّراً سريعا حال دون ما أرادوا . ذلك أن نفرًا من الخزرج خرجوا إلى مكة فى موسم الحج، فلقيهم محمد فسألهم عن شأنهم ، وعرف

على جيرانهم الوثنيين اتخاذَهم الأوثان زُلْفَى الى الله، وينذرونهم بعث نبيّ يقضى عليهم ويشايع اليهود . ولم تصل هذه الدعوة الى تهويد العرب لسببين . أحدهما : أن ما كان بين النصرانية واليهودية من حرب جعل يهود يثرب لا يطمعون فى أكثر من السلامة التى تهيئ لهم سعة التجارة . والآخر : أن اليهود يحسبون أنفسهم شعب الله المختار، ولا يريدون أن تكون لشعب غيرهم هذه المكانة ، وهم لذلك لا يدعون لدينهم ولا يرضونه يخرج من بنى إسرائيل . على رغم هذين السببين هيّأ اتصال الجوار والتجارة فى يثرب، بين اليهود والعرب، أوْسَ يثرب وخَزْرَجَها ليكونوا أكثر استماعا للحديث فى الشؤون الروحية وفى سائر شؤون الدين من غيرهم من العرب . يدلّك على ذلك أن العرب لم تستجب لدعوة محمد الروحية مثلما استجاب أهل يثرب .

سويد بن الصامت

كان سُوَيْد بن الصّامت من كبار أشراف يثرب ، حتى كان قومه يسمّونه الكامل بجَلَده وشِعْره وشَرَفه ونَسَبه . وفى هذه الفترة التى نتحدّث عنها قدِم سُويد مكة حاجًّا ، فتصدّى له محمد فدعاه الى الله والى الإسلام . فقال له سُوَيد : لعل الذى معك مثل الذى معى ! . قال محمد : وما الذى معك ؟ . قال : حِكمة لُقمان . فطلب إليه محمد أن يعرِضها عليه فعرضها ؛ فقال له محمد : إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل ، هو قرآن أنزله الله علىّ هدى ونورا . وتلا عليه القرآن ودعاه الى الإسلام . فطاب سويد نفسا بما سمع وقال : هذا حسن، وانصرف يفكر فيه . وإنّ قوما ليقولون حين قتلته الخزرج : إنه مات مسلما .

وليس سُوَيد بن الصامت هو المثل الوحيد الذى يدلّ على أثر تجاور اليهود والعرب بيثرب من الناحية الروحية . فقد كان بين الأوس والخزرج من العداوة التى بثّ اليهود ما علمت . وكان كل منهم يلتمس الحِلْف من قبائل العرب ليقاتل الآخر . وكان من ذلك أن قدِم أبو الحَيْسَر أنسُ بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن مُعَاذ يلتمسون الحِلْف من قريش على قومهم من الخزرج . وسمع بهم محمد فأتاهم فجلس اليهم ودعاهم الى الإسلام وتلا عليهم

إياس بن معاذ

ما يجـد زملاؤهم بمكة من أذى قريش ! وها هى ذى يثرب بهـا من الرخاء أكثر ممـا بمكة : بها زروع ونخيل وأعناب ! أو ليس من الخير أن يهاجر المسلمون والمكيّون الى إخوانهم هناك ليجدوا عندهم أمْنًا وليسلموا من فتنة قريش إيّاهم عن دينهم ! . وذَكَر محمد أثناء تفكيره أولئك النَّفر من يثرب الذين كانوا أوّل من أسلم ، والذين ذكروا له ما بين الأوس والخـزرج من عداوة ، وأنهـم اذا جمعهم الله به فلا رجل أعزّ منه . أو ليس من الخير، وقد جمعهم الله به، أن يهاجر هو أيضا ! إنه لا يحبّ أن يردّ على قريش مساءاتها وهو يعلم أنه أضعف منها ، وأن بنى هاشم وبنى المطلب إن منعوه من الاعتداء عليـه فلن ينصروه معتديا ، ولن يمنعوا الذين آتبعوه من اعتداء قريش عليهم ومن إصابتها إياهم بأنواع المساءة . و إذا كان الإيمان أقوى سـند يجعلنـا نستهين بكل شيء ونضحّى عن طيب خاطر فى سبيله بالمـال والراحة والحريّة والحياة ، و إذا كان الأذى من طبعه أن يزيد الإيمان استـعارا ، فإن فى استمرار الأذى والتضحية ما يشغل المؤمن عن دقة التأمّل التى تزيد فى أفق المؤمن سعة، وفى إدراكه للحق قوة وعمقا . وقد أمر محمد الذين اتبعوه من قبـل أن يهاجروا إلى الحبشـة المسيحية أن كانت بلاد صـدق، وكان بها ملك لا يُظْلَم عنـده أحد؛ فأولى بالمسلمين ثم أولى أن يهاجروا إلى يثرب وأن يتقوَّوْا بأصحابهـم المسلمين فيها، وأن يتآزروا بذلك على دفع ما يمكن أن يصيبهم من شرّ، ليكون لهم بذلك من الحريّة فى تأمُّل دينهـم والجهر به ما يكفل إعلاء كلمته، كما يكفل نجاح الدعوة اليـه ، دعوة لا تعرف الإكراه ، بل أساسها الرفق والإقناع والمجادلة بالتى هى أحسن .

تفكير محمد فى الهجرة

وكان الحاجّ من يثرب فى هذه السنة ـــ سنة ٦٢٢ ميلادية ـــ كثيرين بالفعل . وكان من بينهم خمســة وسبعون مسلما منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان . فلما عرف محمد مَقْدَمَهم فكّر فى بيعة ثانية لا تقف عنـد الدعوة الى الإسـلام على نحو ماظلّ هو يدعو اليه ثلاث عشرة سـنة متتابعة فى رفق وهوادة مع احتمال صنوف التضحية والألم جميعا، بل تمتدّ الى ماوراء ذلك وتكون حِلْفًا يدفع به هؤلاء المسلمون

بدء الإسلام بيثرب

أنهم من موالى يهود . وقد كان اليهود بيثرب يقولون لهم إذا اختلفوا و إيّاهم : إن نبيًّا مبعوثا الآن قد أظلّ زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عادٍ و إرَمَ . فلما كلّم النبيّ أولئك النَّفَر ودعاهم إلى الله ، نظر بعضهـم إلى بعض وقالوا : والله إنه لَلنبيُّ الذى تواعدكم به يهود ، فلا يسبِقُنَّكم اليـه . وأجابوا محمدا إلى دعوته وأسلموا وقالوا له : «إنّا قد تركنا قومنا — أى الأوس والخزرج — ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهـم ، فعسى أن يَجْمَعَهـم الله بك ، و إن يَجْمَعَهم عليك فلا رجلَ أعزّ منك» . وعاد هؤلاء النّفر إلى المدينـة ومن بينهم اثنان من بنى النجّار أخوال عبـد المطّلب جدّ محمد الذى كفَله منـذ مولده . عادوا فذكروا لقومهم إسـلامهم ؛ فألفَوْا قلوبا منشرحة ، ونفوسا متلهفة ، لدين يجعلهم موحّدين كاليهود ، بل يجعلهم خيرا منهم . فلم تبق دار من دور الأوس والخزرج جميعا إلا فيها ذِكْرٌ من محمد عليه السلام .

العقبة الأولى

فلمـا ٱستدار العام وعادت الأشهر الحرم وجاء موعد الحج لمكة ، أتى الموسم اثنا عشر رجلا من أهل يثرِب ، فالتقوا بالنبيّ بالعَقَبة فبايعوه بيعة العقبة الأولى . بايعوه على ألّا يُشرك أحدهم بالله شيئا ولا يسرقَ ولا يزنىَ ولا يقتلَ أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه فى معروف ؛ فان وَفَى ذلك فله الجنّة ، وإن غَشِيَ من ذلك شـيئا فأمره إلى الله ، إن شاء عذّب و إن شاء غفر . وأنفذ محمد معهم مُصْعَب بن عُمَير يُقرئهم القرآن و يعلّمهم الإسلام و يفقّههم فى الدين .

مصعب بن عمير

ازداد الإسلام بعد هـذه البيعة بيثرب انتشارا . وأقام مصعب بين المسلمين من الأوس والخزرج يعلّمهم دينهم و يلاحظ مغتبطا ازدياد الأنصار لأمر الله ولكلمة الحق . فلما آذنت الأشهر الحرم أن تعود ، لَحِق بمكة وقصّ على محمد خبر المسلمين بالمدينة وماهم عليه من مَنَعة وقوة ، وأنهـم سيجيئون الى مكة موسم حج هذا العام الجديد أكثر عددا وأعظم بالله إيمانا .

ودعت أخبار مصعب محمدا أن يفكر فى الأمر طويلا . هاهم أولاء أتباعه بيثرب يزدادون كل يوم عددًا وسلطانا ، ولا يجدون من أذى اليهود ولا من أذى المشركين

واحتكموا إلى النبيّ أوّل وصولهم إلى مكة ردّ محمد البَرَاء عن اتخاذ الكعبة قبلته . فلمّا طلب محمد الى مسـلمى يثرِب أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، مدّ البراء يده يبايعه على ذلك وقال :

الحوار قبل البيعة

— بايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحَلْقة وَرِثناها كابراً عن كابر .

وقبل أن يتم البراء كلامه اعترض أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهَان قائلا :

— يا رسول الله، إن بيننا و بين الرجال — أى اليهود — حِبالًا (١) نحن قاطعوها . فهـل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا .

فتبسّم محمد وقال :

— بل الدَّمَ الدَّمَ والهَدْمَ الهَـدْمَ . أنتم منّى وأنا منـكم ، أحارب من حاربتم وأُسالم من سالمتم .

وهمّ القوم بالبيعة، فاعترضهم العباس بن عُبَادة قائلا :

— يا معشر الخزرج ! أتعلمون عَلَامَ تُبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهِكتَ أموالُكم مُصيبةً وأشرافُكم قتلًا أسلَمْتُموه فمن الآن فدعوه، فهو والله إن فعلتم خِزْىُ الدنيا والآخرة . و إن كنتم ترون أنكم وافون له بمـا دعوتموه اليه على نَهْكَةِ الأموال وقَتْل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فأجاب القوم : إنّا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟

وردّ عليهم محمد مطمئن النفس قائلا : الجنّة .

ومدّوا اليه أيديهم، فبسط يده فبايعوه . فلما فرغوا من البيعة قال لهم النبيّ : أَخرِجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم كُفَلَاء . فاختار القوم

(١) الحبال : العهود .

عن أنفسهم الأذى بالأذى والعدوان بالعدوان . واتّصل محمد سرّا بزعمائهم وعرف حسن استعدادهم، فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبة جَوْفَ الليل فى أوسـط أيّام التَّشْريق . وكتم مسلمو يثرب مَنْ معهم من المشركين أمرهم وانتظـروا حتى إذا مضى ثلث الليل من يوم موعدهم مع النبيّ خرجوا من رِحالهم يَتسلَّلون تسلُّل القَطَا مُسْتَخْفِين حذر أن ينكشف سرّهم . فلما كانوا عند العقبة تسلّقوا الشِّعْبَ جميعا وتسلَّقت المرأتان معهم وأقاموا ينتظرون مَقْدَم صاحب الرسالة .

بيعة العقبة الثانية أو الكبرى

وأقبل محمد ومعه عمه العَبَّاس بن عبد المطّلب ، وكان ما يزال على دين قومه . لكنه عرف من قبـلُ من ابن أخيـه أن فى الأمر حِلفًا ، وأن الأمر قد يجرّ إلى حرب ، وذكر أنه قد تعاهد مع من تعاهد من بنى المطلب وبنى هاشم أن يمنعوا محمدا ؛ فليستوثِقْ لابن أخيـه ولقومه حتى لا تكون كارثة يصـلَى بنو هاشم وبنو المطلب نارها ، ثم لا يجدون من هؤلاء اليثربيّين نصيرا . لذلك كان العباس أوّل من تكلّم فقال : يا معشر الخزرج ، إنّ محمدا منّا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو فى عزّ من قومه ومَنَعة فى بلده . وقد أبى إلا الانحياز اليكم واللُّحـوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه اليـه ومانعوه ممّن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ؛ وإن كنتم مسـلميه وخاذليه بعـد خروجه اليكم فمن الآن فدعوه .

قال اليثربيّون وقد سمعوا كلام العباس :

— سمعنا ما قلتَ ، فتكلم يا رسول الله ، فخُذْ لنفسك ولربّك ما أحببت .

فأجاب محمد بعد أن تلا القرآن ورغَّب فى الإسلام :

— أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

وكان البَرَاءُ بن مَعْرُورٍ سـيّد قومه وكبيرهم ، وكان قد أسلم بعد العقبة الأولى وقام بكل ما يفرض الإسلام ، إلّا أنه جعل قبـلة صَلاته الكعبة ، وكان محمد والمسلمون جميعـا يومئذ ما تزال قبلتهم المسجد الأقصى . ولمـا اختلف قومه معه

لم تُبالغ قريش قطُّ فى فزعها ولا فى تتبُّعها الذين بايعوا محمدا على قتالهـا . فقد عرفته ثلاث عشرة سنة متتابعة منذ بدء نبوّته ، ووقفت من الجهود للحرب السلبيّة التى أعلنت عليــه ما جَهَدها وجَهَده ، ونال منها ونال منــه . عرفت ذلك القوىّ بالله ، المستمسك برسالة الحق لا يلاين فيها ولا يُداجى ، ولا يخاف فيها أذى ولا مساءة ولا قتلا . ولقــد خُيِّل الى قريش بعد أن أرهقته ومن معه بألوان الأذى و بعــد أن حاصرته فى الشِّعب و بعــد أن أدخلت على أنفس أهــل مكة جميعا من الرَّوع ما صدّهم عن اتّباعه ، أنها توشك أن تظفر به ، وأن تحصر نشاطه فى الدائرة الضيّقة من الأتباع الذين ظلّوا على دينــه ، وأنه ومن معه لا يلبثون إلا قليلا حتى تُضنيهم العزلة فيعودوا الى حكمها طائعين . أمّا اليوم و إزاء هذا الحِلْف الجديد فقد انفتح أمام محمد والذين معه باب الرجاء فى الغَلَب ، أو على الأقل باب الرجاء فى حرية الدعوة الى عقيدتهم ، والطعن على الأصنام وعُبّادها . ومن يدرى ما يكون أمر القوم من بعد ذلك فى شــبه جزيرة العرب كلها وقــد نصرتهم يَثْرِب بأوْسها وخزرجها ، وقد جعلتهم بمأمن من العــدوان وفسحت لهم حرّية القيام بفرائض دينهم ودعوة غيرهم الى الانضمام اليهم ! . فاذا لم تقض قريش على هــذه الحركة فى مهدها ، فالخوف من المستقبل لن يزال يساورها ، وفوز محمد عليها لن يزال يُقِضّ مَضْجَعها .

دقــة موقف الجانبين

لذلك أمعنت تفكر فيما تفعــل لتُحبط ما قام به محمد ولتقضى على هــذه الحركة الجديدة . ولم يكن هو من ناحيته أقل من قريش تفكيرا . إن هذا الباب الذى فتح الله أمامه هو باب العزّة لدين الله ، والسموّ لكلمة الحق . فالمعركة الناشبة اليوم بينه وبين قريش هى أشــد ما وقع منذ يوم بعثه ، وهى معركة حياة أو موت بالنسبة له ولها . والغَلَب لا ريب للصادقين . فليُجْمع أمره وليستعن بالله ، وليكن لمـا تكيد قريش أشد ازدراء ممـا كان فى كل ما سلف ، وليُقْدِمْ ولكن فى حكمة وأناة ودقة ؛ فالموقف موقف حنكة السياسىّ والقائد الدقيق المداورة .

هجرة المســلمين إلى يثرب

وأمر أصحابه أن يلحقوا الأنصار بيثرب على أن يتركوا مكة متفرّقين حتى

تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . فقال النبيّ لهؤلاء النُّقَبَاء : أنتم على قومكم بما فيهم كُفَلاء ككفالة الحَوَاريّين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومى . وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا : «بايعنا على السمع والطاعة فى عُسْرِنا ويُسرنا ومَنْشَطنا ومَكْرَهنا وأن نقول الحق أينما كنّا لا نخاف فى الله لومة لائم» .

البيعة

تمّ ذلك كله جَوْفَ الليل فى شِعب العَقَبة فى عزلة من الناس والقوم على ثقة من أنه لا يطّلع عليهم إلا الله . لكنهم ما كادوا يُتمّونه حتى سمعوا صوتا يصيح بقريش : إن محمدا والصُّبَاءَ[1] معه قد اجتمعوا على حربكم . ذلك رجل خرج لبعض شأنه فعرف من أمر القوم قليلا اتّصل بسمعه ، فأراد أن يُفسد عليهم تدبيرهم، وأن يدخل فى رُوعهم أن ما بَيَّتوا بليلٍ افتضح . لكنّ الخزرج والأوس كانوا عند عهدهم، حتى لقد قال العبّاس بن عُبَادة لمحمد بعد أن سمع هذا المتجسِّس : والله الذى بعثك بالحق إن شئت لَنَمِيلَنّ على أهل مِنًى غدًا بأسيافنا . فكان جواب محمد أن قال : « لم نُؤْمر بذلك ولكن ارجعوا الى رحالكم » . فرجعوا الى مضاجعهم وناموا حتى أيقظهم الصبح .

قريش وبيعة العقبة

على أن الصبح ما كاد يتنفّس حتى علمت قريش بنبأ هذه البيعة فانزعجت . وغدت جِلّتها على الخزرج فى منازلهم يُعاتبونهم ويقولون لهم : إنهم لا يريدون حربهم، فما بالهم يحالفون محمدا على قتالهم ! . وانبعث المشركون من الخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا شيء . أمّا المسلمون فاعتصموا بالصمت حين رأوا قريشا مالت لتصديق شركائها فى الدين . وعادت قريش لا تؤكد الخبر ولا تنفيه وأخذت تَتَنَطَّسُه علّها تقف على جليّة الأمر فيه . واحتمل أهل يثرب رحالهم وعادوا قاصدين بلدهم قبل أن تثق قريش بشيء مما حصل . فلمّا عرفت أن الخبر حق، خرجت تطلب أهل يثرب ، فلم تلحق منهم الا بسعد بن عبادة ، فأخذوه وردّوه إلى مكة وعذّبوه حتى أجاره جُبَير بن مُطْعِم بن عَدِيّ والحارث بن أميّة، لأنه كان يُجير لهما من يخرجون فى تجارتهما الى الشام حين مرورهم بيثرب .

(١) جمع صابئ وهو الخارج على دين قومه وجماعته .

ناحية يثرب . واجتمع القوم بدار النَّدْوة يفكرون فى هــذا كله وفى وسيلة اتّقائه . قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأَغلقوا عليه بابا ثم تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيرا والنابغة ومن مضى منهم ، حتى يصيبه ما أصابهم . لكن هــذا الرأى لم يلقَ سميعا . وقال قائل : نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ثم لا نُبالى بعــد ذلك من أمره شــيئا . لكنهم خافوا أن يلحَق بالمدينة وأن يصيبهم ما يفرَقون منه . وانتهوا الى أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابّا جليــدا وأن يُعطوا كل فتى سيفا صارما بتّارا فيضربوه جميعا ضربة رجل واحد ، فيتفرّق دمه بين القبائل ، ولا تقدِر بنو عبــد مناف على قتالهم جميعا ، فيرضوا فيــه بالدّية ، وتستريح قريش من هذا الذى بدّد شملها وفرّق قبائلها شِيَعا . وأعجبهم هذا الرأى فاطمأنوا اليه ، واختاروا فتيانهم ، و باتوا يحسبون أن أمر محمد قد فُرِغ منه ، وأنه بعد أيام سيُوارَى وتُوارى دعوته فى التراب ، وسيعود الذين هاجروا الى يثرب الى قومهم والى دينهم وآلهتهم ، وتعود بذلك لقريش ولبــلاد العرب وحدتها التى تمزَّقت ، ومكانتها التى تضعضت أو كادت .

لا يثيروا ثائرة قريش عليهم . وبدأ المسلمون يهاجرون فُرَادَى أو نفرًا قليلا . لكنّ قريشا فطنت للأمر فحاولت أن تردّ كل من استطاعت ردّه إلى مكة لتفتنه عن دينه أو لتعذّبه وتُنكّل به . وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه إذا كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه ، وأنها كانت تحبس من لم يُطعها وتستطيع حبسه . لكنها لم تكن تقدر على أكثر من ذلك حتى لا تكون حرب أهليّة بين مختلف قبائلها إذا هى همّت بقتل واحد من أهل هذه القبائل . وتتابعت هجرة المسلمين الى يثرب ومحمد مقيم حيث هو ، لا يعرف أحد أَعتزم الإقامة أم قرّر الهجرة . وما كانوا ليعرفوا وقد أذِن لأصحابه فى الهجرة الى الحبشة من قبل وظلّ هو بمكة يدعو سائر أهلها الى الإسلام . وبلغ من ذلك أن أبا بكر استأذنه فى الهجرة الى يثرب؛ فقال له : لا تَعْجَل لعل الله يجعل لك صاحبا . ولم يزد على ذلك .

قريش وهجرة النبي

على أنّ قريشا كانت تحسب لهجرة النبيّ الى يثرب ألف حساب . لقد كثر المسلمون فيها كثرة جعلتهم يكادون يكونون أصحاب اليد العليا . وها هم أولاء المهاجرون من مكة ينضمّون اليهم فيزيدونهم قوّة . فاذا لحِق محمد بهم وهو على ما يعرفون من ثبات وحسن رأى وبُعد نظر، خشُوا على أنفسهم أن يَدْهَم اليثربيّون مكة أو يقطعوا عليها طريق تجارتها الى الشام، وأن يُجيعوها، كما حاولوا هم أن يُجيعوا محمدا وأصحابه حين وضعوا الصحيفة بمقاطعتهم وأكرهوهم على أن يلزموا الشِّعب وأن يقضوا فيه ثلاثين شهرا .

وإذا بقى محمد بمكة وحاولوا منعه الخروج منها فهم معرّضون الى مثل هذا الأذى من جانب اليثربيين دفاعًا عن نبيّهم ورسولهم . فلم يبق إلا أن يقتلوه ليستريحوا من كل هذا الهمّ الواصب (١) . لكنهم إن قتلوه طالب بنو هاشم وبنو المطّلب بدمه وأوشكت الحرب الأهليّة أن تفشو فى مكة فتكون شرًّا عليها مما يخشونه من

(١) الواصب : الدائم الثابت أو الموجع .

في غار ثور

أنه لم يفرّ . فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج محمد فى غفلة منهم الى دار أبى بكر وخرج الرجلان من خَوْخة فى ظهرها وانطلقا جنوبا الى غار ثَوْر . فاتّجاههما نحو اليمن لم يكن مما يرد بالبال .

لم يعلم بمخبئهما فى الغار غير عبـد الله بن أبى بكر وأختيه عائشة وأسماء ومولاهم عامر بن فُهَيْرة . أمّا عبد الله فكان يقضى نهاره بين قريش يستمع ما يأتمرون بمحمد ليقصّه ليـلًا على النبيّ وعلى أبيـه . وأمّا عامر فكان يرعى غنم أبى بكر، وكان اذا أمسى أراح عليهما فاحتلبا وذبحا . وإذا عاد عبد الله بن أبى بكر من عنـدهما تبعه عامر بالغـنم فعفّى على أثره . وأقاما بالغـار ثلاثة أيام كانت قريش أثناءها تجِـدّ فى طلبهما غير وانيـة . وكيف لا تفعل وهى ترى الخطر محدقا بها إن هى لم تُدرك محمدا ولم تَحُلْ بينه وبين يثرب ! أمّا الرجلان فأقاما بالغار ومحمد لا يفتُر عن ذكر الله، إليه أسـلم أمره وإليـه تصير الأمور؛ وأبو بكرٍ يُرهِف أذنه يريد أن يعرف هل الذين يَقْفُون أثرهما قد أصابوا من ذلك نجاحا .

وأقبـل فِتيان قريش ، من كل بطنٍ رجل ، بأسـيافهم وعِصيّهم وهِراواتهم يدورون باحثين فى كل الأنحاء . والتقوا براعٍ على مقربةٍ من غار ثور سألوه ؛ فكان جوابه :

— قد يكونان بالغار، وإن كنت لم أر أحدا أمَّه .

وتصبّب أبو بكر عرقا حين سمِـع جواب الرّاعى، وخاف أن يقتحم الباحثون عنهما الغار ، فأمسك أنفاسَـه وبقى لا حَرَاك به وأسلم لله أمره . وأقبـل بعض القرشيّين يتسلّقون الغـار ثم عاد أحدهم أدراجَه . فسأله أصحـابه : مالك لم تنظر فى الغـار ؟ فقال : إن عليـه العنكبوت من قبـل ميلاد محمد، وقد رأيت حمامتين وَحْشيّتين بفم الغار فعرفت أن ليس أحد فيه . ويزداد محمد إمعاناً فى الصلاة، ويزداد أبو بكر خوفا، فيقترب من صاحبـه ويُلصق نفسه به، فيهمس محمد فى أذنه : لا تحزن ! إن الله معنا .

الفصل العاشر

هجرة الرسول

الأمر بالهجرة — علىّ فى فراش النبى — فى غار ثور — الخروج الى يثرب — قصة سراقة ابن جعشم — مسلمو يثرب فى انتظار الرسول — الإسلام بيثرب — دخول محمد المدينة

الأمر بالهجرة

اتّصل بمحمد نبأ مابيّتت قريش لقتله ، مخافة هجرته إلى المدينة واعتزازه بها ، وما قد يجرّ ذلك على مكة من أذى ، وعلى تجارتها مع الشام من بوار . ولم يكن أحد يشك فى أن محمدا سينتهز الفرصة فيهاجر . على أن ماأحاط به نفسه من كتمان لم يجعل لأحد الى سرّه سبيلا . حتى أبو بكر ، الذى أعدّ راحلتين منذ استأذن النبىّ فى الهجرة فاستمهله ، قد بقى لا يعرف من الأمر إلا قليلا . ولقد ظلّ محمد بمكة حتى علم من أمر قريش ما علم وحتى لم يبق من المسلمين بها إلا القليل . وإنه لينتظر أمر ربه إذ أوحى اليه أن يهاجر . هنالك ذهب الى بيت أبى بكر وأخبره بأن الله أذن له فى الهجرة ، وطلب الصدِّيق أن يصحَبه فى هجرته فأجابه الى ماطلب .

هنا تبدأ قصة من أجلّ ما عرف تاريخ المغامرة فى سبيل الحق والعقيدة والإيمان قوّة وروعة . كان أبو بكر قد أعدّ راحلتيه ودفعهما الى عبد الله بن أرَيْقِط يرعاهما لميعادهما . فلما اعتزَم الرجلان مغادرة مكة لم يكن لديهما ظلٌّ من ريب فى أن قريشا ستتبعهما . لذلك اعتزم محمد أن يسلك طرقا غير مألوفة وأن يخرج الى سفره فى موعد كذلك غير مألوف . وكان هؤلاء الشبّان الذين أعدّت قريش لقتله يحاصرون داره فى اللّيل مخافة أن يفرّ . ففى ليلة الهجرة أسرّ محمد إلى علىّ بن أبى طالب أن يتسجّى بُردَه الحَضْرَمىّ الأخضر وأن ينام فى فراشه ، وأمره أن يتخلّف بعده بمكة حتى يؤدّى عنه الودائع التى كانت عنده للناس . وجعل هؤلاء الفِتية من قريش ينظرون من فُرجة الى مكان نوم النبىّ فيرون فى الفراش رجلا فتطمئن نفوسهم الى

علىّ فى فراش النبى

ابن أبى بكر يكون فى قريش نهاره ومعهم ، يسمع ما يأتمرون وما يقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر . وكان عامر بن فُهَيْرة مولى أبى بكر يرعى فى رُعيان أهل مكة، فاذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا . فإذا عبد الله بن أبى بكر غدا من عندهما إلى مكة تبع عامر ابن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفّى عليه . حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس، أتاهما صاحبهما الذى آستأجرا ببعيريهما وبعيرٍ له . الخ ...» هذا ما ذكر ابن هشام عن قصة الغار نقلناه إلى حين خروج محمد وصاحبه منه .

وفى مطاردة قريش محمدا لقتله وفى قصة الغار هذه نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

الخروج الى يثرب

فى اليوم الثالث حين عرفا أن قد سكن الناس عنهما أتاهما صاحبهما ببعيريهما وبعيرله ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر بطعامهما . فلما ارتحلا لم تجد ما تعلّق به الطعام والماء فى رحالها فشقّت نِطاقها وعلّقت الطعام بنصفه وآنتطقت بالنصف الآخر؛ فسمّيت لذلك « ذات النطاقين » . وامتطى كل رجل بعيره، ومعهما طعامهما ومع أبى بكر خمسة آلاف درهم هى كل ماله . وزادهما اختفاؤهما بالغار وعلمهما بإمعان قريش فى تتّبعهما حرصا وحذرا ، فتخذا الى يثرب طريقًا غير الطريق الذى ألِف الناس . سلك بهما دليلهما عبد الله بن أُرَيْقِط (أحد بنى الدُّئِل) ممعنا إلى الجنوب بأسفل مكة ثم متّجها الى تهامة على مقربة من شاطئ البحر الأحمر . فلما كانا فى غير الطريق الذى ألِف الناس آتّجه بهما شمالا محاذيا الشاطئ

---

(١) سورة الأنفال آية ٣ (٢) سورة التوبة آية ٤٠

وفى رواية كتب الحديث : أن أبا بكر لمـا شعر بدنو الباحثين قال هامسا :

— لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا .

فأجابه النبيّ :

— يا أبا بكر ! ما ظنّك باثنين الله ثالثهما ! .

وزاد القرشيين اقتناعا بأن الغار ليس به أحد أن رأوا الشجرة تدلّت فروعها إلى فوهته ، ولا سـبيل إلى الدخول إليـه من غير إزالة هـذه الفروع . إذ ذاك انصرفوا . وسمع اللاجئان تَنَاديهم للأوبة من حيث أتوْا ؛ فازداد أبو بكر إيمانا بالله ورسوله ، ونادى محمد : الحمد لله ، الله أكبر .

معجزة الغـار

نسيج العنكبوت والحمامتان والشجرة ، تلك هى المعجزة التى تقصّ كتب السيرة فى أمر الاختفاء بغار ثور . ووجهُ المعجزة فيها أن هذه الأشياء لم تكن موجودة ، حتى إذا لجأ النبيّ وصاحبه إلى الغار أسرعت العنكبوت إلى نسيج بيتها تسترُ به من فى الغار عن الأعين ، وجاءت الحمامتان فباضتا عنـد بابه ، ونمت الشجرة ولم تكن نامية . وفى هذه المعجزة يقول المستشرق دِرْ مِنْجِم :

«هذه الأمور الثلاثة هى وحدها المعجزة التى يقصّ التاريخ الإسلامى الجِدّ : نسيج عنكبوت ، وهُوِىّ حمامة ، ونمـاء شجيرة ؛ وهى أعاجيب ثلاث لها كل يوم فى أرض الله نظائر» .

إغفال بعض السير إياها

على أن هذه المعجزة لم ترد فى سيرة ابن هشام ، بل كل ما أورد هذا المؤرّخ فى سياق قصة الغار ما يأتى : «عمَدا إلى غار بثور — جبل أسفل مكة — فدخلاه . وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر . وأمر عامرَ بن فُهَيْرة مولاه أن يرعى غنمه نهارَه ثم يُريحها عليهما إذا أمسى فى الغار . وكانت أسمـاء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بمـا يُصلحهما ... فأقام رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثا . وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يردّه عليهم . وكان عبـد الله

وتطيّر سراقة وألقى فى رُوعه أن الالهة مانعة منـه ضالّته ، وأنه معرِّض نفسه لخطر داهم إذا هو همّ مرة رابعة لإنفاذ محاولته . هنالك وقف ونادى القومَ : أنا سُراقة ابن جُعْشُم . أنْظرونى أكلِّمكم ، فوالله لا أُريبكم ولا يأتيكم منّى شىء تكرَهونه . فلما وقفا ينظرانه طلب إلى محمد أن يكتب له كتابا يكون آيةً بينه و بينه . وكتب أبو بكر بأمر النبىّ كتابا على عَظْم أو خزَف ألقـاه الى سراقة ؛ فأخذه وعاد أدراجه ، وأخذ نفسَه بتضليل من يطاردون المهاجِر العظيم بعد أن كان هو يطارده .

اثناء الطريق

وانطلق محمد وصاحبـه يقطعان بطون تهامة فى قيظ محرِق تتلظّى له رمال الصحراء ؛ ويجتازان إكامًا ووِهادا ولا يجـدان أكثر الأمر ما يتقيان به شُـواظ الهاجرة ، ولا يجـدان إلا فى صبرهما وحسن ثقتهما بالله وعظيم إيمانهما بالحقّ الذى أنزل على رسوله ، ملجأً من قسوة ما يحيط بهما ، وأمْنًا ممّـا يتخوّفان أن يفجأهما . وظلّا كذلك سبعة أيام متتابعة يُنيخان فى حَمَارَّة القيظ و يسريان على سفينة الصحراء اللّيل كله ، يجدان فى سكينته وفى ضوء النجوم اللّامعة فى ظلمته ما يطمئن له قلباهما وتستريح له نفساهما . فلما بلغا مقام قبيلة بنى سَهْم وجاء إليهما شيخها بُرَيْدَةُ يحيّيهما زالت مخاوفهما واطمأنت لنصر الله قلوبهما وقد صارا من يثرب قاب قوسين أو أدنى .

مسـلمو يثرب فى انتظار الرسول

فى فترة رِحلتهما هذه المُضنية كانت الأخبار قد ترامت الى يثرب بهجرة النبىّ وصاحبه ليلحَقا أصحابهما فيها ، وكانت قد عرفت ما لقِياَ من عنَت قـريش ومن تتبّعها إيّاهما . لذلك ظل المسلمون جميعا بها وهم ينتظرون مَقْـدَم صاحب الرساله بنفوس ممتلئة شوقا لرؤيتـه والاستماع له . وكان الكثيرون منهم لمّـا يروه و إن كانوا قد سمعوا من أمره ومن سحر بيـانه ومن قوة عزمه ما جعلهم للُقْياه أشـدّ اشتياقا ، وفى انتظاره أشـدّ تطلّعا . وإنك لتقـدر مبلغ ما كانت تجيش به هذه النفوس حين تعلم أن من سادة يثرب من لم يروا قط محمدا ومن اتبعوه بعد أن سمعوا أصحابه ، ممن كانوا أشدّ المسلمين لدين الله دعوة ولرسول الله حبّا . جلس سعد بن

مع الابتعاد عنه ، متخذا من السبل ما قلّ أن يطرُقه أحد . وأمضى الرجلان ودليلهما طِيلة الليل وصدر النهار على رواحلهم ، لا يعبأان بمشقة ولا يُضنيهما تعب . وأيّة مشقة أخوف ممّا يخافان من قريش لصدّهما عن الغاية التي يبتغيان بلوغها في سبيل الله والحق ! . صحيح أن محمدا لا تساوره ريبة في أن الله ناصره؛ ولكن لا تلقوا بأيديكم الى التَّهْلُكة . والله في عون العبد ما دام العبد في عون نفسه، وفي عون أخيه . ولئن كانا قد تخطّيا في أمان أيام الغار، فإن ما جعلته قريش لمن يردّهما أو يدل عليهما جدير بأن يستهوى نفوسا يغريها الكسب المادىّ ولو جاء من طريق الجريمة . فما بالك وهؤلاء العرب من قريش يعتبرون محمدا عدوًّا لهم، وفي نفوسهم من خُلُق الغِيلة ما لا يأنَف من الفتك بالأعزل والاعتداء على من لا يستطيع عن نفسه دفاعا . فليكونا إذًا على أشدّ الحذر، وليكونا أعينًا ترى وآذانا تسمع وقلوبا تشعر وتعى .

قصة سراقة

ولم يخنهما حَدْسُهما ؛ فقد أقبل على قريش رجل أخبرها أنه رأى رَكَبَةً ثلاثةً مرّوا عليه يعتقدهم محمدا وبعض أصحابه . وكان سُراقة بن مالك بن جُعْشُم حاضرا فقال : إنما هم بنو فلان؛ ليضلّل الرجل وليفوز بغنم النوق المائة . ومكث مع القوم قليلا ثم عاد الى بيته فتدجّج بسلاحه ، وأمر بفرسه فأرسل الى بطن الوادى حتى لا يراه أحد ساعة خروجه، وامتطاه ودفعه الى الناحية التي ذكر ذلك الرجل . وكان محمد وصاحباه قد أناخوا في ظل صخرة ليقيلوا وليرفّهوا عن أنفسهم بعض ما أرهقها من وَصَب، ولينالوا من الطعام والشراب ما لعلّهم يستعيدون به قوتهم وصبرهم .

وبدأت الشمس تحدر، وبدأ محمد وأبو بكر يفكران في امتطاء جمالهما إذ كانا من سُراقة قِيد البصر . وكان جواد سراقة قد كبا به قبل ذلك مرّتين لشدة ماجهَده . فلما رأى الفارس أنه وشيكُ النجاح وأنه مُدْرِك الرجلين فرادُّهما إلى مكة أو قاتلهما إن حاولا عن نفسيهما دفاعا ، نسي كبوتَيْ جواده ولزّه ليمسك بيده ساعة الظفر . لكنّ الجواد في قومته كبا كبوة عنيفةً ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج في سلاحه .

الى كاب ميت وليس معـه السيف . فلما كلمه رجال قومه أسلم بعد أن رأى بعينيه ما فى الشرك والوثنيّة من ضـلال يهوِى بنفس صاحبـه الى درك لا يجمُـل بإنسان .

يسيرٌ عليك أن تقدّر، مع ما بلغ الإسلام من علوّ الشأن بيثرب، تحرُّق أهلهـا شـوقا الى مقدم محمد عليهم بعد إذ علموا بهجرته من مكة . كانوا يخرجون كل يوم بعـد صلاتهم الصبح الى ظاهر المدينـة يتلمَّسونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال فى هذه الأيام الحارّة من شهر يوليه . و بلغ هو قُبَاء (على فرسخين من المدينة) فأقام بها أربعة أيام ومعه أبو بكر . وفى هذه الأيام الأربعة أسّس مسجدها . و بينما هم بها وصل إليها علىّ بن أبى طالب الذى ردّ الودائع التى كانت عند محمد لأصحابها من أهل مكة ثم غادرها يقطع الطـريق الى يثرب على قدميـه ، يسير الليل ويَستخفى بالنهار، ويحتمل هذا الجهد المضنى أسبوعين كاملين ليلحَق بإخوانه فى الدّين .

وإن مسلمى يثرب لينتظرون يوما كعادتهم إذ صاح بهم يهودى كان قد رأى ما يصنعون : «يا بنى قَيْلة، هذا صاحبكم قد جاء» . وكان هـذا اليوم يوم جمعة فصلّاها محمد بالمدينة . وهناك فى المسجد الذى ببطن وادى رَانُونَا أقبل عليه مسلمو يثرب وكلٌّ يحاول أن يراه وأن يقترب منه ، وأن يملأ عينيه من هـذا الرجل الذى لم يره من قبل ، والذى امتـلأت مع ذلك نفسه بحبّه و بالإيمان برسالتـه ، والذى يذكره كل يوم أثناء صلاته مرّات . وعَرض عليـه رجال من سادة المدينـة أن يُقيم عندهم فى العَدَد والعُدّة والمَنَعة؛ فآعتـذر لهم وآمتطى ناقته وألقى لهـا خِطامها فانطلقت فى طرق يثرب والمسلمون من حولها فى حَفْل حافل يُخلون لها طريقها ، وسائر أهل يثرب من اليهود والمشركين ينظرون الى هذه الحياة الجـديدة التى دبّت الى مدينتهم ، والى هذا القادم العظيم الذى اجتمع عليـه من الأَوْس والخَزْرَج من كانوا من قبـلُ أعداء متقاتلين ، ولا يجول بخاطر أحدهم فى هذه البرهة التى اعتدل فيها ميزان التـاريخ الى وجهته الجديدة ما أعدّ القـدر لمدينتهم من جلال وعظمة دخول محمد المدينة

زُرَارَة ومُصْعَب بن عُمَير فى حائط من حوائط بنى ظَفَر واجتمع اليهما رجال ممّن أسلم ، فبلغ نبؤهما سعد بن مُعاذ وأُسَيد بن حُضَيْر ، وكانا يومئذ سيّدَىْ قومهما . فقال سعد لأسيد : انطلق الى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفّها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما ، فإن سعد بن زُرارة ابن خالتى ولا أجد عليه مَقْدَما . فذهب أُسيد إليهما يزجرهما . فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرًا قبلتَه وإن كرِهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال أُسيد : أنصفتَ . وركزَ حربتَه وجلس إليهما ، وسمع الى مصعب فقام مُسْلِماً وعاد الى سعد بوجه غير الوجه الذى تركه به . فغاظ ذلك سعدا ، وقام هو الى الرجلين فكان أمره كأمر صاحبه . وكان من أثر ذلك أن ذهب سعد الى قومه فقال :

انتشار الاسلام بيثرب

يا بنى عبد الأَشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

قالوا : سيّدنا وأوصلنا وأفضلُنا رأيًا وأيْمَنُنا نَقيبة .

قال : فإن كلام نسائكم ورجالكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

فأسلم بنو عبد الأشهل جميعا رجالا ونساء .

وبلغ من انتشار الإسلام بيثرب ومن بأس المسلمين فيها من قبل هجرة النبىّ اليها ما لم يحلم به مسلمو مكة ، وما طوّع لبعض الشبّان من المسلمين أن يعبَثوا بأصنام المشركين من أهلهم . كان لعمرو بن الجَمُوح صنمٌ من خشب يدعوه مَنَاة ، قد اتخذه فى داره كما كان الأشراف يصنعون . وكان عمرو سيّدًا من سادات بنى سَلِمة وشريفا من أشرافهم . فلما أسلم فتيان قومه كانوا يُريحون بالليل على صنمه فيحملونه فيكبّونه على رأسه فى إحدى الحُفَر التى يخرج أهل يثرب لقضاء حاجاتهم بها . فاذا أصبح عمرو فلم يجد الصنم التمسه حتى يعثر به ثم غسله وطهره وردّه مكانه وهو يبرق ويرعد ويتهدّد ويتوعّد . وكرّر فتيان بنى سَلِمَة عبَثَهم بمناة ابن الجموح ، وهو كل يوم يغسله ويطهّره . فلما ضاق بهم ذَرْعا علّق على الصنم سيفه وقال له : إن كان فيك خير فامتنِعْ ، فهذا السيف معك . وأصبح فالتمسه فوجده فى بئر مقرونا

الفصل الحادى عشر

أوّل العهـــــــد بيـــثرب

استقبال يثرب للهاجر العظيم — بناء المسجد ومنزل النبىّ — تفكير محمد فى حرية العقيدة لأهل يثرب جميعا — يهود المدينة — مؤاخاة محمد بين المهاجرين والأنصار — معاهدته مع اليهود لتقرير حرية الاعتقاد — زواج محمد بعائشة — الأذان للصلاة — مثل محمد وتعاليمه — قوة الدين الجديد وخوف اليهود منها — تحويل القبلة من المسجد الأقصى الى المسجد الحرام — وفد نصارى نجران الى المدينة — التقاء الأديان الثلاثة بيثرب — تفكير المسلمين فى موقفهم من قريش

أسباب استقبال اليثربيين للنبى

خرج أهل يثرب لاستقبال محمد زَرافات ووحدانا ، رجالا ونساء ، بعد الذى ترامى إليهم من أخبار هجرته ومن ائتمار قريش به ، ومن احتماله فى أشدّ القيظ هذه الرحلة المضنية بين كُثبان تِهامة وصخورها التى تردّ ضوء الشمس لظًى وسعيرا . وخرجوا يُثيرهم تطلّعهم ، لما انتشر من خبر دعوته فى أنحاء شبه الجزيرة وما تقضى عليه هذه الدعوة من عقائد ورثها أهلها عن آبائهم وكانت عندهم موضع التقديس . لكنّ خروجهم لم يكن راجعا الى هذين السببين وكفى ، بل كان راجعا أكثر من ذلك الى أنه هاجر من مكة الى يثرب ليقيم بها . فكل طائفة وكل قبيلة من أهل يثرب كانت ترتّب على هذا المقام ، من الناحية السياسية والاجتماعية ، آثارا شتى ، هى التى استخفّتهم أكثر مما استخفّهم التطلّع ليخرجوا فينظروا الى هذا الرجل وليروا هل تؤيّد سِيماه حَدْسَهم أو هى تدعوهم الى تعديله . لذلك لم يكن المشركون ولا كان اليهود أقلّ إقبالا من المسلمين ، مهاجريهم والأنصار ، على استقبال النبىّ . ولذلك أحاطوا به جميعا وكلّ يخفق قلبه خفقانا مختلفا عن صاحبه باختلاف ما يجول بنفسه إزاء القادم العظيم . وقد اتّبعوه إذ ألقى بخِطام ناقته على غاربها فى شيء من عدم النظام أدّى إليه حرص كلٍّ على أن يجتلى محيّاه ، وأن يحيط نواحيه جميعا بنظرة ترسم فى نفسه صورة من هذا الذى عقد بيعة العقبة الكبرى مع من بايعه من

يَبقيان على الزمن ما بقى الزمن . وجعلت الناقة تسير حتى كانت عند مِرْبَد لغلامين يتيمين من بنى النَّجّار. هنالك بركت، ونزل الرسول عنها، وسأل لمن المِربد؟ فأجابه مُعَاذ بن عَفْراء : إنه لسَهْل وسُهَيْل ابنى عمرو وهما يتيمان له وسيُرضيهما ، ورجا محمدا أن يتخذه مسجدا . وقبل محمد وأمر أن يُبنى فى هذا المكان مسجده وأن تُبنى داره .

الأنفس إيمانا بها من خوف أذى قريش وعَنَتها . والأذى والعنت يحولان بين الإيمان والقلوب التى لمّا يدخل الإيمان فيها . فيجب أن يؤمن المسلمون وأن يؤمن غيرهم بأن من اتبع الهدى ودخل فى دين الله بمأمن من أن يصيبه الأذى، ليزداد المؤمنون إيمانا، وليُقبل على الإيمان المتردد والخائف والضعيف . فى هذا كان يفكر محمد أوّل طمأنينته الى مسكنه بيثرب، والى هذا كانت تتجه سياسته. وفى هذا الاتّجاه يجب أن يُتَرْجَم لحياته. هو لم يكن يفكر فى ملك ولا فى مال ولا فى تجارة؛ بل كان كل همه توفير الطمأنينة لمن يتبعون رسالته، وكفالة الحرية لهم فى عقيدتهم ككفالتها لغيرهم فى عقيدتهم . يجب أن يكون المسلم واليهودىّ والنصرانىّ سواء فى حرية العقيدة، وفى حرية الرأى وحرية الدعوة اليه . فالحرية وحدها هى الكفيلة بانتصار الحق وبتقدم العالم نحو الكمال فى وحدته العليا . وكل حرب على الحرية تمكين للباطل ونشر لجيوش الظلام لتقضى على جذوة النور المضيئة فى النفس الإنسانية، والتى تصل بينها وبين الكون كله، من أزله الى أبده، صلةَ اتّساق ومحبّة ووحدة، لا صلة نفور وحرب وفناء .

كفالة حرية العقيدة

هذه الوجهة فى التفكير هى التى نزل بها الوحى على محمد منذ الهجرة، وهى التى جعلته جنوحا للسلم، راغبا عن القتال، مقتصدا طول حياته أشدّ القصد فيه، غير لاجئ اليه الا لضرورة تقتضيه الدفاعَ عن الحرية دفاعا عن الدين وعن العقيدة . ألم يقل له أهل يثرب ممن بايعوه فى العقبة الثانية حين سمعوا المتجسّس عليهم يصيح بقريش ينبّهها لأمرهم : « والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلنّ على أهل مِنًى غدًا بأسيافنا » . فكان جوابه : « لم نؤمَرْ بذلك » . ألم تكن أوّل آية نزلت فى القتال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[1] . ألم تكن الآية التى تلت هذه فى أمر القتال قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾[2] . فتفكير محمد إذًا إنما كان متجها الى غاية واحدة عليا هى كفالة حريّة العقيدة والرأى كفالة فى سبيلها وحدها أُحِلّ

رغبة محمد عن القتال

(١) سورة الحج آية ٣٩ (٢) سورة الأنفال آية ٣٩

أهل هذه المدينة على حرب الأسود والأحمر من الناس ، والذى هجر وطنه وفارق أهله واحتمل عدوانهم وأذاهم ثلاث عشرة سنة متتابعة فى سبيل توحيد الله توحيدا أساسُه النظر فى الكون واجتلاء الحقيقة من طريق هذا النظر .

بناء المسجد ومساكن الرسول

وبَرَكت ناقة النبىّ عليه السلام على مِرْبَدْ سَهْل وسُهَيْل ابنى عمرو ، فابتاعه ليبنيه مسجدا له . وأقام أثناء بنائه فى دار أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارىّ . وعمل محمد فى بناء المسجد بيديه ، ودأب المسلمون من المهاجرين والأنصار على مشاركته فى بنائه حتى أتمّوه وأقاموا من حوله مساكن الرسول . وما كان بناء المسجد ولا كان بناء المساكن ليرُهق أحدا وقد كانت كلها من البساطة بما يتفق وتعاليم محمد . كان المسجد فناء فسيحا بُنيت جدرانه الأربعة من الآجُرّ والتراب ، وسُقف جزء منه بسعف النخل وتُرك الجزء الآخر مكشوفا ، وخُصّصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون سكنا . ولم يكن المسجد يُضاء ليلا إلا ساعة صلاة العشاء إذ توقد فيه أنوار من القش أثناءها . وكذلك ظلّ تسع سنوات متتابعة شُدّت بعدها مصابيح إلى جذوع النخل التى كان يعتمد سقفه عليها . ولم تكن مساكن النبىّ أكثر من المسجد ترَفا ، وإن كانت بطبيعتها أكثر منه استتارا .

بنى محمد مسجده ومساكنه وأوى من بيت أبى أيوب اليها . ثم جعل يفكر فى هذه الحياة الجديدة التى استفتح ، والتى نقلته ونقلت دعوته خطوة جديدة واسعة . فقد ألفى هذه المدينة وبين عشائرها من التنافر ما لم تعرف مكة ؛ لكنه ألفى قبائلها وبطونها تصبو إلى حياة فيها من السكينة ما يجنُبها الخلاف والحزازات التى مزّقتها فى الماضى شر ممُزَّق ، وما يهيّء لها فى المستقبل طمأنينة تطمع معها أن تكون أوفر من مكة ثروة وأعظم جاها . وما كانت ثروة يثرب ولا كان جاهها أول ما يعنى محمدا وإن كان بعض ما يعنيه . إنما كان همّه الأول والآخر هذه الرسالة التى عهد الله اليه فى تبليغها والدعوة إليها والإنذار بها . لقد حاربها أهل مكة من يوم بعثه إلى يوم هجرته أهولَ الحرب ، فحال ذلك دون امتلاء كل القلوب بنورها وكل

اليه تفكيره بطبيعة الحال تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم، للقضاء على كل شبهة فى أن تثور العداوة القديمة بينهم . ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتآخَوْا فى الله أخوَيْن أخوين . فكان هو وعلىّ بن أبى طالب أخوين . وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين . وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين . وكان عمر بن الخطاب وعِتْبان بن مالك الخزرجىّ أخوين . وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين الذين كثر عددهم بيثرب، بعد أن تلاحق اليها سائر من كان منهم بمكة فى أعقاب هجرة الرسول إيّاها، مع واحد من الأنصار إخاءً جعل له الرسول حكم إخاء الدم والنّسب . وبهذه المؤاخاة ازدادت وحدة المسلمين توكيدا .

المؤاخاة بين المسلمين

وأظهر الأنصار من كرم الضيافة لإخوانهم المهاجرين ما تقبّله هؤلاء أوّل الأمر مغتبطين . ذلك بأنهم تركوا مكة، وتركوا وراءهم ما يملكون فيها من مال ومتاع، ودخلوا المدينة ولا يكاد الكثيرون منهم يجدون قوتهم . ولم يكن منهم على جانب من الثراء والنعمة غير عثمان بن عفّان؛ أما الآخرون فقليل منهم من احتمل من مكه شيئا ينفعه . وقد ذهب حمزة عمّ الرسول يوما يطلب إليه أن يجد له ما يقتات به . وكان عبد الرحمن بن عَوْف وسعد بن الربيع أخوين، ولم يكن عبد الرحمن يملك بيثرب شيئا . فعرض سعد عليه أن يشاطره ماله . فأبى عبد الرحمن وطلب إليه أن يدلّه على السوق، وفيها بدأ ببيع الزُّبْد والجبن، واستطاع بمهارته التجاريّة أن يصل الى الثروة فى زمن قصير، وأن يَمْهَر إحدى نساء المدينة، وأن تكون له قوافل تذهب فى التجارة وتجىء . وصنع غير عبد الرحمن من بعض المهاجرين صنيعه؛ فقد كان لهؤلاء المكيين من الدراية فى شؤون التجارة ما قيل معه عن أحدهم : إنه ليُحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهبا .

المشتغلون بالتجارة

أمّا الذين لم يشتغلوا بالتجارة، ومن بينهم أبو بكر وعمر وعلىّ بن أبى طالب وغيرهم، فقد عملت أسرهم فى الزراعة فى أراضى الأنصار مُزارعة مع مُلّاكها . وكان غير هؤلاء وأولئك يلقَوْن من الحياة شدّة وبأساء؛ لكنهم كانوا يأبون أن

المشتغلون بالزراعة

القتال، ودفاعا عنها أبيح دفع المعتدى حتى لا يُفتَن أحد عن دينه، ولا يُظلَم أحد بسبب عقيدته أو رأيه .

تفكير أهل يثرب

بينما كانت هذه وجهة محمد فى التفكير فى أمر يثرب وما يجب لكفالة الحرية فيها، كان أهل هذه المدينة ممن استقبلوه يفكرون، وإن كان كل فريق يفكر على نحوٍ يخالف تفكير غيره . فقد كان بيثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار؛ وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج، وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت؛ ثم كان بها اليهود، يقيم منهم بنو قَيْنُقَاع فى داخلها، ويقيم بنو قُرَيْظة فى فَدَك، وبنو النَّضِير على مقربة منها، ويهود خَيْبَر فى شمالها . أمّا المهاجرون والأنصار فقد ألّف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط، وإن بقيت فى نفس محمد بعض المخاوف أن تثور البغضاء القديمة بينهم يوما، مما جعله يفكر فى وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيرا كان له من بعدُ أثره . وأمّا المشركون من سائر الأوس والخزرج، فقد ألْفَوْا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافا نهكتهم الحروب الماضية، فاتّجه همّهم للوقيعة بين هؤلاء وأولئك . وأمّا اليهود فبادروا باديء الرأى إلى حسن استقبال محمد ظنًّا منهم أن فى مقدورهم استمالته اليهم وإدخاله فى حِلفْهم، والاستعانة به على تأليف جزيرة العرب حتى تقف فى وجه النصرانية التى أجْلَت اليهود، شَعب الله المختار، عن فلسطين أرض المَعَاد ووطنهم القومىّ . وانطلق كلٌّ على أساس تفكيره يمهّد أسباب النجاح لبلوغ غايته .

هنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة محمد لم يسبقه اليه أحد من الأنبياء والرسل. هنا يبدأ الطور السياسىّ الذى أبدى محمد فيه من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف دهشا ثم يطأطئ الرأس إجلالا وإكبارا . كان أكبر همّه أن يصل بيثرب، موطنه الجديد، الى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبلُ فى سائر أنحاء الحجاز، وإن كانت قد عرفت الى ما قبل ذلك بكثير ببلاد اليمن . فتشاور هو ووزيراه أبو بكر وعمر، فكذلك كان يسمّيهما . وقد كان أوّل ما انصرف

بالمقدرة السياسيّة و بالدفاع عن حريّة إيمان الناس بها، ولو دفاعا مسلّحا فيه الحربُ والقتال . انتشرت المسيحية على يد الحَوَاريّين من بعد عيسى ، فظلّوا ومن تبعهم يعذَّبون، حتى جاء من الملوك من لان قلبه لهــذا الدين فآواه ونشره . وكذلك كان أمر سائر الأديان فى شرق العالم وغربه . فأمّا محمد فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه ، وأن يكون الرسولَ والسياسيَّ والمجاهدَ والفاتح، كل ذلك فى سبيل الله، وفى سبيل كلمة الحق التى بُعث بها . وهو قد كان فى ذلك كله عظيما، وكان مَثَلَ الكمالِ الإنسانى على ما يجب أن يكون .

كتب محمد بين المهاجرين والأنصار كتابا وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم . وهذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا كتاب من محمد النبيّ بين المؤمنين والمسلمين من قريش و يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على رِبعتهم(١) يتعاقلون بينهم وهم يَفْدُون عانِيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . — ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار : بنى الحارث ، وبنى ساعدة، وبنى جُشَم ، وبنى النجّار، وبنى عمرو بن عوف، وبنى النَّبِيت، الى أن قال : — وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً(٢) بينهم أن يُعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل . ولا يحالف مؤمن مولى مؤمنٍ دونه . وأن المؤمنين المتّقين على من بغى منهــم أو ابتغى دَسِيعةَ(٣) ظُلِم أو إثم أو عُدوانٍ أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولَدَ أحدهم . ولا يَقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن . وإن ذمّــة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم . وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون

(١) على ربعتهم أى على استقامتهم . يريد على أمرهم الذى كانوا عليه .
(٢) المفرح : المثقل بالدين والعيال .
(٣) دسيعة ظلم : طبيعته .

يعيشوا كَلًّا على غيرهم؛ فكانوا يجهَدون أنفسهم فى العمل أشدّ الجهد، ويجدون فى ذلك من لذّة الطمأنينة لأنفسهم ولعقيدتهم ما لم يكونوا يجدونه بمكة. على أن جماعة من العرب الذين وفدوا على المدينة وأسلموا، كانوا فى حال من العَوَز والمَتْرَبة، حتى لم يكن لأحدهم سكن يلجأ إليه. هؤلاء أفرد محمد لهم صُفَّة المسجد (وهى المكان المسقوف منه) يبيتون بها ويأوون إليها، ولذلك سُمّوا أهل الصُّفّة، وجعل لهم رزقا من مال المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقا حسنا.

اِطمأنّ محمد إلى وحدة المسلمين بهذه المؤاخاة. وهى لا ريب حكمة سياسية تدلّ على سلامة تقدير وبعد نظر، نتبيّن مقدارهما حين نقف على ما كان من محاولة المنافقين الوقيعة بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لإفساد أمرهم. لكن العمل السياسىّ الجليل حقا والذى يدلّ على أعظم الاقتدار، ذلك ما وصل به محمد إلى تحقيق وحدة يثرب وإلى وضع نظامها السياسىّ بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرّية والتحالف. وقد رأيت اليهود كيف أحسنوا استقباله أملا فى استدراجه إلى صفوفهم. وقد بادر هو إلى ردّ تحيّتهم بمثلها، وإلى توثيق صلاته بهم؛ فتحدّث إلى رؤسائهم وتقرّب إليه كبراؤهم، وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبار أنهم أهل كتاب موحِّدون. وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم صومهم، وكانت قبلته فى الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومَثابة بنى إسرائيل جميعا. وما كانت الأيام لتزيده باليهود أو لتزيد اليهودَ به إلا مودة وقربى. كما أنّ سيرته، وعظيم تواضعه، وجميل عطفه، وحسن وفائه، وفيض برّه بالفقير والبائس والمحروم، وما أورثه ذلك من قوّة السلطان على أهل يثرب؛ كل ذلك وصل بالأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد. معاهدة هى، فى اعتقادنا، من الوثائق السياسيّة الجديرة بالإعجاب على ممرّ التاريخ. وهذا الطور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبىّ أو رسول. فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلّغونها للناس من طريق الجدل ومن طريق المعجزة، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة

مودّة محمد واليهود

لأهل هذه الصحيفة . وأن الجار كالنفس غيرَ مُضَارٍّ ولا آثم . وأنه لا تُجَارُ حرمةٌ إلا بإذن أهلها . وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَث أو اشتجار يُخاف فسادُه فإن مَرَدَّه الى الله والى محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأن الله على أتْقَى ما فى هذه الصحيفة وأبَرِّه . وأنه لا تُجار قريش ولا مَنْ نَصرها . وأن بينهم النصر على من دهَم يَثْرِب ، وإذا دُعُوا الى صلح يصالحونه ويلبَسونه فإنهم يُصالحونه ويلبسونه . وأنهم إذا دَعَوْا الى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا مَنْ حارب فى الدين ، على كل أُناس حصتهم من جانبهم الذى قِبَلهم . وأن يهود الأوس مواليَهم وأنفسَهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة . وأن البرّ دون الإثم ، لا يكسِب كاسبٌ إلا على نفسه . وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبَرِّه . وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم . وأن من خرج آمنٌ ومن قعد آمنٌ بالمدينة إلا من ظلَم وأثِم ، وأنّ الله جارٌ لمن برّ واتّقى ” .

فتح جديد فى الحياة السياسية

هذه هى الوثيقة السياسية التى وضعها محمد منذ ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ، والتى تقرر حرّية العقيدة وحرّية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة . وهى فتح جديد فى الحياة السياسية والحياة المدنيّة فى عالَم يومئذ ؛ هذا العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد وتعيث فيه يد الظلم فسادا . ولئن لم يشترك فى توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قُرَيْظة وبنو النَّضير وبنو قَيْنُقَاع إنهم ما لبثوا بعد قليل أن وقّعوا بينهم وبين النبىّ صُحُفا مثلها . وكذلك أصبحت المدينة وماوراءها حرمًا لأهلها ، عليهم أن ينضحوا عنها ويدفعوا كل عادية عليها ، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررت هذه الوثيقة فيها من الحقوق ومن صور الحرية .

زواج النبى من عائشة

طاب محمد نفسا بهذه النتيجة ، وسكن المسلمون الى دينهم وجعلوا يقيمون فرائضه مجتمعين ويقيمونها فُرادى لا يخافون أذًى ولا يخشون فتنة . إذ ذاك بنى محمد بعائشة بنت أبى بكر ، وكانت فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها . وكانت فتاة رقيقة حلوة القَسِمات محبَّبة العشرة ، وكانت تخطو دِراكا من الطفولة

الناس . وأنه مَنْ تبعنا من يَهُودَ فإن له النصرَ والأُسْوةَ(١) غيرَ مظلومين ولا مُتَناصَرٍ عليهم . وأنّ سَلْمَ المؤمنين واحدة لا يُسالِمُ مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعَدْل بينهم . وأنّ كلّ غازيةٍ غزتْ معنا يعقُب بعضها بعضا . وأنّ المؤمنين يُبِيءُ(٢) بعضُهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله . وأنّ المؤمنين المتّقين على أحسن هدى وأقومه . وأنه لا يُجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن . وأنه مَنِ اعتبط(٣) مؤمنًا قتلًا عن بيّنةٍ فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولىّ المقتول . وأنّ المؤمنين عليه كافّة ، ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه . وأنه لا يحلّ لمؤمن أقرّ بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثًا(٤) ولا يُؤْويه . وأنه مَنْ نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يُؤخذ منه صَرْفٌ ولا عَدْل . وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مَرَدّه إلى الله و إلى محمد (عليه الصلاة والسلام) . وأنّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . وأن يهود بنى عوف أمّة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظَلَمَ أو أثِمَ فإنه لا يُوتِغُ(٥) إلّا نفسه وأهلَ بيته . وأن لِيهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جُشَم ويهود بنى الأوس ويهود بنى ثَعْلَبة وجَفْنة ولبنى الشُّطَيْبة(٦) مثل ما ليهود بنى عوف . وأنّ موالى ثَعْلَبة كأنفسهم . وأن بِطانة يهود كأنفسهم . وأنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد (عليه الصلاة والسلام) . وأنه لا يتحجّر(٧) على ثأرٍ جرحٌ . وأنه مَنْ فتك فبنفسه وأهل بيته إلّا من ظلَم . وأن الله على أبرّ هذا . وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم . وأنه لم يأثَم آمرؤ بحليفه . وأن النصر للمظلوم . وأن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . وأن يثرب حرامٌ جوفها

---

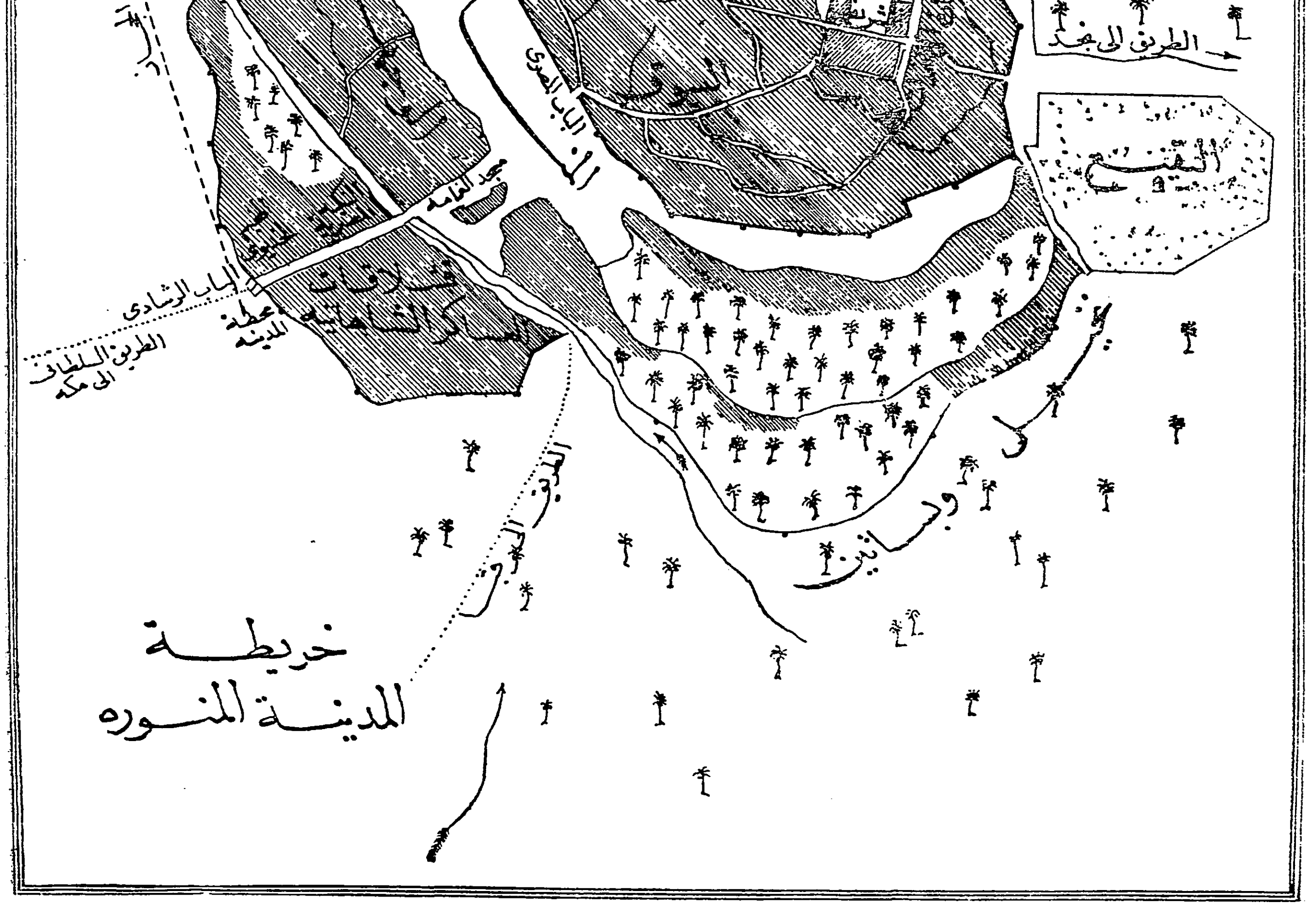
(١) أى المساواة فى المعاملة . (٢) يقال أبأت فلانا بفلان اذا قتلته به ، يريد أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم . (٣) اعتبطه أى قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله . (٤) محدثا : جانيا . (٥) يوتغ : يهلك ويفسد . (٦) فى البداية والنهاية لابن كثير : « ولبنى الشطنة » . (٧) يريد : لا يلتئم جرح على ثأر .

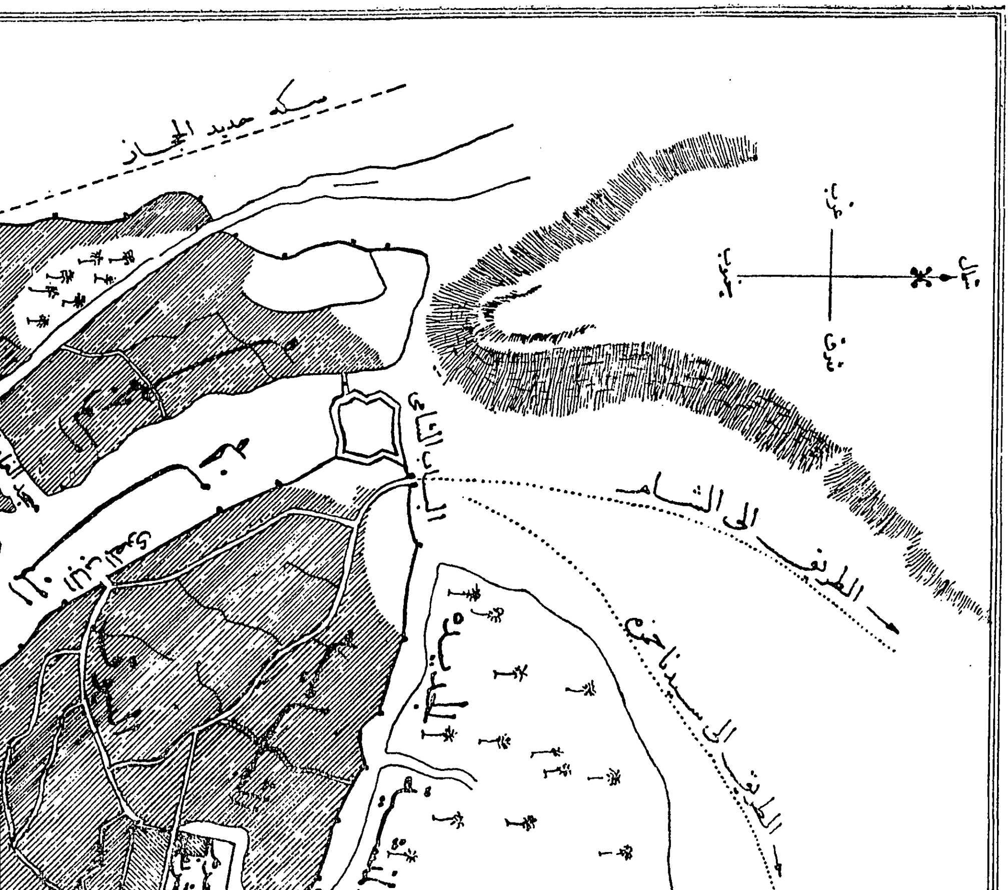
ذات ولع باللّعب والمرح ، وكانت نامية نموّا حسنا .
انتقالها اليه بمسكنها الى جانب مسكن سَوْدَة فى جوار المسجد
جا مشفقا رفيقا ، لا يأبى عليها أن تعبث وتلهو بألاعيبها ؛
م تفكيره فى العبء العظيم الذى أُلقى عليه ، وفى سياسة يثرب
خير وجهة .

ى سكن فيها المسلمون الى دينهم فُرضت الزكاة وفرض الصيام
كّنت بيثرب شوكة الإسلام . وكان محمد حين قدم المدينة
للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ؛ ففكر فى أن يدعو للصلاة
عو به اليهود لصلاتهم . لكنه كره البوق فأمر بالناقوس ،
صلاة ، كما تفعل النصارى . على أنه بعد مشورة عمر وطائفة
ية ، وبأمر الله على لسان الوحى فى رواية أخرى ، عدل عن
ذان ، وقال لعبد الله بن زيد بن ثعلبة : « قم مع بلال فألقِها
أذان — فليؤذّن بها فإنه أندى صوتا منك » . وكان لامرأة
ى جانب المسجد أعلى منه ، فكان بلال يَرْقاه فيؤذّن عليه .
ب جميعا يسمعون منذ الفجر من كل يوم دعوةً الى الإسلام
موت رطب جميل يوجّهها بلال مع كل ريح الى كل النواحى
نداءه : « الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله .
ول الله . حىَّ على الصلاة . حىّ على الفلاح . الله أكبر .
الله » . وكذلك انقلبت مخاوف المسلمين أمْنا ، وأصبحت
وأصبح غير المسلمين من أهلها يشعرون بقوّة المسلمين قوّة
ـ عرفت التضحية فى سبيل الإيمان وذاقت الأذى بسببه
اليوم تحصد ثمرة الصبر وتستمتع من حرية العقيدة بما قرّر
إنسانٍ على إنسانٍ سيادة ، ومن أن الدين لله وحده والعبودية له

الى الصِّبا ، وكانت ذات ولع ب
ووجدت فى محمد أوّل انتقالها اليه
أبا بارّا عطوفا ، وزوجا مشفقا ر
وتسليه بذلك عن دائم تفكيره فى ا
التى بدأ يوجّهها الى خير وجهة .

فى هذه الفترة التى سكن فيها ا
وقامت الحدود ، وتمكّنت بيثرب
إنما يجتمع اليه الناس للصلاة لحين
ببوق كالبوق الذى يدعو به اليهود
فنُحِت ليضرب به للصلاة ، كما تف
من المسلمين على رواية ، وبأمر
الأذان للصلاة
الناقوس أيضا الى الأذان ، وقال ل
عليه — أى صيغة الأذان — فليؤ
من بنى النجّار منزل الى جانب المس
وكذلك صار أهل يثرب جميعا يسم
مرتّلة ترتيلا حسنا بصوت رطب
ويُلقى فى أُذن الحياة نداءه : « ا
أشهد أن محمدا رسول الله . ح
الله أكبر . لا إله إلا الله » . وك
يثرب مدينةَ الرسول ، وأصبح غير
منبعثة من أعماق قلوب عرفت ال
ألوانا . وها هى ذى اليوم تحصد
الإسلام من أن ليس لإنسانٍ على إن


خريطة
المدينة المنوره
الطريق السلطاني الى مكه
الباب الرشادي
محطة المدينة
مسجد الغمامة
الباب المصري
الطريق الى نجد
البقيع
بساتين


سكه حديد الحجاز
الباب الشامي
الطريق الى الشام
شمال
جنوب
شرق
غرب

ة لا يُجْزَوْن إلا بأعمالهم وبالنية التى

كون بذاته وبتصرفاته المثل الأسمى
ضارة الإسلامية .

الإخاء أساس الحضارة الإسلامية

، إخاء يجعل المرء لا يكمل إيمانه حتى
به هذا الإخاء الى غاية البر والرحمة من
أىّ الإسلام خير ؟ فقال : « تُطعم
لم تعرف » . وفى أوّل خطبة ألقاها
ن النار ولو بشِقّة من تمر فليفعل ، ومن
ر أمثالها » . وفى خطبته الثانية قال :
تُقاته ، واصدُقوا الله صالحَ ما تقولون ،
ينْكُث عهدُه » . بهذا وبمثله كان
سجده ، مستندًا الى جِذع من جذوع
بنِىَ له منبر من ثلاث درجات ، كان
على درجته الثانية .

إخاء محمد والمسلمين

هذا الإخاء الذى جعل منه حجر
اله وكان مثله هو هذا الإخاء فى أسمى
بى أن يظهر فى أىّ من مظاهر
قول لأصحابه : « لا تُطْرونى كما أُطْرت
عبد الله ورسوله » . وخرج على جماعة
: « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظّم
ه جلس منهم حيث انتهى به المجلس .
و يداعب صبيانهم ويُجلسهم فى حجره ،

وحده ، والناس أمام وجهــه الأكرم سَواسِيَة لا يُجزَوْن
تصدُر هذه الأعمال عنها .

وانفسح المجال أمام محمد ليعلن تعاليمه وليكون بذاته
لهذه التعاليم ، وليضع بذلك حجر الأساس للحضارة الإسلا

وحجر الأساس هذا هو الإخاء الإنسانى ، إخاء يجعل
يحب لأخيه ما يحب لنفسـه ، وحتى يصل به هذا الإخ
غير ضعف ولا استكانة . سأل رجل محمدا : أىّ الإسلا
الطعام وتقرأ الســلام على من عرفت ومن لم تعرف » .
بالمدينة قال : « مَنِ استطاع أن يقى وجهَه من النار ولو ب
لم يجد فبكلمة طيِّبة فإن بها تجزَى الحسنةُ عَشْرَ أمثالها » .
« أُعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا ، واتّقوه حقَّ تُقاته ، واصدُ
وتَحابُّوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن يُنْكَث عهـ
يحـدّث أصحابه وكان يخطب النـاس فى مسجده ، مس
النخل التى يعتمد عليها سقفه ، حتى أمر فصُنِـع له منبر
يقوم على درجته الأولى خطيبا ، وكان يجلس على درجته

ولم تكن أقواله وحدها دعامة الدعوة الى هـذا الإخ
الزاوية فى حضارة الإسلام ، بل كانت أعمـاله وكان مثا
صور كماله . كان رسول الله ؛ لكنه كان يأبى أن يظهـ
السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية . وكان يقول لأصحابه
النصارى ابنَ مريم ؛ إنما أنا عبد الله ، فقولوا عبد الله ور
من أصحابه متوكّئا على عصا فقاموا له ، فقال : « لا تقو
بعضهم بعضا » . وكان إذا بلغ فى مسيره أصحابه جلس منه
وكان يمـازح أصحابَه ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب ص

حضارة الإسلام عن كثير من سائر الحضارات . الإسلام يضع العدل إلى جانب الإخاء، ويرى أن الإخاء لايكون إخاءً إلا به . ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾(١) . ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾(٢) . يجب أن يكون الدافع النفسانى وحده والإرادة الحرّة المطلقة وابتغاء وجه الله دون أى اعتبار آخر، مصدر الإخاء وما يدعو اليه من برّ ورحمة . ويجب أن يصدر ذلك عن نفس قويّة لا تعرف لغير الله إسلاما ، ولا تضعف ولا تتهالك باسم الورع أو التقوى ، ولا يتسرّب اليها خوف أو وهن إلا عن معصية تجترحها أو إثم تقترفه . ولا تكون النفس قويّة إذا كانت فى حكم غيرها ، ولا تكون قويّة إذا خضعت لحكم أهوائها وشهواتها . وقد هاجر محمد وأصحابه من مكة حتى لا يكونوا فى حكم قريش ولا يُوهن أذاها نفس أحد منهم . والنفس إنما تخضع لحكم الأهواء والشهوات إذا تحكّم الجسد فى الروح وغلبت الشهوة العقلَ ، وأصبحنا نقيم للحياة الخارجة عنا سلطانا على حياتنا نحن ، على حين أنا فى غنًى عنها وأنّا أصحاب السلطان عليها .

قوة محمد على الحياة

وكان محمد المثل الأعلى فى القوّة على الحياة قوّة جعلته لا يأبى أن يعطى غيره كل ما عنده ، حتى قال أحدهم : إنّ محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة . ولكى لا يكون لشيء مما فى الحياة سلطان عليه ، وليكون له هو كل السلطان عليها ، كان شديد الزهد فى مادّتها ، على شدّة رغبته فى الإحاطة بها وفى معرفة أسرارها ، وتوقه إلى غاية الحقيقة من أمرها . بلغ من زهده فيها أن كان فراشه الذى ينام عليه أَدَما حشوه ليف ، وأنه لم يشبع قطّ ، ولم يطعَم خبز الشعير يومين متواليين . وكان السّويق طعام أكلتـه الكبرى ، وكان التمر طعام سائر يومه . وكان الثريد مما لا يكثر له ولأهله تناوله . ولقد عانى الجوع غير مرة ، حتى كان يَشُدّ على بطنه حجرا يكظم به على صيحات معدته . ذلك كان المعروف عنه فى طعامه ، وإن لم يمنعه ذلك من أن ينال فى بعض الأحايين من أطايب الرزق ، وأن يعرف عنه حبّه زند الحروف والقَرْع والعسل والحَلْوَى .

زهده فى الطعام واللباس

(١) سورة البقرة آية ١٩٤ (٢) سورة البقرة آية ١٧٩

ويجيب دعوة الحرّ والعبد والأمَة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينـة ، ويقبَل عذر المعتذر ، ويبدأ مَنْ لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولا يجلس اليه أحد وهو يصـلِّى إلا خفّف صلاته وسأله عن حاجتـه ، فإذا فرغ عاد الى صـلاته . وكان أكثر الناس تبسُّما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليـه قرآن أو يَعظ أو يخطب . وكان فى بيته فى مَهْنَة أهله يطهِّر ثوبه ويرقعه ، ويحلُب شاته ، ويخصِف نعلَه ، ويخدُم نفسه ، ويعقِل البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف والبائس والمسكين . وكان اذا رأى أحدًا فى حاجة آثره على نفسه وأهلِه ولو كان بهم خَصاصـة . وكان لذلك لا يدّخر شيئا لغده ؛ حتى لقـد توفِّى ودِرْعه مرهونة عند يهودىّ فى قوت عياله . وكان جمّ التواضع ، شديد الوفاء ؛ حتى لقد وفد للنجاشى وفد فقام يخدمهم ؛ فقال له أصحابه : يكفيك . فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مُكرِمين وإنى أحبّ أن أكافئهـم . وبلغ من وفائه أنه ما ذُكِرت خديجـة إلا ذكرها أطيب الذكر ، حتى كانت عائشة تقول : ما غِرتُ من امرأة ما غِرت من خديجة ، لِما كنت أسمعه يذكرها . ودخلت عليه امرأة فهشّ لهـا وأحسن السؤال عنها ؛ فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان . وبلغ من طيبة نفسه ورقّة قلبه أنه كان يدع بنى بناته يداعبونه أثناء صـلاته . بل لقد صلّى بأُمامة ابنة بنته زينب يحملها على عاتقه ، فاذا سجد وضعها وإذا قام حملها .

رفق محمد بالحيوان

ولم يقف بالبرّ والرحمـة اللذين جعلهما دعامة الإخاء الذى قامت الحضـارة الجديدة على أساسه عند الإنسان ، بل عدّاهما الى الحيوان كذلك ؛ كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لهرّة تلتمس عنده ملجأ ، وكان يقوم بنفسه على تمريض ديك مريض ، وكان يمسح جواده بكُمّ قميصه . وركبتْ عائشـة بعيرا فيه صعوبة فجعلت تردّده ؛ فقال لهـا : عليـك بالرفق . وكذلك شملت رحمته كل ما اتصل بها ، وأظلّت كل من كان فى حاجة إلى تَفَيُّؤ ظلالها .

إخاء عدل ورحمة

وهى لم تكن رحمـة ضعف ولا استكانة ، ولم تشبها شائبة مَنّ ولا استعلاء ؛ إنمـا كانت إخاء فى الله بين محمد والذين اتّصـلوا به جميعا . ومن ثَمّ يفترق أساس

والرضا غنيمتى، والفقر فخرى، والزهد حِرفتى، واليقين قُوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حسبى، والجهاد خُلق، وقُرّة عينى فى الصلاة".

بدء مخاوف اليهود

تركت تعاليم محمد هذه وترك مثله وقدوته فى النفوس أعمق الأثر، حتى لقد أقبل كثيرون على الإسلام، وزاد المسلمون فى المدينة شوكة وقوّة. هنالك بدأ اليهود يفكرون من جديد فى موقفهم من محمد وأصحابه. لقد عقدوا معه عهدا، وكانوا يطمعون فى أن يضمّوه الى صفوفهم وفى أن يزدادوا به على النصارى مَنَعةً وقوّة. وهذا هو أقوى من هؤلاء وأولئك جميعا، وهذه كلمته تزداد ثباتا. بل هاهو ذا يفكر فى أمر قريش وإخراجها إيّاه وإخراجها المهاجرين من مكة، وفِتْنتِها من استطاعت فتنته من المسلمين عن دينه. أترى اليهود يتركون دعوته تنتشر وسلطانه الروحىّ يمتدّ، مكتفين بالأمن فى جواره أمْنا يزيد تجارتهم سعةً وثروتهم ربحا؟ لعلهم كانوا يقنَعون بهذا لو أنهم أمنوا ألّا تمتدّ دعوته الى اليهود وألّا تفشو فى عامتهم، على حين تقتضيهم تعاليمهم ألا يعترفوا بنبىّ من غير بنى إسرائيل. لكن حِبْرًا عالما من كبار أحبارهم وعلمائهم، هو عبد الله بن سَلَام، لم يلبث حين اتصل بالنبى أن أسلم وأمر أهل بيته فأسلموا معه. وخشى عبد الله أن يقول اليهود فيه، اذا علموا بإسلامه، غير ما اعتادوا. فطلب الى النبىّ أن يسألهم عنه: ما شأنُه؟ قبل أن يعرف أحد منهم إسلامه. قالوا: سيّدنا وابن سيّدنا وحِبْرنا وعالمنا. فلما خرج عبد الله اليهم وتبيّنوا ما صنع، ودعاهم هو الى الإسلام، خافوا عاقبة أمره فوقعوا فيه وأذاعوا عنه قالة السوء فى أحياء اليهود كلها؛ وأجمعوا أمرهم على أن يكيدوا لمحمد ويُنكروا نبوّته. وما كان أسرع أن اجتمع اليهم من بقى على الشرك من الأوس والخزرج ومن أسلم منهما نفاقاً، جرياً وراء مغنم أو إرضاءً لذى عُصبة وبأس.

إسلام عبد الله ابن سلام

حرب الجدل بين محمد واليهود

وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشدّ لَدَدًا وأكبر مكرا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش بمكة. فى هذه الحرب اليثربيّة تعاونت الدسيسة

وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام . أعطته امرأة يوما ثوبا كان فى حاجة اليه، فطلب اليه أحدهم ما يصلح كفناً لميت فأعطاه الثوب . وكان معروف ثيابه القميص والكساء، وكانا من صـوف أو قطن أو تيل . على أنه فى بعض الأحيان لم يكن يأبى أن يلبس من أنسجة اليمن لباسا فخما يناسب المقـام اذا اقتضاه المقـام ذلك . وكان يحتـذى حذاء بسـيطا، ولم يلبس خُفًّا إلا حين أهدى اليه النجاشى خفّين وسراويل .

لم يكن هذا الزهد ولا هذه الرغبة عن الدنيا تقشفا للتقشف، ولا كانا من فرائض الدين . فقد جاء فى القرآن : ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (١) . وجاء : ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (٢) . وفى الأثر: « أُحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . لكن محمدا أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى فى القوة على الحياة قوة لا يتطرّق اليها ضعف ، ولا يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان أو أىٌّ مما يجعل لغير الله عليه سيادة . والإخاء الذى يستند الى هـذه القوة ويكون له من المظهر ما ضرب محمد له المثـل الأعلى فيما رأيت، إخاء محض بالغ غاية الإخلاص والسـمو؛ إخاء لا تشوبه شائبة ، لأن العـدل يتضافر فيه مع الرحمة ، ولأن صاحبه لا يرضى أن تحمله عليه إلا إرادته الحرّة المطلقة، لكن الإسلام إذ يضع العدل الى جانب الرحمة يضـع العفو الى جانب العدل . على أن يكون عفوًا عن مقـدرة ، ليكون مظهر الرحمة صريحا صحيحا، وليكون القصد منه الى الإصلاح صادقا .

سـنة محمد

هـذا الأساس الذى وضعه محمد للحضارة الجديدة التى يقيمها يتلخّص بصورة واضحـة فيما روى عن علىّ بن أبى طالب أنه سأل رسـول الله عن سـنته فقال : " المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مَرْكَبى ، وذكرُ الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلمُ سِلاحى، والصبر ردائى ،

(١) سورة البقرة آية ٥٧ (٢) سورة القصص آية ٧٧

بلغ الجدال بين محمد واليهود مبلغا من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه. فقد نزل صدر سورة البقرة الى الآية الحادية والثمانين منها ونزل قسم عظيم من سورة النساء، وكله يذكر هؤلاء الكتابيين وإنكارهم ما فى كتابهم ويلعنهم لكفرهم وإنكارهم أشدّ اللعنة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (١).

قصة فنحاص

وبلغ الجدال بين اليهود والمسلمين حدًّا كان يصل أحيانا، برغم ما بينهم من عهد، الى الاعتداء بالأيدى. وحسبك، لتقدر هذا، أن تعلم أن أبا بكر، على ما كان عليه من دماثة الخلق وطول الأناة ولين الطبع، تحدّث الى يهودىّ يدعى فِنْحاص، يدعوه الى الإسلام، فردّ فنحاص بقوله: «والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر وإنه إلينا لفقير، وما نتضرّع اليه كما يتضرّع الينا . وإنا عنه أغنياء وما هو عنا بغنىّ . ولو كان غنيًّا عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الرِّبا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيًّا ما أعطانا» . وفنحاص يشير هنا الى قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (٢). لكن أبا بكر لم يطق على هذا الجواب صبرا، فغضب وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا، وقال: والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدوّ الله! . وشكا فنحاص أمره الى النبىّ وأنكر ما قاله لأبى بكر فى الله، فنزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٣).

(١) سورة البقرة الآيات من ٨٧ الى ٨٩
(٢) سورة البقرة آية ٢٤٥
(٣) سورة آل عمران آية ١٨١

والنِّفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين، أقامتها اليهود جميعا صفوفا متراصّة يهاجمون بها محمدا ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار. دسّوا من أحبارهم من أظهر إسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى، ثم ما يلبث الحين بعد الحين أن يُبدى من الشكوك والرِّيَب ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يزعزع فى أنفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحقّ التى يدعو اليها. وانضمّ إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقا أيضا ليسألوا وليُوقعوا بين المسلمين. وبلغ من تعنّتهم أن اليهود منهم كانوا يُنكرون ما فى التوراة، وأنهم جميعا، وكلهم يؤمنون بالله سواء منهم بنو إسرائيل والمشركون الذين يتخذون أصنامهم إلى الله زلفى، كانوا يسألون محمدا: إذا كان الله قد خلق الخلق فَمَن خلق الله؟! وكان محمد يجيبهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. اللهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[1]. وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم، ورأوهم يوما فى المسجد يتحدّثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم محمد فأُخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا. ولم يَثْنِهم ذلك عن دسائسهم وسعيهم فى الوقيعة بين المسلمين.

محاولة الوقيعة بين الأوس والخزرج

مرّ أحدهم (شاس بن قَيْس) على نفر من الأَوْس والخزرج فى مجلس جمعهم؛ فغاظه صلاح ذاتِ بينهم وقال فى نفسه: قد اجتمع ملأ بنى قَيْلة بهذه البلاد؛ ومالنا معهم اذا اجتمع مَلَؤهم بها من قرار. وأمر فتى شابا من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصةً يذكر فيها يوم بُعَاث وما كان من انتصار الأوس فيه على الخزرج. وتكلم الغلام؛ فذكر القومُ ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا وقال بعضهم لبعض: إن شئتم عُدْنا إلى مثلها. وبلغ محمدا الأمر، فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه فذكَّرهم بما ألّف الإسلام بين قلوبهم، وجعلهم إخوانا متحابِّين. وما زال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضا واستغفروا الله جميعا.

---

(١) سورة الاخلاص.



المسجد النبوى

لم يكتف اليهود بالوقيعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج من هؤلاء، ولم يكفهم فتنة المسلمين عن دينهم ومحاولة ردّهم الى الشرك دون محاولة تهويدهم، بل زادوا على ذلك أن حاولوا فتنة محمد نفسه. ذلك أن احبارهم وأشرافهم وساداتهم ذهبوا إليه وقالوا له: «إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا، وإنا إن اتّبعناك اتبعتك اليهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم إليك فتقضى لنا فنتبعك ونؤمن بك». فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِم وإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقون. أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(١).

ضاق اليهود ذرعا بمحمد، ففكروا فى أن يمكروا به وأن يُقنعوه بالجلاء عن المدينة كما أجلاه أذى قريش إيّاه وأصحابه عن مكة؛ فذكروا له أن مَن سبقه من الرسل ذهبوا جميعا الى بيت المَقْدس وكان به مقامهم، وأنه إن يكن رسولا حقّا فجدير به أن يصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطا فى هجرته بين مكة ومدينة المسجد الأقصى. لكن محمدا لم يحتج الى طويل تفكير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به. وأوحى اليه الله يومئذ، على رأس سبعة عشر شهرا من مُقامه بالمدينة، أن يجعل قبلته الى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل، فنزلت الآية: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبلَةً تَرْضَاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتم فوَلُّوا وُجُوهَكم شَطْرَهُ﴾(٢). وأنكر اليهود عليه ما فعل وحاولوا فتنته مرّة أخرى بقولهم: إنهم يتبعونه اذا هو رجع الى قبلته؛ فنزل قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ مَا وَلَّاهُم عن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قل لِلهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ الى صِراطٍ مستقيم. وكذلك جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونوا شُهَداءَ على النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَليكم شَهِيدًا. وما جَعَلْنَا القِبلَةَ التى كُنتَ عليها

صرف القبلة الى الكعبة

(١) سورة المائدة آيتا ٤٩ و ٥٠ (٢) سورة البقرة آية ١٤٤

إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾(١) .

وفد نصارى نجران

فى هذا الوقت الذى اشتدّ فيه الجدال بين محمد واليهود وفد على المدينة وفد من نصارى نَجْران عِدَّتهم ستون راكبا، من بينهم من شَرُف فيهم ودرس كتبهم وحسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرّفوه وموّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات . ولعل هذا الوفد إنما جاء الى مدينة النبيّ حين علم بما بينه وبين اليهود من خلاف، طمعا فى أن يزيد هذا الخلافَ شدّة حتى يبلُغ به العداوة ، فيريح النصرانية المتاخمة فى الشام وفى اليمن من دسائس اليهود وعُدوان العرب . واجتمعت الأديان الثلاثة الكتابيّة بمجىء هذا الوفد وبجداله النبيّ وبقيام مَلْحمة كلاميّة عنيفة بين اليهودية والمسيحية والإسلام . فأمّا اليهود فكانوا يُنكرون رسالة عيسى ومحمد إنكارا فيه من العَنَت ما رأيت ، ويزعمون أن عُزَيْرًا ابن الله . وأمّا النصارى فكانوا يقولون بالتثليث وأُلوهية عيسى . وأمّا محمد فكان يدعو الى توحيد الله ، والى الوحدة الروحية تنتظم العالم من أزله الى أبده . كان اليهود والنصارى يسألونه عمن يؤمن بهم من الرسل فيقول : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(٢) . وكان ينكر عليهم أشدّ الإنكار كل ما يُلقى أية شبهة على وحدة الله، ويذكرهم أنهم حرّفوا الكلم مما فى كتبهم عن مواضعه ، وأنهم يذهبون إلى غير ما ذهب إليه النبيّون والرسل الذين يُقرّون لهم بالنبوّة، وأن ما جاء به عيسى وموسى ومن سبقهم لا يختلف فى شىء عما جاء هو به ؛ لأن ما جاءوا به إنما هو الحقيقة الأزليّة الخالدة التى تتكشّف فى جلال وضوحها وعظمة بساطتها لكل من نزّه نفسه عن الخضوع لغير الله فى عظمة وحدته، ونظر فى الكون على أنه وحدة متصلة نظرةً

---

(١) سورة البقرة آيتا ١٤٢ و ١٤٣ (٢) سورة البقرة آية ١٣٦

دعا محمد اليهود والنصارى إلى هـذه الدعوة أو يُلَاعِن النصارى ؛ فأمّا اليهود فكان بينه وبينهم عهد الموادعة . إذ ذاك تشاور النّصارى ثم أعلنو اليه أنهم رأوا ألّا يلاعنوه وأن يتركوه على دينـه ويرجعوا على دينهم . لكنهم رأوا حرص محمد على العدل حرصا احتذى أصحابه فيه مثاله ، فطلبوا اليه أن يبعث معهم رجلا يحكم بينهم فى أشياء اختلفوا عليها من أقوالهم . وبعث محمد معهم أبا عُبَيْدة بن الجَرَّاح ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه .

التفكير فى أمر قريش ومكة

وجعل محمد يمكّن للحضارة التى وضع حجر الأساس فيها بتعاليمه ومُثُله ؛ وجعل يفكر هو وأصحابه من المهاجرين فيما لم يفتهـم التفكير لحظة فيه منذ هجرتهم من مكة : فيما يجب أن يكون موقفهـم من قريش وأمرهم معهم . ولقد كان يدفعهم الى هـذا التفكير دوافع عدّةٌ . ففى مكة كانت الكعبة بيت إبراهيم ومكان حجيجهم وحجيـج العرب جميعا . أفتراهم ينقطعون عن هذا الواجب الدينىّ المقدّس عندهم اليوم أكثر مما كان مقدّسا عندهم فى الجاهليّة ! . وفيها مايزال لهم أهل تهوِى إليهم نفوسهم وتشفق من بقائهم على الشرك أفئدتهم وقلوبهـم . وفيها بقيت أموالهم ومتاعهم وتجارتهم مما منعتهم قريش منه حين هجرتهم . ثم إنهم إذ حضروا المدينة كانت موبوءة بالحمّى فأصابهم منها عَنَت شديد ، وبلغت منهم حتى جُهِدوا مرضا وكانوا يصلّون قعودا ؛ فزاد ذلك فى تحنانهم إلى مكة . وهم قد أخرجوا من مكة كارهين ، فكأنهم خرجوا مغلوبين على امرهم . وليس فى طبع هؤلاء القرشـيّين أن يصبروا على الضيم أو يُذعنوا للغَلَب دون تفكير فى الثأر لأنفسهم منه . وإلى جانب هذه الدوافع جميعا الدافع الطبيعى : دافع الحنين الى الوطن . الحنين الى المكان الذى منه نبتنا وفيه نشأنا ولأرضـه وسهله وجبـله ومائه كان أوّل حديثنا وأوّل صداقتنا وأوّل ودّنا . هذه البقعـة من الأرض نَمّتنا صـغارا فاليها مَثْوانا كبارا . بها نتعلّق قلوبنا وعواطفنا ، وعنها نذود بقوّتنا وبمالنا ونضحّى بجهودنا وبحياتنا ، وفيها نودّ أن ندفَن بعـد موتنا لنعود إلى ترابها الذى خرجنا منه . هذا الدافع الطبيعى أذ كى فى أنفس المهاجرين سائر الدوافع وجعلهم لا ينفكون يفكرون فى قريش وفيما يجب أن يكون موقفهـم

سامية فوق أهواء الساعة، ومطامع العاجلة، وشهوات المـادّة، مجرّدة من الخضوع الأعمى لأوهام العامة ولِمـا وجد عليه آباءه وأجداده .

مؤتمـر الأديان الثـلاثة

أىّ مؤتمر أعظم من هذا المؤتمر الذى شهِدت يثرب تلتق فيه الأديان الثـلاثة التى تتجاذب حتى اليوم مصاير العالم، وتلتق فيه لأسمى فكرة وأجلّ غاية !. لم يكن مؤتمرا اقتصاديا ولا كان مرماه أىّ غرض من هذه الأغراض المـادّية التى ينطح عالَمُنـا اليوم عبثا صخرتها؛ إنمـا كان مرماه غاية روحيـة تقف من ورائها فى أمر النصرانية واليهودية مطامع السياسة ومآرب أرباب المـال وذوى الملك والسلطان، ويقف فيه محمد لغاية روحيّة إنسانية بحتة يُملى عليه الله فى سبيلها الصيغة التى يُلقى بها إلى اليهود وإلى النصارى وإلى الناس كافّة، يقول لهم فيها : ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبينكم أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللهِ فإنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بأَنّا مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

تراجـع وفـد النصارى ورجوعهم

ماذا يستطيع اليهود أو يستطيع النصارى أو يستطيع غيرهم أن يقولوا فى هـذه الدعوة : ألّا يعبـدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله !. فأمّا الروح المخلصة الصادقة، فأمّا النفس الإنسانية التى كُرِّمت بالعقل والعاطفة فلا تستطيع إلا أن تؤمن بهذا دون غيره . لكن فى الحيـاة الإنسانية إلى الجـانب النفسانى جانبها المـادىّ . فيها هـذا الضعف الذى يجعلنـا نقبل لغيرنا علينا سلطانا بثمن يشـترى به أنفسنا وأرواحنا وقلوبنـا . فيها هـذا الغرور القتّال للكرامة وللعاطفة ولنور النفس العاقلة . هـذا الجانب المـادّى المصوَّر فى المـال وفى الجاه وفى كاذب الألقاب والرتب هو الذى جعل أبا حَارِثَة أكثر نصارى نَجْران علما ومعرفة يُدلى إلى رفيق له باقتناعه بما يقول محمد . فلما سأله رفيقه : فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ كان جوابه : يمنعنى ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرّفونا وموّلونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلتُ نزعوا منّا كل ما ترى .

(١) سورة آل عمران آية ٦٤

الفصل الثانى عشر

الســـــرايا والمنـاوشات الأولى

تفكير محمد فى أمر قريش — إيفاده السرايا لتخويف قوافلهم — غزوة عبد الله بن جحش فى الشـــهر الحـــرام — الإســـلام والقتـال

سياسة المسلمين بالمدينة

استقر للمسلمين المُقام بالمدينة بعد أشهر من الهجرة ، فبدأ تحنان المهاجرين الى مكة يزداد وبدءوا يفكرون فيمن تركوا وما تركوا بها ، وما أنزلت قريش بهم من الأذى ؛ فماذا عساهم يصنعون ؟ تذهب الكثرة من المؤرخين إلى أنهم فكروا وفكر محمد على رأسهم فى الانتقام من قريش لأنفسهم وفى مبادأتهم بالعداوة والحرب . بل إن بعضهم ليذهب إلى أنهم فكروا فى هذه الحرب منذ مَقْدَمهم إلى المدينة ، وانما منعهم من إشعال نارها أنهم كانوا فى شغل بإعداد مساكنهم وتنظيم وسائل معاشهم . ويستدل على ذلك بأن محمدا إنما عقد بيعة العقبة الكبرى لحرب الأحمر والأسود من الناس . وطبيعىّ أن تكون قريش أول من يتّجه إليهم نظره ونظر أصحابه ، ممّا فطنت له قريش بُكْرَةَ العقبة ، فخرجت فى فزع تسأل الأوس والخزرج عنه .

السرايا الأولى

ويؤيّد هذا البعض قوله بما وقع بعد ثمانية أشهر من مقام الرسول والمهاجرين بالمدينة ، إذ بعث محمد عمه حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين راكبا من المهاجرين دون الأنصار إلى شاطئ البحر من ناحية العِيص حيث لقى أبا جهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، وبأن حمزة كان على أُهبة مقاتلة قريش لولا أن حجز بينهم مَجْدِىُّ بن عمرو الجُهَنِىّ ، وكان مُوادِعا الفريقين جميعا ، فانصرف بعض القوم عن بعض دون قتال . وإذ بعث محمد عُبَيْدَةَ بن الحارث فى ستّين راكبا من المهاجرين دون الأنصار فساروا إلى ماء بالحجاز بوادى رابِغ ، فلقيهم به جمعٌ من قريش يزيد على مائتين على رأسهم أبو سُفْيان ، فانسحبوا من غير قتال ، إلا ما رُوى

منهـا . لن يكون هـذا الموقف موقف استسلام أو استخذاء وقد صبروا فيها على الأذى ثلاثة عشر عاما سويّا . والدين الذى احتملوا فيه هذا الأذى والذى هاجروا فى سبيله لا يقـرّ الضـعف ولا اليأس ولا الاستكانة . وإذا كان يمقُت الاعتداء وينكره، ويقرر الإخاء ويدعو اليه، فإنه يفـرض الدفاع عن النفس وعن الكرامة وعن حرّيّة العقيـدة وعن الوطن . ولهذا الدفاع أتمّ محمد مع أهل يثرب بيعة العقبة الكبرى . فكيف يؤدّى المهاجرون هـذا الفرض عليهم لله ولبيته الحرام ولوطنهم مكة المحبّب الى قلوبهم ؟ ! هذا ما ستتّجه اليه سياسة محمد والمسلمين معه حتى يتم له فتح مكة ، وحتى يعلو دين الله وتعلو كلمة الحق فيها .

واحتمال ما يمكن احتماله من الأموال التى تذهب هذه القوافل وتعود بالتجارة فيها . والثانية : أخذ الطرق على قريش فى رحلتها إلى الشام بعقد المُوادعات والأحلاف مع القبائل المتّصلة ما بين المدينة وشاطئ البحر الأحمر، بما يسهّل على المهاجرين مهاجمة هذه القوافل دون أن تلق فى جوار هاته القبائل ما يَحميها من محمد وأصحابه ، حماية تمنع أخذ المسلمين رجالَها ومالها أَخْذَ عزيز مقتدر . وهذه السّرَايا التى عقد النبيّ عليه السلام ألويتها لحمزة ولعُبَيْدة بن الحارث ولسعد بن أبى وقّاص ، وهذه المحالفات التى عقدها مع بنى ضَمْرة وبنى مُدْلِج وغيرهم تؤيّد الغاية الثانية وتشهد بأن أخذ طريق الشام على أهل مكة كان بعض ما قصد اليه المسلمون .

رأينا فى الغرض من السرايا

أمّا أنهم بهذه السرايا التى بدأت بعد ستة أشهر من مُقامهم بالمدينة والتى اشترك فيها المهاجرون وحدهم، كانوا يقصدون حرب قريش وغزو قوافلها، فذلك ما يقف الإنسان منه موقف التردّد والتفكير . فلم تكن سَرِيّة حمزة لتزيد على ثلاثين رجلا من المهاجرين، ولم تزد سَرِيّة عبيدة على ستين، وكانت سَرِيّة سعد لا تتجاوز ثمانية نفر على قول، وعشرين على قول آخر . وكان الموكَّلون بحماية قوافل قريش عادة أضعاف هذه الأعداد ؛ وقد زادتهم قريش عددا وعُدّة منذ أقام محمد بالمدينة وبدأ يحالف القبائل التى بها والقريبة منها . ومهما يكن من بأس حمزة وعبيدة وسعد ممن كانوا يرأسون سرايا المهاجرين ، فإن عِدّة من معهم لم تكن لتشجّعهم على الحرب، مما جعلهم يعودون من هذه السرايا كلها دون قتال إلا ما قيل عن السهم الذى أطلقه سعد .

تعرض تجارة قريش

ثم إن قوافل قريش كان يحميها من أهل مكة من تصلهم بالكثيرين من المهاجرين أواصر القربى وصلات الدم ؛ فلم يكن يسيرا عليهم أن يقتل بعضُهم بعضا ، وأن يتعرّض هؤلاء وأولئك لطلب الثأر ؛ وأن يعرِّضوا مكة والمدينة جميعا لحرب أهلية استطاع المسلمون والوثنيّون جميعا اتّقاءها بمكة ثلاث عشرة سنة متتابعة من يوم بعث محمد إلى يوم هجرته . والمسلمون كانوا يعلمون أن بيعة العقبة

من أن سَعْد بن أبى وقّاص رمى يومئذ بسهم «فكان أوّل سهم رُمى به فى الإسلام» . وإذ بعث سعد بن أبى وَقَّاص فى ثمانية من المهاجرين على رواية، وفى عشرين منهم على رواية أخرى، فخرجوا إلى أرض الحجاز ثم عادوا أن لم يُصيبوا ما أرسلوا فيه .

خروج النبى بنفسه

ويزيد هـذا البعض دليلَه تأييـدًا بأن النبىّ خرج بنفسه على رأس اثنى عشر شهرا من مَقْدَمه إلى المدينة، واستعمل عليها سـعد بن عُبَادة، وسار إلى غزوة الأَبْواء حتى بلغ وَدّان يريد قريشا وبنى ضَمْرة ؛ فلم يَلْقَ قريشا وحالفته بنو ضَمْرة؛ وأنه بعد شهر من ذلك خرج على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بُوَاط، يريد قافلة يقودها أُميّـة بن خَلَف عِدّتها ألفان وخمسمائة بعير يحميها مائة محارب فلم يدركها، أن اتّخذت طريقا غير طريق القوافل المعبّد ؛ وأنه بعد شهرين أو ثلاثة من عودته من بُواط من ناحية رَضْوَى آستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأَسَد وخرج فى أكثر من مائتين من المسلمين حتى نزل العُشَيْرَة من بطن يَنْبُع فأقام بها جُمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة (أكتوبر سنة ٦٢٣ م) ينتظر مرور قافلة من قريش على رأسها أبو سفيان ففاتته، وكسب من رحلته هذه أن وادع بنى مُدْلِج وحلفاءهم من بنى ضَمْرة ؛ وأنه ما كاد يرجع إلى المدينة ليقيم بها عشر ليال حتى أغار كُرْز بن جابر الفِهْرىّ من المتّصلين بمكة وبقريش على إبل المدينة وأغنامها ، فخرج النبىّ فى طلبه، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وتابع مسيره حتى بلغ واديًا يقال له سَفَوَان من ناحية بَدْر، وفاته كُرْز فلم يدركه . وهذه هى التى يطلق عليها كتّاب السيرة آسم غزوة بدر الأولى .

رأى المؤرخين فى الغزوات الأولى

أفلا يقوم هـذا كله دليلا على أن المهاجرين فكّروا وفكّر محمد على رأسهم فى الانتقام من قريش لأنفسهم وفى مبادأتهم بالعـداوة والحرب؟ وهو على أقـل تقدير — فى رأى هؤلاء المؤرّخين — يشهد بأنهم قصدوا من غزواتهم المبدئيـة هذه — والمؤرّخون يسمّون هذه الرحلات سَرَايَا وغَزَوات — إلى غايتين . الأولى: الوقوع على قوافل قريش فى ذهابها إلى الشام أو عودتها منها حين رحلة الصيف ،

كثرة اتجاه المسلمين بسراياهم الى طريق تجارة مكة فى عدد لا يسهل معه تصوّرهم مُقْدمين على الحرب . وهذا كذلك هو الذى يفسّر حرص النبى، بعد ما بدا من صَلَف قريش وعدم اعتدادها بقوّة المهاجرين، على موادعة القبائل المقيمة على طريق هذه التجارة، والتحالف معها تحالفا نُمِى خبره الى قريش لعلها ترعوى وتعود الى التفكير فى التفاهم والاتفاق .

الأنصار والغزو الهجومى

يدعم هذا الرأى بأقوى سند أن النبىّ عليه السلام لما خرج إلى بُواط وإلى العُشَيْرة كان من بين الذين صحبوه عدد غير قليل من الأنصار أهل المدينة . والأنصار إنما بايعوه ليدفعوا عنه لا ليهاجموا معه . وسنرى ذلك صريحا حين غزوة بدر الكبرى، إذ يتردّد محمد دون القتال حتى يوافق أهل المدينة عليه . واذا كان الأنصار لا يرون مخالفة لبيعتهم فى أن يعاهد محمد غيرهم من الناس، فليس معنى هذا أن يخرجوا معه لحرب أهل مكة وليس بين الفريقين من أسباب الحرب ما تجيزه أخلاق العرب، أو يجيزه نظام صِلاتهم بعضهم ببعض . ومهما يكن فى هذه الموادعات التى يعقدها محمد من تقوية المدينة ومن توهين ما تطمع تجارة قريش فيه من أسباب الحماية، فشتان ما بين ذلك و بين إعلان الحرب أو السعى اليها . فالقول إذًا بأن حمزة أو عُبَيدة بن الحارث أو سعد بن أبى وقّاص إنما خرجوا لحرب قريش وتسمية سَرِيَّاتهم غَزَوات مرجوح عندنا فلا نكاد نُسيغه . والقول كذلك بأن محمدا إنما خرج إلى الأَبواء و بُوَاط والعُشَيْرة غازيا، فيه تجوّز كبير ترِد عليه الاعتراضات التى قدّمنا . ولا يفسّر أخذ مؤرخى محمد به إلا أنهم لم يترجموا لمحمد الا فى أواخر القرن الثانى للهجرة، وأنهم كانوا متأثرين بالمغازى التى حدثت بعد ذلك منذ بَدْر الكبرى، فاعتبروا ما سبقها من مناوشات يقصد بها إلى غير الحرب سَرَايا ومغازى تضاف الى حروب المسلمين أيّام النبى .

والظاهر أن كثيرين من المستشرقين قد فطَنوا لهذا الاعتراض و إن لم يشيروا فى كتبهم إليه . و إنما يدعونا الى الظن بفطنتهم له أنهم، مع مجاراتهم مؤرخى

كانت بيعةً دفاعيّة تعهّد فيها الأوس والخزرج بحماية محمد ، ولم يعاهدوه ولا عاهدوا أحدا ممن معه على العدوان . فليس من اليسير مع هـذا كله التسليم مع المؤرخين ، الذين لم يبدءوا بكتابة تاريخ النبيّ إلا بعد قُرابة قرنين من وفاته ، بأنّ هذه السرايا والترحلات الأولى كان يقصـد بها إلى القتال بالفعل . فلا بدّ لهـا إذًا من تأويل أقرب إلى العقل وأكثر اتّفاقا مع سياسة المسلمين فى هذه الفترة الأولى من مُقامهم بالمدينة، وأدق تمشّيا مع سياسة الرسول التى كانت قائمة يومئـذ على قواعد التفاهم والاتفاق مع مختلف القبائل، لكفالة حرية الدعوة الدينية من ناحية، وكفالة حسن المعاملة والجِوار من ناحية أخرى .

والراجح عندى أن هذه السرايا الأولى إنمـا قُصد بها إلى إفهام قريش أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهلهم الذين اضطُّروا إلى الجـلاء عن مكة بسبب ما عانَوْا من الاضطهاد ، تفاهمًا يقى الطرفين شرور العداوة والبغضاء، ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين ، ولأهل مكة سلامة تجارتهم فى طريقها إلى الشام . وقد كانت هـذه التجارة التى تبعث بهـا مكة والطائف جميعا ، والتى كانت تجىء إلى مكة من بلاد الجنوب، تجارة واسعة النطاق؛ حتى لقد كانت بعض القوافل تسير فى ألفى بعـير، حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار . وكانت صـادرات مكة السـنوية ، على ما قـدّرها المستشرق "سْپرِنْجَرْ" تُوازى مائتين وخمسين ألفـا من الدنانير ، أى نحو مائة وستين ألف جنيـه ذهبا . فاذا أيقنت قريش تعرُّض هـذه التجارة للخطر آتيًا من ناحية أبنائها الذين هاجروا إلى المدينة، دعاها ذلك إلى التفكير فى التفاهم معهـم تفاهما طَمِع المسـلمون فى أن يكفل لهم ما كانوا يطمعون فيـه من حرية الدعوة الى دينهـم، ومن حرية الدخول الى مكة لأداء فرائض حجهـم . ولم يكن مثل هذا التفاهم ممكنا ما لم تقدر قريش قوّة المهاجرين من أبنائها على الإيقاع بهـا وإيصاد طريق التجارة فى وجهها . وهذا هو ما يفسّر عنـدى رجوع حمزة ومن معـه من المهاجرين الذين لَقُوا أبا جهل بن هشام عنـد ساحل الجزيرة لأول ماحجز مَجْـدِىُّ بن عمرو الجُهَنىّ بينهما، كما يفسر

على عهد موادعتهم، لقد لجئوا الى كل وسيلة للدسّ بين المسلمين، ولإثارة البغضاء بين المهاجرين والأنصار، ولإيقاظ الأحقاد الماضية بين الأوس والخزرج بذكر يوم بُعَاث وبإعادة ما قيل من الشعر فيه .

دسائس اليهود

وقد فطَن المسلمون لدسّهم ولمبالغتهم فيه، وبلغوا من ذلك أن حشروهم فى زمرة المنافقين، بل اعتبروهم شرًّا منهم، فأخرجوهم من المسجد إخراجا عنيفا وأبوا عليهم أن يجلسوا اليهم أو أن يتحدّثوا معهم؛ وانتهى النبيّ عليه السلام إلى الإعراض عنهم بعد إذ حاول إقناعهم بالحجة والدليل . وطبيعىّ، لو ترك حبل يهود المدينة هؤلاء على غاربهم، أن يستفحل أمرهم ويثيروا الفتنة التى يسعون لإثارتها . وليس يكفى فى عرف الدقّة السياسية التحذير منهم والتنبيه لكيدهم ؛ بل لا بد من إشعارهم أن للمسلمين من القوّة ما يمكنهم من إخماد أية فتنة تقوم ، ومن القضاء على أسبابها واجتثاث أصولها . وخير وسيلة لهذا الإشعار إرسال السرايا والقيام بالمناوشات الحربية فى مختلف الأنحاء ، على ألا تتعرّض قوّات المسلمين لهزيمة تُطمع اليهود كما تُطمع قريشا فيهم . وهذه المداورة هى ما وقع ؛ ووقع من رجال كحمزة سريعين الى الغضب لا تكفى لصدّهم عن القتال وساطة موادع يدعو الى السلم، ما لم تكن المناوشة الحربية ثم الإمساك عن القتال فى عزّة وكرامة، سياسة مرسومة، وخطةً مبيّتة يقصد بها إلى درك غايات معيّنة، هى ما ذكرنا من تخويف اليهود من ناحية، والسعى من ناحية أخرى للاتفاق مع قريش على ترك الدعوة للدين وإقامة شعائره حرة مطلقة من غير حاجة إلى حرب أو قتال .

الإسلام والقتال

وليس معنى هذا أن الإسلام كان يومئذ ينكر القتال دفاعاً عن النفس ودفاعا عن العقيدة، دفعا لمن يريد فتنة صاحبها عنها . كلّا ! بل إن الإسلام ليفرض هذا الدفاع . وإنما معناه أن الإسلام كان يومئذ، كما هو اليوم وكما كان دائما، يُنكر حرب الاعتداء : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[1] . وإذا كان لدى

(١) سورة البقرة آية ١٩٠

المسلمين فى قصد المهاجرين ومحمد على رأسهم الى حرب أهل مكة منذ الساعة الأولى من مُقامهم بالمدينة ، قد أشاروا الى أن هذه السرايا الأولى إنما كان يُقصد بها الى نهب تجارة القوافل، وأن النهب كان بعض طباع أهل البادية، وأن أهل المدينة إنمـا أغرتهم الغنيمة والسَّلَب باتّباع محمد على خلاف عهـدهم فى العقبـة . وهـذا كلام مردود ؛ لأن أهـل المدينة كأهل مكة لم يكونوا أهـل بادية يعيشون على السلب والنهب ، وأنهـم فوق ذلك كان فى طبعهم ما فى طبـع من يعيشون على الزراعة من حب الاستقرار ، ممـا يجعلهم لا يتحرّكون الى قتال إلا لدافع قوىّ . أمّا المهاجرون فكان من حقهم أن يستخلصوا من أيدى قريش ما أخذت من أموالهم . لكنَّهم لم يستعجلوا ذلك قبل بدر، فلم يكن هو الدافع للسرايا والغزوات الأولى . ثم إن القتال لم يُشْرَع فى الإسلام ولم يقم به محمد وأصحابه لهذه الغاية البدويّة التى يتوهّم المستشرقون ، و إنما شُرِع وقام به محمد وأصحابه حتى لا يفتِنهم عن دينهم أحد، وحتى يكون لهم من حرّية الدعوة له ما يشاءون . وسنرى من بعـدُ تفصيل هـذا والدليل عليه . وعندئذ يزداد أمامنا وضوحا أن محمدا إنمـا كان يرمى من المعاهدات التى عقـد الى تعزيز المدينة، حتى لا يتطرّق إلى قريش فيهـا مطمع، فلا يحاولوا إعنات المسلمين فيها كما حاولوا من قبل إعادتهم من بلاد الحبشة؛ وأنه كان لا يأبى فى نفس الوقت أن يعاهد قريشا على أن تترك حرية الدعوة لدين الله طليقة، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

طبيعة أهل المدينة

ولعل محمدا رمى من وراء هذه السرايا والرحلات المسلَّحة إلى غرض آخر. لعله رمى الى إرهاب اليهود المقيمين فى المدينة وعلى مقربة منها . فقد رأيت أن هؤلاء اليهود بعد أن طمعوا أوّل وصول محمد إلى المدينة فى ضمّه اليهم، و بعد أن وادعوه وعاهدوه على حرّية الدعوة للدين، وعلى إقامة المسـلمين شعائره وفرائضه، لم يلبثوا حين رأوا أمر محمد يستقر ولواء الاسـلام يسمو و يرتفـع أن بدءوا يقلبون للنبىّ ظهـر المِجَنّ ويعملون على الوقيعة به . ولئن قعدوا عن مصارحته بالعـداوة خشيةَ أن تتعرّض مصالحهم التجارية للارتبـاك اذا نشِبت بين أهل المدينة حرب أهلّية، أو محافظةً

إرهاب اليهود

الذين كانوا بمكة أن إخوانهم فى الدين من المهاجرين إلى المدينة إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان . ودخلت يهود تريد إشعال نار الفتنة . إذ ذاك نزل قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فيه قُلْ قتالٌ فيه كبيرٌ وصَدٌّ عَن سَبيلِ اللهِ وكُفر به والمسجدِ الحرامِ وإخراجُ أهلِه مِنه أكْبَرُ عِنْدَ اللهِ والفِتْنَةُ أَكْبَرُ من القتلِ ولا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حتّى يَرُدُّوكُمْ عنْ دِينِكُمْ إن اسْتَطَاعُوا[(١)] ﴾ . وسُرِّى عن المسلمين بنزول القرآن بهذا الأمر، وقبض النبيّ العير والأسيرين فافْتَدَتْهما منه قريش؛ فقال: « لا نُفْدِيكُمُوهما[(٢)] حتى يَقْدَمَ صاحبانا — يعنى سعد بن أبى وقّاص وعتبة بن غَزْوان — فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم » . وقدم سعد وعُتبة وأفداهما النبىّ من الأسيرين . فأمّا أحدهما الحَكَم بن كَيْسَان فأسلم وأقام بالمدينة. وأمّا الاخر فرجع إلى مكة وظلّ بها حتى مات على دينه ودين آبائه .

جديرٌ بنا أن نقف عند سَرِيّة عبد الله بن جحش هذه والآية الكريمة التى نزلت فيها . فهى فى رأينا مفترق طرق فى سياسة الإسلام . هى حادث جديد فى نوعه يدل على روح قوىّ فى سموّه، إنسانىّ فى قوّته، ينتظم نواحىَ الحياة المادية والمعنوية والروحية كأشد ما يكون النظام قوّة ورفعة وتوجّها إلى الكمال . فالقرآن يجيب المشركين عن تساؤلهم عن القتال فى الشهر الحرام وإنّ كان من الكبائر، ويقرّهم على أنه كذلك أمر كبير . لكن هناك ما هو أكبر من هذا الأمر . فالصّدّ عن سبيل الله والكفر به أكبرُ من القتال فى الشهر الحرام. والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتال فى الشهر الحرام والقتل فيه . وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد والإغراء والتعذيب أكبر من القتل فى الشهر الحرام وفى غير الشهر الحرام . وقريش والمشركون الذين يَنْعَوْن على المسلمين ما قَتَلوا فى الشهر الحرام لن يزالوا يقاتلون المسلمين حتى يردّوهم عن دينهم إن استطاعوا . فاذا كانت قريش وكان المشركون يرتكبون هذه الكبائر جميعا، فيصُدّون عن سبيل الله ويكفرون به

(١) سورة البقرة آية ٢١٧ (٢) أفداه : قبل منه الفداء .

المهاجرين يومئـذ ما يبيح لهم اقتضاء ما حجزت قريش من أموالهم عنـد هجرتهم، فإن دفع فتنة المؤمنين عن دينهم كان أكبر عند الله ورسوله ، وكان الغاية الأولى التى شُرع من أجلها القتال .

سرية عبد الله بن جحش

والحجة على ذلك ما نزل من الآيات فى سَرِيَّة عبد الله بن جَحْش الأَسَدِىّ؛ فقد بعثه رسول الله فى رجب من تلك السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين، ودفع إليه كتابا وأمره ألّا ينظر فيـه إلا بعد يومين من مسيره فيمضى لمـا أمره ولا يستكره من أصحابه أحدا . وفتح عبد الله الكتاب بعد يومين فاذا فيه: «إذا نظرت فى كتابى هذا فامضِ حتى تنزل نَخْلَةَ (بين مكة والطائف) فتَرَصَّدْ بهـا قريشا وتَعَلَّمْ لنا من أخبارهم» وعلم أصحابه بالأمر وبأنه لا يستكره أحدا منهـم، فمضوا معه جميعا خلا سعد بن أبى وَقَّاص الزُّهرِىّ وعُتْبـة بن غَزْوان اللّذين ذهبا يطلبان بعيرا لهما ضلّ فأسَرتهما قريش . وسار عبد الله ومن معـه حتى نزلوا نخلة . هنالك مرّت بهم عِير لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحَضْرَمِىّ ،وكان يومئذ آخر رجب . وذكر عبد الله بن جَحْش ومن معه من المهاجرين ما صنعت قريش بهـم وما حجزت من أموالهم وتشاوروا وقال بعضهم لبعض : « والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلُنَّ الحرم فليمتَنِعُنَّ منكم به . ولئن قتلتموهم لتقتُلُنَّهم فى الشهر الحرام» . وتردّدوا وهابوا الإقدام، ثم شجّعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذِ ما معهم . ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمىّ بسهم فقتله وأسر المسلمون رجلين من قريش .

الفتنة أكبر من القتـال

وأقبل عبد الله بن جحش بالعِير والأسيرين حتى قدموا المدينـة على الرسول . وحجز القوم لمحمد من مَغْنَمهم الخُمس . فلما رآهم قال لهم: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام؛ ووقف العِيرَ والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا . وأُسْقِط فى يد عبدالله ابن جحش وأصحابه وعنَّفهم إخوانهـم من المسلمين بمـا صنعوا . وانتهزت قريش الفرصة فأثارت ثائرة الدعاية ونادت فى كل مكان : إن محمدا وأصحابه استحلّوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدّم وأخذوا فيـه الأموال وأسروا الرجال . وأجاب المسلمون

لأحد أن يدفع هذا الرجل إلا بإدحاض حجته وتفنيد منطقه. لكنه اذا حاول بالقوّة المسلّحة أن يصدّ صاحب رأى عن رأيه، وجب دفع القوّة المسلّحة بالقوّة المسلّحة متى استطاع الإنسان اليها سبيلا. ذلك بأن كرامة الإنسان تتلخّص فى كلمة واحدة: عقيدته. فالعقيدة أثمن، عند من يقدر معنى الإنسانية، من المال ومن الجاه ومن السلطان ومن الحياة نفسها؛ من هذه الحياة المادّية التى يشترك الإنسان والحيوان فيها، يأكلون ويشربون وتنمو أجسامهم وتقوى عضلاتهم. والعقيدة هى هذه الصلة المعنوية بين الإنسان والإنسان؛ والصلة الروحية بين المرء وربه. هى هذا الحظ الذى يمتاز به الإنسان على سائر الحيوان مما فى الحياة، والذى يجعله يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويؤثر البائس والفقير والمسكين على أهله ولو كان به وبهم خصاصة، ويتّصل بالكون كله ليعمل دائبا كى يبلغ الكونُ ما قدّر الله له من كمال.

الإنسان وعقيدته

إذا ملكت هذه العقيدة إنسانا فحاول غيره فتنته عنها ولم يستطع دفاعا عن نفسه، فعل ما فعل المسلمون قبل هجرتهم الى المدينة، فاحتمل المساءة والأذى وصبر على الهوان والضيم ولم يصدّه جوع ولا حرمان أيًّا كان نوعه عن التمسّك بعقيدته. وهذا الذى فعل المسلمون الأوّلون هو الذى فعل المسيحيون الأوّلون. لكن الصابرين لعقيدتهم ليسوا هم سواد الناس ولا جماعتهم، وإنما هم الصفوة والمختارون ومن وهبهم الله من قوّة الإيمان ما يصغر معه كل أذى وكل ضيم، وما يدكّ الرواسى، وما تقول معه للجبل انتقل من مكانك ينتقل، على حدّ تعبير الانجيل. لكنك إذا استطعت أن تدفع الفتنة بسلاح من يحاول الفتنة، وأن تقف فى وجه من يصدّ عن سبيل الله بوسائله، وجب عليك أن تفعل، وإلا كنت مُزَعْزَع العقيدة ضعيف الإيمان. وهذا ما فعل محمد وأصحابه بعد أن استقرّ لهم الأمر بالمدينة؛ وهذا ما فعل المسيحيون بعد أن استقرّ لهم السلطان فى رومية وفى بزنطية وبعد أن لانَ قلب بعض عواهل الروم لدين المسيح.

المسيحية والقتال

يقول المبشرون: لكن روح المسيحية تنكر القتال على إطلاقه. ولست أقف لأبحث صحة هذا القول. لكن تاريخ المسيحية أمامنا شاهد عدل، وتاريخ الإسلام

ويُخرجون أهل المسجد الحرام منه ويفتنونهم عن دينهم ، فلا جناح على من تقع عليه أوزارهم وكبائرهم هذه إن هو قاتلهم فى الشهر الحرام . وإنما الكبيرة أن يقاتل فى الشهر الحرام من لا يجترح من هذه الأوزار وزرا .

القرآن والقتال

الفتنة أكبر من القتل . وحقٌّ بل واجب على من يرى غيره يحاول فتنته عن دينه أو يصد عن سبيل الله أن يقاتل فى سبيل الله حتى لا يُفْتَن وحتى ينصر دين الله . هنا يرفع المستشرقون والمبشرون عقائرهم صائحين : أرأيتم ! هذا محمد يدعو دينُه إلى الحرب وإلى الجهاد فى سبيل الله ، أى إلى إكراه الناس بالسيف على الدخول فى الإسلام . أليس هذا هو التعصب بعينه ! وهذا فى حين تنكر المسيحية القتال وتمقت الحرب وتدعو الى السلام وتنادى بالتسامح وتربط بين الناس برابطة الإخاء فى الله وفى السيّد المسيح . ولست أريد ، لكى أناقش هؤلاء ، أن أذكر كلمة الإنجيل : « ما جئت لألقى على الأرض سلامًا بل سيفا ... الخ » ولا ما تنطوى عليه هذه الكلمة من المعانى ؛ فالمسلمون يُقرُّون دينَ عيسى كما نزل به القرآن . وإنما أريد بادئ الرأى أن أردّ قولهم : إن محمدا دعا دينُه الى القتال لإكراه الناس بالسيف على الدخول فى الاسلام . فهذه فرية ينكرها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾(١) . وفى قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(٢) . وفى كثير غير هاتين الآيتين الكريمتين .

الجهاد فى سبيل الله

والجهاد فى سبيل الله معناه الصريح ، على نحو ما ورد فى الآيات التى ذكرناها والتى نزلت فى سَرِيّة عبد الله بن جحش ، قتال الذين يَفْتِنُون المسلم عن دينه ويصدّون عن سبيل الله . وهذا هو القتال فى سبيل حرية الدعوة الى الله والى دينه . وبعبارة تتمشى مع أسلوب عصرنا الحاضر : الدفاع عن الرأى بالوسائل التى يقاتل بها أصحاب الرأى . فاذا أراد أحد أن يفتن رجلا عن رأيه بالدعاوة وبالمنطق دون أن يحمله على ترك هذا الرأى بالقوّة وبغير القوّة من وسائل الرشوة والتعذيب ، لم يكن

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ (٢) سورة البقرة آية ١٩٠

دقّة وإتقانا . وما تزال كلمات نبذ الحرب وإلغاء التسلّح والتحكيم لا تزيد على أنها كلمات تقال فى أعقاب كل حرب تنهك الأمم ، أو على أنها دعاوات تُلْقَى فى جوّ الحياة من أُناس لم يستطيعوا حتى اليوم — ومن يدرى ! فلعلهم لا يستطيعون يوما — أن يحقِّقوا منها شيئا ، وأن يُحِلّوا السلام الصحيح سلام الإخاء والعدل محلّ السلام المسلَّح نذير الحرب وطليعة ويلاتها .

الاسلام دين الفطرة

والإسلام ليس دين وَهْم وخيال ، ولا هو دين يقف عند دعوة الفرد وحده الى الكمال ؛ إنما الإسلام دين الفطرة التى فُطِر الناس جميعا عليها أفرادا وجماعات ؛ وهو دين الحق والحرية والنظام . وما دامت الحرب فى فطرة الناس ، فتهذيب فكرتها فى النفوس وحصرها فى أدقّ الحدود الإنسانية هو غاية ما تحتمل فطرة البشر وما يحقّق للإنسانية اتصال تطوّرها فى سبيل الخير والكمال . وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون الا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأى والدعوة اليه ، وأن تُرْعَى فيها الحُرُمات الإنسانية تمام الرعاية . وهذا ما قرّر الإسلام على ما رأينا وما سنرى من بعدُ . وهذا ما نزل به القرآن ، وضعناه وسنضعه تحت نظر القارئ فى الأحوال والمناسبات التى نزل فيها .

أمامنا شاهد عدل . فمنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا خُضِّبت أقطار الأرض جميعا بالدماء باسم السيّد المسيح ، خضبها الروم وخضبتها أمم أوربا كلها . والحروب الصليبية إنما أذكى المسيحيون ولم يُذْكِ المسلمون لهيبها . ولقد ظلّت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوربا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الشرق الإسلامية ، تقاتل وتحارب وتُريق الدماء . وفى كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المَقْدِس وعلى الأماكن النصرانية المقدّسة . أفكان هؤلاء البابوات جميعا هَرَاطِقة وكانت مسيحيّتهم زائفة؟ أم كانوا أدعياء جهّالا لا يعرفون أن المسيحيّة تنكر القتال على إطلاقه؟ أم يقولون : تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام فلا يحتج على المسيحية بها ؟ إن يكن ذلك بعض ما قد يقولون ، فإن هذا القرن العشرين الذى نعيش فيه والذى يسمونه عصر الحضارة الإنسانية العليا ، قد رأى ما رأت تلك العصور الوسطى المظلمة ؛ فقد وقف اللورد أللَّنْبي ممثل الحلفاء ، انكلترا وفرنسا وإيطاليا ورومانيا وأمريكا ، يقول فى بيت المقدس فى سنة ١٩١٨ حين استيلائه عليه فى أخريات الحرب الكبرى : " اليوم انتهت الحروب الصليبية " .

القدّيسون فى الإسلام والمسيحية

وإذا كان من بين المسيحيين قِدِّيسون أنكروا القتال فى مختلف العصور وسَمَوْا بذواتهم الى الذروة من معنى الإخاء الإنسانى ، بل من معنى الإخاء بين عناصر الكون كله ، فمن بين المسلمين كذلك قِدِّيسون سمت نفوسهم هذا السمو واتصلوا بكل الوجود اتصال إخاء ومحبة وإشراق ملأ منهم النفوس بوحدة الوجود . لكن هؤلاء القِدِّيسين ، من النصارى والمسلمين ، وإن صوّروا المَثَل الأعلى ، لا يمثّلون حياة الإنسانية أثناء تطوّرها الدائم ، وفى دأب جهادها إلى الكمال ، إلى هذا الكمال الذى نحاول تصوّره ثم يقعد بنا الفنّ ويقعد بنا الخيال دون شيء من الدقّة فى إدراكه ، وإن نحن جازفنا بتصويره تمهيدا لما نحاول من جهود فى سبيله . وهذه أربع وخمسون وثلاثمائة وألف سنة قد انقضت منذ هجرة النبيّ العربى مكة إلى يثرب والناس فى مختلف العصور يزدادون فى القتال افتنانا وفى صنع آلاته الجهنمية المدمّرة

ولا بقيت امرأة استطاعت أن تساهم بحظ إلا فعلت وفعل، حتى قُوِّم ما فيها بخمسين ألفا من الدنانير . ولقد خشى إن هو انتظرها أن تفوته العِير فى عودتها إلى مكة كما فاتته فى ذهابها إلى الشام . لذلك ندَب المسلمين وقال لهم : هذه عير قريش، فاخرجوا اليها لعل الله يَنْفُلُكُموها . وخفّ بعضُ الناس وثقُل بعض، وأراد جماعة لم يُسلموا أن ينضمّوا طمعًا فى الغنيمة، فأبى محمد عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله .

خروج المسلمين الى بدر

أمّا أبو سفيان فكان قد اتّصل به خروج محمد لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام، فخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته بعد أن رَبِحت تجارته، وجعل ينتظر أخبارهم . وكان الجهنىّ الذى نزل عليه رسولا محمد بالحوراء بعضَ من سأل . ومع أن الجهنىّ لم يصدُقه الخبرَ فقد بلغه من أمر محمد والمهاجرين والأنصار معه مثل ما ترامى إلى محمد من خبره؛ فخاف عاقبة أمره أن لم يكن من قريش فى حراسة العِير إلا ثلاثون أو أربعون رجلا . عند ذلك استأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفَارِىّ فبعثه مسرعا إلى مكة ليستنفر قريشا الى أموالهم، ويخبرهم أن محمدا قد عرَض لها فى أصحابه . ووصل ضمضم من مكة إلى بطن الوادى فقطع أُذُنَىْ بعيره وجدَع أنفه وحوَّل رَحْلَه ووقف هو عليه وقد شَقَّ قميصه من قُبُل ومن دُبُر وجعل يصيح : يا معشر قريش ! اللَّطيمةَ اللَّطيمةَ[1] ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرَض لها محمد فى أصحابه لا أُرى أن تُدركوها . الغَوْثَ الغَوْثَ ! . وما لبث أبو جهل حين سمعه أن صاح بالناس من عند الكعبة يَسْتنفرهم . وكان أبو جهل رجلا خفيفا حديدَ الوجه حديد اللسان حديد النَّظر . ولم تكن قريش فى حاجة إلى من يستنفِرها؛ وقد كان لكل منها فى هذه العِير نصيب .

رسول أبى سفيان الى قريش

على أن طائفة من أهل مكة كانت تشعر بما ظَلَمت قريشُ المسلمين من أهلها حتى أكرهتهم على الهجرة الى الحبشة ثم الهجرة الى المدينة، فكانت تتردّد بين النَّفير

(١) اللطيمة : المال والتجارة .

الفصل الثالث عشر

غـــــزوة بـــدر الكبرى

خروج أبى سفيان إلى الشام — محاولة المسلمين قطع الطريق عليه — نجاته فى الذهاب — انتظارهم إياه فى أوبته — علم قريش بتجهيز المسلمين — خروجهم إلى بدر — نجاة أبى سفيان بتجارته — تردّد قريش والمسلمين فى القتال — زوال التردد — موقف الفريقين فى بدر — حماسة المسلمين وانتصارهم

كانت سَرِيّة عبد الله بن جحش مفترق طرق فى سياسة الإسلام. فيها رمى واقد ابن عبد الله التميمىّ عمرو بن الحَضْرَمِىّ بسهم فقتله، فكان أوّل دم أراق المسلمون؛ وفيها نزلت الآية التى قدّمنا؛ وعلى إثرها شُرِع قتال الذين يَفْتِنُون المسلمين عن دينهم ويصدّونهم عن سبيل الله. وكانت هذه السريّة مفترق طرق كذلك فى سياسة المسلمين إزاء قريش، أن جعلت الفريقين يتناظران بأسا وقوة. فقد جعل المسلمون يفكرون من بعدها تفكيرا جدّيا فى استخلاص أموالهم من قريش بغزوهم وقتالهم. ذلك بأن قريشا حاولت إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد وأصحابه أن قَتَلوا فى الشهر الحرام، حتى لقد أيقن محمد أن لم يبق فى مصانعتهم أو فى الاتفاق معهم رجاء. وقد خرج أبو سُفيان فى أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة فى تجارة كبيرة يقصد الشام، وهى التجارة التى أراد المسلمون اعتراضها حين خرج النبى عليه الصلاة والسلام إلى العُشَيْرة. لكنهم إذ بلغوها كانت قافلة أبى سفيان قد مرّت بها ليومين قبل وصولهم اليها؛ إذ ذاك اعتزم المسلمون انتظارها فى عودتها. ولما تَحَيَّن محمد انصرافها من الشام بعث طَلْحة بن عُبَيْد الله وسعيد بن زيد ينتظران خبرها، فسارا حتى نزلا على كَشْد الجُهَنِىّ بالحَوْراء وأقاما عنده فى خِباء حتى مرّت العِيرُ، فأسرعا إلى محمد ليُفضِيا اليه بأمرها وما رأيا منها.

تجارة أبى سفيان

على أن محمدا لم ينتظر رسوليه إلى الحوراء وما يأتيان به من خبر العِير؛ فقد ترامى اليه أنها عِير عظيمة، وأن أهل مكة جميعا اشتركوا فيها، لم يبق منهم رجل

من الأوس والباقون من الخزرج . وانطلق القوم مسرعين من خوف أن يفلت أبو سفيان منهم ، وهم يحاولون حيثما مرّوا أن يقفوا على أخباره . فلما كانوا بعِرْق الظُّبْية لَقُوا رجلا من الأعراب فسألوه عن القوم فلم يجدوا عنده خبرا . وانطلقوا حتى أتوا واديًا يقال له ذَفِران نزلوا فيه ، وهناك جاءهم الخبر بأن قريشا قد خرجوا من مكة يمنعوا عِيرهم . إذ ذاك تغيّر وجه الأمر . لم يبق هؤلاء المسلمون مهاجروهم والأنصار أمام أبى سفيان وعِيره والثلاثين أو الأربعين رجلا معه ، لا يملكون مقاومة محمد وأصحابه ؛ بل هذه مكة خرجت كلها وعلى رأسها أشرافها للدفاع عن تجارتها . فهَبِ المسلمين أدركوا أبا سفيان وتغلّبوا على رجاله وأسروا منهم من أسروا وآقتادوا إبلَه وما عليها ، فلَن تلبَث قريش أن تدركهم يَحْفِزها حرصها على مالها والدفاع عنه وتُؤازرها كثرة عديدها وعُدَدها ، وأن توقع بهم ، وأن تستردّ الغنيمة منهم أو تموت دونها . ولكن اذا عاد محمد من حيث أتى طمعت قريش وطمعت يهود المدينة فيه ، وآضطر الى موقف المصانعة واضطرّ أصحابه الى أن يحتملوا من أذى يهود المدينة مثل ما احتملوا من أذى قريش بمكة . وهيهات إن هو وقف هذا الموقف أن تعلو كلمة الحق وأن ينصر الله دينه .

خروج قريش من مكة

اِستشار الناس وأخبرهم بما بلغه من أمر قريش ، فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما . ثم قام المِقْداد بن عمرو فقال : "يارسول الله ، اِمض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : إذهب أنت وربك فقاتِلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا معكما مقاتِلون". وسكت الناس ، فقال الرسول : أشيروا علىّ أيها الناس . وكان يريد بكلمته هذه الأنصارَ الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه ممّا يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على آعتداء خارج مدينتهم . فلما أحسّ الأنصار أنه يريدهم ، وكان سعد بن معاذ صاحب رايتهم ، التفت إلى محمد وقال : لَكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجَلْ . قال سعد : "لقد آمنّا بك وصدّقناك وشهِدنا أن ماجئتَ به هو الحقّ ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامضِ لما أردت فنحن معك .

كلمة الأنصار

ثأر قريش وكنانة

للذَّوْد عن أموالها والقعود رجاء ألّا يصيب العير مكروه . وهؤلاء كانوا يذكرون أن قريشا وكنانة بينهما ثأر فى دماء تبادل الفـريقان إراقتها . فاذا هى خفّت الى لقاء محمد لمنع عِيرها منه خافت بنى بكر (من كنانة) أن تهاجمها من خلفها . وكادت هذه الحجـة ترجح وتؤيّد رأى القائلين بالقعود، لولا أن جاء مالك بن جُعْشُم المُدْلِجِىّ، وكان من أشراف بنى كنانة ، فقال : أنا لكم جار من أن تأتيـكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه . إذ ذاك رجحت كفّة أبى جهل وعامر بن الحَضْرَمِىّ والدُّعاة الى الخـروج لدفع محمد والذين معـه؛ ولم يبق لكل قادر على القتال عذر فى التخلّف أو يرسِلَ مكانه رجلا . ولم يتخلّف من أشراف قريش الا أبو لهب الذى بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان لطَّ له[1] بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفلس بها . وكان أميّـة بن خَلَف قد أجمع على القعود، وكان شـيخا جليلا جسيما ثقيلا؛ فأتاه بالمسـجد عُقْبة بن أبى مُعَيْط وأبو جهل ومع عقبة مِجْمَرَة فيها بَخُور ومع أبى جهل مُكْحُلة ومِرْوَد، فوضع عقبة المِجمرة بين يديه وقال : يا أبا علىّ آستجْمِر فإنما أنت من النساء . وقال أبو جهل : اكتحل أبا علىّ فانما أنت امرأة . فقال أُمَيّة : ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى ؛ وخرج معهم ، فلم يبق بمكة متخلِّف قادر على القتال .

مسـيرة جيش المسلمين

أمّا النبىّ عليه السلام فقد خرج فى أصحابه من المدينة لثمان خلون من شهر رمضان من السـنة الثانية من الهجرة، وجعل عمرَو بن أُمّ مَكْتُوم فيها على الصلاة بالناس، وردّ أبا لُبابةَ من الرَّوْحاء وآستعمله على المدينة . وكانت أمام المسلمين فى مسيرتهم رايتان سوداوان ، وكانت إبلهم سبعين بعيرًا جعلوا يَعْتقبونها[2] ، كل اثنين منهم وكل ثلاثة وكل أربعة يعتقِبون بعيرا . وكان حظّ محمد فى هذا كحظّ سائر أصحابه . فكان هو وعلىّ بن أبى طالب ومَرْثَد بن مَرْثَد الغَنَـوىّ يعتقِبون بعـيرا . وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا . وكانت عِدّة مَن خرج مع محمد إلى هذه الغزوة خمسة وثلاثمائة رجل ، منهم ثلاثة وثمـانون من المهاجرين وواحد وستون

(١) لط الغريم بالحق : ما طل فيه ومنعه . ولط حقه : جحده .

(٢) الاعتقاب هنا : أن يركب الواحد البعير مدّة ثم ينزل ليعتقبه الآخر فيركبه .

سبقه الى الطريق . فلما ورد الماءَ وجد عليه مَجْدِىَّ بن عمرو فسأله : هل قد رأى أحدا ؟ وأجاب مَجْدِىٌّ بأنه لم ير إلا راكبين أناخا الى هذا التلّ ، وأشار الى حيث أناخ الرجلان من المسلمين . فأتى أبو سفيان مُناخَهما فوجد فى روث بعيريهما نوًى عرفه من علائف يثرب . فأسرع عائدا الى أصحابه وعدل بالسير عن الطريق مُساحِلًا البحر مسرعا فى مسيره، حتى بعد ما بينه وبين محمد، ونجا .

انفلات أبى سفيان ونجاته

وأصبح الغد والمسلمون فى انتظار مروره بهم ، فاذا الأخبار تصلهم أنه فاتهم وأن مقاتلة قريش هم الذين ما يزالون على مقربة منهم؛ فيذوى فى نفوس جماعة منهم ما كان يملؤها من أمل فى الغنيمة، ويجادل بعضهم النبىَّ كى يعودوا الى المدينة ولا يلقوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم . وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائفتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وتَوَدُّونَ أَنَّ غيرَ ذاتِ الشَّوْكة تكونُ لكم ويُرِيدُ اللهُ أن يُحِقَّ الحَقَّ بكلماته ويقطَعَ دابِرَ الْكافرينَ﴾ (١) .

أيكون قتال

وقريش، هى أيضا ، ما حاجتها الى القتال وقد نجت تجارتهم ؟ أليس خيرا لهم أن يعودوا من حيث أتَوْا ،وأن يتركوا المسلمين يرجعون من رحلتهم بخُفَّىْ حنين؟ كذلك فكر أبو سفيان، وبذلك أرسل الى قريش يقول لهم : إنكم قد خرجتم لتمنعوا عِيرَكم ورجالَكم وأموالَكم ، فقد نجّاها الله فارجعوا . ورأى من قريش رأيه عددٌ غير قليل . لكن أبا جهل ما لبث حين سمع هذا الكلام أن صاح : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرا فنُقيمَ عليه ثلاثا نحر الجُزُر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها . ذلك أن بدرا كانت موسما من مواسم العرب ، فانصراف قريش عنها بعد أن نجت تجارتهم قد تفسره العرب، فيما رأى أبو جهل، بخوفهم من محمد وأصحابه ، مما يزيد محمدا شوكة ويزيد دعوته انتشارا وقوّة ، وبخاصّة بعد الذى كان من سريّة عبد الله بن جَحْش وقتل الحَضْرمىّ وأخذ الأسرى والغنائم من قريش .

(١) سورة الأنفال آية ٧

فو الذى بعثك لو ٱستعرضت بنا هـذا البحر َنخُضْتَـه لخضناه معك وما تخلّف منا رجل واحد . وما نكره أن تَلْقَى بنا عدوّنا غدا . إنا لَصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللّقاء . لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك . فسِرْبنا على بركة الله" . ولم يكد سعد يتم كلامه حتى أشرق وجه محمد بالمسرّة وبدا عليه كل النشاط وقال : سِيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنّى الآن أنظر إلى مصارع القوم . وارتحلوا جميعا ، حتى إذا كانوا على مقربة من بدر ٱنطلق محمد على بعيره حتى وقف على شيخ من العـرب وسأله عن قريش وعن محمد وأصحـابه ، ومنـه عرف أن عِير قريش منه قريب .

تنطس الأخبار

إذ ذاك عاد إلى قومه فبعث علىّ بن أبى طالب والزُّبَيْر بن العوّام وسـعد بن أبى وقّاص فى نفر من أصحـابه إلى ماء بدر يتلمّسون له الخبر عليـه . وعادت هـذه الطليعة ومعها غلامان عرف محمد منهما أن قريشا وراء الكَثِيب الذى بالعُـدْوةِ القُصْوَى . ولمـا أن أجابا : أنهمـا لا يعرفان عِدّة قريش ، سألهما محمد : كم ينحرون كل يوم ؟ فأجابا : يوما تسـعا ويوما عشرا . فآستنبط النبى من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف ، وعرف من الغلامين كذلك أن أشراف قريش جميعا خرجوا لمنعه ؛ فقال لقومه : « هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كَبِدها » . إذًا فلابدّ له ولهم أمام قوم يزيدون عليهم فى العدد ثلاثة أضعاف أن يَشْحَذوا عزائمهم ، وأن يوطِّنوا على الشدة أفئدتهم ونفوسهم ؛ وأن ينتظروا موقعة حامية الوطيس لا يكون النصر فيها إلا لمن ملأ الإيمان بالنصر قلبه .

وكما عاد علىّ ومن معـه بالغلامين وبخبر قريش معهما ، ذهب اثنـان من المسلمين حتى نزلا بدرا فأناخا إلى تلّ قريب من المـاء وأخذا وِعاء لهما يستقيان فيه . وإنهما لعلى المـاء إذ سمعا جاريةً تطالب صاحبتها بدين عليهـا والثانية تجيبها : إنما تأتى العير غدًا أو بعد غد ، فأعمَل لهم ثم أقضيـك الذى لك . وعاد الرجلان فأخبرا محمدا بمـا سمعا . فأمّا أبو سفيان فسبق العِير يَتَنطَّس الأخبار حذرَ أن يكون محمد قد

صدق إيمان المسلمين

هنا موضع لوقفة إعجاب بصدق إيمان المسلمين وعظيم محبّتهم لمحمد وإيمانهم برسالتـه . فهاهم أولاء يعلمون أن قريشا تفوقهم فى العـدد وأنها ثلاثة أمثالهم ، ومع ذلك اعتزموا الوقوف فى وجهها وقتالهـا . وها هم أولاء يرون الغنيمة فاتتهم فلم يصبح الطمع المـادىّ هو الذى يحفِزهم للقتال ، ومع ذلك قاموا إلى جانب النبىّ يؤيدونه ويعزّزونه . وها هم أولاء تتردّد نفوسهم بين الطمع فى النصر وخوف الهزيمة ، ومع ذلك فكروا فى حماية النبي وتَوْقِيَته أن يظفَر به عدوّه ومهَّدوا له سبيل الاتصال بمن ترك بالمدينـة . فأىّ موقف أدعى للإعجاب من هـذا الموقف ، وأىّ إيمان يكفل النصر كهذا الإيمان !

ونزلت قريش منازل القتال ، ثم بعثوا من يقص لهم خبر المسـلمين ، فجاءهم بأنهـم ثلاثمائة أو يزيدون قليـلا أو ينقصونه ، ولا كمين لهم ولا مورد ؛ ولكنهم قوم ليس لهم مَنَعة ولا ملجأ إلّا سيوفهم ، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلا مثله . ولمـا كانت صَفْوة قريش قد خرجوا فى هـذا الجيش ، خشى بعض ذوى الحكمـة منهم أن يقتـل المسلمون كثرتهم فلا تبقى لمكة مكانتهـا . لكنهم خافوا حدّة أبى جهـل ورميه إيّاهم بالجبن والخوف ، وإن لم يمنع ذلك عُتْبة بن ربيعـة من أن يقف بينهـم قائلا : « يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا . والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته . فارجعوا وخلُّوا بين محمد وسائر العرب . فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك لم نتعرّض منه لمـا تكرهون » . فلما بلغت أبا جهل مقالة عُتبة استشاط غيظا وبعث إلى عامر بن الحضرمىّ يقول له : « هذا حليفك يريد أن يرجع بالنـاس وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشُدْ مقتـلَ أخيك » . وقام عامر فصرخ : وَاعَمْراه ! فلم يبق بعـد ذلك من الحـرب مفرّ .

حمزة يقتل ابن عبد الأسد

وأعجل القتال أن اندفع الأسْوَد بن عبد الأَسَد المَخْزومىّ من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدِم الحوض الذى بنَوْا ؛ فعاجله حمزة بن عبد المطّلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخُب رجله دما ، ثم أتبعها حمزة بضربة

وتردّد القوم بين اتّباع أبي جهل مخافة أن يُتّهَموا بالجبن، وبين الرجوع بعد أن نجت عِيرهم، فلم يرجع إلا بنو زُهْرة الذين اتّبعوا مشورة الأخْنَس بن شَريق، وكان فيهم مطاعا؛ واتّبعت سائر قريش أبا جهل حتى ينزلوا منزلا يتهيئون فيه للحرب ثم يتشاوروا بعدها. ونزلوا بالعُدْوة القُصْوى خلف كثيبٍ من الرمل يحتمون به. أمّا المسلمون الذين فاتتهم الغنيمة فقد أجمعوا أن يصمُدوا للعدوّ إذا أجمع محاربتهم.

نزول المسلمين بدرا

لذلك بادروا إلى ماء بدر، ويسّر لهم مطر أرسلته السماء مسيرتَهم اليها. فلما جاءوا أدنى ماء منها نزل محمد به. وكان الحُبَاب بن المُنْذِر بن الجَمُوح عليماً بالمكان. فلما رأى حيث نزل النبيّ قال: يا رسولَ الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلًا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال محمد: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله، فإنّ هذا ليس بمنزل، فانهَضْ بالناس حتى نأتِيَ أدنى ماء من القوم فننزلَ ثم نُعَوِّر ما وراءه من القُلُب(1)، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتلَ القوم فنشربَ ولا يشربوا. ولم يلبث محمد حين رأى صواب ما أشار به الحُبَاب أن قام ومن معه واتّبع رأى صاحبه، معلنا إلى قومه أنه بشر مثلهم وأن الرأى شُورَى بينهم، وأنه لا يقطع برأى دونهم، وأنه فى حاجة الى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم.

بناء العريش للنبى

ولما بنوا الحوض أشار سعد بن مُعاذ قائلا: «يا نبيّ الله، نبنى لك عريشا تكون فيه ونُعِدُّ عندك ركائبك ثم نَلْقَى عدوّنا؛ فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلّف عنك أقوام يا نبيّ الله ما نحن بأشدّ لك حبّا منهم. ولو ظنوا أنك تلقَى حربًا ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك». وأثنى محمد على سعد ودعا له بخير، وبُنِيَ العريش للنبيّ حتى إذا لم يكن النصر فى جانبه وجانب أصحابه لم يقع فى يد عدوّه واستطاع اللّحاق بأصحابه بيثرب.

(1) القلب: جمع قليب، وهو البئر، يذكر ويؤنث.

وسرت من نفسه القويّة، أمدها الله من لدنه بما سما بها فوق كل قوة ، الى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالته، قوةٌ ضاعفت عزمهم ، وجعلت كلّ رجل منهم يعدل رجلين بل يعدل عشرة رجال . ويسيرٌ عليك أن تقدّر هذا إذا ذكرت ما لازدياد القوة المعنوية من أثر فى النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوة المعنويّة فيها . فدافع الوطنية يزيدها . وهذا الجندىّ الذى يقف مدافعا عن وطنه المهدَّد بالخطر مُمْتلئ النفس بالعاطفة الوطنية ، تتضاعف قوته المعنوية بمقدار حبّه لوطنه وإيمانه به ، وبمقدار تخوّفه من الخطر الذى يتهدّد العدوُّ الوطن به . ولهذا تغرس الأمم فى نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم حبَّ الوطن والاستهانة بالتضحية فى سبيله . والإيمان بالحق وبالعدل وبالحرّية وبالمعانى الإنسانية السامية يزيد القوة المعنويّة فى النفس بما يضاعف القوة المادّية فيها . والذين يذكرون ماقام به الحلفاء فى الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الألمان، أساسها أنهم يدافعون عن قضية الحرّية والحق ويحاربون فى ألمانيا الجندية المسلَّحة ويمهّدون لعهد سلام ونور، يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوة من قوة فى نفوس جنود الحلفاء بمقدار ما كانت تحيطهم به من عطف أكثر أمم العالم . **القوة المعنوية**

وما الوطنيّة وما قضيّة السلام الى جانب ما كان محمد يدعو اليه ! الى اتصال الإنسان بالوجود كله اتصالا يندمج به فيه ويصبح معه قوة من قوى الكون الموجِّهة له سبيل الخير والنعمة والكمال . نعم ! ما الوطنية وما قضيّة السلام الى جانب الوقوف فى جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه، والذين يصدّون عن سبيله ، والذين ينزلون بالإنسان الى درك الوثنيّة والإشراك ! . اذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوة بمقدار ما فى الوطن كله من قوة، ويزيدها حب السلام للإنسانية كلها قوة بمقدار ما فى الإنسانية من قوة، فما أكثرَ ما يزيدها الإيمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوة ! ! إنه ليجعلها قديرة أن تُسَيِّر الجبال، وتحرّك العوالم، وتهيمن بسلطانها المعنوىّ على كل من كان أقل منها فى هذا الأمر إيمانا . وهذا السلطان المعنوىّ يزيد فى قوتها المادية أضعافا مضاعفة . فاذا لم يصل هذا السلطان

أخرى قضت عليه دون الحوض . ولا شيء أرهف لُظَبا السيوف من منظر الدم . ولا شيء أشدّ إثارةً لعواطف القتال والحرب فى الإنسان من مرأى رجل مات بيد العدوّ وقومه إيّاه وقوف ينظرون .

وما إن سقط الأسـود حتى خرج عُتْبـة بن رَبيعة بين أخيه شَيْبة وابنه الوليد ابن عتبة ودعا الى المبارزة . وخرج إليه فِتْيَة من أبناء المدينة . فلما عرفهم قال لهم : ما لنا بكم من حاجة ، إنما نريد قومنا . ونادى مناديهم : يا محمد ، أَخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا . وخرج إليهم حمزة بن عبـد المطلب وعلىّ بن أبى طالب وعُبَيْـدة بن الحـارث . ولم يُمْهِل حمزةُ شَـيْبَةَ ولا أمهل علىٌّ الوليـدَ أن قتلاهما ، ثم أعانا عُبيدة وقد ثبت له عُتْبَـة . فلمـا رأت قريش من ذلك ما رأت ، تزاحف الناس والتَقَى الجمعان صبيحة الجمعة لسبعة عشر خلت من شهر رمضان .

التقاء الجمعين

وقام محمد على رأس المسلمين يعدّل صفوفهم . فلما رأى كثرة قريش وقلّة رجاله وضعف عُدّتهم الى جانب عُدّة المشركين عاد الى العريش ومعه أبو بكر ، وهو أشدّ مايكون خوفا من مصير ذلك اليوم ، وأشدّ مايكون إشفاقا مما يصير اليه أمر الإسلام اذا لم يتمّ للسلمين النصر . واستقبل محمد القبلة واتّجه بكل نفسـه الى ربه ، وجعل ينشُده ما وعده ويهتف به أن يُتِمّ له النصر . وبالغ فى التوبة والدعاء والابتهال وجعل يقول : « اللهم هـذه قريش قد أتت بخُيلائها تحاول أن تكذِّب رسولك ، اللهم فنصرَك الذى وعدتنى . اللهم إن تَهلِك هـذه العصابةُ اليوم لا تُعْبَد » . وما زال يهتف بربِّه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سـقط رداؤه ، وجعل أبو بكر من ورائه يردّ على منكبيه رداءه ويُهيب به : يانبىّ الله ، بعضَ مناشـدتك ربك فإن الله منجزٌ لك ما وعدك . لكن محمدا ظلّ فيما هو فيه أشدّ ما يكون توجُّها لله وأشدّ ما يكون تضرُّعا وخشية واستعانة بربه على هذا الموقف الذى لم يتوقعه المسلمون ولم يتخذوا له عُدّته ، حتى خفَق خَفْقةً من نُعاس رأى خلالَها نصر الله ، وانتبه بعدها مستبشرا ، وخرج الى النـاس يحرّضهم ويقول لهم : "والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقْتَل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة" .

دعاء محمد وابتهاله

مهلّلين : أحدٌ أحدٌ ، وقد انهتكت أمامهم حجب الزمان والمكان وأمدّهم الله بالملائكة يبشّرونهم ويزيدونهم تثبيتا وإيمانا ، حتى لكان الواحد منهم إذ يرفع سيفه ويهوى به على عنق عدوّه إنما تحرّك قوة الله يده . ووقف محمد وسط هذا الوطيس ، يتمشّى خلاله ملك الموت يَقُطّ رقبة الكفر ، فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا وقال : شاهت الوجوه ! ثم نفحهم بها وأمر أصحابه فقال : شُدُّوا ، وشدّ المسلمون وما يزالون أقل من قريش عددا . لكن كل واحد منهم امتلأت بنفحة من أمر الله نفسه ، فلم يكن هو الذى يقتل العدوّ ولا كان هو الذى يأسر من يأسر ، لولا هذه النفحة التى ضاعفت قوّته المعنويّة بما ضاعف قوته المادية . وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾(1) . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾(2) . ولما آنس الرسول أن الله أنجزه وعده وأتمّ على المسلمين النصر عاد الى العريش . وفرّت قريش فطاردهم المسلمون يأسرون منهم من لم يُقْتل ولم يساعفه حسن فراره بالنجاة .

محمد وسط المعمعة

هذه غزوة بدر التى استقرّ بها الأمر للمسلمين من بعدُ فى بلاد العرب جميعاً ، والتى كانت مقدّمة وَحْدة شبه الجزيرة فى ظلال الإسلام ، ومقدمة الأمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف ، والتى أقرّت فى العالم حضارة لا تزال ولن تزال ذات أثر عميق فى حياته . ولقد تعجب إذ تعلم أن محمدا ، على ما كان من تحريضه أصحابه وما كان يرجو من استئصال عدو الله وعدوّه ، قد طلب إلى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة ألاّ يقتلوا بنى هاشم وألا يقتلوا بعض رجال من سادات قريش ، مع أنهم اشتركوا فى قتال المسلمين ، ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله . ولا تحسب أنه فى ذلك أراد أن يحابى أهله أو أحدا ممن يَمُتّون له

المسلمون لا يقتلون من أحسنوا الى المسلمين

(1) سورة الأنفال آية ١٢ (2) سورة الأنفال آية ١٧

المعنوى الى غاية كماله بسبب ما كان بين المسلمين من خلاف قبل الموقعة ، لم تبلغ القوة المادية كل ما تطمح الى بلوغه ، وإن هى زادت بفعل هذا الإيمان الذى ازداد قوة بتحريض محمد أصحابه فعوضهم بذلك عن قلة عددهم وعُدّتهم . وفى حال النبى وأصحابه هذه نزلت الآيتان : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[١] .

تحريض محمد المؤمنين

ازداد المسلمون قوة بتحريض محمد إياهم ووقوفه بينهم ودفعهم لمقاتلة العدو والصيحة بهم أن الجنّة لمن أحسن البلاء منهم ومن غمس يده فى العدو حاسرا . ووجّه المسلمون أكبر همهم إلى سادات قريش وزعمائها يريدون استئصالهم ، جزاء وفاقا لما عذبوهم بمكة ، ولما صدّوهم عن المسجد الحرام وعن سبيل الله . رأى بلال أميّة بن خَلَف وابنه ، ورأى بعض المسلمين الذين عرفوه بمكة حوله ، وكان أُمَيّة هو الذى عذّب بلالا إذ كان يُخرجه إلى رَمْضاء مكة فيُضجعه على ظهره ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ليفتنه عن الإسلام ، فيقول بلال : أَحَدٌ أَحَدٌ . رأى بلال أميّة فصاح به : أمية رأس الكفر ، لا نجوتُ إن نجا ! . وحاول بعض المسلمين من حول أمية أن يحولوا دون قتله وأن يأخذوه أسيرا . فصرخ بلال بأعلى صوته فى الناس : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خَلَف ! لا نجوت إن نجا . واجتمع الناس ولم ينصرف بلال حتى قُتل أُمّية . وقتل معاذ بن عمرو بن الجَموح أبا جهل بن هشام . وخاض حمزة وعلىّ وأبطال المسلمين وطيس المعركة وقد نَسِى كلٌّ منهم نفسه ونسى قلّة أصحابه وكثرة عدوّه ، فثار النقع وامتلأ الجو بالغبار وجعلت هام قريش تطير عن أجسادها ، والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوة ويصيحون

بلال يقتل أمية ابن خلف

(١) سورة الأنفال آيتا ٦٥ و ٦٦

أبو حذيفة : «لا والله يا رسول الله . ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك الإسلام. فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما كان عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له، أحزننى أمره» . فقال له رسول الله خيرا ودعا له بخير .

اختلاف المسلمين على الفىء

ولما أصبح الصبح وآن للمسلمين أن يرتحلوا قافلين إلى المدينة، بدءوا يتساءلون فى الغنيمة لمن تكون. قال الذين جمعوها : نحن جمعناها فهى لنا . وقال الذين كانوا يطاردون العدو حتى ساعة هزيمته : نحن والله أحقّ بها، فلولانا لما أصبتموها . وقال الذين كانوا يحرسون محمدا مخافة أن يرتدّ اليه العدو : ما أنتم ولا هم أحق بها منا، وكان لنا أن نقتل العدو ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنّا خِفْنا على رسول الله كثرة العدو فقمنا دونه . فأمر محمد الناس أن يردّوا كل ما فى أيديهم من الغنائم، وأمر بها أن تحمل حتى يرى فيها رأيه أو يقضى الله فيها بقضائه .

وبعث محمد الى المدينة عبد الله بن رَوَاحة وزيد بن حارثة بشيرين يُلقيان إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين من النصر. وقام هو وأصحابه قافلين إلى المدينة ومعه الأسرى وما أصاب من المشركين من غنيمة جعل عليها عبد الله بن كعب . وسار القوم، حتى إذا تخطَّوْا مَضِيقَ الصَّفْراء نزل محمد على كثيب فقسم هناك النَّفَل الذى أفاء الله على المسلمين، بين المسلمين على سواء . يقول بعض المؤرخين : إنه قسمه بينهم بعد إذ أخذ منه الخمس، لقوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شيءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وللرَّسُولِ ولِذِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابنِ السَّبِيلِ إن كُنْتُمْ آمنتُمْ بالله ومَا أَنْزَلْنَا على عَبْدِنا يومَ الفُرْقانِ يَوْمَ التَقَى الجَمْعانِ واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ (١) .

قسمته بينهم على سواء

ويذهب الأكثرون من كتّاب السيرة، والمتقدّمون منهم خاصة، إلى أن هذه الآية نزلت بعد بدر وبعد قَسْم فيئها، وأن محمدا جعل القسمة بين المسلمين على سواء، وأنه جعل للفرس مثل ما للفارس، وجعل للورثة حصة من استُشهد ببدر، وجعل حصّةً

(١) سورة الأنفال آية ٤١

بصلة القربى؛ فنفس محمد أسمى من أن نتأثر بمثل هذا؛ وإنما ذكر لبنى هاشم مَنْعَهم إيّاه مدى ثلاثة عشر عاما من يوم بعثه إلى يوم هجرته، حتى كان عمّه العباس معه ليلة بيعة العقبة. وذكر لغير بنى هاشم من قريش من قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة التى اضطرّته بها قريش أن يلزم هو وأصحابه الشِّعب بعد أن قطعت قريش بهم كل صلة وكل علاقة. فهذا المعروف الذى تقدّم به هؤلاء وأولئك قد اعتبره محمد حسنة يُجْزَى من قدّمها بمثلها، بل يُجْزَى بعشر أمثالها؛ لذلك كان شفيعا لهؤلاء وأولئك عند المسلمين ساعة القتال، وإن أبى بعض هؤلاء القرشيين أن يستظلّوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البَخْتَرِى أحد الذين قاموا فى نقض الصحيفة، فقد أبى وقُتل.

ولّى أهل مكة الأدبار كاسفًا بالهم، خاشعة من الذل أبصارهم، لا يكاد أحدهم يلتقى نظره بنظر صاحبه حتى يوارى وجهه خجلا من سوء ما حلّ بهم جميعا. أمّا المسلمون فأقاموا ببدر إلى آخر النهار، ثم جمعوا الذين قتلوا من قريش فحفروا لهم قَلِيبا فدفنوهم فيه. وقضى محمد وأصحابه تلك الليلة فى الميدان فى شغل بجمع الغنيمة والسهر على الأسرى. وإذ جنّ الليل جعل محمد يفكر فى نصر الله المسلمين على قلّة عددهم، وخذلانه المشركين الذين لم يكن لهم من قوة الإيمان عضدٌ تعتزّ به كثرتهم. جعل يفكر فى هذا حتى سمعه أصحابه جوف الليل وهو يقول: «يأهل القليب! يا عتبة بن ربيعة! ويا شَيْبة بن ربيعة! ويا أُمَيَّة بن خلف! ويا أبا جهل بن هشام! — واستمر يذكر من فى القليب واحدا بعد واحد — يأهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا! فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا». قال المسلمون: يا رسول الله، أتنادى قوما جَيَّفوا(١)! قال عليه السلام: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى». ونظر رسول الله فى وجه أبى حُذَيْفة بن عُتْبة فألفاه كئيبا قد تغيّر لونه. فقال له: لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شىء؟ قال

أهل القليب

(١) جيفوا: أنتنوا.

أنباء النصر بالمدينة

وقبل أن يصل النبيّ والمسلمون المدينـة بيوم وصلها رسولاه زيد بن حارثة وعبد الله بن رَوَاحة ودخل كل واحد من ناحية منهـا . فجعل عبد الله ينادى على راحلته يبشّر الأنصار بنصر رسول الله وأصحابه ويذكر لهم مَنْ قتل من المشركين . وجعل زيد بن حارثة يصنع صنيعه وهو ممتط القَصْواء ناقة النبيّ . وسرّ المسلمون واجتمعوا وخرج من كان منهم فى داره وانطلقوا يهللون لهذا النصر العظيم . أمّا الذين بقوا على الشرك وأما اليهود فقد كُبِتوا لهذا النبأ وحاولوا أن يقنعوا أنفسهم وأن يقنعوا الذين أقاموا فى المدينة من المسلمين بعـدم صحته، فصاحوا : إن محمدا قُتل وأصحابه هزموا، وهذه ناقته نعرفها جميعا، لوأنه انتصر لبقيت عنده، و إنما يقول زيد مايقول هذيانا من الفزع والرعب ! لكن المسلمين ما لبثوا حين تثبّتوا من الرسولين واطمأنوا الى صحة الخـبر أن زاد بهـم السرور لولا حادث طرأ خفّف من سرورهم . ذلك الحادث هو موت رقيّة بنت النبيّ، وكان تركها عند ذهابه الى بدر مريضة، وترك معها زوجها عثمان بن عفّان يمرّضها . ولمـا أيقن المشركون والمنـافقون بنصر محمد أُسقط فى أيديهم ورأوا موقفهم من المسلمين قد أصبح موقف هوان ومذلّة، حتى قال أحد زعماء اليهود : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أُصيب أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن .

اليهود والمشركون بالمدينـة

أسرى بدر

ودخل المسلمون المدينة قبل أن يدخلها الأسارى بيوم . فلما جىء بهم ورجعت سَوْدَة بنت زَمْعة زوج النبيّ من مناحة ابنى عفراء وكانت بها، رأت أبا يزيد سُهَيْل ابن عمرو أحد الأسرى مجموعة يداه الى عنقه بحبل ، فلم تملك نفسها أن توجّه اليه الكلام قائلة : أىْ أبا يزيد ! أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم ! ألَا متّمْ كرامًا ! . فناداها محمد من البيت : يا سَـوْدة ! أعلى الله عز وجل وعلى رسوله تحرّضين ! . فأجابت : يا رسـول الله ! والله الذى بعثك بالحق ما ملكـت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه الى عنقه أن قلت ما قلت . وفـرّق محمد الأسارى بين أصحابه وقال لهم : استوصوا بهم خيرا . وطفِق من بعد ذلك يفكر فيما يصنع بهم : أفيقتلهم أم يأخذ منهم الفِـداء ؟ ! . إن منهم لأشدّاء فى الحرب أقوياء فى النّضال، ومن

لمن تخلّف بالمدينة فلم يشهد بدرا ما كان قائما فيها بعمل للمسلمين ، ومن حرّضه حين الخروج الى بدر وتخلَّف لعذر قبله الرسول . وكذلك قسم الفيء بالقسط . فليس المقاتل وحده هو الذى اشترك فى الحرب والنصر، بل اشترك فى الحرب والنصر كل من كان لعمله فى الفوز حظ أيًّا كان هذا العمل، وسواء أكان فى ميدان القتال أم كان بعيدا عنه .

قتل أسيرين

وبينما المسلمون فى طريقهم إلى مكة قُتل من الأسرى رجلان؛ أحدهما النَّضْر ابن الحارث، والآخر عُقْبَة بن أبى مُعَيْط . ولم يكن محمد ولا كان أصحابه الى هاته اللحظة قد وضعوا للأسرى نظاما يكون على مقتضاه قتلهم أو افتداؤهم أو استرقاقهم. لكنّ النضر وعُقْبَة كانا على المسلمين أيام مُقَامهم بمكة شرّا مستطيرا،وكانا لا ينفكان يوصلان لهم من الأذى كل ما يستطيعان . قُتل النضر حين عُرِض الأسرى على النبيّ عليه السلام عند بلوغهم الأُثَيْل . فقد نظر الى النضر نظرةً ارتعد لها الأسير وقال لرجل إلى جنبه : محمد والله قاتلى! لقد نظر إلىّ بعينين فيهما الموت . قال الذى الى جنبه : ماهذا والله منك إلا رعب . وقال النضر لمُصْعَب بن عُمَيْر، وكان أقرب من هناك به رحما، : كلِّم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلى إن لم تفعل . فكان جواب مصعب : إنك كنت تقول فى كتاب الله وفى نبيه كذا وكذا، وكنت تعذّب أصحابه . قال النضر : لو أسرتك قريش ما قتلتْك أبدًا وأنا حىّ . قال مُصْعَب : والله إنى لا أُراك صادقا ، ثم إنى لست مثلك ، فقد قطع الإسلام العهود . وكان النضر أسير المِقْداد وكان يطمع أن ينال فى افتداء أهله إيّاه مالًا كثيراً . فلما رأى الحديث حول قتله صاح : النضرُ أسيرى . قال النبيّ عليه السلام : اِضرب عنقه، واللهم أغنِ المقداد من فضلك . فقتله علىّ بن أبى طالب ضربا بالسيف .

ولما كانوا من طريقهم بعِرْق الظُّبْيَة أمر النبيّ بقتل عُقْبَة بن أبى مُعَيْط . فصاح عقبة : فمن للصبية يا محمد ؟! قال : النار . وقتله علىّ بن أبى طالب أو قتله عاصم ابن ثابت، على اختلاف فى الرواية .

وعفوه عن عباده، ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم، كان ألين على قومه من العسل. قدّمه قومه الى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال: ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أفلا تَعْقِلُونَ﴾ (١)، وأن قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢)، ومثله فى الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (٣). ومثل عمر فى الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله، ومثله فى الأنبياء كمثل نوح إذ يقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (٤)، وكمثل موسى إذ يقول: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ على أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ على قُلُوبِهِم فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (٥). ثم قال: وإن بكم عَيْلةً فلا يفوتنّكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق.

وتشاور القوم فيما بينهم. وكان من بين الأسرى شاعر هو أبو عزّة عمرو بن عبد الله بن عُمَيْر الجُمَحِىّ رأى خلاف القوم واستعجل النّجاة فقال: لى خمس بنات ليس لهن شىء فتصدّق بى عليهن يا محمد، وإنّى لمعطيك موثقًا لا أقاتلك ولا أُكثّر عليك أبدا. فأمّنه النبىّ وأرسله من غير فداء، وكان هو وحده الأسير الذى ظفر بهذا الأمان. على أنه ما لبث أن نكث عهده وأن عاد فقاتل بعد عام فى أُحُد، فأُسر وقُتِل. وظلّ المسلمون فى تشاورهم زمنا انتهوا بعده الى قبول الفداء. وفى قبولهم نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿ما كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فى الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا واللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦).

جدال المستشرقين

يقف غير واحد من المستشرقين عند أسرى بدر هؤلاء وعند مقتل النَّضْر وعُقْبة ويتساءلون: أليس فى ذلك ما يدلّ على ظمأ هذا الدين الجديد الى الدم ظمأ لولاه لما قُتِل الرجلان، ولكان أكرم للسلمين بعد أن كسبوا الموقعة أن يردّوا الأسرى وأن يكتفوا بالشىء الذى غنموا؟ . وذلك تساؤل الذى يريد أن يُثير

(١) سورة الأنبياء آية ٦٧ (٢) سورة ابراهيم آية ٣٦ (٣) سورة المائدة آية ١١٨
(٤) سورة نوح آية ٢٦ (٥) سورة يونس آية ٨٨ (٦) سورة الأنفال آية ٦٧

امتلأت بالحقد والضغينة نفوسهم بعد الذى كان من هزيمتهم ببدر ، وما لحقهم من عار الأسر ، فإن هو قبل الفِـداء كانوا عليه حربا وألْبـا ، وإن هو قتلهم أثار فى نفوس أهليهم من قريش ما ربمـا هدأ لو أنهم افتدوهم .

مقالة أبي بكر وعمر فى الأسرى

وعرض الأمر على المسلمين يستشيرهم ويترك لهم الخِيار . وكان المسلمون قد أنِسوا من الأسرى طمعًا فى الحياة واستعدادا لفدية عظيمة . فقال هؤلاء : لو بعثنا إلى أبى بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا وأكثرهم رحمـة وعطفا ، ولا نعلم أحدا آثر عند محمد منه . وبعثوا الى أبى بكر فقالوا له : يا أبا بكر، إن فينا الآباء والإخوان والعمومة وبنى العم ، وأبعدنا قريب . كلِّم صاحبك يَمُنّ علينا أو يُفَادِنا ؛ فوعدهم خيرا . وخافوا أن يفسد ابن الخطّاب عليهـم أمرهم فأرسلوا اليـه فجاءهم فقالوا له مثل قولهم لأبى بكر ، فنظر اليهم شزرا . وذهب وزيرا محمد اليه فجعل أبو بكر يُلِينه ويفثّؤه(1) ويقول : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنو العم والإخوان ، وأبعـدهم منك قريب . فامْنُنْ عليهم منّ الله عليك أو فادِهم يَستنقذهم الله بك من النار ، فتأخذ منهم ما أخذتَ قوّةً للمسلمين ، فلعلّ الله أن يُقبِل بقلوبهم . وسكت محمد فلم يجبه ، فقـام فتنحى . وجاء عمر فجلس مجلسـه وقال : يا رسول الله ، هم أعداء الله ، كذّبوك وقاتلوك وأخرجوك ، اِضرب رقابهم ؛ هم رءوس الكفر وأئمّـة الضلالة يُوطئ الله بهم الإسلام ويُذِلّ بهم أهلَ الشرك ؛ ولم يجب محمد . فعاد أبو بكر الى مقعده الأوّل وجعل يتلطّف ويستعطف ويذكر القرابة والرَّحم ويرجو لهؤلاء الأسرى الهدى إن هم أُبْقِى على حياتهم . وعاد عمر مثال العدل الصارم لا تأخذه فيـه هوادة ولا رحمة . ولمـا فرغ أبو بكر وعمر من كلامهما قام محمد فدخل قُبّتـه فمكث فيها ساعة ثم خرج والنـاس يخوضون فى شأنهـم ، يقف بعضهم فى صـفّ أبى بكر ، ويقف آخرون فى صف عمر . فشاورهم فيما يصنع ، وضرب لهم فى أبى بكر وفى عمر مثلا . فأمّا أبو بكر فمثله كمثل ميكال ينزل برضا الله

حديث النبي فيهم الى المسلمين

(1) يفثّؤه : يكسر غضبه ويسكنه .

الجزرة التي دُبِّرت بليلٍ وقام فيها الكاثوليك يذبحون البروتستنتيين في باريس وفي فرنسا غدرًا وغيلة في أحطّ صور الغدر وأبشع صور الغيلة . فاذا قتل المسلمون اثنين من أسرى بدر الخمسين لأنهم كانوا قساة على المسلمين مدى الأعوام الثلاثة عشر التي احتمل المسلمون فيها صنوف الأذى بمكة، فقد كان في ذلك من مزيد الرحمة ومن اعتبار الفائدة العاجلة ما نزلت معه الآية : ﴿ مَا كَانَ لِنبيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيا واللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) .

النذير الى مكة

بينما كان المسلمون في فرحهم بنصر الله وما أفاء عليهم من المغانم كان الحَيْسُمَان ابن عبد الله الخزاعي يحثُّ الطريقَ إلى مكة، حتى كان أول من دخلها وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصابها في كبرائها وأشرافها وسادتها . وقد ذهلت مكة أول الأمر فلم تصدِّق الخبر. وكيف لا تذهل وهي تسمع أخبار هزيمتها ومقتل السادة الأشراف منها ! . لكن الحيسمان لم يكن يهذي وكان يؤكد ما يقول وهو أشدّ من قريش جزعا لما أصابهم. فلما استوثقوا من روايته خرُّوا صَعِقين، حتى لقد حُمّ أبو لهب ومات بعد سبعة أيام . وتشاورت قريش ما تصنع، فأجمعت على ألّا تنوح على قتلاها مخافة أن يبلغ محمدا وأصحابه فيشمَتوا بهم، وألّا تبعث في أسراها حتى لا يأرَبَ(٢) عليها محمد وأصحابه ويغلوا في الفداء . وانقضى زمنٌ وقريش صابرة على محنتها حتى سنحت فرصة افتدائها أسراها . إذ ذاك قدم مِكْرَز بن حفص في فداء سُهَيْل بن عمرو .

موت أبي لهب

افتداء الأسرى

وكأنما عزّ على عمر بن الخطاب أن يُفْتَدى وينجو من غير أن يصيبه مكروه، فقال : يا رسول الله، دعني أَنْزِعْ ثَنِيَّتَيْ سُهَيْل بن عمرو فَيَدْلَعُ لسانُه فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا . فكان جواب النبيّ هذا الجواب البالغ غاية السمو : لا أُمَثّل به فيمثّل الله بي وإن كنت نبيّا .

افتداء أبي العاصي ابن الربيع وإسلامه

وبعثت زينب ابنة النبيّ تفتدي زوجها أبا العاصي بن الربيع، وكان فيما بعثت قِلادةٌ لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاصي حين بَنى بها . فلما رآها النبي رقّ

(١) سورة الأنفال آية ٦٧ (٢) لا يأرب عليها : لا يتشدد عليها .

فى النفوس عوامل إشفاق لم يكن له يومئذ موضع ، ليكون له بعد ألف سنة من هذه الغزوة وما تلاها من غزوات وسيلة للنَّيْل من الدين ومن صاحب الدين. على أن هذا التساؤل ما يلبث أن ينهار و يتداعى إذا نحن وازنّا بين مقتل النضر وعقبة، وما يجرى اليوم وما سيجرى دائما ما دامت الحضارة الغربية، التى تتّشح بوشاح المسيحية ، متحكمة فى الأرض . فهل تراه يوازى شيئا إلى جنب ما يقع باسم قمع الثورات فى بلاد يحكمها الاستعمار على كره من أهلها ! وهل تراه يوازى شيئا إلى جانب ما وقع من مجازر الحرب الكبرى ! ثم هل هو يوازى شيئا مما حدث أثناء الثورة الفرنسية الكبرى وأثناء الثورات المختلفة التى وقعت وتقع فى أمم أوربا المختلفة ! .

الثورة على الوثنية

وليس ريب فى أن الأمر بين محمد وأصحابه كان ثورة قويّة من محمد بعثه الله ليقوم بها فى وجه الوثنيّة والمشركين من عِبادها . ثورة قامت أوّل أمرها بمكة واحتمل محمد وأصحابه من أجلها ألوان العذاب ثلاثة عشر عاما سويا . ثم انتقل المسلمون إلى المدينة وحشدوا جموعهم وقواتهم بها، وما تزال مبادئ الثورة قائمة على أشدّها فى نفوسهم وفى نفوس قريش جميعا . وانتقال المسلمين إلى المدينة وموادعتهم اليهود من أهلها وما قاموا به من مناوشات سبقت بدرا، وغزوة بدر هذه — ذلك كله كان سياسة الثورة ولم يكن مبادئها ؛ كان السياسةَ التى قرّر القائم بهذه الثورة وأصحابه أن يتبعوا لإقرار أسمى المبادئ التى جاء الرسول بها . وسياسة الثورة شيء ومبادئها شيء آخر. والخطة التى تتبع قد تختلف تمام الاختلاف عن الغاية المقصودة من هذه الخطة . أمّا وقد جعل الإسلام الأخوّة أساس الحضارة الإسلامية ، فيجب أن يسلك للنجاح سبله و إن اقتضى ذلك من العنف والشدّة ما لا مفرّ منه .

مجزرة سان بارتلمى

وهذا الذى صنع المسلمون بأسرى بدر آية فى الرحمة وفى الحسنى إلى جانب ما يقع فى الثورات التى يتغنّى أهلها بمعانى العدل والرحمة . وهو لا شيء إلى جانب المجازر الكثيرة التى قامت باسم المسيحية من مثل مجزرة سان بارْتِلْمِى . هذه المجزرة التى تعتبر سبّة فى تاريخ المسيحيّة لا شيء من مثلها قطّ فى تاريخ الإسلام . هذه

الفصل الرابع عشر
بين بدر وأحد

المسلمون واليهود — غزوة بنى قينقاع — جلاء اليهود عن المدينة — قريش تتحرك — غزوة السويق — القبائل تتحرك فتفر — هزيمة صفوان بن أمية

أثر بدر بالمدينة (يناير سنة ٦٢٤م)

تركت بدرٌ بمكة من عميق الأثر ما رأيت . تركت الحرص على الثأر من محمد والمسلمين يوم تتهيأ فرصة الثأر . لكن أثرها بالمدينة كان أوضح وأكثر اتّصالا بحياة محمد والمسلمين معه . فقد شعر اليهود والمشركون والمنافقون بعد بدر بمزيد قوة المسلمين ؛ ورأوا هذا الرجل الأجنبيّ الذى وفد عليهم منذ أقلّ من عامين فارّا مهاجرا من مكة يزداد سلطانا وبأسا ، ويكاد يكون صاحب الكلمة فى أهل المدينة جميعا لا فى أصحابه وحدهم . وكان اليهود ، على ما رأيت ، قد بدأ تذمّرهم من قبل بدر وبدأت مناوشاتهم المسلمين ، حتى لكان ما بين الفريقين من عهد الموادعة هو الذى حال فى أكثر من حادث دون الانفجار . لذلك ما كاد المسلمون يعودون من بدر معتزّين بالنصر حتى جعلت طوائف المدينة الأخرى تتغامز وتأتمر ، وحتى بدأت تُغرى بهم وترسل الأشعار فى التحريض عليهم . بذلك انتقل ميدان الثورة من مكة الى المدينة ، وانتقل من الدين الى السياسة . فلم تبق دعوة محمد الى الله هى وحدها التى تُحَارَب ، ولكن سلطانه ونفوذ أمره وكلمته هو الذى كان موضع الرهبة والخوف ، وسبب الائتمار به والتفكير فى اغتياله . ولم يكن محمد لتخفى عليه من ذلك كله خافية ؛ بل كان يقع على أخباره جميعا ويتّصل بعلمه كل ما يُدَبَّر ضده . وجعلت النفوس من جانبى المسلمين واليهود تمتلئ بالغِلّ والضغينة شيئا فشيئا ، رويدا رويدا ، وجعل كل فريق يتربّص بصاحبه الدوائر .

اليهود يأتمرون

قتل المسلمين أبا عفك وعصماء

وكان المسلمون الى حين نصرهم الله ببدر يخشون مواطنيهم من أهل المدينة ؛ فلا تبلغ منهم الجرأة الى الاعتداء على من يعتدى على مسلم منهم . فلمّا عادوا منتصرين

لها رقّة شديدة فقال : إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها مالهـا فافعلوا . ثم إنه اتّفق فيما بينه وبين أبى العاصى على أن يفارق زينب وقد فرّق الإسلام بينه وبينها . وبعث محمد زيد بن حارثة وصاحبًا معـه فجاءا بها الى المدينـة . على أن أبا العاصى ما لبث بعد مدّة إساره أن خرج الى الشام فى مال قريش؛ حتى إذا كان على مقربة من المدينة لقيته سَرِيّة لمحمد فأصابوا ما معه، فانحدر تحت اللّيل الى أن دخل على زينب واستجارها فأجارته، وردّ المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمنا الى مكة . فلما ردّه لأصحابه من قريش قال : يا معشر قريش! هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا ! جزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيّا كريما. قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبـده ورسوله . والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا مخافة أن تظنّوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم؛ فلما أدّاها الله إليكم وفرغت منهـا أسلمت . وعاد الى المدينة وردّ عليه النبىّ زينب . واستمرت قريش تفتدى أسراها . وكان الفداء يومئـذ أربعة آلاف درهم للرجل الى ألف إلا من لا شىء عنده فقد مَنّ عليه محمد بحريّته .

بكاء قريش قتلاها

لم يهوِّن ذلك على قريش مصابها، ولا هو دعاها الى أن تهادن محمدا أو أن تنسى هزيمتها؛ بل ناحت من بعد ذلك نساء قريش على قَتْلاها شهرا كاملا، فجززن شعر رءوسهن ، وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فيَنُحْنَ حولهـا؛ ولم يخالف فى هذا

هنـد وأبو سفيان

إلا هند بنت عتبة زوج أبى سفيان . ولقـد مشى نساء منهن يوما اليهـا فقلن : ألَا تَبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ! . فقالت : أنا أبكيهم فيبلغ محمدا وأصحـابه فيشمَتوا بنا ويشمت بنا نسـاء بنى الخزرج ! لا والله حتى أثأر من محمد وأصحابه ! والدُّهن علىّ حرام حتى نغزو محمدا ! والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى لبكيت، ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأرى بعينى من قَتَـلة الأحبّة . ومكثت لا تقـرَب الدهن ولا تقرب فراش أبى سـفيان وتحرض الناس حتى كانت وقعـة أُحُد . أمّا أبو سفيان فنذَر بعد بَدْر ألا يَمَسَّ رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا .

وجماعة من أصحابه على أن يَرْهَنوه دروعَهم؛ ورضى كعب على أن يجيئوه من بعدُ . وإنه لفى داره على بعد من المدينة إذ ناداه صَدْرَ الليل أبونائلة (أحد المؤتمرين به)، فنزل اليه مع تحذير عروسه إيّاه النزول فى مثل هذه الساعة من الليل . وسار الرجلان حتى التقيا بأصحاب أبى نائلة وكعب آمنٌ لايخافهم . وخرج القوم يتماشون حتى مَشَوْا ساعة بَعُدُوا بها عن داركعب وهم يتجاذبون أطراف الحديث ويذكرون من حالهم وما وصلوا اليه من شدّةٍ ما يزيد فى طمأنينة كعب . وفيماهم يسيرون كان أبو نائلة يضع يده فى رأس كعب ويشمّها ويقول : ما رأيت كالليلة طِيبًا أعطرَ قطُّ . ولما لم تبق لدى كعب شبهة فيهم ، عاد أبو نائلة فوضع يده على شعر كعب ثم أخذ بفَوْديه وقال : اضربوا عدوَّ الله! فضربوه بأسيافهم حتى مات .

زاد هذا الحادث فى مخاوف اليهود، فلم يبق منهم إلا من يخاف على نفسه . على أن ذلك لم يسكتهم عن محمد ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أىّ فيض . قدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بنى قَيْنُقَاع ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى؛ فجاء يهودىّ من خلفها فى سرٍّ منها فأثبت طرفَ ثوبها بشوكة الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها ؛ فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهوديًّا فقتله . وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه . فآستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشرّ بينهم وبين بنى قينقاع . وطلب محمد الى هؤلاء أن يكفّوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش ، فاستخفّوا بوعيده وأجابوه : « لا يغرّنّك يا محمد أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن الناس » . فلم يبق بعد ذلك من سبيل لعدم مقاتلتهم إلا أن يتعرّض المسلمون ويتعرّض سلطانهم بمكة للتداعى ويصبحوا أُحدوثة قريش وقد جعلوا قريشا بالأمس أُحدوثة العرب .

مخاوف اليهود وعدوانهم

وخرج المسلمون فحاصروا بنى قينقاع فى دُورهم خمسة عشر يوما متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد؛ حتى لم يبقَ لهم إلا النزول على حكم محمد

حصار بنى قينقاع

أخذ سالم بن عُمَيْر نفسه بالقضاء على أبى عَفَك (أحد بنى عمرو بن عوف) ؛ لأنه كان يرسل الأشعار يطعن بها على محمد وعلى المسلمين ، ويحرّض بها قومه على الخروج عليهم ؛ وظلّ كذلك بعد بدر يُغرى بهم الناس . فذهب اليه سالم فى ليلة صائفة كان أبو عفك نائما فيها بفناء داره ، فوضع سالم السيف على كبده حتى خشّ فى الفراش . وكانت عَصْماء بنت مروان (من بنى أُميّة بن زيد) تعيب الإسلام وتؤذى النبيّ وتحرّض عليه ؛ وظلّت كذلك الى ما بعد بدر . فجاءها يوما عُمَير بن عوف فى جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام ومنهم من تُرْضِعه ؛ وكان عمير ضعيف البصر ، فجسّها بيده فوجد الصبيّ تُرضعه ، فنحّاه عنها ، ثم وضع سيفه فى صدرها حتى أنفذه من ظهرها . ورجع عمير من عند النبيّ بعد أن أخبره الخبر ، فوجد بنيها فى جماعة يدفنونها ، فأقبلوا عليه فقالوا : يا عمير أنت قتلتَها؟ قال : «نعم ! فكِيدُونى جميعا ثم لا تُنظِرونِ . فوالذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفى حتى أموت أو أقتلكم» . وقد كان من أثر جرأة عمير هذه أن ظهر الإسلام فى بنى خَطْمة ، وكانت عصماء زوج رجل منهم ، فأظهر منهم من كان يُخفى إسلامه وانضمّ الى صفّ المسلمين وسار معهم .

مقتل كعب بن الأشرف

ويكفى أن نضيف الى هذين المثلين مَصْرَع كَعْب بن الأَشْرَف ، وهو الذى قال حين علم بمقتل سادات مكة : هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبَطْنُ الأرض خير من ظهرها ؛ وهو الذى ذهب الى مكة لما تيقن الخبر يحرّض على محمد ويُنشد الأشعار ويبكى أصحابَ القليب ؛ وهو الذى رجع بعد ذلك إلى المدينة فجعل يشبّب بنساء المسلمين . وأنت تعرف طبائع العرب وأخلاقها وتعرف مبلغ تقديرهم للعِرْض وثورتهم من أجله . وقد بلغ من غيظ المسلمين أنهم أجمعوا على قتل كعب ؛ واجتمع فى ذلك عدّة منهم ، وذهب اليه أحدُهم يستدرجه بالطعن على محمد إذ يقول له : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتْنا العرب ورَمَوْنا عن قوس واحدة وقُطِعت عنا السُّبُل حتى ضاع العيال وجُهِدت الأنفس . ولما أنِس الى كعب وأنِس اليه كعب طلب اليه مالًا لنفسه

فليس شيء أضرّ على وحدة مدينــة من المدن من تنازع الطوائف فيها . وإذا كان نضال هــذه الطوائف لا بدّ منــه فهو لا بدّ منتهٍ إلى تغلّب طائفة على سائرها غلبة تنتهى إلى سيادتها . وقد تحدّث بعض المؤرّخين منتقدا تصرّف المسلمين إزاء اليهود، زاعما أن حكاية المسلمة التى ذهبت إلى الصائغ كان من اليســير إنهاؤها ما دام قد قُتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل . وقد نستطيع دفع هذا القول بأن مقتل اليهودىّ والمسلم لم يمحُ ما لَحِق المسلمين من إهانة فى شخص المرأة التى عبِث اليهودىّ بها، وأن مثل هذه المسألة عند العرب، أكثر منها عند غيرهم من الأمم، جديرة أن تثور لها الثائرات، وأن يقوم من أجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين سنوات متتابعة . وفى تاريخ العرب من ذلك أمثال يعرفها المطّلعون على هذا التاريخ . ولكن هنالك إلى جانب هذا الاعتبار اعتبارا آخر أقوى منه . فحادث المرأة كان من حصار بنى قَيْنُقَاع وإجلائهم عن المدينة ما كان مقتل ولىّ عهد النمسا بسيرا ﭽيڤو سنة ١٩١٤ من الحــرب الكبرى التى اشــتركت فيها أوربا جميعا . هو إنمــا كان الشرارة التى ألهبت ما تأجّج به نفــوس المسلمين واليهــود جميعا لهبًــا أدّى إلى انفجارها وإلى كل ما يُحــدث الانفجار من آثار . والحقّ أن وجود اليهود والمشركين والمنافقين إلى جانب المسلمين بالمدينة، وما أذكى ذلك من أسباب الفرقة، قد جعل المدينة، من الناحية السياسية، على بُرْكان لا مفرّ له من أن ينفجر؛ وقد كان حصار بنى قينقاع وجلاؤهم عن المدينة أوّل مظاهر هذا الانفجار .

كان طبيعياً أن ينكمش غير المسلمين من أهل المدينة بعد جلاء بنى قينقاع عنها، وأن تبــدو من الهدوء والسكينة فى المظهر الذى يعقب كل عاصفة وكل إعصار . وعلى هــذا الهدوء ظلّ النــاس شهرا كاملا كان جديرا أن تتلوه أشهر، لولا أن أبا سفيان لم يُطِق البقاء بمكة قابعا تحت خِزْى هزيمة بدر دون أن يُعيد إلى أذهان العرب بشبه الجزيرة أن قريشا ما تزال لها قوتها وعصبيّتها ومقــدرتها على الغزو والقتال . لذلك جمع مائتين، وقيل أربعين، من رجال مكة وخرج فيهم مُستَخْفِين، حتى إذا كانوا على مقربة من المدينــة خرجوا سَحَرًا فأتَوْا ناحية يقال لها العُرَيْض، غزوة السويق

والتسليم بقضائه . فلما سلّموا قرّر محمد، بعد مشورة كبار المسلمين، قتلهم جميعا .

وتجاء عبد الله بن أبي ألا يقتلوا

فقام اليه عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول، وكان لليهود كما كان للمسلمين حليفا، فقال: يا محمد أحْسِنْ فى مواليّ . فأبطأ عليه النبيّ فكرر الطلب، فأعرض النبيّ عنه؛ فأدخل يده فى جيب درع محمد، فتغيّر محمد وقال له : أرسِلْنى؛ وغضب حتى رأوا لوجهه ظُلَلا، ثم أعاد وأثر الغضب فى نبرات صوته : « أرسِلْنى ويحك ! » . قال ابن أُبَيّ : لا والله لا أُرسلك حتى تُحسِن فى مواليّ ! أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصُدهم فى غداة واحدة! إنى والله امرؤ أخشى الدوائر . وكان عبد الله لا يزال ذا سلطان فى المشركين من الأوس والخزرج، وإن كان هذا السلطان قد ضَعُف بقوّة المسلمين . فرأى النبيّ فى إلحاحه ما جعله يعود الى سكينته وبخاصّةٍ بعد إذ جاء عُبَادَةُ بن الصَّامت يحدّثه حديث ابن أُبَيّ؛ إذ ذاك رأى أن يُسدى هذه اليد الى عبد الله والى المشركين موالى يهود جميعا حتى يصبحوا مدينين لإحسانه ورحمته؛ على أن تجلو بنو قينقاع عن المدينة جزاءً لها على صنيعها .

إجلاؤهم عن المدينة

وقد حاول ابن أبيّ أن يتحدّث مرة أخرى إلى محمد فى بقائهم ومُقَامهم . لكن أحد المسلمين حال دون ابن أُبَيّ ولقاء محمد واشتجرا حتى شُجَّ عبد الله . فقالت بنو قَيْنُقَاع: والله لا نقيم ببلد تُشَجُّ فيه يا بنَ أُبَيّ ولا نستطيع عنك دفاعا . وعلى ذلك سار بهم عُبَادة بعد الذى كان من تسليمهم وإذعانهم تاركين المدينة، تاركين وراءهم السلاح وأدوات الذهب الذى كانوا يصوغون، حتى بلغوا وادى القُرَى . هناك أقاموا زمنا، ومن هناك احتملوا ما معهم، وساروا صوبَ الشمال حتى بلغوا أذْرِعَات على حدود الشام، وبها أقاموا . ولعلهم إنما استهوتهم إلى الشمال أرض المَعَاد التى كانت وما تزال تَهْوِى اليها أفئدة اليهود .

الوحدة السياسية فى المدينة

خلت المدينة من اليهود بعد جلاء بنى قينقاع عنها . فقد كان سائر اليهود المنتسبين الى المدينة يقيمون بعيدًا عنها بخَيْبَر وبأُمّ القُرَى . ولهذه النتيجة كان يقصد محمد من إجلائهم . وهذا تصرّف سياسى آية فى الدلالة على الحكمة وبعد النظر . وهو مقدّمة لم يكن منها بدّ للآثار السياسية التى ترتّبت بعد ذلك على خطة محمد .

فزع العرب من المسلمين

لكن بدرًا أدخلت الرعب فى قلوب هذه القبائل . أفتراها تُغير على المدينة وتحارب المسلمين، أم ماذا تراها تصنع؟ بلغ محمدا أن جمعا من غَطَفَان وسُلَيم اعتزم الاعتداء على المسلمين، فخرج الى قَرْقَرة الكُدْر ليأخذ عليهم الطريق . فلما وصل الى ذلك المكان رأى آثار النَّعَم ولم يجد فى المجال أحدا، فأرسل نفرا من أصحابه فى أعلى الوادى وانتظر هو فى بطنه . فالتقى بغلام اسمه يَسَار، فسأله فعلم منه أن الجمع ارتفع الى الماء، فجمع المسلمون ما وجدوا من نَعَم فاقتسموه بعد أن أخذ محمد الخمس، كنص القرآن . قيل : وكان ما غنموا خمسمائة بعير أخرج خمسها وقُسم الباقى فأصاب كل رجل بعيران . وبلغ محمدا أن جمعا من بنى ثَعْلَبَة ومُحَارِب بذى أَمَرَّ قد تجمعوا يريدون أن يُصيبوا من أطرافه . فخرج عليه السلام فى أربعمائة وخمسين من المسلمين، فلقى رجلا من ثَعْلَبَة فسأله عن القوم، فدلّه الرجل على مكانهم وقال له : إنهم يا محمد إن سمعوا بمسيرك هربوا فى رءوس الجبال، وأنا سائر معك ودالُّك على عورتهم . فما لبث المغيرون حين سمعوا باقتراب محمد منهم أن فرّوا فوق الجبال . وبلغه أن جمعا كبيرا من بنى سُلَيْم بِبَحْران تهيَّئوا لقتاله ؛ فخرج فى ثلثمائة رجل فأغذُّوا السير، حتى اذا كانوا دون بَحْران بليلة لقيهم رجل من بنى سُلَيْم؛ فسأله محمد عنهم فأخبره أنهم تفرّقوا وعادوا أدراجَهم . وكذلك كان هؤلاء الأعراب فى فزع من محمد وفى قلق على مصيرهم، ما يكادون يفكرون فى الكيد لمحمد وفى السير لملاقاته حتى تنخلع قلوبهم لمجرد سماعهم بسيره للقائهم .

فزع اليهود

وفى هذه الأثناء وقع مقتل كعب بن الأشرف على نحو ما قدّمنا، فأصاب اليهود كذلك من الفزع ما جعلهم يلزمون دورهم، لايخرج أحد منهم مخافة أن يصيبه ما أصاب كعبا . وزاد فى فزعهم أن أهدر محمد دماءهم بعد الذى كان من أمر بنى قينقاع مما أدّى الى حصارهم . فجاءوا الى محمد يشكون اليه أمرهم ويذكرون له مقتل كعب غِيلةً بلا جُرْم ولا حدث علموه، فكان جوابه لهم : إنه آذانا وهجانا بالشعر، ولو قرَّ كما قرّ غيره ممن هو على مثل رأيه ما أصابه شرّ . وبعد حديث طال

فوجدوا رجلا من الأنصار وحليفا له فى حَرْث لهما فقتلوهما، وحرّقوا بيتين بالعريض ونخيلا، ثم رأى أبو سفيان أنّ يمينـه بغزو محمد بَرّت فانكفأ هاربا خائفا أن يطلبه النبيّ وأصحابه . وندب محمد أصحابه فخرجوا فى أثره وهو على رأسهم حتى بلغوا قَرْقَرة الكُدْر، وأبو سفيان ومن معه جادّون فى الفرار يتزايد خوفهم فيُلقون ما يحملون من زادهم من السّويق ، فاذا مرّ المسلمون به أخذوه . ولما رأى محمد أن القوم أمعنوا فى الفرار عاد وأصحابه إلى المدينـة، وقد انقلب فرار أبى سفيان عليه بعد أن كان يحسب الغزوة ترفع رأس قريش من مصاب بدر . وبسبب السَّوِيق الذى ألقت قريش سُمِّيت هذه الغزوة من غزوات محمد غزوة السَّوِيق .

تداولت أنباء محمد هـذه سَمْعَ العرب جميعا . فأمّا القبائل البعيدة عنـه فظلّت فى مأمنها لاتُعْنَى إلا قليلا بأمر هؤلاء المسلمين الذين كانوا إلى يوم بدر — أى إلى أشهر قليـلة خلت — أذلّة يلتمسون بالمدينة ملجأ ، والذين أصبحوا اليوم يقفون فى وجه قريش ويُجـلون بنى قينقاع ويُرسلون الرعب إلى رُوع عبد الله بن أبَىّ ويطاردون أبا سفيان ويظهرون مظهرًا لم يكن من قبل مألوفا . فأمّا القبائل القريبة من المدينة فقـد بدأت ترى ما يتهدّد مصيرَها من قوّة محمد وأصحابه ، ومن تعادل هـذه القوّة وقوّة قريش بمكة تعادلا تُخشى نتائجه . ذلك بأن طريق الشاطئ إلى الشام هى الطريق المُعَبَّدة المعروفة . وتجارة مكة فى مرورها بها تُفيد هذه القبائل فائدة اقتصادية تذكر . وقد عاهد محمد كثيرا من القبائل التى تتاخم الشاطئ، فهدّد هذا الطريق وعرَّض رحلة الصيف لمخاطر قد تُضطرّ معها قريش الى العدول عن متاخمة الشاطئ . فماذا عسى أن يصيب هـذه القبائل اذا انقطعت تجارة قريش؟ وكيف تراهم يحتملون شظف الحياة فى هذه البقاع الشديدة الشظف بطبعها؟ فمن حقِّها إذًا أن تفكر فى مصيرها وفيما عساه يصيبها من أثر هـذا الموقف الجديد الذى لم يعرف قبل هجرة محمد وأصحابه الى يثرب ، والذى لم يصل الى ما وصل اليـه من تهديد حياة هذه القبائل قبل بدر وانتصار المسلمين فيها .

تهديد طريق الشاطئ الى الشام

الأمور على غواربها علماً منه بأن الأمر كله لله؟! كلّا! فالأمر كله حقّا لله. لكنك لن تجد لسنة الله تبديلا. وما ركّب الله فى النفوس من سلائق لا سبيل الى إنكاره. وقريش لها سيادة العرب، وهى لا يمكن أن تنى عن الأخذ بثأرها. وما أصاب قافلة صفوان بن أُمية لن يزيدها على الثأر إلا حرصا، وفى التهيؤ للأخذ به إلا شدّة. وما كان شيء من هذا ليغيب عن محمد و بعد نظره وسلامة سياسته. فلا بدّ له إذاً من أن يزيد المسلمين به تعلّقا وارتباطا. ومهما يكن الإسلام قد شدّ من عزائمهم وجعلهم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا، فإن حسن رعايتهم تزيد عزائمهم شدة وتضامنهم قوّة. ومن حسن رعايتهم أن يزيد محمد رابطته بهم. لهذا تزوّج من حَفْصة بنت عمر بن الخطاب كما تزوّج من عائشة بنت أبى بكر من قبل.

زواج النبى من حفصة بنت عمر

وكانت حفصة من قبله زوج خُنَيْس أحد السابقين الى الإسلام، وقد مات عنها قبل زواج محمد بسبعة أشهر. وكما تزوّج من حفصة فزاد ابن الخطاب به تعلّقا، زوّج ابنته فاطمة من ابن عمه عليّ أشد الناس محبة للنبيّ و إخلاصا له منذ طفولته. ولما كانت رُقَيَّة ابنته قد اختارها الله الى جواره، فقد زوّج عثمان بن عفّان بعدها ابنته أم كُلْثوم. وكذلك جمع حوله برابطة المصاهرة أبا بكر وعمر وعثمان وعليّا، و جمع بذلك أربعة من أقوى المسلمين الذين كانوا معه، بل أقواهم إن شئت. بهذا كفل للمسلمين مزيدا من القوة، كما كفل لهم بما غنموا فى مغازيهم إقداما على الحروب يجمع فيها الرجل بين الجهاد فى سبيل الله والمغنم من المشركين. وهو فى هذه الأثناء يتتبّع بدقّة كل الدقة أخبار قريش وما تُعِدّ. فقد كانت قريش تعدّ للثأر ولتفتح لنفسها طريق التجارة الى الشام، حتى لا تهوى مكانة مكة التجارية ومكانتها الدينية الى حيث لا تقوم لها من بعد ذلك قائمة.

بينهم دعاهم الى أن يكتب معهـم كتابا يحترمونه . وخافت اليهود وذلّت وإن بقى فى نفسها من محمد ما بدا من بعدُ أثره .

قـريش تسـلك طريق العراق الى الشام

ماذا تصنع قريش بتجارتها الى الشام وقـد أخذ محمد عليها طريقها ! . إن مكة تعيش من التجارة، فاذا لم تجد الوسيلة اليها تعرّضت لشرّ ما تتعرّض له مدينة مثلها . وهذا محمد أراد حصارها والقضاء فى نفس العـرب على مكانتها . وقف صَفْوان بن أُمَيَّة يوما فى قريش وقال لهم : « إن محمدا وأصحابه قد عَوَّروا علينا مَتْجَرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامّتهم معه ، فما ندرى أين نسكن . وإن أقمنا فى دارنا هـذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وانما حياتنا بمكة على التجارة الى الشام فى الصيف والى الحبشة فى الشتاء » . قال له الأسود بن المطّلب : تَنَكَّب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق . ودلّه على فُرَات بن حَيَّان من بنى بكر بن وائل يدلّهم على الطريق . وقال لهم فُرات : طريق العـراق ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد فانما هى أرض نجد وفَيَافٍ . ولم يخَف صفوان الفيافى أن كان الفصل شتاء وحاجتهم الى المـاء قليلة . وتجهّز صفوان من الفضة والبضائع بمـا قيمته مائة ألف درهم . وكان بمكة حين تدبير قريش خروج تجارتهـا يَثْرِبِىٌّ هو نُعَيْم بن مَسعود الأَشْجَعِىّ ، عاد الى المدينة وجرى على لسانه ذكر حديث قريش وما صنعت لأحد المسلمين . فأسرع هـذا فنقل الخبر الى محمد . وما لبث النبىّ أن بعث زيد بن حارثة فى مائة راكب اعترضوا التجارة عند القَرْدة (ماء من مياه نجد) ففرّ الرجال وأصاب المسلمون العِير ، فكانت أوّل غنيمة ذات قيمة غنمها المسلمون . وعاد زيد ومن معه ، فخَمَّسها محمد وقسم ما بقى على رجاله ، وجىء بفُرات بن حَيَّان فعرض عليـه أن يسلم لينجو فأسلم ونجا.

فيغزوها المسلمون

هل اطمأنّ محمد بعد هذا كله الى أن الأمر قد استقرّ له ؟ هل خدعه يومه عن غده؟ وهل خَيَّل له فزعُ القبائل منه وما غنم من قريش أن كلمة الله وكلمة رسوله قد اطمأنّت ولم يبق للخوف عليها محلّ ؟ وهل جعله إيمانه بنصر الله إيّاه يُلقى حبالَ

ان تكون الدَّبْـرَةُ(١) عليكم فتفتضحوا فى نسائكم » . وبينما هم يتشاورون صاحت هند بنت عُتْبة زوج أبى سُـفيان بمن يعترض خروج النساء : « إنك والله سَلِمتَ يوم بدر فرجعت الى نسائك . نعم ! نخرج فنشهد القتال ، ولا يردّنا أحد كما رُدّت الفتيات فى سفرهم الى بدر حين بلغوا الجُحْفَة(٢) فقُتِلت الأحِبّـة يومئذ » أن لم يكن معهم من يحرّضهم . وخرجت قريش ومعها نساؤها وعلى رأسهن هنـد وهى أشـدّهن على الثأر حرقة ، أن قُتل يوم بَدْرٍ أبوها وأخوها وأعزّ الناس عليها . خرجت قريش تقصد المدينة فى ثلاثة ألوية عُقِدت فى دار النَّدْوة ، وعلى اللواء الأكبر منها طَلْحَة ابن أبى طلحة ، وهم ثلاثة آلاف ، ليس بينهم غير مائة رجل من ثَقِيف ، وسائرهم من مكة سادتها ومواليها وأحابيشها . وقـد أخذوا معهم من العُدّة والسلاح الشىء الكثير وقادوا مائتى فرس وثلاثة آلاف بعير ومن بينهم سبعمائة دارع .

تهيؤ قريش للقتال

تهيأ القوم للسير بعد أن أجمعوا عليـه والعبّاس بن عبد المطلب عم النبىّ بينهم واقف على أمرهم مطّلع على كل دقيق وجليل من شأنهم . وكان العباس على حرصه على دين آبائه ودين قومه يحسّ لمحمد شـعور العصبيّة وشـعور الإعجاب ، ويذكر له حسن معاملته إيّاه يوم بدر . ولعل الإعجاب والعصبيّة اللذين جعلاه يشهد مع محمد بيعة العقبة الكبرى ويخاطب الأوس والخزرج بأنهـم إن لم يكونوا مانعى ابن أخيه ممـا يمنعون منه نساءهم وأولادهم فليدعوه الى أهله يذودون عنه ذيادهم من قبـل ، هما اللذان دفعاه حين أجمعت قريش المسير فى هذا العـدد العظيم الى أن يكتب كتابا يصف فيـه صنيعهم وجمعهم وعُدّتهم وعديدهم ، ويدفع به الى رجل غِفَارىّ يسير به الى النبىّ حتى يبلغ المدينة فى ثلاثة أيام فيدفعه اليه . فأمّا قريش فسارت حتى بلغت الأَبْوَاء ومرّت بقـبر آمنة بنت وَهْب ، فدفعت الحميّـة بعض الطائشين منهـا إلى التفكير فى نبشه . لكن زعماءها أبوا عليهم هذه الفعلة ، حتى لا تكون سنّة عنـد العرب ، وقالوا : لا تذكروا من هذا شيئا ، فلو فعلنـا نَبَشَتْ

مسـيرة قريش الى المدينة

(١) الدبرة (بفتح الباء وتسكن) هنا : الهزيمة . وتكون أيضا بمعنى النصر . (٢) الجحفة : موضع على طريق المدينة من مكة ، على ثلاث أو أربع مراحل من مكة ، وهى ميقات أهل مصر والشام .

الفصل الخامس عشر

غزوة أحد

استعداد قريش بمكة — خروجها للغزو — كيف علم به محمد — تشاور المسلمين فى التحصن بالمدينة أو الخروج لملاقاة العدو — انتصار المسلمين ثم هزيمتهم — خروج النبى من المدينة غداة أحد ليلحق بالمنتصرين فيغزوهم — عود أبى سفيان وقريش الى مكة

تجهيز قريش للثأر من بدر

لم يهدأ منذ بدر لقريش بال، ولم تُغنها غزوة السويق شيئا، وزادتها سريّة زيد بن حارثة التى أخذت تجارتها حين سلوكها سبيل العراق الى الشام حرصا على الثأر وادّكارا لقتلى بدر. وكيف لقريش نسيانهم وهم أشراف مكة وساداتها وذوو النخوة والكرامة من كبارها! . وكيف لها نسيانُهم وما تزال نساء مكة تذكر كلٌّ منهن فى القتلى لها ابنا أو أخا أو أبا أو زوجا أو حميا، فهى له تتوجع وعليه تبكى وتُوَلْوِل. هذا، وكانت قريش منذ قدم أبو سُفْيان بن حَرْب بالعير التى كانت سبب بدر من الشام، وعاد الذين شهدوا بدرا وسلموا من القتل فيها، قد وقفت العيرَ بدار الندوة، واتفق كبراؤها: جُبَيْر بن مُطْعِم وصَفْوان بن أُمَيَّة وعِكْرِمة بن أبى جهل والحارث بن هِشام وحُوَيْطب بن عبد العُزَّى وغيرهم على أن تباع العير وأن تعزل أرباحها وأن يجهّز بها جيش لقتال محمد، جرّار فى عَدده وعُدّته، وأن تستنفر بها القبائل ليشاركوا قريشا فى أخذهم بالثأر من المسلمين. وقد استنفروا معهم أبا عَزَّة الشاعر الذى عفا عنه النبىّ من أسرى بدر، كما استنفروا معهم من اتّبعهم من الأحابيش. وأصرّت النسوة من قريش على أن يسرْنَ مع الغُزاة؛ فتشاور القوم؛ فمن قائل بخروجهن، «فانه أقْمَنُ أن يُحفِظَكم(١) ويذكّركم قتلى بدر، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع الى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه». ومن قائل: «يا معشر قريش! هذا ليس برأى أن تعرضوا حُرَمكم لعدوكم، ولا آمن

(١) يحفظكم: يغضبكم.

علينـا عدوّ فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا الى عدوّ قط منها إلا أصاب منا . فدعهم يا رسول الله وأطعني فى هذا الأمر، فإنى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى منهم" .

وكان كلام ابن أبىّ هـذا هو رأى الأكابر من أصحاب الرسول من المهاجرين ومن الأنصار، كما كان رأى الرسول عليه السلام . لكن فتيانا ذوى حميّة لم يشهدوا بدرا ورجالا شهدوها وأمتعهم الله بالنصر فيها وملأ الإيمان قلوبهم أن ليس لقوّة أن تغالبهم أو تتغلّب عليهم، أحبّوا الخروج الى العـدوّ وملاقاته حيث نزل، مخافة أن يظن أنهم كرهوا الخروج وتحصّنوا بالمدينة جبنا عن لقائه . ثم إنهم إلى جانب المدينة وعلى مقربة منها أقوى منهم يوم كانوا ببدر لا يعرف أهلهم من أمرهم شيئا . قال قائل منهم : "إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمدا فى صَيَاصى يثرب وآطامها فتكون هذه مُجَرِّئة لقريش . وهاهم هؤلاء قد وطئوا سَعَفَنا ، فاذا لم نذبّ عن عِرْضِنا[(1)] لم يزرع ، وإن قريشا قد مكثت حولًا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا . أفيحبسوننا فى بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يُكْلَمُوا ! . لئن فعلنا لأزدادوا جرأة ولشنّوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا الطريق علينا" . وتعاقب الدّعاة إلى الخروج يتحدّث كلٌّ حديثَـه ، ويذكرون جميعـا أنهم إذا ظفّرهم الله بعدوّهم فذلك الذى أرادوا وذلك الذى وعد الله رسوله بالحق ، وإن هم انهزموا واستُشهدوا كانت لهم الجنة .

والقائلون بالخروج للقاء العدو

حديث الشجاعة والاستشهاد

وهزّ حديث الشـجاعة وحديث الاستشهاد القلوب ، وآستنفر روحُ الجمـاعة الأنفسَ لتجرى كلها فى هـذا التيار، ولتتحدّث كلها على هذه النغمة، فلم يبق تلك اللحظة أمام الجمع المـائل فى حضرة محمد الممتلئ القلب بالإيمـان بالله ورسـوله وكتابه وحسابه ، إلا صورة الظفر بهذا العدوّ المعتدى تفرّقه سيوفهم أيدى سبا ، ويبعثه

(١) العرض (بكسر العين وسكون الراء) : كل واد فيه شجر .

بنو بكر وبنو خُزاعة موتانا . وتابعت قريش مسيرها حتى بلغت العَقيق ثم نزلت عند بعض السفوح من جبل أُحُد على خمسة أميال من المدينة .

رسول العباس الى النبي

وبلَغ الغِفَاريّ الذى بعثه العبّاس بن عبد المطلب بكتابه المدينة، فوجد محمدا بقُباء، فذهب اليه فوجده على باب المسجد هناك يركب حماره، فدفع اليه الكتاب، فقرأه عليه أُبَيّ بن كعب، فاستكتمه محمد ما فيه، وعاد إلى المدينة فقصد الى سعد ابن الرَّبيع فى داره فقصّ عليه ما بعث العباس به اليه واستكتمه أيضا إيّاه . على أن زوج سعد كانت بالمنزل وكانت تسمع ما دار فلم يبق سرّا . وبعث محمد أَنَسًا ومُؤْنِسًا ٱبنى فَضَالة يتنطّسان خبرَ قريش، فألفياها قاربت المدينة وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها . وبعث محمد من بعدهما الحُبَابَ بن المُنْذِر بن الجَمُوح . فلما جاءه من خبرهم بالذى أخبره العباس أخذته عليه السلام الحيرة . وخرج سَلَمة بن سَلَامة، فاذا طليعة خيل قريش تقترب من المدينة وتكاد تدخلها، فعاد فخبّر قومه بما رأى . وخشى الأوس والخزرج وأهل المدينة جميعا عاقبة هذه الغزوة التى أعدّت لها قريش خير ما أعدّت فى تاريخ حروبها، حتى لقد بات وجوه المسلمين من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد خوفًا على النبيّ، وحُرِسَت المدينة كلها طيلة الليل . فلما أصبحوا جمع النبيّ أهل الرأى من المسلمين ومن المتظاهرين بالإسلام — أو المنافقين على ما كانوا يُدْعَون يومئذ وما نُعتوا فى القرآن — وجعلوا يتشاورون : كيف يلقَوْن عدوّهم .

تشاور النبي وأهل المدينة

رأى النبيّ عليه السلام أن يتحصّنوا بالمدينة وأن يدعوا قريشا خارجها، فاذا حاولوا اقتحامها كانوا أهلَها فكانوا أقدر على دفعهم والتغلّب عليهم . ورأى عبد الله ابن أُبَيّ بن سَلُول رأى النبيّ وقال : "لقد كنّا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصَّياصِى ونجعل معهم الحجارة ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية . فاذا أقبل العدوّ رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسيافنا فى السِّكك . إنّ مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فُضّت علينا قطّ وما دخل

القائلون بالتحصن بالمدينة

"قد دعوتكم الى هذا الحديث فأبيتم . وما ينبغى لنبيّ إذا لبس لأْمَتَه أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . أُنظروا ما آمركم به فاتّبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم".

وكذلك وضع محمد الى جانب مبدأ الشورى أساس النظام . فاذا تمّ للكثرة رأى بعد بحث ، لم يكن لها أن تنقضه لهوى أو لغاية ، بل يجب أن ينفَّذ الأمر على أن يحسن من يتولى تنفيذه ويوجّهه الى حيث يتحقق نجاحه .

خروج المسلمين

وتقدّم محمد بالمسلمين متّجها الى أُحُد ، حتى نزل الشيخين (١) . وهناك بَصُر بكتيبة لا يعرف أهلها ، فسأل عنها فقيل : هؤلاء حلفاء ابن أُبَيّ من يهود . قال عليه السلام : لا يُستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يُسلموا . فانصرف اليهود عائدين الى المدينة . إذ ذاك جعل حلفاء ابن أُبَيّ يقولون له : لقد نصحته وأشرت عليه برأى من مضى من آبائك فكان رأيه مع رأيك ، ثم أبى أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه . وصادف حديثهم هوى من نفس ابن أُبَيّ ، فلما أصبحوا انخذل مع كتيبة من أصحابه . وبقى النبيّ ومعه المؤمنون حقًّا وعِدّتهم سبعمائة ، ليقاتلوا ثلاثة آلاف قرشيّ من أهل مكة كلهم موتور من يوم بدر ، وكلهم على ثأره حريص .

عود اليهود وابن أبى الى المدينة

تنظيم النبى الصفوف

وسار المسلمون مع الصبح حتى بلغوا أُحُدا ، فاجتازوا مسالكه وجعلوه الى ظهورهم . وجعل محمد يَصُفُّ أصحابه وقد وضع منهم خمسين من الرماة على شِعب فى الجبل وقال لهم : " احموا لنا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئونا من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم . وإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنَّبْل ، فإن الخيل لا تُقْدِم على النبل". ثم نهى غير الرماة أن يقاتل أحد حتى يأمر هو بالقتال .

قريش ونساؤها

فأمّا قريش فصفّت صفوفها وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة عِكْرِمة بن أبى جهل ، ودفعت اللواء الى عبد العُزَّى طلحة بن أبى طلحة . وجعلت

(١) الشيخان : موضع ، كان به فى الجاهلية أطمان فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدثان . فسمى المكان الشيخين لذلك .

بأسهم بدداً شذر مذر، وتستولى أيديهم على مغانمه ومحارمه؛ وصورة الجنة أعدّت للذين قُتلوا فى سبيل الله فيها ما تشتهى الأنفس وتلذّ الأعين يلقوْن فيها أحبّتهم الذين شهدوا بدرا واستُشهدوا فيها ، ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾(١) . قال خَيْثَمة أبو سعد بن خيثمة : « عسى الله أن يُظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهى الشهادة . لقد أخطأتنى وقعةُ بدر وكنت عليها حريصا، حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمتُ ابنى فى الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة . وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم وهو يقول : الحَقْ بنا ترافقنا فى الجنّة، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقّا . وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا الى مرافقته فى الجنّة ؛ وقد كبِرت سنّى ورَقّ عظمى وأحببت لقاء ربى » . فلما ظهرت الكثرة واضحة فى جانب الذين يقولون بالخروج الى العدوّ وملاقاته قال لهم محمد : إنى أخاف عليكم الهزيمة ؛ فأبوا مع ذلك إلا الخروج . فلم يكن له إلا أن ينزل على رأيهم . وقد كانت الشورى أساس نظامه لهذه الحياة، فلم يكن ينفرد بأمر إلا ما أوحى اليه من عند الله .

تغلب القائلين بالخروج

وكان اليوم يوم جمعة، فصلّى بالناس وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوّهم . ودخل محمد بيته بعد صلاة العصر ودخل معه أبو بكر وعمر فعمّماه وألبساه درعه وتقلد سيفه، والناس أثناء غيبته هذه فى جدل يتحاورون . قال أُسَيْد ابن حُضَيْر وسعد بن مُعاذ، وكانا ممن أشار بالتحصّن بالمدينة، للذين رأوا الخروج منها : "لقد رأيتم رسول الله يرى التحصّن بالمدينة فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره . فردّوا الأمر اليه، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم له فيه هوى أو رأيا فأطيعوه" . ولانَ الداعون للخروج لما سمعوا، وحسبوا أنهم خالفوا الرسول الى شيء قد يكون لله فيه آية . فلما خرج اليهم لابسًا درعه متقلّدا سيفه أقبل عليه الذين كانوا يرون الخروج فقالوا : "ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك . وما كان لنا أن نستكرهك ، والأمر الى الله ثم اليك" . قال محمد :

النظام مع الشورى

(١) سورة الواقعة آيتا ٢٥ و ٢٦

المسلمين من جناحهم ؛ ولكن المسلمين رشقوهم بالحجارة حتى ولّى أبو عامر ومن معه مدبرين . هنالك صاح حمزة بن عبد المطلب صيحة القتال يوم أُحُد : "أَمِتْ ، أَمِتْ" واندفع إلى قلب جيش قريش . وصاح طلحة بن أبى طلحة حامل لواء أهل مكة : من يبارز ؟ فبرز له علىّ بن أبى طالب والتقيا بين الصفين ، فبدره علىٌّ بضربة فلقتْ هامتــه . واغتبط النبىّ وكبّر وكبّر المسلمون وشــدّوا . واندفع أبو دُجَانة وفى يده سيف النبىّ وعلى رأسه عصابة الموت فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله حتى شقّ صفوف المشركين ، فرأى إنسانا يَخْمِشُ(١) الناس خمشا شديدا ، فحمل عليه بالسيف فوَلْوَلَ ، فاذا هند بنت عُتْبة فارتدّ عنها ، مُكْرِماً سيف الرسول أن يضرب به امرأة .

حمزة وأبو دجانة وعلىّ وبلاؤهم

واندفعت قريش إلى القتال يثور فى عروقها طلب الثأر لمن مات من أشرافها وساداتها منذ عام ببدر . ووقفت بذلك قوّتان غير متكافئتين فى العدد ولا فى العُدَّة ؛ يحرّك الكثرة العظيمة ثأر لا يهدأ منذ بدر فى النفوس ثائره . ويحرّك الفئة القليلة عاملان : الدفاع عن العقيدة وعن الإيمان وعن دين الله ، والدفاع عن الوطن وعما يشتمل عليه هذا الوطن من مصالح . فأمّا المطالبون بالثأر فكانوا أعزّ نفرا وأكثر جندا ، وكان من ورائهم الظُّعُن يحركنهم وقد أعدّت غير واحدة منهن مولى وعدته الخير الوفير لينتقم لهــا ممّن فجعها ببدر فى أب أو أخ أو زوج أو عزيز . كان حمزة ابن عبــد المطلب من أعظم أبطال العرب وشجعانهم ، وكان قد قتــل يوم بدر عُتْبة أبا هند كما قتل أخاها ونكّل بكثير من الأعزّة عليها . وكان يوم أُحُد كما كان يوم بدر أسدَ الله وسيفه البتّار . قتَل أَرْطَاة بن عبــد شُرَحْبيل وقتل سِبَاع بن عبد العُزَّى الغُبْشانى ، وجعل يهــــذّ(٢) كل من لقى بسيفه فتسيل من جســده روحه . وكانت هند بنت عُتبة قد وعدت وَحْشِيًّا الحبشىّ مولى جُبَيْر خيرا كثيرا إن هو قتل حمزة ، كما قال له جبير بن مُطْعِم مولاه وكان عمه قد قُتل ببــدر : إن قتلتَ حمزة عم محمد فأنت عتيق . روى وحشىّ قال : « فخرجتُ مع النــاس ، وكنتُ رجلا حبشيا

مقتل حمزة سيد الشهداء

(١) خمش فلانا : ضربه وقطع عضوا منه . ويقال : خمش وجه فلان اذا خدشه ولطمه .

(٢) يهذ : يقطع .

نساء قريش يمشين خلال صفوفها يضربن بالدفوف والطبول ، فيكنّ تارة في مقدّمة الصفوف وتارة في مؤخّرتها ، وعلى رأسهن هند بنت عُتْبة زوج أبي سفيان وهنّ يقلن :

وَيْهًا بني عبد الدّارْ * ويها حُماةَ الأَدْبارْ
* ضربًا بكلّ بتّارْ *

ويقلن :

إن تُقْبِلوا نُعانِقْ * ونَفرُش النَّمارِقْ
أو تُدْبروا نُفارِقْ * فِراقَ غيرِ وامِقْ

واستعدّ الفريقان للقتال وكلّ يحرّض رجاله . فأمّا قريش فتذكر بدرا وقتلاها ، وأمّا المسلمون فيذكرون الله ونصره . ومحمد يخطب ويحضّ على القتال ويَعِد رجاله النصر ما صبروا . مدّ يده بسيف فقال : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقّه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم ، حتى قام أبو دُجَانةَ سِمَاك بن خَرَشة أخو بني ساعدة فقال : وما حقُّه يا رسول الله ؟ فقال : أن تضرب به في العدوّ حتى ينحني . وكان أبو دجانة رجلا شجاعا له عصابة حمراء ، إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيُقاتل وأنه أخرج عصابة الموت . فأخذ السيف وأخرج عصابته وعصب بها رأسه وجعل يتبختر بين الصفّين على عادته إذ يختال عند الحرب . فلما رآه محمد يتبختر قال : « إنها لمِشْيةٌ يُبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » .

أبو دجانة وعصابة الموت

وكان أوّل من أنشب الحربَ بين الفريقين أبو عامر عبد عمرو بن صَيْفيّ الأَوْسيّ ، وكان قد انتقل من المدينة إلى مكة يحرّض قريشا على قتال محمد ؛ ولم يكن شهد بدرا ، فخرج الى أُحُد في خمسة عشر رجلا من الأوس وفي عبيد أهل مكة ؛ وكان يزعم أنه إذا نادى أهلَه من الأوس المسلمين الذين يحاربون في صفّ محمد ، استجابوا له وانحازوا معه ونصروا قريشا . فخرج فنادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . فأجابه الأوس المسلمون : لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق ! . ثم نشِب القتال بينهم . وحاول عبيد قريش وحاول عِكْرمة بن أبي جهل ، وكان على الميسرة ، أن يأخذ

حامله حتى يأخذه خَلَفُه . حمل عثمان بن أبى طلحة اللواء بعد أن قتل علىّ طلحة بن أبى طلحة فلقى مصرعه على يد حمزة ! وحمله أبو سعد بن أبى طلحة وصاح : أتزعمون أن قتلاكم فى الجنة وقتلانا فى النار . والله إنكم لتكذبون . ولو كنتم تؤمنون بما تقولون حقا فليتقدم منكم من يقاتلنى . وضربه علىّ أو سعد بن وقّاص بسيفه ضربة فلقت هامته . وتعاقب حَمَلة اللواء من بنى عبد الدار حتى قُتل منهم تسعة ، كان آخرهم صؤاب الحبشى غلام بنى عبد الدار . وقد ضربه قزمان بالسيف على يده اليمنى فتناول اللواء باليسرى ، فقطعها قزمان بسيفه ؛ فضم صؤاب اللواء بذراعيه الى صدره ثم حنى عليه ظهره وهو يقول : يا بنى عبد الدار ، هل أعذرت ؟ وقتله قزمان أو قتله سعد بن أبى وقاص على خلاف فى الرواية .

ظفر المسلمين صبيحة أحد

فلما قتل أصحاب اللواء انكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شىء حتى أحيط بنسائهم ، وحتى وقع الصنم الذى احتملوا يتيامنون به من فوق الجمل الذى كان يحمله ومن خلال الهودج الذى كان يحتويه . والحق أن ظَفَر المسلمين فى صبيحة يوم أُحُد كان معجزةً من معجزات الحرب ، قد يفسّرها بعضهم بمهارة محمد فى وضعه الرُّماة فى شِعب الجبل يصدّون الفرسان بالنبل فلا يتقدّمون ولا يأتون المسلمين من خلفهم . وهذا حقّ . ولكن من الحق أيضا أنّ ستّ المائة من المسلمين الذين هاجموا عددا يوازى خمسة أمثالهم ، وعُدّة فى مثل هذه النسبة ، إنما دفعهم إلى معجزات البطولة التى أتَوْا شىء أعظم من مهارة القيادة : ذلك هو الإيمان ، الإيمان الصادق بأنهم على الحق . ومن آمن بالحق لم تزعجه قوّة مادّية مهما عظُمت ، ولم تضعضع من عزمته كل قوات الباطل و إن اجتمعت . وهل رأيت مهارة القيادة وحدها كانت تغنى والرماة الذين وضعهم النبىّ فى الشعب لم يكونوا إلا خمسين ! فلو أن مائتين أو ثلاثمائة رجل هاجموهم مستقتلين لما صمَدوا ولا صبروا أمامهم . لكن القوّة الكبرى ، قوّة الفكرة ، قوّة العقيدة ، قوّة الإيمان الصادق بالحق العلىّ الأعلى ، هذه القوّة لا غالب لها ما أراد صاحبها وجهَ الحق وحده . ولذلك تمزّقت قريش فى ثلاثة آلاف من فرسانها أمام هجمات ستمائة مسلم ،

قوّة العقيدة والإيمان

أقذف بالحربة قذف الحبشة قلّما أخطئ بها شيئا . فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصّره حتى رأيته فى عُرْض الناس مثل الجمل الأوْرَق[(١)] يهذّ الناس بسيفه هذًّا ، فهززت حربتى ، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت فى ثُنَّته[(٢)] حتى خرجت من بين رجليه وتركته وإيّاها حتى مات ، ثم أتيتُه فأخذت حربتى ورجعت إلى المعسكر وقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة ، إنما قتلتُه لأُعْتَق . فلما قدمت مكة أَعتقت » .

قزمان وقتله نفسه

أمّا المدافعون عن الوطن فكان لهم مثل فى قُزْمان أحد المنافقين الذين أظهروا الإسلام . تخلّف عن الخروج يوم خرج المسلمون لأُحُد ، فلمـا أصبح عيَّره نساء بنى ظَفَر فقلن : يا قُزْمان ، ألَا تستحى لِمـا صنعت ! ما أنت إلا امرأة ! خرج قومك فبقيت فى الدار . فدخل قزمان بيته مَغيظًا مُحْنَقا فأخرج قوسه وجَعْبته وسيفه ، وكان يُعرف بالشجاعة ، فخرج يعـدو حتى كان عند الجيش والنبىّ يسوّى صفوف المسلمين ، فتخطّاها حتى كان فى الصفّ الأوّل منهـا ، وكان أوّل من رمى بنفسه من المسلمين ، وجعل يرسل نبلًا كأنها الرماح . فلمـا كان آخر النهار فضّـل الموت على الفرار وقتل نفسه بعد أن أصاب من قريش سبعة رجال فى سُوَيْعَة غير من قتل منهم بَدْءَ المعركة . ومرّ به أبو الغَيْدَاق وهو يُسلم الروح فقال له : هنيئا لك الشهادة يا قُزمان ! . قال قزمان : إنى والله ما قاتلت يا أبا عمـرو على دين . ما قاتلت إلا على الحِفَاظ أن تسير قريش إلينا فتقتحم حَرَمنا وتطأ سَعَفنا . ووالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى ، ولولا ذلك ما قاتلت .

أمّا المؤمنون حقّـا ، وكان عـددهم لا يزيد على سبعمائة يقاتلون ثلاثة آلاف ، فقد رأيت من فِعال حمزة وأبى دُجَانة ما يصوّر لك صورة من قوتهم المعنوية ؛ قوة انثنت أمامها صفوف قريش وكأنها الخيزران ، وتراجع أمامها أبطال قريش وكانوا بين العرب مضرب المثـل فى الإقدام والشجاعة . وكان لواؤهم لا يسقط من يد

(١) الأورق من الإبل : الآدم ، وقيل ما فى لونه بياض الى سواد .

(٢) الثنة : ما بين السرة والعانة من أسفل البطن .

قتل المسلمون مُوَاطِنَهم المسلم حُسَيْل بن جابر أبا حُذَيْفة وهم لا يعرفونه . وكان أكبر هَمّ كلّ مسلم أن ينجو بنفسه إلا من عصم الله من أمثال علىّ بن أبى طالب .

ما أصاب رسول الله

على أن قريشا ما لبثت حين سمعت بمقتل محمد أن تدافعت تدافع السيل الى الناحية التى كان فيها ، وكلٌّ يريد أن يكون له فى قتله أو التمثيل به ما يفاخر الأجيال به . هنالك أحاط المسلمون القريبون بنبيّهم يدفعون عنه ويحمونه ، وقد عاد الإيمان فملأ نفوسهم وملك قلوبهم وحبّب اليهم الموت وهوّن عليهم الحياة الدنيا . وزادهم إيمانا واستماتة أن رأوا الحجارة التى تقذفها قريش قد أصابت النبىّ فوقع لشِقِّه فأُصيبت رَبَاعِيَتُه وشُجَّ فى وجهه وكُلِمت شَفَتُه ودخلت حَلْقتان من المِغْفَر الذى يستر به وجهه فى وَجْنته . وكان رامى الحجر الذى أصابه عُتْبَة بن أبى وقّاص . وتمالك الرسول وسار وأصحابه من حوله ، فاذا به يقع فى حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون . هنالك أسرع اليه علىّ بن أبى طالب فأخذ بيده ورفعه طلحة بن عُبيد الله حتى آستوى ، وجعل يسير وأصحابه ، متسلّقين أُحُدًا ، ناجين من العدو وآتّباعه إيّاهم .

استماتة المؤمنين فى الدفاع عن الرسول

وفى لحظة قاموا كان قد آجتمع حولهم من المسلمين من استماتوا فى الدفاع عن رسول الله استماتة لا يُقْهَر صاحبُها أبدا . كانت أمّ عُمارة الأنصاريّة قد خرجت أوّل النهار ومعها سِقاء فيه ماء تدور به على المسلمين المجاهدين تَسقى منهم من آستسقى . فلما انهزم المسلمون ألقت سِقاءَها وآستلّت سيفا وقامت تُباشر القتال تذُبُّ عن محمد بالسيف وترمى عن القوس حتى خلَصت الجراح اليها . وترّس أبو دُجَانة بنفسه دون رسول الله فحنى ظهره والنُبل يقع فيه . ووقف سعد بن أبى وقّاص إلى جانب محمد يرمى بالنبل دونه ومحمد يناوله النبل ويقول له : اِرْمِ فداكَ أبى وأمّى . وكان محمد قبل ذلك يرمى بنفسه عن قوسه حتى آندقّت سِيَتها . هذا ، فأمّا الذين ظنّوا محمدا قد مات ومن بينهم أبو بكر وعمر فآنتحوا الجبل وألقوا بأيديهم . فرآهم أَنَس بن النَّضْر فقال : ما يُجلسكم؟ قالوا : قُتل رسول الله . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل القومَ فقاتل قتالا شديدا وأبلى بلاء منقطع النظير ، حتى إنه لم يُقتل إلا بعد أن ضرب سبعين ضربة ، وحتى إنه لم يعرفه أحد إلا أخته ، عرفته من بنانه .

وأوشكت نسوتها أن يؤخذن أسرى ذليلات . وتبع المسلمون عدوّهم يضعون السلاح فيه حيث شاءوا حتى بعُد عن معسكره ؛ فجعل المسلمون ينتهبون الغنيمة ، وما أكثر ما كانت ! وصرفهم ذلك عن اتّباع عدوّهم ابتغاء عَرَض الدنيا .

اشتغال المسلمين بالغنيمة

ورآهم الرّماة الذين أمرهم الرسول ألّا يبرحوا الشِّعب ولو رأوه وأصحابه يُقتلون ؛ فقال بعضهم لبعض وقد سال لمرأى الغنيمة لُعابهم : "لِم تقيمون ها هنا فى غير شىء وقد هزم الله عدوّكم ، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ! فادخلوا فاغنموا مع الغانمين". قال قائل منهم : "ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا نُقتَل فلا تنصرونا !" . قال الأوّلون : "لم يرد رسول الله أن نبقى بعد أن أذلّ الله المشركين".

مخالفة الرماة أمر النبي وأخذ خالد ابن الوليد مكانهم

واختلفوا ؛ فخطبهم أميرهم عبد الله بن جُبَيْر أن لايخالفوا أمر الرسول . فعصاه أكثرهم وانطلقوا ولم يبق معه إلا نفر دون العشرة . واشترك المنطلقون فى النهب وشُغلوا كما شُغل سائر المسلمين به . إذ ذاك اهتبل الفرصةَ خالد بن الوليد ، وكان على فرسان مكة ، فشدّ برجاله على مكان الرُّماة فأجلاهم . ولم يفطن المسلمون لفعله لأنهم شُغلوا عنه وعن كل شىء بهذه المغانم يَعُبُّون منها حتى لم يبق رجل منهم وقع فى يده شىء إلا أخذه . وإنهم لكذلك إذ صاح ابن الوليد صيحة أدركت قريش معها أنه دار برجاله وراء جيش المسلمين . عند ذلك عاد منهم كل منهزم فأثخنوا فى المسلمين

الدائرة تدور على المسلمين

ضربا وقتلا . وهنالك دارت الدائرة ؛ فألقى كل مسلم ما كان بيده مما انتهب وعاد الى سيفه يسلّه ليقاتل به . ولكن هيهات هيهات ! لقد تفرّقت الصفوف وتمزّقت الوحدة وابتلع البحر اللُّجّىّ من رجال قريش هذه الصفوة من المسلمين كانت الى ساعةٍ تقاتل بأمر ربها تَنْضَح عن إيمانها ، وهى الساعةَ تقاتل لتنجو من براثن الموت ومخالب المذلّة . وكانت تقاتل متراصّة متضامنة ، وهى الان تقاتل مبعثرة متناكرة . وكانت تقاتل تحت قيادة قويّة حازمة حكيمة ، وهى الآن تقاتل ولا قيادة لها . فلم يكن عجبا أن ترى مسلما يضرب مسلما بسيفه ولا يكاد يعرفه . وصاح صائح بالناس : إن محمدا قد قُتل ، فازدادت الفوضى وعظمت البليّة ، واختلف المسلمون وصاروا يقتلون و يضرب بعضهم بعضا ولا يشعرون لما هم فيه من العجلة والدهش .

أن تبرّأ أبو سفيان من تبِعتها وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه، بل قال يخاطب أحد المسلمين: إنه قد كان فى قتلاكم مَثْلَ، والله ما رَضيتُ وما سخِطتُ وما نَهيتُ وما أمرتُ.

حزن محمد على حمزة

وانصرفت قريش بعد أن دفنت قتلاها، وعاد المسلمون الى الميدان لدفن قتلاهم. وخرج محمد يلتمس عمّه حمزة. فلما رآه قد بقر بطنُه ومُثّل به حَزِن من أجله أشدّ الحزن وقال: لن أصاب بمثلك أبدا. ما وقفتُ موقفا قطُّ أغيظ إلىّ من هذا. ثم قال: والله لئن أظهرنا الله عليهم يومًا من الدّهر لأُمَثّلن بهم مُثْلة لم يمثّلها أحد من العرب. وفى هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾(١). فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المُثلة؛ وسجّى حمزة ببرده وصلّى عليه. وجاءت أخته صفيّة بنت عبد المطلب فنظرت اليه وصلّت عليه واستغفرت له. ودُفن حمزة، وأمر النبىّ بالقتلى فدُفنوا حيث لقُوا مصارعهم.

دفن القتلى والعودة الى المدينة

وانصرف المسلمون الى المدينة ومحمد على رأسهم، تاركين وراءهم سبعين من القتلى؛ يحزّ فى نفوسهم الألم لما أصابهم من هزيمة بعد نصر، ومن مذلّة وهوانٍ بعد ظفر لاظفر مثله؛ وذلك كله لعصيان الرّماة أمرَ النبىّ واشتغال المسلمين عن العدوّ بغنائمه.

لابدّ من استرداد هيبة المسلمين

ودخل النبىّ الى بيته وجعل يفكر. ها هم أولاء أهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشركين يظهرون السرور أشد السرور لما كان من هزيمته وهزيمة أصحابه. وهذا سلطان المسلمين بالمدينة كان قد استقرّ فلم يَبْق لأحد أن ينازع فيه، وهذا هو يُوشك أن يضطرب ويتزعزع. وهذا عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول قد خرج على الجماعة وعاد من أُحُد ولم يشترك فى القتال بدعوى أن محمدا لم يسمع رأيه، أو أن محمدا غضب على مواليه من اليهود. فلو أنّ هزيمة أُحُد بقيت الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش لهان أمر محمد وأصحابه على العرب، ولتضعضع سلطانهم بيثرب، ولكانوا عرضةً لاستخفاف قريش بهم وإرسالها دعاية السخر والاستهزاء منهم فى أنحاء شبه الجزيرة جميعا. ولئن حدث هذا لجاء فى أثره اجتراء المشركين وعُبّاد

(١) سورة النحل آيتا ١٢٦ و ١٢٧

زعم قريش موت النـــبي

وفرحت قريش بما اعتقدت من موت محمد، فراح أبو سفيان يفتقده فى القتلى . ذلك بأن الذين كانوا ينضحون عنه عليه السلام لم يكذِّب أحد منهم خبر قتله إطاعةً لأمره حتى لا تتكاثر عليهم قريش فتغلبهم دونه . على أن كعب بن مالك أقبل الى ناحية أبى دُجانة ومن معه فعرف محمدا حين رأى عينيه تَزْهَران تحت المِغْفَر، فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أبشروا ! هذا رسول الله . فأشار النبيّ اليه ليسكت . لكن المسلمين مالبثوا حين عرفوا أن نهضوا بالنبي ونهض معهم نحو الشِّعب، ومن حوله أبو بكر وعمر وعليّ بن أبى طالب والزبير بن العوّام ورهط غيرهم . وكان لصيحة كعب عند قريش كذلك أثرها . صحيح أن أكثرهم لم يصدِّقها وحسبها صيحة أُريد بها شـدّ عزائم المسلمين، إلا أن بعضهم اندفع وراء محمد والذين ساروا معه . وقد أدركهم أُبَيّ بن خلف وهو يقول : أين محمد؟ لانجوتُ إن نجا ! . فطعنه الرسـول بحربة الحارث بن الصِّمّة طعنـة جعلته يتقلّب على فرسـه ويعود أدراجَه ليموت فى الطريق . فلما انتهى المسلمون الى فَم الشعب خرج عليّ فملأ دَرَقته ماء فغسل محمد به الدم عن وجهه وصبّ منه على رأسه؛ ونزع أبو عبيدة بن الجرّاح حَلْقتى المِغْفَر من وجه الرسول فسقطت ثَنِيّتاه . وإنهم لكذلك اذ علا خالد بن الوليد على رأس فرسان معه الجبل، فقاتلهم عمر بن الخطّاب ورهط من أصحاب الرسـول فردّوهم . وازداد المسلمون فى الجبل تصعيدا وقد نَهَكهم التعب وهدّهم الجهد حتى صلّى النبيّ الظهر قاعدا من الجراح التى أصابته، وصلّى المسلمون خلفه قعودا .

نجاة الرســول ومن معه

التمثيـل بقتــلى المسلمين

فأمّا قـريش فطارت بنصرها سرورا وحسبت نفسهـا انتقمت لبدر أشـدّ الانتقام؛ حتى صاح أبو سـفيان : " يومٌ بيوم بدر والموعد العام المقبل " . فأمّا هند بنت عُتْبة زوجُه فلم يَكْفِها النصر، ولم يكفها قتـل حمزة بن عبـد المطالب، بل انطلقت هى والنســوة اللّاتى معها يمثّلن بالقتـلى من المسلمين يَجْـدَعْنَ الآذان والأنوف، وجعلت هند لنفسها منهـا قلائد وأقراطا، ثم إنها بقَرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تَستطيع أن تُسيغها . وبلغ من شناعة ما فعلت وما فعل النّسوة ممّن معها، بل ما فعل الرجال كذلك من الفظائع،

الفصل السادس عشر
آثار أحـــد

ائتمار القبائل المجاورة بالمسلمين — غزوة بنى أسـد — أمر الهـذلى — مقتل خبيب وأصحابه بالرجيع — مقتل المسلمين ببئرمعونة — إجلاء بنى النضـير عن المدينة — غزوة بدر الآخرة — غزوة دومة الجنـــدل

عاد أبو سفيان من أُحُد إلى مكة، وقد سبقته اليها أخبار النصر، ممتلئ النفس غبطة وسرورا بمـا زال عن قريش من عار بَدْر . ولم يلبث حين بلغها أن قصـد الكعبة قبل أن يدخل إلى بيته، وبها رفع إلى كبير آلهتهم هُبَل آى الثناء والحمد ؛ ثم حَلَق لِمَّته ورجع إلى داره مُوفيا نذره ألّا يقرب زوجه حتى ينتصر على محمد . أمّا المسلمون فألفَوْا المدينة قـد تنكَّر لهم الكثير من أمرها، على رغم مطاردتهم عدوّهم وصمودهم له ثلاثة أيام متتابعة من غير أن يجترئ على الرجعة اليهـم ، وهو المنتصر قبـل أربع وعشرين سـاعة عليهم . أَلْفوا المدينـة وقد تنكَّر لهم الكثير من أمرها وإن بقى سلطان محمد فيها السلطان الأعلى . وشعر عليـه السلام بدقة الموقف وحرج المركز ، لا فى المدينة وحدها، بل عنـد سائر قبائل العرب ممن كان الرعب منه قد داخل نفوسها . فقد ردّت أُحُد اليها من السكينة ما سمح لهـا أن تفكر فى معارضته ومناوأته . لذلك حرَص على أن يقف من أخبار أهـل المدينة ومن أخبار العرب جميعا، على ما يمكّنه من استعادة مكانة المسلمين وسطوتهم وهيبتهم فى النفوس .

سياســة محمد بعد أحد

وكان أوّل ما بلغه بعـد شهرين من أُحُد أن طُلَيْحة وسَلَمة ابنى خُوَيْلد، وكانا على رأس بنى أسد، يحرّضان قومهما ومن أطاعهما يريدان مهاجمة المدينة ، والسير الى محمد فى عُقْر داره، ليصيبوا من أطرافه وليغنموا من نَعَم المسلمين التى ترعى الزروعَ المحيطة بمدينتهم. وإنما شجّعهم على ذلك اعتقادهم أن محمدا وأصحابه لا يزالون

سرية أبى سلمة بن عبد الأسد

الأوثان على دين الله فتكون الطامّة الكبرى . فلا بدّ إذًا من ضربة جريئة تخفف من وقع هزيمة أُحُد وتردّ الى المسلمين قوّتهم المعنوية ، وتُدخل الى رُوع اليهود والمنافقين الرَّهبةَ ، وتُعيد الى محمد وأصحابه سلطانهم بيثرب قويًّا كما كان .

الخروج فى الغد الى العدو

فلما كان الغد من يوم أُحد ، وكان الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوّال ، أذّن مؤذّن النبيّ فى المسلمين بطلب العدوّ واستنفرهم لمطاردته ، على ألّا يخرج إلا من حضر الغزوة . وخرج المسلمون . فوقع فى رُوع أبى سفيان أن أعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد نخاف لقاءهم . وبلغ محمد حَمْراء الأسَد (١) ، وكان أبو سفيان وأصحابه بالرَّوْحاء ، فمرّ به معبد الخُزَاعىّ ، وكان قد مرّ بمحمد ومن معه ، فسأله عن شأنهم فأجابه معبد — وكان لا يزال على الشرك — : " إن محمدا قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قطّ ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلّف عنه ، وكلّهم أشدّ ما يكون عليكم حَنَقًا ومنكم للثأر طلبا " . على أن أبا سفيان فكر فيما يكون لفراره من محمد ومن عدم مواجهته إيّاه بعد انتصاره عليه بأُحد من الأثر . أفلا تقول العرب فى قريش ما كان يودّ هو أن تقوله فى محمد وأصحابه ! ولكن هَبْه رجع الى محمد فهزمه المسلمون ، إذًا ليكونن ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبدا . فلجأ الى الحيلة ، فبعث مع ركب من عبد القيس يقصدون المدينة أن يُبلغوا محمدا أنه قد أجمع السير اليه والى أصحابه ليستأصل بقيّتهم . فلما أبلغ الركب الرسالة الى محمد بحمراء الأسد لم يتضعضع عزمه ولم تَهِن قوّته ، بل ظلّ فى مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ، ليدلّ قريشا على أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم . وأخيرا تزعزعتْ (٢) همّة أبى سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأُحد وعادوا أدراجهم ميممين مكة . ورجع محمد إلى المدينة وقد استردّ كثيرا من مكانة تزعزعتْ على أثر أُحُد ، وإن كان المنافقون قد بدءوا يرفعون رءوسهم ضاحكين من المسلمين يسألونهم : إذا كانت بدر آيةً من الله برسالة محمد ، فماذا عسى أن تكون آية أُحُد وماذا تكون دلالتها ؟ ! .

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة . (٢) تزعزعت : تفرقت .

من أصحابه كلما دُعِي الى ذلك ليؤدّوا هذه المهمة الدينية السامية، وليدعوا الناس الى الهـدى ودين الحق ، وليكونوا لمحمد وأصحابه عيونا على خصومهم وأعدائهم، على نحو ما رأيت من ذلك كله فيمن بعثهم الى المدينـة على أثر العقبة الكبرى . لذلك بعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع الرهط وساروا معهم . فلمـا كانوا جميعا على ماء لهُذَيْل بالحجاز بناحية تدعى الرَّجِيع، غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هُذَيلا . ولم يَرُع المسلمين الستة وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قـد غَشُوهم . فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوا . لكن هُذَيلا قالت لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ولكنّا نريد أن نُصيب بكم من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألّا نقتلكم . ونظر المسلمون بعضهم الى بعض وقد أدركوا أن الذهاب بهـم الى مكة فُرادَى إنمـا هو المذلّة والهوان وما هو شرّ من القتل. فأبوا ما وعدت هذيل، وآنبروا لقتالها، وهم يعلمون أنهم فى قلّة عددهم لا يُطيقونه . وقتلت هُذَيل ثلاثة منهم ؛ ولان الثلاثة الباقون، فأمسكت بتلابيبهم وأخذتهم أسرى، وخرجت بهم الى مكة تبيعهم فيها . فلمـا كانوا فى بعض الطريق انتزع عبـد الله بن طارق أحد المسلمين الثـلاثة يده من غُلّ الأسْر ثم أخذ سيفه؛ فاستأخرعنه القوم وطفقوا يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه . أمّا الأسيران الآخران فقدِمت بهما هذيل مكة وباعتهما من أهلها . باعت زيد بن الدَّثِنَّة لصَفْوان بن أُمَيّة الذى اشتراه ليقتله بأبيه أُميّـة بن خَلَف؛ فدفع به الى مولاه نَسْـطاس ليقتله . فلمـا قُدِّم سأله أبو سفيان : أنشُدك الله يا زيد، أتحبّ أن محمدا الآن عندنا فى مكانك تُضرب عنقُه وأنت فى أهلك ؟ . قال زيد : والله ما أحب أن محمدا الان فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تُؤذيه وأنا جالس فى أهـلى ! . فعجب أبو سفيان وقال : ما رأيت من النـاس أحدا يحبّـه أصحابه ما يحب أصحـاب محمد محمدا . وقتل نَسْـطاس زيدا، فذهب شهيد أمانتـه لدينه ولنبيّه . أمّا خُبَيْب فحُبِس حتى خرجوا به ليصلبوه؛ فقال لهم : إن رأيتم أن تدَعونى حتى أركع ركعتين فافعـلوا ؛ فأجازوه ما أراد؛ فركع الركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم وقال : أمَا والله لولا أن تظنّوا أنى إنمـا طوّلت جزعا من القتل

قتل زيد وخبيب

مضعضعين من أثر أحد . فما لبث النبيّ حين اتصل به الخبر أن دعا اليه أبا سَلَمة بن عبد الأسد وعَقد له لواء سريّة تبلغ عِدّتها مائة وخمسين منهم أبو عُبيدة بن الجرّاح، وسـعد بن أبي وقّاص، وأُسَيْد بن حُضَيْر، وأمرهم بالسير ليلا والاستخفاء نهارًا وسلوك طريق غير مطروق حتى لا يطّلع أحد على خبرهم، فَيَفْجَـؤوا العدوّ بالإغارة عليه على غِرّة منه . ونفّذ أبو سَلَمة ما أُمر به حتى جاء القومَ ولم يستعدّوا لنضال، فأحاط بهم فى عَمَـاية الصبح، وحضّ رجاله وحرّضهم على الجهـاد، فلم يسـتطع المشركون أن يثبُتوا لهم، فوجّه لواءين فى طلبهـم وطلب الغنيمة، وأقام هو ومن معه حتى عاد المطاردون بما غنموا فنحّوا الخمس لله ورسوله وللمسكين وابن السبيل، واقتسموا الباقى ورجعوا الى المدينة ظافرين وقد أعادوا الى النفوس من هيبة المسلمين شيئا مما ضيّعت أُحُد . على أن أبا سلمة لم يَعِشْ بعد السريّة طويلا، فقد كان جرح بأُحد ولم يكن التئام جرحه إلا ظاهرا . فلمـا جهَد نفسَه نَغَـر الجرح(١) وظلّ به حتى قضى عليه .

سرية عبـد الله ابن أنيس

واتصل بمحمد من بعـد ذلك أن خالد بن سفيان بن نُبَيْح الهُذَلىّ مقيم بنَخْلة أو بعُرَنَة، وأنه يجمع الناس ليغزوه، فدعا اليه عبد الله بن أُنَيْس وبعثه يتجسّس حتى يقف على جليّة الخبر . وسار عبد الله حتى التقى بخالد وهو فى ظُعُن يرتاد لهن منزلا . فلمـا انتهى اليه سأله خالد : مَنِ الرجل؟ فأجابه : أنا رجل من العرب سمـع بك وبجمعك لمحمد فجاءك لذلك . فلم يُخْفِ خالد أنه يجمع الجموع ليغزو المدينة . ولـما رآه عبد الله فى عزلة من الرجال وليس معه إلا أولئك النسوة استدرجه للسير معه، حتى اذا أمكنته منه الفرصة حمل عليه بالسيف فقتله، ثم ترك ظعائنه منكبّات عليه يبكينه، وعاد الى المدينة فأخبر الرسول الخبر . وهدأت بنو لِحْيـان من هذيل بعد موت زعيمها زمنا ثم فكّرت تحتال لتثأر له .

يـوم الرجيـع (سنة ٦٢٥ م)

فى هذا الحين وفد رهط من قبيلة تُجاورهم الى محمد يقولون له : إن فينا إسلامًا، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يعلّموننا شرائعه ويُقرئوننا القرآن . وكان محمد يبعث

(١) نغر الجرح : سال منه الدم .

الرثاء . وازداد محمد تفكيرا فى أمر المسلمين وخشى إن تكرّرت مثل هذه الأمور أن تستخفّ العرب بشأنهم . ولا شيء أقتل لهيبتك من استخفاف غيرك بشأنك . وإنه لفى تفكيره إذ قدم عليه أبو بَرَاء عامر بن مالك مُلاعِب الأسنّة ؛ فعرض محمد عليه أن يُسلم فلم يقبل، ولكنه لم يظهر للإسلام عداوة، بل قال : يا محمد، لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعَوْهم الى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك . فخاف محمد على أصحابه أهلَ نجد وخشى أن يغدِروا بهم كما غدرت هذيل بخُبيب وأصحابه. ولم يقتنع ولم يجب طلب أبى براء، حتى قال : أنا لهم جار، فابعثهم فليَدْعوا الى أمرك . وكان أبو بَرَاء رجلا مسموع الكلمة فى قومه لا يخَاف من أجاره عاديةَ أحد عليه . وبعث محمد المُنْذِرَ بن عمرو أخا بنى ساعدة فى أربعين رجلا من خيار المسلمين فساروا حتى نزلوا بئر مَعُونَةَ بين أرض بنى عامر وحَرّة بنى سُلَيْم . ومن هنالك بعثوا حَرام بن مِلْحان الى عامر بن الطُّفَيْل بكتاب محمد . فلم ينظر عامر فى الكتاب بل قتل الرجل واستصرخ بنى عامر كى يقتلوا المسلمين . فلما أبوا أن يخفِروا ذمّة أبى براء وجِواره استصرخ عامر قبائل أُخرى أجابته وخرجت معه حتى أحاطوا بالمسلمين فى رحالهم . فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم وقاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم لم ينجُ منهم إلا كعب بن زيد ؛ إذ تركه ابن الطُّفيل وبه رمق، فعاش ولحِق بالمدينة، وإلا عمرو بن أُميّة الذى أعتقه عامر بن الطفيل عن رقبة زعم أنها كانت على أُمّه . ولقى عمرو رجلين فى الطريق حين عودته بعد انطلاقه، فحسبهما من القوم الذين عَدَوْا على أصحابه فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وتابع مسيره حتى بلغ المدينة، فأخبر الرسول عليه السلام بما صنع ؛ فاذا الرجلان عامريّان من قوم أبى بَراء، واذا معهما عقد جوار من رسول الله ٱقتضاه أن يؤدّى دِيَتهما .

يوم بئر معونة (سنة ٦٢٥ م)

وَجد محمد لقتلى بئر مَعُونة أشدّ الوجد، وحزن من أجلهم أعمق الحزن، وقال : هذا عمل أبى بَراء، لقد كنت لهذا كارها متخوِّفا . وشقّ على أبى بَراء إخفار عامر ابن الطُّفَيْل إياه، حتى لقد ذهب ٱبنه ربيعة فطعن عامرًا بالرمح ٱنتقاماً منه لأبيه . وبلغ من حزن محمد أنه ظلّ شهرا كاملا يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم لهم

لاستكثرت من الصلاة . ورفعوه الى خشبة ؛ فلما أوثقوه اليها نظر اليهم بعين مُغْضَبة وصاح : اللهم أحْصِهم عددا ، واقتلهم بَدَدًا ، ولا تغادر منهم أحدا . فأخذت القومَ الرجفةُ من صيحته ، واستلقوا الى جُنوبهم حَذَرَ أن تصيبهم لعنتُه ثم قتلوه . وكذلك استُشهد خُبَيْب كما استشهد زيد فى سبيل بارئه وفى سبيل دينه ونبيه .
وكذلك ارتفع الى السماء هذان الروحان الطاهران وكان فى استطاعة صاحبيهما أن يستنقذاهما من القتل إذا رضيا الرّدة عن دينهما ؛ لكنهما فى يقينهما بالله و بالروح و بيوم البعث ، يوم تُجْزَى كل نفس بما كسبت ، ولا تَزِر وازِرةٌ وِزْرَ أخرى ، رأيا الموت ، وهو غاية كل حىّ ، خيرَ ما يكون غايةً للحياة فى سبيل العقيدة وفى سبيل الإيمان بالحق ؛ ولكنهما آمنا بأن دمهما الزكىّ الطهور الذى أُريق على أرض مكة سيدعو اليها إخوتهم المسلمين يدخلونها فاتحين يحطِّمون أصنامها ، و يطهّرونها من رِجْس الوثنّية والشِّرك ، ويردّون فيها الى الكعبة بيت الله ما يجب لبيت الله من تقديس وتنزه عن أن يذكر فيه اسم غير اسم الله .

لا يقف المستشرقون من هذا الحادث وقوفهم عند أسيرى بدر اللذين قتل المسلمون ، ولا يحاولون أن يستنكروا هذا الغدر برجلين بريئين لم يؤخذا فى حرب ، وإنما أُخذا خِداعا ، وسارا بأمر الرسول ليعلِّما من غدروا بهما ومن أسلموهما الى قريش بعد أن قتلوا زملاءهم غيلة وبغيا . وهم لا يستنكرون ما صنعت قريش بالرجلين الأعزلين ، مع أن ما صنعته بهما شرّ مثل للجبن وللعدوان الدنىء . ولقد كانت أُولى مبادئ الإنصاف تقتضى المستشرقين الذين أنكروا ما فعل المسلمون بأسيرَىْ بدر أن يكونوا أشدّ استنكارا لغدر قريش وغدر الذين أسلموا اليها الرجلين لتقتلهما بعد أن قتلوا أربعة الرجال الذين جاءوا و إيّاهم إجابة لطلبهم ليدلّوهم على الحق و يفقِّهوهم فى الدين .

حزن المسلمون وحزن محمد لما أصاب أصحابهم الستة الذين استُشهدوا فى سبيل الله بغدر هُذَيل بهم ، وأرسل حسّان بن ثابت أشعاره يرثى فيها خُبَيْبا و زيدا أحرّ

من المدينة عرفوا منه أن محمدا دخلها وأنه قصد توًّا الى المسجد فيها، فذهبوا إليه. فلما ذكرلهم ما رابه من أمر اليهود ومن اعتزامهم الغدر به وتنبهوا الى ما كانوا رأوا، آمنوا بنفاذ بصيرة الرسول وما أُوحى اليه. وبعث النبيّ يدعو اليه محمد بن مسلمة وقال له: «اذهب الى يهود بنى النَّضير وقل لهم: إن رسول الله أرسلنى اليكم أن اخرجوا من بلادى. لقد نقضتم العهد الذى جعلتُ لكم بما هممتم به من الغدر بى. لقد أجّلتُكم عشرا، فمن رُئى بعد ذلك ضُربت عنقُه». وأَبلستْ[1] بنو النَّضير فلم يجدوا لهذا الكلام دَفْعا، ولم يُحيروا عنه جوابا إلّا أن قالوا لابن مسلمة: يا محمد ما كنا نرى أن يأتى بهذا رجلٌ من الأوس. وذلك إشارة الى تحالفهم وإيّاهم من قبلُ فى حرب الخزرج. فكان كلّ ما أجاب به ابن مسلمة: تغيّرت القلوب.

إنفاذه الى بنى النضير بالجلاء

ومكث القوم على ذلك أياما يتجهّزون. وإنهم لكذلك اذ جاءهم رسولان من عند عبد الله بن أُبَىّ يقولان: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا فى حصونكم، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يُوصل اليكم. وتشاورت بنو النضير فى مقالة ابن أُبَىّ وهم أشدّ ما يكونون حيرة. فمنهم من لم يكن له بابن أُبَىّ أية ثقة. ألم يَعِدْ بنى قَيْنُقاع من قبلُ مثل ما يعد بنى النَّضير اليوم، فلما جدّ الجدّ تخلّى عنهم وولّى مدبرا! وهم يعلمون أن بنى قُرَيْظة لا ينصرونهم لما بينهم وبين محمد من عهد. ثم إنهم إن جلوا عن ديارهم إلى خَيْبَر أو إلى محلة قريبة، استطاعوا أن يعودوا حين يثمر نخيلهم الى يثرب، يجنون تمره ويعودون أدراجهم فلا يكونون قد خسروا كثيرا. قال كبيرهم حُيَىّ بن أَخْطَب: كلا! بل أنا مرسل الى محمد: إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا، فليصنع ما بدا له. وما علينا إلا أن نَرُمَّ حصوننا نُدخل اليها ما شئنا وندرِّب أزقّتنا وننقل الحجارة اليها، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة، وماؤنا لا ينقطع ولن يحصرنا محمد سنة كاملة. وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم.

ابن أبىّ يحرض اليهود

(١) أبلست: يئست وتحيرت.

من قَتَلَتهم . وتأثّر المسلمون جميعا لهذه الكارثة التى أصابت إخوانهم فى الدين وإن آمنوا بأنهم جميعا استشهدوا وبأنهم جميعا لهم الجنة .

يهود المدينة ومنافقوها

ووجد أهل المدينة من المنافقين واليهود فيما أصاب المسلمين بالرَّجيع وبئرمعونة ما أعاد إلى ذا كرتهم انتصار قريش بأُحُد، وما أنساهم نصر المسلمين على بنى أسد، وما أضعف فى نفوسهم من هيبة محمد وأصحابه . وفكّر النبيّ عليه السلام فى هذه الحالة تفكير سياسى دقيق النظر بعيد مرامى الرأى . فليس شىء أشدّ على المسلمين يومئذ خطرا من أن تضعُف فى نفوس مُساكنيهم بالمدينة هيبتهم . وليس ما يُطمع قبائل العرب فيهم أكثر من أن تشعر بهذا الانقسام الداخلى يوشك أن يُثير حربا أهليّة إذا غزا المدينة غاز من جيرانها . ثم إنه رأى اليهود والمنافقين كأنهم يتربّصون به الدوائر . فقدّر أن لا شىء خير من أن يستدرجهم لتتّضح نيّاتُهم . ولما كان اليهود من بنى النَّضير حلفاء لبنى عامر، فقد ذهب إلى مَحَلّتهم على مقربة من قُباء فى عشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعلىّ، وطلب إليهم معاونتهم فى دية القتيلين اللذين قتل عمرو بن أُمَيّة خطأ ومن غير أن يعلم أن محمدا أجارهما .

ائتمار اليهود بمحمد

فلما ذكر لهم ما جاء فيه أظهروا الغبطة والبشر وحسن الاستعداد لإجابته . لكنه ما لبث أثناء تبسّطِ بعضهم معه أن رأى سائرهم يتآمرون ويذهب أحدهم إلى ناحية، ويبدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف، ويدخل أحدهم (عمرو بن جِحاش بن كعب) البيت الذى كان محمد مستندا إلى جداره . إذ ذاك رابه أمرهم، وزاده رِيبة ما كان يبلغه من حديثهم عنه وائتمارهم به . لذلك ما لبث أن انسحب من مكانه تاركًا أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض أمره . أمّا اليهود فقد اختلط عليهم الأمر ولم يعودوا يعرفون ما يقولون لأصحاب محمد ولا ما يصنعون بهم . فإن هم غدروا بهم فمحمد لا ريب منتقم منهم شرّ انتقام . وإن هم تركوهم فلعل ائتمارهم بحياة محمد وأصحابه لا يكون قد افتضح فيظلّ ما بينهم وبين المسلمين من عهد قائما . وحاولوا أن يُقنعوا ضيوفهم المسلمين بما يُزيل ما قد يكون رابهم من غير أن يُشيروا إلى شىء منه . لكن أصحاب محمد استبطئوه، فقاموا فى طلبه فلقوا رجلا مقبلا

عوامل الفتنة، ومن دعوة المنافقين إلى أن يرفعوا رءوسهم كلما أصاب المسلمين شرّ، ومن التهديد بالحرب الأهلية إذا غزا المسلمين غاز من الأعداء . وفى جلاء بنى النضير نزلت سورة الحشر وفيها : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (١) . وتجرى السورة بعد ذلك بذكر الإيمان وسلطانه ؛ الايمان بالله وحده لا تعرف النفس الإنسانية التى تعرف قيمتها وكرامتها لغيره سلطانا : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) .

كاتب سر النبى

كان كاتب سرّ النبىّ الى حين إجلاء بنى النضير عن المدينة من اليهود، ليتسنّى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية والسريانيّة ما يريده . فلما جلا اليهود خاف النبىّ أن يستعمل فى أسراره غير مسلم، فأمر فتعلّم زيد بن ثابت من شبّان المدينة المسلمين اللغتين المذكورتين ، وأصبح كاتبَ سرّ النبىّ فى كل شؤونه . وزيد بن ثابت هذا هو الذى جمع القرآن فى خلافة أبى بكر، وهو الذى عاد فراقب الجمع حين اختلفت القراءات فى خلافة عثمان، فوضع مصحف عثمان وأُحرقت سائر المصاحف.

اطمأنت المدينة بعد إجلاء بنى النضير عنها، فلم يعد المسلمون يخشون المنافقين فيها . واغتبط المهاجرون بما أصابوا من أرض اليهود ؛ واغتبط الأنصار باستغناء المهاجرين عن معونتهم ؛ وتنفّس الكلّ الصّعداء، وكانت فترة سكينة وهدوء وطمأنينة استراح اليها المهاجرون والأنصار جميعا . وظلّوا كذلك حتى اذا آستدار العام منذ

(١) سورة الحشر الآيات من ١١ الى ١٣ (٢) سورة الحشر الآيات من ٢٢ الى ٢٤

حصار بنى النضير

فأخذ المسلمون السلاح وساروا اليهم فقاتلوهم عشرين ليـلة كانوا أثناءها اذا ظهروا على الدّرب أو الدار تأخر اليهود الى الدار التى من بعدها بعد تخريبهم إيّاها . ثم أمر محمد أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود وأن يحرّقوه حتى لا تبقى اليهود فى شـدة تعلّقها بأموالهـا تحمّس للقتال وتقـدم عليه . وجزع اليهـود ونادوا : يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها ! . وفى ذلك نزل قوله تعـالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَـةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَـةً على أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيُخْزِىَ الفَاسِقِينَ ﴾ (١) . وعبثا انتظر اليهود نصر ابن أُبَىّ أو تقدّم أحد من العرب لنجدتهم، حتى لم تبق لديهم ريبـة فى سوء مصيرهم إذا هم أصرّوا على متابعة القتال . فلما ملأ اليأس قلوبهم رعبا، سألوا محمدا أن يؤمّنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة . فصالحهم محمد على أن يخرجوا منهـا، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ، ليس لهم غيره . واحتمل اليهود وعلى رأسهم حُيَىّ بن أخْطَب، فنزل خَيْبَر منهم من نزل، وسار آخرون الى أَذْرِعات بالشام ، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثـيرة من غلال وسـلاح بلغ خمسين درعا وثلاثمـائة وأربعين سيفا، ثم كان ما خلّت اليهـودُ من الأرض التى كانوا يملكون خيرما غنم المسـلمون . على أن هـذه الأرض لم تعتـبر أسلاب حرب، ولذلك لم تُقَسّم بين المسلمين، بل كانت لرسول الله خاصّة يضعها حيث يشاء . وقد قسمها على المهاجرين الأوّلين دون الأنصار بعد أن استبقى قسما خصصت غَلّته للفقراء والمساكين . وبذلك أصبح المهـاجرون فى غنى عن معونة الأنصار وأصبح لهم مثل ثروتهم . ولم يشترك فى القسمة من الأنصار إلا أبو دُجَانة وسهل بن حُنَيْف فقـد ذكرا فقراً فأعطاهما محمد كما أعطى المهاجرين . ولم يسلَم من يهود بنى النَّضِير غير رجلين، أَسْلَما على أموالها فأحرزاها .

جلاء اليهـود عن المدينـة

ليس من العسيرأن يقدّر الانسان قيمة نصر المسلمين وإجلاء بنى النَّضير عن المدينة بعد الذى قدّمنا من تقدير الرسـول عليه السلام لمـا كان يخلقه بقاؤهم من تشجيع

(١) سورة الحشر، آية ٥

رِضْوَانَ اللهِ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيم . إِنَّمَا ذٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(١) .

وكذلك محت غزوة بدر الآخرة أثر أُحُد محوا تامًّا، ولم يبق لقريش إلا أن تنتظر عاما آخر رازحة تحت عار من جبنها لا يقل وطأة عن عار هزيمتها فى بدر الأولى .

غزوة ذات الرقاع

وأقام محمد بالمدينة مستريحا إلى نصر الله إيّاه، مطمئنا الى ما عاد للمسلمين من هيبتهم، حَذِرا دائما غدرة العدوّ، باثًّا عيونه فى كل النواحى . وإنه لكذلك إذ اتّصل به أن جماعة من غَطَفان بنجد يجمعون له يريدون حربه . وكانت خطّته أن يأخذ عدوّه على غِرّة قبل أن يُعِدّ العدّة لدفعه . لذلك خرج فى أربعمائة من رجاله حتى نزل ذات الرِّقاع حيث اجتمع بنو مُحارِب وبنو ثَعْلبة من غَطَفان . فلما رأوه طلع عليهم فى عُدّة حربه مهاجمًا مساكنهم تفرّقوا تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم . واحتمل المسلمون ما استطاعوا وعادوا أدراجَهم الى المدينة . على أنهم خافوا رجعة العدوّ عليهم فتناوبوا الحراسة ليل نهار، وجعل محمد يصلِّى بهم أثناء ذلك كله صلاة الخوف ؛ فكان جماعة منهم يظلّون مستقبلين العدوّ مخافة لحاقه بهم فى حين يصلّى الآخرون مع محمد لله ركعتين . ولم يبد للعدوّ أثر، وعاد النبىّ وأصحابه الى المدينة بعد غيابهم خمسة عشر يوما عنها وهم بظفرهم جِدُّ فرحين .

غزوة دومة الجندل

وخرج النبى بعد قليل من ذلك الى غزوة أخرى هى غزوة دُوْمَة الجَنْدَل . ودومة الجندل واحة على حدود ما بين الحجاز والشام، تقع فى منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس . ولم يقابل محمد القبائل التى أراد مقاتلتها هناك والتى كانت تُغير على القوافل ، لأنها ما لبثت حين سمعت باسمه أن أخذها الفزع وولّت مُدْبِرة، وتركت للمسلمين ما احتملوا من غنائم . وأنت ترى من هذا التحديد الجغرافى لدومة الجندل مبلغ ما اتسع نفوذ محمد وأصحابه وما بلغ اليه سلطانهم وخوف شبه الجزيرة إيّاهم ، كما ترى كيف كان المسلمون يحتملون المتاعب فى غزواتهم

(١) سورة آل عمران الآيات من ١٦٨ الى ١٧٥

أُحُد ذكر محمد عليه السلام قولة أبي سفيان : «يومٌ بيوم بدرٍ والموعدُ العام المقبل» ودعوته محمدا للقائه ببدر مرّة أخرى . وكان العام عام جدب ، وكان أبو سفيان يودّ لو يُؤَجّل اللقاء الى عام آخر . فبعث نُعَيْمًا الى المدينة يقول للسلمين : إن قريشا جمعت جيشا لا قِبَل لجيش فى العرب بمواجهتـه لتحاربهم به حتى تقضى عليهم قضاء لا يعتبر ما تم بأُحد إلى جانبه شيئا . وبدا للمسلمين أن يجتنبوا الخطرَ ، فأظهر الكثيرون الرغبة عن النهوض والسير لبدر . لكن محمدا غضِب لهذا الضعف والتراجع ، وصاح بهم مقسِما أنه ذاهب الى بدر ولو ذهب وحده .

بدر الآخرة

لم يبق بعد هذه الغَضْبة العظيمة إلا أن يذوب كلّ تردّد ويزول كل خوف ، وأن يحمل المسلمون سلاحهم وأن يذهبوا الى بدر . واستعمل النبيّ على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سَلُول . ونزل المسلمون بدرًا ينتظرون قريشا مستعدّين لقتالها . وخرجت قريش مع أبي سفيان من مكة فى أكثر من ألفى رجل . لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع بعد مسيرة يومين ، فنادى فى الناس : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب وإن عامكم هذا جدب ، وإنى راجع فارجعوا . ورجع الناس . وأقام محمد فى جيش المسلمين ينتظرهم ثمانية أيام متتابعة اتّجر المسلمون ببدر فيها فربحت تجارتهم ثم عادوا الى المدينة مستبشرين بفضل من الله ونعمة . وفى بدر الآخرة هذه نزل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا

الفصل السابع عشر
أزواج النبى

زينب بنت خزيمة وأم سلمة — قصة زينب بنت جحش وكلام المستشرقين فيها
وقائعها كما يرويها التاريخ الصحيح

صيحة المستشرقين فى مسألة زينب بنت جحش

فى الفترة التى وقعت فيها حوادث الفصلين السابقين، تزوج محمد زينب بنت خُزَيْمة، ثم تزوج أمَّ سَلَمة بنت أبى أُمَيَّة بن المُغِيرة، ثم تزوج زينب بنت جَحْش بعد أن طلّقها زيد بن حارثة. وزيد هذا هو الذى تبنّاه محمد وأعتقه منذ اشتراه يَسار لخديجة. هاهنا يصيح المستشرقون ويصيح المبشّرون: أُنظروا! لقد انقلب محمد الذى كان بمكة داعية قناعة وزهد وتوحيد ورغبة عن شهوات هذه الحياة الدنيا، رجلَ شهوة يُسيل منظر المرأة لُعابه، ولا يكفيه ثلاث نسوة فى بيته، بل يتزوج أولئك الثلاث اللائى ذكرنا، ويتزوج من بعدهن ثلاثا أُخْريات غير رَيْحانة. وهو لا يكفيه أن يتزوّج ممن لا بُعُولة لهن، بل هو يُشْغَف حبًّا بزينب بنت جحش وهى تحت زيد بن حارثة مولاه، لغير شىء إلا أنه مرّ ببيت زيد وهو غائب فاستقبلته زينب، وكانت فى ثياب تُبدى محاسنها، فوقع منها فى قلبه شىء لجمالها، فقال: سبحان مقلّب القلوب! ثم كرّر هذه العبارة ساعة انصرافه. فسمعتها زينب ورأت فى عينيه وهج الحب، فأُعجبت بنفسها وأبلغت زيدا ما سمعت. فذهب من فوره الى النبىّ يذكر له استعداده لتسريحها؛ فقال له: أَمْسِكْ عليك زوجك واتّق الله. لكن زينب لم تحسن من بعدُ عشرتَه فطلّقها. وأمسك محمد عن زواجها وقلبه فى شغل بها حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1]. إذ ذاك

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧

مستهينين بالقيظ والجَدْب وقلّة الماء، مستهينين بالموت نفسه، يحرّكهم الى هذا النصر والظفر شيء واحد هو سبب قوتهم المعنوية : الإيمان بالله وحده لا شريك له .

آن لمحمد من بعد ذلك أن يطمئن بالمدينة عدّة أشهر متتابعة، ينتظر فيها موعد قريش لعامه القادم — سنة خمس من الهجرة — ويقوم، بأمر ربه، بإتمام التنظيم الاجتماعي للجماعة الإسلامية الناشئة تنظيما كان يتناول عدّة ألوف يومئذ ليتناول الملايين ومئات الملايين من بعد ذلك، ويقوم بإتمام هذا التنظيم الاجتماعي في دقة وحسن سياسة، يوحي اليه ربه منه ما يوحي، ويُقرّ هو ما يتّفق مع أمر الوحي وتعاليمه، ويضع من تفاصيل ذلك ما كان موضع التقديس من أصحابه يومئذ، وما ظلّ من بعد ذلك قائما على الأجيال والدهور، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

مخالف للقانون . مع ذلك لم يخضع موسى لقانون ولم يطعن ذلك فى نبوته ولا فى رسالته، ولم يطعن فى عظمته . وشأن عيسى فى مخالفة القانون أكبر من شأن موسى ومن شأن محمد ومن شأن الأنبياء والمرسلين جميعا ؛ فليس يقف أمره عند بسطة فى القوّة أو الرغبة، بل خرج بمولده وبحياته على قوانين الطبيعة وسننها جميعا . تمثّل لأمّه مريم روح الرحمن بشرا سويًّا، ليهب لها غلاما زكيّا، فعجبت وقالت : أنّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيًّا ! . قال الرسول : إن الله يريد أن يجعله آيةً للناس . فلما جاءها المخاض قالت : ياليتنى متُّ قبل هذا وكنت نسيا منسيّا . فناداها من تحتها أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريًّا . وأتت به قومها تحمله ، فقالوا : لقد جئت شيئا فريًّا . فحدّثهم عيسى فى مهده قال : إنى عبد الله الى آخر ما قال . ومهما يكن من إنكار اليهود لهذا كله، ومن نسبتهم عيسى الى يوسف النجّار نسبةً ما يزال بعض العلماء من أمثال رينان يأخذون اليوم بها، فقد كانت عظمة عيسى ونبوّته ورسالته دليل معجزة الله فيه وخرقه لنواميس الكون وسُنن الطبيعة وقوانين الخلق من أجله . فمن عجبٍ أن يدعو المسيحيون المبشرون الى الإيمان بهذا الخروج على سنّة الكون فى أمر عيسى، وأن يأخذوا محمدا بما هو دونه ، وما لا يزيد على أنه سموٌّ عن الخضوع لقانون المجتمع يُسمح به لكل عظيم، ويُسمح به للملوك ورؤساء الدول الذين تقدسهم الدساتير وتجعل ذواتهم مصونة لا تمسّ .

فساد تصوير المستشرقين

كان فى مقدورنا أن نجبه هذه الأقوال جميعا بهذا الرد، وكان فيه من غير شك ما يُسقط حجة المبشرين ومن ينهجون نهجهم من المستشرقين . لكنا فى هذا كنا نجنى على التاريخ ونجنى على عظمة محمد وجلال رسالته . فهو لم يكن، كما صوره هؤلاء وأولئك، رجلا يأخذ بعقله الهوى . وهو لم يتزوّج من تزوّج من نسائه بدافع من شهوة أو غرام . وإذا كان بعض الكتّاب المسلمين فى بعض العصور قد أباحوا لأنفسهم أن يقولوا هذا القول، وأن يُقدِّموا لخصوم الإسلام عن حسن نية هذه الحجة، فذلك لأنهم انحدر بهم التقليد الى المادية، فأرادوا أن يصوِّروا محمدا عظيما

تزوّجها فأطفأ بزواجها لاذع حبّه ومتوهّج غرامه . فأىّ نبىّ هذا ! وكيف يبيح لنفسه ما يحرّمه على غيره ! وكيف لا يخضع للقانون الذى يقول إن الله أنزله عليه ! وكيف يخلق هذا « الحريم » الذى يثير فى النفس ذكر الملوك المترَفين بدل أن يثير فيها ذكر الأنبياء الصالحين المصلحين ! ثم كيف يبلغ منه الخضوعُ لسلطان الحبّ فى شأن زينب حتى يصل بمولاه زيد إلى تطليقها ثم يتزوّجها من بعده، وكان ذلك محرّما فى الجاهلية فأباحه نبىّ المسلمين إرضاء لهواه، وإستجابة لداعى حبّه .

بنت جحش كما يصورها المستشرقون

ويُطلق المبشّرون والمستشرقون لخيالهم العنان حين يتحدّثون من تاريخ محمد فى هذا الموضوع ، حتى ليصوِّر بعضهم زينب ساعة رآها النبىّ وهى نصف عارية أو تكاد ، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يكنّه من كلّ معانى الهوى، وليذكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب وكانت ممدّدة على فراشها فى ثياب نومها ، فعصف منظرُها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها، فكتم ما فى نفسه وإن لم يُطِق الصبر على ذلك طويلا ! ! وأمثال هذه الصور التى أبدعها الخيال كثير تراه فى مُوير وفى دِرْمِنْجِمْ وفى واشِنْطُنْ إرْفِنْجْ وفى لَامَنْس وغيرهم من المستشرقين والمبشرين . ومما يدعو الى أشدّ الأسف أن هؤلاء جميعا اعتمدوا فى روايتهم على ما ورد فى بعض كتب السيرة والكثير من الحديث، ثم أقاموا على ما صوّروا قصورا من الخيال فى شأن محمد وصلته بالمرأة، وآستدلّوا على ذلك بكثرة أزواجه حتى بلغن تسعا فى القول الراجح، وحتى بلغن أكثر من ذلك فى بعض الروايات .

العظماء لا يخضعون للقانون

كان فى مقدورنا أن نَجْبَهَ هذه الأقوال جميعا بقولنا : فلتكن صحيحة، فماذا فيها مما يطعن على عظمة محمد أو على نبوّته ورسالته ؟ ! إنّ القوانين التى تجرى على الناس لا سلطان لها على العظماء، فأولى أن لا يكون لها سلطان على المرسلين والأنبياء . ألم ير موسى عليه السلام خلافا بين رجلين هذا من شيعته وهذا من عدوّه ، فوكز الذى من عدوّه فقضى عليه ! وهذا قَتْلٌ محرّم فى غير حرب ولا شبه حرب، وهذا

لايمنع مانع من ناحيتها ولا من ناحيته أن تحمل وأن تلد، وبين امرأة كملت لها أنوثتها فتخطّت الثلاثين أو تخطّت الأربعين وكان لها ولد من قبل . فكيف تفسّر هذه الظاهرة العجيبة من ظاهرات حياة النبيّ؛ هذه الظاهرة التى لا تخضع للقوانين الطبيعية فى تسع نسوة جميعا ! . هذا وقد كانت نفس محمد، باعتبار أنه إنسان، تميل من غير ريب إلى أن يكون له ولد، وإن كان مقام النبوّة والرسالة قد جعله من الناحية الروحية أبًا للمسلمين جميعا .

ثم إن التاريخ ومنطق حوادثه أصدق شاهد يكذّب رواية المبشرين والمستشرقين فى شأن تعدّد زواج النبيّ . فهو، كما قدّمنا، لم يُشرك مع خديجة أحدا مدى ثمان وعشرين سنة . فلما قبضها الله اليه تزوّج سَوْدة بنت زَمْعة أرملة السكران بن عمرو ابن عبد شمس . ولم يروِ راوٍ أن سودة كانت من الجمال أو من الثروة أو من المكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثرا فى زواجه منها . انما كانت سودة زوجا لرجل من السابقين إلى الإسلام الذين احتملوا فى سبيله الأذى والذين هاجروا إلى الحبشة بعد أن أمرهم النبي بالهجرة عَبْرَ البحر اليها . وقد أسلمت سودة وهاجرت معه، وعانت من المشاقّ ما عانى، ولقيت من الأذى ما لقى . فاذا تزوّجها محمد بعد ذلك ليعولها وليرتفع بمكانتها إلى أمومة المؤمنين، فذلك أمر يستحق من أجله أسمى التقدير وأجلّ الحمد . زواج سودة بنت زمعة

أمّا عائشة وحفصة فكانتا ابنتى وزيريه أبى بكروعمر . وهذا الاعتبار هو الذى دعا محمدا أن يرتبط وإيّاهما برابطة المصاهرة بالتزوج من ابنتيهما، كما دعاه أن يرتبط بعثمان وبعليّ برابطة المصاهرة بتزويجه ابنتيه منهما . وإذا صح القول فى عائشة وفى حبّه إياها، فانما ذلك حبٌّ نشأ بعد الزواج لا حينه . فهو قد خطبها إلى أبيها وما تزال فى التاسعة من عمرها، وقد بقيت سنتين قبل أن يبنى بها . فليس مما يرضاه المنطق أن يكون قد أحبّها وهى فى هذه السنّ الصغيرة . يؤيد ذلك زواجه من حفصة بنت عمر فى غير حبّ بشهادة أبيها نفسه . قال عمر: «والله إنْ كنا فى الجاهليّة

فى كل شىء ، عظيما حتى فى شهوات الدنيا . وهذا تصور خاطئ يُنكره تاريخ محمد أشد إنكار، وتأبى حياته كلها أن تُقِرّه .

الى الخمسين لم يتزوج غير خديجة

فهو قد تزوج خديجة وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، وهو فى شرخ الصِّبا وريعان الفتوة وَوسامَة الطلعة و جمال القَسِمات وكمال الرجولية . مع ذلك ظلّت خديجة وحدها زوجه ثمانيا وعشرين سنة حتى تخطّى الخمسين . هذا على حين كان تعدّد الزوجات أمرا شائعا بين العرب فى ذلك العهد ، وعلى حين كان لمحمد مندوحة فى التزوج على خديجة ، أن لم يعش له منها ذكر، فى وقت كانت تُوأد فيه البنات، وكان الذكور وحدهم هم الذين يعتبرون خلفا . وقد ظلّ محمد مع خديجة سبع عشرة سنة قبل بعثه وإحدى عشرة سنة بعده وهو لا يفكر قط فى أن يشرك معها غيرها فى فراشه . ولم يعرف عنه فى حياة خديجة ، ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تُغريهم مَفَاتن النساء فى وقت لم يكن فيه على النساء حجاب، بل كانت النساء تتبرّج فيه ويُبدين من زينتهن ما حرّم الإسلام من بعدُ . فمن غير الطبيعى أن تراه وقد تخطّى الخمسين ينقلب بفجأة هذا الانقلاب الذى يجعله ما يكاد يرى بنت جحش، وعنده نساء خمس غيرها من بينهن عائشة التى أحبّ وظلّ يحب طَوال حياته ، حتى يُفْتَن بها وحتى تستغرق تفكيره ليلَه ونهارَه . ومن غير الطبيعى أن تراه، وقد تخطى الخمسين ، يجمع فى خمس سنوات أكثر من سبع زوجات ، وفى سبع سنوات تسع زوجات ، وذلك كله بدافع من الرغبة فى النساء ، رغبة صورها بعض كتاب المسلمين، وحذا الإفرنج حذوهم، تصويرا لا يليق فى ضعته برجل مادّى ، بله عظيم استطاعت رسالته أن تنقل العالم وأن تغيّر مجرى التاريخ، وما تزال على استعداد لأن تنقل العالم مرّة أخرى وتغيّر مجرى التاريخ طورا جديدا.

خديجة وحدها التى أعقبت

وإذا كان هذا عجيبا وكان غير طبيعى، فمن العجيب كذلك أن نرى محمدا تلد له خديجة ما ولدت من بنيه وبناته إلى ما قبل الخمسين، وأن نرى مارِيّة تلد له إبراهيم وهو فى الستين ، وألّا تلد غير هاتين من نسائه ، وكلهن بين شابّة فى مقتبل العمر

أن أمّ سلمة كانت ذات جمال هو الذى دعا محمدا إلى التزوّج منها ! إن يكن ذلك فقد كانت غيرها من بنات المهاجرين والأنصار من تفوقها جمالًا وشبابا وثروة ونضرة ومن لا يبهظه عبء عيالها . لكنه إنما تزوّج منها لهذا الاعتبار السامى الذى دعاه ليتزوّج زينب بنت خُزَيْمة، والذى زاد المسلمين به تعلّقا وجعلهم يرون فيه نبىّ الله ورسوله، ويرون فيه إلى جانب ذلك أبًا لهم جميعا : أبًا لكل مسكين ومحروم وضعيف وبائس وعاجز؛ أبًا لكل من فقد أباه شهيدا فى سبيل الله .

التمحيص التاريخى وما يستنبط

ماذا يستنبط التمحيص التاريخىّ النزيه مما تقدم؟ يستنبط أن محمدا نصح بالزوجة الواحدة فى الحياة العاديّة . هو قد دعا إلى ذلك بمثله الذى ضربه فى حياة خديجة، وبه نزل القرآن فى قوله تعالى : ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (١) . ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ (٢) . ولقد نزلت هذه الآيات فى أخريات السنة الثامنة للهجرة بعد أن كان قد بنى بأزواجه جميعا، ونزلت لتحدِّد عدد الزوجات بأربع وقد كان إلى حين نزولها لا حدّ له، مما يسقط قول القائلين : بأنّ محمدا أباح لنفسه ما حرّم على الناس . ثم نزلت لتُشيد بفضل الزوجة الواحدة وتأمر بها لمجرّد الخوف من عدم العدل، ومع التأكيد بأن العدل غير مستطاع . على أنه رأى فى ظروف حياة الجماعة الاستثنائية إمكان الحاجة للتعدّد إلى أربع على شرط العدل . وهو قد دعا إلى ذلك بمثله الذى ضرب أيّام غزوات المسلمين واستشهاد من استُشهد منهم . ولعمرك هل تستطيع أن تقطع بأن الاقتصار على الزوجة الواحدة حين تحصد الحروب أو الأوبئة أو الثورات ألوف الرجال وملايينها، خير من هذا التعدّد الذى أُبيح على طريق الاستثناء؟ وهل يستطيع أهلُ أوربا فى هذا العصر الذى عَقَب الحرب الكبرى أن يقولوا بأن نظام الزوجة الواحدة نظام نافذ بالفعل، إن استطاعوا أن يقولوا إنه نافذ بالقانون ؟ أوَلا يعود

(١) سورة النساء آية ٣ (٢) سورة النساء آية ١٢٩

ما نَعُدّ للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسَم لهن ما قسم . قال : فبينما أنا فى أمر آتمِره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ! فقلت لها : ومالك أنت ولما هاهنا وما تكلُّفك فى أمر أُريده ! . فقالت لى : عجبًا لك يابن الخطاب ! ما تريد أن تُرَاجَع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظلَّ يومه غضبان ! قال عمر : فآخُذُ ردائى ثم أخرجُ مكانى حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : يا بنيّة إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظلّ يومه غضبان ! . فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنّى أُحَذِّرك عقوبةَ الله وغضب رسوله . يا بنيّة لا يغرنّك هذه التى قد أعجبها حسنُها وحبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إيّاها ... وقال : والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبّك ولو لا أنا لطلّقك» .

أفرأيت اذًا أن محمدا لم يتزوّج من عائشة ولم يتزوّج من حفصة لحب أو لرغبة ، وانما تزوّج منهما ليمتّن أواصر هذه الجماعة الإسلامية الناشئة فى شخصى وزيريه ، كما تزوّج من سَوْدة ليعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استُشْهِدوا فى سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوة وذريّة ضعافا يخافون عليهم عَيْلة .

يقطع فى ذلك زواجه من زينب بنت خُزَيمة ومن أمّ سَلَمة . فقد كانت زينب زوجا لعُبَيدة بن الحارث بن المطلب الذى استُشهد يوم بدر ، ولم تكن ذات جمال ، وإنما عُرِفت بطيبتها وإحسانها حتى لقّبت أمّ المساكين ، وكانت قد تخطّت الشباب ، فلم تك إلا سنةً أو سنتين ثم قبضها الله ؛ فكانت بعد خديجة الوحيدة من أزواج النبيّ التى توفّيت قبله . أمّا أمّ سَلَمَة فكانت زوجًا لأبى سَلَمة وكان لها منه أبناء عدّة . وقد سبق القول : إن أبا سلمة جُرِح فى أحد ثم برَأَ جرحه ، فعقد له النبيّ لحرب بنى أسد فشتّتهم وعاد إلى المدينة بما غنم ، ثم نَغَر عليه جرح أُحد وما زال به حتى قضى عليه . وقد حضره النبيّ وهو على فراش موته ، وظلّ إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات فأسبل عينيه . وبعد أربعة أشهر من وفاته خطب محمد أمّ سلمة إلى نفسها ، فاعتذرت بكثرة العيال وبأنها تخطّت الشباب ، فما زال بها حتى تزوّج منها وحتى أخذ نفسه بالعناية بتنشئة أبنائها . أبعد ذلك يزعم المبشرون والمستشرقون

وهذه الصّلة بين زينب ومحمد، وهذا التصوير الذى صوّرناها به، لا يدَعان بعدهما لتلك القصة الخيالية التى يروون أىّ أساس من الحق أو أىّ حظّ فى البقاء .

خطبته إياها على زيد وإباؤها

وما ذا يثبت التاريخ أيضا ؟ يثبت أن محمدا خطب ابنة عمّته زينب على مولاه زيد، فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشيّة هاشميّة، وهى فوق ذلك ابنة عمة الرسول، وأن تكون تحت عبد رِقٍّ اشترته خديجة ثم أعتقه محمد، ورأى فى ذلك على زينب عارا كبيرا . وكان ذلك عارا حقا عند العرب كبيرا . فلم تكن بنات الأشراف الشريفات ليتزوّجن من موال وإن أُعتقوا . لكن محمدا يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة فى النفوس على العصبيّة وحدها، وأن يدرك الناس جميعا أن لا فضل لعربىّ على أعجمىّ إلا بالتقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]. وهو لا يرى أن يستكره لذلك امرأة من غير أهله . فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هى التى تحتمل هذا الخروج على تقاليد العرب، وهذا الهدم لعاداتها، مضحيّة فى ذلك بما يقول الناس عنها مما تخشى سماعه . وليكن زيد مولاه الذى تبنّى والذى أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه سواء، هو الذى يتزوّجها، فيكون مستعدّا للتضحية التى أعدّ الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتّخذوا أبناء. وليُبدِ محمد إصراره على أن تقبل زينب ويقبل أخوها عبد الله بن جحش زيدا زوجا لها؛ ولينزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾[2] .

اضطرارها واضطرار أخيها للرضا

لم يبق أمام عبد الله وأُخته زينب بعد نزول هذه الآية إلا الإذعان . فقالا : رضينا يا رسول الله . وبنى زيد بزينب بعد أن ساق النبىّ اليها عنه مهرها . فلما سارت زينب الى زوجها لم يسلس له قيادها ولا لان إباؤها، بل جعلت تؤذى زيدا وتفخر عليه بنسبها وبأنها لم يجر عليها رقّ . واشتكى زيد الى النبى غير مرّة

(١) سورة الحجرات آية ١٣ (٢) سورة الأحزاب آية ٣٦

سبب الاضطراب الاقتصادىّ والاجتماعى الذى عقَب الحـرب إلى عدم التعاون المشروع بين الجنسين بالزواج تعاوناً قد كان من شأنه أن يعيد الى الحال الاقتصادية شيئا غير قليل من التوازن؟ إنى لا أُريد أن أقطع بالحكم ، لكنى أترك الأمر لتفكير المفكر وتدبُّر المتدبر، مع القول دائما بأنه متى عادت الحياة العادية نخيرُ ما يكفل سعادة الأُسرة وسعادة الأمة اقتصار الرجل على زوجة واحدة .

قصة زينب بنت جحش

أمّا قصة زينب بنت جحش ، وما أضـفى بعض الرواة وأضـفى المستشرقون والمبشرون عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووَلَهٍ، فالتاريخ الصحيح يحكم بأنها من مفاخر محمد، وأنه، وهو المثـل الكامل للإيمان ، قد طبّق فيها حديثه الذى معناه : لا يكمُلُ إيمان المرء حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه؛ وقد جعل نفسه أوّل من يضرب المثل لـما يضع من تشريع يمحو به تقاليد الجاهلية وعاداتها، ويُقرّ به النظام الجديد الذى أنزل الله هـدى ورحمة للعالمين . ويكفى لهدم كل القصة التى

قرابة محمد من زينب

قرأت عنها من أساسها أن زينب بنت جحش هذه هى ابنة أُمَيمة بنت عبد المطّلب عمة رسول الله عليه السلام ، وأنها رُبِّيت بعينه وعنايته ، وأنهـا كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأُخت الصغرى ، وأنه كانـ يعرفها ويعرف أهى ذات مَفَاتن أم ليست كذلك قبـل أن تتزوّج زيدا ، وأنه شهدها فى نموّها تحبو من الطفولة الى الصِّبا الى الشباب ، وأنه هو الذى خطبها على زيد مولاه . إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيـالات والأقاصيص من أنه مرّ ببيت زيدٍ ولم يكن فيـه ، فرأى زينب فبهره حسنُهـا وقال : سبحان مقلّب القلوب ! أو أنه لـمّا فتح باب زيد عبِث الهـواء بالستار الذى على غرفة زينب فألفاها فى قميصها ممددة وكأنها « مدام رِكَامْييه » فانقلب قلبـه بجأة، ونسى سَوْدة وعائشـة وحفصة وزينب بنت مخزوم وأمّ سَلَمة، ونسى كذلك ذكر خديجة التى كانت عائشة تقول: إنها لم تجـد فى نفسها غيرة من أحد من نسـاء النبىّ ما وجدت من ذكره خديجة . ولو أنّ شيئا من حبها عِلق بقلبه لخطبها الى أهلها على نفسه بدل أن يخطبها على زيد.

والآن ما رأى المستشرقين فى قصة بنت جحش

هـذه رواية التاريخ الصحيح فى أمر زينب بنت جحش وزواج محمد منها . فهى ابنة عمّته ، وكان يراها ويعرف مبلغ جمالها قبل أن تتزوّج زيدا ، وهو الذى خطبها على زيد . وهو كان يراها بعـد أن تزوّجت زيدا أن لم يكن الحجاب معروفا يومئذ . على أنه كان من شأنها ، بحكم صلة القرابة من ناحية ، وأنها زوج دعيّه زيد من ناحيـة أخرى ، أن تتصل به لمصالحها ولتكرار شكوى زيد منها . وقـد نزلت هـذه الأحكام جميعا فأيّدها ما حصل من زواج زيد لزينب وتطليقه إيّاها وزواج محمد منها بعد ذلك . هذه الأحكام التى ترفع المعتَق إلى مكانة الحر الشريف ، والتى تُبطل حقوق الأدعياء وتقضى عليها بصورة عملية لا محل للبس ولا لتأويل بعدها . أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التى يكثّرها المستشرقون والمبشرون ويردّدها مْوِير وإِرْفِنْج وسبِرِنْجَز وڤيْل ودِرْمِنْجِم ولامَنْس وغيرهم ممن تناولوا كتابة حياة محمد ! ألَا إنها شهوة التبشير المكشوف تارة ، والتبشير باسم العلم أخرى ، والخصومة القديمة للإسلام خصومة تأصلت فى النفوس منذ الحروب الصَليبيّة ، هى التى تملى على هؤلاء جميعا ما يكتبون ، وتجعلهم فى أمر أزواج النبيّ ، وفى أمر زواجه من زينب بنت جحش ، يتجنّون على التاريخ ويلتمسون أضعف الرواية فيه ممـا دُسّ عليه ونُسِب اليه .

ولو أنّ ما ذكروا كان صحيحا ، لكان فى مقدورنا أن نَجْبَهه بأن العظمة لا تخضع لقانون ، وبأن موسى وعيسى ويونس من قبلُ ، قد سَمَوْا فوق نواميس الطبيعة وسُنن الاجتماع ، بعضهم بمولده وبعضهم فى حياته ، فلم يطعن ذلك فى عظمتهم . لكن محمدا كان يضع سنن الاجتماع الصالحة بوحى ربّه وكان ينفّذها بأمر ربّه ، وكان بذلك المثل الأسمى ، والأُسوة الحسنة ، فى تنفيذ ما أمر ربّه . أفكان أولئك المبشرون يريدونه على أن يطلّق أزواجه فلا يزيد على الأربع كما شرع للمسلمين من بعد زواجه إياهنّ جميعا ؟ وهل كانوا يومئذ يعفُونه من نقدهم ؟ ! على أن معاملة محمد لأزواجه معاملة بلغت من السموّ ما رأيت شيئا منه فى حديث عمر بن الخطاب الذى سقنا وفيما سنذكر خلال فصول هذا الكتاب ، ستكون المثل الناطق على أنه لم يحترم المرأة أحد ما احترمها محمد ، ولم يسمُ بها الى المكان اللائق بها ما سما محمد .

سمو محمد بمكانة المرأة

شكوى زيد منها وطلاقه إياها

من سوء معاملتها إيّاه، واستأذنه غير مرّةٍ فى تطليقها، فكان النبي يجيبه : « أَمسِكْ عليك زوجك واتّقِ الله » . لكن زيدا لم يطق معاشرة زينب وإباءها عليه طويلا فطلّقها .

وكان الشارع الحكيم قد أراد أن يُبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ومن إعطاء الدعىّ جميع حقوق الابن، ومن إجرائهم عليه أحكامه حتى فى الميراث وحرمة النسب، وألّا يجعل للتبنّى واللصيق إلّا حق المولى والأخ فى الدين . فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ ﴾[1] . ومعنى هذا أنه يجوز للدّعى أن يتزوّج ممن كانت زوجًا لمن ادّعاه . ويجوز للتبنِّى أن يتزوّج ممن كانت زوجا لمتبنّاه . ولكن كيف السبيل الى تنفيذ هذا ! ومَنْ من العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السالفة جميعا ! إن محمدا نفسه، على قوة عزيمته وعميق إدراكه لحكمة الله فى أمره، قد وجد على نفسه الغضاضة فى تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس فى خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة فى نفوس العرب؛ وذلك ما يريده تعالى فى قوله : ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾[2] . لكن محمدا كان القدوة فى كلّ ما أمر الله به وما ألقى عليه أن يبلّغه للناس؛ فلا يخشَ ما يقول الناس فى ترؤجه من زوج زيد مولاه، فخشية الناس ليست شيئا إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره؛ وليتزوّج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقرّرة للتبنّى والادّعاء . وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[3] .

حكم الأدعياء فى الإسلام

كيف تزوج محمد من زينب

(١) سورة الأحزاب آية ٤
(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧
(٣) سورة الأحزاب آية ٣٧

لا حول له ولا قـوّة إلا ما يملأ نفسه الكبيرة من الإيمان، وها هوذا فى خمس سنوات قد أصبح له من الحـول ومن القوّة ما جعله مرهوب الجانب من أشدّ مدائن العرب ومن أشد قبائلها حولاً وقوّة .

شـدّة خصـومة اليهـود

ولقد كان اليهـود أبصر خصوم محمد بتعاليمه و بمصـير دعوته، وكانوا أكثرهم تقديرا لمـا يصيبهم بانتصاره . فهم كانوا فى بلاد العرب دعاة التوحيـد ، وكانوا ينافسون المسيحيين فى سـلطانهم و يأملون مغالبتهم والتغلّب عليهم . ولعلهم كانوا على حقٍّ أن كانت النفس الساميّة أميل بطبعها إلى فكرة التوحيد على حين كان التثليث المسيحىّ ممـا لا يسهل على هذه النفس الساميّة مساغه . وهذا محمد من صميم العرب ومن صميم الساميّين يدعو إلى التوحيـد بعبارات قويّة نفّاذة تأخذ بمجامع الفؤاد ، وتصل إلى أعماق القلب ، وتسمو بالإنسان إلى ما فوق نفسه . وها هو ذا قد بلغ من القوّة حتى أخرج بنى قينُقاع من المدينة وحتى أجلى بنى النَّضِـير عن ديارهم . فهل يتركونه وشأنه منصرفين إلى الشام و إلى وطنهم الأوّل بيت المقدس فى أرض المَعَاد، أم تراهم يحاولون تأليب العرب عليه ليأخذوا بالثأر منه ؟!

رسـل اليهود الى قريش

كانت فكرة تأليب العرب هى الفكرة التى اختمرت فى نفوس أكابر بنى النضير. وتنفيذا لهـا خرج نفر منهم من بينهم حُيَىّ بن أخْطَب وسَلَّام بن أبى الحُقَيْق وكنانة ابن أبى الحُقيق، ومعهم من بنى وائل هَوْذَة بن قَيْس وأبو عَمَّـار، حتى قدِموا على قريش مكة . فسأل أهلهـا حُيَيًّا عن قومه . فقـال : تركتهم بين خَيْبَر والمدينـة يتردّدون حتى تأتوهم فتسيروا معهم الى محمد وأصحـابه . وسألوه عن قُرَيْظة فقال : أقاموا بالمدينـة مكرًا بمحمد، حتى تأتوهم فيميلوا معـكم . وتردّدت قريش أتُقْـدِم أم تُحْجِم، فليس بينها و بين محمد خلافٌ إلا على الدعوة التى يدعو إلى الله . أليس من الممكن أن يكون على حقّ ما دامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسموًّا ! . وقالت قريش لليهود : يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأوّل وأصحاب العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفدينُنا خير أم دينه؟ قالت اليهود : بل دينُكم خير من دينه،

اليهود يفضلون الوثنية على الإسلام

الفصل الثامن عشر
غزوتا الخنـــدق وبنى قُرَيْظَـــة

حى بن أخطب وتأليبه العرب جميعا على المسلمين — عشرة آلاف مقاتل يقصدون المدينة — سلمان الفارسى يشير بحفر الخندق حولها — حصار قريش وغطفان إياها — نقض بنى قريظة عهدهم مع المسلمين — ضياع الثقة بين العرب واليهود — انسحاب العرب عن المدينة — محاصرة بنى قريظة والقضاء عليهم بالقتل

آن للمسلمين بعـد إجلائهم بنى النَّضير عن المدينة ، وبعد بدر الآخرة ، وبعد غزوتى غَطَفَان ودُوْمة الجندل ، أن يركنوا الى شيء من الطمأنينة إلى الحياة بالمدينة. وذهبوا ينظّمون عيشهم ، وكان من بعدُ أقلَّ شظفا بما غنِموا فى غزواتهم هذه ، وإن كانت قد صرفتهم فى كثير عن الزرع والتجارة . وكان محمد على طمأنينته حَذِرًا دائما غدرة العدو ، باثًّا دائما عيونه وأرصاده فى أنحاء شبه الجزيرة ينقلون اليه من أخبار العرب وما يأتمرون به ما يمهد له دائما فرصة الأُهبة لدفاع المسلمين عن أنفسهم.

الغريزة العربيـة وحذر محمد

ويسيرٌ عليك أن تقدر ضرورة الحذر والحيطة بعـد كل الذى رأيت من غَدَرات قريش وغير قريش بالمسلمين ، ومن أن بلاد العـرب كلها كانت فى ذلك الحين ، وكانت من بعد ذلك فى أكثر أطوار تاريخها ، أشبه بمجموعة جمهوريات ، مستقلة كل واحدة منها عن سائرها ، تتّخذ كل واحدة منها نظاما هو أقرب ما يكون إلى نظام القبائل ، وتضطر لذلك إلى الاحتماء بعادات وتقاليد لا يألفها تصوّرنا فى الأمم المنظّمة. وكان محمد أشدّ ما يكون حذرًا أن كان عربيًّا يقدُر ما رُكِّب فى الغريزة العربيـة من الحرص على الثأر ؛ وقد كانت قريش وكان يهود بنى قَيْنُقاع ويهـود بنى النَّضـير وعرب غطفان وهُذَيْل والقبـائل المتاخمة للشام تتربّص كل واحدة منهـا بمحمد وبأصحابه الدوائر ، وتودّ كل واحدة منها لو تستطيع أن تجد الفرصة لإدراك ثأرها من هـذا الرجل الذى فرّق العرب فى دينهـا شيعا ، والذى خرج من مكة مهاجرا

لعثمان بن طلحة الذى قُتل أبوه وهو يحمل لواء قريش فى أُحُد . وخرجت بنو فزارة وعلى رأسها عُيَيْنة بن حصن بن حُذَيفة فى رجال كثيرين وألف بعير . أما أشجع ومُرَّة فجاء كلٌّ منهما فى أربعمائة محارب، يتزعَّم الحارثُ بن عوف مُرَّة، ويتزعَّم مِسْعَر ابن رُخَيْلة أشْجع، وجاءت سُلَيْم أصحاب بئر مَعُونة فى سبعمائة رجل، واجتمع هؤلاء وانحاز اليهم بنو سعد وأسد، فصاروا فى عشرة آلاف رجل أو نحوها، وساروا جميعا تحت إمرة أبى سُفْيان قاصدين المدينة . فلمّا بلغوها تداول زعماء هذه القبائل الزعامة أثناء الحرب كلَّ يوما على التوالى .

فزع المسلمين

واتّصل نبأ هذا السير بمحمد والمسلمين معه فى المدينة ففزعوا . ها هى ذى العرب كلها قد أجمعت أمرها لَتَسْحَقَنّهم ولتقضينّ عليهم ولَتَسْتأصِلنّهم، وها هى ذى قد جاءت فى عُدّة وعديد مالها فى حروب العرب جميعا من قبل مثل . واذا كانت قريش قد انتصرت فى أُحُد عليهم لما خرجوا من المدينة وكانت أقلّ من هذه الأحزاب عددا أضعافا ، فماذا عسى أن يصنع المسلمون لمقابلة الألوف المؤلّفة من رجال وخيل وإبل وأسلحة وذخيرة ؟ ! لم يكن سبيل الى غير التحصن بيثرب العذراء، على ما وصفها عبد الله بن أُبَىّ . ولكن ! أيكفى هذا التحصن أمام تلك القوة الساحقة ؟ وكان سَلْمان الفارسىّ يعرف من أساليب الحرب ما لم يكن معروفا فى بلاد العرب . فأشار بحفر الخَنْدَق حول المدينة وتحصين داخلها . وسارع المسلمون الى تنفيذ نصيحته، حُفِر الخندق وعمل فيه النبىّ عليه السلام بيديه، فكان يرفع التراب ويشجّع المسلمين بذلك أعظم التشجيع، ويدعوهم الى مضاعفة الجهد . وأخذ المسلمون آلات الحفر من مَسَاحٍ وكرازين ومَكَاتِل[1] من بنى قُرَيْظَة اليهود الذين بقُوا على ولائهم . وبهذا الدأب والجهد المتّصل تمّ حفر الخندق فى ستة أيام . وفى هذه الأثناء كذلك حصِّنت جدران المنازل التى تواجه مأتَى العدو والتى بينها وبين الخندق نحو فرسخين . وعند ذلك

حفر الخندق حول المدينة

(١) المساحى : جمع مسحاة وهى المجرفة التى يسحى بها الطين أى يجرف . والكرازين الفؤوس، واحدها كرزن وكرزين . والمكاتل : جمع مكتل، وهو الزبيل (المقطف) الذى يحمل فيه التراب وغيره .

وأنتم أولى بالحق منه . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ والطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾(١) . وفى موقف اليهود هذا من قريش وتفضيلهم وثنيّتهم على توحيد محمد يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون فى كتابه تاريخ اليهود فى بلاد العرب : «كان من واجب هؤلاء اليهود ألّا يتورّطوا فى مثل هـذا الخطأ الفاحش وألّا يصرّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامىّ ولو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم؛ لأنّ بنى إسرائيل الذين كانوا مدّة قرون حاملى راية التوحيد فى العـالم بين الأمم الوثنيـة باسم الآباء الأقدمين، والذين نُكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتّى من الأدوار التاريخية، كان من واجبهم أن يضحّوا بحياتهـم وكل عزيز لديهم فى سـبيل أن يخـذلوا المشركين . هـذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنمـا كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة» .

رأى يهودى فى ذلك

اليهود يؤلبون سائر العرب

لم يكْفِ حُيَيَّ بن أخطب واليهودَ الذين معه هذا الذى قالوا لقريش فى تفضيل وثنيّتها على توحيد محمد حتى تنشط لمحاربته، وأن يأخذوا وإيّاهم لذلك بعـد أشهر موعدا . بل خرج أولئك اليهود الى غَطَفان من قيس عيلان، ومن بنى مرة، ومن بنى فزارة، ومن أشجع، ومن سُلَيْم، ومن بنى سعد، ومن أسد، ومن كل من لهم عند المسلمين ثأر، وما زالوا بهم يحرّضونهم على الأخذ بثأرهم ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب محمد، ويحمَدون لهم وثنيّتهم ويَعِدونهم النصر لامحالة . وخرجت الأحزاب التى جمع اليهود لحرب محمد وأصحابه . خرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان فى أربعة آلاف مجنّد وثلاثمائة جواد وخمسمائة وألف ممتط بعيره، وعقد اللواء فى دار النَّدْوة

(١) سورة النساء، آيتا ٥١ و ٥٢

تمدّ أهل يثرب بالمؤونة إمدادا يطيل أمد مقاومتهم شهورا وشهورا . أفليس خيرا للأحزاب أن يعودوا أدراجهم ؟ ! نعم ! لكن جمع هؤلاء الأحزاب لحرب محمد مرّة أخرى ليس بالأمر الميسور . وقد استطاع اليهود، وحييّ بن أخطب على رأسهم، أن يجمعوها هذه المرة للانتقام لأنفسهم من محمد وأصحابه عما أوقع بهم وبنى قينقاع من قبلهم . فإن أفلتت الفرصة فهيهات هيهات أن تعود . وإن انتصر محمد بانسحاب الأحزاب فالويل ثم الويل لليهود .

خوف حييّ من انسحاب الأحزاب

قدّر حُيَيّ بن أخطب هذا كله، وخاف مغبّته، ورأى أن لا مفرّ من أن يقامر بآخر سهم عنده . فأوحى إلى الأحزاب أنه مقنع بنى قُريظة بنقض عهد موادعتهم محمدا والمسلمين وبالانضمام إليهم، وأن قريظة متى فعلت انقطع المدد والميرة عن محمد من ناحية، وفتح الطريق لدخول يثرب من الناحية الأخرى . وسُرّت قريش وغطفان بما ذكر حييّ . وسارع هو فذهب يريد كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظة . وقد أغلق كعب دونه باب حصنه أول ما عرف مَقْدَمه عليه، مقدّرا أن غدر قريظة بمحمد ونقضها عهده وانضمامها إلى عدوّه قد يفيدها ويفيد اليهود إذا دارت الدوائر على المسلمين، لكنه جدير بأن يمحوها محوًا إذا هزمت الأحزاب وانصرفت قوّاتها عن المدينة . غير أن حُيَيًّا ما زال به حتى فتح له باب الحصن ثم قال له : « ويحك يا كعب ! جئتك بعزّ الدهر وبحر طام . جئتك بقريش وبغَطَفان مع قادتها وسادتها، وقد عاهدونى وعاقدونى على ألّا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه » . وتردّد كعب وذكر وفاء محمد وصدقه لعهده، وخشى مغبّة ما يدعوه حُيَيّ إليه . لكن حييًّا ما زال به يذكر له ما أصاب اليهود من محمد وما يوشك أن يصيبهم منه إذا لم تنجح الأحزاب فى القضاء عليه، ويصف له قوّة الأحزاب وعُدّتها وعددها، وأنها لم يمنعها غير الخندق أن تقضى فى سويعةٍ على المسلمين جميعا، حتى لانَ كعب له، فسأله : وماذا يكون إذا ارتدّت الأحزاب ؟ هنالك أعطاه حُيَيّ موثقاً إن رجعت قريش وغطَفان ولم يصيبوا محمدا أن يدخل معه فى حصنه فيشركه

محاولاته كسب قريظة

أُخليت المساكن التى ظلّت فيا وراء الخندق ، وجىء بالنساء والأطفال الى هذه المنازل التى حصِّنت، ووضعت الأحجار الى جانب الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحا يُرْمَى به عند الحاجة اليه .

دهش قريش للخندق ومواقع عسكرها أمامه

وأقبلت قريش وأحزابها ، وهى ترجو أن تلق محمدا بأُحُد فلم تجد عنده أحدا، فجاوزته الى المدينة حتى فاجأها الخندق ، فعجبت أن لم تكن تتوقّع هذا النوع من الدفاع المجهول لها . وبلغ منها الغيظ حتى زعمت الاحتماء وراءه جبناً لا عهد للعرب به . وعسكرت قريش ومن تابعها بمجتمع الأسيال من رُومَة ، وعسكرت غَطَفان ومن تبعها من أهل نجد بذَنَب نَقَمَى . أمّا محمد فخرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فجعل ظهره الى سهل سَلْع وجعل الخندق بينه وبين أعدائه، وهناك ضرب عسكره ونُصبت له خيمته الحمراء . ورأت قريش والعرب معها أن لا سبيلَ الى اجتياز الخندق فاكتفت بتبادل الترامى بالنبال عدّة أيام متتابعة .

تردد العرب فى البقاء والشتاء قارس

وأيقن أبو سفيان والذين معه أنهم مقيمون أمام يثرب وخندقها طويلا دون أن يستطيعوا اقتحامها . وكان الوقت آنئذ شتاءً قارساً برده ، عاصفة رياحه ، يخشى فى كل وقت مطره . وإذا كان من اليسير أن يحتمى أهل مكة وأهل غطفان من ذلك كله بمنازلهم فى مكة وفى غطفان ، فالخيام التى ضربوا أمام يثرب لا تحميهم منه فتيلا . وهم بعدُ قد جاءوا يرتجون نصرا ميسورا لا يكلِّفهم غير يوم كيوم أُحُد، ثم يعودون أدراجهم يتغنّوْن بأناشيد الفوز ويستمتعون باقتسام الغنائم والأسلاب . وماذا عسى أن يُمسك غطفان عن أن تعود أدراجَها وهى إنما اشتركت فى هذه الحرب لأن اليهود وعدتها متى تم النصر ثمارَ سنة كاملة من ثمار مزارع خَيْبَر وحدائقها، وها هى ذى ترى النصر غير ميسور، أو هو على الأقل غير محقق، وهو يحتاج من المشقة فى هذا الفصل القارس إلى ما يُنسيها الثمار والحدائق ! . فأمّا انتقام قريش لنفسها من بدر ومما لحقها بعد بدر من هزائم، فأمره مدرك على الأيام مادام هذا الخندق يحول دون إمساك محمد بالتلابيب ، وما دامت بنو قُرَيظة

يَأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾(١) .

ولأهل يثرب أبلغ العذر إن هم بلغ منهم الفزع وزُلزلت قلوبهم . ولمن قال منهم العذر فى أن يقول : كان محمد يَعِدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وللذين زاغت أبصارهم العذر فى أن تزيغ . وللذين بلغت قلوبهم الحناجر العذر فى أن تبلغها . أليس هو الموت الذى يرون آتياً تقدح بالشرر عينه، مصوّرة فى بريق هذه السيوف تلمع فى أيدى قريش وفى أيدى غطفان، وتدبّ الى القلب مخافته متسللة من منازل بنى قريظة الغَدَرة الخائنين! ألَا ويلٌ لليهود ! ماكان أجدر محمدا بأن يقضى على بنى النضير وأن يستأصلهم بدل أن يذرهم يرتحلون موفورين، وأن يذر حُيَيًّا والذين معه يؤلّبون العرب على المسلمين ليستأصلوهم . ألا إنها الطامّة الكبرى والفزع الأكبر، ولاحول ولا قوة إلا بالله ! .

الذين اقتحموا الخندق

وسمت روح الأحزاب المعنوية حتى دفعت بعض فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد وُدّ وعكرمة بن أبى جهل، وضِرار بن الخطاب، أن يقتحموا الخندق، فتيمّموا مكانا منه ضيّقا فضربوا خيلهم فاجتازته فجالت بهم فى السَّبْخة بين الخندق وسَلْع . وخرج علىّ بن أبى طالب فى نفر من المسلمين فأخذوا عليهم الثُّغرة التى اقتحمت منها خيلهم ، وتقدّم عمرو بن عبد وُدّ ينادى : مَنْ يبارز ؟ ولما دعاه ابن أبى طالب إلى النزال قال فى صَلَف: لِمَ يابن أخى! فوالله ما أُحبّ أن أقتلك. قال علىّ : لكنّى أُحب والله أن أقتلك . فتنازلا فقتله علىّ، وفرّت خيل الأحزاب منهزمة، حتى اقتحمت الخندق من جديد مولّية الأدبار لا تلوى على شىء. وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له بعد ما غربت الشمس يريد أن يجتاز الخندق، فهوَى هو والفرس فيه فصُرعا وتحطّما . وأرسل أبو سفيان يعرِض دية

(١) سورة الأحزاب الآيات من ١٠ الى ١٣

قريظة تنقض عهدها

فى حظه . وتحرّكت فى نفس كعب يهوديّته فقبِل ما طلب حُيَيّ، ونقض عهده مع محمد والمسلمين وخرج من حياده .

رسل محمد الى قريظة

واتّصل نبأ انضمام قريظة إلى الأحزاب بمحمد وأصحابه، فاهتزّوا له وخافوا مغبّته . وبعث محمد سعد بن مُعاذ سيّد الأوس وسعد بن عُبادة سيّد الخزرج ومعهما عبد الله ابن رَوَاحة وخوّات بن جُبَيْر ليقفوا على جليّة الأمر، على أن يلحَنوا به عند عودتهم إن كان حقّا حتى لا يَفُتُّوا فى أعضاد الناس . فلما أتى هؤلاء الرسل ألفَوْا قُريظة على أخبث ما بلغهم عنهم . فلما حاولوا ردّهم إلى عهدهم طلب كعب إليهم أن يردّوا إخوانهم يهود بنى النَّضير إلى ديارهم . وأراد سعد بن مُعاذ، وكان حليف قريظة، أن يُقنعها مخافة أن يحلّ بها ما حلّ ببنى النضير أو ما هو شرّ منه ؛ فانطلقت اليهود ووقعوا فى محمد عليه السلام، وقال كعب : مَنْ رسول الله ! ! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . وكاد الفريقان يتشاتمان .

نفسية الأحزاب تقوى

رجع رسل محمد اليه بما رأوا . هنالك عظم البلاء واشتد الخوف ورأى أهل المدينة طريق قُريظَة وقد فُتح للأحزاب فدخلوا عليهم واستأصلوهم . ولم يكن ذلك محض خيال ووهم ؛ فهم قد رأوا قريظة تقطع المدد والميرة عنهم، ورأوا قُريشا وغَطَفان، منذ عاد حُيَيّ بن أَخْطَب ينبئهم بانضمام قريظة اليهم، قد تغيّرت نفسيتهم وأخذوا يُعِدّون أنفسهم للقتال . وذلك أن قريظة استمهلت الأحزاب عشرة أيام تُعِدّ فيها عُدّتها على أن تقاتل الأحزاب المسلمين فى هذه الأيام العشرة أشدّ القتال . وذلك ما فعلوا . فقد ألّفوا ثلاث كتائب لمحاربة النبيّ . فأتت كتيبة ابن الأعورَ السُّلَمىّ من فوق الوادى، وأتت كتيبة عُيَيْنَةَ بن حِصْن من الجنب، ونصب له

نزاع أهل يثرب

أبو سفيان من قِبل الخندق . وفى هذا الموقف نزلت هذه الآيات ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ

وأنهم عاملون على استرضائه وكسب مودّته بأن يقـدّموا له من أشراف قريش من يضرب أعناقهـم . ولذلك نصح لهم إن بعثت اليهـم اليهود يلتمسون رهائن من رجالهم ألّا يبعثوا منهم أحدا . وصنع نُعَيم مع غطفان ما صـنع مع قريش وحذّرهم مثل ما حذّرهم . ودبّت الشبهة من كلام نُعيم الى نفس قريش وغطفان . فتشاور زعماؤهم ، فأرسـل أبو سفيان إلى كعب سـيّد بنى قريظة يقول له : قـد يا كعب طالت إقامتنا وحصارنا هذا الرجل، وقد رأيت أن تعمِدوا اليه فى الغداة ونحن من ورائكم . فعاد رسول أبى سفيان اليه بقول زعيم قريظة : إن غدًا السبت ، وإنا لا نستطيع القتال والعمل يوم السبت . فغضِب أبو سفيان وصدّق حديث نُعيم ، وأعاد الرسول يقول لقريظة : اجعلوا سبتا مكان هذا السبت، فانه لا بدّ من قتال محمد غدا ؛ ولئن خرجنا لقتاله ولستم معنا لَنبرأنّ من حِلْفكم ولنبدأنّ بكم قبل محمد. فلما سمعت قريظة كلام أبى سفيان كرت أنها لا نتعدّى السبت ، وقد غضب الله على قوم منهـم تعدّوه فجعلهم قِرَدة وخنازير . ثم أشاروا الى الرهائن حتى يطمئنوا لمصيرهم. فلما سمع أبو سفيان لم يبق لديه فى كلام نُعيم ريبة،وبات يفكر فى ماذا عساه يصنع . وتحدّث الى غَطَفان فاذا هى تتردّد فى الإقدام على قتال محمد، متأثرة بما كان قد بدأها به من وعدها ثلث ثمـار المدينة وعدًا لم يتمّ أن اعترضه سـعد بن معاذ وسادة المدينة من الأوس والخزرج ومن أصحاب مشورة رسول الله .

العاصفة تقتلع خيام الاحزاب

فلما كان الليل عصفت ريح شـديدة، وهطل المطر غزيرا، وقصف الرعد، ولمع البرق، واشتدّت العاصفة فاقتلعت خيام الأحزاب وكفأت قدورهم وأدخلت الرعب الى نفوسهم، وخيّل اليهم أن المسلمين انتهزوها فرصة ليعبُروا اليهم وليوقعوا فيهـم . فقـام طُلَيْحة بن خُوَيلد فنادى : إن محمدا قد بدأكم بشرٍّ فالنجاةَ النجاةَ . وقال أبو سـفيان : يامعشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام . لقد هلك الكُرَاع[1] والخُفّ وأخلفتنا بنو قريظة و بلغنا منهـم ما نكره ، ولقينا من شـدّة الريح

(١) الكراع : اسم جمع للخيل ، وقيل : الكراع الخيل والبغال والحمير . والخف : الجمل المسن ، والمراد هنا الإبل التى يرحلون عليها .

جثته مائةً من الإبل ، فرفض النبيّ عليه السلام وقال : خذوه فانه خبيث خبيث الدِّيَة .

استهانة قريظة بالمسلمين

وأعظمت الأحزاب نيرانها مبالغة فى تخويف المسلمين وإضعافا لروحهم ، وبدأ المتحمّسون من قُرَيْظَة ينزلون من حصونهم وآطامهم إلى منازل المدينة القريبة منهم ، يريدون إرهاب أهلها . كانت صفيّة بنت عبد المطلب فى فارعٍ حصن حسّان بن ثابت ، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان . فمرّ بهم يهودى ضليل يُطيف بالحصن . فقالت صفية مخاطبة حسان : إن هذا اليهودى يطيف ياحسّان بالحصن كما ترى ، وإنى والله ما آمنه أن يدلّ على عورتنا مَنْ وراءنا من اليهود ، ورسول الله وأصحابه قد شُغلوا عنا ، فانزل اليه فاقتله . قال حسّان : يغفر الله لك يآبنة عبد المطلب ! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . فأخذت صفيّة عمودا ونزلت من الحصن وضربت به اليهوديّ حتى قتلته . فلما رجعت قالت : يا حسّانُ ، اِنزل اليه فإسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل . قال حسان : مالى يابنة عبد المطّلب بسلَبه من حاجة !

وظلّ أهل المدينة فى فزعهم وزلزال قلوبهم ، على حين جعل محمد يفكر فى الوسيلة الى الخلاص . ولم تكن الوسيلة مواجهة العدوّ بطبيعة الحال . فلتكن الحيلة إذاً . فبعث إلى غطَفان يَعِدها ثلث ثمار المدينة إن هى ارتحلت . وكانت غطفان قد بدأت تملّ فأظهرت امتعاضا من طول هذا الحصار وما لقوا من العنت أثناءه لغير شىء إلا إجابة حُيَيّ بن أخطب واليهود الذين معه . ثم إن نُعيم بن مسعود ذهب بأمر الرسول إلى قريظة ، وكانت لا تعرف أنه أسلم ، وكان لها نديما فى الجاهلية ، فذكّرهم بما بينه وبينهم من مودّة ، ثم ذكر لهم أنهم ظاهروا قريشا وغطفان على محمد ، وقريشٌ وغطفان ربما لا تطيقان المقام طويلا فترتحلان فتُخليان ما بينهم وبين محمد فينكّل بهم ، ونصح لهم ألا يقاتلوا مع القوم حتى يأخذوا منهم رُهُنا يكونون بأيديهم حتى لا تتنحّى قريش وغَطَفان عنهم . واقتنعت قريظة بما قال . ثم إنه ذهب إلى قريش فأسرّ لهم أن قُريظة نِدموا على ما فعلوا من نكث عهد محمد ،

دسيسة نعيم بين الأحزاب وقريظة

نقمته! . قالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولا . وجعل المسلمون بقيّة نهارهم يتوافدون على بنى قريظة حتى اجتمع جمعهم عندها؛ فأمرهم محمد بحصارها .

استطالة زمن الحصار

ظلّ هذا الحصار خمسا وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا بعض تراشق بالنّبل والحجارة؛ ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام طول مدّة الحصار مرّة واحدة . فلما جُهِدوا وأيقنوا أن لن تغنى عنهم حصونهم من الهلاك شيئا، وأنهم لا بدّ أن يقعوا فى قبضة المسلمين وإن طال أمد الحصار، بعثوا الى الرسول أن ابعث الينا أبا لُبَابة لنستشيره فى أمرنا . وكان أبو لُبابة من الأوس حلفائهم . فلما رأوه قام اليه الرجال وأجهش النسوة والصبيان بالبكاء حتى رقّ لهم . فقالوا له : أترى يا أبا لُبَابة أن ننزل على حكم محمد؟ قال نعم — وأشار بيده الى حلقه — إنه الذبح إن لم تفعلوا . وقد ندم أبو لُبابة على إشارته هذه فيما روت السِّيَر . فلما انصرف أبو لبابة عنهم عرض كعب بن أسد أن يتابعوا محمدا على دينه وأن يُسلموا فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم . فرفض أصحاب كعب أن يسمعوا هذا الكلام منه وصاحوا به : لا نفارق حكم التوراة أبدًا ولا نستبدل به غيره . فعرَض عليهم أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم وأن يخرجوا الى محمد وأصحابه رجالا مُصْلِتين السيوفَ غير تاركين وراءهم ثَقَلًا حتى يحكم الله بينهم وبين محمد . فإن هلكوا لم يتركوا وراءهم نسلا يخشون عليه، وإن ظهروا اتخذوا النساء والأبناء . فرفضوا هذا العرض أيضا قائلين : نقتل هؤلاء المساكين ! فما خيرُ العيش بعدهم ! . قال لهم كعب : لم يبقَ إذًا إلا أن تنزلوا على حكم محمد وقد سمعتم ما أعدّ لكم . وتشاور القوم فيما بينهم وقال قائل منهم : إنهم لن يكونوا أسوأ من بنى النَّضير مصيرا، وإن أولياءهم من الأوس سيدفعون عنهم الشرّ؛ وإنهم إن عرضوا أن يرتحلوا الى أَذْرِعات بالشام لم يجد محمد بأسًا من قبول عرضهم .

استشارة أبى لبابة

وبعثت قريظة الى محمد تعرِض عليه الخروج الى أذرِعات تاركة وراءها ما تملك؛ فأبى ذلك عليها إلا أن تنزل على الحكم . فأرسلت الى الأوس تقول لهم : ألَا تأخذون

رحيل الأحزاب

ما ترون ، فارتحلوا فانى مرتحل . فاستخف القوم ما استطاعوا حمله من متاع وانطلقوا وما تزال الريح تعصف بهم . وفتروا وتبعتهم غطفان والأحزاب . وأصبح الصبح ولم يجد محمد منهم أحدا فانصرف راجعا الى المدينة والمسلمون معه ، يرفعون أكف الضراعة الى الله شكرًا أن كشف الضرّ عنهم وأن كفى المومنين شرّ القتال .

* * *

عاد محمد بعد رحيل الأحزاب يفكر فى موقفه . لقد أذهب الله عنه عدوّه الذى كان يهدّده . لكنّ اليهود قادرون على أن يعودوا لمثلها وأن يختاروا فصلا من السنة غير الشتاء القارس الذى كان من جند الله فى هزيمة عدوّه . ثم إن قريظة، لولا ارتحال الأحزاب ولولا ما وقع فى صفوفها من شقاق وانقسام ، كانت على أُهبة النزول الى المدينة والفتك بالمسلمين والمعاونة على استئصالهم . لا تقطعنّ إذًا ذنَبَ الأفعى وتتركها . ولا بدّ من القضاء على بنى قريظة بما فعلت . وأمر عليه السلام مُؤذِّنا فأذّن فى الناس : من كان سامعًا مطيعا فلا يصلّين العصر إلا ببنى قريظة ؛ وقدّم عَليًّا برايته اليها . ومع ما كان عليه المسلمون من نَصَبٍ بعد طول حصار قريش وغطفان إياهم، فقد خفّوا لهذا القتال الذى لم يكن لديهم أىّ شك فى نتيجته . صحيح أن بنى قريظة يقيمون فى حصون محصّنة كالتى كانت لبنى النَّضير، لكنّ هذه الحصون إن أغنتهم فى الدفاع عن أنفسهم فلن تغنيهم فى مهاجمة المسلمين . والمِيرة قد أصبحت فى متناول أيدى أهل المدينة بعد جلاء الأحزاب عنها . لذلك خفّ المسلمون فرحين وراء علىّ، حتى أتوا بنى قريظة، فاذا يهودها ومعهم حيىّ بن أخطب النَّضيرىّ يقعون فى محمد بأقبح مقالة، يكذّبونه و يطعنون عليه و ينالون من أعراض نسائه . وكأنما شعروا بعد انخذال الأحزاب عن المدينة بما هُيِّئ لهم . ولما جاء الرسول لقيه علىّ وطلب اليه ألّا يدنو من حصون اليهود . فسأله محمد : ولِمَ؟ أظنّك سمعت منهم لى أذًى ! قال نعم . قال رسول الله : لو رأونى لما قالوا من ذلك شيئا . فلما دنا من حصونهم ناداهم : يا إخوان القِرَدة! هل أخزاكم الله وأنزل بكم

غزو قريظة

فوهبه إيّاه ، ثم استوهبه ماله فوهبه إيّاه كذلك . فلما اطمأن الزبير إلى أهله وولده وماله سأل عن كعب بن أسد وعن حُيَىّ بن أخطب وعن عزّال بن سَمَوْءل وعن زعماء بنى قريظة، فلما علم أنهم قُتلوا قال : إنى أسألك يا ثابت بيدى عندك إلّا ألحقتنى بالقوم، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فَتْلَة دَلْوِ ناضِحٍ[1] حتى ألقى الأحبّة . وكذلك ضُربت عنقه بمشيئته . وكان المسلمون لا يقتلون فى غزواتهم النساء والذّرارى ؛ ولكنهم يومئذ قتلوا امرأة طرحت الرّحا على مسلم فقتلته . وكانت عائشة تقول : والله ما أنسى عجبًا منها طِيبَ نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تُقتل . وأسلم يومئذ من اليهود أربعة فنجَوْا من القتل .

دم بنى قريظة فى عنق حيىّ ابن أخطب

وفى رأينا أن دم بنى قُريظة معلّق فى عنق حُيَىّ بن أخطب وإن كان قد قُتل معهم . فهو قد حنِث فى العهد الذى عاهد قومه من بنى النضير حين أجلاهم محمد عن المدينة ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه أحدا . وهو بتأليبه قريشا وغطفان وتحزيبه العرب كلها لقتال محمد قد جسّم العداوة بين اليهود والمسلمين، وجعل هؤلاء يعتقدون أن بنى إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد وأصحابه . وهو الذى حمل بنى قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج من حيادها، ولو أنها بقيت عليه لما أصابها من الشرّ شىء . وهو الذى دخل حصن بنى قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم . ولو أنهم نزلوا على حكم محمد منذ اليوم الأوّل واعترفوا بخطئهم فى نقض عهدهم لما أَهدرت دماؤهم وضُربت أعناقهم . ولكن العداوة بلغت من التأصّل فى نفس حُيَىّ وانتقلت منه الى نفوس بنى قريظة حدًّا جعل سعد بن معاذ نفسه ، وهو حليفهم، يؤمن بأنهم إن أبقى على حياتهم لم تهدأ لهم نفس حتى يؤلّبوا الأحزاب من جديد، وحتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين، وحتى يقتلوهم عن آخرهم إن ظَفِروا بهم . فالحكم الذى أصدره على قسوته وشدّته إنما كان متأثّرا فيه بالدفاع عن النفس واعتباره بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين .

(١) أى مقدار هوىّ الدلو فى البئر .

لإخوانكم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم ! . فمشى جماعة من الأوس الى محمد فقالوا : يا نبيّ الله، ألا تقبل من حلفائنا مثل الذى قبلت من حلفاء الخزرج ؟ . قال محمد: يامعشر الأوس، ألَا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم ؟ . قالوا بلى .

تحكيم سعد بن معاذ

قال : فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا . فاختار اليهود سعد بن مُعاذ ، وكأنما أعماهم القدر عما كتب لهم فى لوح حظهم فأنساهم مَقْدَم سعد اليهم أوّل نقضهم عهدهم، وتحذيره إيّاهم ووقوعهم فى محمد أمامه، وسبهم المسلمين بغير حق. وأخذ سعد المواثيق على الفريقين أن يُسلم كلاهما لقضائه وأن يرضى به . فلما أعطوه المواثيق ، أمر

حكمه بقتل اليهود

بنى قريظة أن ينزلوا وأن يضعوا السلاح ففعلوا، فحكم سعد فيهم أن تُقْتَل المقاتِلة، وتقسم الأموال، وتُسْـبَى الذرّية والنساء . فلمـا سمع محمد هذا الحكم قال : والذى نفسى بيده لقد رضى بحكمك هذا الله والمؤمنون وبه أُمرت . ثم خرج إلى سـوق المدينة فأمر فحفرت بها خنادق ثم جىء باليهود أَرْسالا فضربت أعناقهم ، وفى هذه الخنادق دُفنوا . ولم يكن بنو قريظة يتوقّعون هذا الحكم من سعد بن معاذ حليفهم، بل كانوا يحسبونه يصنع بهم ما صنع عبد الله بن أُبَىّ مع بنى قينُقاع . ولعل سعدا ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيـانة بنى قريظة لمـا كان أمام المسلمين إلا أن يُسْتَأصلوا وأن يُقتلوا وأن يمثَّل بهم، فجزاهم بمثل ما عرّضوا المسلمين له .

جلد اليهود للقتل

وقد أظهر اليهود من الجَلَد أمام القتل ما تراه فى حديث حُيَىّ بن أخطب حين قُدِّم لتضرب عنقه؛ فقد نظر اليه النبىّ وقال: ألم يخزِك الله يا حُيَىّ ! فأجاب حُيَىّ : "كل نفس ذائقة الموت ولى أجل لا أعدوه، ولا ألوم نفسى على عداوتك. ثم التفت إلى الناس فقال : أيهـا الناس ، إنه لا بأس بأمر الله . كتابٌ وقدرٌ وملحمةٌ كتبها الله على بنى إسرائيل". ثم إن الزبير بن بَاطَا القُرَظىّ كان قد منّ على ثابت بن قيس فى يوم بُعَاث بأن خلّى سبيله بعد أسره، فأراد ثابت أن يجزيه، بعد حكم ابن معاذ على اليهود، عن يده عنده؛ فذكر لرسول الله مِنَّة الزبير عليه واستوهبه دمه، وأجاب رسول الله طَلِبته . فلما عرف الزبير ما فعل ثابت قال له : شيخٌ كبير مثلى لا أهل له ولا ولد ماذا يصنع بالحياة ! . فاستوهب ثابت رسـول الله دم امرأته وأولاده

الفصل التاسع عشر

من الغزوتين الى الحديبية

المرأة والرجل فى الإسلام — غزو بنى لحيان — قتل عيينة والأقرع — غزو بنى المصطلق — حديث الإفك

استتبّ الأمر لمحمد والمسلمين بعد غزوة الخندق و بعد القضاء على بنى قريظة استتبابا جعل العرب تخافهم أشدّ الخوف، وجعل الكثيرين من قريش يفكرون : أليس خيرا لقريش لو أنها هادنت محمدا وصافته وهو منها وهى منه، والمهاجرون معه بينهم كبراؤها وسادتها ! . واستراح المسلمون بعد الذى اطمأنّوا إليه من القضاء على اليهود بجوار المدينة قضاء لا تقوم لهم قائمة بعده . ومكثوا بالمدينة لذلك ستة أشهر يباشرون من تجارة الحياة ما يستمتعون معه بشىء من نعمة الحياة، و يزدادون برسالة محمد إيمانا ولتعاليمه امتثالا ، ويسيرون وإيّاه فى طريق تنظيم الجماعة العربيـة تنظيما لم يكن مألوفا عندها من قبل، ولكنه لم يكن منـه بدٌّ فى جماعة منظّمة ذات كيان ووحدة كالجماعة التى كانت تتكوّن تحت سلطان الإسلام رو يدًا رو يدًا . فقد كانت العرب فى الجاهليّة لا تعرف لها نظاما ثابتا إلا ما أقرّته عاداتها . ولم يكن لها فى أمر الأُسرة ونظامها والزواج وحدوده والطلاق وقيوده وصِلات الزوجين والأبناء إلاما تُمليه طبيعـة ذلك الجوّ الذى يغلو فى الإباحة تارة ، ليصل من الجمود والتقيّد إلى حدود الرق وعسفه تارة أخرى. فلينظِّمَ الإسلام الجماعة الإسلامية الناشئة التى لمّـا تتكوّن تقاليدها ، وليمهِّدها فى وقت قصير لتضع نواة حضارة تنتظم من بعد ذلك حضارة الفرس والروم والمصريين وتطبعها بطابَعها الإسـلامىّ الذى يتدرّج رويدا رويدا حتى يصل الى كماله يوم ينزل قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾(١) .

تنظيم الجماعة العربية

(١) سورة المائدة آية ٣

قسمة أموال بنى قريظـــة

وقسم النبىّ أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعـد أن أخرج منها الخمس . قسمها بأن كان للفارس سهمان ، ولفرسـه سهم ، وللراجل سهم . وكانت الخيل يوم قريظة ستة وثلاثين فرسا . ثم بعث سـعد بن زيد الأنصارىّ بطائفة من سبايا بنى قريظـة إلى نجد فابتاع بهـا خيلا وسلاحا زيادة فى قوة المسلمين الحربية .

وكانت رَيْحانة إحدى سبايا بنى قُريظة قد وقعت فى سهم محمد ، فعرض عليها الإسلام فأصرّت على يهوديّتها ، وعرَض عليهـا أن يتزوّجها فقـالت : بل تتركنى فى ملكك فهو أخفّ علىّ وعليـك . ولعل حرصهـا على اليهودية ورفضهـا الزواج يرجعان إلى عصبيّتها لقومها وما كان باقيا فى نفسها من كراهيـة للمسلمين ولنبيّهم . ولم يتحدّث أحد عن جمال ريحانة ماتحدّثوا عن جمال زينب بنت جحش ، وإن ذكر بعضهم أنها كانت جميـلة وسيمة . وقد اختلفت السِّيَر فيها : أُضرِب عليها الحجاب كما ضُرب على نساء النبىّ أم أنهـا ظلّت كسائر نساء العرب يومئذ لم يضرب عليها حجاب . وبقيت ريحانة فى ملكه حتى ماتت عنده .

وطّدت غزوة الأحزاب ووطّد القضـاء على بنى قريظة للسـلمين فى المدينـة فلم يبق للمنافقين فيهـا صوت قط . وذهبت العرب كلهـا تحـدّث بقوّة المسلمين وسـلطانهم و بمقام محمد وقوّته ورهبة جانبه . لكن الرسالة لم تكن للمدينـة وحدها بل كانت للعالم بأسره . فمـا يزال على النبىّ وأصحـابه إذًا أن يمهّدوا لكلمة الله وأن يدعوا الناس لدينه الحق ، وأن يصدّوا عنه كل معتد عليه . وهذا ما فعلوا .

قد هتكته الخصومة فجعلته سببا لملاحم القتال ووثبات النزال. واذا شبّت الخصومة فلكلّ أن يتقوّل ما شاء وأن يزعم ما يريد . وخيال العربىّ خِصْب ، بطبيعة عيشه تحت السماء ، وتجواله الدائم فى طلب الرزق ، واضطراره الى المغالاة والى الكذب أحيانا فى شؤون التجارة . والعربىّ مولع بالفراغ الذى يغريه بالغزل ويزيد خياله فى السِّلم والحرب خصبا . فاذا وقف زيد فى السِّلْم يحادث هندًا حديث هوًى لم يزد على شهىّ اللفظ تساقطه لآلى الثنايا العِذَاب ، رأيت زيدا حين الخصومة والحرب يرفع عقيرته بهند وقد لقيها أمامه متجرّدة يقول فى نحرها وصدرها ونهدها وخصرها وعجيزتها وما دون ذلك ما شاءت له أفانين الخصومة واهتياج الخيال الذى لا يعرف فى المرأة غير الأُنثى وغير ما تفرش من النمارق . ومع ماقضى الإسلام على هذه النفسيّة فقد بقى من آثارها ما تقرؤه فى مثل شعر عمر بن أبى ربيعة ، وما تأثّر به شعر الغزل فى العربية الى عصور كثيرة ، وما لا يزال له أثره ، ولو إلى حدٍّ قليل ، فى شعر عصرنا الحاضر .

ربما بدا هذا التصوير للقارئ المُعْجَب بالعرب وحضارتهم ، وللمعجَب حتى بعرب الجاهلية ، مشوبًا بشىء من الغلوّ . وللقارئ العذر من ذلك ، إذ يوازن بين هذه الصورة التى وضعنا أمامه ، وما هو واقع بالفعل فى عصرنا الحاضر ، وما نرجو أن تصل اليه صِلات الرجل والمرأة فى الزواج والطلاق وصِلات الزوجين والأبناء . لكن موازنة كهذه مخطئة جديرة أن تجرّ الى أفحش الضلال . إنما يجب أن يُوَازَنَ بين الجماعة العربية التى صوّرنا إحدى نواحيها فى القرن السابع المسيحى ، والجماعات الإنسانية فى ذلك العصر . وما أحسبنا نغالى اذا قلنا : إن الجماعة العربيّة كانت ، مع ما وصفنا من أمرها ، خيرا بكثير من الجماعات المعاصرة لها فى آسيا وفى أوربا . ولسنا نقف عند ما كان من ذلك فى الصين أو فى الهند ، فما لدينا من المعلومات عنه قليل لا غَناءَ فيه . لكن أوربا الشمالية وأوربا الغربية كانت يومئذ فى ظلمات تُبيح لك أن تصوِّر من نظام الأُسرة فيها ما تريد مما يقرب من أُوليات مراتب الإنسانية . وكانت الروم ، وهى صاحبة الشرع يومئذ وصاحبة الغلَب

المرأة عند العرب وأوربا فى ذلك العصر

المرأة فى الشرع الرومانى

ومهما يكن الرأى فى حضارة بلاد العرب قبل الإسلام و بداوتها، وهل كانت القرى من أمثال مكة والمدينـة ذات حضارة لا تعرفها البادية أو أنها كانت أيضا فى أُوليات مراتب الحضارة، فإن صِلات الرجل والمرأة فى هـذه الجماعة العربية كلها لم تكن تعدو، بشهادة القرآن و بشهادة ما بقى من آثار ذلك العهـد، صلات الذكورة والأنوثة، مع تفاوت تمليـه مراتب الطوائف والعشائر لا يبعـد بها عن هذا الوضع القريب من مراتب الإنسان الأوّل . ولذلك كان النسوة يتبرّجن فى الجاهليّة الأولى ويُبدين من زينتهن ما لا يقف أمره عند بعولتهن، وكنّ يخرجن فُرَادَى ومَثْنَى وزَرافات لحاجتهن يقضينهـا فى غوطة فى الصحراء، فيلقاهن الشبّان والرجال وهن يتهادين فى جماعاتهن فـلا يأبى هؤلاء ولا أولئـك أن يتبادلوا أشهى النظرات ومعسول الحديث مما يستريح إليه الذكر وتطمئن اليه الأنثى. و بلغ من أمر هذه الصلة وما وقرت فى النفوس، أن لم تأب هنـد زوج أبى سـفيان أن تقول فى أشدّ مواقف الجِدِّ والشدّة، وهى تحثّ قريشا حين الحرب يوم أحد :

صلات الرجل والمـرأة

إن تُقبلوا نُعانِقْ ونفرُش النمارقْ
أو تُدبروا نُفارِقْ فراقَ غير وامـقْ

ولم يكن الزّنا يومئـذ بالجريمة ذات الخطر والشأن فى بعض القبائل . وكان الغزل بعض معروف العرب جميعا . ولقـد ذكر الرواة عن هند هـذه، على ما كان لأبى سفيان من مكانة وخطر، أحاديث غرام وهوًى لم تغـيّر من مكانتها فى قومها ولا بين أهلها . ثم إن المـرأة كانت إذا ولدت، ولم يعرف لمولودها أب، لم تأب أن تذكر من لامسها من الرجال لينسب مولودها الى أيّهـم كان أقرب اليه شبها . ولم يكن الى ذلك لتعـداد الزواج ولا للرق حدٌّ أو قيد . كان للرجل أن يتزوّج ما شاء، وأن يتسرّى ما شاء، وكان لهؤلاء ولأولئك أن يلدوا ما شاءوا . وكان الأمر فى ذلك لا خطر له إلا أن يفتضح وتُخْشَى مَعَرّته، وما قد يجر وراءه من أَهَاجِىّ تُتبادل لا يدرى أحد ما ينجم عنها من خصومة وقتال . هنالك يتبـدّل الأمر غير الأمر، وترى ما كانت المودّة قد سترت من قبلُ من ملاحم الهوى ووَثَبات الغرام،

أحاديث الهـوى ووثبـات القتـال

المسلمون جميعا يرونه . فالحجاب لم يُفْرَض على نساء النبيّ الى قبيل غزوة الأحزاب ، كما لم يفرض تحديد الزوجات بأربع مع شرط العدل الى ما بعد غزوة الأحزاب ، بل الى ما بعد غزوة خَيْبَر بأكثر من سنة . فكيف يصل النبيّ الى توطيد علاقات الرجل والمرأة على أساس صالح ، تمهيدا لهذه المساواة التى انتهى الإسلام اليها مساواة تجعل للنساء مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة .

الإسلام ينهى عن التبرج

كانت صِلات الرجل والمرأة عند المسلمين ، كما كانت عند سائر العرب على ما وصفنا ، مقصورة على صلات الذكورة والأنوثة . وكان التبرّج وإبداء الزينة بصورة تدعو الى تحرّش الرجال بالنساء ، كلما وجدوا الفرصة لذلك ، بعض ما يُذكى عواطف الجنس عند الرجل والمرأة على سواء ، وما يحول لذلك دون التقريب بينهما تقريبا أساسه المعنى الإنسانىّ السامى ، وأساسه الاشتراك الروحى فى العبودية لله وحده . وقد نشأ عن قيام طوائف اليهود والمنافقين فى المدينة وخصومتهم لمحمد وللسلمين أن بلغ تحرّش هذه الطوائف بالمسلمات حدًّا أدّى الى حصار بنى قَيْنُقَاع كما رأيت ، وإلى إيصال الأذى للسلمات ، مما كانت تنشأ عنه مشاكل لا ضرورة لها . فلو أن المسلمات لم يُبدين زينتهن أثناء خروجهن ، لكان ذلك أدنى أن يُعْرَفن فلا يُؤْذَيْنَ ، ولوَفَّر ذلك هذه المشاكل ، ولكان بدءاً حسنا لهذه المساواة التى يريد الإسلام تحقيقها بين الجنسين ، من غير أن يشعر المسلمون رجالا ونساء بانتقال فى الفكرة لم يمهّدوا له . وفى هذا الظرف نزل قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِينًا . يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً . لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا . سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا ﴾ (١) .

(١) سورة الأحزاب الآيات من ٥٨ إلى ٦٢

والسيادة والمنافس الوحيد القوىّ للفرس، تجعل المرأة من الرجل فى مكانة دون مكانة المرأة العربية من الرجل حتى فى البادية . كانت المرأة فى شرائع الروم يومئذ معتبرة متاعا مملوكا للرجل يتصرّف فيه كيف يشاء، ويملك من أمره ما يريد حتى الحياة والموت . كانت تعامل معاملة الرقيق سواء، لافارق بينها وبينه فى نظر الشرع الرومانى . كانت مملوكة لأبيها ثم لزوجها ثم لابنها . وكان ملكهم إيّاها تامًّا كملكهم الرقيق وكملكهم الحيوان والجماد . وكان ينظر الى المرأة على أنها مثار الشهوة، وعلى أنها لاسلطان لها على أنوثتها الحيوانية، حتى لم يكن بدٌّ من اصطناع نطاق العفّة ومن التمسك بذلك قرونا متوالية، بعد هذا العصر الذى نصف فيه أحوال جزيرة العرب . ومع أن السيّد المسيح عليه السلام كان برًّا بالنساء، عطوفا عليهن، حتى لقد قال حين أظهر بعض رجاله العجب لحسن معاملته مريم المجْدَليّة : « من لم يكن منكم ذا خطيئة فليَرْمِها بحجر »، مع هذا ظلّت أوربا المسيحية، كما كانت أوربا الوثنيّة من قبل، تزدرى المرأة شرّ ازدراء . ولم تكن تنظر الى صِلاتها بالرجل على أنها صِلات الذكورة والأنوثة وكفى، بل على أنها صلة عبودية ورقّ ومهانة، مما طوّع لبعض المتكلمين فى عصور مختلفة أن يتساءلوا : ألِلمرأة روحٌ وأنها ستحاسب، أم أنها كالحيوان لا روح لها ولا تعرف عند الله حسابا وليس لها فى ملكوت الله متّسع ! .

محمد والإصلاح الاجتماعى

وكان محمد يقدر، بما أوحى اليه، أن لا صلاحَ للجماعة إلّا بتعاون الرجل والمرأة، باعتبار أنهما أخوان متضامنان تضامن مودّة ورحمة، وأن للنساء مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة . لكنّ الأخذ فى ذلك بالطفرة لم يكن أمرا ميسورا . ومهما يكن من إيمان العرب الذين اتّبعوه به، فإن أَخْذَهم باليسير من الأمر وعدم تعريضهم للحرج، أدعى الى مزيد إيمانهم، والى ازدياد أنصاره . وكذلك كان الشأن فى كل إصلاح اجتماعى فرضه الله على المسلمين . بل كذلك كان الشأن فى فروض الدين ذاتها، فى الصلاة والصوم والزكاة والحج، وكذلك كان الشأن فى المحرّمات كالخمر والميسر ولحم الخنزير وما اليها . وقد بدأ محمد فى شأن الإصلاح الاجتماعىّ وتقرير صِلات ما بين الرجل والمرأة بالمثل يضربه فما بينه وبين أزواجه مما كان

الإنسان المـادّية . تطبعه العادات المتوارثة، وتطبعه تقاليد البيئة فى شؤون حياته . فاذا أريد به أن يتغيّر فقد وجب أن يتدرّج فى انتقاله وتغيّره . ثم إنه لن يستطيع هذا التدرّج إلا اذا غيّر ما بنفسه . وقد يستطيع الإنسان أن يغيّر جانبا من جوانب نفسه بإزالة ما أمامها من حوائل تعوق تمدّدها وانتشارها لتمتثل الكونَ كلّه . وهذا ما فعل الإسلام بالمسلمين فى شأن توحيد الله والإيمان به وبرسوله وباليوم الآخر . لكن كثيرا من جوانب النفس العربية لم تُحطِّم أمامه العوائق، وخاصّةً فى شؤون الحياة المادية، فبقى المسلمون فيه قريبين مما كانوا قبل إسلامهم . وذلك كان شأنهم فيما طبعتهم عليه حياة الصحراء من تلكُّؤ، وفيما درَجوا عليه من حب التحدُّث الى النساء .

بيت النبي ونساؤه

وعلى رغم ما أسلفنا من تعديل الدين الجديد نظرتَهم لِصـلات ما بين الرجل والمرأة، قد ظلّوا فيما سوى ذلك كما كانوا من قبل أو على مقربة منه . وكثيرا ما كان أحدهم يحب أن يدخل الى النبيّ بيته، وأن يمكث عنده وأن يتحدّث إليه وأن يتحدّث الى نسائه . وقـد كانت مهامّ النبوّة العظمى أكبر من أن تدع محمدا يشغل نفسـه بحديث هؤلاء الذين يجيئون اليـه والذين يتحدّثون الى نسائه وما ينقل نساؤه إليـه من أحاديثهم . لذلك أراد الله أن يُخلى نبيّه من هذه المشاغل الصغرى، فأنزل عليه هذه الايات : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِـرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُم فَادْخُلُوا فإذا طعمتم فانتشروا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النبيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَه مِنْ بَعْـدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾(١) . وكما نزلت هذه الآية حديثا للمؤمنين وإرشادا لهم إلى واجبهم إزاء النبي وأزواجه، نزلت الآيتان الآتيتان كذلك موجّهتين الى أزواج النبيّ فى هـذا الشأن نفسـه . قال تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ

(١) سورة الأحزاب آية ٥٣

بهذا التمهيد سهل على المسلمين أن يُقلعوا عن عادات العرب الأولى . كما أن ما قصد اليه شارع الإسلام من تنظيم الجماعة على أساس الأسرة، طاهرةً من أدران الدخيلة، مما جعل الزّنا جريمة كبرى، قد يسَّر لكلّ مسلم أن يقدّر ما فى تبرّج الأنثى تتبدى به للذكر من عيب ومعرّة، ما لم تكن صلة ما بين الرجل والمرأة تسمح بهذا التبرّج . وذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١) .

وينهى عن إبداء الزينة

وكذلك عمل الإسلام، فتدرّجت صلة ما بين الرجل والمرأة إلى غير ما كانت، فلم تبق صلة ذكورةٍ وأنوثةٍ إلّا حيث تخشى الفتنة من مثل هذه الصلة؛ فأما فى سائر شؤون الحياة وفى علاقات الرجال والنساء جميعا، فالكل سواسية، والكل عباد الله، والكل متضامنون للخير ولتقوى الله . فاذا فرّط من أحدهم أو من إحداهن ما يُذكى فى النفس معانى الجنس فذلك إثم يجب على من فرط منه أن يتوب الى الله إنه هو التوّاب الرحيم .

لكن ذلك كله لم يكن كافيا لينقل النفس العربيّة فى أعوام قلائل من اعتباراتها الأولى جميعا ليغيّرها فى هذا الشأن كما غيّرها فى الإيمان بالله وعدم الشرك به نفسا جديدة . وذلك طبيعىّ . فالمادّة اذا تكيّفت على صورة ما، لم يكن من اليسير أن تحوّلها إلا رويدا رويدا ؛ ومهما تحوّلها فلن تحوّلها إلا قليلا . ذلك شأن حياة

(١) سورة النور آيتا ٣٠ و ٣١

قوّاته ويمّم بها شمالا . فلما اطمأنّ إلى أن قريشا وجيرانها لم يبق منهم من يفطن لمقاصده، انفتل راجعا إلى ناحية مكة وأغذّ السير مسرعا حتى بلغ منازل بنى لِحْيان بُغرَان . لكن قوما رأوه أوّل انحداره إلى الجنوب فعرف منهم بنو لحيان قصده إياهم، فاعتصموا برءوس الجبال هم ومتاعهم . وفات النبىَّ أن يصيبهم ؛ فبعث أبا بكر فى مائتى راكب، حتى بلغوا عُسْفان على مقربة من مكة . ثم كرّ رسول الله قافلا إلى المدينة فى يوم قائظ بلغ من قيظه أن كان النبى يقول : « آئبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون . أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلَب وسوء المنظر فى الأهل والمال » .

غزوة ذى قرد

ولم يكد محمد يقيم بالمدينة ليالى بعد أوبته اليها، حتى أغار عُيَيْنةُ بن حِصْن على أطرافها . وكان بظاهرها إبل ترعى يحرُسها رجل وامرأته . فقتل عُيينة وأصحابه الرجل وساقوا الإبل واحتملوا المرأة وانصرفوا يحسبون أنهم من اللَّحاق بمَنجاة . لكن سَلَمة بن عمرو بن الأَكْوَع الأسلمىّ كان قد غدا يريد الغابة متوشّحا قوسه ونَبْله ؛ فلما مرّ على ثنيّة الوَداع وأشرف على ناحية من سَلْع، أبصر القوم قد اقتادوا الإبل واحتملوا المرأة، فصاح : واصَباحاه ! وجعل يشتدّ فى آثار القوم حتى إذا اقترب منهم رماهم بالنبل، وهو فى أثناء ذلك لا ينفك يصيح . وبلغ محمدا صياح سلمة، فنادى فى أهل المدينة : الفزع الفزَع؛ فترَامى الفرسان اليه من مختلف النواحى، فأمرهم فانطلقوا فى أثر القوم، وجهّز هو قوّاته وسار على رأسها يتبعهم حتى نزل بالجبل من ذى قَرَد . وكان عُيينة ومن معه قد أغذّوا السير مسرعين يريدون اللحاق بغَطَفان نجاةً من المسلمين . لكن فرسان المدينة أدركوا مؤخرتهم واستخلصوا شطر الإبل منهم، ولحق بهم محمد فأعانهم؛ ونجت المرأة المؤمنة التى كان العرب قد احتملوها . وأراد جماعة من أصحاب النبىّ أخذت منهم الحماسة كلّ مأخذ أن يتأثّروا عُيينة . فردّهم رسول الله ، أن علم أن عُيينة وأصحابه قد أدركوا غطفان واحتموا بهم . ورجع المسلمون إلى المدينة، وجاءت امرأة الحارس فى آثارهم على ناقة للمسلمين . وكانت المرأة قد نَذَرت إن أنجتها الناقة لتنحرنّها قربانًا إلى الله . فلما أخبرت النبىّ بنذرها

بِالْقَـوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذى فِى قَلْبِـهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا . وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبرجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَـا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾(١) .

التمهيد الاجتماعى للجماعة الإسلامية

هذا هو التمهيد للنظام الاجتماعى الجديد الذى أراده الإسلام للجماعة الإنسانية . أقام أساسه على تغيير نظرة الجماعة إلى ما بين الرجل والمرأة من صِلات، وأراد أن يمحو من النفوس تسلّط فكرة الجنس واعتبارها وحدها المتغلّبة على كل اعتبار، وأراد بذلك أن يوجِّه الجماعة وجهتها الإنسانية العليا التى لا تنكر على الإنسان استمتاعه بالحياة استمتاعا لا يُضعف من حريّته فى أن يريد — ومن باب أولى لا يسلبه هذه الحرية فى أن يريد — والتى تجعل من الإنسان صِلة ما بين الكائنات جميعا، فترتفع به من مراتب زراعة الأرض ومن الصناعة ومن تجارة الحياة أيّاً كانت، لتسمو به إلى مجاورة القِدّيسين والاتّصال بالملائكة المقرَّبين . وقد جعل الإسلام من الصوم والصلاة والزكاة وسائل لهذا السموّ، بما تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، وبما تطهِّر النفس والقلب من شوائب الخضوع لغير الله، وبما تقوِّى من أسباب الأخوّة بين المؤمنين، ومن الاتّصال بين الإنسان وسائر ما فى الكون .

*
* *

هذا التنظيم للحياة الاجتماعية رويدا رويدا، تمهيدا إلى الانتقال العظيم الذى أعدّ الإسلام له الإنسانية، لم يمنع قريشا والعرب أن تتربّص بمحمد الدوائر، ولم يمنع محمدا أن يكون دائم الحذر، سريعا إلى النشاط لإلقاء الرعب فى قلوب خصومه عند الحاجة . من ذلك أنه بعد ستة أشهر من القضاء على بنى قُريظة شعر بشىء من الحركة فى ناحية مكة، ففكر فى أن ينتقم لخُبَيْب بن عَدِىّ وأصحابه ممن قتل بنو لِحْيان عند ماء الرَّجيع منذ سنتين . على أنه لم يجهر بقصده خيفة أن يتّخذ العدو الحيطة لنفسه، فأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرّة، فأخذ

غزوة بنى لحيان

(١) سورة الأحزاب آيتا ٣٢ و ٣٣

فتنة عبدالله بن أبي

وكان قد خرج مع المنافقين فى هذه الغزاة ابتغاء الغنيمة، فثار ما فى نفسه على المهاجرين وعلى محمد من حفيظة، وقال لجلسائه: «لقد كاثرنا المهاجرون فى ديارنا. والله ما أعدّنا وإيّاهم إلا كما قال الأوّل: "سمّن كلبك يأكلك". أمَا والله لئن رجعنا الى المدينة ليُخرِجنّ الأعزّ منها الأذلّ». ثم قال لمن حضر من قومه: «هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم. أمَا والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم». ومشى بحديثه هذا ماشٍ إلى رسول الله بعد فراغه من عدوّه، وكان عنده عمر بن الخطاب، فهاج عمر لما سمع وقال: مُرْ به بلالًا فليقتله! . هنا ظهر النبيّ كدأبه مظهر القائد المحنّك والحكيم البعيد النظر، إذ التفت إلى عمر وقال: فكيف ياعمر إذا تحدّث الناس وقالوا إن محمدا يقتل أصحابه!.

لكنّه قدّر فى نفس الوقت أنه إن لم يتّخذ خطةً حازمة فقد يستفحل الأمر. لذلك أمر أن يؤذّن فى الناس بالرحيل فى ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها. وترامى إلى ابن أبَىّ ما بلغ النبيّ عنه، فأسرع الى حضرته ينفى ما نُسب اليه، ويحلف بالله ما قاله ولا تكلّم به. ولم يغيّر ذلك من قرار محمد الرحيل شيئا، بل انطلق بالناس طِيلة يومهم حتى أمسوا، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا، وصَدْرَ يومهم الثانى حتى آذنت الشمس. فلما نزل الناس لم يلبثوا حين مسّت جنوبهم الأرض أن وقعوا من فرط تعبهم نياما، وأنسى التعب الناس حديث ابن أُبَىّ، وعادوا بعد ذلك الى المدينة ومعهم ما حملوا من غنائم بنى المصطلق وأسراهم وسَبْيهم، ومعهم جُوَيْرية بنت الحارث بن أبى ضرار قائد الحىّ المهزوم وزعيمه.

حقد ابن أبىّ على النبي

بلغ المسلمون المدينة، وأقام ابن أبَىّ بها، لا تهدأ له نفس حسدًا لمحمد وللمسلمين، وإن تظاهر بالإسلام بل بالإيمان، وإن أصرّ على إنكار ما نُقل عنه لرسول الله عند المريسيع. أثناء ذلك نزلت سورة المنافقين وفيها قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ. يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ

قال : "بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجّاك بها ثم تنحرينها . إنه لا نَذْرَ فى معصية الله ولا فيما لا تملكين" .

غزوة بنى المصطلق

وأقام محمد بالمدينة بعـد ذلك قُرابة شهرين . ثم كانت غزوة بنى المُصْطَلِق بالمُرَيْسِيع ، هذه الغزاة التى يقف عندها كل كاتب وكل مؤرّخ لسيرة النبىّ العربىّ ، لا لأنها غزاة ذات قيمة ، أو لأن المسلمين أو عدوّهم أبلوا فيها بلاء خارقا للعادة ، بل لأن الشـقاق كاد يفشو بعدها فى صفوف المسلمين ، فحسَمه الرسـول بأحسن مايكون عزيمة وحزما ، ولأن من أثرها أن تزوّج الرسول من جويرية بنت الحارث ، ولأن هـذه الغزوة أثمرت حديث الإفك عن عائشة حديثا كان موقفها منه ، وهى لمّـا تزل فى السادسة عشرة ، موقف إيمان وقوّة تحطّمت على جَنَباتهما كل القوى وعَنَتْ لجلالهما كل الوجوه .

فقد بلغ محمدا أن بنى المصطلق ، وهم فرع من خُزَاعة ، يجمعون له فى حيّهم على مقربةٍ من مكة ، وأنهم يحرّضون عليـه يريدون قتله وعلى رأسهم قائدهم الحارث ابن أبى ضِرَار . ووقف محمد من أحد البدو على سرّ جمعهم ، فأسرع فى الخروج ليأخذهم على غِرّة ، كعادته فى أخذ أعدائه . وجعل لواء المهاجرين لأبى بكر ، ولواء الأنصار لسعد بن عُبادة . ونزل المسلمون على ماء قريب من بنى المصطلق يقال له المُرَيْسِيع ، ثم أحاطوا ببنى المصطلق ففرّ من جاءوا لنصرتهم . وقد قُتل من بنى المصطلق عشرة ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل يقال له هشام بن صُبَابة ، أصابه رجل من الأنصار وهو يحسبه خطأ من العدوّ . ولم يجـد بنو المصطلق بعد قليل من التراشق بالنبال مفرّا من التسليم تحت ضغط المسلمين القوىّ السريع ، فأُخذوا أسرى هم ونساؤهم وإبلهم وماشيتهـــم .

وكان لعمر بن الخطاب فى الجيش أجير يقود فرسه ، فازدحم بعد انتهاء الموقعة مع أحد رجال الخزرج على المـاء ، فاقتتلا فتصايحا ، يقـول الخزرجى : يا معشر الأنصار ، ويقول أجير عمر : يا معشر المهاجرين . وسمع عبد الله بن أُبَىّ النداء ،

كان عبدالله بن أبيّ بعد ذلك إذا أحدَث الحدَث يعاتبه قومه و يعنّفونه ويُشعرونه أن حياته بعض هِبَات محمد له . وتذاكر النبيّ مع عمر يوما شؤون المسلمين ، وجاء ذكر ابن أبيّ وما يعاتبه قومه وما يعنّفونه ، فقال محمد : كيف ترَى يا عمر ! أمَا والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأُرْعِدَت له آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر: قد والله علِمتُ لأَمْرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

عائشة مع النبي في بني المصطلق

حدث ذلك كله بعد أن عاد المسلمون الى المدينة ومعهم مامعهم من السَّبْى والغنائم . على أن أمرًا حدث لم يترك بادئ الرأى أثرا ، ثم كان له بعد ذلك حديث طويل . ذلك أنّ النبيّ كان إذا غزا ، أقرع بين نسائه فأيّهن خرج سهمها خرج بها معه . وخرج سهم عائشة عشيّة غزاة بنى المصطلق نخرج بها . وكانت عائشة نحيفة خفيفة ، فكانوا إذا جاءوا بالهودج الى بابها خرجت اليه فأخذ الرجال به فشدّوه إلى ظهر البعير وهم لا يكادون يشعرون بها لخفّة زِنتها . ولما فرغ النبيّ من سفره وسار ومن معه مسيرتهم الطويلة المضنية التى ذكرنا ، اتّجه بعد ذلك الى المدينة ، حتى إذا كان قريبا منها نزل منزلا بات به بعض الليل ثم أذّن فى الناس بالرحيل .وكانت عائشة قد خرجت من خيمة النبيّ لبعض حاجتها والهودج موضوع أمام الخيمة فى انتظار دخولها فيه . وكان لعائشة عقد انسلّ من عنقها وهى فى بعض حاجتها ، فلما قامت عائدة الى الرحل التمست العقد فلم تجده فرجعت أدراجها تبحث عنه . ولعلّها بحثت عنه طويلا حتى وجدته . ولعلها أغفت أثناء ذلك لفرط ما نالها من التعب بعد مسيرتهم المجهدة . ورجعت الى المعسكر لتستقلّ هودجها ، فاذا القوم قد شدّوه الى ظهر البعير وهم يحسبونها فيه ، وارتحلوا وهم يحسبون أنهم حملوا معهم أشدّ أُمهات المؤمنين حظوة عند النبيّ . ولم تجد هى فى المعسكر داعياً ولا مجيبا . فلم يساورها الخوف وأيقنت أنّ القوم اذا افتقدوها فلم يجدوها رجعوا اليها ؛ نخيرٌ لها أن تبقى مكانها من أن تضرب فى الصحراء على غير هدى فتضلّ السبيل . لم يُساورها الخوفُ فالتفّت فى جِلْبابها واضطجعت مكانها منتظرةً دعوة الباحث عنها . وإنها لفى ضجعتها إذ مرّ بها صَفْوان بن المُعَطَّل السُّلَمِىّ وكان قد تخلّف عن العسكر لبعض حاجاته ،

تخلف عن الركب فلا يحسونها

لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ وَلِلّهِ العزَّةُ ولرسولِهِ وللمؤمنينَ ولكنَّ المُنَافِقِينَ لا يعلمون﴾[1].

مأساة نفسية بالغة

هنالك حسب قوم أن فى هذه الآيات قضاءً على ابن أُبَىّ، وأن محمدا لا ريب آمر بقتله. فذهب عبد الله بن عبد الله بن أبىّ، وكان مسلما حسن الإسلام، فقال: «يا رسول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبىّ فيما بلغك عنه. فإن كنتَ فاعلا فمُرْنى به فأنا أحمل إليك رأسه. فوالله لقد علمت الخزرجُ ما كان بها من رجل أبرّ بوالده منّى. وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر الى قاتل أبى يمشى فى الناس، فأقتله فأقتل رجلا مؤمنًا بكافر فأدخل النار». كذلك قال عبد الله بن عبد الله بن أُبَىّ لمحمد. وما أحسب عبارة أبلغ من عبارته على إيجازها فى قوّة التعبير عن حالة نفسيّة تضطرب فيها أقوى العوامل فى النفس أثرًا: تضطرب فيها عوامل البرّ بالأب وصدق الإيمان، والنخوة العربية والحرص على سكينة المسلمين حتى لا تتواتر الثارات بينهم!. فهذا ابن يرى أباه سيُقتل، فلا يطلب الى النبىّ ألّا يقتله، لأنه يؤمن بأن النبىّ إنما يصدَع بأمر ربه، ويُوقن بكفر أبيه. وهو، من خيفة ما يقتضيه البِرّ بأبيه وما تقضيه الكرامة والنخوة أن يثأر له ممّن قتله، يريد أن يحمل على نفسه وأن يقتل هو أباه، وأن يحمل بنفسه الى النبىّ رأسه، وإن قطّع ذلك قلبه وإن فَرى ذلك كبده!. وهو يجد فى إيمانه بعض العزاء عن هذا الشطط الذى يكلّف نفسه، مخافة أن يدخل النار إن هو قتل المؤمن الذى يأمره النبىّ بقتل أبيه. أىّ جِلاد بين الإيمان والعاطفة والخلق أشدّ من هذا الجلاد!. وأية مأساة نفسيّة أفتك بصاحبها من هذه المأساة!. أفتدرى بم أجاب النبىّ عبدَالله بعد أن سمع قوله؟ قال له: إنا لا نقتله بل نترفّق به ونُحسن صحبته ما بقى معنا.

عفو النبى عن ابن أبى

يا لَروعة العفو وجلاله! محمد يترفّق بهذا الذى يؤلّب أهل المدينة عليه وعلى أصحابه، فيكون رفقه ويكون عفوه أبعد أثرا من عقوبته لو أنه أنزلها به. فقد

(١) سورة المنافقين آيتا ٧ و ٨

كتابتى » . قال : فهل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : أقضى كتابتك وأتزوجك . فلما بلغ الناس الخبر أطلقوا من بأيديهم من أسرى بنى المصطلق إكراماً لصهر رسول الله إيّاهم ، حتى لكانت عائشة تقول عن جويرية : ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها . النبي يتزوجها

هذه رواية . وتجرى رواية أخرى بأن الحارث بن أبى ضرار جاء الى النبىّ بفداء ابنته ، وأنه أسلم بعد أن آمن برسالة النبىّ ، وأنه أخذ ابنته جويرية فأسلمت كما أسلم أبوها . فخطبها محمد اليه فزوّجه إيّاها ، وأصدقها أربعمائة درهم .

وفى رواية ثالثة : أن أباها لم يكن راغباً فى هذا الزواج ، بل لم يكن راضياً عنه ، وأن أحد أقارب جويرية هو الذى زوّجها من النبىّ على غير إرادة أبيها .

تزوّج محمد من جويرية ، وبنى لها منزلها الى جانب منازل نسائه فى جوار المسجد ، وأصبحت بذلك من أُمهات المسلمين . وبينا هو فى شغله بها كان قوم قد بدءوا يتهامسون : ما بال عائشة تأخّرت عن العسكر وجاءت مع صفوان على بعيره ، وصفوان شابّ وسيم الطلعة مكتمل فتوّة الشباب ! . وكان لزينب بنت جَحْش أخت تدعى حَمْنة ، وكانت تعلم ما لعائشة عند محمد من حُظوة تقدّمها على أُختها . فجعلت حمنة هذه تُذيع ما يهمس به الناس من أمر عائشة ، وكانت تجد من حسّان بن ثابت عوناً ، ومن علىّ بن أبى طالب سميعاً . فأمّا عبد الله بن أُبىّ فوجد فى هذا الحديث مرعًى خصيباً لشفاء ما فى نفسه من غِلّ . وجعل يُذيعه جهد طاقته . لكنّ جماعة الأوس وقفوا موقف الدفاع عن عائشة ، وقد كانت مضرب المثل فى الطهر وسمّو النفس . وكاد الحديث يؤدّى إلى فتنة فى المدينة . حديث الإفك

وبلغت هذه الأخبار محمداً فاضطرب لها . ماذا ؟ ! عائشة هذه تخونه ! هذا مستحيل . إنها الأنفة والإباء ، وإن لها من حبّه إياها وشدّة عطفه عليها ما يجعل مجرّد ظن كهذا إثماً دونه كل إثم . نعم ! ولكن أُفٍّ للنساء ! من ذا يستطيع أن يسبر غورهنّ أو يصل إلى قرارة ما فى نفوسهنّ . وعائشة بعدُ طفلة يافعة . وأىّ شىء هذا حيرة النبى

وكان يراها قبل أن يُضرب الحجاب على نساء النبيّ. فلما بصُر بها على هذه الحال تراجع دَهِشا وقال: إنّا لله و إنا اليه راجعون! ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ماخلّفك رحمك الله ؟ فلم تجبه. فقرّب هو لها البعير واستأخر عنه وقال: ٱركبي، فركبت. وانطلق بالبعير سريعا يطلب الناس فلم يدركهم، أن كانوا يُعجلون سيرهم يريدون المدينة ليستريحوا بها من عناء السير الذى أمر به رسول الله إطفاءً للفتنة التى كادت تقوم بسبب حديث ابن أُبَىّ. ودخل صفوان المدينة فى وضح النهار بأعين الناس وعائشة على ظهر بعيره، حتى إذا كانت عند منزلها من بين منازل نسوة الرسول نزلت فدلَفت اليه، ولا يجول بخاطر أحد أن يُحدث فى أمرها قولا أو يثير حول تأخرها عن الركب شبهة، ولا يدور بخاطر الرسول ظِنّة سوء فى ابنة أبى بكر أو فى صفوان المؤمن الحسن الإيمان.

عودها الى المدينة مع صفوان

وما كان لحديث أن يدور، وها هى ذى تدخل المدينة بأعين الناس فى أعقاب العسكر الذين جاءوا لم يمض بين مجيئهم ومجيئها وقت يحمل على ظِنّة أو يبعث الى نفسٍ ريبة، وها هى ذى تدخل بأعين الناس صافية الجبين مشرقة الوجه، ليس فى شيء من مظهرها ما يريب. فلتَجْرِ إذًا شؤون المدينة كما هى، وليقتسم المسلمون الأسلاب والغنائم والسبايا مما أسروا من بنى المصطلق، ولينعَموا بهذه الحياة الرخيّة التى تزداد على الأيام رخاء كلما زادهم إيمانهم على عدوّهم عِزًّا، وكلما أظفرتهم به عزيمتهم الصادقة واستهانتهم بالموت فى سبيل الله وفى سبيل دينه وفى سبيل حرية العقيدة، حرّية كان العرب من قبلُ يأبونها عليهم.

جويرية بنت الحارث

وكانت جُوَيْرِيَة بنت الحارث من سبايا بنى المصطلق، وكانت امرأةً حلوة مُلَاحة، وقد وقعت فى سهم أحد الأنصار، فأرادت أن تفتدى نفسها منه، فأغلى الفِداء علماً منه بأنها ٱبنة زعيم بنى المصطلق، وأن أباها على أداء ما طلب قدير. وخشيت جويرية أثر شططه، فذهبت الى النبيّ وكان فى دار عائشة فقالت: «أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضِرار سيّد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعت فى سهم فلان فكاتبتُه على نفسى، فجئتُك أستعينُك على

ينوء بها ، وقالت لها والعَبْرة تخنقها : يغفر الله لك يا أماه ! تحدّث الناس بما تحدّثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ! . ورأت أمها الهمّ الذى بها ، فحاولت تخفيف أثره فى نفسها فقالت : أى بُنَيّة ، خفّفى عليك الشأن ؛ فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبّها لها ضرائر إلا كثّرن وكثّر الناس عليها . ولكن عائشة لم تتعزّ بهذا القول ، وزادها ألمًا أن ذكرت جفاء النبىّ إياها بعد الذى كان من لطفه بها ، وأن شعرت بأنه قد وقع فى نفسه من هذا الحديث أثر وقامت بنفسه منه ريبة . لكن ماذا عساها تستطيع أن تفعل ؟ ! أتفاتحه فى القول وتذكر له الخبر وتقسم له أنها بريئة ؟ ! هى إذًا تتّهم نفسها ثم تدفع التهمة بالأيمان والتوسّلات . أفتُعرِض عنه كما أعرض عنها وتجفوه كما جفاها ؟ . لكنه رسول الله وهو قد اصطفاها على نسائه ، وليس من ذنبه أن تحدّث الناس عنها بسبب تأخّرها عن المعسكر وعودها مع صفوان . ربّاه ! . ألهِمْها فى هذا الموقف الدقيق مخرجا يتّضح لمحمد معه الحق فى أمرها ليعود إلى مثل ما كان من حبّها والعطف عليها واللطف بها .

حيرتها

ولم يكن محمد خيرا منها مكانا ؛ فقد آذاه ما يتحدّث به الناس حتى اضطُرّ آخر الأمر إلى أن يتشاور مع خُلَصائه ماذا يصنع . فذهب الى بيت أبى بكر ودعا اليه عليًّا وأُسامة بن زيد فاستشارهما . فأمّا أُسامة فنفى كلّ ما نُسِب الى عائشة على أنه الكذب والباطل ، وأن الناس لا يعرفون كما لا يعرف النبىّ عنها إلّا خيرا . وأمّا علىّ فقال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير . ثم أشار باستجواب جارية عائشة لعلّها تصدُقه . ودُعِيت الجارية وقام لها علىّ فضربها ضربا مُوجعا وهو يقول : اصدُقى رسول الله ، والجارية تقول : والله ما أعلم إلا خيرا ، وتنفى عن عائشة قالةَ السوء .

محمد يشاور أسامة وعليا

أخيرا لم يبق أمام محمد إلا أن يواجه زوجه وأن يطلب اليها أن تعترف . ودخل عليها وعندها أبواها وعندها امرأة من الأنصار ، وهى تبكى والمرأة تبكى معها ، وقد هوَى الأسى بنفسها إلى أعمق قرارات الحزن من هول ما ترى من ريبة محمد بها . من ريبة هذا الرجل الذى تحبّ وتقدّس ، والذى به تؤمن وفيه تفْنَى . فلما رأته كفكفت دمعها وسمعت اليه وهو يقول : يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول

مواجهة محمد عائشة

العقد الذى فقدته فذهبت تلتمسه جوف الليل ؟ ! وما بالها لم تُحدِث له وهم ما يزالون فى المعسكر من أمره ذكرا ؟ ! وتقلّب النبىّ على أشواك الحيرة، ما يدرى أيصدّق أم يكذب .

أمّا عائشة فلم يجرؤ أحد على أن يبلّغها من كل هذا الذى يقول الناس شيئا، وإن أنكرت من زوجها جفاءً لم تعرفه منه ولم يتّفق فى شىء مع لطفه بها وحبّه إياها . ثم إنها مرضت من بعد ذلك مرضا شديدا ، فكان إذا دخل عليها وأمها تمرّضها لم يزد على قوله « كيف تيكم » . ووجَدت عائشة فى نفسها لما رأت من جفاء النبى إياها، وجعلت تحدّث نفسها : ألَا تكون جُوَيرِية قد حلّت من قلبه محلّها ! . وبلغ من ضيق ذَرْعها بجفاء محمد إيّاها أن قالت له يوما : لو أذِنتَ لى فانتقلتُ إلى أُمّى فمرّضتْنى ! . وانتقلت إلى أمّها وفى نفسها من الدهشة لهذا التفريط فى أمرها ما آذاها وآلمها . وظلّت فى مرضها بضعة وعشرين يوما حتى نقهت، وهى لا تعرف من كل ما يدور حول اسمها من حديث شيئا . أمّا محمد فقد بلغ من تأذّيه بترامى هذه الأخبار اليه أن قام يوماً فى الناس يخطبهم فقال : «أيُّها الناس ! ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ! . والله ما علمتُ منهم إلا خيرا . ويقولون ذلك لرجل والله ما علمتُ منه إلا خيرا، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا معى» . فقام أُسَيْد بن حُضَير فقال : يا رسول الله، إن يكونوا من إخواننا الأوس نَكْفِكَهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمُرْنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تُضْرَب أعناقهم . وردّ عليه سعد بن عُبادة بأنه إنما تقدّم بهذه المقالة لأنه يعرف أنهم من الخزرج، ولو كانوا من الأوس ما قالها . وتَثاور الناسُ وكادت تقوم الفتنة لولا حكمة الرسول وحسن مداخلته .

مرض عائشة

تأذى الرسول من حديث الناس

وانتهى الخبر آخر الأمر إلى عائشة ، حدّثتها به امرأة من المهاجرين . فلما عرفته كاد يُغْشَى عليها من هوله ، وانطلقت تبكى لا يحبس دمعها حابسٌ حتى شعرت كأن كبدها تتصدّع . وذهبت إلى أُمّها وقد أثقل الهمّ كاهلها حتى كاد

الخبر يبلغ عائشة

معاتبتها أمها

لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وفى هـذه المناسبة كذلك نزلت عقوبة رمى المحصنات : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) . وتنفيـذا لحكم القرآن أمر بِمِسْطَح بن أُثاثة وحسّان بن ثابت وحَمْنـة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضرب كل منهم ثمانين جلدة . وعادت عائشة الى مثل مكانها الأوّل من بيت محمد ومن قلبه .

رمى المحصنات وتنفيـذ حكمه فى رماة عائشة

يقول السير وليم موير تعليقا على هذا الحادث ما ترجمته : «إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعـده تدعونا الى القطع ببراءتهـا وعدم التردُّد فى إدحاض أية شبهة أثيرت حولها» .

وقد استطاع حسّان بن ثابت من بعدُ أن يعود إلى رضا محمد وعطفه عليه، كما طلب محمد الى أبى بكر ألّا يحرم مِسْطحا عطفَه الذى عوّده إيّاه . من ثم انقضى هذا الحادث ولم يبق له فى المدينة كلّها أثر . وأسرع النقه الى عائشة وعادت الى دارها من مساكن الرسول وإلى مكانتها من قلبـه وإلى مركزها الرفيع من نفوس أصحابه المسـلمين جميعا . وبذلك فرغ النبيّ إلى رسالته والى سياسـة المسلمين استعدادا لعهد الحُدَيْبِية يفتح به الله على المسلمين فتحاً مبينا .

جمال العفو

(١) سورة النـور آية ٤

ثورة عائشة

الناس فاتّقى الله، وإن كنت قد قارفت سوءا ممـا يقولون فتوبى إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده . فما إن أتمّ حديثه حتى ثار فى عروقها دمها، وجفّ من عينها دمعها وتلفّتت إلى ناحية أُمّها وإلى ناحية أبيها تنظر بم يُجيبان . لكنهما سكتا فلم ينبِسَا بكلمة . فازدادت ثورة نفسها وصاحت بهما : ألاَ تُجيبان ! قالا : والله ما ندرى بم نجيب، وعادا الى وجومهما . هنالك لم تملك نفسها دون النشّيج بالبكاء؛ وساعفتها دموعها لتهدِّئَ من الثـورة المضطرمة بين ضلوعها تكاد تحرقها . ثم وجَّهت الكلام الى النبيّ وهى تبكى فقالت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبدا ! . والله إنى لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس والله يعلم أنى بريئة لأقولنّ ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت لا تصدِّقوننى . ثم سكتت برهة وعادت تقول : إنما أقول كما قال أبو يوسف : « صَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » .

نزول الـوحى ببراءة عائشة

فترةُ سكوت تلت هذه الثورة لم يعرف حاضروها أطالت أم قصرت . على أن محمدا لم يبرح مجلسه حتى تغشّاه من الوحى ما كان يتغشّاه ، فسُجِّى بثوبه ووُضعت وسادة من أدَم تحت رأسه . قالت عائشة : أمّا أنا فوالله ما فزِعت ولا باليت حين رأيت من ذلك ما رأيت، فقد عرفت أنّى بريئـة وأن الله غير ظالمى . وأمّا أبواى فمـا سُرِّى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم حتى ظننتُ لتخرجنّ نفسُهما فرَقًا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس . فلما سُرِّى عن محمد جلس يتصبّب عرقا ، فجعل يمسحه عن جبينه ويقول : أبشرى يا عائشـة ! قد أنزل الله براءتك . قالت عائشة : الحمد لله ! . وخرج محمد الى المسجد فألقى على المسلمين هذه الآيات التى نزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] الى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللهُ

(١) سورة النور، آية ١١ وما بعدها .

صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ(١) ﴾ . وفى هذه السنوات الست نزلت الآيات كثيرة متتابعة فى هـذا المسجد الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا . لكن قريشا كانت ترى محمدا والذين معه كفروا بآلهة هـذا البيت هُبَل وإساف ونائلة وسائر الأصنام ، ولذلك كانت ترى حربهم وحرمانهم من الحج إلى الكعبة واجبا عليها ، حتى يثوبوا إلى آلهة آبائهم .

شـوق المسلمين إلى مكة

والمسلمون فى أثناء ذلك يذوقون ألم الحرمان من أداء هذا الواجب الدينىّ المفروض عليهم ، كما كان مفروضا من قبل على آبائهم . والمهاجرون منهم يذوقون إلى جانب ذلك همًّا واصبا وألما لذّاعا : أَلَمَ النفى ، وهمّ الحرمان من الوطن ومن أهلهم فيه . وهؤلاء وأولئك كانوا فى ثقتهم بنصر الله رسولَه ونصره إيّاهم ، وإعلاءِ دينهم على الدين كله ، يؤمنون بأن يوماً قريبا لا بدّ آت يفتح الله لهم فيـه أبواب مكة ليطوفوا بالبيت العتيق ، وليؤدّوا فريضة فرضها الله على الناس جميعا . وإذا كانت السنة تمرّ تلو السنة فتُساجل الغزوة الغزوة ، وتكون بدرٌ ثم أُحُد ثم الخَنْدَق ثم سائر الغزوات والأعمال ، فإن هذا اليوم الذى يؤمنون به لا ريب آتٍ . وما أشدّهم لهذا اليوم شـوقا ! وما أشدّ ما يشاركهم محمد فى شـوقهم وما يؤكد لهم أن هـذا اليوم قريب ! .

العرب والكعبة

والحق أن قريشا ظلموا محمدا وأصحابه بمنعهم من زيارة الكعبة وأداء فرائض الحج والعمرة . فلم يكن هذا البيت العتيق ملكا لقريش ، ولكنه كان ملكا للعرب جميعا . وإنما كانت فى قريش سِدَانة الكعبة وسِقاية الحاجّ وما إلى ذلك من العناية بالبيت ورعاية زائريه . ولم يكن اتّجاه قبيلة بعبادتها إلى صنم دون آخر ليُبيح لقريش منعها من زيارة الكعبة والطواف بها والقيام بما تفرضه عبادة هـذا الصنم من

(١) سورة الأنفال الآيات من ٣٤ إلى ٣٦

الفصل المتمّ للعشرين
عهد الحديبية

بعد ست سنوات بالمدينة — دعوة محمد الناس للحج — لا قتال ولا حرب — قريش تقرّر الحيلولة بين المسلمين ودخول مكة — مفاوضات الصلح — أناة محمد وسياسته — عهد الحديبية فتح مبين

انقضت ستّ سنوات منذ هجرة النبيّ وأصحابه من مكة إلى المدينة، وهم فيما رأيت من جهاد مستمر وغزو متصل، بينهم و بين قريش تارة، و بينهم و بين اليهود أخرى . والإسلام أثناء ذلك يزداد انتشارا و يزداد قوة ومنعة . ومنذ السنة الأولى من الهجرة عدل محمد بقبلته عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وجعل المسلمون وجهتهم بيت الله الذى بنى إبراهيم بمكة، والذى تجدّد بناؤه بعد ذلك حين رفع محمد حجره الأسود إلى مكانه من جداره وهو ما يزال فى فتوة الشباب ، وقبل أن يرد بخاطره أو بخاطر أحد من الناس ما سيُلقى الله عليه من رسالة .

صد المسلمين عن المسجد الحرام

وكان هذا المسجد الحرام إلى مئات من السنين خلت وجهةَ العرب فى عبادتهم، يحجّون إليه كل عام فى الأشهر الحرم، فمن دخله كان آمنا . فاذا التقى المرء بأشد الناس له عداوة ، لم يستطع عنده أن يجرّد سيفا أو يسفك دما . لكن قريشا آلت على نفسها منذ هاجر محمد والمسلمون معه أن يصدّوهم عن المسجد الحرام، وأن يحولوا بينهم و بينه دون سائر العرب . وفى ذلك نزل قوله تعالى منذ السنة الأولى للهجرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ﴾ (١) . ونزل كذلك قوله تعالى من بعد غزوة بدر : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا كَانَ

(١) سورة البقرة، آية ٢١٧

الإسلام كما فرضتها أديان العرب من قبل؛ وأنه أشرك العرب معه ممن ليسوا على دينه فى أداء هذه الفريضة . فان أصرّت قريش مع ذلك على مقاتلته فى الشهر الحرام ومنعه من أداء ما يؤمن العرب على اختلاف آلهتهم به، لم تجد قريش من العرب من يؤيّدها فى موقفها ولا من يُعينها على قتال المسلمين ، وكانت بإمعانها فى الصدّ عن المسجد الحرام تصرف الناس عن دين إسماعيل وعن مِلّة أبيهم إبراهيم . بذلك يأمن المسلمون أن تجتمع العرب عليهم اجتماع الأحزاب من قبل ، ويزداد دينهم رفعةً على رفعته عند العرب الذين لا يؤمنون به . وما عسى أن تقول قريش لقوم جاءوا مُحْرِمين ، لا سلاح معهم إلا سيوفهم فى غمودها، يتقدّمهم الهَدْى الذى ينحرون ، ولا همّ لهم إلا أن يؤدّوا بتطواف البيت فريضة تؤدّيها العرب جميعا !

استنفار غير المسلمين للحج

أذّن محمد فى الناس بالحج ، وطلب الى القبائل من غير المسلمين الخروج معه، فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج فى أوّل ذى القعدة أحد الأشهر الحُرُم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، يتقدّمهم على ناقته القَصْواء، فكانت عدّة الذين خرجوا ألفا وأربعمائة . وساق محمد معه الهَدْى سبعين بَدَنة، وأحرم بالعمرة، ليعلم الناس أنه لا يريد قتالا ، وأنه إنما خرج زائرا بيت الله الحرام معظّما له . فلما بلغ ذا الحُلَيْفة[1] عقص الناس الرءوس ، ولبّوا بالعمرة، وعزلوا الهدى ومازوا جوانبها اليمنى ، ومن بينها بعير أبى جهل الذى أخذوا ببدر . ولم يحمل أحد من هذا الحاجّ سلاحا إلا ما يحمل المسافر من سيف مُغْمَد . وكانت أُمّ سَلَمة زوج النبيّ معه فى هذه الرحلة .

قريش وحج المسلمين

وبلغ قريشا أمر محمد ومن معه وأنهم يسيرون قِبلَهم حاجّين ، فامتلأت نفس قريش بالمخاوف وجعلوا يُقلّبون هذا الأمر على وجوهه ، يحسبونه حيلة أراد محمد أن يحتال بها على دخول مكة بعد أن صدّهم والأحزاب معهم عن دخول المدينة.

(١) ذو الحليفة : قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة ، وهى ميقات أهل المدينة الذى يحرمون عنده للحج .

شعائر . فاذا جاء محمد ليدعو الناس الى نبذ عبادة الأصنام ، و إلى التطهّر من رجس الوثنيّة والشرك ، و إلى السموّ بالنفس إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، والارتفاع فى سبيل ذلك فوق كل نقص ، والارتقاء بالروح إلى حيث يستطيع إدراك وحدة الوجود والتوحيد بالله ، وكان من فرائض ذلك حجُّ البيت والعمرة ، فمن العُدوان منعُ أصحاب الدين الجديد من أداء هذه الفريضة . لكن قريشا خافت إن جاء محمد ومن حوله المؤمنون بالله و برسالته ، وهم من صميم أهل مكة ، أن يتعلّق سواد المكيّين بهم وأن يشعروا بما فى بقائهم بعيدين عن أهلهم وأبنائهم من ظلم ، فيكون ذلك نواة حرب أهليّة . ثم إن رؤساء قريش وأكابر أهل مكة لم ينسوا لمحمد والذين معه أنهم حطموا تجارتهم وحالوا بينهم و بين طريقهم المعبّدة إلى الشام ، وأنهم أثاروا بذلك فى نفوسهم من الحقد والبغضاء ما لن يخفف منه أن البيت لله وللعرب جميعا ، وأنهم لا يملكون من أمره إلا العناية به و رعاية زائريه .

المسلمون والكعبة

انقضت ستّ سنوات منذ الهجرة والمسلمون يتحرّقون شوقا يريدون زيارة الكعبة و يريدون الحجّ والعمرة . و إنهم لمجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبيّ بما أُلهِم فى رؤياه الصادقة : أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلِّقين رءوسهم ومقصِّرين لا يخافون . فما كاد القوم يسمعون إلى رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم ، وحتى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينة فى سرعة البرق الخاطف . ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام ؟ أفيحاربون فى سبيله ؟ أفيُجلون قريشا عنه عنوة ؟ ! أم ترى تفتح قريش لهم طريقه مذعنة صاغرة ؟ !

أذان محمد فى الناس بالحج

كلا ! لا قتال ولا حرب . بل أذّن محمد فى الناس بالحج فى شهر ذى القعدة الحرام ، وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم إلى الاشتراك و إيّاه فى الخروج إلى بيت الله آمنين غير مقاتلين . وحرص محمد فى نفس الوقت على أن يكون معه من المسلمين أكبر عدد مستطاع . وحكمته فى ذلك أن تعلم العرب كلها أنه خرج فى الشهر الحرام حاجًّا ولم يخرج غازيا ، وأنه أراد أداء فريضة فرضها

تدور معركة تقف فيها قريش مدافعة عن كرامتها وعن شرفها وعن وطنها ؛ معركة لم يرِدها محمد، وإنما حملته قريش عليها حملا وألزمته خوض غمارها إلزاما . إن المسلمين ممّن معه لا تنقصهم الحميّة، وقد تكفيهم سيوفهم إذا جُرِّدت من غمودها لدفع عدوان المعتدى ؛ لكنه يفوت بذلك قصده، وقد يجعل لقريش عند العرب حجة عليه . وهو أبعد من هذا نظرا وأكثر حُنْكة وأدقّ سياسة . إذًا ... نادى فى الناس قائلا : مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ وكذلك ظلّ مستقرّا رأيه على سلوك سياسة السلم التى رسم منذ خرج من المدينة، ومنذ اعتزم الذهاب الى مكة حاجًّا . وخرج رجل يسلك بهم طريقا وعرا بين شِعاب مُضنية وجد المسلمون فى سلوكها مشقّة أىّ مشقة، حتى أفضت بهم الى سهل عند مُنْقَطع الوادى سلكوا فيه ذات اليمين حتى خرجوا على ثنيَّة المُرَار مهبط الحُدَيْبِيَة من أسفل مكة . فلما رأت خيل قريش ما صنع محمد وأصحابه، ركضوا راجعين أدراجَهم ليقفوا مدافعين عن مكة إذا دهمها المسلمون . ولمّا بلغ المسلمون الحديبية بركت القَصْواء (ناقة النبىّ) وظن المسلمون أنها جُهِدت . فقال رسول الله : «إنما حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تَدْعُونى قريش الى خُطّة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إيّاها» . ثم دعا الناس الى النزول؛ فقالوا له : يا رسول الله، ما بالوادى ماء ننزل عليه . فأخرج هو سهما من كنانته فأعطاه رجلا نزل به الى بئر من الآبار المنثورة فى تلك الأنحاء، فغرزه فى الرمال من قاع البئر فجاش الماء، فاطمأنّ الناس ونزلوا .

تفكير المعسكرين

نزلوا، ولكن قريشا بمكة لهم بالمرصاد. وهى تُؤْثِر الموت على أن يدخلها محمد عليهم عنوة . فهل يُعِدّون لقريش عدّة النزال فيحاربوها حتى يحكم الله بينهم وبينها وحتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ؟ ! فى هذا فكّر بعضهم، وفى احتماله فكرت قريش . ولئن حدث ذلك وانتصر المسلمون لقد قُضى على قريش عند العرب كلها قضاء أخيرا، وقد تعرّضت قريش لأن ينزع محمد منها سِدانة الكعبة وسِقاية الحاجّ وكل ما تفاخر به العربَ من مراسم ومناسك دينية . ماذا تصنع إذًا ؟ ! وقف المعسكران

ولم يثنهم ما علموا من إحرام خصومهم بالعمرة وإذاعتهم فى أنحاء الجزيرة كلها أنهم لا تحركهم إلا العاطفة الدينية لقضـاء فرض يقرّه العـرب جميعا ، عن أن يقرّروا الحيلولة بين محمد ودخول مكة ، بالغاً ما بلغ الثمن الذى يدفعونه لتنفيذ قرارهم هذا . لذلك عقدوا لخالد بن الوليـد وعِكْرِمة بن أبى جهـل على جيش يبلغ عدد فرسانه وحدهم مائتين . وتقدّم هـذا الجيش حتى يحول بين محمد وأمّ القـرى ، وبلغ من تقدُّمه أن عسكر بذى طُوًى .

معسكران يلتقيان

أمّا محمد فتابع مسيرته ، حتى اذا كان بعُسْفان(١) لقيه رجل من بنى كعب سأله النبىّ عما قد يكون لديه من أخبار قريش ، فكان جوابه : « قد سمعت بمسيرك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدّموها الى كُرَاع الغَمِيم(٢) » . قال محمد : «ياويح قريش ! لقد أهلكتهم الحرب . ماذا عليهم لو خَلَّوْا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش ! فوالله لا أزال أُجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه السَّالِفة(٣) » . ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع . إنه لم يخرج من المدينة غازيا وإنمـا خرج مُحرما يريد بيت الله يؤدّى عنده الى الله فرضه . وهو لم يتخذ للحرب عُدَّتها ؛ فلعله إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش من ذلك موضع فخارها ، بل لعلها إنما أوفدت ابن الوليد وعِكْرِمة قَصْدَ إدراك هذه البغية حين علمت أنه لم يخرج مُقاتلا .

حرص محمد على السلم

وبينما كان محمد يفكر كانت فرسان مكة تبدو على مرمى النظر ، يدلّ مرآها على أنه لا سبيل للمسلمين الى درك غايتهم إلا أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحاما ، وأن

(١) عسفان : قرية أو منهلة بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة .
(٢) كراع الغميم : واد أمام عسفان بثمانية أميال .
(٣) السالفة : صفحة العنق ، وكنى بانفرادها عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إلا به .

سفارة عروة ابن مسعود

ثم رأوا أن يُوفدوا حكيما يطمئنون إلى حكمته، فتحدّثوا فى ذلك إلى عُرْوَة ابن مَسْعُود الثقفىّ . فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء مقابلتهم لمن سبقه من رسلهم. فلما اعتذروا له وأكدوا أنه عندهم غير متَّهم وأنهم يطمئنّون إلى حكمته وحسن رأيه، خرج إلى محمد وذكر له أن مكة بَيْضته ، وأنه إن يَفْضُضْها على أهله المقيمين بها بمن جمع من أوشاب الناس ثم انصرف هؤلاء الأوشاب عنه ، كان العارَ الخالد لقريش عارًا لا يرضاه محمد وإن اتصلت الحرب بينه وبين قريش ما اتّصلت . فصاح أبو بكر بعُرْوة منكرا أن ينصرف الناس عن رسول الله . وكان عروة يتناول لحيـة محمد وهو يكلّمه ، وكان المغيرة بن شُعْبة واقفا على رأس الرسول يضرب يد عُرْوة كلما تناول لحية محمد، مع علمه بأن عروة هو الذى دفع عنه قبل إسلامه ثلاث عشرة دية عن قتلى كان المغيرة قتلهم . ورجع عروة بعد أن سمع من محمد مثل ما سمع الذين سبقوه من أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء معظّما البيت مؤدّيا فرض ربّه . فلما كان عند قريش قال لهم : «يامعشر قريش، إنى جئت كِسْرَى فى ملكه ،وقيْصَرَ فى ملكه ،والنَّجَاشىّ فى ملكه ،وإنى والله ما رأيت مَلِكًا فى قوم قطّ مثل محمد فى أصحابه . لا يتوضّأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإنهم لن يُسلموه لشيء أبدًا، فرَوْا رأيكم » .

سفارة محمد إلى قريش

وطالت المحادثات على النحو الذى قدّمنا . ففكر محمد فى أن رسل قريش ربما لم يكن لديهم من الإقدام ما يُقنعون به قريشا بالرأى الذى يرى . فبعث من جانبه رسولًا يبلّغهم رأيه . لكنهم عقَروا جمل هذا الرسول، وأرادوا قتله لولا أن منعته الأحابيش فخَلَّوْا سبيله . وقد دلّ أهل مكة بتصرّفهم هذا على ما يسودهم من روح الخصومة والبغضاء مما قلِق له صبر المسلمين، حتى لقد فكر بعضهم فى القتال . وفيما هم كذلك يتبادلون الرسل يحاولون أن يصلوا إلى اتفاق، كان بعض السفهاء من قريش يخرجون ليلا يرمون عسكر النبىّ بالحجارة ؛ حتى خرج منهم أربعون أو خمسون رجلا يوما ليصيبوا من أصحاب النبىّ، فأخذوا أخذًا وجيء بهم اليه . أفتدرى ماذا صنع ؟ ! عفا عنهم وخلَّى سبيلهم تشبثًا منه بخطة السلم واحتراما للشهر

يفكر كلٌّ فى الخطة التى يتّبع . فأمّا محمد فظل على خُطَّته التى رسم منذ أعدّ للعمرة عدّته، خطة السلم والجنوح عن القتال إلا أن تهاجمه قريش أو تغدر به ، وهنالك لا يبقى من انتضاء السيف مفرّ . وأمّا قريش فتردّدت ثم فكرت فى أن توفد اليه من رجالها من يتعرّف قوته من ناحية ، ومن يصدّه عن دخول مكة من ناحية أخرى . وجاءه بُدَيْل بن وَرْقاء فى رجال من خُزَاعة يسألونه ما الذى جاء به . فلما اقتنعوا من حديثه بأنه لم يأت يريد حربًا وإنما جاء زائرا للبيت معظِّما لحرمته ، رجعوا إلى قريش يريدون إقناعهم ليُخَلُّوا بين الرجل وأصحابه وبين البيت العتيق . لكن قريشا اتهموهم وجبهوهم وصاحوا بهم : وإن كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا يدخل علينا عنوة أبدًا ولا تحدّث بذلك عنّا العرب . ثم بعثت قريش رسولا آخر لم يسمع إلا ماسمع صاحبه ولم يغامر بأن يُتَّهم عند قريش . وكانت قريش تعتمد فيما أعدّت من قتال محمد على حلفائها من الأحابيش (١) ، ففكرت أن توفد سيِّدهم لعله إذا رأى أن محمدا لا يسمع له ولا يتفاهم وإياه ازداد لقريش نصرةً فزادهم على محمد قوة . وخرج الْحُلَيْس سيِّد الأحابيش قاصدا معسكر المسلمين . فلما رآه النبيّ مقبلا أمر بالهَدْى أن تطلق أمامه، لتكون تحت نظره دليلا ماديًّا على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنما جاءوا حاجِّين معظِّمين البيت . ورأى الحُلَيْس الهَدْى سبعين بَدَنَة تسيل عليه من عُرْض الوادى قد تأكّلت أوبارها ؛ فتأثّر لهذا المنظر وثارت فى نفسه ثائرات دينه ، وأيقن أن قريشا ظالمة هؤلاء الذين لا يريدون حربا ولا عدوانا . فانقلب إلى قريش دون أن يلقى محمدا وذكر لهم ما رأى . فلما سمعوا حديثه غاظهم وقالوا له : اجلس فانما أنت أعرابىٌّ لا علم لك . وغضب الحليس لمقالتهم وأنذرهم أنه ماحالفهم ليصدّ عن البيت من جاء معظِّما إيّاه، وأنهم إن لم يُخَلُّوا بين محمد وما جاء به نَفَر بالأحابيش عن مكة . وخشيت قريش عاقبة غضبه فاسترضوه وطلبوا إليه أن يُنْظِرهم حتى يفكروا فى أمرهم .

رسل قريش إلى محمد

(١) الأحابيش : أحياء من القارة (قوم من العرب رماة) سموا بذلك لاسودادهم ، أو لتجمعهم ، أو نسبة إلى حبشى (بضم الحاء وسكون الباء) جبل بأسفل مكة .

لعدوّ أن يقتل فى حرم الكعبة ولا فى حرم مكة عدوّه، وتمثّل أمامهم غدر قريش برجل ذهب إليهم فى رسالة سلم وموادعة . ووضع كلٌّ منهم يده على قبضة سيفه سمة النذير وسمة البطش والغضب . ودخل فى رُوع النبيّ عليه السلام أن قريشا قتلت عثمان فغدرت فى الشهر الحرام فقال : « لا نَبرح حتى نناجز القوم » . ودعا أصحابه إليه وقد وقف تحت شجرة فى هذا الوادى فبايعوه جميعا على ألّا يَفِرّوا حتى الموت . بايعوه وكلهم ثابت الإيمان ، قوىّ العزيمة ، ممتلئ حماسة للانتقام ممن غدر وقتل . بايعوه بيعة الرضوان التى نزل فيها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (١) . فلما أتم المسلمون البيعة ضرب عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان . وبهذه البيعة اهتزّت السيوف فى غمودها، وتبدّى للمسلمين جميعا أن الحرب آتية لا ريب فيها ، وجعل كلٌّ ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد بنفس راضية وفؤاد مرتاح وقلب مطمئنّ . وإنهم لكذلك إذ ترامى اليهم أن عثمان لم يُقتل، ثم لم يطل بهم الأمر حتى جاء عثمان بنفسه اليهم . على أن بيعة الرضوان هذه بقيت مع ذلك، كبيعة العقبة الكبرى، علَمًا فى تاريخ المسلمين، كان محمد يستريح الى ذكره لما كشف من متانة الروابط بينه وبين أصحابه، ولما دلّ عليه من مبلغ إقدامهم على خوض مخاطر الموت لا يخافون . ومَنْ أقدم على مخاطر الموت خافه الموت وعنت له جبهة الحياة وكان من الفائزين .

رسالة قريش إلى محمد

عاد عثمان فأبلغ محمدا ما قالت قريش . فهم لم تبق عندهم ريبة فى أنه وأصحابه إنما جاءوا حاجّين معظّمين للبيت . وهم يقدِّرون أنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة فى الأشهر الحرم . وهم مع ذلك قد خرجوا من قبلُ تحت راية خالد بن الوليد لقتاله وصدّه عن دخول مكة ، وقد وقعت بين بعض رجالهم وبعض رجاله مناوشات . فاذا هم بعد الذى حدث تركوه يدخل مكة تحدّثت

(١) سورة الفتح آية ١٨

الحرام أن يسفك فيه دم فى الحُدَيْبِيَة وهى من حرم مكة . وبُهِتت قريش حين عرفوا هذا وسقطت كلّ حجة لهم يريدون أن يزعموا بها أن محمدا يريد حربا ، وأيقنوا أن كل اعتداء من جانبهم على محمد لن تنظر اليه العرب إلا على أنه غدر دنىء، لمحمد الحقُّ فى أن يدفعه بكل ما أوتى من قوة .

سفارة عثمان ابن عفان

ثم إنه عليه السلام حاول أن يمتحن صبر قريش مرّة أخرى بإرسال رسول يفاوضهم؛ فدعا اليه عمر بن الخطاب كى يبلِّغ عنه أشراف قريش ما جاء له . قال عمر : «يا رسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى؛ وليس بمكة من بنى عَدِىّ بن كعب أحد يمنعنى؛ وقد عرفتْ قريش عداوتى إيّاها وغلظتى عليها . ولكنى أدلّك على رجل أعزّ بها منّى : عثمان بن عفّان» . فدعا النبيّ عثمان زوج ابنته وبعثه الى أبى سفيان وأشراف قريش . فخرج عثمان فى رسالته؛ فلقيه لأوّل ما دخل مكة أبانُ ابن سعيد فأجاره الزمنَ الذى يفرغ فيه من رسالته . وانطلق عثمان الى سادة قريش فأبلغهم رسالته . قالوا : يا عثمان، إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ . قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ؛ إنما جئنا لنزور البيت العتيق ولنعظِّم حرمته ولنؤدِّى فرض العبادة عنده . وقد جئنا بالهَدْى معنا ، فاذا نحرناها رجعنا بسلام . وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة . وطال الحديث وطال احتباس عثمان عن المسلمين ، وترامى إليهم أن قريشا قتلته غِيلةً وغدرا . ولعل سادة قريش كانوا فى هذه الأثناء يبحثون مع عثمان عن صيغة توفِّق بين قَسَمهم ألا يدخل محمد هذا العام مكة عنوة ، وبين حرص المسلمين على أن يطوفوا بالبيت العتيق ويؤدّوا إلى رب البيت فرضه . ولعلهم قد أنسوا إلى عثمان وكانوا فى هذه الأثناء يبحثون وإيّاه عن تنظيم علاقاتهم بمحمد وتنظيم علاقات محمد بهم .

بيعة الرضوان

مهما يكن من الأمر فقد قلق المسلمون بالحديبية على عثمان أشدّ القلق، وتمثّل أمامهم غدر قريش وقتلهم إيّاه فى هذا الشهر الذى لا تجيز فيه أديان العرب جميعا

أبو بكر — يا عمر الزم غَرْزك[1]، فإنى أشهد أنه رسول الله !

عمـــر — وأنا أشهد أنه رسول الله !

وانقلب عمر بعد ذلك إلى محمد وتحدّث وإيّاه بمثل هذا الحديث وهو مَغيظٌ مُحْنَق. لكن ذلك لم يغيّر من صبر النبىّ ولا من عزمه؛ وكلّ الذى قاله فى ختام الحديث لعمر: «أنا عبد الله ورسوله لن أُخالف أمره ولن يضيّعنى». ثم كان بعد ذلك من صبر محمد حين كتابة العهد ما زاد فى حفيظة بعض المسلمين. فقد دعا علىّ بن أبى طالب وقال له: "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم". فقال سهيل: "أَمْسِكْ، لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللّهم". قال رسول الله: "اُكتب باسمك اللّهم". ثم قال: "اُكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سُهَيلَ ابن عمرو". فقال سهيل: "أَمْسِكْ، لو شهدتُ أنك رسول الله لم أُقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك". قال رسول الله: "اُكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله"... ثم كتبت العهدة من الطرفين وفيها أنهما تهادنا عشر سنين، فى رأى أكثر كتّاب السيرة، وسنتين فى قول الواقدى، وأن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردّوه عليه، وأنه من أحبّ من العرب محالفة محمد فلا جُناح عليه، ومن أحبّ محالفة قريش فلا جُناح عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قُرُبها ولا سلاح غيرها.

عهد الحديبية مارس سنة ٦٢٨م

وما كاد هذا العهد يوقَّع حتى حالفت خُزاعة محمدا وحالفت بنو بكر قريشا.

تنفيذ محمد العهد

وما كاد هذا العهد يوقَّع حتى أقبل أبو جَنْدَل بن سُهَيْل بن عمرو على المسلمين يريد أن ينضم إليهم ويسير معهم. فلما رأى سهيل ابنه، ضرب وجهه وأخذ بتَلْبِيبه وجعل يجرّه ليردّه إلى قريش، وأبو جندل يصيح بأعلى صوته: يامعشر المسلمين! أأُرَدّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى! . وزاد ذلك فى قلق المسلمين وعدم رضاهم

(١) الغرز: الرحل.

العرب بأنهم انهزموا أمامه، فتضعضعت فى نظر العرب مكانتهم وسقطت هيبتهم . لذلك هم يصرّون على موقفهم منه هـذا العام إبقاءً على هـذه الهيبة واستبقاء لتلك المكانة . فليفكر وإيّاهم ، وهـذا موقفه وموقفهم ، لعلهم جميعا يجـدون من هذا الموقف مخرجا ، وإلا فليس إلا الحرب يدخلونهـا طوعا أو كرها . بل إنهم لهـا لكارهون فى هـذه الأشهر ، تقديرا لحرمتها الدينيّـة من ناحية ، ولأنهـا من ناحية أُخرى، إذا لم تحترم اليوم حرمتها ووقعت الحرب فيها، لم يأمن العرب فى مسـتقبل أيامهم أن يجيئوا الى مكة وأسواقها مخافة انتهاك الأشهر الحرم مرّة أخرى، فيجنى ذلك على تجارة مكة وعلى أرزاق أهلها .

المفـاوضات بين الفريقين

واتّصل الحـديث وعادت المفاوضات بين الفريقين كرّة أخرى . وأوفـدت قريش سُهَيْل بن عمـرو وقالوا له : ائت محمدا فصالِحْهُ ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنّا عامه هذا . فوالله لا تَحَدَّث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوةً أبدا . فلمّـا انتهى سهيل الى الرسول جرت محادثات طويلة للصُّلح وشروطه كانت تكاد تنقطع فى بعض الأحيان ، ثم يعيد اتّصالهَـا حرص الجانبين على النجاح . وكان المسلمون من حول النبيّ يسمعون أمر هذه المحادثات ويضيق بعضهم بأمرها صبرا، لتشدّد سهيل فى مسائل يتساهل النبيّ فى قبولهـا . ولولا ثقـة المسلمين المطلقة بنبيّهم ، ولولا إيمانهم به، لـمـا ارتضوا ما تمّ الاتفاق عليه ، ولقاتلوا ليدخلوا مكة أو لتكون الأخرى . فقـد ذهب عمر بن الخطاب فى أعقاب المحـادثات إلى أبى بكر ودار بينهما الحديث الآتى :

أبو بكر وعمر

عمـــر — يا أبا بكر، أليس برسول الله ؟ !

أبو بكر — بلى !

عمـــر — أو لسنا بالمسلمين ؟ !

أبو بكر — بلى !

عمـــر — فعَلَامَ نعطَى الدَّنيَّة فى ديننا ؟ !

بالدولة الإسلامية وقيامها . ثم إن إقرارها للمسلمين بحق زيارة البيت ، و إقامة شعائر الحج ، اعتراف منها بأن الإسلام دين مقرّر معترف به من أديان شبه الجزيرة . وهدنة السنتين أو السنوات العشر قد جعلت المسلمين يطمئنّون من ناحية الجنوب ولا يخشون غارة قريش ، ومهّدت للإسلام أن يزداد انتشارا . أفليست قريش ألدّ أعدائه وأشدّ محاربيه قد انتهت بالإذعان لِما لم تكن تذعن له من قبل قطّ ! . وقد انتشر الإسلام بالفعل بعد هذه الهدنة انتشارا أسرع أضعافا من انتشاره من قبل . كان الذين جاءوا الى الحديبية ألفا وأربعمائة ؛ فلما كان بعد عامين اثنين وجاء محمد لفتح مكة جاء فى عشرة آلاف . وأشدّ ما اعترض عليه من ساورتهم الشكوك فى حكمة عهد الحديبية ما نصّ عليه العهد من أن مَنْ أتى محمدا من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشا من المسلمين لم يردّوه على محمد . وكان رأى محمد فى هذا أن من ارتدّ عن الإسلام و لجأ إلى قريش لم يكن جديرا بأن يعود الى جماعة المسلمين ، وأن من أسلم وحاول اللّحاق بمحمد فسيجعل الله له مخرجا . وقد صدَّقت الحادثات رأى محمد فى ذلك بأسرع مما كان يظن أصحابه ، ودلّت على أن الإسلام كسب من صلح الحديبية أعظم الكسب ، ومهّد لِما جاء بعد ذلك بشهرين اثنين من بدء محمد مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم الى الإسلام . الحديبية فتح مبين

صدّقت الحادثات رأى محمد بأسرع مما كان يظن أصحابه . فقد وَفَد أبو بَصير من مكة الى المدينة مسلمًا ينطبق عليه العهد بردّه الى قريش لأنه خرج بغير رأى مولاه . فكتب أزْهَر بن عوف والأخْنَس بن شَرِيق الى النبيّ كى يردّه ، وبعثا بكتابهما مع رجل من بنى عامر ومعه مولى لهم . قال النبيّ : يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصحّ لنا فى ديننا الغدر ، و إن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعَفين فرجًا ومخرجا ، فانطلق الى قومك . قال أبو بصير : يارسول الله ، أتردُّنى الى المشركين يفتِنونى فى دينى ! فكرّر عليه النبيّ قوله ، فانطلق مع الرجلين ؛ حتى إذا كان بذى الحُلَيْفة سأل أخا بنى عامر أن يُريه سيفه ، وما إن استوت قبضته فى يده حتى علا به العامرىّ فقتله ، فخرج المولى يعدو ناحية المدينة قصة أبى بصير

عن العهد الذى عقـد الرسول مع سهيل . لكن محمدا وجه الى أبى جنـدل قوله : « يا أبا جَنْدل، اِصبر واحتسِبْ فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المُسْتضعَفِين مخرجا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم » . وعاد أبو جنـدل الى قريش نفاذا لعهد النبيّ ووعده . وقام سهيل راجعًا الى مكة . وأقام محمد مضطربا مما رأى من شأن مَنْ حوله ، ثم صلّى واطمأنّ ، ثم قام الى هَدْيه فنحره ، ثم جلس فحلق رأســه إيذاناً بالعمرة ، وقـد امتلأت نفســه بالسكينة والرضا . فلمّا رأى الناس صنيعه ورأوا سكينته تواثبوا ينحرون ويحلقون، وإن منهـم من حلّق ومنهـم من قصّر . قال محمد : يرحم الله المحلِّقين . فتنادى الناس : والمقصِّرين يارسول الله؟ قال : يرحم الله المحلِّقين . فتنادى النـاس فى قلق : والمقصِّرين يارسول الله؟ قال : والمقصِّرين . قال بعضهم : فلم ظاهرت يارسول الله الترحم للمحلِّقين دون المقصِّرين؟ فكان جوابه : لأنهم لم يشكّوا .

لم يبق للسلمين إلا أن يرجعوا إلى المدينة فى انتظار أن يعودوا إلى مكة العام المقبل . وقد كان أكثرهم يحتمل هـذه الفكرة على مضض ولا يهوّنها على نفسه إلا أنها أمر الرسول . فهم ليس لهم عادة بهزيمة ولا تسليم من غير قتال . وهم فى إيمانهم بنصر الله رسولَه ودينــه لم تخالجهم ريبة فى اقتحام مكة لو أنّ محمدا أمر باقتحامها . وأقاموا بالحُديبية أياما، منهم من يتساءلون فى حكمة هـذا العهد الذى عقد النبيّ، ومنهـم من تحدّثه نفسه بالشك فى حكمته، ثم تحمّلوا وقفلوا راجعين . وإنهم لفى طريقهم بين مكة والمدينة إذ نزل الوحى على النبيّ بسورة الفتح . فتلا النبيّ على أصحابه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْـدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً ﴾ الى آخر السورة . سورة الفتح

لم يبق إذًا ريب فى أن عهد الحديبية فتحٌ مبين . وهو قـد كان كذلك . وقد أثبتت الأيام أن هذا العهد حكمة سياسية وبعد نظر كان لها أكبر الأثر فى مستقبل الإسلام وفى مستقبل العرب كله . فقد كانت هـذه أوّل مرّة اعترفت قريش فيها بمحمد لا على أنه ثائر بهـا خارج عليها، ولكن على أنه نِدّها وعِدْلُها؛ فاعترفت بذلك

وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ﴾[1] . وكذلك صدّقت الحادثات حكمة محمد وبعد نظره ودقّة سياسته ، وأثبتت أنه إذ عقد عهد الحديبية وضع حجرا لا يُنقض فى سياسة الإسلام وانتشاره ، وهذا هو الفتح المبين .

ما صنع محمد

اطمأنّت العلاقات بعد الحديبية بين قريش ومحمد أعظم الطمأنينة وأمن كلٌّ جانب صاحبه . واتّجهت قريش كلها إلى التوسّع فى تجارتها ، لعلها تستعيد من طريقها ما فقدته أيام اتصال الحرب بين المسلمين وبينها ، وحين سُدّت عليها طريق الشام وأصبحت تجارتها معرّضة للضياع . أمّا محمد فاتّجه بفكره إلى متابعة إبلاغ رسالته للناس جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، ووجّه نظره إلى تمهيد أسباب النجاح لطمأنينة المسلمين فى شبه الجزيرة . وهذا وذاك هو ما صنع بإرسال الرسل إلى الملوك فى مختلف الدول ، وبإجلاء اليهود عن شبه جزيرة العرب إجلاءً تامًّا بعد غزوة خَيْبَر .

(١) سورة الممتحنة آية ١٠

حتى أتى النبيّ. فلما رآه قال: إن هذا رجل قد رأى فزعا. ثم قال للرجل: ويحك! مالك؟ قال: قتل صاحبك صاحبي. ثم ما برح حتى طلع أبو بصير متوشّحا السيف موجِّها الحديث الى محمد وهو يقول: يا رسول الله، وفت ذمّتُك وأدّى الله عنك. أسلمتنى بيد القوم وقد امتنعتُ بدينى أن أُفْتَن فيه أو يُعْبَث بى. ولم يُخف الرسول إعجابَه به وتمنّيه أن لو كان معه رجال. ثم خرج أبو بَصير حتى نزل العِيصَ على ساحل البحر فى طريق قريش الى الشام. وكان عهد محمد وقريش أن تترك هذه الطريق للتجارة لا يقطعها هو ولا تقطعها قريش. فلمّا ذهب أبو بصير اليها وسمع المسلمون المقيمون بمكة بأمره و بما كان من إعجاب الرسول به، فرّ اليه منهم نحو سبعين رجلا اتّخذوه لهم إماما، وجعلوا و إياه يقطعون على قريش طريقها، حتى كانوا لا يظفَرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمرّ بهم عِير إلا اقتطعوها. هنالك رأت قريش أنها أكبر خسارة بحرصها على هؤلاء المسلمين أن يظلّوا بمكة، وقدّرت أن الرجل الصادق الإيمان محاولةُ حبسه شرٌّ من إطلاق سَراحه، فهو لا بدّ منتهز فرصة الفرار، مقيم على الذين حاولوا حبسه حربًا عوانا هم فيها الأخسرون. وكأنما ذكرت قريش محمدا حين هاجر الى المدينة وقطع عليهم طريق القوافل، وخشيت أن يكرِّر أبو بصير هذا الصنيع. فبعثت الى النبيّ تسأله بأرحامها إلّا آوى هؤلاء المسلمين حتى يتركوا الطريق آمنا. ونزلت قريش بذلك عما أصرّ عليه سُهَيْل بن عمرو من ردّ المسلمين من قريش الى مكة إذا هم ذهبوا الى محمد بغير رأى مواليهم. وسقط بذلك الشرط الذى أحفظ عمر بن الخطاب والذى كان سببًا فى ثورته التى ثار على أبى بكر. وآوى محمد أصحابَه وعاد طريق الشام آمنا.

المهاجرات المسلمات

أمّا المهاجرات من قريش الى المدينة فكان لمحمد فيهن رأى آخر. خرجت أمّ كُلْثوم بنت عُقْبة بن أبى مُعَيْط من بعد الهدنة، فخرج أخواها عُمارة والوليد يطلبان الى رسول الله أن يردّها عليهما بحكم عهد الحديبية. لكن النبيّ أبى ورأى أن هذا العهد لا ينسحب على النساء حكمه، وأن النساء إذا استجرن وجبت إجارتهن. ثم إن المرأة إذا أسلمت لم تصبح حِلًّا لزوجها المشرك فوجب التفريق بينه و بينها.

التحريم لم ينزل به القرآن إلا بعد انقضاء عشرين سنة أو نحوها على بعث النبي، وأن المسلمين ظلّوا يشربونها إلى أن نزل التحريم . ولا أدلّ على ذلك من أن التحريم لم ينزل مرّة واحدة، بل نزل على فترات جعلت المسلمين يخفّفون منها، حتى كان التحريم فانتهَوْا عن شربها . فقد رُوى عن عمر بن الخطاب أنه سأل عن الخمر وقال : اللهم بيِّن لنا فيها؛ فنزلت الآية : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾(١) . فلما لم يكفّ المسلمون بعد هذه الآية، وكان بعضهم يقضى ليله متوفّرا على شرابه حتى كان إذا ذهب إلى صلاته لا يعلم ما يقول فيها، عاد عمر فقال : اللهم بيِّن لنا في الخمر، فإنها تُذهب العقل والمال؛ فنزلت الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(٢)؛ ومن يومئذ كان منادى الرسول ينادى وقت الصلاة : لا يقربَنّ الصلاةَ سكران . وعلى رغم ما كان يقتضى هذا الأمرُ من الإقلال من الشراب وما كان له فى هذه الناحية من أثر بالغ جعل الكثيرين يُقِلّون من الخمر ما استطاعوا، عاد عمر بعد زمن يقول : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بيانا شافيا فإنها تُذهب العقل والمال . وقد كان عمر فى حِلٍّ من قولها أن كان العرب، والمسلمون من بينهم، يصل بهم الشراب الى حدٍّ يجعلهم يعربدون، يأخذ بعضهم بلحية بعض ويهوِى بعضهم على رأس بعض . دعا بعضهم جماعة الى طعام وشراب، فلما ثملوا ذكروا المهاجرين والأنصار، فأبدى أحدهم التعصّب للمهاجرين، فأخذ متعصّب للأنصار بعظمة من عظام رأس الجزور التى يأكلونها فجرح بها أنف المهاجرى . وثمل حيّانِ فتشاجرا فشجَّ بعضهم بعضا فوقعت فى أنفسهم الضغائن، وكانوا من قبل ذلك أحبّة متصافين . إذ ذاك نزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾(٣) . وقد كان أنَس الساقى يوم حرِّمت الخمر، فلمّا سمع المنادى بتحريمها بادر

(١) سورة البقرة آية ٢١٩ (٢) سورة النساء آية ٤٣ (٣) سورة المائدة آيتا ٩٠ و ٩١

الفصل الحادى والعشرون

خيبر والرسل الى الملوك

الاسلام والتنظيم الاجتماعى — تحريم الخمر — رسل محمد إلى الملوك والأمراء — المسلمون واليهود — غزوة خيبر — القضاء الأخير على سلطة اليهود — رد الملوك على رسل النبىّ — فى انتظار عمرة القضاء

عاد محمد والمسلمون معه من الحُدَيْبِيَة قافلين إلى المدينة بعد ثلاثة أسابيع من تمام الصلح بينهم وبين قريش على ألّا يدخلوا مكة هذا العام ، وأن يدخلوها العام الذى يليه . عادوا وفى نفوسهم من أمر هذا الصلح شىء ، أن اعتبره بعضهم غير متّفق مع كرامة المسلمين ، حتى نزلت سورة الفتح وهم فى الطريق وتلاها النبىّ عليهم . وجعل محمد يفكر أثناء مُقامهم بالحديبية وبعد عودهم منها ماذا عساه يصنع للمزيد من تثبيت أصحابه ، ولزيادة انتشار دعوته . وانتهى به التفكير إلى إرسال رسله إلى هِرَقْل وكِسْرَى والمُقَوْقِس ونَجَاشِىّ الحبشة وإلى الحارث الغَسّانىّ وإلى عامل كسرى فى اليمن ، كما انتهى به إلى ضرورة القضاء قضاء أخيرا على شوكة اليهود فى شبه جزيرة العرب .

نضج الدعوة الإسلامية

والحقّ أن الدعوة الإسلامية كانت قد بلغت يومئذ من النضج ما يجعلها دين الناس كافّة . فهى لم تقف عند التوحيد وما يقتضيه التوحيد من عبادات ، بل انفرج ميدانها وتناولت من صور النشاط الاجتماعىّ كلها ما يوازى بينها وبين سموّ فكرة التوحيد ، وما يجعل صاحبهما أدنى إلى بلوغ مراتب الكمال الإنسانى وإلى تحقيق المثل الأعلى فى الحياة . ولذلك نزلت الأحكام فى كثير من أمور الاجتماع .

تحريم الخمر

اختلف مؤرّخو السيرة فى تحريم الخمر متى كان ، وذهب بعضهم إلى أنه كان فى السنة الرابعة للهجرة ، ولكن أكثرهم على أنه كان عام الحُدَيْبِية . والفكرة فى تحريم الخمر اجتماعية غير متصلة بالتوحيد من حيث هو التوحيد . ولا أدلّ على ذلك من أن

تشتدّ الخصومة بينها حينا وتهدأ حينا آخر، ولا تربط بعضها ببعض رابطة تجعل منها وحدة سياسية تستطيع أن تفكر فى مواجهة نفوذ الدولتين العظيمتين . ولذلك كان عجيبا أن يفكر محمد يومئذ فى أن يُرسل رسله الى الملكين العظيمين، والى غسّان واليمن ومصر والحبشة يدعوهم الى دينه، دون خشية لما قد يترتّب على عمله هذا من نتائج ربما تجرّ على بلاد العرب كلها الخضوع لنير فارس أو بزنطية .

رسل محمد الى الملوك والأمراء

لكن محمدا لم يتردّد فى دعوة هؤلاء الملوك جميعا الى دين الحقّ. بل خرج يوما على أصحابه فقال : «أيها الناس ، إن الله قد بعثنى رحمة للناس كافّة فلا تختلفوا علىّ كما اختلف الحواريّون على عيسى بن مريم». قال أصحابه : «وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟» . قال : «دعاهم الى الذى دعوتكم اليه، فأمّا مَنْ بعثه مبعثًا قريبا فرضى وسلّم، وأما مَنْ بعثه مبعثا بعيدا فكرِه وجهه وتثاقل». ثم ذكر لهم أنه مُرسل الى هرقل وكسرى والمُقَوْقِس والحارث الغَسّانى ملك الحِيرة والحارث الحِمْيَرِىّ ملك اليمن وإلى نَجاشىّ الحبشة يدعوهم الى الإسلام . وأجابه أصحابه الى ما أراد . فصنع له خاتما من فضّة نقش عليه «محمد رسول الله» . وبعث بكتبه يقول فيها ما نضع منه مثلا أمام القارئ كتابه الى هرقل إذ جاء فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله الى هِرَقْل عظيم الروم . سلامٌ على من اتّبع الهدى . أما بعد فإنّى أدعوك بدعاية الإسلام . أَسْلِمْ تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين . فإن تولّيت فإنما عليك إثم الأريسيّين[1] . يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» . ودفع بكتاب هِرقل إلى دِحْيَة بن خليفة الكلبىّ، وبكتاب كسرى إلى عبد الله بن حُذافة السَّهْمىّ، وبكتاب النجاشىّ إلى عمرو بن أُمَيّة الضَّمْرىّ، وبكتاب المُقَوْقِس إلى حَاطِب بن أبى بَلْتَعة، وبكتاب ملكى عُمَان إلى عمرو بن العاص السَّهْمىّ، وبكتاب ملكى اليمامة إلى سَلِيط بن عمرو، وبكتاب

(١) اختلف فى وزن هذه الكلمة ومعناها، ومن معانى الأريسيين الخدم والحشم . يريد أنه مسئول عن إثم رعيته لصده إياهم عن الدين . (راجع نهاية ابن الأثير ومعجمات اللغة مادة "أرس") .

فأراقها . لكن أناسا لم يرقهم هذا التحريم فقالوا : أتكون الخمر رِجْسا وهى فى بطن فلان وفلانٌ قُتِـل يوم أُحُد ، وفى بطن فلانٍ وفلانٌ قُتِـل يوم بدر ! فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

وما أمر به الإسلام من البرّ والرحمة، وما دعا اليه من عمل الخير، وما فى عباداته من رياضة النفس والطبع ، وما يصل اليه الركوع والسجود فى الصلاة من قتـل غرور القلب ، كل ذلك جعله الكمالَ الطبيعيّ للأديان التى سبقته ، وجعل الدعوة اليه للناس كافّة .

ذولتا الرومان والفرس

كانـ هِرَقْل وكِسْرَى يومئـذ على رأس دولتى الرومان والفـرس أقوى دول العصر وصاحبتى الإملاء فى سـياسة العـالم وفى مصاير أممـه جميعا . وكانت الحـرب سجالًا بين الدولتين كما رأيت ؛ وكانت الفرس صاحبـة الغلَب أوّل الأمر فاستولت على فِلَسْطين وعلى مصر ، ووضعت يدها على بيت المَقْدِس ونقلت منه الصليب . ثم دارت على الفرس الدائرة ، فعادت أعلام بزنطيـة تخفق مرة أخرى على مصر وعلى سورية وفلسطين . واستردّ هِرَقْل الصليب بعد أن نذر، إن هو تم له النصر، أن يحج الى بيت المقدس ماشيا حتى يرد الصليب فيه الى مكانه . ومن اليسير عليك إذ تذكر مكانة الدولتين أن تقدر مايبعثه اسمهما من الرهبة الى النفوس ومن الهيبة الى القلوب، حتى لاتفكر دولة فى التعرّض لهما، ولا يدور بخلد أحد أن يفكر فى غير خِطْبة ودّهما . أمّا وذلك شأن دول العالم المعروفة يومئذ جميعا، فقـد كان أجدر ببلاد العرب أن يكون ذلك شأنهـا . فقد كانت اليمن والعـراق تحت نفوذ فارس، وكانت مصر والشام تحت نفوذ هرقل ؛ فكان الحجاز وسائر شـبه الجزيرة محصورا فى دائرة نفوذ الأمبراطوريتين . وكانت حياة العرب وقفاً على التجارة مع اليمن ومع الشام؛ فكانت بذلك محتاجة أشـدّ الحاجة الى مصانعـة كسرى وهرقل جميعا حتى لا يُفسدا بسلطانهما عليها تجارتها . ثم إن العرب لم تكن تزيد على قبائل

(١) سورة المائدة آية ٩٣

الملىء بقوة الحياة الفتيّة الى جانب فارس و بزنطية لم يكن فى ناحية الصين أو الهند، ولا كان فى ناحيــة أواسط أوربا . إنمــا كان هــذا العنصر محمدا . كانت دعوته فى شباب فتوّتها جديرة بأن تعيد الى هذه النفوس، المتهدّم داخلها بحكم التقاليد الدينية والخرافات القائمة منها مقام الإيمان والعقيدة، حياة فتيّة تجدّدها وتردّها الى الحياة.

مزاوجة الإسلام بين الروح والجسد

وشعلة الإيمان الجديد التى كانت تضىء نفس الرسول، وقوة نفسه التى سمت فوق كل قوة، هى التى هدت إلهامه إلى أن يبعث هؤلاء الرسل يدعون عظماء الأرض بدعاية الإســلام دين الحق، دين الكمال، دين الله جلّ شأنه؛ يدعونهم إلى الدين الذى يحرّر العقول لترى، والقلوب لتبصر، والذى يضع للإنسان فى حياة العقيدة، كما يضع له فى نظام الجماعة، قواعد عامة توازى بين سلطان الروح وقوة المــادّة التى تنطوى على الروح، لتبلغ بالإنسان من طريق هــذه الموازاة إلى غاية ما يستطيع بلوغه من قوة على الحيــاة، قوة لا يشوبها وهنَ ولا يشوبها غرور، ولتبلغ بالجماعة الإنسانية بفضل ذلك النظام الى خير مكان أُعِدّ لها بعد أن تسلك ما قُدِّر لهــا من دروب التطوّر بين كائنات الوجود جميعا .

القضاء الأخير على يهود شبه الجزيرة

أفيرســل محمد رســله إلى هــؤلاء الملوك وهو ما يزال يخشى غدر اليهود الذين لا يزالون مقيمين شمال المدينة؟ صحيح أنه قد عهِد عهد الحُدَيْبية، فأمِنَ قريشا وأمِنَ الجنوب كله؛ لكنه لن يأمن من ناحية الشمال أن يستعين هِرَقْل أو أن يستعين كِسْرَى بيهود خَيْبَر، وأن يحرِّك فى نفوسهم ثاراتهم القديمة، وأن يذكِّرهم إخوانهم فى الدين من بنى قُرَيْظة و بنى النَّضِير و بنى قَيْنُقَاع، وقد أجلاهم محمد عن ديارهم بعد أن حصرهم بها وقاتلهم فيهــا وقتل منهم وسفك دماءهم . واليهود أشدّ من قريش عداوة له؛ لأنهم أحرص منهم على دينهم، ولأنــ فيهم ذكاء وعلمــا أكثر ممــا فى قريش . وليس من اليسير أن يوادعهم بصلح كصلح الحديبية، ولا أن يطمئن لهم وقــد سبقت بينه و بينهــم خصومات لم ينتصروا فى إحداها . فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم اذا هم وجدوا من ناحية هرقل مددا . لا بدّ اذًا من القضــاء على شوكة هؤلاء اليهود قضاءً أخيرا حتى لا تقوم لهم من بعدُ ببلاد العرب قائمة أبدا .

ملك البحرين إلى العَلَاء بن الحَضْرَمىّ، وبكتاب الحارث الغَسَّانىّ ملك تُخوم الشام إلى شُجاع بن وهب الأَسَدىّ، وبكتاب الحارث الحِمْيَرىّ ملك اليمن إلى المهاجر ابن أُميّة المخزومى. وانطلق هؤلاء جميعا كلٌّ إلى حيث أرسله النبىّ. انطلقوا فى وقت واحد على قول أكثر المؤرّخين، وانطلقوا فى أوقات مختلفة على قول بعضهم.

فارس وبزنطية

أليس إرسال محمد هؤلاء الرسل عجبا يُثير الدهشة! أو ليس أشدّ إثارة للدهشة ألا تمضى ثلاثون عاما بعد ذلك حتى تصبح هذه البلاد التى أرسل محمد اليها رسله وقد فتحها المسلمون ودان أكثرها بالإسلام!. لكن هذه الدهشة ما تلبث أن تزول حين تذكر أن الأمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا تزعمان تحضير عالم ذلك العصر، وكانت حضارتهما هى الغالبة على العالم كله، إنما كانتا تتنازعان الغلَب المادىّ، على حين كانت القوّة الروحية فيهما جميعا قد انحلّت واضمحلّت. فقد كانت فارس مقسَّمة بين الوثنية والمجوسية. وكانت مسيحية بِزَنْطِية قد اضطربت بين مختلف المذاهب والفرق، فلم تظلّ عقيدة سليمة تحرّك القلوب وتقويها، بل انقلبت رسوما وتقاليد يهيمن بها رجال الدين على عقول السواد لحكمه واستغلاله. أمّا الدعوة الجديدة التى يدعو محمد إليها فكانت روحية صرفة، وكانت ترتفع بالإنسان إلى أسمى مراتب الإنسانية. وحيثما التقت المادّة والروح، وحيثما تعارض همّ الحاضر وأمل الخلود، انهزمت المادّة وعنا وجه الحاضر.

ثم إن فارس و بزنطية كانتا، على عظم سلطانهما، قد فقدتا قوّة الابتكار وملكة الإنشاء، ونزلتا فى عالم التفكير وفى عالم الشعور وفى عالم العمل الى دَرَك التقليد واحتذاء السلف، واعتبار كل جديد بدعة، وكل بدعة ضلالة. والجماعة الإنسانية، كالفرد الإنسانى وككل كائن حىّ، تتجدّد كل يوم. فإمّا كانت ما تزال فتيّة شابة فكان تجدّدها خَلْقا و إنشاء ومزيدا فى الحياة. و إما كانت قد بلغت الذروة ولم تعد قادرة على الإنشاء والخلق فهى تنفق من رأس مال حياتها، فحياتها لذلك فى نقص مستمرّ وفى انحدار الى درك النهاية. والجماعة الإنسانية التى تنحدر الى دَرَك النهاية مصيرها أن يخلقها عنصر خارجىّ، فيه فتوّة الحياة، خلقا جديدا. والعنصر الخارجى

ابن رَزَّام من زعماء خيبر . ولذلك كانت اليهود على اتّصال دائم بغطفان ، ولذلك استعانوا بهم أول ما ترامى إليهم خبر اعتزام محمد غزوهم . ويختلف الرواة فيما كان من غطفان : أأعانتهم ، أم حالت جيوش المسلمين بينها وبين خيبر .

ضخامة القوتين الملتقيتين

وسواء أكانت غطفان قد أعانت اليهود أم كانت قد وقفت بمعزل بعد أن وعدها محمد حظًّا من الغنائم ، فقد كانت هذه الموقعة من أكبر المواقع ، أن كانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطّوائف الإسرائيلية بأسا ، وأوفرها مالا ، وأكثرها سلاحا ، وأن كان المسلمون مؤمنين بأنه ما بقيت لليهود شوكة فى شبه الجزيرة فستظلّ المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلا دون تمام الغَلَب لهم ؛ لذلك ذهبوا مستقتلين لا يعرف التردد إلى نفوسهم سبيلا . ووقفت قريش ووقفت شبة جزيرة العرب كلها متطلعة الى هذه الغزوة ؛ حتى لقد كان من قريش مَن يتراهنون على نتائجها ولمن يتمّ الغلب فيها . وكان كثيرون من قريش يتوقّعون أن تدور الدائرة على المسلمين لما عُرف من قوة حصون خيبر وقيامها فوق الصخور والجبال ، ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال .

حصار حصون خيبر

وقف المسلمون أمام حصون خيبر متأهِّبين كاملى العُدّة . وتشاور اليهود فيما بينهم ، فأشار عليهم زعيمهم سَلّام بن مِشْكَم ، فأدخلوا أموالهم وعيالهم حصنى الوَطِيح والسُّلالِم ، وأدخلوا ذخائرهم حصن نَاعِم ، ودخلت المُقَاتِلة وأهل الحرب حصن نَطَاة ، ودخل سَلّام بن مِشْكَم معهم يحرّضهم على الحرب . والتقى الجمعان حول حصن نَطاة واقتتلوا قتالا شديدا ، حتى قيل : إن عدد الجرحى من المسلمين فى هذا اليوم بلغ خمسين . فكم كان إذًا عدد الجرحى من اليهود ! . وتُوُفِّىَ سَلّام بن مشكم ، فتولّى الحارث بن أبى زينب قيادة اليهود ، وخرج من حصن ناعم يريد منازلة المسلمين ؛ فدحَره بنو الخزرج واضطرّوه أن يرتد إلى الحصن على أعقابه . وضيّق المسلمون الحصار على حصون خيبر واليهود يستميتون فى الدفاع عنها إيمانًا منهم بأن هزيمتهم أمام محمد هى القضاء الأخير على بنى إسرائيل فى بلاد العرب .

فتح الحصون

وتتابعت الأيام ، فبعث الرسول أبا بكر براية إلى حصن ناعم كى يفتحه ، فقاتل ورجع

ولا بدّ من المسارعة إلى ذلك حتى لا يكون لديهم من الوقت متسع للاستعانة بغَطَفَان أو بغيرها من القبائل المعادية لمحمد والموالية لها .

السير لغزو خيبر

وكذلك فعل، فإنه لم يُقِمْ بالمدينة بعد عوده من الحديبية إلا خمس عشرة ليلة على قول، وشهرا على قول آخر، ثم أمر الناس بالتجهز لغزو خَيْبَر على ألّا يغزوا معه إلا من شهد الحديبية، إلا أن يكون غازيا متطوعا ليس له من الغنيمة شيء. وانطلق المسلمون في ألف وستمائة ومعهم مائة فارس، وكلهم واثق بنصر الله، ذاكر قوله تعالى في سورة الفتح التي نزلت في عهد الحديبية : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] . وقطعوا مراحل الطريق ما بين خيبر والمدينة في ثلاثة أيام لم تكد خيبر تحسّهم أثناءها، حتى لقد باتوا أمام حصونها . وأصبح الصباح وغدا عمال خيبر خارجين إلى مزارعهم ومعهم مَسَاحيهم ومَكَاتلهم، فلما رأوا جيش المسلمين ولّوا الأدبار يتصايحون : هذا محمد والجيش معه ! . وقال الرسول حين سمع قولهم : « خَرِبتْ خيبر ! إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صَبَاحُ الْمُنْذَرِين » .

تفكير اليهود

على أن يهود خيبر كانوا يتوقعون أن يغزوهم محمد، وكانوا يودّون أن يجدوا الوسيلة إلى الخلاص منه . أمّا بعضهم فنصح لهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادي القُرَى وتَيْماء تغزو يَثْرِب، دون اعتماد على البطون العربية في الغزاة . وأمّا آخرون غيرهم فكانوا يرون أن يدخلوا في حِلْف مع الرسول، لعل ذلك يمحو ما ثبت من كراهيتهم في نفوس المسلمين، والأنصار منهم خاصة، بعد اشتراك حُيَيّ بن أَخْطَب وجماعة من اليهود معه في تأليب العرب لاقتحام المدينة وأخذها عنوة في غزوة الخندق . لكن النفوس من الجانبين كانت ملأى، حتى لقد سبق المسلمون قبل غزوة خيبر بقتل كلٍّ من سَلَّام بن أبي الحُقَيْق واليسير

(١) آية ١٥

مرحب يقتله . لكن ابن مسلمة اتّقى سيفه بالدَّرَقة فوقع السيف فيها فعضَّت به فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله . وكذلك كانت هذه الحرب بين اليهود والمسلمين ضَروسا قاسية، وكانت مَنَعَة حصون اليهود تزيدها شدّة وقسوة .

مبدأ يأس اليهود

حاصر المسلمون حصن الزّبير وطال حصارهم إيّاه وقاتلوا حوله قتالا شديدا، ومع ذلك لم يستطيعوا فتحه حتى قطعوا المـاء عنه واضطرّوا اليهود فيه إلى الخروج منه والى قتال المسلمين قتالًا انتهى بالأوّلين إلى أن يلوذوا بالفرار . وكذلك جعلت الحصون تقع واحدا بعد الآخر فى أيدى المسلمين، حتى انتهوا الى الوَطِيح والسُّلَالم بمنطقة الكَتِيبة وكانا آخر حصنين منيعين لهم . هنالك استولى على نفوسهم اليأس، فطلبوا الصلح بعد أن حاز النبي أموالهم كلها بالشِّقّ ونَطَاة والكَتِيبة ، على أن يحقن دماءهم . وقَبِـل محمد وأبقاهم على أرضهم التى آلت له بحكم الفتح ، على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم .

صلح خيبر وانهيار سلطانها السياسى

عامل محمد يهود خَيْبَر بغير ما عامل به بنى قَيْنُقَاع وبنى النَّضِير حين أجلاهم عن أرضهم؛لأنه أمِن بسقوط خيبر بأس اليهود،وآمن بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة أبدا . ثم إن ما كان بخيـبر من الحدائق والمزارع والنخيل كان يحتاج الى الأيدى العاملة الكثيرة لاستغلاله وحسن القيام على زراعته . ولئن كان أنصار المدينة أهل زراعة، لقد كانت أرضهم بها فى حاجة الى أذرُعهم، كما أنّ النبيّ كان فى حاجة الى جيوشه للحرب، فهو لا يرضى أن يتركها للزرع . وكذلك ظل يهود خيبر يعملون بعد أن انهار سلطانهم السياسى انهيارا جنى على نشاطهم، حتى لقد أسرعت خيبر من ناحية الزراعة نفسها الى البوار والخراب ، على رغم ما كان من حسن معاملة النبيّ أهلها، ومن عدل عبد الله بن رَوَاحة رسوله اليهم كل عام بينهم فى القسمة . وقد كان من إحسان النبيّ معاملة يهود خيـبر أنه كان من بين ما غنم المسلمون حين غزوها عِدَّة صحائف من التوراة . فطلب اليهود ردّها، فأمر النبيّ بتسليمها لهم، ولم يصنع صنيع الرومان حين فتحوا أُورِيشَلِم وأحرقوا الكتب المقدّسة وداسوها بأرجلهم، ولا هو

ولم يكن الحصن قد فُتح . وبعث الرسول عمر بن الخطاب فى الغداة، فكان حظّه حظ أبى بكر . فدعا الرسول إليه فى الغداة علىَّ بن أبى طالب ثم قال له : خذ هذه الراية فامض بهـا حتى يفتح الله عليك . ومضى علىّ بالراية ، فلمـا دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من اليهود فطاح تُرْسه ، فتناول علىّ بابا كان عنـد الحصن فتترّس به ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن ، ثم جعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليهـا الى داخل أبنية هـذا الحصن . وإنمـا سقط حصن ناعم بعد أن قُتل قائده الحارث بن أبى زينب ، ممـا يدلّ على استماتة اليهود فى القتال واستماتة المسلمين فى الحصار وفى الهجوم .

وبعد حصن ناعم فتح المسلمون حصن القَمُوص بعد قتال شديد ، وبعد أن قلّت المؤونة عندهم قِلّة توجّه بسببها جماعة منهم يشكون إلى محمد أمرهم ، ويطلبون اليه ما يسدّون به رمقهم ، فلم يجد شيئا يعطيهم إياه وأذِنَ لهم فى أكل لحوم الخيل . وقد رأى أحد المسلمين قطيعا من الغنم يدخل إلى أحد حصون اليهود ، فاختطف منه شاتين فذبحوهما وأكلوهما . على أنه بعد أن تم لهم فتح حصن الصَّعْب بن مُعَاذ قلّت حاجتهم ، أن وجدوا فيه طعاما كثيرا مكّن لهم من متابعة قتال اليهود وحصارهم فى سائر حصونهم . واليهود أثناء ذلك كله لا يسلّمون فى شبر أرض ولا يسلّمون حصنا إلا بعـد أن يدافعوا عنه دفاع الأبطال ، وبعـد ألا يبقى لهم على صدّ هجوم المسلمين قوة . خرج مَرْحَب اليهودىّ من أحد الحصون وقد جمع للحرب سلاحه وأكمل عُدّته وهو يرتجل : استقتال اليهود

قد علمتْ خَيْبَرُ أنى مَرْحَبُ * شاكى السـلاح بَطَلٌ مجرّبُ
أطعَنُ أحيانًا وحينا أضربُ * إذا الليوث أقبلت تُحَـرّبُ(١)
إن حِمَـاىَ للحِمَى لا يُقْرَبُ * يُحْجِم عن صَـولتىَ المجـرّبُ

فصاح محمد بأصحـابه : مَنْ لهذا ؟ فقال محمد بن مَسْلَمة : أنا له يا رسول الله . أنا والله الموتور الثائر ! قُتل أخى بالأمس . وقام إليه بإذن النبىّ وتصاولا حتى كاد

(١) تحرب : تغضب . يقال : حرّبه إذا أغضبه .

بعد أن اطمأنّ و بعد أن وقع الصلح بينه وبين أهـل خيبر . فجلس وأصحابه حولها ليأكلوها ، وتناول عليه السلام الذراع فلاك منها مُضغة فلم يُسِغها ؛ وكان بِشْر بن البَرَاء معه قد تناول منها مثل ما تناول . فأمّا بِشر فأساغها وازدردها . وأمّا الرسول فلفظها وهو يقول : إن هذا العظم لَيُخبرنى أنه مسموم . ثم دعا بزينب فاعترفت وقالت : لقد بلغتَ من قومى ما لم يخفَ عليك ، فقلت : إن كان مَلِكاً استرحتُ منه ، و إن كان نبيًّا فسيُخْبَر . ومات بِشر من أكلته هذه . وقد اختلف الرواة فذكر أكثرهم أن النبيّ عفا عن زينب وقدّر لهـا عذرها بعـد الذى أصاب أباها وزوجها . وذكر بعضهم أنها قُتِلت فى بِشْر الذى مات مسموما .

وقد تركت فعـلة زينب فى نفوس المسلمين أعمق الأثر ، وجعلتهم فى أعقاب خيبر لا يثقون باليهود ، بل يخشون غدرهم أفرادا بعد أن قضى على جماعتهم القضاء الأخير . كانت صَفِيّة بنة حُيَيّ بن أخطب النَّضِيريّة من بين السبايا اللائى أخذ المسلمون من حصون خيبر ، وكانت زوجا لِكنانة بن الربيع . وكان عند كنانة مما يعرف المسلمون كنز بنى النضير . فسأله النبيّ عنه فأقسم لا يعرف مكانه . فقال له محمد : إن وجدناه عنـدك أأقتلك ؟ قال نعم . وكان أحدهم قد رأى كنانة يطوف بخربة وذكر أمره للنبي ، فأمر بالخربة فحُفِرت فأخرج منها بعض الكنز ، فقُتـل فى إنكاره . فلما خلَصت صفيّة الى المسلمين وصارت بين الأسرى ، قيل للنبيّ : « صفية سـيّدة بنى قُرَيظة والنَّضـير لا تصلح إلا لك » ، فأعتقها وتزوّجها مقتفيا بذلك أثر الفاتحين العظماء الذين كانوا يتزوّجون من بنات عظماء الممالك التى يفتحونها ليخفّفوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم . وقد خشى أبو أيّوب خالد الأنصاريّ أن تتحرك فى نفسها الضغينة على الرسول الذى قتل أباها وزوجها وقومها ؛ لذلك بات حول الخيمة التى أعرس فيهـا محمد بصفيّة فى طريق عودته من خيبر متوشّحا سيفه . فلمـا أصبح الرسول ورآه سأله : مالَكَ ؟ قال : خِفت عليك من هـذه المرأة وقد قتلتَ أباها وزوجها وقومها ، وقد كانت حديثة عهـدٍ بكفر . على أن صفيّة أقامت على الوفاء لمحمد حتى قبضه الله إليه . وقد اجتمع نساؤه حوله فى مرضه

زواج محمد صـفية ابنة حيي بن أخطب

صنع صنيع النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأَنْدُلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة .

يهود فدك

ولما طلب يهود خيبر الصلح أثناء محاصرة المسلمين إيّاهم فى حصنى الوطيح والسَّلَالم ، بعث النبىّ الى أهل فَدَكَ لِيُسلموا برسالته أو يُسَلِّموا أموالهم . ووقع فى نفوس أهل فدك الرعب بعد الذى علموا من أمر خيبر، فتصالحوا على نصف أموالهم من غير قتال . فكانت خيبر للمسلمين لأنهم قاتلوا لاستخلاصها ، وكانت فَدَكُ خالصةً لمحمد لأن المسلمين لم يُجْلِبوا عليها بخيل ولا رِكاب .

إذعان وادى القرى

وتجهَّز الرسول بعد ذلك كله للعود الى المدينة عن طريق وادى القُرَى ، فتجهَّز يهودها لقتال المسلمين ، وقاتلوا . لكنهم اضطُرُّوا للإذعان والصلح كما صنعت خيبر . أمّا يهود تَيْماء فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال . وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبىّ ، وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى شبه الجزيرة ، وأصبح محمد بمأمن من ناحية الشمال الى الشام ، كما صار من قبل ذلك بمأمن من ناحية الجنوب بعد صلح الحديبية . وبانهيار سلطان اليهود خفّت بغضاء المسلمين ، والأنصار منهم خاصة ، لهم ، وتغاضَوْا عن رجوع بعضهم الى يثرب ، ووقف النبى مع اليهود الذين بكوا عبدالله بن أُبَىّ وعزّى ابنه ، وأوصى مُعاذ بن جبل بألا يَفتِن اليهود عن يهوديّتهم ، ولم يفرض الجزية على يهود البَحْرَيْن وإن ظلّوا متمسكين بدين آبائهم ، وصالح بنى غازية وبنى عريض على أن لهم الذمّة وعليهم الجزية . وعلى الجملة دان اليهود لسلطان المسلمين، وتضعضع فى بلاد العرب مركزهم ، حتى اضطرّوا إلى مهاجرة تلك البلاد وكانوا من قبل بها أعزّة ، وحتى تم جلاؤهم فى حياة الرسول على قول ، وبعد وفاته على قول آخر .

إذعان اليهود لسلطان المسلمين

الشاة المسمومة

على أن إذعان أهل خيبر وسائر اليهود لمصيرهم فى شبه الجزيرة ، لم يقع مرة واحدة بعد هزيمتهم ، بل لقد كانت نفوسهم فى أثر الهزيمة ملأى بالغلّ والغضب أخبث الغضب . أهدت زينب بنت الحارث امرأة سَلّام بن مِشْكَم الى محمد شاة

الحفلات بردّ الصليب اليه؛ ولم يعبأ بهذا الداعى الى دين جديد. ولم يَدْرِ بِخَلَدِه أن سنوات قليلة لن تمضى حتى يكون بيت المقدس وتكون الشام فى ظلّ الراية الإسلامية، وأن العاصمة الإسلامية ستنتقل الى دمشق، وأن النضال بين دول الإسلام والأمبراطورية الروميّة لن تهدأ ثائرته حتى يستولى الأتراك على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣، وحتى يُحيلوا كنيستها الكبرى مسجدا يكتب فيه اسم هذا النبىّ الذى حاول هرقلُ أن يظهر مظهر من لا يحفِل به أو يُعْنَى بأمره، وأن تظلّ هذه الكنيسة مسجدا عدّة قرون حتى يحيلها المسلمون الأتراك متحفا للفن البزنطىّ.

كسرى وكتاب النبى

أمّا كِسْرَى عاهل الفرس فإنه ما لبث حين تُلِىَ عليه كتاب محمد يدعوه الى الإسلام أن استشاط غضبا وشقّ الكتاب؛ وكتب الى بازان عامله على اليمن يأمره بأن يبعث اليه برأس هذا الرجل الذى بالحجاز. ولعله كان يحسب فى هذا ما يخفّف من آثار هزائمه أمام هرقل. فلما بلغت النبىّ مقالة كسرى وما فعل بكتابه قال: مزّق الله ملكه. وأوفد بازان رسله برسالة الى محمد. وفى هذه الأثناء كان كسرى قد خلَفه ابنه شِيرَوَيْهِ، وكان النبىّ قد عرف ذلك فأخبر رسل بازان به وطلب اليهم أن يكونوا رسله الى بازان يدعونه الى الإسلام. وكان أهل اليمن قد عرفوا ما حلّ بفارس من هزائم وقد شعروا بانحلال سلطانها عنهم. وقد اتّصلت بهم انتصارات محمد على قريش وقضاؤه على سلطة اليهود. فلما رجع رسل بازان اليه وأبلغوه رسالة النبىّ كان سعيدا بأن يُسلم وأن يبقى عامل محمد على اليمن. وماذا ترى يطلب محمد اليه وما تزال مكة بينه وبينه؟. إذًا فله الغُنْم بعد أن تقلّص ظلّ فارس فى أن يحتمى بالقوة الناشئة الجديدة فى بلاد العرب من غير ان تطلب اليه هذه القوّة شيئا. ولعلّ بازان لم يقدِّر يومئذ أنّ انضمامه الى محمد كان نقطة ارتكاز قوية للإسلام فى جنوب شبه الجزيرة، كما دلّت الأحوال عليه بعد عامين اثنين.

ردّ المقوقس

وكان ردّ المقوقس عظيم القِبْط فى مصر غير ردّ كسرى، بل كان أجمل من رد هِرقل. فقد بعث الى محمد يُخبره أنه يعتقد أن نبيًّا سيظهر، ولكنه سيظهر فى الشام،

الأخير، فقالت صفيّة : أَمَا والله يا نبيَّ الله لَوددتُ أن الذى بك بى . فغمزها أزواج النبيّ . فقال لهن : مَضْمِضْن . قلن : من أىّ شيء يانبيّ الله؟ قال : من تغامزكن بصاحبتكن ، والله إنها لصادقة . وبقيت صفيّة بعد النبيّ حتى خلافة معاوية ، وفيها توفِّيت ودُفنت بالبقيع .

ماذا فعل الله بالرسل الذين أوفد محمد الى هِرَقْل وكسرى والنجاشيّ وغيرهم من الملوك المحيطين ببلاد العرب ؟ ! هل سافروا قبل غزوة خيبر، أو أنهم حضروها حتى تمّ النصر للسلمين فيها ثم سافروا من بعدها كلٌّ الى ناحيته ؟ يختلف المؤرّخون فى ذلك اختلافا كبيرا يصعب معه القطع فى الأمر بقول. وأكبر ظنّنا أنهم لم يسافروا جميعا فى وقت واحد ، وأن منهم من سافر قبل خيبر ومنهم من سافر بعدها . فقد جاء فى غير رواية أن دِحْيَة بن خليفة الكلبيّ حضر خيبر وهو مع ذلك الذى ذهب برسالة هِرَقْل . سافر اليه وكان هِرقل يومئذ عائدا يحفّ به النصر بعد أن تغلّب على الفرس واستنقذ منهم الصليب الأعظم الذى أُخذ من بيت المقدس، وآن له أن يتم نذره وأن يحج الى بيت المقدس ماشيا ليردّ الصليب الأعظم مكانه . وكان قد بلغ من سياحته مدينة حِمْص حين حُمِل الخطاب اليه . هل حمله اليه جماعة من رجاله بعد أن أسلم دِحْية الخطاب الى عامله على بُصْرَى ، أو أنه اطّلع عليه بعد أن أدخِل جماعة من البدو ودِحْية على رأسهم يقدِّم اليه الكتاب بنفسه ؟ هذا ما تضطرب الرواية كذلك حوله . وتُلِي الخطاب عليه وتُرْجِم له ، فلم يغضب ولم تَـثُرْ ثائرته ولم يفكر فى إرسال جيش يغزو بلاد العرب ، بل ردّ على الرسالة ردًّا حسنا ، جعل بعض المؤرّخين يزعمون خطأ أنه أسلم .

رسول النبى إلى هرقل

وفى نفس الوقت بعث الحارث الغَسَّانى الى هِرَقْل يُخبره أن رسولا جاءه من محمد بكتاب ، رأى هرقل شبهه بالكتاب الذى أرسل اليه يدعوه الى الإسلام ، ويستأذن الحارثُ فى أن يقوم على رأس جيش لمعاقبة هذا المدَّعِى النبوّة . لكن هرقل رأى الخير فى أن يكون الحارث ببيت المَقْدِس حين زيارته إيّاه ليزيد فى جلال

جواب هرقل

بما حملوا من رسالات فى أكثرها رقّة وعطف، وفى بعضها غلظة وشدّة . فكيف تلقّى أولئك الملوك رسالة الدين الجديد من غير أن يتألّبوا على صاحب الدعوة له، ومن غير أن يتضافروا على سحقه؟ ذلك أن عالم يومئذ كان كعالمنا الحاضر، قد طغت فيه المادّة على الروح، وأصبح فيه التّرَف غاية الحياة، وأصبحت الأمم تقتتل حبًّا فى الظفر و إرضاء لمطامع ملوكها وساداتها وشفاء لغرور أنفسهم، أو طمعا فى مزيد من الترف تبلغه وتستمتع به . ومثل هـذا العالَم تهوى فيه العقيـدة إلى شعائر تقام فى العلن لا تؤمن النفوس التى تؤدّيهـا بشىء ممـا وراءها، ولا تُعْنَى إلا بان تكون فى حكم صاحب السلطان الذى يُطعمها و يكسوها و يكفل لها رخاء العيش وعرض الجـاه وكثرة المـال ، ولا تستمسك بهذه الشعائر إلا بمقـدار ما تدرّ عليها من خير مادىّ . فاذا فاتها هـذا الخير، خارت عزيمتها، وتضعضعت همّتها، ووهنت فيها قوّة المقاومة . لذلك لم يلبث الناس حين سمعوا دعوة جديدة للإيمان فيها بساطة، وفيها قوّة، وفيها مساواة أمام ربٍّ واحد إيّاه نعبد و إيّاه نستعين، هو وحده الذى يملك ضرّ النفوس ونفعها ، شـعاعٌ من رضاه يبدد غضب ملوك الأرض جميعا، ومخافة غضبه تزعزع النفس و إن أغرقها الملوك كلهم فى النعمة والرضـا، والرجاءُ فى مغفرته متّصل لمن تاب وآمن وعمل صالحا — لم يلبث الناس حين سمعوا هذه الدعوة، ورأوا صاحبها يقوَى بها على الاضطهاد، وعلى الظلم، وعلى التعذيب، وعلى كل ما فى الحياة المـاديّة من قوى؛ و يمتدّ بها سلطانه، وهو اليتيم الفقير المحروم، إلى ما لم يحلم به أحد من قبله فى بلده ولا فى بلاد العرب كلهـا، أن اشرأبّتْ الأعناق، وأُرهفت الآذان، وشعرت النفوس بظمئهـا ، وتطلّعت الأرواح لمورد رِيِّها، لولا بقية من الخوف والشك تقوم بينها و بين الحقيقة حجابا . لذلك ردّ من ردّ من الملوك فى رفـق ورقّة ؛ و بذلك ازداد المسلمون إيمـانًا على إيمـانهم وقوّة فى يقينهـــم .

عودة المسلمين من الحبشـة

عاد محمد من خيبر، وعاد جعفر والمسلمون معه من الحبشة، وعاد رسل محمد من حيث أوفدهم، والتقوا جميعا بالمدينة كرّة أخرى . التقوا ليقضوا بقيّة عامهم هذا

وأنه استقبل رسوله بما يجب له من إكرام، وأنه بعث معه بهديّة: جاريتين وبغلة بيضاء وحمارٍ ومقدار من المـال وبعض خيرات مصر. أمّا الجاريتان فمَارِيَّة التى اصطفاها النبيّ لنفسه والتى ولدت له إبراهيم من بعدُ، وسيرِين التى أُهديت إلى حسّان ابن ثابت. وأمّا البغلة فأسماها النبي دُلْدُل، وكانت فريدة ببياضهـا بين البغال التى رأتها بلاد العرب. وأمّا الحمـار فأسمى عُفَيْرًا أو يعفورا. وقبـل محمد هذه الهديّة، وذكر أن المقوقس لم يُسلم خشية أن يسلبه الروم ملك مصر، وأنه لولا ذلك لآمن ولكان من حظّه الهدى.

ردّ النجاشى

وكان طبيعيًّا، بعد الذى عرفنا من صِلات نجاشيّ الحبشة بالمسلمين، أن يكون ردُّه جميلا؛ حتى لقـد ورد فى بعض الروايات أنه أسـلم وإن أثارت طائفة من المستشرقين الشك حول إسلامه هذا. على أن الرسول بعث له غير كتاب دعوته الى الإسلام بكتاب آخر يطلب اليه ردّ المسلمين الذين أقاموا بالحبشة الى المدينة. وقد جهَّز لهم النجاشيّ سفينتين حملتاهم وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب ومعهم أُمّ حَبِيبَةَ رَمْلة بنت أبى سُفْيان بعد أن مات زوجها عبد الله بن جحش الذى جاء الى الحبشة مسلما ثم تنصّر وبقى على نصرانيّته حتى مات. وقد أصبحت أمّ حبيبة بعد عودها من الحبشة من أزواج النبيّ ومن أمهات المؤمنين. ذكر بعض المؤرخين أن النبيّ تزوّجها ليرتبط مع أبى سفيان برابطة النسب توكيدا لعهد الحُدَيْبية، ورأى آخرون فى زواج رملة من محمد، وأبو سفيان على وثنيّته، ما تألم له نفسه ويَغصّ به حَلْقـه.

وأمّا أمراء العرب فقد ردّ أمير اليمن وعُمَان على رسالة النبيّ ردًّا فاحشا. ورد أمير البحرين ردّا حسنا وأسـلم. ورد أمير اليمامة مُظهرا استعدادَه للإسـلام إذا هو نُصب حاكما؛ فلعنه النبيّ لمطامعه. ويذكرون أنه لم يلبث إلا عاما بعد ذلك ثم مات.

لماذا كانت ردود أكثر الملوك رقيقة

يستوقف القـارئ ما فى إجابات أكثر هؤلاء الملوك والأمراء من رفق ومن حسن رأى، وأنه لم يُقْتَل أحد من رسل محمد ولم يسجن، بل عادوا اليه كلّهم

الفصل الثانى والعشرون
عمـــرة القضـاء

ركب المسلمين إلى مكة — جلاء قريش عن مكة — نزول المسلمين بها — طواف محمد وهرولته — زواج محمد من ميمونة — رغبته إلى قريش أن يعرس بمكة ورفضهم ذلك - إسلام خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة

خروج المسلمين الى مكة

استدار العام بعد الحديبية، وأصبح محمد وأصحابه فى حلٍّ، بعهدهم مع قريش، من الدخول الى مكة ومن زيارة الكعبة . لذلك نادى الرسول فى الناس كى يتجهزوا للخروج إلى عُمْرة القضاء بعد أن مُنعوا من قبلُ منها . ويسيرٌ عليك أن تقدّر كيف أقبل المسلمون يُلَبُّونَ هذا النداء، ومنهم المهاجرون الذين تركوا مكة منذ سبع سنوات، ومنهم الأنصار الذين كانت لهم مع مكة تجارة ولهم إلى زيارة البيت الحرام هوًى . لذلك زاد الركب إلى ألفين بعد أن كان ألفًا وأربعمائة فى العام الذى سبقه . وتنفيذًا لعهد الحديبية لم يحمل أحد من هؤلاء الرجال سلاحا إلا سيفا فى قِرابه . لكن محمدا كان يخشى الغدر دائما . فجهّز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مَسْلَمة، وبعثهم طَليعة له على ألّا يتخطّوا حرم مكة، وأن ينحدروا إذا هم بلغوا مَرّ الظَّهْران إلى واد قريب منها . وساق المسلمون الهَدْى أمامهم ستين ناقة وقد تقدّمهم محمد على ناقته القصواء، وساروا من المدينة يحدوهم شغف أىّ شغف بالدخول إلى أم القُرَى والطواف ببيت الله، ويرقُب كل واحد من المهاجرين أن يرى البقعة التى وُلِد فيها، والبيت الذى شبّ عن الطوق بين جدرانه، والأصحاب الذين غادر، وأن يتنسّم عَرْف هذا الوطن المقدّس، وأن يلمس فى إجلال وإعزاز ثرى القرية المباركة الميمونة التى أنجبت الرسول والتى نزل فيها أوّل ما نزل من الوحى . وتستطيع أن تتصوّر هذا الجيش من المسلمين وعِدّتهم ألفان يُغذُّون سيرهم تطْفِر(١) أمامهم قلوبهم وترقص جَذَلًا أفئدتهم، فإذا أناخوا جعل

(١) الطفر : الوثوب .

مشوقين ليوم فى العام القابل يحجّون فيه الى مكة يدخلونها آمنين مُحَلِّقين رءوسهم ومُقَصِّرين لا يخافون . وقد بلغ من غبطة محمد بلُقيا جعفر أن ذكر أنه لا يدرى بأىٍّ هو أشد اغتباطا : بالنصر على خيبر أو بلُقْيا جعفر . وفى هذه الفترة تجرى القصة التى تروى أن اليهود سحروا محمدا بفعل لبيد حتى كان يحسب أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله . وهى قصة اضطربت فيها الروايات اضطرابا شديدا يؤيّد رأى القائل بأنها محض اختراع لا شيء فيها من الحق .

انتظار عمرة القضاء

وأقام المسلمون آمنين بالمدينة ، مستمتعين بالعيش ، ناعمين بفضل من الله ورضوان ، لا يفكرون من أمر الغزو فى أكثر من إرسال بعض السَّرايا لمعاقبة من يفكر فى الاعتداء على حقهم أو سلب شيء من مالهم ومتاعهم . فلما استدار العام وكانوا فى ذى القعدة خرج النبيّ فى ألفين من رجاله لعمرة القضاء نفاذًا لعهد الحديبية ، و إطفاء لظمأ هذه النفوس الشديدة الظمأ لأداء فرائض البيت العتيق .

ارحم امرأً أراهم اليوم من نفســه قوة . ثم استلم الركن عند الحجر الأسود وهَرْوَل وهَرْوَل أصحابه معه ، فلمّا استلم الركن اليمـانىّ مشى حتى اسـتلم الحجر الأسـود مُهَروِلًا من جديد ثلاثة أطواف ومشى سائرها . والألفـان من المسلمين يهرولون كلما هرول ، ويمشون كلمـا مشى . وقريش تنظر من فوق أبى قُبَيْس ، فيأخذها لهذا المنظر البَهَــر(١) من كل مكان وتشهد أنهـا ، وكانت تحـدِّث عن محمد وأصحابه أنهـم فى عُسر وشدّة وجهد ، قد رأت ما يمحو من فؤادها كل وهم بِوَهْنِ محمد وأصحابه . وفى حماسة هذه الساعة أراد عبد الله بن رَوَاحة أن يقذف فى وجه قريش بصيحة حرب ؛ فصدّه عمر ، وقال له الرسول : « مَهْلا يا بن رَوَاحة ! وقل لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعزّ جنده ، وخذَل الأحزاب وحده » أو كما قال . فنادى بهـا ابن رواحة بأعلى صوته ، وردّدها المسلمون من بعـده ، فتجاوبت بأصدائها جوانب الوادى ، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين تَسَنَّموا الجبال حوله .

ولمـا أتمّ المسلمون الطواف بالكعبة انتقل محمد على رأسهم إلى الصفا والمروة فركب بينهما سبعًا ، كما كان يفعل العرب من قبل ، ثم نحر الهَدْى عند المروة وحلق رأسه ، وأتمّ بذلك فرائض العُمْرة . ولمـا كان الغد دخل محمد إلى الكعبة وبقى بها حتى صـلاة الظهر . ولقـد كانت الأصنام ما تزال تعمرها . مـع ذلك علا بِلال سقفها وأذّن فى الناس لصلاة الظهر عندها . وصلّى النبىّ يومئذ بألفين من المسلمين صـلاة الإسلام عند البيت الذى كان يُصَدّ من سبع سنين عن الصلاة عنده . وأقام المسلمون بمكة ثلاثة الأيام المفروضة فى عهد الحُدَيْبية ، وقد خلت أُمّ القُرَى من أهلها ، فجاس المسلمون خِلالها لا يصيبهم فيها أذًى ولا يعترضهم أحد بسوء . والمهاجرون منهم يزورون دورهم ويُزِيرون أصحابهم من الأنصار إيّاها ، وكأنمـا هم جميعا أصحاب هذا البلد الأمين ؛ وكلهم يسير سيرة الإسـلام يُؤَدِّى إلى الله كل يوم صـلواته فيقتل فى نفسه غرورها ، ويُعين قويّهم ضعيفهم ، ويَبَرّ غنيُّهـم فقيرهم ؛ والنبى يتنقّل بينهم أبًا محبًّا محبوبا ، يبسم لهذا ، ويمزح مع ذاك ، ثم لا يقول إلا حقًّا .

ثلاثة أيام بمـكة

(١) البهــر : العجب .

كلٌّ منهـم يقصّ على أصحابه آخر عهـده بمكة أو أيّام طفولته بهـا ، أو يحدّث عن أصدقائه فيها ، أو عن المـال الذى ضحّى به فى سبيل الله عند هجرته منهـا . تستطيع أن تتصور هذه المظاهرة الفذّة من نوعها، يُزْجى سيرها الإيمان، ويجذب أصحابها إليه بيت جعـله الله مَثَابة للناس وأمْنًا . إنك إذًا لترى بعين بصيرتك أىّ طرب كان يستخفّ هؤلاء الذين حيل بينهم و بين هذا الفرض المقدّس إذ يسيرون إليه ليدخلوا مكة آمنين، محلّقين رءوسهم ومقصّرين، لا يخافون .

جلاء قريش عن مكة

وعرفت قريش بمَقْدَم محمد وأصحـابه، بخلَت عن مكة ، نزولًا على صلح الحديبية، وصَعِدت فى التلال المجاورة لها حيث ضربت الخيام، وحيث أوى منهم من أوى إلى فَىْء الشجر . ومن فوق أبى قُبَيْس وحِرَاء، ومن فوق كل مرتفع مطلٍّ على مكة ، أطلّ هؤلاء المكيّون ينظرون بعيون كلها تطلُّع إلى الطريد وأصحـابه داخلين بلد البيت الحرام لا يصدّهم عنه صادّ، ولا يحول بينهم و بينه حائل . وانحدر المسلمون من شمال مكة وقد أخذ عبد الله بن رَوَاحة بخِطام القَصْوَاء ، وأحاط كبار الصحابة بالنبىّ عليه السـلام، وسارت الصفوف من خلفهم ما بين راجل ومقتعد غارِبَ بعيره . فلمـا انكشف البيت الحرام أمامهم، انفرجت شفاه المسلمين جميعا عن صوت واحد منادين : لَبَّيْك لَبَّيْك ! متوجّهين بالقلوب والأرواح إلى وجه الله ذى الجلال، محيطين فى هالة من رجاء و إكبار بهذا الرسول الذى بعثه الله بالهُـدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والحق أنه كان مشهدا فذًّا من مشاهد التاريخ التى اهتزّت لهـا أرجاؤه، والتى جذبت إلى الإسـلام قلوب أشَدّ المشركين صلابة فى وثنيّته وفى عناده . وعلى هـذا المشهد الفذّ كانت تقع عيون أهل مكة ، وهـذا الصوت المنبعث من القلوب يُدَوِّى : لَبَّيْك ! لَبَّيْك ! كان يخترق آذانهم فيهزّ قلوبهم

المسلمون أمام البيت الحرام

الطواف بالكعبة

هزّا . ولمـا بلغ الرسول المسجد اضطبع[1] بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال : اللّهم

(١) الاضطباع : أن يأخذ الانسان الازار أو البرد فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن و يلق طرفيه على كتفه الأيسر من جهتى صدره وظهره .

أزواج النبيّ، عُمِّرت بعده خمسين سنة ، ثم طلبت أن تُدفن حيث بَنَى بها رسول الله . وحمل محمد معه أختى ميمونة سَلْمَى أرملة عمّه حمزة، وعمارة البِكْر التى لم تتزوّج .

وبلغ المسلمون المدينة وأقاموا بها، ومحمد لايشك فى عظم ما تركت عُمْرة القضاء من أثر فى نفوس قريش وفى نفوس أهل مكة جميعـا ، ولا يشك فيما سينشأ عنها من آثار سريعة خطيرة .

إســلام خالد بن الوليـد

وصدّقت الأيام تقـديره . فانه ما كاد يتحمّل راجعا الى المدينـة حتى وقف خالد بن الوليد فارس قريش المُعْلَم وبطل أُحُد يقول فى جمع منها : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بساحر ولا شاعر، وأنّ كلامه من كلام رب العالمين . فحق على كل ذى لُبٍّ أن يتبعـه» . وقد فزع عِكْرِمة بن أبى جهل لِمـا سمع، فردَّ قائلا : لقد صَبَؤْت يا خالد . ودار بينهما الحديث الآتى — :

خالد — لم أصبُؤ ولكنى أسلمتُ .

عكرمة — والله إنْ كان أحقّ قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت .

خالد — ولِم ؟

عكرمة — لأن محمدا وضـع شرف أبيك حين جُرح، وقَتَـل عمك وابن عمك ببدر . فوالله ما كنت لأُسلم ولِأَتكَلّم بكلامك يا خالد . أمَا رأيت قريشا يريدون قتاله ! !

خالد — هذا أمر الجاهليّة وحميَّتها . لكنى والله أسلمت حين تبيَّن لى الحق.

وبعث خالد الى النبيّ بأفراسٍ وبعث اليه بإقراره بالإســلام وعِرْفانه . وبلغ إســلام خالد أبا سُفيان، فبعث فى طلبه وسأله : أحقٌّ ما بلغه عنه ؟ ولمـا أجابه خالد أنه حقّ، غضب وقال : «واللّاتِ والعُزّى لو أعلم أن الذى تقول حقٌّ لبدأت بك قبل محمد» . قال خالد : «فوالله إنه لحقّ على رغم من رَغِم» . فاندفع أبو سفيان فى غضبه نحوه ؛ فحجزه عنـه عِكرمة وكان حاضرا وقال : «مهلًا يا أبا سـفيان !

وقريش وسائر أهل مكة يُطِلُّون من منازلهم فوق السفوح على هذا المشهد الفذّ فى التاريخ، يرون رجالا هذه أخلاقهم، لا يشربون خمرا، ولا يأتون معصية، ولا يُغريهم الطعام ولا الشراب، ولا تفتنهم فى الحياة فتنة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . أىّ أثر يترك هذا المنظر الذى سما بالإنسان إلى ما فوق أسمى مراتب الإنسان؟! يسيرٌ عليك أن تقدِّره حين تعلم أن محمدا عاد بعد ذلك بشهور ففتح مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين .

تزوج محمد بميمونة

كانت أُمّ الفضل زوج العبّاس بن عبدالمطلب عم النبىّ موكّلة من أختها ميمونة فى تزويجها . وكانت ميمونة فى السادسة والعشرين من عمرها ، وكانت خالة خالد ابن الوليد . وأقامت أم الفضل زوجها العبّاس مُقامها فى تزويج أختها . ولما رأت ميمونة ما رأت من أمر المسلمين فى عُمْرة القضاء هَوَتْ إلى الإسلام نفسُها، فخاطب العباس ابن أخيه فى أمرها وعرض عليه أن يتزوّجها . وقبل محمد وأصدقها أربعمائة درهم . وكانت ثلاثة الأيام التى نص عهد الحُدَيْبية عليها قد انقضت . لكن محمدا أراد أن يتخذ من زواجه ميمونة وسيلة لزيادة فى التفاهم بينه وبين قريش . فلما جاءه سُهَيْل بن عمرو وحُوَيْطِب بن عبد العُزَّى من قِبَل قريش يقولون لمحمد : « إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا » ، قال لهم : « ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه» . قال محمد ذلك وهو يعلم ما تركت عمرة القضاء فى أنفس أهل مكة من أثر، وكيف سَحَرتهم وسكّنت من خصومتهم، ويعلم أنهم إن قبلوا دعوته الى الطعام فتحدّث اليهم وتحدّثوا اليه فتحت مكةُ أمامه أبوابها طائعة . وهذا ما خشى سُهَيْل وحُوَيْطِب ؛ لذلك كان جوابهما : «لا حاجة بنا إلى طعامك فاخرج عنّا » . ولم يتردّد محمد فى النزول على رأيهما تنفيذا لعهده مع

خروج المسلمين إلى المدينة

قومهما ، فأذّن فى المسلمين بالرحيل ، وخرج والمسلمون من ورائه . وخلّف أبا رافع مولاه على ميمونة حتى أتاه بها بسَرِفٍ(١) فبنى بها . وميمونة أمّ المؤمنين آخر

(١) سرف : موضع قريب من مكة ، اختلف فى تقدير ما بينهما بين ستة أميال واثنى عشر ميلا .

الفصل الثالث والعشرون

غـــزوة مـــؤتة

اتجاه نظر محمد الى الشام — توجيهه ثلاثة آلاف لغـزوها — لواؤهم لزيد بن حارثة ، فان أصيب فلجعفر بن أبي طالب ، فان أصيب فلعبد الله بن رواحة — الروم فى مائة ألف أو مائتى ألف — التقاء الجيشين بمؤتة — موت الثلاثة أصحاب اللواء على التعاقب — الراية لخالد بن الوليد — مداورته وانسحابه

لم يكن محمد يستعجل فتح مكة وهو يعلم أن الزمن فى صفّه ، كما أن عهد الحُدَيْبية لم يكن قد مضى عليه غير عام واحد، ولم يكن قد جدّ ما يوجب نقضه . ومحمد رجل وفاء لا ينقض كلمة قال ولا عهدًا عقد . لذلك ذهب الى المدينة فأقام بضعة أشهر لم تقع خلالها غيرُ مناوشات صغيرة، كإرسال خمسين رجلا الى بنى سُلَيْم ليدعوهم الى الإسلام وغَدْرِ بنى سُلَيْم بهم وقتلهم إيّاهم بغيًا بغير حق، حتى لم ينجُ رئيسهم إلا بمحض المصادفة . وكغزو جماعة من بنى اللَّيْث والظفر بهم والغنم منهم . وكمعاقبة بنى مُرَّة على ما غدروا من قبل . وكإرسال خمسة عشر رجلا الى ذات الطَّلْح على حدود الشام يدعون الى الإسلام دعوةً كان جزاؤهم عنها القتل لم ينج منه إلا رئيسهم . وقد كانت ناحية الشام وهذه الجهات الشمالية مُتَّجَهَ نظر النبىّ منذ أمن الجنوب بعهده مع قريش وبإذعان عامل اليمن لدعوته . ذلك أنه كان يتوسّم طريق انتشار دعوته الى الإسلام أوّل مغادرتها حدود شبه الجزيرة، فيرى الشام والبلاد المجاورة هى المنفذ الأوّل لهذه الدعوة . لذلك لم تمض أشهر على مُقامه بالمدينة بعد عوده من عمرة القضاء حتى وجّه ثلاثة آلاف هم الذين قاتلوا فى مُؤْتَة مائة ألف فى رواية، ومائتى ألف فى رواية أخرى .

مناوشات صغيرة

ويختلف الرواة فى سبب غزوة مُؤْتة هذه؛ فيذهب بعضهم الى أن قتل أصحابه فى ذات الطَّلْح كان سبب الغزو لتأديب هؤلاء الغادرين ، ويذهب آخرون الى أن

غزوة مؤتة

فوالله لقد خِفْتُ للذى خفتَ أن أقول مثل ما قال خالد وأ كون على دينه . أتم تقتلون خالدا على رأى رآه وهـذه قريش كلها تبايعت عليه ! . والله لقـد خفت ألّا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم » . وخرج خالد من مكة الى المدينة ، فانضم الى صفوف المسلمين .

إسلام عمرو ابن العاص وعثمان ابن طلحة

وأسلم من بعد خالد عمرو بن العاص ، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة . وقد أسلم بإسلام هؤلاء كثير من أهـل مكة واتّبعوا دين الحق . وبذلك قويت شوكة الإسلام، وأصبح فتح مكة أبوابها لمحمد أمرا لا محلّ لريبة فيه .

وهم بمَعان أمرُ هـذه الجموع ، فأقاموا بهـا ليلتين يفكـرون ماذا يصنعون أمام هذا العـدد الذى لا قِبَل لهم به . قال قائل منهم : نكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا؛ فإمّا أن يمدّنا بالرجال، وإمّا أن يأمرنا بأمره فنمضى له . وكاد هذا الرأى يسـود لولا أن تقـدّم عبد الله بن رَوَاحة، وكان الى جانب شهامته وفروسيته شاعرا، فقال: ياقوم ! والله إن التى تكرهون لَلتى خرجتم تطلبون: الشهادة . وما نقاتل الناس بعُدَدٍ ولا قوة ولا كثرة؛ ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به؛ فانْطَلِقوا ، فإنما هى إحدى الحُسْنَيَيْن : إمّا ظهور ، وإمّا شهادة . وامتدّت عدوى النخوة من الشاعر الشجاع الى الجيش كله ؛ فقال الناس : فوالله صدق ابن رواحة !. ومضوا، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية يقال لهـا مَشَارِف . فلما دنا العـدوّ انحاز المسلمون الى قرية مُؤْتة أن رأوها خيرا من مَشَارِف لتحصُّنهم بهـا . وفى مُؤتة بدأت المعـركة حاميـة الوطيس بين مائة أو مائتى ألف من جيوش هرقل وثلاثة آلاف من المسلمين .

رأى ابن رواحة فى مواجهة الروم

يا لجَلال الإيمـان وروْعة قوّته ! حمـل زيد بن حَارِثة راية النبىّ واندفع بهـا فى صدر العـدوّ وهو موقن أن ليس من موته مفرّ . لكن الموت فى هذا المقام هو الاستشهاد فى سبيل الله !. وليس الاستشهاد دون النصر والظفر مكانا . وحارب زيد حرب المستميت حتى مزّقته رماح العـدو . فتناول الراية من يده جعفر ابن أبى طالب وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وهو شابّ تعدِل وسامته شجاعته . وقاتل جعفر بالراية، حتى إذا أحاط العدوّ بفرسه اقتحم عنها فعقرها واندفع بنفسه وسط القوم منطلقا انطلاقة السهم يهوى سـيفُه برءوسهم حيثما وقع . وكان اللواء بيمين جعفر فقُطِعت، فأخذه بشماله فقُطِعت، فاحتضنه بعَضُديه حتى قُتل. يقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعته نصفين . فلما قُتل جعفر أخذ ابن رواحة الراية ثم تقدّم بها وهو على فرسـه ، فجعل يستنزل نفسَـه ويتردّد بعض التردّد ثم قال :

استشهاد زيد ابن حارثة

استشهاد جعفر بن أبى طالب

استشهاد ابن رواحة

النبيّ أرسل رسولا من رسـله الى عامل هِرَقْل على بُصْرَى وأن أعرابيًّا من غَسَّان قتل هذا الرسول باسم هرقل، فبعث محمد بالذين قاتلوا فى مؤتة لتأديب هذا العامل ومن ينصره .

وكما كان عهد الحُدَيْبِيَة مقدّمـة عمرة القضاء ففتح مكة، كانت غزوة مؤتة مقدمة تَبُوك وما كان بعد وفاة النبيّ من فتح الشام . وسـواء أكان السبب الذى أدّى الى غزوة مؤتة هو قتل رسول النبيّ الى عامل بُصْرَى أو قتل رجاله الخمسة عشر فى ذات الطَّلْح، فإنه عليـه السلام دعا اليـه فى جمـادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سنة ٦٢٩ م) ثلاثة آلاف من خيرة رجاله واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : « إن أُصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على النـاس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رَوَاحة على النـاس » . وخرج هذا الجيش وخرج معه خالد بن الوليد متطوّعا ليدلّ بحسن بلائه فى الحرب على حسن إسـلامه . وودّع النـاس أمراء الجيش والجيش، وسار محمد معهم حتى ظاهر المدينـة، يوصيهم ألَّا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان، وألَّا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار. ودعا عليه السلام ودعا المسلمون لهذا الجيش قائلين : صَحِبكم الله ودفع عنكم وردّكم الينا سالمين! . وكان أمراء الجيش كلهم يفكرون فى أخذ القوم من أهل الشام على غِرّة منهم، على عادة النبيّ فى سابق غزواته، فيُسرع اليهم النصر ويعودوا بالغنيمة. وسار القوم حتى بلغوا مَعَان من أرض الشام وهم لا يعلمون ما هو ملاقيهم .

تجهيز الروم لقا تلتهم

لكن أنباء مسيرتهم كانت قد سبقتهم . فقام شُرَحْبيل عامل هِرَقْل على الشام بجمع جموع القبائل ممن حوله، وأوفد مَنْ جعل هرقل يمدّه بجيوش من الإغريق ومن العرب . وتذهب بعض الروايات الى أن هرقل نفسه تقـدّم بجيوشه حتى نزل مَآبَ من أرض البَلْقاء على رأس مائة ألف من الروم، كما انضم اليه مائة ألف أخرى من لَخْم وجُذَام والقَيْن وبَهْراء وبَلِيّ . ويقـال : إن تُيودُورَ أخا هرقل هو الذى كان على رأس هـذه الجيوش لا هرقل نفسـه . وبلغ المسلمين

مداورة خالد بن الوليد

قُتل ابن رواحة بعد تردّد ثم إقدام؛ فأخذ الراية ثابت بن أرْقَمَ أحد بني العَجْلان، فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فأخذ خالد الراية على رغم ما رأى من تفرّق صفوف المسلمين وتضعضع قوّتهم المعنوية. وكان خالد قائدا ماهرا ومحركا للجيوش قل نظيره. لذلك أصدر أوامره فداور بالمسلمين حتى ضم صفوفهم ووقف من محاربة العدوّ عند مناوشات امتدّت به حتى أرخى الليل سدوله، ووضع الجيشان السلاح إلى الصباح. أثناء ذلك أحكم خالد تدبير خطّته، فوزّع عددا غير قليل من رجاله فى خط طويل من مؤخّرة جيشه أحدثوا، إذ أصبح الناس، من الجلبة ما أدخل فى رُوع عدوّه أن مددا جاءه من عند النبيّ. وإذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالروم الأفاعيل فى اليوم الأوّل وقتلوا منهم خلقا كثيرا، وإن لم يستطيعوا أن يصمُدوا، فما عسى أن يصنع هذا المدد الذى جاء لا يدرى أحد عِدّته ! ! لذلك تقاعس الروم عن مهاجمة خالد وسُرّوا بعدم مهاجمته إياهم، وكانوا أكثر سرورا بانسحابه ومن معه راجعين إلى المدينة، بعد معركة لم ينتصر فيها المسلمون وإن كان حقًّا كذلك أن عدوّهم لم ينتصر عليهم فيها.

لذلك ما كاد خالد والجيش معه يدنون من المدينة حتى تلقّاهم محمد والمسلمون معه. وطلب محمد فأُتى بعبد الله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه. أمّا الناس فجعلوا يَحْثُون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرّار فررتم فى سبيل الله! فيقول رسول الله: ليسوا بالفُرّار ولكنهم الكُرّار إن شاء الله. ومع هذه التأسية من محمد للعائدين من مُؤْتة فقد ظلّ المسلمون لا يغفرون لهم انسحابهم وعَوْدهم، حتى كان سَلَمَة بن هِشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كل مَنْ رآه: يا فُرّار فررتم فى سبيل الله. ولولا ما كان بعد ذلك من فعال هؤلاء الذين حضروا مؤتة، ومن فعال خالد بنوع خاص، لظلّت مؤتة معتبرة بعض ما لطّخ به إخوانهم فى الدين جبينهم من عار الفِرار.

الفرار الكرار

أقسمتُ يا نفسُ لتنزِلنَّهْ * لتنزِلِنّ أو لتُكْرَهنّهْ
إن أَجْلبَ الناسُ وشدُّوا الرَّنَّه * مالى أَراك تكرهين الجَنّهْ

ثم أخذ سيفه فتقدّم فقاتل حتى قتل .

هؤلاء زيد وجعفر وابن رَوَاحة استُشهدوا ثلاثتهم فى سبيل الله فى موقعة واحدة. لكن النبىّ لمّا علم بخبرهم كان على زيد وجعفر أكبر أسّى ، وقال : لقد رُفعوا إلىّ فى الجنة فيما يرى النائم على سُرُر من ذهب، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريرى صاحبيه، فسأل لم هذا ؟ فقيل له : مضَيا وتردّد عبد الله بعض التردّد ثم مضى. أترى الى هذه العِبرة والموعظة الحسنة ! فإنما معناها أن المؤمن لايجوز له أن يتردّد أو يخاف الموت فى سبيل الله، بل يجب عليه، كلما مضى فى أمر يؤمن بأنه لله وللوطن، أن يحمل حياته على كفه، وأن يُلقى بها فى وجه من يقف فى سبيله ؛ فإمّا فاز وظفِر فبلغ ما يؤمن به من حقّ الله والوطن ، وإمّا استُشهد فكان المَثَل الحىّ لمن بعده والذكرَ الباقى لروح عظيم عرف أن قيمة الحياة ما يضحَّى بالحياة فى سبيله ، وأن الإمساك على الحياة فى مذلّة إهدار للحياة فما يستحق صاحبها بعد ذلك فى الحياة ذكرا، وأن الرجل يُلقى بيديه الى التهلكة اذا هو عرّض حياته تعريضا تذهب معه ضحية غرض وضيع، وأنه كذلك يُلقى بيديه الى التهلكة اذا هو أمسك على حياته حين يدعوه داعى الحق جلّ شأنه ليقذف بها فى وجه الباطل ليسحقه، فيواريها هو بالحجاب ويخاف عليها الموت خوفا هو شرٌّ من الموت . وإذا كان التردّد القليل من ابن رواحة مع إقدامه بعد ذلك واستشهاده، قد جعله فى غير مكانة زيد وجعفر اللذين اقتحما صفوف الموت اقتحاما وطارا للاستشهاد فرحا، فما بالك بالذى ينكُص على عقبيه طمعا فى جاه أو مال أو غرض من أغراض الحياة ! . إنه إذًا للحشرةُ الحقيرة وإن عَرُض عند السواد جاهُه ، وإن بذّ مال قارون مالُه . وهل لنفس إنسانية أن تغتبط حقّا لشىء اغتباطها للتضحية فى جانب ما تؤمن بأنه الحقّ، حتى تنتهى من ذلك إلى الاستشهاد فى سبيل الحق، أو إلى تمليك الحقّ الحياة !.

المثل الحى والاستشهاد

فى هذه الأثناء كان محمد يفكر فى مكة ومآلها . لكنه، كما قدّمنا، كان وفيًّا بعهد الحُدَيبية، فأقام ينتظر انقضاء السنتين . وجعل أثناء ذلك يوفد السرايا ليسكِّن بها ثائرة القبائل التى تحدّثها نفوسها بالثورة . على أنه كان فى غير حاجة إلى كبير عناء من هذه الناحية؛ فقد بدأت الوفود ترد اليه من مختلف النواحى تُعلن اليه طاعتها وإذعانها . وإنه لكذلك إذ حدث ما كان مقدّمة لفتح مكة، ولاستقرار الإسلام بها استقرارًا أسبغ عليها إلى أبد الدهر أعظم القدسيّة .

وقد بلغ الألم من نفس محمد منذ علم بقتل زيد وجعفر، وحزّ الأسى فى نفسه من أجلهما . لمّا أُصيب جعفر ذهب محمد إلى منزله ودخل على زوجه أسماء بنت عُمَيس، وكانت قد عجنت عجينها وغسلت بنيها ودهنتهم ونظّفتهم، فقال لها : ائتينى بنى جعفر . فلما أتته بهم تشمّمهم وذرفت عيناه الدمع . قالت أسماء فى لهف وقد أدركت ما أصابها : يا رسول الله، بأبى أنت وأمّى مايبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال : نعم أصيبوا هذا اليوم! وازدادت عيناه بالدمع تهتانا . فقامت أسماء تصيح حتى اجتمع النساء اليها . أمّا محمد فخرج الى أهله فقال : لا تُغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم . ورأى ابنة مولاه زيد قادمة فربّت على كتفيها وبكى . وأظهر بعضهم دهشة لبكاء الرسول على من استُشهد؛ فقال ما معناه : إنما هى عبرات الصديق يفقد صديقه .

بكاء محمد المستشهدين

وفى رواية أن جثة جعفر حملت الى المدينة ودُفنت بها بعد ثلاثة أيام من وصول خالد والجيش اليها . ومن يومئذ أمر الرسول الناس أن يكفّوا عن البكاء؛ فقد أبدل الله جعفرا من يديه اللتين قُطعتا جناحين طار بهما الى الجنة .

غزوة ذات السلاسل

أراد محمد بعد أسابيع من عود خالد أن يستردّ هيبة المسلمين فى شمال شبه الجزيرة، فبعث عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الشام، وذلك أن أُمًّا له كانت من قبائل تلك النواحى، فكان من اليسير عليه أن يتألّفهم . فلما كان على ماء بأرض جُذام يقال له السَّلْسَل، خاف فبعث إلى النبيّ عليه السلام يستمِدّه، فأمدّه بأبى عُبَيْدة بن الجرّاح فى المهاجرين الأوّلين فيهم أبو بكر وعمر . وخاف محمد أن يختلف عمرو وهو حديث عهد بالإسلام مع أبى عُبيدة من المهاجرين الأوّلين؛ فقال لأبى عبيدة حين وجّهه : لا تختلفا . وقال عمرو لأبى عبيدة : إنما جئتَ مددًا لى فأنا على قيادة الجيش . وكان أبو عبيدة رجلا ليّنا سهلا هيّنا عليه أمر الدنيا، فقال لعمرو : لقد قال رسول الله : لا تختلفا ، و إنك إن عصيتنى أطعتك . وصلّى عمرو بالناس وتقدّم بالجيش فشتّت جموع أهل الشام الذين أرادوا محاربته ، وأعاد بذلك هيبة المسلمين فى تلك الناحية .

وكان من ذلك أيضا أن ازداد الإسلام انتشارا بين قبائل نَجْد المتاخمة للعراق وللشام حيث كان سلطان الروم فى ذروته .

انتشار الإسلام فى شمال شبه الجزيرة

وزاد فى انضمام النـاس الى الدين الجـديد اضطراب أحوال الدولة البزنطية اضطرابا جعل أحد عمّال هِرَقْل، وقد كُلِّف أن يدفع للجيش رواتبه، يصيح فى وجه عرب الشام الذين اشتركوا فى الحرب : « اِنسحبوا . فالأمبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده إلا بمشقّة . وليس لديه لذلك ما يوزّعه على كلابه » . فلا عجب أن ينصرف هؤلاء عن الأمبراطور وعن جنـده ، وأن يزداد ضياء الدين الجـديد أمامهم نوراً يهديهم الى صدق الحقيقة الساميـة التى يبشّر الناس بها . لذلك دخل فى الإسلام فى هـذه الفترة ألوف من سُلَيْم وعلى رأسهم العبّاس بن مِرْداس، ومن أشْجَع وغَطَفان الذين كانوا حلفاء اليهود حتى نُكب اليهود فى خَيْبَر، ومن عَبْس ومن ذُبْيانَ ومن فَزَارة. فكانت وقعة مُؤْتة بذلك سببا فى استتباب الأمر للسلمين فى شمال المدينة الى حدود الشام، وفى ازدياد الإسلام عزّة وقوّة ومَنَعة .

لكن أثرها فى أنفس المسلمين المقيمين بالمدينة كان غير هذا الأثر. فهم مالبثوا حين رأوا خالدا والجيش معـه عائدين من تخوم الشام لم ينتصروا على جيش هرقل أن صاحوا فى وجوههم : « يا فُرَّار فررتم فى سبيل الله » . ولقد بلغ من خجل بعض كبار رجال الجيش أن لزم بيته كيلا يؤذيه صبيان المسلمين وشبّانهم بتهمة الفرار .

أمّا أثر مؤتة فى نفس قريش فكان أنها هزيمة قضت على المسـلمين وعلى سلطانهم حتى لم يبق إنسانٌ يأبه لهم أو يقيم لعهدهم وزنا . فلتَعُدِ الأمور كما كانت قبل عمرة القضاء . ولتَعُدِ الأمور كما كانت قبل عهد الحُدَيبية . ولتَعُد قريش حربًا على المسلمين ومن فى عهدهم من غير أن تخشى من محمد قِصاصًا .

نقض قريش عهد الحديبية

وصلح الحديبية كان قـد قضى أنه مَنْ أحب أن يدخل فى عقـد محمد وعهده فليدخل فيه، ومَنْ أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . وكانت خُزَاعة قد دخلت فى عهد محمد، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش . وكانت بين خزاعة

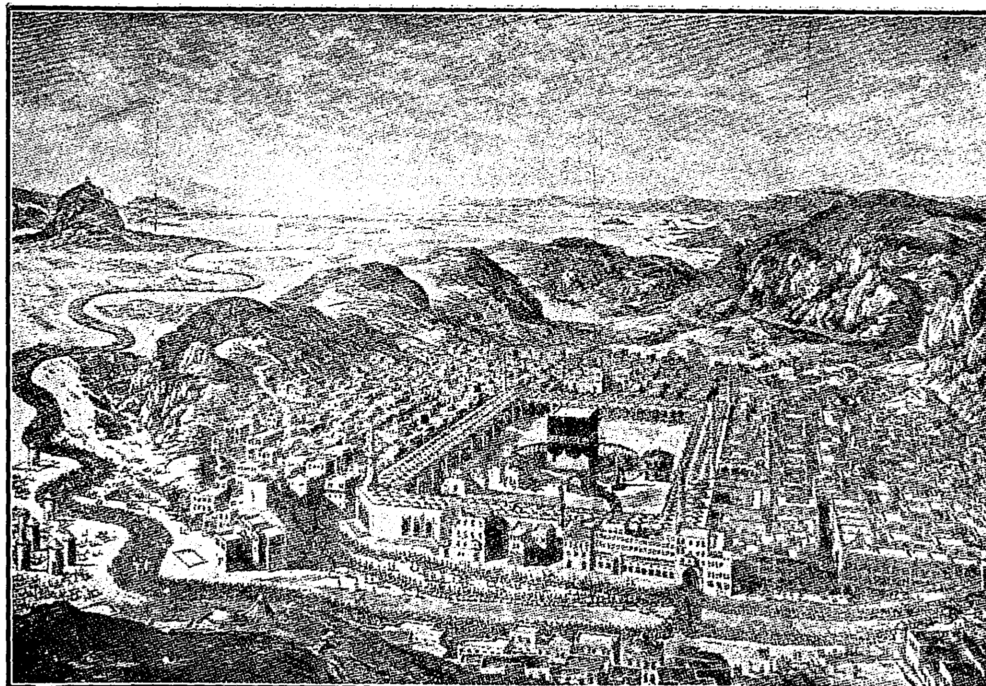
الفصل الرابع والعشرون

فتـــح مكة

أثر موقعة مؤتة — نقض قريش عهد الحديبية — استعداء خزاعة النبي على قريش — سفارة أبي سفيان إلى النبي وإخفاقها — تجهز المسلمين عشرة آلاف يسيرون إلى مكة — رجاء محمد أن يفتح أم القرى من غير إراقة للدماء — خروج العباس ومقابلته لأبي سفيان وأخذه الى النبي بظاهر مكة — دخول المسلمين فاتحين — المكيون الذين تحرشوا بجيش خالد بن الوليد — عفو محمد عن خصومه جميعا — تطهير الكعبة من الأصنام — إسلام أهل مكة

أثر مؤتة واختلافه

عاد جيش المسلمين بعد موقعة مُؤْتة ولواؤهم لخالد بن الوليد . عادوا لا منتصرين ولا منكسرين ولكن راضين من الغنيمة بالإياب . وقد ترك انسحابهم بعد موت زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة أثرا مختلفا أشدّ الاختلاف عند الروم وعند المسلمين المقيمين بالمدينة وعند قريش بمكة . أمّا الروم ففرِحوا بانسحاب المسلمين وحِمدوا ربهم أن لم يطل القتال بهم، مع أن جيش الروم كان مائة ألف على قول ومائتي ألف على قول آخر، على حين كانت عِدّة المسلمين ثلاثة آلاف. وسواءأكان فرح الروم راجعا إلى ما أبدى خالد بن الوليد من الاستماتة فى الدفاع والقوة فى الهجوم حتى لقد تحطّمت فى يده تسعة أسياف وهو يحارب بعد موت أصحابه الثلاثة ، أم كان راجعا إلى مهارته فى توزيع الجيش فى اليوم الثانى وإحداث ما حدث من الجلبة حتى ظنّ الروم أن مدداً جاءه من المدينة، فإن القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت الى فعال المسلمين بإعجاب أشدّ الإعجاب . وكان من ذلك أن أحد زعمائهم (فَرْوَةَ بن عَمْرو الجُذامىّ، وكان قائدا لفرقة من جيش الروم) مالبث أن أعلن إسلامه؛ فقُبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة . وكان هرقل على استعداد للإفراج عنه اذا هو عاد الى المسيحية ، بل كان على استعداد أن يردّه الى مركز القيادة الذى كان فيه. لكن فَرْوة أبى وأصرّ على إبائه وعلى إسلامه فقُتِل.



مَنظر مكّة

وبنى بكر ثارات قديمة سكنت بعد صلح الحُدَيْبية وانحياز كلٍّ من القبيلتين الى فريق من المتصالحين . فلما كانت مؤتة وخُيِّل الى قريش أن المسلمين قُضى عليهم، خُيِّل الى بنى الدِّيل من بنى بكر بن عبد مَنَاة أن الفرصة سنحت لهم ليصيبوا من خزاعة بثاراتهم القديمة . وحرَّضهم على ذلك جماعة من قريش منهم عكرمة بن أبى جهل وبعض سادات قريش وأمدّوهم بالسلاح . وبينما خُزاعةُ ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوَتِير إذ فاجأتهم بنو بكر فقتلوا منهم، ففرّت خزاعة الى مكة ولجئوا الى دار بُدَيْل بن ورقاء وشكوا اليه نقض قريش ونقض بنى بكر عهدهم مع رسول الله . وسارع عمرو بن سالم الخزاعىّ فغدا متوجِّها الى المدينة حتى وقف بين يدى محمد وهو جالس فى المسجد بين الناس، وجعل يقصّ ما حدث ويستنصره . قال رسول الله : « نُصِرتَ يا عمرو بن سالم » . ثم خرج بُدَيْل بن ورقاء فى نفر من خُزاعة حتى قدموا المدينة فأخبروا النبىّ بما أصابهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم. عند ذلك رأى النبىّ أن ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقابل له إلا فتح مكة، وأنه لذلك يجب أن يرسل الى المسلمين فى أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على أهبة لإجابة ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء .

استنصار خزاعة بالنبى

مخاوف حكماء قريش

أمّا حكماء قريش وذوو الرأى فيها فما لبثوا أن قدّروا ما عرّضهم له عكرمة ومَنْ معه من الشبّان من خطر . فهذا عهد الحُدَيبية قد نُقِض، وهذا سلطان محمد فى شبه الجزيرة يزداد بأسا وقوّة . ولئن فكر بعد الذى حدث فى أن ينتقم لخزاعة من أهل مكة لتتعرّضنّ المدينة المقدّسة لأشد الخطر . فماذا تراهم يصنعون ؟ أوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليُثَبِّت العقد وليزيد فى المدّة. ولعل المدة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشرا . وخرج أبو سفيان قائدهم وحكيمهم يريد المدينة . فلما بلغ من طريقه عُسْفَانَ، لقيه بُدَيْل بن وَرْقاء وأصحابه، فخاف أن يكون قد جاء محمدا وأخبره بما حدث، فيزيد ذلك مهمته تعقيدا . وقد نفى بُدَيْل مقابلته محمدا، لكنه عرف من بعر راحلة بُدَيل أنه كان بالمدينة . لذلك آثر ألا يكون محمد أول من يلقى، فجعل وجهته بيت ابنته أُمّ حَبِيبَةَ زوج النبىّ .

أبو سفيان بالمدينة

ولعلها كانت قد عرفت عواطف النبيّ إزاء قريش وإن لم تكن تعلم ما اعتزمه فى أمر مكة . ولعل ذلك كان شأن المسلمين بالمدينة جميعا . فقد أراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبيّ فطوته أمّ حبيبة، فلمـا سألها أبوها : أَطَوَتْه رغبةً بأبيها عن الفراش أم رغبـةً بالفراش عن أبيها، كان جوابها : هو فراش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنت رجل مشرك نجس، فلم أُحب أن تجلس عليـه . قال أبو سفيان : والله لقد أصابك يابنيّة بعدى شرّ! وخرج مغضَبا . ثم كلَّم محمدا فى العهد وإطالة مدّته ، فلم يردّ عليـه شيئا . فكلم أبا بكر ليكلم له النبيّ فأبى . فكلّم عمـر ابن الخطاب فأغلظ له فى الردّ وقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به . ودخل أبو سفيان على علىّ بن أبى طالب وعنده فاطمة، فعرَض عليـه ما جاء فيه واستشفعه إلى الرسول ؛ فأنبأه علىّ فى رفق أنه لا يستطيع أحد أن يردّ محمدا عن أمر إذا هو اعتزمه . واستشفع رسول قريش فاطمة أن يجير ابنها الحسن بين الناس . فقالت : ما يُجير أحد على رسول الله . واشتدّت الأمور على أبى سـفيان فاستنصح عليـًّا ؛ فقال له : والله ما أعلم شيئا يُغنى عنك شيئا . لكنك سيّد بنى كنانة، فقم فأجِرْ بين النـاس ثم الحَقْ بأرضك ؛ وما أظن ذلك مغنيا ولكنى لا أجد لك غيره . فذهب أبو سـفيان إلى المسجد وهناك أعلن انه أجار بين الناس . ثم ركب راحلته وانطلق ذاهبًا إلى مكة وقلبه يفيض أسًى ممـا لقى من هوانٍ على يد ابنته وعلى يد أولئك الذين كانوا ، قبل هجرتهم من مكة، يرتجون منه نظرة عطف أو رضا .

إخفاق سـفارة أبى سفيان

عاد أبو سفيان إلى مكة؛ فقصّ على قومه ما لقى بالمدينة وما أجار بين الناس فى المسجد بمشورة علىّ، وأن محمدا لم يُجز جواره . قال قومه : ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك . وعادوا فيما بينهم يتشاورون .

تجهـز المسـلمين لفتح مكة

أمّا محمد فقد رأى ألّا يترك لهم الفرصة حتى يتجهّزوا للقائه . ولئن كـان واثقا من قوّته ومن نصر الله إيّاه، لقـد كان يرجو أن يبغت القوم فى غِـرّة منهـم، فلا يجـدوا له دفعا، فيُسلموا من غير أن تُراق الدماء . لذلك أمر الناس بالتجهّز ؛ فلما

القبائل من زاد عددهم وزاد منعتهم ، وكلهم ممتلئ النفس بالإيمان أن لا غالب لهم من دون الله . وسار محمد على رأسهم وأكبر همه وكل تفكيره أن يدخل البيت الحرام من غير أن يهريق قطرة دم واحدة . وبلغ الجيش مَرَّ الظَّهران(١) وقد كملت عِدّته عشرة آلاف لم يصل الى قريش من أمرهم خبر، فهى فى جَدَلٍ مستمرّ ماذا تصنع لاتقاء عَدْوة محمد عليها . أمّا العباس بن عبد المطلب عم النبيّ فقد تركهم فى جَدَلهم وخرج فى أهله حتى لقى محمدا بالجُحْفَة(٢) . ولعل طائفة من بنى هاشم كانت بنبأ أو شبهه من خروج النبيّ، فأرادت أن تلحق به دون أن يصيبها أذى؛ فقد خرج سوى العبّاس أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي، وعبد الله بن أبى أُمَيّة ابن المغيرة ابن عمّته، حتى اتّصلا بجيش المسلمين وهو بِنِيق العُقَاب . واستأذنا على النبيّ، فرفض أن يأذن لهما، وقال لزوجه أمّ سلمة حين كلّمته فى أمرهما : لا حاجة لى بهما . أمّا ابن عمى فقد أصابنى منه سوء . وأما ابن عمتى وصهرى فقد قال بمكة ما قال . وبلغ أبا سفيان هذا الكلام فقال : والله ليؤذَنَنّ لى أو لآخذنّ بيد بُنَىّ هذا ثم لنذهبنّ فى الأرض حتى نموت عطشا وجوعا . فرقّ محمد ثم أذِن لهما فدخلا عليه فأسلما .

خروج بنى هاشم الى النبى وإسلامهم

ورأى العبّاس بن عبد المطلب من جيوش ابن أخيه ومن قوّته ما راعه وأزعجه . وهو إن كان قد أسلم فإن ذلك لم يُخْلِ قلبه من خشية مايحلّ بمكة إذا دهمها هذا الجيش الذى لا قِبَل لقوّة فى بلاد العرب به . أو ليس قد ترك مكة منذ حين، وله بها من الأهل والخُلّان والأصدقاء ما لم يقطع الإسلام الذى دان به من وشائجه ! . ولعله أفضى بمخاوفه هذه الى الرسول وسأله : ماذا يصنع إذا طلبت قريش أمانه ؟ ولعل

العباس بن عبد المطلب

(١) على أربعة فراسخ من مكة . (٢) ويذهب بعض كتاب السيرة الى أنه لقى الجيش برابغ . أما آخرون فيقولون إن العباس ذهب الى المدينة قبل التصميم على فتح مكة وأسلم وسار مع جيش الفتح . ويدحض كثيرون هذه الرواية ويزعمونها وضعت إرضاء للعباسيين الذين كتبت السيرة أوّل ما كتبت فى عهدهم . ويؤيدون رأيهم هذا بأن العباس على نصرته لابن أخيه مذ كان بمكة لم يتابعه على دينه؛ لأن العباس كان تاجرا ومرابيا وكان يخشى ما يجره الاسلام على تجارته من مضرة . ويزيدون أنه لو كان العباس قد أسلم وهاجر لكان فى مقدمة من ذهب اليهم أبو سفيان للتحدّث فى إطالة مدّة عهد الحديبية لقرب عهده بمكة .

تجهّزوا أعلمهم أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجدّ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف من سيرهم على نبأ .

كتاب ابن أبي بلتعة الى قريش

وبينما الجيش على أهبة السير كتب حاطِبُ بن أبي بَلْتَعَة كتابا أعطاه امرأة من مكة مولاةً لبعض بني عبد المطلب تسمّى سارة، وجعل لها جُعْلا على أن تبلّغه قريشا ليقفوا على ما أعدّ محمد لهم . وحاطِبٌ كان من كبار المسلمين . لكن في النفس الإنسانية جوانب ضعف تطغى في بعض الأحيان عليها وتهوي بها الى مالا ترضاه لنفسها . وما لبث محمد أن أُحيط بالأمر خُبْرا . فسارع فبعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوّام فأدركا سارة فاستنزلاها فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئا . فأنذرها عليّ إن لم تخرج هذا الكتاب ليكشفنّها . فلما رأت المرأة الجد منه قالت: أعرِضْ فأعرض . فحلّت ذوائب شعرها فأخرجت الكتاب منها فردّاها الى المدينة . ودعا محمد حاطباً يسأله ما حمله على ذلك ؟ قال حاطب : يا رسول الله، أمَا والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيّرت ولا بدّلت ، ولكني كنت امرأً ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم . قال عمر ابن الخطاب : دعني يا رسول الله فلأضْرِبْ عنقه ، فإن الرجل قد نافق . قال رسول الله : وما يُدريك يا عمر لعل الله قد اطّلع الى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . وكان حاطب من أصحاب بدر . وإذ ذاك نزل قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾(١) .

مسيرة جيش المسلمين

وتحرّك جيش المسلمين من المدينة قاصدا مكة ليفتحها وليضع يده على البيت الحرام الذي جعله الله مثابةً للناس وأمْنا . تحرّك هذا الجيش في عدد لا عهد للمدينة به . فقد بعثت القبائل من سُلَيْم ومُزَيْنة وغَطَفان وغيرها من انضم الى المهاجرين والأنصار وسار معهم في يَلَب(٢) الحديد يسيلون في فسيح الصحراء ، حتى كانوا اذا ضربوا خيامهم اكتست بها رمال البيداء فما يكاد يبدو منها للناظر شيء . تحركوا وأغذّ هؤلاء الألوف سيرهم وصاروا كلما تقدموا فيه انضم اليهم من سائر

(١) سورة الممتحنة آية ١ (٢) اليلب : الدروع .

النبيّ — ويحك يا أبا سفيان! ألم يأْنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله! .

أبو سفيان — بأبى أنت وأمّى! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئا بعدُ .

النبيّ — ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أنّى رسول الله! .

أبو سـفيان — بأبى وأُمّى! ما أحلَمَك وأكرمك وأوصلك! أمّا والله هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئا ! .

فتدخّل العباس موجّهًا القول الى أبى سفيان أن يُسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقه . ولم يجد أبو سـفيان أمام هذا إلا أن يُسـلم . فتوجّه العبّاس بالقول الى النبي عليه السلام : يارسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئا . قال رسول الله : « نعمْ! مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومَنْ أغلق بابه فهو آمن، ومَنْ دخل المسجد فهو آمن» .

أمصادفة حدث ذلك كله ؟

هـذه الوقائع واردٌ عليها اتّفاق المؤرخين وكتّاب السيرة جميعا . إلا أن بعضهم يتساءل : أهى قد حدثت كلها بمحض المصادفة؛ فخروج العباس الى النبيّ كان قصده منه أن يذهب الى المدينـة فاذا هو يلقَى جيوش المسلمين بالجُحْفَة، وخروج بُدَيْل ابن ورقاء مع أبى سفيان بن حرب كان لمحض الاستطلاع مع أن بديلا ذهب قبل ذلك إلى المدينـة وقصّ على النبيّ ما لقيت خُزَاعة وعرف من النبيّ أنه ناصرُها ؛ وخروج أبى سفيان كان جهلا منه بأن محمدا قد سار لغزو مكة ؟ ! أم أن شـيئا من الاتفاق، قليلا أو كثيرا، كان قد حدث قبل ذلك، وأن هـذا الاتفاق هو الذى أخرج العباس للقاء محمد، وأن هذا الاتفاق هو الذى جمع بين العباس وأبى سفيان، وأن أبا سفيان كان قد وثِق، منذ ذهب الى المدينة ليمدّ فى عهد الحديبية ورجع صفر اليدين، بأن لا سـبيل لقريش الى ردّ محمد، وأيقن أنه إذا مهّـد للفتح السـبيل فستبقى له رياسته فى مكة ومقامه الكبير فيها، وأن الذى ربما كان وقع عليه الاتفاق من ذلك لم يتعدّ محمدا والأشخاص الذين يعنيهم الأمر، بدليل ما همّ به عمر من قتل

ابن أخيه سُرّ بمفاتحة العباس إياه فى هذا ورجا أن يتخـذ منه سفيرا يُلقِى فى قلوب القوم من قريش الرعب فيـدخل مكة من غير أن يسـفك دما، وتظلّ مكة حراماً كما كانت وكما يجب أن تكون . وجلس العباس على بغلة النبيّ البيضاء وخرج عليها حتى جاء ناحية الأراك، لعـله يجد حطّابا أو صاحب لبن أو أى إنسان ذاهبا الى مكة، يحمّله الى أهلها رسالة بقوّة المسلمين وبأس جيوشهم، حتى يخرجوا الى رسول

أبو سفيان يستطلع لقـريش

الله فيستأمنوه قبـل أن يدخلها عليهم عنوة . وكانت قريش قد بدأت، منذ نزل المسلمون مَرّ الظّهْران، تشعر بأن خطرًا يقترب منها؛ فأرسلت أبا سفيان بن حرب، وبُدَيْل بن ورقاء، وحكيم بن حزام قريب خديجة، يتنطّسون الأخبار، ويستطلعون مبلغ الخطر الذى تحسّ قلوبها . وإن العبّاس ليسـير على بغلة النبيّ البيضاء إذ سمع حديثا بين أبى سفيان ابن حرب وبُدَيْل بن ورقاء كذلك يجرى :

أبو سفيان — ما رأيت كالليلة نيرانا قطُّ ولا عسكرا .

بُدَيْل — هذه والله خُزاعة حَمَّشتها الحرب .

أبو سفيان — خزاعة أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

التقاؤه بالعباس

وعرف العبّاس صوت أبى سفيان فناداه بكنيته قائلا : أبا حَنْظَلَة! وأجاب أبو سُفْيان بدوره : أبا الفضل! . قال العبّاس : ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله فى الناس . وا صباحَ قريش إذا دخل مكة عنوةً! . قال أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبى وأمّى؟ . فأركبه العباس فى عَجُز البغلة ورد صاحبيـه إلى مكة وسار به . والناس إذا رأوا البغلة عرفوها وتركوها تمرُّ بمن عليها بين عشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتُلقِى الرعب فى قلب مكة وأهلها . فلما مرّت بنار عمر بن الخطاب ورآها، عرف أبا سفيان وأدرك أن العبّاس يريد أن يُجيره، فأسرع الى خيمة النبيّ وطلب

أبو سـفيان فى حضرة الرسول

اليه أن يضرب عنقه . قال العباس : إنى يا رسول الله قد أجرته . إزاء هذا الموقف فى تلك الساعة من الليل، وبعد مناقشة لا تخلو من حِدّة بين العباس وعمر، قال محمد: اذهب به يا عباس الى رَحْلك، فاذا أصبحت فأتنى به . فلمـا كان الصباح وجىء بأبى سفيان فى حضرة النبى وبمسمع من كبراء المهاجرين والأنصار، جرى الحِوار الآتى :

توزيع الجيش

شكر محمد لله أن فتح عليه مكة، ولكنه ظل مع ذلك متّخذا حذره . فقد أمر أن يفرق الجيش أربع فرق، وأمرها جميعا ألا تقاتل وألا تسفك دما إلا اذا أُكرهت على ذلك إكراها واضطُرّت اليـه اضطرارا . وجعل الزبيرَ بن العـوّام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره أن يدخل مكة من شمالهـا . وجعل خالد بن الوليـد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخل من أسفل مكة . وجعل سـعد بن عُبَادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبهـا الغربىّ . أما أبو عبيدة بن الجرّاح فجعـله محمد على المهاجرين، وسار وإيّاهم ليدخلوا مكة من أعلاها فى حِذاء جبل هند . وفيما هم يتأهّبون سمع بعضهم سـعد بن عُبَادة يقول : اليومَ يومُ المَلْحمة، اليوم تُسْـتَحَلّ الحُرْمة . وفى ذلك من نقض أمر النبىّ ألا يقتل المسلمون من أهل مكة ما فيه . لذلك رأى النبىّ حين بلغه ما قال سعد أن يأخذ الراية منـه وأن يدفعها الى ابنه قيس، وكان رجلا ضخما، لكنه كان أهدأ من أبيه أعصابا .

دخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد . فقد كان يقيم فى هـذا الحىّ من أسفل مكة أشـدّ قريش عداوة لمحمد، ومن اشتركوا مع بنى بكر فى نقض عهـد الحُدَيْبية بالغارة على خُزاعة . هؤلاء لم يرضهـم ما نادى به أبو سفيان، بل أعدّوا عُدّتهم للقتال، وأعدّ آخرون منهم عُدّتهم للفِرار، وقام على رأسهم صَفْوان وسُهَيْل وعِكرمة بن أبى جهل . فلمـا دخلت فرقة خالد أمطروها نبالهم . لكن خالدا لم يلبث أن فرّقهم . ولم يُقْتَل من رجاله إلا اثنان ضلاّ طريقهما وانفصلا عنه . أما قريش ففقدوا ثلاثة عشر رجلا فى رواية، وثمانية وعشرين فى رواية أخرى . ولم يلبث صفوان وسهيل وعكرمة حين رأوا الدائرة تدور عليهم أن ولّوا الأدبار تاركين وراءهم من حرّضوهم على المقاومة يَصْلَوْن بأس خالد وبطش أبطاله معـه . وبينما محمد على رأس المهـاجرين يرقى مرتَفَعًا ينزل منـه الى مكة مطمئن النفس لفتحها فى سكينة وسـلم، بَصُر بأُمّ القرى وبما فيهـا جميعا، وبَصُر بتَلماع السيوف أسفل المدينة وبمطاردة جيش خالد لمن هاجموهم . هنالك أَسِـف وصاح مغضَبا يذكر أمره ألا يكون قتال . فلما علم بما كان، ذكر أن الخِيَرة فيما اختاره الله .

أبي سفيان؟ من المغامرة أن نحكم . لكنا نستطيع أن نقرر مطمئنة نفوسنا أنه سواء أكانت المصادفة هي التي ساقت ذلك كله أم أن شيئا من الاتفاق قد وقع عليه ، فالحالان تدلّان على دقة محمد ومهارته فى كسب أكبر موقعة فى تاريخ الإسلام من غير حرب ومن غير إراقة دماء .

عدّة محمد لدخول مكة

لم يمنع إسلام أبي سفيان محمدا أن يتخذ لدخول مكة كل ما لديه من أُهبة وحذر؛ وإذا كان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، فإن الله لا يؤتى النصر إلا من أعدّ له كل عُدّته، واحتاط لكل دقيقة وجليلة قد تقف فى سبيله . لذلك أمر أن يُحْبَس أبو سفيان بمضيق الوادى عند مدخل الجبل الى مكة ، حتى تمرّ به جنود المسلمين فيراها ليحدِّث قومه بها عن بيِّنة، ولكى لا يكون فى إسراعه اليهم خيفة مقاومةٍ أيًّا كان نوعُها . ومرّت القبائل بأبى سفيان ، فما راعه منها الا الكتيبة الخضراء يحيط بمحمد فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم الا الحدق من الحديد. فلما عرف أبو سفيان أمرهم قال : يا عبّاس! ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداةَ عظيما ! . ثم انطلق الى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته : يا معشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به . فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

وسار محمد فى الجيش ، حتى إذا انتهى الى ذى طُوًى ، ورأى من هناك مكة لا تقاوم استوقف كتائبه، ووقف على راحلته، وانحنى لله شاكرا، أن فتح الله عليه مَهْبِط الوحى ومقرّ البيت الحرام ليدخله والمسلمين آمنين مطمئنين . وفيما هو كذلك طلب أبو قُحافة، ولم يكن قد أسلم كابنه، الى حفيدة له أن تظهر به على أبى قُبَيْس. وكان قد كُفّ بصره . فلما ارتقت به الجبل سألها ما ترى ؟ قالت : أرى سوادا مجتمعا . قال : تلك الخيل . ثم قالت : قد والله انتشر السواد . فقال : تلك الخيل دفعت الى مكة، فأسرعى بى الى بيتى . ولم يصل الى بيته حتى كانت الخيل قد زحفت وتلقّته قبل بلوغه إياه .

عذّبوه وأصحــابه من قبــل ذلك ، ومن قاتلوه فى بَدْر وفى أُحُد ، ومن حصروه فى غزوة الخندق ومن ألَّبوا عليه العرب جميعا ، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إرْبًا إرْبًا لمــا ونَوْا فى ذلك لحظة! هؤلاء قريش فى قبضة محمد وتحت قدميه ، أمرُه نافذ فى رقابهــم ، وحياتُهم جميعا معلّقة بين شفتيه ، وفى سلطانه هــذه الألوف المدجَّجة بالسلاح تستطيع أن تُبيد مكة وأهلها فى رجع البصر! لكن محمدا! لكن النبىّ! لكن رسول الله ليس بالرجل الذى يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس . وليس هو بالجبّار ولا بالمتكبر . لقد أمكنه الله من عدوّه ، فقَدَر فعفا ، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعا مثلا فى البرّ والوفاء بالعهد وفى سموّ النفس سموّا لا يبلغه أحد .

الصور فى الكعبة

ودخل محمد الكعبة فرأى جدرانها صُوِّرت عليها الملائكة والنبيّون ، ورأى إبراهيم مصورا فى يده الأزلام[1] يستقسم بها ، ورأى بها تمثال حمامة من عِيدان فكسرها بيده وألقاها الى الأرض . أمّا صورة إبراهيم فنظر محمد اليها مَليًّا وقال : قاتلهم الله! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام! ماشأن إبراهيم والأزلام! ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . أمّا الملائكة الذين صُوِّروا نساء ذوات جمــال فقد أنكر محمد صــورهم أن ليست الملائكة ذكورا ولا إناثا ؛ ثم أمر بتلك الصور كلها فطُمست . وكانت حول الكعبة الأصنام التى كانت تعبدها قريش من دون الله قد شُــدَّت الى جُدرها بالرصاص ، كما كان هُبَــل فى داخل الكعبة ؛ فجعــل محمد يشير إلى هذه الأصــنام جميعا بقضيب فى يده وهو يقول : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَـاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[2] . وكُبّت الأصنام على وجوهها وظهورها ، وطُهر البيت الحرام بذلك منها . وأتمّ محمد بذلك فى أوّل يوم لفتح مكة

تطهير الكعبة من الأصنام

(١) الأزلام (واحدها زلم بفتحتين وبضم ففتح) هى القداح التى كانت فى الجاهلية عليهــا مكتوب الأمر والنهى افعل ولا تفعل ، كان الرجل منهم يضعها فى وعاء ، فاذا أراد سفرا أو زواجا أو أمرا مهما أدخل يده فى الوعاء بعد اجالتها فيه وتحريكها فأخرج منها زلما ، فان خرج الأمر مضى لشأنه ، وإن خرج النهى كف عما اعتزم ولم يفعله . والاستقسام بها معرفة قسم الإنسان أى حظه ونصيبه .

(٢) سورة الاسراء آية ٨١

دخول مكة

ونزل النبيّ بأعلى مكة قُبالة جبل هند، وهنالك ضربت له قبّة على مقربة من قبرى أبى طالب وخديجة، وسئل : هل يريد أن يستريح فى بيته ؟ فأجاب : كلا ! فما تركوا لى بمكة بيتا. ودخل الى القبّة يستريح وقلبه مفعم بشكر الله أن عاد به عزيزا منتصرا الى البلد الذى آذاه وعذّبه وأخرجه من بين أهله ودياره . وأجال بصره فى الوادى وفى الجبال المحيطة به، فى هذه الجبال التى كان يأوِى الى شِعابها حين يشتدّ به أذى قريش وتشتد به قطيعتها، فى هذه الجبال ومن بينها حِرَاء حيث كان يتحنّث حتى نزل عليه الوحى أن ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) . — أجال بصره فى هذه الجبال وفى الوادى مبعثرةً منازل مكة فيه يتوسّطها البيت الحرام، فبلغ من خضوعه لله أن ترقرقت فى عينه دمعة إسلام وشكر للحق لا حقّ إلا هو، اليه يرجع الأمر كله . وشعر ساعتئذ أن مهمّة القائد قد انتهت . فلم يُقِم بالقبّة طويلا بل خرج وامتطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة، فطاف بالبيت سبعًا على راحلته يستلم الركن بِمِحْجَنٍ (٢) فى يده . فلما قضى طوافه دعا عثمانَ بن طلحة ففتح الكعبة فوقف محمد على بابها، وتكاثر الناس فى المسجد، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٣) . ثم سألهم : يا معشر قريش، ما ترون أنّى فاعل بكم ؟ . قالوا : خيرا، أخٌ كريم وابن أخ كريم ! . قال : فاذهبوا فأنتم الطُّلَقاء . وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعا .

العفو العام

ما أجمل العفو عند المقدرة ! ما أعظم هذه النفسَ التى سمت كل السمو فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام، وأنكرت كل عاطفة دنيا، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان ! . هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ليقتلوه، ومن

(١) سورة العلق الآيات من ١ الى ٥ (٢) المحجن : عصا منعطفة الرأس .
(٣) سورة الحجرات آية ١٣

فهو لم يكن يعرف الحقـد ، ولكن لجرائم عظمى ارتكبوها . فأحدهم عبـد الله ابن أبي السَّرْح كان قد أسـلم وكان يكتب لمحمد الوحى ، فارتدّ مشركا الى قريش زاعمًا أنه كان يزيِّف الوحى حين يكتبه . وعبد الله بن خَطَل كان قد أسلم ثم قتل مولى له وارتدّ مشركا وأمر جاريتيه فَرْتَنَا وصاحبتها فكانتا تغنِّيان بهجاء محمد ، فأمر بقتلهما معـه . وعِكرمة بن أبي جهل وكان من أشـدّ الناس لَدَدًا فى خصومة محمد والمسلمين خصومة لم تهدأ حتى بعد فتح مكة ودخول خالد بن الوليد من أسفلها .

أمر محمد بعد دخول مكة ألّا يُسْفَك بها دم أو يُقتل فيها أحد غير هذه الطائفة . لذلك اختفى رجالها ونساؤها وفرّ منهم من فرّ . فلمـا استقرّ الأمر وهدأت الحال ورأى الناس من فُسحة صدر الرسول ومن عفوه الشامل ما رأوا ، طمع بعض أصحابه فى أن يعفو حتى عن هؤلاء الذين أمر أن يُقْتلوا . فقـام عثمان بن عفّان ، وكان أخا ابن أبي السَّرْح للرضـاعة ، حتى أتى به النبيّ فاستأمن له . فصمت محمد طويلا ثم قال نعمْ ، وأمّنه . وأسلمت أمّ حكيم بنت الحـارث بن هشام زوج عِكْرمة بن أبي جهـل الذى فرّ الى اليمن واستأمنت له محمدا فأمّنه ، فخرجت فى طلبه وجاءت به . وعفا محمد كذلك عن صَفْوان بن أُميّة وكان قد صحب عكرمة فى فراره الى ناحية البحر يستـقلّانه الى اليمن ، فجىء بهما والسـفينة التى تحملهما على أُهبـة إقلاعها . وعفا محمد كذلك عن هنـد زوج أبي سفيان التى مضغت كبد حمـزة عمّ الرسول بعد استشهاده فى أُحد ، كما عفا عن أكثر مَنْ أمر بقتلهم . ولم يقتل منهم إلا أربعة منهـم الحويرث الذى أغرى بزينب بنت النبيّ حين رجوعها من مكة الى المدينـة ، ورجلان أسلما ثم ارتكبا بالمدينة جريمة القتل وفرّا راجعين الى مكة مرتدّين الى الشرك ، وإحدى قينتى ابن خَطَل اللتين كانتا تؤذيان النبيّ بغنائهما ، وفرّت الأخرى ثم استُؤْمن لها .

العفو عمن أمر النبي بقتلهم

خلا أربعة قتلوا فى جرائمهم

وفى غداة يوم الفتح عثرت خُزاعة على رجل من هُـذَيْل وهو مشرك فقتلوه . فغضب النبيّ وقام فى الناس خطيبا فقال : « يأيها الناس ، إن الله حرّم مكة يوم

تحـريم مكة عن الناس جميعا

ما دعا اليه منذ عشرين سنة، وما حاربته مكة أشدّ الحرب فيه. أتمّ تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنيـة فى البيت الحرام بمشهد من قريش، ترى أصنامها التى كانت تعبد و يعبد آباؤها، لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرّا.

مخاوف الأنصار وتبديدها

ورأى الأنصار من أهل المدينة ذلك كله، ورأوا محمدا يقوم على الصفا ويدعو، فخيِّل إليهم أنه تارك المدينـة الى وطنه الأول وقد فتحه الله عليـه، وقال بعضهم لبعض: أتَرَوْن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ فتح الله عليه أرضه و بلده يقيم بها؟ ولعلهم كانوا على حق فى مخاوفهم. فهذا رسول الله، و بمكة البيتُ الحـرام بيت الله، و بمكة المسجدُ الحرام. لكن محمدا ما لبث حين أتمّ دعاءه أن سألهم: ماقالوا؟ فلمـا عرف بعد تردُّد منهم مخافتهم قال: معاذَ الله! المَحْيا مَحْياكم والمَمات ممـاتكم. فضرب بذلك للناس مثلا فى البِرّ بعهده فى بيعـة العقبة، وفى الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشـدّة الى جانبه، بِرًّا ووفاء لا يُنسيهما وطن ولا أهـل ولا تُنسيهما مكة البلد الحرام.

ولـما أن طُهِّرت الكعبة من أصنامها، أمر النبيّ بلالًا فأذّن فوقها، وصـلّى الناسُ بإمامة محمد. ومن يومئذ الى يومنا الحاضر، مدى أربعـة عشر قرنا مضت لاتنقطع، و بلالٌ وخلفاء بلال من بعده ينادون بالأذان، كلَّ يوم خمسَ مرات، من فوق مسجد مكة. ومدى أربعة عشر قرنا مضت من يومئذ يؤدِّى المسلمون فرض الصلاة لله والصلاة على رسوله، متوجِّهين الى الله بقلوبهم وعقولهم، مستقبلين هذا البيت الحرام الذى طهّره محمد يوم الفتح من أوثانه وأصنامه.

وأذعنت قريش لِـما حلّ بها، واطمأنت لعفو محمد عنها وأقامت تنظر اليه والى المسـلمين من حوله بعيون كلها دهش و إعجاب يمازجهما الخوف والحذر. لكن طائفة منها عِدَّتها سـبعة عشر رجلا، كان محمد قد استثناها من رحمتـه وأمر ساعة دخول مكة أن يُقْتَل رجالهـا ولو وُجدوا متعلِّقين بأستار الكعبة، كان قد آثَر بعضها الاختفاء ولاذ بعضها بالفرار. ولم يكن قرار محمد قتلهم لحقد منه أو غضب عليهم،

غير سفك للدماء . وكان خالد بن الوليد قد خرج الى نَخْلة ليهدم العُزّى وكانت لبنى شَيْبان . فلمّا هدمها خرج الى جَذِيمة، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ؛ فطلب اليهم خالد أن يضعوه فإن الناس قد أسلموا . قال رجل من جَذِيمة لقومه : ويلكم يا بني جَذِيمة ! إنه خالد . والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق . قال له قومه : أتريد أن تسفِك دماءنا ! إن الناس قد أسلموا ووُضِعت الحرب وأمِن الناس . وما زالوا به حتى وضع سلاحه . عند ذلك أمر بهــم خالد فغُلّوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتــل منهم . فلما انتهى الخبر الى النبيّ رفع يديه الى السماء وقال : «اللهم إنى أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد» . ثم بعث اليهم علىّ بن أبى طالب وقال له : أُخرج الى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهليّة تحت قدميك . وخرج علىّ ومعه مال أعطاه النبيّ إيّاه . فلما بلغ القوم دفع الدية عن الدماء وعما أُصيب من الأموال، حتى اذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه، أعطاهم بقية المــال الذى بعث به رسول الله احتياطًا لرسول الله ممــا لا يعلم .

خالد بن الوليــد فى جذيمة

وفى الأسبوعين اللذين أقام محمد بمكة عفّى على كل آثار الوثنيّة فيها . ولم ينتقل الى الإسلام من مناصب البيت الحرام إلا سِــدانة الكعبة أقرّها النبيّ فى عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا يأخذها منهم إلا ظالم، وسِقاية الحــاجّ من زمزم جعلها لعمّه العبّاس . وكذلك آمنت أمّ القرى ورفعت منار التوحيد ولواءه، وأضاءت العالم خلال الأجيال والقرون بنوره الوضّاء .

خلق السموات والأرض، فهى حرامٌ من حرام من حرامٍ إلى يوم القيامة، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا أو يَعضد[1] فيها شجرا . لم تُحْلَل لأحد كان قبلى ولا تحل لأحد يكون بعدى، ولم تُحْلَل لى إلّا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلّغ الشاهد منكم الغائبَ . فمن قال لكم إنّ رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلّها لرسوله ولم يُحْلِلْها لكم يا معشر خُزاعة . اِرفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثُر إن نفع . لقد قتلتم قتيلاً لأَدِينّه . فمن قُتِل بعد مقالى هذا فأهلُه بخير النَّظَرَيْن : إن شاءوا فدَمُ قاتِله، و إن شاءوا فعَقْلُه[2] » .

ثم ودَى بعد ذلك الرجل الذى قتلت خُزاعة . و بهذا الخطاب و بتصرُّفه الذى زاد على السماحة والعفو أمس، كسب محمد قلوب أهل مكة بما لم يكونوا يقدّرون، فأقبلوا على الإسلام . ونادى مناد فيهم : «مَنْ كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك فى داره صنما إلا حطمه» . ثم بعث جماعة من خُزاعة ليُصلحوا من العمد المحيطة بالبلد الحرام، مما دلّ أهل مكة على مالها فى نفسه من القدسية وما زادهم له حبًا . فلما أخبرهم أنهم خير أمّة يحبّ ، وأنه ما كان ليتركهم أو يعدل بهم ناسًا لولا أنهم أخرجوه، بلغ تعلّقهم به غاية حدوده . وجاء أبو بكر بأبيه الذى ارتقى قُبَيْسا يوم الزحف يقوده حتى وقف بين يدى النبيّ . فلما رآه محمد قال: هلّا تركت الشيخ بمكانه حتى أكون أنا آتيَه فيه ! . قال أبو بكر : يارسول الله هو أحقّ أن يمشى اليك من أن تمشى اليه أنت . فأجلس النبيّ الشيخ بين يديه ومسح صدره ثم قال له : أَسْلِم . فأسلم وحسن إسلامُه . وكذلك أسرتْ أخلاق النبوّة السامية هذا الشعب الذى كان ثائرا على محمد أشد الثورة، والذى أصبح اليوم يُجِلّه و يقدّسه . وكذلك أسلمت قريش رجالا ونساء و بايعت .

وأقام محمد بمكة خمسة عشر يوما ينظّم خلالها شؤون مكة و يفقّه أهلها فى الدين . وفى هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة الى الإسلام لا للقتال، ولتحطيم الأصنام من

(١) يعضد : يقطع . (٢) العقل : الدية .

ولكنما كان الانتفاع برأيه بعد الذى عركه على السنين فى وقائعها . اجتمعت هذه القبائل كلها ومعها أموالها ونساؤها وأبناؤها ، وتمّ جمعها حين نزلت سَهْلَ أوْطَاس . فلما سمع دُرَيْد رُغاء البعير ونُهَاق الحمير و بكاء الصغير وثُغَاء الشاء ، سأل مالك بن عوف : لِمَ ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم وصغارهم ؟ فلما أجابه مالك بأنه إنما أراد أن يشجّع بها المحاربين ، قال دُرَيد : وهل يردّ المنهزم شيء ! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ؛ و إن كانت عليك فُضِحت فى أهلك ومالك . واختلف مالك و إيّاه . وتبع النـاس مالكا ، وكان شابًّا فى الثلاثين من عمره قوىّ الإرادة ماضى العزيمة ، وتابعهم دُرَيد مايردّ لهم ، على رغم سابقته فى الحرب ، رأيا .

تحصن القبائل بمضيق الوادى

وأمر مالك الناس أن يخازوا إلى قِمَم حُنَيْن وعنـد مضيق الوادى . فاذا نزل المسلمون واديه فليشدّوا عليهم شَدّة رجل واحد تضعضع صفوفهم ، فيختلط حابلهم بنابلهم و يضرب بعضهم بعضا وتدور عليهم الهزيمة و يزول أثر انتصارهم حين فتحوا مكة ، ويبقى لقبائل حنين فى بلاد العرب جميعا فخار النصر على هذه القوّة التى تريد أن تُظِلّ بسلطانها بلاد العرب جميعـا . وصدَعت القبائل بأمر مالك وتحصّنت بمضيق الوادى .

مسيرة المسلمين الى حنين

أمّا المسلمون فبادروا بعـد أسبوعين من مُقامهم بمكة وعلى رأسهم محمد فى عُدّة وعديد لم يكن لهم من قبل بهـا عهد قطّ . ساروا فى اثنى عشر ألفا من المقاتلين ، منهم عشرة آلاف هم الذين غزوا مكة وفتحوها ، وألفان ممن أسـلم من قريش ، و بينهم أبو سفيان بن حرب ، وكلهم تلمع دروعهم ، وفى مقدّمتهم الفرسان والإبل تحمل المِيرة والذخيرة . سار المسلمون فى هذا الجيش الذى لم تعرف بلاد العرب من قبلُ مثاله ، يتقدّم كلّ قبيلة عَلَمُها ، وتمتلئ النفوس كلها إعجاباً بهذه الكثرة ، وبأن لا غالبَ اليوم لها ؛ حتى لقد تحدّث بعضهم بذلك إلى بعض وجعلوا يقولون : لن نُغْلَب اليوم لكثرتنا . و بلغوا حُنَيْناً والمساءُ يقبل ، فنزلوا على أبواب واديها وأقاموا بها حتى بُكرة الفجر . هنالك تحرّك الجيش . وركب محمد بغلته البيضاء فى مؤخّرته ، على حين سار خالد بن الوليد على رأس بنى سُلَيْم فى المقدّمة ، وانحدروا من مضيق

الفصل الخامس والعشرون

حنين والطائف

تألب هوازن وثقيف بامرة مالك بن عوف — تحصنهم بمضيق وادى حنين — خروج المسلمين إلى حنين تعجبهم كثرتهم — دخول المسلمين من مضيق الوادى فى عماية الصبح — ضرب هوازن وثقيف إياهم من المرتفعات وارتدادهم منهزمين — ثبات محمد إلى الموت — صياح العباس بالمسلمين كى يعودوا — عودهم إلى رسول الله ومقاتلتهم وانتصارهم — الفىء — المسير الى الطائف — حصارها وعدم إمكان اقتحامها — تحريق نخيلها — استرحامها النبى — رجوعه من الحصار — إسلام هوازن — حديث الشيماء — العود الى الجعرانة وقسمة الفىء — العمرة — العود الى المدينة

أقام المسلمون بمكة بعد فتحهم إيّاها فرحين بنصر الله إيّاهم ، مغتبطين أن لم يسفك فى هذا النصر العظيم الا الدم القليل، مسارعين الى البيت الحرام كلما أذّن بلال بالصلاة، متدافعين حول رسول الله حيث أقام وأنّى ذهب، يغشى المهاجرون منهم دورهم ويتّصلون بأهليهم الذين هدى الله بعد الفتح؛ ونفوسُهم جميعا مطمئنة الى أن الأمر قد استقرّ للإسلام، وأن الجانب الأكبر من الجهاد قد كُلِّل بالفوز والظفر . وإنهم لكذلك بعد خمسة عشر يوما من مُقامهم بأُمّ القرى إذ ترامت اليهم أنباء أيقظت استنامتهم للغبطة . تلك أن هوازن كانت تُقيم على مقربة من مكة الى جنوبها الشرقيّ فى جبال هناك . فلما علمت بما تمّ للسلمين من فتح مكة ومن تحطيم أصنامها، خشيت أن تدور عليها الدائرة وأن يقتحم المسلمون عليها منازلها ،ففكرت فيما تصنع لاتقاء هذه الكارثة الوشيكة الوقوع ،ولصدّ محمد والكفّ من غلواء المسلمين الذين يعملون للقضاء على استقلال قبائل شبه الجزيرة وعلى ضمّها كلها فى وحدة تربطها . لذلك جمع مالك بن عوف النَّصْرىّ هوازن وثقيفا، كما اجتمعت نَصْرٌ وجُشَم، ولم يتخلّف عن الاجتماع من هوازن إلا كَعْب وكِلاب. مسيرة مالك بن عوف لقتال المسلمين
وكان فى جُشَم دُرَيْد بن الصِّمَّة ، وكان يومئذ شيخا كبيرا لا نفع منه فى الحرب،

أمر الله . لكنّ أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أمسك بخِطام بغلته وحال دون تقدّمها .

نداء العباس في الناس

وكان العبّاس بن عبد المطلب رجلًا جسيما جَهْوَرِيّ الصوت قويّه ، فنادى بما أسمع الناس جميعا من كل فجّ : يامعشر الأنصار الذين آووا ونصروا ! . يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ! إن محمدا حيٌّ فهَلُمُّوا ! . وكرّر العباس النداء حتى تجاوبت في كل جَنَبات الوادي أصداؤه . وهنا كانت المعجزة : سمع أصحاب العقبة اسم العقبة فذكروا محمدا وذكروا عهودهم وشرفهم . وسمع المهاجرون اسم محمد فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم . وسمع هؤلاء وأولئك بسكينة محمد وثباته في نفر قليل من المهاجرين والأنصار كثباته يوم أُحُد في وجه هذا العدوّ الزاحف ، وصوّرت لهم نفوسهم ما قد ينشأ عن خِذلانهم إيّاه من تغلُّب المشركين على دين الله . وكان نداء العباس أثناء ذلك مايزال يدوّي في آذانهم وتهتزّ لأصدائه أوتار قلوبهم . هنالك تصايحوا من كل صوب : لَبَّيْكَ لبيّك ! وارتدّوا إلى المعركة مستبسلين .

رجوع المسلمين واستماتتهم

وبدأت الطمأنينة تعاود محمدا حين رآهم يعودون . فقد انحدرت هوازن من مكامنها وأصبحت وجها لوجه مع المسلمين في الوادي . وقد أضاء النهار وطغى النور على عماية الفجر . واجتمع حول رسول الله بضع مئات استقبلوا القبائل وصبَروا لهم ، وهم يزداد عددهم وتشتد بعودتهم عزائم من خارت من قبلُ عزائمهم . وجعل الأنصار يتصايحون : يا للأنصار ! ثم تنادوا : يا للخزرج ! . ومحمد ينظر الى تناحر القوم ؛ حتى إذا رأى الصِّدام اشتدّ ورأى رجاله تسمو نفوسهم ويُطيحون بخصومهم ، نادى : الآن حَمِيَ الوطيس ، إن الله لا يُخْلِف رسولَه وعدَه . ثم طلب الى العباس فناوله حَفْنة من الحصى ألقى بها في وجوه العدوّ قائلا : شاهت الوجوه ! واندفع المسلمون الى المعركة مستهينين بالموت في سبيل الله ، مؤمنين بأن النصر لامحالة آت ، وأن من استُشهد منهم فله من هذا النصر أكبر من نصيب من بقي . وكان البلاء شديدا ؛ حتى إن هوازن وثقيفا ومن معهم ما لبثوا ، حين رأوا كل مقاومة غير مجدية وأنهم معرّضون للفناء عن آخرهم ، أن فرّوا منهزمين لايلوون على شيء ، تاركين وراءهم

انتصار المسلمين وما غنموا

حُنين فى واد من أودية تِهامة . وإنهم لكذلك منحطّون الى الوادى اذ شدّت عليهم القبائل بإمْرة مالك بن عوف شَدّة رجل واحد وأصلَوْهم وابلًا من النبال وهم جميعا ما يزالون فى عَماية الفجر . إذ ذاك اختلط أمر المسلمين واضطرب، وعادوا منهزمين قد أخذ الخوف والفزع منهم كلّ مأخذ، حتى أطلق بعضهم ساقيه للريح، وحتى قال أبو سفيان بن حرب وعلى شفته ابتسامة المغتبط لفشل أولئك الذين انتصروا بالأمس على قريش : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر . وقال شَيْبة بن عثمان ابن أبى طلحة : اليوم أُدرك ثأرى من محمد، وكان أبوه قد قُتل فى غزوة أُحد . وقال كَلَدَة بن حنبل : ألَا بَطَل السحرُ اليوم ! . فردّ عليه أخوه صَفْوان : أُسكت فضّ الله فاك ! فوالله لَأن يَربّنى(١) رجل من قريش أحبُّ إلىّ من أن يربّنى رجل من هوازن . تقع هـذه الأحاديث والجيش يختلط حابله بنابله والنبىّ فى المؤخرة تمرّ عليه القبائل واحدة بعد الأخرى مولّية الأدبار مهزومة لا تلوِى على شىء .

فرار المسلمين

ماذا تراه يصنع؟ ! أفتضيع تضحيات عشرين سنة فى هـذه اللّحظة من عماية الصبح ! ! أفتنحّى عنه ربّه وتخلّى عنـه نصر الله إيّاه ؟ ! كلا ! كلا ! لن يكون هذا ! دون هذا تبيد أممٌ وتفنَى أقوام ! ودون هذا الموتُ يدخل محمد فى غِماره لعل فى الموت لدين الله نصرا . وإذا جاء أجلُهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . وثبت محمد مكانه، وأحاط به جماعة من المهاجرين والأنصار ومعه أهل بيته، وجعل ينادى فى الناس اذ يمرّون منهزمين: أين أيها الناس! أين! لكن الناس كانوا فيما هم فيـه من هول الفـزع لا يسمعون الى شىء ولا يدور بتصوّرهم إلا هـوازن وثقيف منحدرتين من مُعْتَصَمهما بالقِمَم تطاردانهـم حتى تجيئا عليهم. ولم يخطئ تصوّرهم؛ فقد انحدرت هوازن من مَكامنها يتقدّمها رجل على جمل له أحمر، بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل، وهو كلما أدرك المسلمين طعن برمحه ، وهوازن وثقيف وأنصارهما منحدرون من ورائه يطعنون . وثارت بمحمد حميّته، فأراد أن يندفع ببغلته البيضاء فى صدر هذا السيل الدافق من رجال العدوّ ، وليكن بعد ذلك

ثبات محمد وقوة عزيمته

(١) ربه : ملكه وساسه .

وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

ثمن النصر

على أن المسلمين لم يُحرزوا هـذا النصر المؤزَّر رخيصا ، بل دفعوا فيه ثمنا غاليا لعلهـم لم يكونوا يدفعونه لو لا تخاذُلهم الأول وتدافعهم مهزومين ، ليقول فيهم أبو سفيان : إنهـم لا يردّهم إلا البحر . دفعوا الثمن غاليا من مُهَج الرجال وأرواح الأبطال الذين استُشهدوا فى الموقعـة . ولئن لم تُحص كتب السيرة كلَّ القتلى ، لقد ذكرت أنّ قبيلتين من المسلمين فنيتا أو كادتا ، وأنّ النبي صلّى على أرواحهم رجاةَ أن يدخلهم الله الجنة . لكنه كان النصر على كل حال ؛ النصر التام تغلّب فيه المسلمون على خصومهم ، وغنِموا منهم وأسَروا ما لم يغنَموا ولم يأسِروا من قبل . والنصر هو كل شيء فى النضال أيًّا كان الثمن الذى يُدفَع فيه ما دام نصرا شريفا . لذلك اغتبط المسلمون بما جزاهم الله وظلّوا يرتقبون قسمة الفيء والعود بالغنيمة .

لكن محمدا كان يريده نصرًا أكثر روعة وأعظم جـلالا . وإذ كان مالك بن عوف هو الذى قاد هـذه الجموع ، ثم احتمى بعـد هزيمتها مع ثقيف بالطائف ، فليحاصر المسلمون الطائف وليضيِّقوا عليها الحصار . وتلك كانت خُطّةَ محمد فى خَيْبَر بعد أحد ، وفى قُرَيْظة بعـد الخندق . ولعله ادّكر فى موقفه هـذا يومَ ذهب إلى الطائف لسنوات قبل الهجرة يدعو أهلها إلى الإسلام فسخِروا منه وقذفه صبيانهم بالأحجار ، حتى اضطُرّ إلى الاحتماء من أذاهم بحائط فيـه كرم . لعـله ادّكر كيف ذهب يومئـذ منفردا ضعيفا ، لا حول له ولا قوة إلا حول الله وقوته ، وإلا هذا الإيمـان العظيم الذى ملأ صدره والذى يدكّ الجبال ، وها هو ذا الآن يذهب الى الطائف فى جمع من المسلمين لم تشهد جزيرة العرب فى ماضى تاريخها جمعا مثله .

(١) سورة التوبة : الآيات من ٢٥ إلى ٢٨

نساءهم وأبناءَهم وأموالهم غنيمة للمسلمين الذين أحصوها يومئذ اثنين وعشرين ألفا من الإبل وأربعين ألفا من الشاء وأربعـة آلاف أُوقية من الفضة . أمّا الأسرى وعددهم ستة آلاف فقد نُقلوا محروسين الى وادى الجِعْرانة حيث أوَوْا الى أن يعود المسلمون من مطاردتهم عدوّهم ومن حصار ثقيف بالطائف .

تعقب المسلمين عدوهم

وتابع المسلمون مطاردتهم لعـدوّهم . وزادهم إغراءً بهـذه المطاردة أن أعلن الرسولُ أن من قتل مشركا فله سَلَبُه . وأدرك ابن الدُّغُنّة جملا عليـه شِجَارٌ(١) ظن به امرأة طمع فى سَلَبها ، فأناخ الجمل فاذا شيخ كبير لا يعرفه الفتى هو دُرَيْد بن الصِّمّة. وسأل دريد ربيعة : ما يريد به؟ قال : أقتلك ، وأهوى عليه بسيفه فلم يُغن شيئا . قال دريد : بئس ما سلّحتك أُمُّك ! خذ سيفى هذا من مؤخّر الرحل ثم اضرب به ، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب به الرجال . ثم إذا أتيتَ أُمّك فأخبرها أنك قتلت دُرَيد بن الصِّمّة ، فرُبَّ والله يومٍ قد منعتُ فيه نساءك . ولمّـا رجع ربيعة الى أُمّـه وأخبرها خبره قالت له : « حرَّق الله يدك ! إنما قال ذلك ليذكِّرنا نعمه عليك . فوالله لقد أعتق لك ثلاث أمّهات فى غداة : أنا وأُمّى وأمّ أبيك » . وتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا أَوْطاسا ، وهناك أوقعوا بهم وهزموهم شرَّ هزيمة ، وسبَوْا من احتملوا من النساء والأموال وعادوا بهم الى محمد . أمّا مالك بن عوف النَّصْرىّ فقد ثبت برهةً ثم فرّ وقومَه مع هوازن حتى افترق عنهم عند نَخْلة ، ثم ولّى وجهَه نحو الطائف فاحتمى بها .

هزيمة المشركين تامـة

وكذلك كان نصر المسلمين مؤزَّرا ، وكانت هزيمة المشركين تامّة بعـد ذلك الفزع الذى أصاب المسـلمين فى عماية الصبح ، وحين شـدّ المشركون عليهم شَدّة رجل واحد ضعضعت صفوفهم وخلطت حابلهم بنابلهم . كان نصر المسلمين مؤزَّرا بفضـل ثبات محمد والفئـة القليلة التى أحاطت به . وفى ذلك نزل قوله تعـالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً

(١) شجار : مركب مكشوف دون الهودج ، ويقال له مشجر .

مكة) علم بالرماية بالمَنْجَنيق و بمهاجمة الحصون فى حماية الدبّابات . وكان أحد رؤسائها الطُّفَيْل قد صحب محمدا منذ غزا خَيْبَر ؛ وكان معه عند حصار الطائف ؛ فأوفده النبيّ إلى قومه يستنصرهم ؛ فجاء بطائفة منهم ومعهم أدواتهم ، فبلغوا الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إيّاها . ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق وبعثوا اليها بالدبّابات دخل تحتها نفر منهم ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليَخرقوه . لكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار . فقد أحموا قطعا من الحديد بالنار، حتى اذا انصهرت ألقوها على الدبّابات فخرقتها ، ففرّ جنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا ؛ فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلت جماعة منهم . لم يُفلح هذا المجهود إذًا أيضا ولم يستطع المسلمون التغلّب على مناعة هذه الحصون .

رمى الطائف بالمنجنيق

ماذا عساهم بعد ذلك يصنعون؟ فكّر محمد فى هذا وفكر طويلا . ولكن ! ألم ينتصر على بنى النَّضير ويُجْلِها عن ديارها بإحراق نخيلها؟ ! وكروم الطائف أكبر قيمة من نخيل بنى النَّضير، فهى كروم لها من ذيوع الاسم فى بلاد العرب جمعاء ما تباهى به الطائفُ أخصب بلاد العرب ، وما جعل الطائف واحة كأنها الجنة وسط هذه الصحارى . وأمر محمد فبدأ المسلمون ينفِّذون ، يقطعون ويحرّقون الكروم التى ما يزال لها حتى اليوم مثل ما كان لها من شهرة وذيوع صوت . ورأى الثقفيّون هذا وأيقنوا أن محمدا جادّ فيه ، فبعثوا اليه أن يأخذه لنفسه إن شاء وأن يدعه لله وللرحم لما بينه و بينهم من قرابة . فاستمهل محمد رجاله ، ثم نادى فى ثقيف : إنه مُعْتِق من جاء اليه من الطائف . ففرّ اليه قُرابة عشرين من أهلها عرف منهم أن بالحصون من الذخيرة ما يكفى أمدًا طويلا . هنالك رأى أن الحصار سيطول أمده ، وأن جيوشه تودّ الرجوع لاقتسام الفىء الذى كسبوا ، وأنه إن أصرّ على البقاء فقد ينفَد صبرهم . هذا ، وكانت الأشهر الحرم قد آذنت ولا يجوز فيها قتال . لذلك آثر أن يرفع الحصار بعد شهر من وقوعه . وكان ذو القعدة قد هَلّ ، فرجع بجيشه معتمرا ، وذكر أنه متجهِّزٌ الى الطائف إذا انتهت الأشهر الحرم .

قطع الكروم وتحريقها

حصار الطائف

أمر محمد أصحابه اذًا أن يسيروا إلى الطائف ليحاصروا بها ثقيفا وعلى رأسها مالك ابن عوف . وكانت الطائف مدينة محصَّنة لها أبواب تُغلق عليها كا كثر مدن العرب فى ذلك العصر . وكان أهلها ذوى دراية بحرب الحصار وذوى ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون . وقد سار المسلمون اليها ، فمّروا فى مسيرتهم بِلِيَّةَ حيث يقوم حصن خاص لمالك بن عوف فهدموه ، كما خرّبوا أثنـاء مسيرتهم كذلك حائطا لرجل من ثقيف . وبلغ المسلمون الطائف ، فأمر النبيّ عسكره فنزل على مقربة منها ، وجمع أصحابه ليفكروا فيما يصنعون . لكن ثقيفا ما لبثت حين رأتهم من أعلى حصونها أن نالتهم بالنبل وقتلت جماعة منهم . ولم يكن من اليسير أن يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعة إلا أن يلجـأوا إلى وسائل غير التى ألِفوا حتى اليوم حين حاصروا قريظة وخيـبر . أتراهم إن هم اكتفَوْا بالحصار يَصِـلون إلى تجويع ثقيف تجويعا يحملها على التسليم ؟ ! وإذا هم أرادوا مهاجمتها فما عسى أن تكون هـذه الوسائل الجديدة التى يهاجمونها بها ؟ ! هذه أمور تحتاج إلى التفكير وإلى الوقت . فلينسحب العسكر إذًا بعيدا عن مرمى النبل لكى لا يصيبه فيُقْتَل رجال من المسلمين ، ثم ليفكر محمد فيما عسى أن يصنع . وأمر عليه السـلام فنقل العسكر بعيـدا عن مرمى النبل

مسجد الطائف

فى مكان أُقيم به مسجد الطائف بعد أن سلّمت الطائف وأسلمت . ولم يكن من ذلك بدٌّ وقد قتلت نبال ثقيف ثمـانية عشر من المسلمين ، وجُرح كثيرون ، بينهم أحد أبناء أبى بكر . وفى جانب من هذا المكان البعيد عن مرمى النبال ضُربت خيمتان من جلد أحمر لزوجتى النبىّ أُمّ سلمة وزينب ، وكانتا تسـيران معه فى كل هذه الوقائع منذ ترك المدينـة . وبين هاتين الخيمتين كان محمد يقيم الصلاة . ولعل مسجد الطائف إنما أقيم فى هذا المكان .

وأقام المسلمون ينتظـرون ما الله صانع بهم وبعـدوّهم . قال أحد الأعراب للنبى : إنما ثقيف فى حصنها كالثعلب فى جُحْره ، لاسبيل إلى إخراجه منه إلا بطول المكث ، فإن تركته لم يلحقك منه ضرّ . لكنما شق على محمد أن يعود أدراجَه دون أن يصيب من ثقيف شيئا . وكان لبنى دَوْس (إحدى القبائل المقيمة بأسـفل

ابن حابس عن تميم وعيينة بن حصن فرفضا ؛ ورفض العباس بن مرداس عن بنى سُلَيم ؛ لكن بنى سليم لم يُقرّوا العبّاس على رفضه . هنالك قال النبىّ : أمّا مَنْ تمسّك منكم بحقّه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أوّل سبي أُصيبه . وكذلك رُدّت نساءُ هوازن وأبناؤها اليها بعد أن أعلنت إسلامها .

وسأل محمد وفد هوازن عن مالك بن عوف النّصْرىّ . فلمّا علم أنه ما يزال بالطائف مع ثقيف، طلب اليهم أن يُبلغوه : أنه إن أتاه مسلمًا ردّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل . ولم يبطئ مالك حين علم بوعد الرسول أن أسرج فرسه فى سرٍّ من ثقيف وأن نجا بها حتى لحق بالرسول، فأعلن إسلامه فأخذ أهلَه وماله ومائة من الإبل . وأوجس الناس خيفة إن أفشى محمد هذه الأعطيات لمن يفدون عليه أن تنقص من قسمتهم من الفىء، فألحّوا فى أن يأخذ كلٌّ فيأه وتهامسوا بذلك . فلما بلغ الهمسُ النبىّ وقف الى جانب بعير فأخذ وَبَرة من سَنامه فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها وقال : « أيها الناس، واللهِ مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم » . وطلب الى كلٍّ أن يردّ ما غنم حتى تكون القسمة العدل، « فمن أخذ شيئا فى غير عدل ولو كان إبرةً كان على أهله عارا ونارا وشنارا الى يوم القيامة » . مخافة الناس نقص الفىء

قال محمد هذه العبارة مُغْضَبا بعد أن ردّوا اليه رداءه الذى أخذوا، وبعد أن صاح بهم : رُدّوا الىّ ردائى أيها الناس، فوالله لو أنّ لكم بعدد شجر تِهَامة نَعَماً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذّابا . ثم إنه خمّس الغنيمة وأعطى من خُمسه الذين كانوا الى أيّامٍ أشدّ الناس عداوة له نصيبا على نصيبهم، فأعطى مائة من الإبل كلًّا من أبى سفيان وابنه معاوية والحارث بن الحارث بن كَلَدَة والحارث بن هشام وسُهَيل بن عمرو وحُوَيْطب بن عبد العُزّى وسائر الأشراف ورؤساء العشائر ممن تألّف بعد فتح مكة ؛ وأعطى خمسين من الإبل من كانوا دون هؤلاء شأنا ومكانة . وقد بلغ عدد الذين أعطاهم عشرات . وبدا محمد يومئذ غايةً فى السماحة

وفد هوازن يستردون السبايا

وانصرف محمد والمسلمون معه عن الطائف قافلين إلى مكة حتى نزلوا الجِعْرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراهم . وهنالك نزلوا يقتسمون . وفصل الرسول الخمس لنفسه ووزّع ما بقى على أصحابه . وإنهم بالجِعْرانة إذ جاء وفدٌ من هوازن قد أسلموا وهم يرتجون أن يردّ عليهم محمد أموالهم ونساءهم وأبناءهم بعد أن طال عنهم غيابهم وبعد أن ذاقوا مرارة ما حلّ بهم . ولقى الوفد محمدا وخاطبه أحدهم قائلا : يارسول الله، إنما فى الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللواتى كن يكفُلنك . ولو أنّا مَلَحْنا(١) للحارث بن أبى شِمْر، أو للنُّعمان بن المُنْذِر، ثم نزل منّا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا؛ وأنت خير المكفولين . ولم يخطئ هؤلاء فى تذكير محمد بصلته بهم وقرابته منهم . فقد كانت بين السبايا امرأة تخطّت الكهولة عنُف عليها الجند المسلمون؛ فقالت لهم : تَعَلَّمُوا، والله إنى لأُخت صاحبكم من الرَّضاعة . فلم يصدّقوها وجاءوا بها محمدا فعرفها فإذا هى الشَّيْماء بنت الحارث بن عبد العُزَّى . وأدناها محمد منه وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيّرها إن أحبت أبقاها وإن أحبّت متّعها ورجّعها إلى قومها؛ فاختارت الرجوع الى قومها .

طبيعىٌّ، وتلك صلة محمد بهؤلاء الرجال الذين أقبلوا عليه من هوازن مسلمين، أن يعطف عليهم وأن يجيبهم إلى مطلبهم . فقد كان ذلك أبدًا شأنه مع كل من أسدى اليه يوما من الدهر يدا . كان عِرْفان الجميل بعضَ شأنه، والبر بكليم القلب فى جِبِلّته . فلما سمع مقالتهم سألهم : أبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله، خيّرتنا بين أموالنا وأحسابنا ! بل تردّ علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحبّ الينا . فقال عليه السلام : أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطّلب فهو لكم . وإذا ما أنا صلّيت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا . فسأُعطيكم عند ذلك وأسأل لكم .

رد سبايا هوازن

ونفّذت هوازن قول النبىّ، فأجابهم : أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . قال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله، وكذلك قال الأنصار . أمّا الأَقْرَع

(١) أى أرضعناه .

قال النبيّ هذه العبارات وكله تأثُّر، وكله فيض من الحب لهؤلاء الذين بايعوه ونصروه واعتزّوا به وأعزّوه، حتى بلغ من تأثُّره أن بكى الأنصـار وقالوا : رضِينا برسول الله قِسْمًا وحظّا .

وكذلك أظهر النبيّ رغبةً عن هذا المـال الذى غنِم فى حُنَيْن، والذى بلغ ما لم يبلغه فىء من قبلُ . أظهر رغبته عنه، وجعله وسيلة تُتألّف بها قلوب الذين كانوا، إلى أسابيع قليلة، مشركين ليرَوْا فى الدِّين الجديد سعادة الدنيا والآخرة. وإذا كان محمد قد عنّاه أمر هذا المـال فى قسمته حتى لقد كاد المسلمون يتّهمونه، وإذا هو كان قد أغضب الأنصار بمـا أعطى المؤلّفة قلوبهم، فإنه قد أظهر من العدل ومن بعد النظر ومن حسن السياسة ما مكّنه من أن يعود بهذه الألوف من العرب وكلهم راضيةٌ نفسه مطمئن قلبه مستعدٌّ لأن يهب حياته فى سبيل الله .

وخرج الرسول من الجِعْرانة معتمرًا الى مكة. فلما قضى عمرتَه استخلف عَتّاب ابن أَسَيْد على أمّ القرى، وخلّف معه مُعَاذ بن جَبَل ليفقّه الناس فى دينهم ويعلّمهم القرآن . وعاد هو والأنصار والمهاجرون قافلين إلى المدينة ليقيم النبيّ بها ريثما يرزقه الله ابنه إبراهيم، وليطمئن الى شيء من سكينة الحيـاة زمنًا ثم يتجهّز إلى غزوة تبوك بالشام .

والكرم مما جعل أعداء الأمس تنطلق ألسنتهم بجميل الثناء عليه . ولم يَدَعْ لأحد من هؤلاء المؤلَّفة قلوبهم حاجة إلا قضاها . أعطى عبّاس بن مِرْداس عددا من الإبل لم يُرضِه وعاتبه على أن فضّل عليه عُيَينة والأقرع وغيرهما . فقال النبيّ : اذهبوا به فاقطعوا عنّى لسانه . فأعطوه حتى رضى، وكان ذلك قطع لسانه .

الأنصار وعطاء المؤلفة قلوبهم

على أن هذا الذى تألّف به النبيُّ قلوبَ من كانوا الى أمس أعداءه ، قد جعل الأنصار يتحدّث بعضهم الى بعض فيما صنع الرسول، ويقول بعض لبعض : « لقى والله رسول الله قومَه . » . ورأى سعد بن عُبَادة أن يُبلغ النبيّ مقالة الأنصار ويؤيِّدهم فيها ؛ فقال له النبيّ : اِجمَعْ لى قومك فى هـذه الحظيرة . فجمعهم سعد وأتاهم النبيّ، فدار الحِوار الآتى : —

محمد — يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتنى عنكم وجِدَةٌ وجَدْتُموها فى أنفسكم ؟ ! ألم آتِكم ضُلَّالا فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم ؟

الأنصار — بلى ! الله ورسوله أمَنُّ وأفضل .

محمد — ألَا تُجيبوننى يا معشر الأنصار !

الأنصار — بماذا نُجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المَنّ والفضل .

محمد — أمَا والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقتم ولَصُدِّقتم : أتيتنا مكذَّبا فصدَّقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك . أوَجدتم يا معشر الأنصار فى لُعَاعَةٍ (١) من الدنيا تألّفتُ بها قومًا ليُسلموا ووكَلتكم الى إسلامكم ! ألَا تَرْضَوْن يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ! . فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار . ولو سلك الناس شِعْبًا وسلكت الأنصار شِعْبا لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

(١) اللعاعة : الشىء اليسير .

وأن من بقى من هؤلاء الشعراء قد هربوا فى كل وجه ، وينصح اليه أن يطير الى النبيّ بالمدينة، فإنه لا يقتل أحدًا جاءه تائبا، أو ينجو بنفسه الى حيث شاء من أغوار الأرض . وإنما قصّ بجير حقًّا؛ فلم يُقْتَلْ بمكة بأمر محمد خلا أربعة ، منهم شاعر آذى النبيّ هجاؤه، ومنهم اثنان آذيا زينب ابنته حين أرادت بإذن زوجها أن تهاجر من مكة لتلحق أباها . وأيقن كعب صدقَ أخيه وأنه إن لم يأت محمدا ظلّ حياته طريدا مشرّدا ؛ لذلك أسرع الى المدينة ونزل عند صديق له قديم . فلما أصبح غدا إلى المسجد واستأمن النبيّ وأنشده قصيدته :

بانت سُعَادُ فقلبي اليومَ متبولُ * مُتَـيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكبولُ

فعفا النبيّ عنه، وحسن من بعد ذلك إسلامه .

وفود القبائل على النبي

وكان من هذا الأثر كذلك أن بدأت القبائل تُقبل على النبيّ تقدّم الطاعة بين يديه . قدِم وفد من طيّء وعلى رأسهم سيّدهم زيد الخيل . فلما انتهوا اليه أحسن استقبالهم، وتحدّث اليه زيد؛ فقال النبيّ له : ما ذُكر لى رجل من العرب بفضلٍ ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يُقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كلَّ ما فيه . ودعاه زيدَ الخَيْر بديلًا من زيد الخيل . وأسلمت طيّءٌ وزيدٌ على رأسها .

زيد الخيل

وكان عَدِىّ بن حاتم الطائىّ نَصْرانيا ، وكان من أشد العرب كراهية لمحمد . فلما رأى أمره وأمر المسلمين فى شبه الجزيرة، تحمّل فى إبله بأهله وولده ولحِق بأهل دينه من النصارى بالشام . وإنما فرّ عدىّ حين أوفد النبيّ علىّ بن أبى طالب ليهدم صنم طيّء . وهدم علىٌّ الصنم واحتمل الغنائم والأسرى ومن بينهم ابنة حاتم أُخت عدىّ التى حُبِست فى حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تُحْبَس فيها . ومرّ بها النبيّ فقامت اليه وقالت : يا رسول الله ، هَلَكَ الوالد وغاب الرافد، فامْنُنْ علىّ منّ الله عليك . وأعرض عنها النبيّ حين علم أن رافدها عدىّ بن حاتم الفارّ من الله ورسوله . لكنها راجعته، وذكرهو ما كان لأبيها فى الجاهليّة من كرم أعلى به ذكر العرب، فأمر بتسريحها وكساها كسوة حسنة وأعطاها نفقتها وحملها مع أول ركب قاصد

الفصل السادس والعشرون

إبراهيم ونسـاء النبيّ

العود الى المدينة — بانت سعاد — وفاة زينب — مولد ابراهيم — غيرة نساء النبي من مارية — مظاهرة حفصة وعائشة — حديث المغافير — مارية فى دار حفصة — هجر النبي نساءه شهرا — حديث عمر مع النبي — سورة التحريم

أثر الفتح فى شبه الجـزيرة

عاد محمد الى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتصاره فى حُنَيْن وحصاره الطائف، وقد ثبت فى نفوس العرب جميعا أن لم يبق لأحد قِبَـلٌ به فى شبه الجـزيرة كلها، وأن لم يبق للسانٍ أن ينطلق بإيذائه أو الطعن عليه. وعاد والأنصارُ والمهاجرون معه وكلهم مغتبط بفتح الله على نبيه بلد المسجد الحرام، وبمـا هدى أهلَ مكة إليه من الإسلام، وبما دان له العرب به على اختلاف قبائلهم من الطاعة والإذعان. عادوا جميعا إلى المدينة ليطمئنُّوا إلى شيء من سكينة الحياة بعد أن ترك محمد وراءه عتّاب ابن أُسَيْد على أمّ القرى ومُعاذ بن جبل ليفقّه النـاس فى دينهم وليعلّمهم القرآن. وقد ترك هذا النصر، الذى لم يعرف له فى تاريخ العرب وفى رواياتهم نظير، أثراً بالغا فى نفوس العرب جميعا. ترك أثرا فى نفوس العظماء والسادة الذين كانوا لا يتوهمون مجيء يوم يدينون فيه لمحمد بطاعة أو يرتضون دينه لأنفسهم دينا؛ وفى نفوس الشعراء الذين ينطقون بلسان هؤلاء السادة مقابل ما يلقَوْن من عطفهم وتأييدهم، أومقابل ما يلقون من تأييد القبائل ومؤازرتها؛ وفى نفوس تلك القبائل البادية التى لم تكن تعدل بحرّيتها شيئا، ولا كان يدور بخاطرها أن تنضم تحت لواء غير لوائها الخاص أو تموت دون ذلك فى حرب وطعان تفنَى خلالها فناء تامّا. وماذا يُجدى على الشعراء شعرُهم، وعلى السادة سيادتهـم، وعلى القبائل احتفاظها بذاتيّتها، أمام هذه القوّة الخارقة للطبيعة، لا تقف قوة أمامها ولا يجرؤ سلطان على اعتراضها!.

حديث كعب بن زهـير

ولقد بلغ الأثرمن نفوس العرب أن كتب بُجَيْر بن زُهَيْر الى أخيـه كَعْب بعد مُنْصَرَف النبيّ عن الطائف يُخبره أن محمدا قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه،

المقوقس اليه مع أختها سيرين، وجعل سيرين لحسّان بن ثابت . ولم يكن محمد يرجو أن يُعقب بعـد أن ظل أزواجه جميعا من بعـد وفاة خديجة، ومنهن الفتاة الفتيّة، ومنهن النَّصَف التي أعقبت من قبل، لم تبشّر إحداهن بخِصْب عشرة أعـوام متتابعة . فلما حملت مارية ثم ولدت إبراهيم وقد تخطى هو إلى الستين ، فاضت بالمسرّة نفسه وامتلأ هذا القلب الإنسانى الكبير أُنسا وغبطة، وارتفعت مارية بهذا الميلاد فى عينه إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليـه إلى مقام أزواجه، وزادتها إلى ذلك عنده حظوة ومنه قربا .

غيرة أزواج النبي

كان طبيعيًّا أن يدسّ ذلك فى نفوس سائر أزواجه غَيرةً تزايدت أضعافا بأنها أم إبراهيم وبأنهن جميعا لا ولد لهن . ولم تكن نظرة النبيّ إلى هذا الطفل إلا لتزيد هذه الغيرة كل يوم فى نفوسهن اشتعالا . فهو قد أكرم سَلْمَى زوج أبى رافع قابلة مارية أيّما إكرام . وهو قد تصدّق يوم وُلد بوزن شعرة وَرِقًا على كل واحد من المساكين . وهو قد دفعه لتُرضعه أمُّ سيف، وجعل فى حيازتها سبعًا من الماعز ترضعه لبنها . وهو قد كان يمر كل يوم بدار مارية ليراه وليزداد أنسا بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة، ومسرّةً بنموّه وجماله . أىّ شىء أشدّ من هذا كله إثارة للغيْرة فى نفوس أزواج لم يلدن! وإلى أىّ حدّ تدفع الغيرة أولئك الأزواج ! !

حمل النبيّ إبراهيم يوما بين ذراعيه الى عائشة وهو فيّاض بالبِشْر، ودعاها لترى ما بين إبراهيم وبينه من عظيم الشبه . فنظرت عائشة الى الطفل وقالت : إنها لا ترى بينهما شبها . ولما رأت النبيَّ فَرِحًا بنموّ الطفل لاحظت فى غضب أن كل طفل ينال من اللّبن ما يناله إبراهيم يكون مثله أو خيرا منه نموّا . وكذلك كان مولد إبراهيم سببا أثار فى زوجات النبيّ امتعاضا لم يقف أثره عند هذه الإجابات الجافّة، بل تعدّاه الى أكثر منها، وترك فى تاريخ محمد وفى تاريخ الإسلام من الأثر ما نزل به الوحى وقدّسه كتاب الله الكريم .

النبي ونساؤه

وكان طبيعيًّا أن يحدُث هذا الأثر . فقد جعل محمد لنسائه من المكانة مالم يكن معروفا قطُّ عند العرب . قال عمر بن الخطاب فى حديث له : «والله إنْ كنا فى الجاهليّة

إلى الشام . فلمـا لقيت هناك أخاها وذكرت له ما أكرمها به محمد، عاد اليه فألق بنفسه الى صفوف المسلمين .

وكذلك جعل السادة وجعلت القبائل تفِد الى محمد بعد فتح مكة و بعد انتصار حُنَين وحصاره الطائف، تدين له بالرسالة و بالإسلام ، وهو فى مقامه ذاك بالمدينة مطمئن الى نصر الله والى شيء من سكينة الحياة .

موت زينب ابنة النبيّ

لكنّ سكينة حياته لم تكن يومئـذ صفوًا ؛ فقد كانت زينب ابنتـه إذ ذاك مريضة مرضا خُشى منه عليهـا . وهى منذ آذاها الحُوَيْرث وهَبّار حين خروجها من مكة أذًى أفزعها فأجهضها، قد ظلّت مهدَّمة العافية، وانتهى المرض بوفاتها . و بموتها لم يبق لمحمد من عقِبه إلا فاطمة ، بعـد أن ماتت أمّ كلثوم كما ماتت رُقَيّة قبل زينب . وحزِن محمد لفقدها وذكرلها رقّة شمائلها وجميل وفائها لزوجها أبى العاصى ابن الربيع حين بعثت تفتديه من أبيها وقد أسره ببدر، وتفتديه على رغم إسلامها وشركه، وعلى رغم محاربته أباها حربًا او انتصرت قريش فيها لمـا أبقت لمحمد على حياة . ذكر محمد رقّـة شمائلها وجميل وفائهـا وذكر مالاقت من ألم المرض طَوال أيامها منذ عادت من مكة الى حين وفاتها . وكان محمد يشارك كل ذى ألم فى ألمه، وكلَّ ذى مصاب فى مصابه . وكان يذهب إلى أطراف المدينة وإلى ضواحيها يعود المريض، ويُواسى البائس ، و يأسو جِراح الكَليم . فاذا أصابه المقدار فى ابنته بعد ما أصابه من قبلُ فى أَختيها وكما أصابه قبل رسالته فى إخوتهـا، فلا جرم أن يحزن و يشتدّ به جوى الحزن، و إن وجد من برّ الله ورفقه به ما يعزّيه كيما يسلو .

مولد ابراهيم

ولم يطل انتظاره التأساء؛ فقـد رزقه الله من مارية القِبْطيّة غلاما دعاه إبراهيم تيمّنًا باسم إبراهيم جدّ الأنبياء، الحنيف المسلم . وكانت مارية إلى يومئذ ومنذ أهداها المقوقس الى النبيّ فى مرتبة السرارى ، فلم يكن لهـا من أجل ذلك منزل بجـوار المسجد كما كان لأزواج النبيّ أمهات المؤمنين؛ بل أنزلهـا محمد بالعالية من ضواحى المدينـة فى المحلّ الذى يقـال له الآن مَشْرَبة أم إبراهـيم بمنزل تحيط به كروم ؛ وكان يختلف إليهـا فيه كما يزور الرجل ملك يمينه . وكان قد اختارها حين أهداها

تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] .

ثم إن نساء النبيّ كن يأتمرن به . فقد كان إذا صلّى العصر دار على نسائه فيدنو منهن . فدخل على حفصة فى رواية، وعلى زينب بنت جحش فى رواية، فاحتَبس عندها أكثر ممـا كان يحتَبس، فأحدث ذلك الغيرةَ فى نفوس سائر نسائه . قالت عائشة : « فتواطأت أنا وحفصة أنّ أيَّتَنا ما دخل عليهـا النبيّ صلى الله عليه وسلم فلتقل إنى أجد ريح مَغَافير . أَكَلْتَ مغافير» (والمغـافير شىء حلوُله ريح كريهة، وكان النبيّ لا يحبّ الرائحة الكريهة) . فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال : بل شربت عسلًا عنـد زينب بنت جحش ولن أعود له . وروت سَـوْدةُ وكانت تواطأت على مثل ذلك مع عائشة أن النبيّ لمـا دنا منها قالت له : أكلت مغافير ؟ قال لا . قالت : فما هذه الريح ؟ قال : سقتنى حفصة شربة من عسل . قالت : جَرَسَتْ نَحْلُه العُرْفُطَ[2] . ودخل على عائشة فقالت له ما قالت سَـوْدة . ثم دخل على صفيّة فقالت له مثل قولهما، فحرّمه على نفسه . فلما فعل قالت سودة : سبحان الله! والله لقد حرَمْناه . فنظرت إليها عائشة نظرة ذات مغزى وقالت لها : اسكتى .

نساء النبي يأتمرن

طبيعىّ وقد جعل النبىّ لأزواجه هـذه المكانة، بعد أن كنّ كغيرهن من نساء العرب لا رأى لهن، أن يتغالين فى الاستمتاع بحرية لم يكن لمثيلاتهن بهـا عهد، وأن تبلغ إحداهن من مراجعة النبىّ أن يظل يومه غضبان . وكم أعرض عنهنّ، وكم هجر بعضهن حتى لا يدفعهنّ رفقه بهنّ إلى مزيد من غلوهنّ، وأن تخرج باحداهن الغيرة إلى غير لائق بالسداد . فلما ولدت مارية إبراهيم خرجت الغَيرة بأزواج النبىّ عما أدّبهنّ به، حتى كان هـذا الحديث بينه وبين عائشة إذ تُنكر عليه كل شبه بين إبراهيم وبينه، ولتكاد تتّهم مارية بمـا يعرف النبىّ براءتها منه .

(١) سورة الأحزاب آيتا ٢٨ و ٢٩ (٢) أى رعت نحله شجر العرفط الذى يثمر المغافير .

ما نَعُدُّ للنساء أمرا حتى أنزل الله تعـالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم . فبينما أنا فى أمر آتمـره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعتَ كذا وكذا ! فقلت لهـا : ومالك أنت ولمـا هاهنا وما تكلُّفك فى أمر أُريده ! فقالت لى : عجبا لك يآبن الخطاب ! ما تريد أن تراجَع أنت وإن ابنتك لتَراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظلّ يومَه غضبان . قال عمـر : فآخذُ ردائى ثم أخرج مكانى حتى أدخلَ على حفصـة فقلت لها : يا بُنَيّـة ، إنك لَتُراجِعين رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم حتى يظلّ يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنّا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنى أحَذِّرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بنيّة لا يغرّنك هذه التى قد أعجبها حسنها وحبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إيّاها . ثم خرجتُ حتى أدخُل على أُمّ سَلَمة لقرابتى منها فكلّمتها ؛ فقالت لى أم سـلمة : عجبًا لك يآبن الخطاب ! قد دخلت فى كل شيء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليـه وسلم وأزواجه ! قال عمر : فأخذتْنى أخذا كسرَتْنى به عن بعض ما كنت أجد، فخرجت من عندها » . وروى مسلم فى صحيحه أن أبا بكر استـأذن على النبيّ ودخل بعـد أن أذِن له ، ثم اسـتأذن عمر ودخل بعد الإذن ، فوجد النبيّ جالسا وحوله نساؤه واجما ساكتا . فقال عمر : « لأقولن شيئا أضحك النبيّ صلى الله عليه وسلّم . ثم قال يارسول الله : لو رأيت بنت خارجة(١) سألتْنى النفقـةَ فقمتُ اليها فوجأتُ(٢) عنقها . فضحك رسول الله وقال : هنّ حولى يسألننى النفقة . فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألْن رسول الله صـلّى الله عليه وسلم ما ليس عنده ! فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا شيئا ليس عنده » .

وإنما دخل أبو بكر وعمر على النبيّ لأنه عليه السلام لم يخرج للصلاة ؛ فتساءل المسلمون بعدها عما منعه . وفى حديث أبى بكر وعمر مع عائشـة وحفصة نزل قوله

---

(١) كذا فى مسلم . وليس فى الطبرى ، وقد سرد زوجات عمر ، من تسمى با بنة خارجة . وفى روح المعانى : لو رأيت ابنة زيد ... الخ » . (٢) وجأ عنقه : ضربه ولكزه .

للردّ عليها لولا إشارات من النبيّ كانت تهدّئ من حدّتها . غير أن زينب اندفعت ولجّ بها الاندفاع و بالغت فى النيل من عائشة، حتى لم يبق للنبيّ بدّ من أن يدع لحُمَيرائه أن تدافع عن نفسها . وتكلّمت عائشة بما أفحم زينب وسرّ النبيّ ودعاه إلى الإعجاب بابنة أبى بكر .

منازعات أمهات المؤمنين

وبلغت منازعات أمهات المؤمنين فى بعض الأحايين ، بسبب إيثاره بعضهن بالمحبة على بعض، حدًّا همّ النبيُّ معه أن يطلّق بعضهن لولا أنهن جعلنه فى حلٍّ ان يؤثر من يشاء منهن على من يشاء . فلما ولدت مارية إبراهيم لجّت بهن الغيرة أعظم لَجاج، وكانت بعائشة ألجّ . ومدّ لهنّ فى لَجاج الغيرة بهن هذا الرفق الذى كان محمد يعاملهنّ به وهذه المكانة التى رفعهنّ اليها . ومحمد ليس خليًّا فيشغلَ وقته بهذا اللَّجاج ويدع نفسه لعبث نسائه . فلا بدّ من درس فيه حزم وفيه صرامة يردّ الأمور بين أزواجه إلى نِصابها، ويدع له طمأنينة التفكير فيما فرض الله عليه للدعوة إلى رسالته . وليكن هذا الدرس هَجْرَهن والتهديدَ بفراقهن، فإن ثبن إلى رشادهن فذاك، وإلّا متّعهن وسرّحهن سَرَاحًا جميلا .

هجر النبي نساءه

وانقطع النبيّ عن نسائه شهرا كاملا لا يكلّم أحدا فى شأنهن، ولا يجرؤ أحد أن يفاتحه فى حديثهن . وفى خلال ذلك الشهر اتّجه بتفكيره إلى مايجب عليه وعلى المسلمين للدعوة الى الإسلام ولمدّ سلطانه الى ما وراء شبه الجزيرة . على أن أبا بكر وعمر وأصهار النبيّ جميعا كانوا فى قلق أشد القلق على ما قُدِّر مصيرًا لأمهات المؤمنين، وما يتعرّضن له من غضب رسول الله، وما يجرّ اليه غضب الرسول من غضب الله وغضب ملائكته. بل لقد قيل : إنّ النبيّ طلّق حفصة بنت عمر بعد الذى كان من إفشائها ما وعدت أن تكتُمه . وقد سرَى الهمس بين المسلمين أن النبيّ مطلّق أزواجه . وأزواجه خلال ذلك مضطربات نادمات، أن دفعتْهن الغيرة الى إيذاء هذا الزوج الرفيق بهنّ، هو منهن الأخ والأب والابن وكل ما فى الحياة وما وراء الحياة . وجعل محمد يقضى أكثر وقته فى خِزانة له ذات مَشْرَبة، يجلس

ثورة نساء النبيّ

وحدث أن كانت حفصة يوما قد ذهبت الى أبيها فتحدّثت عنده . وجاءت مارية الى النبي وهو فى دار حفصة وأقامت بها زمناً معه . وعادت حفصة فوجدتها فى بيتها، فجعلت تنتظر خروجها وهى أشد ما تكون غَيرة ، وجعلت كلما طال بها الانتظار تزداد الغيرة بها شدّة. فلما خرجت مارية ودخلت حفصة على النبيّ، قالت له : « لقد رأيتُ من كان عندك. والله لقد سببتَنى. وما كنتَ لتصنعها لولا هوانى عليك » . وأدرك محمد أن الغيرة قد تدفع حفصة الى إذاعة ما رأت والتحدُّث به الى عائشة أو الى غيرها من أزواجه ، فأراد إرضاءها بأن حلف لها أن مارية عليه حرامٌ إذا هى لم تذكر مما رأت شيئا . ووعدته حفصة أن تفعل . لكن الغيرة أكلت صدرها فلم تُطق كتمان ما به ، فأسرّته إلى عائشة . وأومأت هذه إلى النبيّ بما رأى منه أن حفصة لم تَصُن سرّه . ولعل الأمر لم يقف عند حفصة وعائشة من أزواج النبيّ. ولعلهن جميعا وقد رأين مارفع النبيّ من مكانة مارية قد تابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النبيّ على أثر قصة مارية هذه ، وإن تكن لذاتها قصة لا شيء فيها أكثر مما يقع بين رجل وزوجه، أو بين رجل وما ملكت يمينه ، مما هو حِلّ له ومما لا موضع فيه لهذه الضجة التى أثارتها ابنتا أبى بكر وعمر محاولتين أن تقتصّا لذاتيهما من ميل النبيّ لمارية . ولقد رأينا أن شيئا من الجفوة وقع بين النبيّ وأزواجه فى أوقات مختلفة بسبب النفقة، أو بسبب عسل زينب، أو لغير ذلك من الأسباب التى تدلّ على أن أزواج النبيّ كن يجِدن عليه أن يكون لعائشة أحبّ ، أو أن يكون لمارية أهوى .

بين بنت جحش وعائشة

وبلغ من أمرهن أن أوفدن اليه يومًا زينب بنت جحش وهو عند عائشة تصارحه بأنه لا يَعدِل بين نسائه وأنه لحبّه لعائشة يظلمهن . ألم يجعل لكل امرأة يوما وليلة ! ثم رأت سودة انصراف النبيّ عنها وعدم بشاشته لها، فوهبت يومها وليلتها لعائشة إرضاء للرسول . ولم تقف زينب من سِفارتها عند الكلام فى ميل النبيّ عن العدل بين نسائه، بل نالت من عائشة وهى جالسة بما جعل عائشة تتحفّز

أَيْمانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾(1) . وبذلك انتهى الحادث وثاب الى نساء النبي رشادهن، ورجع هو اليهن تائبات عابدات مؤمنات، وعادت الى حياته البيتيّة السكينة التى يحتاج اليها كل إنسان لأداء ما فُرِض عليه أداؤه .

حكم النقد التاريخى النزيه

ما قصصت الآن عن هجر محمد نساءه وتخييره إياهن ومقدّمات هذا الهجر ونتائجه والوقائع التى سبقته وأدّت اليه ، هو فى رأيي الرواية الصحيحة لتاريخ هذا الحادث . وهى رواية يتضافر على تأييدها ما جاء فى كتب التفسير وفى كتب الحديث، وما جاء متفرّقا عن أخبار محمد ونسائه فى كتب السيرة المختلفة . بَيْدَ أنه لم تكن واحدة من هذه السير تقصّ الحوادث أو تضع المقدّماتِ والنتائج بالصورة التى سردنا هنا . وأكثر السير تمرّ بهذا الحادث مرًّا دون أن تقف عنده؛ وكأنما تجده خَشِن الملمس فتخشى أن تَقْرَبَه . وبعضها يقف عند رواية خبر العسل والمغافير، ولا يشير بكلمة الى مسألة حفصة ومارية . فأمّا المستشرقون فيجعلون مسألة حفصة ومارية وإفضاء حفصة الى عائشة بما عاهدت النبيّ أن تكتمه ، سببَ كل الذى وقع ؛ ليحاولوا بذلك أن يُضيفوا جديدًا لما يُلقون فى رُوع قرّائهم عن النبيّ العربيّ من أنه كان رجلا محبًّا للنساء حبّا معيبا . وعندى أن المؤرّخين المسلمين لا عذر لهم فى إغفال هذه الوقائع ولها مغزاها الدقيق الذى سُقنا شيئا من أمره، وأن المستشرقين يتخطّون الدقّة التاريخية متأثرين فى ذلك بهواهم المسيحىّ . فالنقد التاريخى النّزيه يأبى كل الإباء على أىّ إنسان ، بَلْهَ عظيمٍ كمحمد، أن يجعل من إفضاء حفصة

(1) سورة التحريم الآيات من ١ الى ٥

غلامه رَبَاح على أُسْكُفَّتها(١) ما أقام هو بالخزانة ، ويرقى هو اليها على جِذْع من نخل هو الخشونة كل الخشونة .

عمر يسترضى النبي

وإنه لفى خزانته يوم أَوْفَى الشهرُ الذى نذر فيه هجر نسائه على التمام، وقد أقام المسلمون بالمسجد مُطْرِقين ينكُتون الحصى ويقولون : طلَّق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، ويأْسَوْنَ لذلك أسًى يبدو على وجوههم واضحا عميقا، إذ قام عمر من بينهم فقصد الى مُقام النبيّ بخزانته ونادى غلامَه رَباحا كى يستأذن له على رسول الله . ونظر الى رباح يروم الجواب، فاذا رباح لا يقول شيئا علامة أنّ النبيّ لم يأذَن . فكرر عمر النداء ولم يجب رباح مرّة أخرى . فرفع عمر صوته قائلا : « يا رباح استأذن لى عندك على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإنى أظنه ظن أنى جئت من أجل حفصة . والله لئن أمرنى بضرب عنقها لأضربنّ عنقها » . وأذِن النبيّ فدخل عمر فجلس ثم أجال بصره فيما حوله وبكى . قال محمد : ما يُبكيك يابن الخطاب ؟ . وكان الذى أبكاه هذا الحصير الذى رأى النبيّ مضطجعا عليه وقد أثّر فى جنبه ، والخزانة لا شىء فيها إلا قبضة من شعير ومثلها من قَرَظ وأَفِيق(٢) معلّق . فلما ذكر عمر ما يُبكيه علّمه محمد من وجوب الإعراض عن الدنيا ماردّ اليه طمأنينته . ثم قال عمر : يا رسول الله، ما يشقّ عليك من أمر النساء ؟ إن كنت طلّقتهن فإن الله معك وملائكتُه وجبريلُ وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . ثم انعكف يحدّث النبيّ حتى تحسّر الغضبُ عن وجهه، وحتى ضحك . فلما رأى عمر ذلك منه ذكر له أمر المسلمين بالمسجد وما يذكرون من طلاقه نساءه . فلما ذكر النبيّ أنه لم يطلّقهن آستأذنه فى أن يُفضى بالأمر الى أولئك المقيمين بالمسجد ينتظرون . ونزل الى المسجد فنادى بأعلى صوته : لم يطلّق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نساءه . وفى هذه القصة نزلت الآيات الكريمة : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ

---

(١) أسكفتها : عتبتها . (٢) أفيق : جلد .

أوردت سائر الكتب المقدّسة وما أورد القرآن من سِيَر الأنبياء . فاذا ذكرتَ أن هجر محمد نساءه لم يكن لسبب منفرد من الأسباب التى رُوِيتْ فى شأنه ، ولم يكن لأنّ حفصة أفضتْ إلى عائشة بما فعل محمد مع مارية مما يَحِقّ لكل رجل مع أزواجه وما ملكت يمينه ، رأيتَ فى هذه الملاحظة التى يُبديها بعض المستشرقين ما لا يثبت أمام النقد التاريخى ، ولا يتفق مع ما جرت به الكتب المقدّسة فى شأن الأنبياء وحياتهم وأخبارهم .

لعائشة بأنها وجدت زوجها فى بيتها مع مولاة له هى ملك يمينه فهى بذلك حِلٌّ له ، سببا لهجر محمد نساءه جميعا شهرا كاملا، وتهديده إياهنّ جميعا بأن يطلّقهنّ . والنقد التاريخىّ النزيه يأبى كذلك أن تكون حكاية العسل سبب هـذا الهجر والتهديد . فاذا كان الرجل عظيما كمحمد ، رفيقا كمحمد، واسـع الصدر طويل الأناة متصفا بما لمحمد من سائر الصفات التى يُقرّ له بها مؤرخوه جميعا على سواء، كان اعتبار أىّ الحادثين لذاته سببا لهذا الهجر والتهديد بالطلاق مما يَزْوَرُّ عنه النقد التاريخىّ وينأى عنه بجانبه أشدّ النأى . وإنما يطمئن هـذا النقد ويستقيم منطق التاريخ اذا سِيقت الحوادثُ المَسَاق الذى لا مفرّ معه من أن تؤدّى الى نتائجها المحتومة، فتصبح بذلك أمورا طبيعيّة يُسيغها العقل ويرضاها العلم . وما فعلنا نحن هو فى نظرنا المساق الطبيعىّ للحوادث، وهو الذى يتّفق مع حكمة محمد وعظمته وحزمه وبعد نظره .

دفـع اعتراض المستشرقين

ويتحدّث بعض المستشرقين عما نزل من الآيات فى مستهلّ سورة التحريم مما نقلنا هنا، ويذكر أن كتب الشرق المقدّسة جميعا لم تُشِرْ الى مثل هـذا الحادث المنزلىّ على هذه الصورة . وما أحسبنا فى حاجة الى أن نذكر ما ورد بالكتب المقدسة جميعا، والقرآن من بينها، عن قوم لوط ونقيصتهم وما كان من مجادلتهم المَلَكين ضيفَىْ لوط، ولا ما ورد فى هـذه الكتب عن امرأته وأنها كانت من الغابرين . بل إن التوراة لتقص نبأ ابنتى لوط إذ سقتا أباهمـا حتى ثَمِل ليلتين متتاليتين ليقرَبَ كلَّ واحدة منهما ليلة كيما يُخصبها فتلد، مخافة فناء آل لوط بعـد إذ أنزل الله بهـم من الجزاء ما أنزل . ذلك بأن الكتب المقدّسة جميعا جعلت من قصص الرسل وسيرهم وما صنعوا وما أصابهم عبرةً للناس . وقد جاء فى القرآن كثير من ذلك، قصّ الله فيه على رسـوله أحسن القصص . والقرآن لم يتنزل لمحمد وحده، وإنمـا نزل للناس كافّة . ومحمد نبىٌّ ورسول خلت من قبله الرسل الذين قصّ القرآن أخبارهم . فاذا قصّ القرآن من أخبار محمد وتناول من سيرته ليكون للسلمين مثلًا، وليكون للسلمين فيه أسوةٌ حسنة، وأشار إلى حكمته فى تصرّفاته، فلا شىء من ذلك يخرج عمـا

زكاة العشر وهم يدفعونها من إبلهم وأموالهم، سارعت اليه بنو العَنْبَر (فَخِذٌ من بنى تميم) قبل أن يطالبها بزكاتها تحمل نبالها وسيوفها وطردته من أرضها . فلما بلغ الخبر محمدا بعث إليهم عُيَيْنَة بن حِصْن على رأس خمسين فارسًا انقضّوا عليهم فى سرٍّ منهم ففرّوا . وأصاب المسلمون الأسرى والسبايا وهم يزيدون على خمسين رجلا وامرأة وطفلا وعادوا موفورين إلى المدينة؛ وحبس النبىّ هؤلاء الأسرى . وكان من بنى تميم جماعة أسلموا وقاتلوا الى جانب النبىّ عند فتح مكة وفى حُنَيْن، وكان منهم من لا يزال على جاهليّته . فلما عرفوا ما أصاب أصحابهم من بنى العَنْبَر أرسلوا إلى النبىّ وفدًا من أشرافهم نزلوا إلى المدينة ودخلوا المسجد ونادوا النبىّ من وراء حُجراته أن اخرُج إلينا يا محمد . وآذى نداؤهم النبىّ، فما كان ليخرج اليهم لولا أن أُذِّن لصلاة الظهر . فلما رأوه ذكروا ما صنع عُيَيْنَة بأهلهم، كما ذكروا ما كان لمن أسلم منهم من جهاد إلى جانبه، وما لقومهم من مكانة بين العرب؛ ثم قالوا له : إنا جئناك نفاخرك فأْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا . فقام خطيبهم عُطَارِد بن حَاجِب؛ فلما فرغ دعا رسول الله ثابت بن قَيْس ليردّ عليه . ثم قام شاعرهم الزِّبْرِقان بن بدر فقال، وأجابه حسّان بن ثابت . فلما انتهت المفاخرة، قال الأَقْرَع بن حابس : وأَبِى إنّ هذا الرجل لَمُؤَتًّى له، لَخَطِيبُه أخطب من خطيبنا، ولَشاعره أشعر من شاعرنا، ولَأصواتهم أعلى من أصواتنا . وأسلم القوم؛ فأعتق النبىّ الأَسْرَى وردّهم الى قومهم .

فأمّا بنو المصطلق فإنهم لما رأوا الصيرف فرّ هاربًا خافوا عاقبة أمرهم، وأوفدوا إلى النبىّ من ذكر له أن الخوف فى غير محلّ له هو الذى أدّى إلى ما وقع من سوء الفهم .

ولم تكن ناحية من نواحى شبه الجزيرة إلا بدأت تحس سلطان محمد . ولم تحاول طائفة أو قبيلة أن تقاوم هذا السلطان إلا بعث النبىّ اليها قوة تحملها على الإذعان بدفع الخراج والبقاء على دينها، أو بالإسلام ودفع الزكاة .

وفيما كانت عَيْنُه على بلاد العرب جميعا حتى لا ينتقض فيها منتقض وحتى يستتبّ الأمن فى رُبوعها من أقصاها الى أقصاها، إذ اتّصل به نبأ من بلاد الروم أنها تهيؤ الروم لتغزو

الفصل السابع والعشرون

تبوك وموت إبراهيم

الخراج وجبايته — أنباء تهيؤ الروم — نفير محمد فى المسلمين ليتهيئوا للقتال بالشام — الخوالف المنافقون — شدة محمد معهم — الجيش العرم — فى لظى الطريق الى الشام — انسحاب الروم خوفا من محمد — عهده ليوحنا ولأمراء الحدود — العود إلى المدينة — مرض إبراهيم ووفاته و بكاء محمد إياه

لم يغيّر هذا الحادث المنزلىّ وهذا الإضراب والاضطراب بين النبىّ وأزواجه من سير الشؤون العامة شيئا. وكانت الشؤون العامة بعد فتح مكة و إسلام أهلها قد بدأ يتضاعف خطرها، وقد بدأت العرب جميعا تحسّ جلال هـذا الخطر. فالبيت الحرام كان بيت العرب المقدّس يحجّون اليه منذ أجيال طويلة. وهـذا البيت الحرام وما يتّصل به من سِدَانة ورِفادة وسِقَاية وما يتصل بالحج من مختلف الشعائر، قد أصبح فى حكم محمد وفى حكم الدين الجديد. فلا جَرَمَ إذًا أن تزداد شؤون المسلمين العامة لفتح مكة وأن يزداد المسلمون إحساسا بسلطانهم فى كل ناحية من شبه الجزيرة. وازدياد الشؤون العامة يحتاج بطبعه إلى مزيد فى النفقات العامة. لذلك لم يكن بدٌّ من أن يدفع المسلمون زكاة العشر وأن يدفع العرب الذين أصرّوا على جاهليتهم ما يُفْـرَض عليهم من خراج. قد يُحرجهم ذلك، وقد يدعوهم إلى التذمّر وإلى أكثر من التـذمّر. لكن ما اتّصل بالدين الجديد من نظام فى شبه الجزيرة جديدٍ لم يجعـل من جمع العشر والخراج مخرجا. ولهـذه الغاية أوفد محمد عاشريه بعـد قليل من عوده من مكة ليجمعوا له عشر إيراد القبائل التى دانت للإسلام من غير أن يتعرّضوا لأصول أموالها. وذهب كل واحد من هؤلاء وجهته؛ فتلقّتهم القبائل بالترحاب ودفعت لهم زكاة العُشْر طيّبة بدفعها نفوسُهم؛ لم يَنِدّ عن ذلك غير فرع من بنى تميم وغير بنى المُصْطَلِق. فبينما كان العاشر يقتضى قبائل فى جوار بنى تميم

اقتضاء الزكاة والخراج

فى دين الله رَغَبًا ورَهَبا : رغبا فى مغانم الحرب بعد أن أصبحت قبائل العرب كلها لا تثبت أمام غزو المسلمين فتُسلم لهم وتؤدّى اليهم الجزية عن يدٍ وهى صاغرة . ورهبا من هذه القوّة التى تضطرب أمامها كل قوّة ويخشى سلطانَها كلُّ ملك . فأمّا الأوّلون فأقبلوا يلبُّون دعوة رسول الله خفافًا مسرعين، ومنهم الفقير الذى لا يجد الدابّة يحمل نفسه عليها، ومنهم الغنىّ ماله بين يديه يقدّمه فى سبيل الله راضية نفسه طامعا فى الاستشهاد والانحياز إلى جوار الله . وأمّا الآخرون فتثاقلوا وبدءوا يلتمسون الأعذار، وجعلوا يتهامسون فيما بينهم، يهزءون بدعوة محمد إياهم لهذا الغزو النائى فى ذلك الجوّ المحرق . هؤلاء هم المنافقون الذين نزلت فيهم سورة التوبة، فيها أعظم دعوة للجهاد وأشدُّ تخويف من عذاب الله يصيب من تخلّف عن إجابة رسوله .

المنافقون

قال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تنْفِروا فى الحرّ؛ فنزل قوله تعالى : ﴿وقالوا لا تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُون . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١) . وقال محمد للجَدّ بن قيس أحد بنى سَلِمة : يا جَدّ، هل لك العامَ فى جِلاد بنى الأصفر ؟ فقال : « يا رسول الله ؟ أوَ تأذَن لى ولا تَفْتِنِّى ، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجلٍ أشدّ عُجْبًا بالنساء منّى، وإنى أخشى إن رأيتُ نساء بنى الأصفر ألّا أصبر » (وبنو الأصفر هم الروم) فأعرض عنه رسول الله . وفيه نزلت هذه الآية : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ٱئْذَنْ لِى وَلَا تَفْتِنِّى أَلَا فِى الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾(٢) . وانتهز الذين تنطوى قلوبهم على بغضاء محمد هذه الفرصة ليزيدوا المنافقين نفاقا، وليحرّضوا الناس على التخلّف عن القتال . هؤلاء لم ير محمد أن يتهاون معهم خيفة أن يستفحل أمرهم، ورأى أن يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر . بلغه أن ناسًا منهم يجتمعون فى بيت سُوَيْلِم اليهودىّ يثبّطون الناس ويُلْقُون فى نفوسهم التخاذل والتخلّف عن القتال ؛ فبعث

(١) سورة التوبة آيتا ٨١ و ٨٢ (٢) سورة التوبة آية ٤٩

تهيِّئ جيوشا لغزو حدود العرب الشمالية غزوًا يُنسى الناس انسحاب العرب الماهر في مُؤْتة، ويُنسى الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين الزاحف في كل ناحية ليتاخم سلطان الروم في الشام وسلطان فارس في الحِيرة . واتّصل به هذا النبأ مجسَّما أيّما تجسيم . فلم يتردّد هنيهة في تقرير مواجهة هذه القُوَى بنفسه والقضاء عليها قضاء يقضى في نفوس سادتها على كل أمل في غزو العرب أو في التعرُّض لهم . وكان الصيف لمّا يَنْتَهِ . والقيظ في أوائل الخريف يصل الى درجات تجعله أشدَّ من قيظ الصيف في هذه الصحارى إرهاقًا وقتلا . ثم إن الشُّقّة من المدينة الى بلاد الشام طويلة شاقّة تحتاج الى الجَلَد وتحتاج الى المؤونة والى الماء . اذًا لا مفرَّ من أن يطالع محمد الناس بعزمه السير الى الروم وقتالهم حتى يأخذوا لذلك عُدّتهم . ولا مفرّ من أن يخالف محمد بذلك تقاليدَه في سابق غزواته، حين كان يتوجّه في كثير من الأحيان بجيشه الى غير الناحية التي اليها يقصد، تضليلا للعدوّ حتى لا يفشو خبر مسيرته . وأرسل محمد في القبائل جميعا يدعوها للتهيؤ كيما تُعِدّ أكبرَ جيش يمكن إعداده، وأرسل الى سراة المسلمين ليشاركوا في تجهيز هذا الجيش بما آتاهم الله من فضله، وليحرِّضوا الناس على الانضمام اليه، حتى يكون من الأُهبة بما يدخل الرَّوع في نفوس الروم الذين عُرِفوا بوفرة عُدّتهم وكثرة عديدهم .

دعوة محمد لغزو الروم

تلقى المسلمين دعوة الرسول

بم عسى أن يستقبل المسلمون هذه الدعوة الى هجر أبنائهم ونسائهم وأموالهم في شدّة القيظ ليقطعوا فَيَافِيَ وصحارى مجدبة قليلة الماء، ثم ليلْقَوْا عدوًّا غلب الفرس ولم يقهره المسلمون ؟ ! أفيدفعهم إيمانهم وحبهم للرسول وشديد تعلُّقهم بدين الله إلى الإقبال على دعوته متدافعين بالمناكب حتى يضيق بهم فضاء الصحراء، دافعين أمامهم أموالهم وإبلهم، مدّرِعين بسلاحهم، مُثيرين أمامهم من النقع ما إن يكاد يبلغ العدوَّ نبؤه حتى يولِّي الأدبار لا يلوى على شيء؟ أم تُمسكهم مشقّة الطريق وشدّة الحرّ ومخافة الجوع والعطش فيتقاعسون ويتراجعون؟ لقد كان في المسلمين يومئذ من هؤلاء وأولئك : كان فيهم أولئك الذين أقبلوا على الدين بقلوب ممتلئة هدى ونورا، ونفوس غمرها ضياء الإيمان فلا تعرف غيره . وكان فيهم من دخل

منهما عَرِيشَها و برَّدت له فيه ماء وهيّأت له فيــه طعاما . فلما رأى الرجل ما صنعتا قال : رسولُ الله فى الضِّحّ والريح والحر وأبو خيثمة فى ظلّ بارد وطعام مُهَيّأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم ! هَيِّئَا لى زادا حتى ألْحَقَ به . فهيأتا له زاده ولحِق بالجيش . ولعل جماعة من الخوالف قد فعلوا فعــل أبى خيثمة بعــد أن رأوا ما فى التقاعس والخوف من شَنار ومذلّة .

النزول بالحجر

وسار الجيش حتى بلغ الحِجْرَ، وبها أطلالٌ لمنازل ثمود منقورة فى الصخر . هنالك أمر رسول الله بالنزول فاستقى النــاس من بئرها . فلما راحوا قال لهم : لا تشربوا من مائها شيئا ولا تتوضّــئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فأعلفوه للإبل ولا تأكلوا منه شيئا . ولا يخرجنّ منكم أحد إلا ومعه صاحب له . ذلك أن المكان لم يكن أحدٌ يمرّ به وكانت تعصِف فيه أحيانا عواصف الرمل تطمِر الناس والإبل . ولقد خرج رجلان على خلاف أمر الرســول، فاحتملت أحدهمــا الريح وطمَرت الآخرَ الرمال . فلما أصبح الناس ألفَوْا هذه الرمال قد طمّت البئر فلم يبق بها ماء ، ففزعوا خيفــة الظمأ، وقدّروا هول ما بقى من طول الطريق . وإنهم لكذلك إذ مرّت بهم سحابة أمطرتهم فارتوَوْا وأصابوا من المــاء ما شاءوا، وزايلهم الفــزع، وطار أكثرهم سرورا ، وأقبــل بعض منهم على بعض يقولون إنها معجزة . أما آخرون فقالوا : إنما هى سحابة مارّة .

انسحاب الروم

وانطلق الجيش بعــد ذلك قاصدا تَبُــوك . وكانت الروم قد بلغها أمر هــذا الجيش وقوته، فآثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجّهت الى حدودها ليتحصّن داخل بلاد الشام فى حصونها . فلمــا انتهى المسلمون الى تَبُوك وعرف محمد أمر انسحاب الروم ونُمِى اليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلًّا لتتبُّعهم داخل بلادهم . وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه، ويعمل لكفالة هذه الحدود حتى لا يتخطى من بعد ذلك اليهــا أحد . وكان يُوحَنّا بن رؤبة صاحب أَيْلة أحد الأمراء المقيمين على الحــدود . ولقد وجّه اليه النبيّ رسالةً أن يذعن أو يغزوه .

إليهم طلحة بن عُبَيد الله فى نفر من أصحابه ، فحرق عليهم بيت سويلم ، ففرّ أحدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم الباقون النار فأفلتوا ، ولكنهم لم يعودوا لمثلها ، ثم كانوا مثلا لغيرهم فلم يجرؤ أحد بعدهم على مثل فعلهم .

تجهيز جيش العسرة

وقد كان لهذه الشدّة فى أخذ المنافقين ومن معهم أثرها ؛ فقد أقبل الأغنياء وذوو اليسار فأنفقوا نفقة عظيمة لتجهيز الجيش . أنفق عثمان بن عفّان وحده ألف دينار ، وأنفق كثيرون غيره كلٌّ فى حدود طاقته . وتقدّم كل قادر على نفقة نفسه بعدّته ونفقته . وأقبل كثيرون من الفقراء يريدون أن يحملهم النبيّ معه ، فحمل منهم من استطاع ، واعتذر الى الباقين وقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألّا يجدوا ما ينفقون . وابكاؤهم هذا أطلق عليهم اسم البكّائين . واجتمع لمحمد فى هذا الجيش ، الذى سمى جيش العُسْرة لشدّة ما لاقى منذ يوم تكوينه ، ثلاثون ألفا من المسلمين .

اجتمع الجيش وقام أبو بكر فيه يؤمّ الناس للصلاة فى انتظار عود محمد من تدبير شؤون المدينة أثناء غيبته . وقد استخلف عليها محمدَ بن مَسْلَمة . وخلّف علىّ بن أبى طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم ، وأصدر ما رأى أن يُصدر من الأوامر ، ثم عاد الى الجيش يتولّى قيادته . وكان عبد الله بن أُبَىّ قد خرج فى جيش من قومه يسير به الى جانب جيش محمد . لكنّ النبيّ رأى أن يظلّ عبد الله وجيشه بالمدينة ، لأنه كان بعدُ ضعيف الثقة به وبصحة إيمانه . وأمر فتحرّك الجيش ، وثار النقع ، وصهلت الخيل ، وارتقت نساء المدينة سُقُفها يشهدن هذا الجحفل الجرّار ، يتوجّه مخترقا الصحراء صوبَ الشام ، مستهينا فى سبيل الله بالحرّ والظمأ والمسْغَبة ، تاركا وراءه القواعد والخوالف ممن آثروا الظلّ والنَّعمة واللذّة على إيمانهم وعلى رضا الله عنهم . ولقد حرّك منظر الجيش يتقدّمه عشرة آلاف فارس ومنظر النسوة مأخوذات بجلاله وقوته بعضَ نفوس لم تحرّكها دعوة الرسول فتقاعست ولم تتبعه . رجع أبو خَيْثَمة بعد أن رأى هذا المنظر فوجد امرأتين له قد رَشّت كل واحدة

مسيرة جيش العسرة

عود المسلمين الى المدينة

لم يكن عود محمد على رأس هـذه الألوف من جيش العُسْرة من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهّين . فـلم يُدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أميرأَيْلة والبلاد المجاورة له ، ولم يُقيموا كبيروزن لما حقّقه محمد بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيرة و إقامة هـذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذى نظروا اليه أنهـم قطعوا هذه الشُّقّة الطويلة ، وتحملوا فى قطعها ما تحملوا من الأذى ، ثم عادوا لم يغنَموا ولم يأسِروا ، بل لم يقاتلوا ، وكلّ الذى فعلوا أن أقاموا بتَبُوك قُرابة عشرين يوما . فهل لهذا قطعوا الصحراء فى شدّة القيظ فى حين كانت ثمـار المدينة قد طابت وآن أن يستمتع الناس بها ! . وجعل جماعة منهم يستهزئون بمـا فعل محمد ، ونقل مَنْ ملأ الايمـان قلوبهم نبأهم اليه . فأخذ المستهزئين بالشدّة حينا وباللين حينا ، والجيش يسير قافلاً الى المدينة ومحمد يحفظ النظام فى صفوفه ، حتى اذا انتهى إليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقـه بها ، لحقه ومعه أُكيدر وما حمل من دُومَة من إبل وشاء و بُرّ ودروع ، وعلى أُكيدر حُلّة من ديباج موشّى بالذهب بُهِت أهل المدينة لمرآها .

المتخلفون

هنالك اضطرب الذين تخلّفوا عن اتّباعه اضطرابا ردّ المستهزئين الى صوابهم . جاء المتخلِّفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الـكذب . وأعرض محمد عمـا صنعوا تاركا لله حسابهم . لكن ثلاثة صدَقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلُّفهم واعترفوا بذنبهم . هؤلاء الثلاثة هم كَعْب بن مالك ، ومُرَارة بن الرَّبِيع ، وهلال بن أُمَيّـة . وهؤلاء الثلاثة أمر محمد فأعرض المسلمون عنهم خمسين يوما لا يكلمهم أحد ولا تصل بينهم و بين مسـلم تجارة . ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة وعفا عنهم ونزل فيهم قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

(١) سورة التوبة آيتا ١١٧ و ١١٨

معاهدة أهل الحدود

فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب وقدّم الهدايا والطاعة وصالح محمدا وأعطاه الجزية، كما صالحه أهل الجَرْبَاء(١) وأَذْرُحُ(٢) وأعطوه الجزية. وكتب رسول الله لهم كتب أمْن، هذا نص أحدها وهو ما كتب ليُوحَنّا: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبيّ رسول الله ليُوحَنّة بن رؤبة وأهل أَيْلة سُفُنهم وسيّارتهم في البرّ والبحر لهم ذمّةُ الله ومحمدٍ النبيّ ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول مالُه دون نفسه، وإنه طيِّب لمحمد أخذُه من الناس. وإنه لا يحلّ أن يُمْنَعوا ماءً يَرِدُونه ولا طريقا يريدونه من برّ أو بحر». وإيذانًا بالموافقة على هذا العهد أهدى محمد الى يوحنّا رداء من نسج اليمن وأحاطه بكل صنوف الرعاية، بعد أن اتّفق على أن تدفع أَيلة جزية قدرُها ثلثمائة دينار فى كل عام.

غزو ابن الوليد دومة

لم يبق محمد فى حاجة الى القتال بعد انسحاب الروم، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه، وبعد أمْنه عودةَ الجيوش البزنطيّة من هذه الناحية لولا خيفة انتقاض أُكَيْدِر بن عبد الملك الكِنْدىّ النصرانىّ أمير دُومةٍ(٣)، ومعاونته جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته. لذلك بعث النبىّ اليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس وانقلب بجيشه راجعا الى المدينة. وأسرع خالد بالانقضاض على دُومة فى غفلةٍ من مليكها الذى خرج فى ليلة مُقْمِرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش. ولم يلق خالد مقاومةً تذكر، فقتل حسّانَ وأخذ أُكيدر أسيرًا وهدده بالقتل إن لم تفتح دُومة أبوابها. وفتحت المدينة الأبوابَ فداءً لأميرها، وساق خالد منها ألفى بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وَسْق من بُرٍّ وأربعمائة دِرْع، وذهب بها ومعه أُكَيْدر حتى لحِق بالنبىّ فى عاصمته. هنالك عرَض محمد الإسلام على أُكيدر فأسلم وأصبح له حليفا.

(١) الجرباء: قرية من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام.
(٢) أذرح: بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز وهى قريبة من الجرباء.
(٣) دومة: هى المعروفة بدومة الجندل، على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة.

شهرا. فكان إذا فرغ من استقباله الوفود، ومن القيام بأمر المسلمين، ومن أداء حق الله ورسالته وحق أهله جميعا لهم، اطمأنّت نفسه برؤية هذا الطفل الذى ظل يترعرع وينمو ويزداد شبهه بمحمد وضوحا يزيد أباه له حبًّا وبه تعلُّقا. وخلالَ هذه الأشهر جميعا كانت حاضنته أم سيف ترضعه وتسقيه لبن المـاعز التى أهداها النبىّ اليها.

ولم يكن تعلّق محمد بإبراهيم لغاية فى نفسه لها اتّصال برسالته أو بمن يخلُفه؛ فقد كان عليه السلام فى إيمانه بالله وبرسالته لا يفكر فى ولده ولا فيمن يرثه؛ بل كان يقول: «نحن معاشرَ الأنبياء لا نورَث؛ ما تركناه صدقة». إنما هى العاطفة الإنسانية فى أسمى معانيها، العاطفة الإنسانية التى بلغت من السمو فى نفس محمد مالم تبلغه فى نفس أحد غيره، العاطفة الإنسانية التى جعلت العربىّ يرى فيمن يخلُفه من الذُّكْران صورة من صور الخلود — هذه العاطفة هى التى جعلت محمدا يخلع على إبراهيم كل هذا الحبّ ويرمُقه من العطف بما لا عطف بعده. ولقد زاد هذه العاطفة رقّة وقوّة فى نفسه أنه فقـد ولديه القاسم والطاهر وهما ما يزالان طفلين فى حجر أُمّهما خديجة، وأنه فقد بناته بعد خديجة واحدة بعـد الأُخرى بعد أن كبِرن وصرن أزواجا وأمّهات، فلم تبق له منهنّ غير فاطمة. هؤلاء الأبناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فدفنهم بيـده تحت صفائح الثرى، تركوا فى نفسه قرحةَ ألم اندملت بمولد إبراهيم وأثمرت مكانها رجاء وأملا؛ وكان حِلًّا له أن يمتلئ بهذا الأمل غبطةً واستبشارا.

مرض إبراهيم

لكن هذا الأمل لم يكن ليطول إلا تلك الأشهر التى ذكرنا. فقد مرِض إبراهيم بعدها مرضا خيف منه على حياته، فنُقل الى نخل بجوار مَشْرَبة أم إبراهيم، وقامت من حوله مارية وأختها سيرين تمرِّضانه. ولم يطل بالطفل المرض. فلما كان فى الاحتضار وأُخبر النبىّ بأمره، أخذ بيـد عبد الرحمن بن عوف يعتمد عليه لشدة ألمه، حتى أتيا إلى النخل بجوار العالية التى تقوم المشربة اليوم مكانها، فوجد إبراهيم فى حجر أُمّه يجود بنفسه، فأخذه فوضعه فى حجره وقلبُه يَجِفُ ويده تضطرب وقد ملك الحزنُ عليه فؤاده، وبدت صورة الألم على قَسَمات وجهه. وضعه فى حجره وقال: «إنا يا إبراهيم لا نُغنى عنك من الله شيئا». ثم وجم وذرفت عيناه، والغلام

الشدة على المنافقين

من يومئذ بدأ محمد يشتدّ فى معاملة المنافقين شدّة لم يألفوها من قبل . ذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطرا يُخْشَى منه ويجب تلافيه وعلاجه . ولم يقم بنفس محمد ريب بعد أن وعده ربّه لينصرنّ دينه وَلَيُعْلِيَنّ كلمته فى أنهم سيزدادون من بعدُ أضعاف زيادتهم اليوم . عند ذلك يصبح المنافقون خطرا عظيما . ولقد كان له من قبلُ حين كان الإسلام محصورا بالمدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على ما يجرى بين المسلمين . أمّا وقد انتشر الدين فى أنحاء بلاد العرب جميعا، وها هو ذا يشارف الانتقال منها، فكلّ تهاون مع المنافقين شرٌّ تخشى مغبّته ، وخطر ما أسرع ما يستشرى اذا لم تُجْتَثّ جُرْثومته . بنى جماعة مسجدا بذى أَوَان، بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وإلى هذا المسجد كان يأوِى جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرّفوا كلام الله عن مواضعه، وأن يفرّقوا بذلك بين المؤمنين ضِرَارًا وكفرا . وطلبت هذه الجماعة الى النبىّ أن يفتتح المسجد بالصلاة فيه، وكان طلبهم هذا قبل تَبُوك ؛ فاستمهلهم حتى يعود . فلما عاد وعَرف أمر المسجد

إحراق مسجد الضرار

وحقيقة ما قُصِد اليه من إقامته أمر بإحراقه ؛ فضرب بذلك مثلا ارتعدت له فرائص المنافقين فخافوا وانزوَوْا، ولم يبق لهم من يحميهم إلا عبد الله بن أُبَىّ شيخهم وقائدهم .

على أن عبد الله لم يعمّر بعد تَبُوك غيرَ شهرين مرِض إثرهما ومات . ومع أن الحقد على المسلمين قد كان يأكل قلبه منذ نزل النبىّ المدينة ، فقد آثر محمد ألا ينال المسلمون ابنَ أُبَىٍّ بسوء . ولم يلبث النبىّ حين دُعِى للصلاة عليه لما مات أن صلّى وقام على قبره إلى أن دُفن وفُرِغ منه . وبموته انهار ركن المنافقين، وآثر من بقى منهم أن يخلص لله توبته .

تبوك خاتمة الغزوات

بغزوة تبوك تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها، وأمِن محمد كلَّ عادية عليها، وأقبل سائر أهلها وفودا عليه يقدّمون الطاعة ويُعلنون لله الإسلام . ولقد كانت هذه الغزوة خاتمة غزوات النبىّ عليه السلام . ومن بعدها أقام محمد بالمدينة مغتبطا

غبطة النبى بإبراهيم

بما أفاء الله عليه . وكان ابنه إبراهيم قرّة عينه له ستةَ عشر شهرا أو ثمانيةَ عشر

فافْزَعوا الى ذِكر الله بالصلاة » . أيّة عظمةٍ أكبر من ألا ينسى الرسول رسالته فى أشدّ المواقف التى تملأ نفسه بالفجيعة والهول ! . لقد وقف مَنْ تناول من المستشرقين هذا الحديثَ لمحمد موقف الإجلال والإعظام ، ولم يستطيعوا كتم إعجابهم و إكبارهم و إعلان عِرفانهم بصدق رجل لا يرضى فى أدقّ المواقف إلّا الصدق والحق .

تُرى ماذا كان شعور أزواج النبيّ بفجيعته فى إبراهيم وحزنه الشديد عليه ؟

أمّا هو فتعزّى بفضل الله و بمتابعته أداء رسالته و بازدياد الإسلام انتشارا فى هذه الوفود التى كانت ما تفتأ تتوارد اليه من كل صوب ، حتى لقد دُعيت هذه السنة العاشرة من الهجرة سنة الوفود ، وهى السنة التى حج أبو بكر فيها كذلك بالناس .

يجود بنفسه وأمه وأختهـا تصيحان فلا ينهاهما رسول الله! . فلمـا استوى إبراهيم جثمانا لا حَراك به ولا حياة فيـه وانطفأ بموته ذلك الأمل الذى تفتّحت له نفس النبيّ زمنا، زادت عينا محمد تهتانا وهو يقول : « ياإبراهيم لولا أنه أمرٌ حقّ، ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحَزنّا عليك بأشـدّ من هذا » . وبعد أن وجَم هنيهة قال : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يُرضى الربّ، وإنا ياإبراهيم عليك لمحزونون » .

ورأى المسلمون ما بمحمد من حزن، وحاول حكماؤهم أن يردّوه عن الإمعـان فيه، فذكّروه بمـا نَهى عنه ؛ فقال : « ما عن الحزن نهيت وإنمـا نَهَيْتُ عن رفع الصوت بالبكاء . وإنّ ما ترون بى أثرُ ما فى القلب من محبّـة ورحمة . ومن لم يُبْدِ الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة » أوكما قال. ثم إنه حاول كظم حزنه وتبريد لوعته ونظر الى مارية والى سيرين نظرة عطف، وطلب اليهما أن تهوّنا عليهما قائلا : « إنّ له لَمُرْضِعاً فى الجنة » . ثم إن أمّ بُرْدة غسّلته — أو غسّله الفضل بن عبّاس، فى رواية أخرى — وحُمِـل من بيتها على سرير صغير، وشـيعه النبيّ وعمّه العباس وطائفـة من المسلمين الى البقيع حيث دُفن بعد أن صلّى النبيّ عليه . فلما تم دفنه أمر محمد بسدّ القبر ثم سوّى عليه بيده ورشّ المـاء وأعلم عليه بعلامة وقال : « إنها لا تضرّ ولا تنفع ولكنها تُقِرّ عين الحيّ . وإن العبد إذا عمل عملا أحبّ الله أن يُتقنه» .

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس ؛ فرأى المسلمـون فى ذلك معجـزةً وقالوا : إنهـا انكسفت لموته . وسمعهم النبيّ . أتُرَى فرط حبه لإبراهيم وشـديد جزعه لموته قـد جعله يتعزّى بسماع مثل هذه الكلمة أو يسكت على الأقلّ عنهـا أو يعذِر الناس إذ يراهم مأخوذين بمـا يحسبونه المعجزة؟ كلا ! فمثل هذا الموقف إن لاق بالذين يستغلّون فى النـاس جهالتهم، أو لاق بالذين يُخرجهم الحـزن عن رشادهم، فهو لا يليق بالنزيه الحكيم، فما بالك بالرسـول العظيم ! . لذلك نظر محمد الى الذين ذكروا أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم فخطبهم فقال : «إن الشمس والقمر آيتـان من آيات الله لا تُخْسَـفان لموت أحدٍ ولا لحياته . فاذا رأيتم ذلك

ومن حسن صنيع القدر أن كانت الطائف ، التي قاومت النبيّ أثناء حصارها ما قاومت حتى انصرف المسلمون عنها دون اقتحامها ، هي أوّل من أسرع إلى إعلان الطاعة بعد تبوك ، وإن تردّدت طويلا في إعلان هذه الطاعة . فقد كان عُروة بن مسعود ، أحد سادة ثقيف المقيمين بالطائف ، غائبا باليمن أثناء غزو النبيّ بلاده بعد موقعة حُنَين . فلما عاد الى موطنه ورأى النبيّ انتصر في تبوك وعاد الى المدينة ، أسرع اليه يعلن إسلامه وحرصه على دعوة قومه للدخول في دين الله . ولم يكن عروة ليجهل محمدا وعظم أمره ، وقد كان أحد الذين تفاوضوا وإيّاه عن قريش في صلح الحُدَيْبية . وعرف النبيّ بعد إسلام عروة اعتزامه الذهاب الى قومه يدعوهم الى الدين الذي دخل فيه . وكان النبيّ يعرف من تعصّب ثَقيف لصنمها اللّات ومن نخوتها وشدّتها ما جعله يحذّر عروة ويقول له : إنهم قاتلوك . لكن عروة اعتزّ بمكانه من قومه فقال : يا رسول الله ، أنا أحَبُّ اليهم من أبصارهم . وذهب عروةُ فدعا قومه الى الإسلام ، فتشاوروا فيما بينهم ولم يُبدوا له رأيا . فلما كان الصباحُ قام هو على عِلِّيّة له ينادى الى الصلاة . هنالك صدَقت فِراسة الرسول ، فلم يطِق قومه صبرا ، فأحاطوا به ورموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهمٌ قاتِل . واضطرب من حول عُروة أهله ، فقال وهو يُسلم الروح : « كرامةٌ أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله إليّ ، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم » . ثم طلب أن يُدفن مع هؤلاء الشهداء ، فدفنه أهله معهم .

إسلام عروة بن مسعود

مقتل عروة

ولم يذهب دم عُروة هَدَرا ، فإن القبائل التي تُحيط بالطائف كانت قد أسلمت كلها ، ولذلك رأت فيما صنعت ثَقيف بسيِّد من ساداتها إثما ونُكرا . ورأت ثقيف من أثر ذلك أنهم صاروا لا يأمن لهم سِرْبٌ ، ولا يخرج منهم رجل إلا اقْتُطِع ، وأيقنوا أنهم إن لم يجدوا سبيلا إلى صلح أو هدنة مع المسلمين فمصيرهم لا ريب إلى الفناء . وأْتمر القوم فيما بينهم وتحدّثوا إلى كبير منهم (عبد يا ليل) كى يذهب إلى النبيّ يعرض عليه صلح ثقيفٍ معه . وخشى عبد يا ليل أن يُصيبه

الفصل الثامن والعشرون

عام الوفود وحج أبي بكر بالناس

دخول العرب أفواجا فى دين الله — إسلام عروة بن مسعود الثقفى وقتل أهل الطائف له — أخذ القبائل المجاورة الطريق على ثقيف — وفدها الى النبي وشروطه — إسلام الوفد وإسلام الطائف وهدم صنمها اللات — حج أبي بكر بالناس — لحاق عليّ بن أبي طالب به — سورة براءة — أساس الدولة الاسلامية المعنوى — الجهاد فى الإسلام وتسويغه

أثر تبوك

بغزوة تَبُوك تمت كلمة ربك فى شبه جزيرة العرب كلها ، وأمن محمد كل عادية عليها . والحقّ أنه لم يكد يستقرّ بعد أن عاد من هذه الغزوة الى المدينة حتى بدأ كل من أقام على شركه من أهل شبه الجزيرة يفكّر . ولئن كان المسلمون الذين صحبوا محمدا فى مسيره الى الشام وكابدوا من صنوف المشاقّ واحتملوا من القيظ والظمأ أهوالا ، قد عادوا وفى نفوسهم شيء من السخط أن لم يقاتلوا ولم يغنَموا بسبب انسحاب الروم الى داخل الشام ليتحصنوا بمعاقلهم فيها ، لقد ترك هذا الانسحاب فى أنفس قبائل العرب المحتفظة بكيانها وبدينها أثرا عميقا ، وترك فى أنفس قبائل الجنوب باليمن وحَضْرَمَوْتَ وعُمَان أثرا أعمق . أليس الروم هؤلاء هم الذين غلبوا الفرس واستردّوا منهم الصليب وجاءوا به الى بيت المقدس فى حَفْل عظيم ، وفارس كانت صاحبة السلطان على اليمن وعلى البلاد المجاورة لها أزمانا طويلة !

ميل العرب الى الاسلام

فإذا كان المسلمون على مقربة من اليمن ومن غيرها من البلاد العربية جمعاء ، فما أجدر هذه البلاد بأن تنضامّ كلها فى تلك الوحدة التى تستظلّ بعلم محمد ، علم الإسلام ، لتكون بمنجاة من تحكّم الروم والفرس جميعا . وماذا يضرّ أمراء القبائل والبلاد أن يفعلوا وهم يرون محمدا يُثَبِّت من جاءه معلنا الإسلام والطاعة فى إمارته وعلى قبيلته . فلتكن السنة العاشرة للهجرة إذًا سنةَ الوفود ، وليدخل الناس فى دين الله أفواجا ، وليكن لغزوة تَبُوك ولانسحاب الروم أمام المسلمين من الأثر أكثر مما كان لفتح مكة والانتصار فى حُنَيْن وحصار الطائف .

طلبهم الإعفاء من الصلاة ورفضه

وطلبت ثقيف إعفاءها من الصلاة؛ فرفض محمد قائلا : إنه لا خير فى دين لا صلاة فيه. ونزل الثّقفيّون عن بقاء اللات وقبلوا الإسلام وإقامة الصلاة . لكنهم طلبوا ألا يَكْسِروا أوثانهم بأيديهم . إنهم حديثو عهد بإيمان، وقومهم ما يزالون فى انتظارهم ليروا ما صنعوا، فليجنُبهم محمد تحطيم ما كانوا يعبدون وما كان يعبد آباؤهم . ولم ير محمد أن يشتدّ فى هذه . فسِيانِ أن يكسر الثقفيّون الصنم وأن يكسره غيرهم؛ فهو سيهدم وستقوم فى ثقيف عبادة الله وحده . قال عليه السلام : أمّا كسر أوثانكم بأيديكم فسنُعفيكم منه . ثم أمّر عليهم عثمان بن أبى العاص، وكان من أحدثهم سِنّا . أمّره عليهم على حداثة سِنّه ، لأنه كان أحرصهم على الفقه فى الإسلام وتعلّم القرآن ، بشهادة أبى بكر والسابقين إلى الإسلام . وأقام القوم مع محمد ما بقى من رمضان وصاموا وإيّاه وهو يبعث لهم بفطورهم وسحورهم . فلما آن لهم أن ينصرفوا إلى قومهم أوصى محمد عثمان بن أبى العاص قائلا : "تجاوز فى الصلاة واقْدُر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة" .

هدم اللات

عاد القوم إلى بلادهم، فوجّه النبيّ معهم أبا سفيان بن حَرْب والمُغيرة بن شُعْبة، وكانت لهما بثقيف مودّة وحرمة ، ليقوما بهدم اللّات . وقدِم أبو سفيان والمغيرة لهدم الصنم ، فهدمه المغيرة ونساء ثقيف حُسَّرًا يبكين، ولا يجرؤ أحد أن يقترب منه بعد الذى كان من اتفاق وفد ثقيف والنبيّ على هدمه . وأخذ المغيرة مال اللّات وحليها فقضى منه، بأمر الرسول وبالاتفاق مع أبى سفيان، دينا كان على عُروة والأسود . وبهدم اللّات وبإسلام الطائف كانت الحجاز كلّها قد أسلمت، وكانت سطوة محمد قد امتدّت من بلاد الروم فى الشمال إلى بلاد اليمن وحضرموت فى الجنوب . وكانت هذه البلاد الباقية فى جنوب شبه الجزيرة تتهيّأ كلها لتنضم إلى الدين الجديد، ولتقف على الدفاع عنه وعن وطنها كلّ قوتها، وكانت وفودها تسير لذلك من جهات مختلفة ، قاصدة كلها إلى المدينة لتعلن الطاعة ولتدين بالإسلام .

الوفود تترى الى المدينة

من قومه ما أصاب عروة بن مسـعود ، فلم يقبل أن يخرج إلى محمد حتى أوفدوا معه خمسة آخرين ، اطمأنّ إلى أنه إذا خرج معهم ثم عادوا شـغل كلُّ رجل منهم رهطه . ولقى المُغيرة بن شُـعْبة القومَ حين دنَوْا من المدينـة ، فأسرع يريد أن يخبر النبيّ خبرهم . ولقيه أبو بكر يشـتدّ فى السير ، فلمـا عرف منه ما جاء فيـه طلب اليـه أن يدع له هـذه البشرى يزفّها إلى رسـول الله . ودخل أبو بكر فأخبر النبيّ بقدوم وفد ثقيف .

وفد ثقيف الى النبي

وكان هـذا الوفد ما يزال يعتزّ بقومه ، وما يزال يذكر حصـار النبيّ للطائف وانصرافه عنها . فمع ما علّمهم المغيرة كيف يحيُّون النبيّ بتحية الإسلام لم يرضَوْا حين قابلوه إلا أن يحيّوه بتحية الجاهليّـة . ثم إنهم ضُربت لهم قبّة خاصّة فى ناحيـة من المسجد أقاموا بهـا يُصِرّون على الحذر من المسلمين وعدم الطمأنينة اليهم . وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله فى مفاوضاتهم إيّاه ؛ فكانوا لا يطعَمون طعاما يأتيهم من عند النبيّ حتى يأكل منه خالد . وقام هذا بالسِّـفارة ، فأبلغ محمدا أنهم ، مع اسـتعدادهم للإسلام ، يطلبون اليـه أن يدع لهم صنمهم اللات ثلاث سـنين لا يهدمها وأن يُعفيهم من الصـلاة . وأبى محمد عليهم ما طلبوا من ذلك أشـدَّ إباء . ومع أنهم نزلوا يطلبون أن يدع اللّات سنتين ثم أن يدعها سنة ثم أن يدعها شهرا واحدا بعـد انصرافهم إلى قومهم ، فقد كان إباؤه فى ذلك حاسمـا لا تردّد فيـه ولا هوادة . وكيف تريد من نبيٍّ يدعو إلى دين الله الواحد القهار ويهدم الأصنام فلا يذر منها باقية أن يتهاون فى أمر صنم منهـا وإن كان لقومـه من المنعة ما كان لثقيف بالطائف ! . فالإنسان إمّا أن يؤمن وإمّا ألّا يؤمن ، وليس بين الطرفين إلا الارتياب والشكّ . والشكّ والإيمان لا يجتمعان فى قلب كما لا يجتمع الإيمـان والكفر . وبقاء اللّات طاغيـة ثقيف علمٌ على أنهم لا يزالون يداولون عبادتهم بينهـا وبين الله جلّ شأنه . وهـذا إشراك بالله ، والله لا يغفر أن يُشْرَكَ به .

طلب الوفـد بقاء صنمهـم ورفض النبي ذلك

أمر الله بنقض كل عهد بين الشرك والإيمان إلا من عهدٍ عُقِد لأجل فإنه يبقى إلى أجله .

ولهذه الغاية أوفد النبيّ عليّ بن أبي طالب كي يلحق بأبي بكر ، وكي يخطب الناس حين الحج يوم عرفة بما أمر الله ورسوله . وحضر عليّ في أثر أبي بكر والمسلمين الذين برزوا الى الحج معه كي يؤدِّي رسالته . فلما رآه أبو بكر قال له : أميرٌ أم مأمور ؟ قال عليّ : بل مأمور . وأخبره بما جاء فيه ، وأنّ النبي إنما بعثه لينادي في الناس لأنه من أهل بيته . فلما اجتمع الناس بمِنًى يؤدّون مناسك الحج ، وقف عليّ بن أبي طالب وإلى جانبه أبو هريرة ، فنادى عليّ في الناس يتلو قوله تعالى : ﴿ بَراءةٌ مِنَ اللهِ ورَسولِهِ إلى الّذين عاهدتُم مِنَ المُشرِكينَ . فسيحُوا في الأرضِ أربعةَ أشهرٍ واعلموا أنكم غيرُ مُعجِزِي اللهِ وأنّ اللهَ مُخْزِي الكافِرِينَ . وأَذانٌ مِنَ اللهِ ورسولِهِ إلى النّاسِ يومَ الحجِّ الأكبرِ أنّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشرِكين ورسولُه فإنْ تُبتم فهو خيرٌ لكم وإن تَوَلَّيتم فاعلموا أنّكم غيرُ مُعجِزِي اللهِ وبَشِّرِ الّذين كفروا بِعَذابٍ أليمٍ . إلّا الّذِينَ عاهدتُم مِن المُشرِكين ثم لم ينقُصوكم شيئًا ولم يُظاهِروا عليكم أحدًا فأتِمُّوا اليهم عهدَهم الى مُدّتِهم إن اللهَ يُحِبّ المتَّقين . فإذا انسلَخَ الأشهُرُ الحُرُمُ فاقتُلوا المشرِكين حيث وجدتُموهم وخُذُوهم واحصُروهم واقعُدوا لهم كلّ مَرْصَدٍ فإن تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزّكاةَ فخَلُّوا سبيلَهم إنّ اللهَ غفورٌ رحيم . وإنْ أحدٌ مِنَ المشرِكين استجارَكَ فأجِرْه حتى يسمعَ كلامَ اللهِ ثم أبلِغْه مأمنَه ذلِك بِأنّهم قومٌ لا يعلمون . كيف يكونُ لِلمُشرِكين عهدٌ عِند اللهِ وعِند رسولِهِ إلا الّذين عاهدتُم عِند المسجِدِ الحرامِ فما استقاموا لكم فاستقيمُوا لهم إنّ اللهَ يُحِبّ المتَّقين . كيف وإن يَظْهَروا عليكم لا يَرْقُبُوا فيكم إلًّا ولا ذِمّةً يُرضُونكم بِأفواهِهِم وتأبَى قلوبُهم وأكثرُهم فاسِقُون . اشتَرَوْا بِآياتِ اللهِ ثمنًا قليلًا فصَدُّوا عن سبِيلِهِ إنهم سَاءَ ما كانوا يعمَلون . لا يَرْقُبون فِي مُؤمِنٍ إلًّا ولا ذِمّة وأولئِكَ هم المُعتَدون . فإن تابوا وأقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزّكاةَ فإخوانُكم فِي الدِّينِ ونفصِّل الآياتِ لِقومٍ يَعلمون . وَإن نكَثُوا أيمانَهم مِن بعدِ عَهْدِهِم وطَعنوا

بينما كانت الوفود تَتْرَى إلى المدينــة ، كانت الأشهر يتـلو أحدها الآخر حتى اقترب موعد الحج . ولم يكن النبيّ عليه السلام قد أدّى الفريضة الى يومئذ على تمامها كما يؤدّيها المسلمون اليوم . أفتُراه يخرج فى عامه هذا شكرًا لله على ما نصره على الروم ، وما أدخل الطائف فى حظيرة الإسلام ، وما جعل الوفود تجىء اليه من كل فج عميق ؟ إن شبه الجزيرة ما يزال بها من لم يؤمن بالله ورسوله . ما يزال بها الكفّار وما يزال بها اليهود والنصارى . والكفار على عهدهم فى الجاهليّة ما يزالون يحجّون الى الكعبة فى الأشهر الحُرُم . والكفار نَجَسٌ . فليبق إذًا بالمدينة حتى يُتِمّ الله كلمته وحتى يأذن الله له بالحج الى بيته ؛ وليخرج أبو بكر فى الناس حاجًّا .

حج أبى بكر بالناس

وخرج أبو بكر فى ثلاثمائة مسـلم قاصدا الى مكة . لكن العام قد يتلو العـام والمشركون ما يزالون يحجّون بيت الله الحرام . أليس بينه وبين الناس عهـد عامّ ألّا يُصَدّ عن البيت أحد جاءه ، ولا يُخاف أحد فى الشهر الحرام ؟ ! أليست بين محمد وبين قبائل من العـرب عهود الى آجال مسمّاة ! فما دامت هذه العهود فسيظل بيت الله يحج إليـه من يُشرك بالله ومن يعبـد غير الله ، وسـيظل المسلمون يرون عبادة الجاهليّة تؤدّى بأعينهـم حول الكعبة وهم بحكم هـذه العهود الخاصّــة وهذا العهد العام لا قِبل لهم بصدّ أحد عن حجّـه وعبادته . وإذا كانت الأوثان التى يعبد العرب قد حُطّم الكثير منها وحطم منهـا كلّ ما كان فى الكعبة أو حولها ، فإن هذا الاجتماع فى بيت الله المقدّس اجتماعا يضم الثائرين على الشرك وعلى الوثنية والمقيمين على هذا الشرك وهذه الوثنيــة ، تناقض غير مفهوم . وإذا استطاع أحد أن يفهم حج اليهـود والنّصارى جميعا الى بيت المقــدس ، على أنه أرض المَعَاد لليهود ومولد المسيح للنصارى ، فان يستطيع أحد أن يفهم اجتماع عبادتين حول بيت تحطّم فيه الأصنام وتعبد فيه الأصنام التى حُطّمت . لذلك كان طبيعيًّا أن يحال بين المشركين وبين الاقتراب من البيت الذى طُهّـر من الشرك ومحيت منه كل معـالم الوثنيّة . وفى هــذا نزلت الآيات من ســورة براءة . لكن موسم الحج بدأ والمشركون قد أتى منهم من أتى من كل فجّ يقضى مناسك حجه . فليكن هـذا الاجتماع أوانَ تبليغهم

منــع المشركين من الحج

ما حرّم اللهُ ورسولُه ولا يَدينُون دِينَ الحقِّ من الَّذين أُوتُوا الكتابَ حتى يُعطُوا الجزيَةَ عن يَدٍ وهُمْ صاغِرُون . وقالتِ اليَهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ وقالتِ النَّصارَى المَسيحُ ابنُ اللهِ ذلِكَ قولُهم بِأفواهِهِم يُضاهِئون قولَ الَّذين كفروا مِن قَبلُ قاتَلهم اللهُ أنَّى يُؤفَكُون. اتَّخذُوا أحبارَهم ورُهْبانَهم أرباباً مِن دُونِ اللهِ والمَسيحَ بنَ مَرْيَمَ وما أُمِرُوا إلّا لِيَعبُدوا إلهاً واحدًا لا إله إلّا هو سُبْحانَه عمّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدون أن يُطْفِئوا نُورَ اللهِ بِأفْواهِهِم ويَأبَى اللهُ إلا أنْ يُتِمَّ نُورَه ولو كَرِه الكافِرُون . هو الَّذي أرسلَ رَسُولَه بِالهُدَى ودِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه ولو كرِه المُشْرِكون . يأيُّها الَّذين آمنوا إنّ كثيرًا مِن الأحْبارِ والرُّهْبانِ ليأكلون أموالَ النّاسِ بِالباطِلِ ويَصُدُّون عن سبِيلِ اللهِ والَّذِينَ يَكْنِزُون الذهبَ والفضَّةَ ولا يُنْفِقُونها فى سبِيلِ اللهِ فبشِّرْهم بِعذابٍ ألِيم . يوم يُحْمَى عليها فى نارِ جهنَّم فتُكْوَى بِها جِباهُهم وجُنوبُهم وظهورُهم هذا ما كنَزْتُم لِأنفُسِكم فذُوقُوا ما كنتم تَكْنِزون . إن عِدّة الشهورِ عند اللهِ اثنا عَشَرَ شهرًا فى كِتابِ اللهِ يَوْمَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ مِنها أربعةٌ حُرُمٌ ذلِك الدِّينُ القَيِّم فلا تَظْلِمُوا فِيهِنّ أنْفُسَكُم وقاتِلُوا المُشْرِكين كافَّةً كما يُقاتِلونَكم كافَّةً واعلَمُوا أن اللهَ مع المتَّقِين ﴾ (١) .

وقف عليّ فى النـاس وهم يؤدّون مناسك الحج بِمِنًى فتلا عليهم هذه الآيات من سورة التوبة نقلناها هنا كاملة لغرض سنبيِّنه . فلما أتم تلاوتها وقف هنيهة ثم صاح بالناس : أيّها الناس ! إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُرْيان . ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مُدّته . صاح عليّ فى الناس بهذه الأوامر الأربعة ، ثم أجّل الناس أربعة أشهر بعد ذلك اليوم ليرجع كلّ قوم الى مأمنهم وبلادهم . ومن يومئذ لم يحجّ مشرك ، ولم يَطُف بالبيت عُريان . ومن يومئذ وُضِع الأساس الذى تقوم عليه الدولة الإسلامية .

---

(١) سورة التوبة الآيات من ١ الى ٣٦

فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم . أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون . ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين . لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم . يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم . قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون

التوبة على أنها دعوة الى التعصّب لاتتّفق مع ما ترضاه الحضارة الفاضلة من تسامح، دعوة الى قتال المشركين وقتلهم حيث ثقفهم المؤمنون فى غير رفق ولا هوادة، دعوة الى إقامة الحكم على أساس البطش والجبروت . هذا كلام تقرؤه فى كثير من كتب المستشرقين . وهو كلام تهوى إليه الأذهان التى لم تنضج فيها ملكة النقد الاجتماعى والتاريخى حتى من أبناء المسلمين . وهو كلام لا يتفق مع الحقيقة التاريخية ولا يتفق مع الحقيقة الاجتماعية فى شيء . وهو لذلك يؤدّى بأصحابه إلى تفسيرهم ماأوردنا من سورةالتوبة وما جاء من مُشابهه فى مواضع كثيرة من القرآن تفسيرا يأباه منطق الحوادث فى سيرة الرسول تمام الإباء ، وتأباه حياة النبيّ العظيم فى تسلسلها من يوم بعثه الله للدعوة الى دين الحق الى يوم اصطفاه الله اليه .

حرية الرأى والحضارة الغربية

ويجمُل بنا لبيان ذلك أن نسأل عن الأساس المعنوىّ للحضارة الحاكمة اليوم ، ثم نقيس به هذا الأساس المعنوى الذى دعا محمد اليه . فالأساس المعنوى للحضارة الحاكمة اليوم هو حريّة الرأى حريّة لا حدّ لها، ولا حدَّ للتعبير عنها إلا بالقانون . وحريّة الرأى هذه هى لذلك عقيدة يدافع الناس عنها ويضحّون فى سبيلها ويجاهدون لتحقيقها ويحاربون من أجلها ، ويعتبرون ذلك كله آية من آيات المجد التى يفاخرون بها الأجيال ويتباهَوْن بها على ما سبقهم من العصور . ومن أجل ذلك يقول المستشرقون الذين أشرنا اليهم : إن دعوة الإسلام لمقاتلة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر دعوة الى التعصُّب تتنافى وهذه الحرية . وهذه مغالطة مفضوحة اذا عرفت أن قيمة الرأى الدعوةُ له والعمل به . والإسلام لم يدعُ الى مناوأة المشركين من أهل الجزيرة اذا هم أذعنوا ولم يَدْعوا الى شركهم ولم يعملوا به ويقيموا عبادته . والحضارة الحاكمة اليوم تحارب الآراء التى تناقض مواضع العقيدة منها بأشدّ مما كان يحارب المسلمون المشركين، وتفرِض على من يعتبر كتابياً بالنسبة لهذه الحضارة الحاكمة ما هو شرٌّ من الجزية ألف مرة .

ولسنا نضرب المثل لذلك بما كان حين محاربة تجارة الرقيق، وإن آمن الذين كانوا يقومون بهذه التجارة بأنها غير محرَّمة . لا نضرب هذا المثل حتى

هذا الأساس هو الذى جعلنا نسجّل هنا صدر سورة التوبة كلّه. والحرصُ على أن يدرك العرب جميعا هذا الأساس هو الذى دعا عليّاً الى ألّا يكتفى بقراءة هــذه الآيات من براءة يوم الحج، على ما اتّفقت عليه الرواية، بل جعله يقرؤها على الناس من بعــد ذلك فى منازلهم، على ماجاءت به روايات كثيرة. و إنك إذ تتلو صــدر «براءة» هذا وتُعيد تلاوته بإمعان وروية لَتشعر حقّا بأنه الأساس المعنوىّ فى أقوى صورة لكل دولة ناشئة تقوم. ونزول «براءة» كلها بعد آخر غزوة من غزوات النبىّ، وبعد أن جاء أهل الطائف يعلنون انضمامهم الى الدين الجديد، وبعد أن أصبح الحجاز كله ومعه تِهامة ونَجْد منضوياً تحت راية الإسلام، وبعــد أن أعلن كثير من قبائل الجنوب فى شبه الجزيرة الإذعان لمحمــد والانضواء الى دينه، يجلو الحكمة التاريخية فى نزول الآيات التى تنتظم أساس الدولة المعنوى فى هذا الحين.

الأساس المعنوى للدولة الناشئة

فالدولة، لتكون قويّة، يجب أن تكون لهــا عقيدة معنوية عامة يؤمن بها أهلوها ويدافعون جميعا عنها بكل ما أُوتوا من عَتَاد وقوة. وأيّة عقيدة أعظم من الإيمان بالله وحده لاشريك له! . وأيّة عقيدة أكبر سلطاناً على النفس من أن يحس الإنسان نفسه تتصل بالوجود فى أسمى مظاهره، لا سلطان عليه لغير الله ولا رقيب غير الله على ضميره! . فإذا وُجِد الذين يقومون فى وجه هــذه العقيدة العامة التى يجب أن تكون أساس الدولة، فأولئك هم الفاسقون، وأولئك هم نواة الثورة الأهلية والفتنة المــاحقة. وأولئك يجب لذلك ألا يكون لهم عهد، ويجب أن تقاتلهم الدولة. فإن كانوا ثائرين على العقيدة العامة ثورة جامحة، وجب قتالهم حتى يُذعنوا. وإن كانت ثورتهم على العقيدة العامة غير جامحة، كما هو الشأن فى أهل الكتاب، فيجب أن يدفعوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون.

النظر الى المسألة من الجهة التاريخية والجهة الاجتماعية يهدينا الى هذا التقدير لمغزى الآيات التى تلاها القارئ هاهنا من سورة التوبة؛ وهو يهدى الى هذا التقدير كل منصف نزيه القصــد. لكن الذين أسرفوا فى أحكامهم على الإســلام وعلى رسوله يذرون هذا النظر جانبا ويَعرِضون لهذه الآيات القويّة غاية القوّة من سورة

المسرفون فى أحكامهم على الاسلام والرسول

وإن اختلفت مظاهر هـذه الحرب بمقدار ما يترتّب على هذه المظاهر من فساد فى الجماعة يخشى منه على قِوامها الخُلُقىّ أو الاجتماعىّ أو الاقتصادىّ .

التشريع قمع لحرية الرأى له ما يسوّغه.

هذه هى الحقيقة الاجتماعية المعترف بها والمقرّرة لدى الحضارة الحاكمة اليوم . ولو أردنا أن نستقصى مظاهر ذلك وآثاره فى مختلف الشعوب لطال بنا البحث، وليس هاهنـا موضعه . على أنك تستطيع أن تقول إن كل تشريع يراد به قمع أية حركة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية إنما هو حرب للرأى الذى تصدر عنه هذه الحركة . وهذه الحرب تجد ما يسوّغها فى مبلغ ما يُصيب الجماعة الإنسانية من ضرر إذا نُفِّذت الآراء التى تُشَبّ الحرب عليها . فاذا أردنا أن نقـدر دعوة الإسـلام إلى مقاتلة الشرك وأهله وحربهم حتى يذعنوا، وهل هذه الحرب مسوّغة أو غير مسوّغة ، وجب أن ننظر فيما تمثّله فكرة الشرك هذه وما تدعو إليه . فإن اتّفقت الكلمة على فادح ضررها بالجماعة الإنسانية فى مختلف عصورها كان لإعلان الإسلام الحرب عليها ما يسوّغه بل ما يوجبه .

صورة من حياة المشركين

والشرك الذى كان موجودا حين قيام محمد عليـه السلام بالدعوة الى دين الله الحق لم يكن يمثّـل عبادة الأصنام وكفى . ولو أنه كان كذلك لوجبت محاربته . فمن الازدراء للعقل الإنسانى وللكرامة الإنسانية أن يعبد الإنسان حجرا . لكن هذا الشرك كان يمثّل مجموعة من التقاليد والعقائد والعادات ، بل كان يمثّل نظاما اجتماعيا هو شرّ من الرق وشرّ من البلشفية وشرّ من كل ما يتصوّر العقل فى هذا القرن المتمّ للعشرين . كان يمثّل وأد البنات وتعدّد الزوجات الى غير حدّ، حتى ليحلّ للرجل أن يتزوّج ثلاثين وأربعين ومائة وثلاثمـائة امرأة وأكثر من ذلك، وكان يمثّل الربا فى أفحش ما يستطيع الإنسـان أن يتصـوّر الربا، وكان يمثّـل الإباحيّة الخلقية فى أسفل صورها، وكانت جماعة الوثنيّين العرب شرّ جماعة أُخرجت للناس. ونودّ من كل منصف أن يجيب عن هذا السؤال : لو أن جماعة من الناس وضعت لنفسها اليوم نظاما فيه من العقائد والعادات وأدُ البنات، وتعدّد الزوجات، وإباحة

لا يقال: إننا لا نستنكر هذه التجارة وإن كان الإسلام لم يدعُ الى أكثر من محاربة ما يستنكر. لكن أوربا اليوم، أوربا صاحبة الحضارة الحاكمة تؤيّدها أمريكا وتعزّزها قوّات الجنوب فى آسيا والشرق الأقصى منها، قد حاربت البلشفية وهى مستعدّة لمحاربتها أشدّ الحرب. ونحن فى مصر مستعدّون للاشتراك مع الحضارة الحاكمة لمحاربة البلشفية. والبلشفية ليست مع ذلك إلا رأيا فى الاقتصاد يحارب الرأى الذى تدين به الحضارة الحاكمة اليوم. أفتكون دعوة الإسلام الى محاربة المشركين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه دعوةً وحشيّة الى التعصب وضدّ الحرية، وتكون الدعوة الى محاربة البلشفية الهادمة للنظام الاجتماعى فى الحضارة الحاكمة دعوة الى الحرية فى العقيدة والرأى والى احترامها!.

محاربة البلشفية وهى رأى اقتصادى

ثم إن قوما رأوا فى غير بلد من بلاد أوربا أن التهذيب النفسى يجب أن يتّصل به التهذيب الجسمى، وأن ماتواضع الناس عليه من ستر الجسم كله أو بعض أعضائه أشدّ إثارة للمعانى الجنسية فى النفس، وأشدّ لذلك إفسادًا للخُلق، من أن يسير الناس وكلهم عريان. وبدأ أصحاب هذا الرأى ينفّذونه وأقاموا محلّات العرى فى بعض المدن، وأقاموا أماكن يغشاها من شاء للتدرُّب على هذا التهذيب الجسمى. لكن هذا الرأى ما بدأ ينتشر حتى رأى القائمون بالأمر فى كثير من البلاد أن فى انتشار مظاهره إفسادًا للتهذيب الُخلقى يضر بالجماعة؛ فحرّموا «محلّات العرى» وحاربوا القائمين بالرأى، ونهوا بالقانون عن إنشاء أماكن هذا التهذيب الجسمىّ. وما نشك فى أن هذا الرأى لو انتشر فى أمة بأسرها لكان سببا لإعلان الحرب عليها من أمم أخرى على أنه مفسدة للحياة المعنوية فى الإنسان، كما أثيرت حروب بسبب الرقيق، وكما تثار حروب أو مايشبهها بسبب تجارة الرقيق الأبيض وبسبب الاتجار بالمخدّرات. لماذا ذلك كله؟ لأن حرّية الرأى على إطلاقها يمكن أن تُحتمل ما بقيت حبيسةً فى حدود القول الذى لا يتصل منه بالجماعة ضرّ أو أذى. فاذا أوشك هذا الرأى أن يثير فى الجماعة الإنسانية الفساد فقد وجبت محاربةُ هذه الثائرات ووجبت محاربةُ مظاهر الرأى جميعا، بل وجبت محاربة الرأى نفسه،

محاربة محلات العرى

ولقد أثمر هذا الذى تلا علىٌّ من "براءة" وما نادى فى الناس بألّا يدخل الجنّة كافر، وبألّا يحج بعد العام مشرك، وبألا يطوف بالبيت عُريان، خيرَ الثمرات، حتى أزال كل تردُّدٍ من نفوس القبائل التى كانت ماتزال متباطئة فى تلبية دعوة الإسلام .

عامر بن الطفيل

وبذلك دخلت فى الإسلام بلاد اليمن ومَهْرَة والبحرين واليمامة، ولم يبق من يناوئ محمدا إلا عددا قليلا أخذتهم العزّة بالإثم وغرّهم بالله الغرور . من هؤلاء عامر بن الطُّفَيْل الذى ذهب مع وفد بنى عامر ليستظلّوا براية الإسلام ؛ فلما كانوا عند النبىّ امتنع عامر ولم يُسلم، وأراد أن يكون للنبىّ نِدًّا . وأراد النبىّ أن يُقنعه كيما يسلم، فأصرّ على إبائه ثم خرج وهو يقول : أَمَا والله لأملأنّها عليك خيلا ورجالا . قال محمد : اللهمّ اكْفِنى عامر بن الطُّفَيْل ! وانصرف عامر يريد قومه . وإنه لفى بعض الطريق إذ أصابه الطاعون فى عنقه وقضى عليه وهو فى بيت امرأة من بنى سَلُول؛ قضى عليه وهو يردّد : "يا بنى عامر ! أغُدّةً كغُدّة البعير وموتة فى بيت سَلُولِيّة !" . أمّا أرْبَد بن قيس فقد أبى أن يسلم وعاد الى بنى عامر، ولم يطل به المقام بل أحرقته صاعقة حين خرج على جمل له يبيعه . ولم يمنع إباء عامر وأربد قومهما من أن يُسلموا . ومن هؤلاء بل هو شرٌّ منهم مكانًا مُسَيْلِمة بن حبيب ؛ فقد جاء فى وفد بنى حَنِيفة من أهل اليمامة، وخلّفه القوم على رحالهم وذهبوا الى رسول الله فأسلموا وأعطاهم النبىّ، فذكروا له مُسَيلمة، فأمر له بمثل ما أمر للقوم، وقال : أمَا إنه ليس بشرِّكم مكانا ؛ وذلك لحفظه رحال أصحابه . فلما سمع مسيلمة قولهم ادّعى النبوّة وزعم أن الله أشركه مع محمد فى الرسالة، وجعل يسجَع لقومه ويقول لهم فيما يقول محاولا مضاهاة القرآن : « لقد أنعم الله على الحُبْلَى . أخرج منها نسمة تسعى . من بين صِفاق وحشا » . وأحلّ مُسَيْلمة الخمرَ والزّنا، ووضع عن قومه الصلاةَ، وانطلق يدعو الناس الى تصديقه . فأمّا مَنْ عدا هؤلاء من العرب فأقبلوا يدخلون فى دين الله أفواجا من أطراف شبه الجزيرة، وعلى رأسهم رجال من أعزّ الرجال من أمثال عَدِىّ بن حاتم وعمرو بن مَعْدِى كَرِب . وبعث ملوك حِمْيَر رسولًا بكتاب

أربد بن قيس

أمر مسيلمة

الرقّ لسبب أو لغير سبب، واستغلال الأموال استغلالا فاحشا، ثم قامت ثورة على ذلك كله تحاول تحطيمه والقضاء عليه، أفنتّهم هذه الثورة بالتعصّب و بالعمل ضد حرّية الرأى ! . وإذا افترضنا أن أمة اطمأنّت إلى هذا النظام الاجتماعى المنحطّ وأوشكت العدوى أن تنتقل منها الى غيرها من الدول، فآذنتها هذه الدول بحرب، أفتكون هذه الحرب مسوّغة أم غير مسوّغة ؟ ! وهل تكون مسوّغة أكثر من الحرب الكبرى الأخيرة التى طاحت بملايين أهل هذا العالم لغير سبب إلا الشره والجشع من جانب دول الاستعمار ! . واذا كان ذلك شأنها فما عسى أن تكون قيمة نقد المستشرقين للآيات التى تلاها القارئ من سورة براءة، ولدعوة الإسلام إلى حرب الشرك وأهله ممن يدعون الى إقامة نظام فيه ما ذكرنا وشرّ مما ذكرنا ! .

الثورة على الشر مسوّغة

وإذا كانت هذه هى الحقيقة التاريخية فى شأن هذا النظام الذى كان قائما فى بلاد العرب يظّله علم الشرك والوثنّية، فهناك أيضا حقيقة تاريخية أخرى مستمدّة من حياة الرسول . فهو قد أنفق منذ بعثه الله برسالته ثلاث عشرة سنة حسومًا يدعو الناس فيها الى دين الله بالحجة ويجادلهم بالتى هى أحسن . وهو فيما قام به من غزوات لم يكن معتديا قط، وإنما كان مدافعا عن المسلمين دائما ؛ مدافعا عن حرّيتهم فى الدعوة الى دينهم الذى يؤمنون به و يضحّون بحياتهم فى سبيله . وهذه الدعوة القويّة غاية القوة الى قتال المشركين على أنهم نَجَسٌ، وأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق، وأنهم لا يَرْعَوْن فى مؤمن إلًّا ولا ذمّة، إنما نزلت بعد آخر غزوة غزا النبيّ : غزوة تبوك . فإذا حلّ الإسلام ببلاد تفشّى فيها الشرك وحاول أن يقيم فيها هذا النظام الاجتماعى والاقتصادى الهدّام الذى كان قائما فى شبه الجزيرة حين بُعِث النبيّ، فدعا المسلمون أهلها الى ترك هذا النظام والى الأخذ بما أحلّ الله وتحريم ما حرّم فلم يُذعنوا، فليس من منصف إلا يقول بالثورة عليهم و بقتالهم حتى تتمّ كلمة الحق، وحتى يكون الدين كله لله .

منهم الى النبيّ يعلنون فيه إسلامهم؛ فأقرّهم عليه وكتب اليهم بما لهم وما عليهم فى شرع الله . فلما انتشر الإسلام فى جنوب شبه الجزيرة، بعث محمد من السابقين الى الإسلام من يفقّههم فى دينهم ويثبّتهم فيه .

تسمية وفود العرب الى النبي

لم نُطِل الوقوف عند وفود العرب الى النبيّ كما فعل بعض الأقدمين من كتّاب السيرة، لتشابه أمرهم فى الانضواء تحت راية الإسلام . ولقد أفرد ابن سعد فى طبقاته الكبرى لوفادات العرب على الرسول خمسين صفحة كبيرة، نكتفى بأن نذكر منها أسماء القبائل والبطون التى أوفدتها . فقد جاءت وفود من : مُزَيْنة، وأَسَد ، وتَميم ، وعَبْس ، وفَزَارة ، ومُرّة ، وثَعْلَبة ، ومُحارِب ، وسعد بن بكر، وكِلاب ، ورُؤاس بن كلاب ، وعُقَيْل بن كعب ، وجَعْدة ، وقُشَيْر بن كعب ، وبنى البَكَّاء ، وكِنانة ، وأَشْجَع ، وباهِلة ، وسُلَيْم ، وهلال بن عامر ، وعامر بن صَعْصَعة ، وثَقِيف . وجاءت وفود رَبيعة من : عبد القَيْس ، وبكر بن وائل ، وتَغْلِب ، وحَنيفة ، وشَيْبان . وجاء من اليمن وفد من طيّء ، وتُجِيب ، وخَوْلان ، وجُعْفِيّ ، وصُدَاء ، ومُراد ، وزُبَيد ، وكِنْدة ، والصَّدِف ، وخُشَيْن ، وسعد هُذَيْم ، وبَلِيّ ، وبَهْراء ، وعُذْرة ، وسلامان ، وجُهَيْنة ، وكَلْب ، وجَرْم ، والأَزْد ، وغَسّان ، والحارث بن كعب ، وهَمْدان ، وسعد العَشِيرة ، وعَنْس ، والداريّين ، والرَّهَاويين (حىّ من مذحج) وغامِد ، والنخع ، وبَجِيلة ، وخَثْعَم ، والأَشْعَرين ، وحَضْرَمَوْت ، وأَزْدعُمَان ، وغافِق ، وبارِق ؛ ودَوْس ، وثُمَالة ، والحُدّان ، وأَسْلَم ، وجُذَام ، ومَهْرَة ، وحِمْيَر ، ونَجْران ، وجَيْشان . وكذلك لم يبق فى شبه الجزيرة بطن أو قبيلة حتى أسلم إلا من قدّمنا .

كان ذلك شأن المشركين من أهل شبه الجزيرة . سارعوا الى الدخول فى الإسلام وتركوا عبادة الأوثان ، وتطهّرت بلاد العرب جميعا من الأصنام وعبادتها . وتمّ ذلك كله بعد تبوك طواعية واختيارا ، من غير أن تزهق نفس أو يهراق دم . فماذا صنع اليهود والنصارى مع محمد ، وماذا صنع محمد معهم ؟

الفصل التاسع والعشرون

حجة الوداع

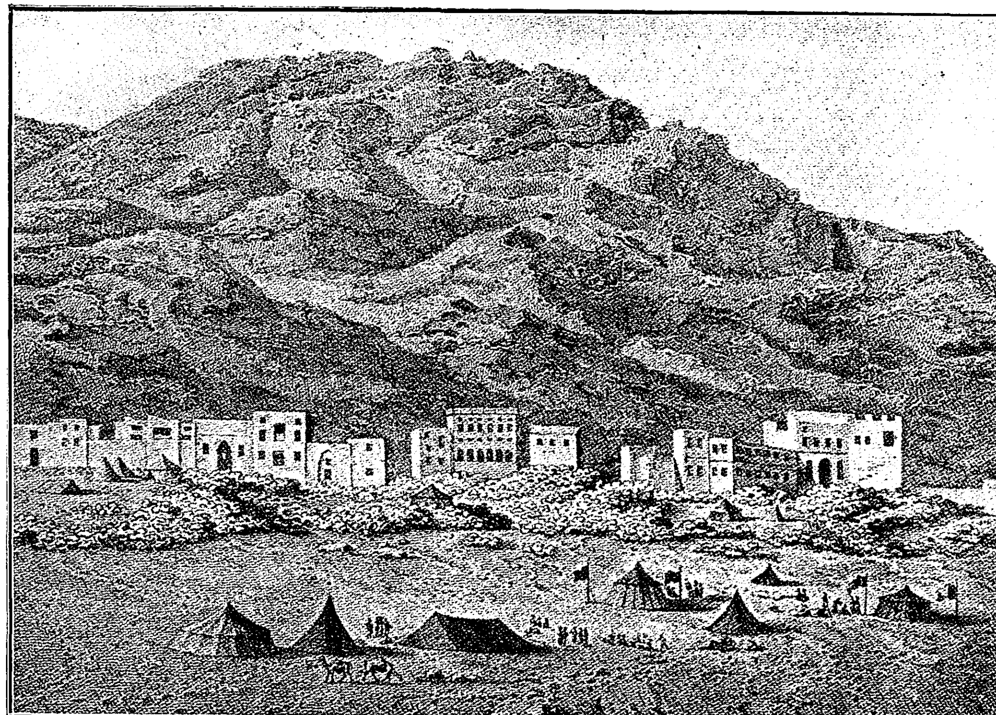
محمد وأهل الكتاب — موقفه من النصارى — مجادلته إياهم — وحدة موقف محمد منهم — بعث على بن أبي طالب إلى اليمن — دعوة محمد الناس للحج ومجيئهم إلى المدينة من كل صوب — مسيرتهم فى نحو مائة ألف الى مكة — مناسك الحج — خطبة محمد

بعد حج أبي بكر بالناس

منذ تلا علىّ بن أبى طالب صدر سورة براءة على الحاجّ من مسلمين ومشركين حين حجّ أبو بكر بالناس، ومنذ أذّن فيهم بأمر محمد حين اجتمعوا بمنًى أن لا يدخل الجنة كافر، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدّته، أيقن المشركون من أهل بلاد العرب جميعا أن لم يبق لهم الى المُقام على عبادة الأوثان سبيل، وأنهم إن يفعلوا فليأذَنوا بحرب من الله ورسوله . وقد كان ذلك شأن أهل الجنوب من شبه جزيرة العرب حيث اليمن وحضرموت؛ لأن أهل الحجاز وما والاها شمالا كانوا قد أسلموا واستظلوا براية الدين الجديد . وكان الأمر فى الجنوب مقسّما بين الشرك والمسيحية . فأمّا المشركون فأقبلوا، كما رأيت من قبل، يدخلون فى دين الله أفواجا ويبعثون وفودهم الى المدينة فيلقَوْن من النبىّ كل حفاوة بهم تزيدهم على الإسلام إقبالا، وترد أكثرهم الى إمارته فتجعله أشدّ على دينه الجديد حرصا . وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد نزلت فيهم مما تلا علىٌّ من سورة التوبة هذه الآيات : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ[1] ﴾ . الى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ

تفريق الاسلام بين الوثنية والمسيحية

(١) آية ٢٩ وما بعدها .



منظـــر مِـــنىً

والأخذ بظاهر هذه الحجة قد يُغرى الذين يستمعون اليها بالميل الى أنها تصف جانبا من الحق، إن لم تُغْرِهم بتصديقها؛ فأمّا تتبع التاريخ والتدقيق فى أحوال نزول الآيات وأسباب نزولها، فلا يدع محلًّا للريب البتة فى وحدة موقف الإسـلام، وموقف محمد من الأديان الكتابية منـذ بدء رسالته الى ختامها . فالمسيح ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم . والمسيح ابن مريم عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيًّا وجعله مباركا أينمـا كان وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيّا؛ ذلك ما نزل به القرآن منذ بدء الرسالة الى ختامها . والله أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد؛ ذلك روح الإسلام وأساسه منذ اللحظة الأولى، وذلك روح الإسلام ما دام العالم . ولقد ذهب وفد من نصارى نجـران الى النبيّ يجادلونه فى الله، وفى بنوّة عيسى لله من قبل أن تنزل سورة التوبة بزمن طويل، ويسألون محمدا : إن عيسى أمّه مريم فمن أبوه ؟ . وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَـلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَـلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بعـدِ مَا جَاءَكَ من الْعِلمِ فقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونِساءَنا ونِساءَكم وَأَنفُسَـنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمّ نَبتهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلى الْكَاذِبِينَ . إِن هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَـزِيزُ الْحَكِيمُ . فإِن تَوَلَّوْا فإِنَّ اللهَ عَليمٌ بِالْمُفْسِـدِين . قُلْ يَأَهْـلَ الْكِتَابِ تَعَالوا إِلى كَلِمَةٍ سَـوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ولا نُشرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(1). وفى هذه السورة، سورة آل عمران، يتوجّه الحديث حديثا معجزا إلى أهل الكتاب يعاتبهم لِم يصدّون عن سبيل الله من آمن، ولِم يكفرون بآيات الله وهى هى التى جاء بها عيسى وجاء بها موسى وجاء بها إبراهيم، قبل أن تحرَّف عن مواضعها وقبل أن يوجِّهها التأويل بمـا تهوَى أغراض هذه الحياة الدنيا ومتاعها الغرور . وفى كثير من السور توجيه للحديث على النحو الذى وُجّه به

(1) سورة آل عمران الآيات من ٥٩ الى ٦٤

الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ .

يقف كثير من المؤرخين أمام هذه الآيات من سورة التوبة ختام ما نزل من القرآن، يسائلون أنفسهم : هل أمر محمد عليه السلام فى شأن أهل الكتاب بغير ما أمر به من قبلُ أثناء سنى رسالته ؟ . ويذهب بعض المستشرقين الى القول بأن هذه الآيات تضع أهل الكتاب والمشركين فيما يُشبه المساواة؛ وأن محمدا، وقد ظفر بالوثنية فى شبه الجزيرة بعد أن استعان عليها باليهوديّة وبالمسيحية، معلنا خلال أعوام رسالته الأولى أنه إنما جاء مبشِّرا بدين عيسى وموسى وإبراهيم والرسل الذين خَلَوْا من قبلُ، قد جعل وجهته الى اليهود الذين بدءوه بالعداوة، فظلّ بهم حتى أجلاهم عن شبه الجزيرة . وأثناء ذلك كان يتودّد الى النصارى وتنزل عليه الآيات تُشيد بحسن إيمانهم وجميل مودّتهم، وينزل عليه قوله تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1]. وها هو ذا الآن يجعل وجهته الى النصرانية يريد بها ما أراد باليهودية من قبل، فيجعل شأن النصارى كشأن الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ وهو يصل الى ذلك بعد أن أجار النصارى من اتّبعه من المسلمين حين ذهبوا الى الحبشة يستظلّون بعدل نجاشيّها، وبعد أن كتب محمد لأهل نَجْران وغيرهم من النصارى يُقرّهم على دينهم وعلى القيام برسوم عبادتهم . ويذهب أولئك المستشرقون الى أن هذا التناقض فى خُطّة محمد هو الذى أدّى الى استحكام العداوة بين المسلمين والنصارى من بعد، وأنه هو الذى جعل التقريب بين أتباع عيسى وأتباع محمد غير ميسور إن لم يكن فى حكم المستحيل.

(١) سورة المائدة آية ٨٢

تترى على المدينة كما قدمنا من قبل، ومن بينها وفود من المشركين ووفود من أهل الكتاب . وكان النبيّ يكرم كل وافد عليه و يردّ الأمراء مكرمين الى إماراتهم . من ذلك ما سبق لنا ذكره فى الفصل المـاضى، ومنه أن الأشعث بن قيس قدم فى وفد كِندة فى ثمانين راكبا ، دخلوا المسجد على النبيّ وقد رجّلوا لِمَمهم وتكحّلوا ولبسوا جُبب الحِبَر بطّنوها بالحرير . فلما رآهم النبيّ قال : ألم تُسلموا ؟ قالوا بلى . قال : فمـا هذا الحرير فى أعناقكم ! فشَقّوه . وقال له الأشعث : يا رسـول الله، نحن بنو آكل المُرَار وأنت ابن آكل المُرَار . فتبسّم النبيّ ونسب ذلك الى العبّـاس بن عبد المطلب و ربيعة بن الحارث . وقدِم وائل بن حُجْر الكندىّ مع الأشعث وكان أمير بلاد الشاطئ من حَضْرَمَوْت فأسـلم ، فأقرّه النبيّ فى إمارته على أن يجمع العشر من أهل بلاده ليردّه الى جُباة الرسـول . وكلّف النبيّ معاويةَ بن أبى سـفيان أن يصحب وائلا الى بلاده . وأبى وائل أن يُردفه أو أن يعطيه نعليه يتّقى بهما حَمَارّة القيظ مكتفيا بأن يدعه يسـير فى ظلّ بعيره . وقبل معاوية ذلك على مخالفتـه لِمـا جاء به الإسلام من التسوية بين المسلمين ومن جعل المؤمنـين إخوة ، حرصا على إسلام وائل وقومه .

ولمـا انتشر الإسلام فى ربوع اليمن ، أوفد النبيّ مُعاذا الى أهله يعلّمهم و يفقّههم وأوصاه قائلا : «يَسّرْ ولا تعسّر ، و بشّر ولا تنفّر . و إنك ستقوم على قوم من أهل الكتاب يسألونك : ما مفتاح الجنّة؟ فقل : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » . وذهب مُعاذ ومعـه طائفة من المسلمين الأوّلين ومن الجباة يعلّمون الناس و يقضون بينهم بقضاء الله ورسوله . و بانتشار الإسلام فى ربوع شـبه الجزيرة ، من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها ، أصبحت أُمّة واحدة يظلها لواء واحد هو لواء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتدين كلها بدين واحد هو الإسلام ، وتتجه قلوبها جميعا الى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ هذا بعد أن كانت الى ما قبل عشرين سنة قبائل متنافرة تشنّ إحداها الغارة على غيرها كلما وجدت فى ذلك مغنما . و بانضوائها تحت لواء الاسلام طُهرت من رجس الوثنية واستراحت الى حكم الواحد

وحدة العـــرب فى ظل الإســلام

فى سورة آل عمران . ففى سورة المائدة يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ واحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِين كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَه وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّه صِدِّيقَةٌ كَانا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظر أَنَّى يُؤْفَكُون ﴾ (١) . وفى سورة المائدة كذلك يقول تعالى : ﴿ وإِذْ قال اللَّهُ يا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قال سُبْحَانَكَ ما يَكُونُ لِى أن أَقُولَ ما لَيْسَ لِى بِحَقّ ﴾ (٢) الى آخر هذه الأيات التى نقلنا فى تقديم هذا الكتاب . وسورة المائدة هى التى من بين آياتها الآية التى يحتج بها المؤرخون من النصارى ، ويتخذونها دليلا على تطور موقف محمد منهم لتطور أحواله السياسية؛ إذ يقول تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِين قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِك بِأَنَّ مِنْهُم قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وأَنَّهُم لا يَسْتَكْبِرُون ﴾ (٣) .

والآيات التى نزلت فى سورة براءة وتحدّثت عن أهل الكتاب لم تتحدّث عنهم فى إيمانهم بالمسيح بن مريم ، وإنما تحدّثت عنهم فى شركهم بالله وفى أكلهم أموال الناس بالباطل وفى كنزهم الذهب والفضة . والإسلام يرى ذلك خروجا من أهل الكتاب على دين عيسى ، يجعلهم يُحِلّون ما حرّم الله ويصنعون صنيع من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر . وهو مع ذلك يجعل من إيمانهم بالله ، على الرغم من ذلك كله ، شفيعا لهم لا تجوز معه مساواتهم بالوثنيين ، ويكفى معه ، إن هم أصرّوا على أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة وعلى أن يُحِلّوا ما حرّم الله ، أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

تتابع الوفود

كانت هذه الدعوة التى أذّن عليّ بها يومَ حج أبو بكر بالناس آية إسلام الناس من أهل الجنوب فى شبه الجزيرة ودخولهم فى دين الله أفواجا . فقد توالت الوفود

(١) الآيات من ٧٣ الى ٧٥ (٢) آية ١١٦ (٣) آية ٨٢

الصلاة وأتمّ السلام . جاءوا إخوة متعارفين تجمع بينهم المودّة الصادقة والأخوة الإسلامية، وكانوا الى سنوات قبل ذلك أعداء متنافرين . وجعلت هذه الألوف المؤلّفة تجوس خلال المدينة وكلٌّ باسم الثغر، وضّاح الطلعة، مشرق الجبين، يصفُ اجتماعُهم انتصارَ الحق وانتشار نور الله انتشارا ربط بينهم وجعلهم جميعا كالبنيان المرصوص .

مسيرة المسلمين الى الحج

وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة سار النبيّ وأخذ نساءه جميعا معه، كلٌّ فى مِحَفَّتها . سار وتبعه هذا الجمع الزاخر، يذكر طائفة من المؤرِّخين أنه كان تسعين ألفا، ويذكر آخرون أنه كان أربعة عشر ومائة ألف . ساروا يحدوهم الإيمان وتملأ قلوبهم الغبطة الصادقة لسيرهم الى بيت الله الحرام يؤدّون عنده فريضة الحجّ الأكبر . فلما بلغوا ذا الحُلَيْفة نزلوا وأقاموا ليلتهم بها . فلما أصبحوا أحرم النبيّ وأحرم المسلمون معه، فلبس كلٌّ منهم إزاره ورداءه وصاروا ينتظمهم جميعا زِيٌّ واحد هو أبسط ما يكون زيّا، وقد حققوا بذلك المساواة بأسمى معانيها وأبلغها . وتوجّه محمد بكل قلبه الى ربه ونادى ملبّيا والمسلمون من ورائه : « لَبَّيْكَ اللهم لبّيك . لبّيك لا شريك لك لبّيك . الحمد والنعمة والشكر لك لبّيك . لبيك لا شريك لك لبيك » . وتجاوبت الوديان والصحارى بهذا النداء، تلبّى كلها وتنادى بارئها مؤمنة عابدة . وانطلق الركب بألوفه وعشرات ألوفه يقطع الطريق بين مدينة الرسول ومدينة المسجد الحرام، وهو ينزل عند كل مسجد يؤدّى فيه فرضه، وهو يرفع الصوت بالتلبية طاعةً لله وشكرا لنعمته، وهو ينتظر يوم الحجّ الأكبر نافد الصبر مشوق القلب ممتلىء الفؤاد لبيت الله هوى ومحبة . وصحارى شبه الجزيرة وجبالها ووديانها وزروعها النضرة فى دهش مما تسمع وتتجاوب به أصداؤها مما لم تعرف قطّ قبل أن يباركها هذا النبيّ الأمىّ عبد الله ورسوله .

الإحرام والتلبية

الإحلال بالعمرة

فلما بلغ القوم سَرِفَ ، وهى مَحَلّة فى الطريق بين مكة والمدينة ، قال محمد لأصحابه : من لم يكُن منكم معه هَدْىٌ فأحبّ أن يجعلها عمرةً فليفعل، ومن كان معه هَدْى فلا .

القهار . وبذلك هدأت الخصومات بين أهلها؛ فلم يبق لغزو أو خصومة موضع، ولم يبق لأحد أن يستلّ سيفه من قِرابه إلا أن يُدافع عن وطنه أو يدفع المعتـدى على دين الله .

إسـلام أهل الكتاب

على أن جماعة من نصارى نَجْران احتفظوا بدينهم مخالفين فى ذلك الأكثرين من قومهم بنى الحارث الذين أسلموا من قبل . الى هؤلاء وجّه النبي خالد بن الوليد يدعوهم الى الإسـلام كى يسلَموا من مهاجمته . ولم يلبثوا حين نادى فيهم خالد أن أسـلموا؛ فبعث خالد وفدا منهم الى المدينـة لقيه النبي فيهـا بالترحيب والمودّة . ثم إن جماعة من أهل اليمن عزّ عليهم أن يخضعوا للواء الإسلام، لأن الإسلام ظهر بالحجاز، ولأن اليمن اعتادت أن تغزو الحجاز فلم يغزها الحجاز من قبلُ أبدا . الى هؤلاء أرسل النبي علىّ بن أبى طالب يدعوهم الى الإسلام . وقد اسـتكبروا أوّل أمرهم وقابلوا دعوة علىٍّ بمهاجمته؛ فلم يلبث علىّ أن شتّتهم على رغم صغر سنه وأنه لم يكن معـه إلا ثلاثمائة فارس . وارتّد المنهزمون ينظّمون من جديد صـفوفهم . بَيْدَ أن علياّ أحاط بهم وأوقع فى صفوفهم الرعب؛ فلم يجدوا من التسليم بدّا . وسلّموا وأسلموا وحسن إسلامهم ، وأنصتوا الى تعاليم مُعاذ وأصحـابه . وكان وفدهم آخر وفد استقبله النبيّ بالمدينة قبل أن ينتقل الى الرفيق الأعلى .

آخر الوفـود الى المدينـة

تجهـز النبي للحج

بينما كان علىّ يتأهب للعود الى مكة كان النبيّ يتجهّز للحج و يأمر الناس بالتجهز له . ذلك أن أشهر السنة استدارت وأقبل ذو القعدة وأوشك أن يولىِّ . ولم يكن النبيّ قد حجّ الحج الأكبر و إن يكن قد اعتمر فأدّى الحج الأصغر قبل ذلك مرتين . وللحج مناسك يجب أن يكون عليه السلام قدوة المسلمين فيها . وما كاد الناس يعرفون ما صحّ عليه عزم النبيّ ودعوته إيّاهم للحج معـه حتى انتشرت الدعوة فى كل ناحية من شبه الجزيرة، وحتى أقبل الناس على المدينـة ألوفا ألوفا من كل فجّ وحَدَب : من المدائن والبوادى، من الجبال والصحارى، من كل بقعة من هذه البلاد العربية المترامية الأطراف ، والتى استنارت كلها بنور الله ونور نبيه الكريم . وحول المدينة ضُربت الخيام لمـائة ألف أو يزيدون جاءوا تلبيةً لدعوة نبيّهم رسول الله عليه أفضل

ناقته القَصْواء حين بزغت الشمس ويمّ بها جبل عَرَفات والناس من ورائه . فلما ارتقى الجبلَ أحاط به ألوف المسلمين يتبعونه فى مسيرته، ومنهم المُلَبِّي ومنهم المكبِّر وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء . وضُرِبت للنبي قبة بِنَمِرةَ (قرية بشرق عَرَفات) وكان ذلك بعض ما أمر به . فلما زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرُحِلت، ثم سار حتى أتى بطنَ الوادى من أرض عُرَنة ، وهناك نادى فى الناس وما يزال على ناقته بصوت جَهْوَرِىّ كان يردِّده مع ذلك من بعده رَبيعة ابن أُميّة بن خَلَف ؛ وهو يقف بين عبارة وأخرى قائلا بعد أن حمِد الله وأثنى عليه :

خطبة الرسول الجامعة

« أيها الناس، اِسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا .

« أيها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ إلى أن تلقَوْا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا .

« وإنكم ستلقَوْن ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلَّغتُ .

« فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

« وإنّ كل ربًا موضوع[(١)]، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون .

« قضى الله أنه لا رِبًا، وأنّ ربا عبّاس بن عبد المطلب موضوع كلُّه .

« وأن كل دم كان فى الجاهليّة موضوع، وأن أوّل دمائكم أضع دم ابن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب ...

« أمّا بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يُعْبَد بأرضكم هذه أبدا . ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تَحقِرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم .

« أيها الناس، إنّ النسىء زيادةٌ فى الكفر يَضلّ به الذين كفروا يُحِلّونه عامًا ويحرّمونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيُحِلُّوا ما حرّم الله ويحرّموا ما أحلّ الله .

(١) أى مهدر .

وبلغ الحجيج مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجّة، فأسرع النبىّ والمسلمون من بعده الى الكعبة، فاستلم الحجر الأسـود فقبّله، وطاف بالبيت سـبعا هَرْوَل فى الثلاث الأولى منها على نحو ما فعل فى عمرة القضاء . وبعد أن صلّى عند مُقام إبراهيم عاد فقبّل الحجر الأسود كرّة أخرى، ثم خرج من المسجد الى ربوة الصَّفَا ، ثم سعى بين الصفا والمَرْوة . ثم نادى محمد فى النـاس أن لا يبق على إحرامه من لا هَـدْىَ معه ينحره . وتردّد بعضهم، فغضب النبىّ لهذا التردُّد أشد الغضب وقال : ما آمركم به فافعلوه . ودخل قُبّته مغضَبا . فسألتـه عائشة : مَنْ أغضبك ؟ فقال : ومالى لا أغضب وأنا آمر أمراً فلا يُتَّبَع ! . ودخل أحد أصحـابه وما يزال غضبان ، فقال : مَن أغضبك يارسول الله أدخله الله النار . فكان جواب الرسول : أوَ ما شعرت أنّى أمرتُ الناس بأمر فاذا هم يتردّدون! ولو أنى استقبلتُ من أمرى ما استدبرت ما سُقت الهَدْى معى حتى أشتريه، ثم أَحلّ كما حَلّوا . كذلك روى مسلم . فلما بلغ المسلمين غضبُ رسـول الله حلّ الألوف من الناس إحرامهم على أسف منهـم، وحَلّ نساءُ النبىّ وحلّت ابنتـه فاطمة مع الناس، ولم يبق على إحرامه إلا من ساق الهدى معـه .

عود على من اليمن

وبينما المسلمون فى حجّهم أقبـل علىٌّ عائدا من غزوته باليمن، وقد أحرم للحج لـمّا علم أن رسول الله حج بالناس . ودخل على فاطمة فوجدها قد حلّت إحرامها . فسألها فذكرت له أن النبىّ أمرهم أن يحِـلّوا بعمرة . فقام فذهب الى النبى فقص عليه أخبار سـفرته باليمن . فلما أتمّ حديثه ، قال له النبى : انطلق فطُف بالبيت وحِلّ كما حَلّ أصحابك . قال علىّ : يا رسول الله، إنى أهللتُ كما أهللتَ . قال النبىّ : ارجع فاحْلِلْ كما حَلّ أصحابُك . قال علىّ : يا رسول الله، إنى قلت حين أحرمتُ: اللهم إنى أُهِلّ بما أَهَلّ به نبيّك وعبدك ورسولك محمد . فسأله النبىّ : أمعه هَدْى؟ فلما نفى علىٌّ أشركه محمد فى هديه، وثبت علىٌّ على إحرامة وأدّى مناسك الحج الأكبر.

أداء مناسك الحج

وفى الثامن من ذى الحجـة يوم التروية ذهب محمد الى مِنًى، فأقام بخيـامه فيها وصلّى فروض يومه بها وقضى الليـل حتى مطلع فجر يوم الحج ، فصلّى الفجر وركب

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾(١) .
فلما سمعها أبو بكر بكى أن أحسّ أن النبيّ وقد تمت رسالته قد دنا يومه الذى يلقى فيه ربّه .

وترك النبي عرفات وقضى ليله بالمُزْدَلِفة، ثم قام فى الصباح فنزل بالمَشْعَر الحرام، ثم ذهب الى منًى وألقى فى طريقه اليهـا الجَمَرات؛ حتى إذا بلغ خيامَـه نحر ثلاثا وستين ناقة، واحدة عن كل سنة من سنى حياته، ونحر علىٌّ ما بقى من الهدى المائة التى ساق النبيّ منذ خروجه من المدينة . ثم حلق النبي رأسه وأتمّ حجه . أتم هذا الحج، يسمّيه بعضهم حِجّة الوداع، وآخرون حِجّة البَلاَغ، وغيرهم حِجّة الإسلام . وهى فى الحق ذلك كله؛ فقد كانت حجّة الوداع، رأى فيهـا محمد مكة والبيت الحـرام للمرّة الأخيرة . وكانت حجة الإسلام، أكمل الله فيها للناس دينه وأتم عليهم نعمته . وكانت حجة البلاغ، أتمّ النبيّ فيها بلاغه للناس ما أمره الله ببلاغه . وما محمد إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون .

(١) سورة المائدة آية ٣

«وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدّة الشهور عند الله اثنـا عشر شهرا منها أربعة حُرُم، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

«أمّا بعد، أيها النـاس، فإن لكم على نسائكم حقًّا ولهن عليكم حقّا . لكم عليهن ألّا يوطئن فُرُشَكم أحدًا تكرهونه، وعليهن ألّا يأتين بفاحشة مبيِّنة . فإن فعلن فإن الله قـد أذِن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرِّح . فإن انتهين فلهن رزقُهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عَوَانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئا . وإنكم إنمـا أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

« فٱعقِلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تَضِلّوا أبدًا أمرًا بيِّنًا : كتابَ الله وسنّةَ رسوله .

« أيّها الناس، اسمعوا قولى واعقِلوه . تَعَلَّمُنّ أنّ كل مسـلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحلّ لامرئ من أخيـه إلا ما أعطاه عن طِيب نفس منـه ، فلا تظلِمُنّ أنفسكم .

« اللهم هل بلّغت » .

كان النبي يقول هذا وربيعة يردّده من بعده مَقْطَعًا مقطعا، ويسأل الناس أثناء ذلك ليحتفظ بيقظة أذهانهم . فكان النبيّ يكلّفه أن يسألهم مثـلا : إن رسول الله يقول : هل تدرون أىّ يوم هذا؟ فيقولون : يوم الحج الأكبر. فيقول النبيّ : قل لهم : إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا . فلما بلغ خاتمة كلامه وقال : اللهم هل بلّغت، أجاب الناس من كل صوب نعم . فقال : « اللّهم اشْهَدْ » .

اليوم أكملت لكم دينكم

ولمـا أتم النبيّ خطابه نزل عن ناقته القصواء وأقام حتى صلّى الظهر والعصر ثم ركبهـا حتى بلغ الصَّخَرات ؛ هناك تلا عليـه السلام على النـاس قول الله تعالى :

الحظ ما أوتيت قريش ، وأن هذه القبائل كانت لبعدها عن مقرّ الدين الجديد لا تعرف كل أمره . لكن الدعوة الحق الى الله كانت قد تأصّلت فى بلاد العرب، فلم تكن مقاومتها أمرا يسيرا . وما لاقى محمد فى سبيل هـذه الدعوة كان قد انتشر فى الآفاق خبره ، ولم يكن مستطاعا لغير ابن عبد الله احتماله . وكل ادّعاء أساسه البهتان لا مفرّ أن ينكشف سريعا بهتانه . فكل ادّعاء للنبوّة لم يكن مقدّرا له أىّ نجاح ذى بال . قام طُلَيْحة زعيم بنى أسد وأحد أشاوس العرب فى الحرب ومن ذوى السلطان بنجد، وزعم أنه نبىٌّ ورسول، وأيّد زعمه بالتنبؤ بموقع الماء فى يوم كان قومه فيه يسيرون ويكاد الظمأ يقتلهم . لكنه بقى خائفا من الانتقاض على محمد طَوال حياة محمد ولم يُعلن الثورة إلا بعد أن قبض الله اليه رسوله . وهزم ابن الوليد طُليحة فى ثورته هذه، فانضم من جديد إلى صفوف المسلمين وحسُن إسلامه . ولم يكن مُسَيْلِمة ولا كان الأسود العَنْسىّ خيرا مكاناً من طُليحة طيلة حياة النبىّ . بعث مسيلمة الى النبىّ عليه السلام يقول : إنه نبىّ مثله ، «وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشا قوم لا يعدلون» . فلما تُلى الخطاب نظر النبي لرسولَىْ مسيلمة وأبدى لهما أنه كان يأمر بقتلهما لولا أنّ الرسل فى أمن ، ثم أجاب مسيلمة بأنه سمع الى كتابه وما فيه من كذب وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين . والسلام على من اتبع الهدى . وأمّا الأسود العَنْسىّ، صاحب اليمن بعد موت بَدْهان، فقد جعل يدّعى السحر ويدعو الناس اليه خفية، حتى إذا عظُم أمره سار من الجنوب وطرَد عمّال محمد على اليمن ، وتقدّم الى نَجْران وقتل فيها ابن بَدْهان ووارثَ عرشه ، وبنى بزوجه ، ونشر فى تلك الأصقاع سلطانَه . ولم يُثر استفحالُ أمره عنايةَ محمد ولا استدعى من اهتمامه أكثر من أن بعث الى عمّاله باليمن كى يحيطوا بالأسود أو يقتلوه . ونجح المسلمون فى تأليب اليمن من جديد على الأسود وقتلته زوجه انتقاماً منه لقتله زوجها الأوّل ابن بدهان .

التفكير فى غزو الروم

كان تفكير محمد وكانت عنايته متّجهين إذًا الى الشمال بعد عوده من حجّة الوداع، وكان من ناحية الجنوب آمنا مطمئنا . والحق أنه منذ غزوة مُؤْتة، ومنذ

الفصل المكمل للثلاثين

مرض النبيّ ووفاته

تفكيره فى غزو الروم — جيش أسامة — بدء مرض النبى — ذهابه إلى مقابر المسلمين وصلاته على أهل أحد — شكواه من وجع رأسه — الحمى — أمره أبا بكر أن يصلى بالناس صحو الموت — اختيار الرفيق الأعلى

أثر حجة الوداع

تمّت حِجّة الوداع وآن لعشرات الألوف ممن صحبوا النبيّ فيها أن يعودوا الى ديارهم، فأَنْجد منهم أهل نجد، وأَتْهم أهل تِهامة، وانحدر الى الجنوب أهل اليمن وحضرموت وما حاذاها . وسار النبيّ وأصحابه ميممين المدينة ، حتى إذا بلغوها أقاموا بها فى أمن من ناحية شبه الجزيرة كلها، وفى تفكير متّصل من جانب محمد فى أمر البلاد الخاضعة للروم والفرس بالشام ومصر والعراق . فهو قد أَمِن من ناحية شبه جزيرة العرب جمعاء بعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا، و بعد أن جعلت الوفود تَتْرَى الى يثرب تُعلن الطاعة وتتفيأ ظِلالَها تحت لواء الإسلام، و بعد أن انحاز العرب جميعا اليه فى حِجّة الوداع . وكيف لا يُخْلِص ملوك العرب فى ولائهم للنبيّ ولدينه ولم يُبْقِ لهم أحد ما أبقاه لهم النبيّ الأُمّيّ من سلطان واستقلال ذاتيّ . أوَ لم يُبْقِ بَدْهانَ عامل فارس على أرض اليمن فى ملكه حين أعلن بَدْهان إسلامَه وحَرص على وحدة العرب وألقى نِيرَ المجوس! ولم يكن ما يقوم به بعضهم فى أنحاء من شبه الجزيرة من حركات تُشْبه الانتقاض ليستغرق من النبيّ شيئا من التفكير أو ليثير فى نفسه شيئا من المخاوف، بعد أن انبسط سلطان الدين الجديد على كل الأنحاء ، وعنَت الوجوه للحيّ القيّوم، وآمنت القلوب بالله الواحد القهار .

مدعو النبوة طليحة والأسود ومسيلمة

لذلك لم يُثِر قيامُ الذين قاموا إذ ذاك يدّعون النبوّة عناية محمد ولا اهتمامه . صحيح أن بعض القبائل القاصية عن مكة كانت تُسرع بعد الذى عرفت عن محمد ونجاح دعوته الى الاستماع لمدّعى النبوّة من أهل قبيلتهم ، وتودّ لو يكون لها من

دون مسيرهم . وقد يسأل إنسان : كيف يحول مرض رسول الله دون مسيرة جيش أمر هو بجهازه وسفره؟ لكن مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصحارى أياما طويلة ليست بالأمر الهيّن . ولم يكن يسهل على المسلمين ، والنبيّ أحبّ إليهم من أنفسهم ، أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم لا يعلمون ما وراء هذا المرض . ثم إنهم لم يعرفوا قطُّ من قبل أنه شكا مرضا ذا بال . فهو لم يُصَبْ من المرض بأكثر من فقد الشهيّة فى السنة السادسة من الهجرة حين قيل كذبا : إن اليهود سحروه، ومن ألم أصابه واحتجم من أجله حين أكل من الشاة المسمومة فى السنة السابعة من الهجرة . ثم إن حياته وتعاليمه كانت تنأى به وبكل من يتّبعها عن المرض . فهذا الزهد فى الطعام ونيل القليل منه ، وهذه البساطة فى الملبس والعيش ، وهذه النظافة التامة نظافة يقتضيها الوضوء ويحبّها محمد ويحرص عليها ، حتى ليقول : إنه لولا خيفته أن يشقّ على قومه لفرض عليهم السِّواك فى اليوم خمس مرات ، وهذا النشاط الدائم : نشاط العبادة من ناحية ونشاط الرياضة من ناحية أخرى ، وهذا القصد فى كل شىء ، وفى الملذات قبل كل شىء ، وهذا السمو عن عبث الأهواء ، وهذه الرفعة النفسيّة لا تُدانيها رفعة ، وهذا الاتّصال الدائم بالحياة وبالكون فى خير صور الحياة وأدقّ أسرار الكون — هذا كله يجنِّب صاحبه المرض ويجعل الصحة بعض حظه . فاذا كان سليمَ التكوين ، قويّ الخَلْق ، كما كان محمد ، جفاه المرض ولم يعرف اليه سبيلا . فاذا مرض كان طبيعيّا أن يخاف محبوه وأصحابه ، وكان طبيعيّا أن يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة خلال عشرين سنة متتابعة . فهو منذ بدأ يجهر بدعوته فى مكة مناديا الناس بعبادة الله وحده لا شريك له وبترك الأصنام مما كان يعبد آباؤهم ، قد لقى من العنت ما تنوء به النفوس مما شتّت عنه أصحابه الذين أمرهم فهاجروا الى الحبشة ، وما اضطرّه للاحتماء بشعاب الجبل حين أعلنت قريش قطيعته . وهو حين هاجر من مكة الى المدينة بعد بيعة العقبة قد هاجر فى أدق الأحوال وأشدّها تعرُّضا للخطر ، وهاجر وهو لا يعرف ما قدِّر له بالمدينة . ولقد كان بها فى الفترة الأولى من مُقامه موضع دسّ اليهود وعبثهم . فلما نصره الله

عاد المسلمون قانعين من الغنيمة بالإياب ، مكتفين بما أبدى خالد بن الوليد من مهارة فى الانسحاب ، كان محمد يحسب لناحية الروم حسابها ، ويرى ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام حتى لا يعود إليها الذين جلَوْا عن شبه الجزيرة الى فلسطين يناوئون أهلها . ولهذا جهّز الجيش العَرِم الذى جهّز حين بلغه تفكير الروم فى مهاجمة حدود شبه الجزيرة ، وسار هو على رأسه حتى بلغ تبوك ، فألفى الروم قد انسحبوا إلى داخل بلادهم وحصونهم من هيبته . لكنه مع هذا ظلّ يقدّر لناحية الشمال أن تثور الذكريات بحُماة المسيحيّة وأصحاب الغَلَب فى ذلك العصر من أهل الأمبراطوريّة الروميّة ، فيعلنوا الحرب على من أجْلَوُا النصرانية عن نَجْران وغير نجران من أنحاء بلاد العرب . لذلك لم يَطُل بالمسلمين المُقَام بالمدينة بعد عودهم من حِجّة الوداع بمكة حتى أمر النبيّ بتجهيز جيش عرم إلى الشام ، جعل فيه المهاجرين الأوّلين ومنهم أبو بكر وعمر ، وأمّر على الجيش أُسامة بن زيد بن حارثة .

وكان أسامة بن زيد يومئذ حَدَثًا لا يكاد يعدو العشرين من سنّه ؛ فكان لإمارته على المتقدّمين الأوّلين من المهاجرين ومن كبار الصحابة ما أثار دهشة النفوس لولا إيمانها الصادق برسول الله . والنبيّ إنما أراد بتعيين أسامة بن زيد أن يقيمه مقام أبيه الذى استُشهد فى موقعة مؤتة ، وأن يجعل له من فخار النصر ما يجزى به ذلك الاستشهاد ، وما يبعث الى جانب ذلك فى نفس الشباب الهمّة والحميّة ، ويعوّدهم الاضطلاع بأعباء أجسم التّبِعات . وأمر محمد أُسامة أن يُوطِئ الخيل تُخوم البَلْقاء والداروم من أرض فلسطين على مقربة من مُؤْتة حيث قُتل أبوه ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عَمَاية الصبح ، وأن يُمعن فيهم قتلا ، وأن يُحرقهم بالنار وأن يتمّ ذلك دِرَاكًا حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فاذا أتمّ له الله النّصر لم يُطِل بقاءه بينهم وعاد غانما مظفّرا .

وصية النبي أسامة

وخرج أُسامة والجيش معه الى الجُرْف (على مقربة من المدينة) يتجهّزون للسفر إلى فلسطين . وإنهم لفى جهازهم إذ حال مرض رسول الله ، ثم اشتداد المرض به ،

مرض الرسول وحيلولة ذلك دون مسيرة الجيش

والجنة . قال أبو مويهبة : بأبي أنت وأمّي ! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . قال محمد : لا والله يا أبا مويهبة ! لقد اخترتُ لقاءَ ربي والجنّة » .

تحدّث أبو مويهبة بما رأى وما سمع ، لأن النبيّ بدأ يشكو المرض غداة تلك الليلة التي زار فيها البقيع ، فاشتدّ خوفُ الناس ولم يتحرّك جيش أُسامة . صحيح أن هذا الحديث الذي يُروَى عن أبي مُوَيْهِبة يلقاه بعض المؤرّخين بشيء من الشك ، ويذكرون أن مرض محمد لم يكن وحده هو الذي حال دون تحرّك الجيش إلى فلسطين ، وأن تَذَمُّر الكثيرين من تعيين حَدَثٍ كأُسامة على رأس جيش يضم جِلّة المهاجرين الأوّلين والأنصار ، كان أكبر من مرض محمد فى عدم تحرُّك الجيش أثرا . وقد اعتمد هؤلاء المؤرخون فى تدوين رأيهم هذا على وقائع يتلوها القارئ فى هذا الفصل . وإذا كنا لا نناقش أصحاب هذا الرأى رأيهم فى تفاصيل هذا الذى روى أبو مُوَيْهِبة ، فإننا لا نرى مسوّغا لإنكار الحادث من أساسه ، وإنكار ذهاب النبيّ إلى بقيع الغرقد واستغفاره لأهل المقابر من ساكنيه ودقّة إدراكه اقتراب ساعته ، ساعة الدنو من جوار الله . فالعلم لا ينكر فى عصرنا الحاضر مناجاة الأرواح على أنها بعض المظاهر النفسية (Psychique) . ودقّة الإدراك لدنو الأجل يؤتاها الكثيرون ؛ حتى ليستطيع أيّ إنسان أن يقص مما عرف من وقائع ذلك شيئا غير قليل . ثم إن هذه الصلة بين الأحياء والموتى ، وهذه الوحدة بين الماضى والمستقبل ، وحدة لا يحدّها زمان ولا مكان ، قد أصبحت مقررة اليوم وإن كنا بطبيعة تكويننا نقصُر عن استجلاء صورتها . فإذا كان ذلك بعض ما نرى اليوم وبعض ما يقرّه العلم ، فلا محلّ لإنكار هذا الحادث الذى روى أبو مويهبة من أساسه ، ولا محل لهذا الإنكار بعد الذى ثبت من اتصال محمد النفسيّ والرّوحيّ بعوالم الكون اتصالا يجعله يدرك من أمره أضعاف ما يدرك الموهوبون فى هذه الناحية .

يداعب عائشة على رغم مرضه

وأصبح محمد فى الغداة ومرّ بعائشة ، فوجدها تشكو صُداعًا فى رأسها وتقول وا رأساه ! فقال لها وقد بدأ يُحِسُّ ألم المرض : بل أنا والله يا عائشة وا رأساه . لكن

وأذِن أن يدخل النـاس من أنحاء شـبه الجزيرة فى دين الله أفواجا ، ازداد عمـله وتضاعف مجهوده ، وظلّ تعهُّد ذلك كله يقتضيه من بذل الجهود ما ينوء بالعصبة أولى القوة . وإن له (عليه الصلاة والسلام) فى بعض الغزوات لمواقف تشيب من هولها الولدان . وأىّ موقف أشـدّ هولا من موقفه يوم أُحُد حين ولّى المسلمون وسار هو يصعد فى الجبل ورجال قريش يشـتدّون فى تتبُّعه ويرمونه حتى كُسِرت رَبَاعِيته ! وأى موقف أشدّ هولا من موقفه يوم حُنَيْنٍ حين ارتدّ المسلمون فى عماية الصبح مولّين الأدبار ، حتى قال أبو سـفيان : إن البحر وحده هو الذى يردّهم ، ومحمد واقف لا يرتدّ ولا يتراجع وينادى فى المسلمين إلى أين إلى أين ! إلىَّ إلىَّ ... حتى عادوا وحتى انتصروا ! . والرسالة ! والوحى ! وهـذا المجهود الروحى المضنى فى اتّصاله بسرّ الكون وبالملأ الأعلى ، هذا المجهود الذى رُوى بسببه عن النبىّ أنه قال : شيّبتنى هودٌ وأخواتها . رأى أصحاب محمد هذا كله ورأوه يحمل العبء صُلْباً قويّا لا يعرف المرض اليه طريقا . فاذا هو مَرِض من بعـد ذلك كله ، فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهّلوا فى السير من معسكرهم بالجُرْف الى الشام حتى تطمئن نفوسهم الى ما يكون من أمر الله فى نبيّه ورسوله .

وحادثٌ وقع جعلهم أشدَّ خوفا . فقد أرِق محمد ليلةً أوّل ما بدأ يشكو وطال أرقه ، وحدّثته نفســه أن يخرج فى ليل تلك الأيام ، أيام الصيف الرقيقة النّسيم ، فيما حول المدينة . وخرج ولم يستصحب معه أحدًا إلا مولاه أبا مُوَيْهِبة . أفتدرى أين ذهب ؟ ذهب الى بَقِيع الغَرْقَد حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة .

خطاب النبي أهل المقابر

فلما وقف بين المقابر قال يخاطب أهلها : « السلامُ عليكم ياأهلَ المقابر . ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيــه . أقبلت الفِتَن كقِطَع الليل المظلم يتبع آخرها أوّلَها . الآخرة شرّ من الأولى » . حدّث أبو مُوَيْهِبـة أن النبىّ قال له أوّل ما بلغا بقيع الغرقد : إنى أُمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلِق معى . فلما استغفر لهم وآن له أن يؤوب ، أقبـل على أبى مُوَيهبة فقال له : يا أبا مويهبـة ، إنى قد أُوتيت مفاتيحَ خزائن الدنيا والخُلْد فيها ثم الجنة ، نخيّرت بين ذلك وبين لقاء ربى

أصحاب أُحد وٱستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم، ثم قال : « أيها الناس أنفِذوا بَعْثَ أُسامة . فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيـه من قبله ، وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقا لهـا » . وسكت محمد برهـةً خيّم الصمت على الناس أثناءها، ثم عاد الى الحديث فقال : «إن عبدا من عباد الله خيّره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فٱختار ما عند الله » . وسكت محمد من جديد والناس كأنما على رءوسهم الطير . لكن أبا بكر أدرك أن النبيّ إنما يعنى بهذه العبارة الأخيرة نفسه، فلم يستطع لرقّة وجدانه وعظيم صداقته للنبيّ أن يمسك عن البكاء، فأجهش وقال: بل نحن نَفْديك بأنفسنا وأبنائنا ! . وخشى محمد أن تمتـد عدوَى التأثُّر من أبى بكر الى الناس، فاشار اليه قائلا: على رِسْلِك يا أبا بكر. ثم أمر أن تُقفل جميع الأبواب المؤدّية الى المسجد إلا بابَ أبى بكر. فلما أُقفلت قال: إنى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدًا منه . وإنى لو كنت متّخذا من العباد خليلا لاتّخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة وإخاءُ إيمـان حتى يجمع الله بيننا عنـده . ونزل محمد عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك الى بيت عائشة، على أنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال:

إيصاؤه المهاجرين بالأنصار

« يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا؛ فإن النـاس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد . وإنهـم كانوا عَيْبَتى[1] التى أويت اليهـا ، فأحْسِنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مُسيئهم » .

ودخل محمد بيت عائشـة . لكن المجهود الذى أَنفق يومئذ وهو فى مرضه قد كان من شأنه أن زاد وطأة المرض شـدّة . وأىّ مجهود بالنسبة لمريض تساوره الحمى يخرج بعد أن تصبّ عليه سبع قرب من المـاء، ويخرج تثقله أكبر الشواغل: جيش أسامة، ومصير الأنصار من بعده، ومصير هذه الأمة العربية التى ربط الدين الجديد بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها . لذلك حاول أن يقوم فى غده ليصلى بالناس كما عوّدهم، فاذا هو لا يقدِر . إذ ذاك قال : مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس .

(١) عيبتى : خاصتى وموضع سرى . والعرب تكنى عن القلوب والصـدور بالعياب لأنها مستودع السرائر كما أن العياب مستودع الثياب .

شَكْوه لم يكن قد اشتدّ إلى الحد الذى يُلزمه الفراش أو يحول بينه و بين ما عوّد أهله وأزواجه من تلطّف ومفاكهة . وكرّرت عائشة الشكوى من صُداعها حين سمعته يشكو ؛ فقال لها : وما ضرّكِ لو مُتِّ قبلى فقمت عليكِ وكفّنتك وصلّيتُ عليكِ ودفنتك ! . وأثارت هذه الدُّعابةُ غيرة الأنوثة فى نفس عائشة الشابّة كما أثارت عندها حبّ الحياة والحرص عليها ، فأجابت : « ليكن ذلك حظّ غيرى . والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك » . وتبسّم النبيّ وإن لم يمكّنه الألم من متابعة الدعابة . فلما سكن عنه الألم بعض الشيء قام يطوف بأزواجه كما عوّدهن . لكن الألم جعل يعاوده وتزداد به شدّته ، حتى إذا كان فى بيت ميمونة لم يُطق مغالبته ورأى نفسه فى حاجة الى التمريض . هنالك دعا نساءه اليه فى بيت ميمونة واستأذنهنّ ، بعد أن رأين حاله ، أن يُمرَّض فى بيت عائشة . وأذِن له أزواجه فى الانتقال ؛ فخرج عاصباً رأسه يعتمد فى مسيرته على علىّ بن أبى طالب وعلى عمّه العباس وقَدَماه لا تكادان تحمِلانه حتى دخل بيت عائشة .

اشتداد الحمى

وزادت به الحمّى فى الأيام الأولى من مرضه ، حتى لكان يشعر كأن به منها لهبا . لكن ذلك لم يكن يمنعه ساعة تنزل الحمّى من أن يمشى الى المسجد ليصلّى بالناس . وظلّ على هذا عدّة أيام ، لا يزيد على الصلاة ولا يقوى على محادثة أصحابه ولا على خطابهم ؛ وإن لم يحل ذلك دون أن يصل الهمس الى أُذنه بما يقول الناس إنه أمّر غلاما حَدَثًا على جِلّة المهاجرين والأنصار لغزو الشام . ومع أنه كان يزداد وجعه كل يوم شدّة ، لقد شعر من هذا الهمس بضرورة التحدّث الى الناس حتى يعهد اليهم ؛ فقال لأزواجه وأهله : هَرِيقوا علىّ سبع قِرَب من آبار شتّى حتى أخرج الى الناس فأعهد اليهم . وجىء بالماء من آبار مختلفة ، وأقعده أزواجه فى مِخْضَب(١) لحفصة وصببْن عليه ماء القرب السبع حتى طفِق يقول : حَسْبُكم حسبكم . ولبس ثيابه وعصَب رأسه وخرج الى المسجد وجلس على المنبر ، فحمد الله ثم صلّى على

خروجه الى المسجد

(١) المخضب : الطست .

وفيما هو فى هذه الشدّة وفى البيت رجال قال : «إيتونى بدواة وصحيفة أكتبْ لكم كتاباً لا تَضِلّوا بعده أبدا » . قال بعض الحاضرين : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، وحَسْبُنا كتابُ الله . ويذكرون أن عمر هو الذى قال هـذه المقالة . واختلف الحضور، منهم من يقول : قَرِّبوا يكتبْ لكم كتابا لا تضلّوا بعـده، ومنهم من يأبى ذلك مكتفيا بكتاب الله . فلمـا رأى محمد خصومتهـم قال : قوموا ! ما ينبغى أن يكون بين يدى النبيّ خلاف . وما فتىء ابن عباس بعـدها يرى أنهـم أضاعوا شيئا كثيرا بأن لم يسارعوا الى كتابة ما أراد النبيّ إملاءه . أمّا عمر فظلّ ورأيَه، أنْ قال الله فى كتابه الكريم : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(١) .

وتناقل الناس ما بلغ من اشتداد المرض بالنبيّ، حتى هبط أُسامة وهبط الناس معه من الجُرْف الى المدينة . ودخل أسامة على النبيّ فى بيت عائشة، فاذا هو قـد أَصْمت فلا يتكلم . فلما بصُر بأُسامة جعـل يرفع يده الى السماء ثم يضعها على أُسامة علامة الدعاء له .

غضبه لمعالجة أهله إياه

ورأى أهله وهذه حاله أن يُسعِفوه بعلاج؛ فأعدّت أسمـاء قريبة ميمونة شرابا كانت عرفت أثناء مُقامها بالحبشة كيف تُعِدّه، وانتهزوا فرصة إغماءة من إغماءات الحمّى فصبّوه فى فيه . فلمـا أفاق قال : مَنْ صنع هـذا؟ ولِمَ فعلتموه ؟ ! . قال عمه العبّاس : خشينا يا رسـول الله أن تكون بك ذات الجنب . قال : ذلك داء ما كان الله عز وجل ليقذفنى به ! . ثم أمر بمن فى الدار خلا عمّه العباس أن يتناولوا هذا الدواء لم تُستثنَ منهم ميمونة على رغم صيامها .

وكان عنـد محمد أوّل ما اشتدّ به المرض سبعة دنانير خاف أن يقبضه الله اليـه وما تزال باقية عنـده، فأمر أهله أن يتصدّقوا بها . لكن اشتغالهم بتمريضه والقيام فى خدمته واطّراد المرض فى شدّته أنساهم تنفيذ أمره . فلما أفاق يوم الأحد الذى

(١) سورة الأنعام آية ٣٨

وكانت عائشة تحرص على أن يؤدّى النبي الصلاة لما فى ذلك من مظهر الصحة، فقالت : إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن . قال محمد : مُروه فليصلّ بالناس . فكررت عائشة قولها ؛ فصاح محمد بها والمرض يهزّه : إنّكن صواحبُ يوسف ! مروه فليصلّ بالناس . وصلّى أبو بكر بالناس كأمر النبي . و إنه لغائب يوما إذ دعا بلال الى الصلاة ونادى عمر أن يصلّى بالناس مكان أبى بكر . وكان عمر جهير الصوت ؛ فلما كبّر فى المسجد سمعه محمد من بيت عائشة فقال : «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون» . ومن هنا ظنّ بعضهم أن النبيّ استخلف أبا بكر من بعده أن كانت الصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله .

ابنته فاطمة وحديثه لها

و بلغت به شدّة المرض حدًّا آلمه . ذلك أن الحمّى زادت به ، حتى لقد كانت عليه قطيفةٌ ، فاذا وضع أزواجه وعوّاده أيديهم من فوقها شعروا بحرّ هذه الحمّى المضنية . وكانت ابنته فاطمة تعوده كل يوم ، وكان يحبّها ذلك الحب الذى يمتلئ به وجود الرجل للابنة الواحدة الباقية له من كل عَقِبه . لذلك كانت اذا دخلت على النبيّ قام اليها وقبّلها وأجلسها فى مجلسه . فلما بلغ منه المرض هذا المبلغ دخلت عليه فقبّلته ؛ فقال : مرحبًا بابنتى ، ثم أجلسها الى جانبه وأسرّ اليها حديثا فبكت ، ثم أسرّ اليها حديثا آخر فضحكت . فسألتها عائشة فى ذلك ؛ فقالت : ما كنت لأُفشى سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما مات ذكرت أنه أسرّ اليها أنه سيُقْبَض فى مرضه هذا فبكت ، ثم أسرّ أنها أوّل أهله يلحقه فضحكت . وكانوا لاشتداد الحمّى به يضعون الى جواره إناءً به ماء بارد ، فما يزال يضع يده فيه و يمسح بها على وجهه . وكانت الحمى تصل به حتى يُغْشَى عليه أحيانا ثم يُفيق وهو يعانى منها أشدّ الكرب ، حتى قالت فاطمة يوما وقد حزّ الألم فى نفسها لشدة ألم أبيها : وا كَرْبَ أَبَتَاهْ ! فقال : لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم . يريد أنه سينتقل من هذا العالم عالم الأسى والألم .

أراد أن يكتب لهم كتابا فاختلفوا

وحاول أصحابه يوما تهوين الألم على نفسه ، فذكروا له نصائحه أن لا يشكو المريض . فأجابهم : إن ما به أكثر مما يكون فى مثل هذه الحال برجلين منهم .

جسمه ضعيفا غاية الضعف . وعائشة تنظر إلى هذا الرجل الذى يمتلىء قلبها تقديسا لجلال عظمته، وقد ملكها الإشفاق عليه لضعفه ومرضه، فهى تودّ لو تبذل له حشاشة نفسها لتردّ إليه القوّة والحياة .

الصحو الذى يسبق الموت

لكن خروج النبيّ إلى المسجد لم يكن إلا الصحو الذى يسبق الموت . فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت فى كل لحظة ضعفا، وكان يرى الموت يدنو، ولم يبق لديه ريب فى أنه لم يبق له فى الحياة إلا سُوَيعات . ترى ماذا عساه كان يشهد فى هذه السويعات الباقية له على فراق الحياة؟ أفكان يستذكر حياته منذ بعثه الله هاديا و نبيًّا وما لاقى فيها وما أتمّ الله عليه من نعمته وما شرح به صدره من فتح قلوب العرب لدين الحق ؟ أم كان يقضيها مستغفراً ربّه متوجِّها اليه بكل روحه على نحو ما كان يفعل كل حياته؟ أم أنه كان يعانى هذه الساعات الأخيرة من آلام النزع ما لم يُبق لديه قوة الاستذكار؟ تختلف الروايات فى ذلك اختلافا كبيرا . وأكثرها على أنه دعا فى هذا اليوم القائظ من أيام شبه الجزيرة (٨ يونيو سنة ٦٣٢ م) بإناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه، وأن رجلا من آل أبى بكر دخل على عائشة وفى يده سواكٌ، فنظر إليه محمد نظرًا دلّ على أنه يريده، فأخذته عائشة من قريبها ومضغته له حتى لان وأعطته إياه فاستنّ به (١)؛ وأنه وقد شقّ عليه النزع توجّه إلى الله يدعوه : اللّهمّ أعِنِّى على سَكَرات الموت . قالت عائشة وكان رأس النبيّ فى هذه الساعة فى حجرها : « وجدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقُل فى حجرى، فذهبت أنظر فى وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول : بَلِ الرفيق الأعلى من الجنّة . قلت خُيِّرتَ فاخترتَ والذى بعثك بالحق . وقُبض رسول الله بين سَحْرِى (٢) ونَحْرِى ودُولتى لم أَظْلِم فيه أحدًا . فمن سَفَهى وَحداثة سِنّى أنه صلّى الله عليه وسلم قُبض وهو فى حجرى، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى» .

بل الرفيق الأعلى من الجنة

أمات محمد حقًّا؟ ذلك ما اختلفت العرب يومئذ فيه اختلافا كاد يثير بينهم الفتنة وما تؤدّى الفتنة اليه من حرب أهليّة لولا أن أراد الله بهم وبدينه الحق الحنيف خيرا .

---

(١) استن به : استاك به . (٢) السحر : الرئة . أى أنه كان مستندا الى ما يحاذى الرئة من صدرها .

سبق وفاته من إغمائه سألهم : ما فعلوا بها ؟ فأجابت عائشة أنها ما تزال عندها . فطلب اليها أن تحضرها ، ووضعها فى كفه ثم قال : « ما ظنّ محمد بربه لو لَقِى الله وعنده هذه » . ثم تصدّق بها جميعا على فقراء المسلمين .

وقضى محمد ليله هادئا مطمئنا نزلت عنه الحمّى، حتى لكأن الدواء الذى سقاه أهله قد فعل فعله وقضى على المرض عنده . وبلغ من ذلك أن استطاع أن يخرج ساعة الصبح الى المسجد عاصبًا رأسه معتمدا على علىّ بن أبى طالب والفضل بن العبّاس . وكان أبو بكر ساعتئذ يصلّى بالناس . فلما رأى المسلمون النبىّ وهم فى صلاتهم قد خرج اليهم كادوا يُفْتَنون فرحًا به وتفرّجوا، فأشار إليهم أن يثبُتوا على صلاتهم . وسُرَّ محمد بما رأى من ذلك أكبر السرور واغتبط له أعظم الغبطة . وأحسّ أبو بكر بما صنع الناس وأيقن أنهم لم يفعلوه إلا لرسول الله، فنكص عن مصلّاه يريد أن يتخلّى لمحمد عن مكانه . فدفعه محمد فى ظهره وقال: صلِّ بالناس ؛ وجلس هو إلى جنب أبى بكر فصلّى قاعدا عن يمينه . فلما فرغ من صلاته أقبل على الناس رافعا صوته حتى سمعه من كانوا خارج المسجد فقال : «أيُّها الناس، سُعِّرت النارُ وأقبلت الفِتَن كقِطَع الليل المظلم . وإنى والله ما تَمَسَّكون علىّ بشىء . إنى والله لم أُحِلّ إلا ما أحلّ القرآن ولم أُحَرِّم إلا ما حرّم القرآن . ولعن الله قومًا اتّخذوا قبورهم مساجد » .

غبطة المسلمين بظاهر إبلاله

ولقد عظُم فرح المسلمين بما رأوا من ظاهر التقدُّم فى صحة النبى، حتى أقبل عليه أسامة بن زيد يستأذنه فى مسيرة الجيش الى الشام ؛ وحتى مَثَل بين يديه أبو بكر قائلا : يا نبىّ الله، إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحبّ . واليوم يوم بنت خارجة، أفآتيها؟ فأذن النبىّ له فى ذلك . وانطلق أبو بكر الى السُّنْح بأطراف المدينة حيث تُقيم زوجه . وانصرف عمر وعلىّ لشؤونهما . وتفرّق المسلمون وكلهم سعيد مستبشر، بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين لما يتّصل بهم من أخبار النبى ومرضه واشتداد الحمَّى به و إغمائه . وعاد هو الى بيت عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين قد امتلأ بهم المسجد يُفعم قلبه ، و إن كان يحس

القلب و يذهب باللُّبّ . و إن كان محمد قد ذهب الى ربه ، كما يقول عمر ، فذلك أدعى للذهول؛ وانتظارُ أوبته حتى يرجع كما رجع موسى أشدّ إمعانا فى العجب . لذلك أحاطت جموعهم بعمر وهم أدنى الى تصديقه والى الإيمـان بأن رسول الله لم يمت . وكيف يموت وقد كان معهم منـذ ساعات يرونه و يسمعون الى صوته الجَهْوَرِىّ والى دعائه واستغفاره ! . وكيف يموت وهو خليل الله الذى اصـطفى لتبليغ رسالته وقد دانت له العرب كلها و بقى أن يدين له كِسْرَى وأن يدين له هِرَقْل بالإسلام ! . وكيف يموت وهو هـذه القوّة التى هزّت العالم مدى عشرين سـنة متوالية وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرف التاريخ ! . لكن النساء هناك ما زلن يلتدمن و يضربن وجوههنّ علامة أنه مات . ولكنّ عمر هاهنا فى المسجد ما فتئ ينادى بأنه لم يمت و بأنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمـران ، و بأن الذين يقولون بموته إنما هم المنافقون ؛ هؤلاء المنافقون الذى سيضرب محمد أيديهم وأعناقهم بعد رجعته . أىّ الأمرين يصدّق المسلمون؟ لقـد أخذهم الفزع أوّل الأمر ، ثم ما زالت بهم أقوال عمر تبعث الى نفوسهم الأمل برجعة النبىّ حتى كادوا يصدّقون أمانيهم و يصوّرون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون اليها .

مجىء أبى بكر من السنح

و إنهم لكذلك إذ أقبـل أبو بكر آتيـا من السُّنْح وقد بلغـه الخبر الفادح . و بصُر بالمسلمين و بعمر يخطبهم ، فلم يقف طو يلا ولم يلتفت الى شىء ، بل قصد إلى بيت عائشة فاستأذن ليدخل ، فقيل له : لا حاجة لأحد اليوم بإذن . فدخل فألفى النبىّ مسجًّى فى ناحية من البيت عليه بُرْدُ حِبَرَة (١) ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبّـله وقال : ما أطيبَك حيًّا وما أطيبَك ميّتا ! . ثم إنه أخذ رأس النبى بين يديه وحدّق بمعارف وجهه التى بقيت لم يُنْكرها عُدوان الموت عليها وقال : بأبى أنت وأمى ! أمّا المَوْتة التى كتب الله عليك فقد ذقتَها ثم لن تُصيبك بعدها موتة أبدا ! . ثم أعاد الرأس الى الوسادة و ردّ البرد على وجهه وخرج وعمرُ ما يزال يكلّم

(١) برد حبرة (بالوصف وبالاضافة) : برد يمان موشى مخطط .

الفصل الحادى والثلاثون

دفن الرسول

اختلاف المسلمين هل مات محمد — عمر يخطب الناس بأنه لم يمت — أبو بكر يعود فيخطبهم بأنه مات و يتلو عليهم القرآن — اقتناع المسلمين بقول أبي بكر — خوف الخلاف فيمن يقوم بأمر المسلمين — بيعة السقيفة ثم البيعة العامة لأبي بكر — تجهيز النبي وغسله — مرور الناس به رجالا فنساء فصبيانا — دفنه حيث قبض — إنفاذ جيش أسامة الى الشام وانتصاره — آخر ما قال الرسول صلى الله عليه وسلم

هول المسلمين لخبر الوفاة

اختار النبيّ عليه السلام الرفيق الأعلى فى بيت عائشة ورأسه فى حجرها، فوضعت رأسه على وسادة وقامت تلتدم وتضرب وجهها مع النساء اللاتى أسرعنَ اليها لأوّل ما بلغهن الخبر. وفوجئ المسلمون بالمسجد بهذه الضجة؛ لأنهم رأوا النبي فى الصباح وكل شيء يدلّ على أنه عوفى، مما جعل أبا بكر يذهب الى زوجه بنت خارجة بالسُّنْح. لذلك أسرع عمر الى حيث كان جثمان النبيّ وهو لا يصدِّق أنه مات. ذهب فكشف عن وجهه فألفاه لا حراك به، فحسبه فى غيبوبة لا بدّ أن يُفيق منها. وعبثًا حاول المغيرة إقناعه بالحقيقة الأليمة؛ فقد ظل مؤمنا بأن محمدا لم يمت. فلما ألحّ المغيرة، قال له: كذبت. وخرج معه الى المسجد وهو يصيح: « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تُوُفِّى؛ وإنه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع اليهم بعد أن قيل: قد مات. ووالله لَيرجِعَنّ رسول الله كما رجع موسى، فلَيقطعنّ أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات». واستمع المسلمون بالمسجد الى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحدة تلو الأخرى وهم فى حال أشبه شيء بالذهول. ألا إنْ كان محمد قد مات حقا فواحَرّ قلباه! ويا لَلهَمِّ الناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له وآمنوا بالله الذى بعثه بالهدى ودين الحق، همٌّ يذهل

عمر يكذب الوفاة

رجوع الجيش الى المدينة

وكان أُسامة بن زيد قد رأى النبيَّ صباح ذلك اليوم حين خرج الى المسجد وظن كما ظن المسلمون جميعا أنه تعافى، فذهب ومن كان قد عاد الى المدينة من الجيش المسافر الى الشام، ولحق بالمعسكر بالجُرْف وأمر الجيش بالتجهز للسير. وإنه لكذلك إذ لحق به الناعى نذيرا بوفاة النبيّ، فعاد أدراجه وأمر الجيش فرجع كله الى المدينة، ثم ذهب هو فركز علَمه عند باب عائشة وانتظر ما سيكون من أمر المسلمين من بعد.

في سقيفة بني ساعدة

وفى الحق أنّ المسلمين كانوا من أمرهم فى حيرة. فهم لم يلبثوا حين سمعوا أبابكر وحين أيقنوا أن محمدا قد مات، أن تفرقوا، فانحازحيٌّ من الأنصار الى سعد ابن عبادة فى سَقيفة بنى ساعدة، واعتزل علىّ بن أبى طالب والزُّبَير بن العوّام وطلحة بن عُبَيد الله فى بيت فاطمة، وانحاز المهاجرون ومعهم أُسَيْد بن حُضَيْر فى بنى عبد الأشهل الى أبى بكر. وإن أبا بكر وعمر لكذلك إذ أتى آت ينبئهما بنبأ الأنصار الذين انحازوا الى سعد بن عبادة، ثم يُردف النبأ بقوله: فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدرِكوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته لم يُفرَغْ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله. قال عمر موجها حديثه الى أبى بكر: اِنطلق بنا الى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه. وإنهم لفى طريقهم إذ لقيهم من الأنصار رجلان صالحان، فذكرا للمهاجرين ما تمالأ عليه القوم وسألاهم: أين يريدون؟ فلمّا علما أنهم يريدون الأنصار قالا: لا عليكم ألّا تقرَبوهم؛ يا معشرَ المهاجرين اقضوا أمركم. قال عمر: والله لنأتينّهم. وانطلقوا حتى نزلوا بهم فى سقيفة بنى ساعدة، فاذا بين ظَهْرَانَيْهم رجل مزمَّل. قال عمر بن الخطاب: مَنْ هذا؟ قالوا: سعد بن عُبَادة، به وجع. فلما جلس المهاجرون قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منّا وقد دَفّتْ دافّةٌ من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر.

الناس ويُقنعهم بأن محمدا لم يمت . وفسح الناس لأبى بكر طريقا . فلما دنا من عمر ناداه : على رِسْلِك يا عمر! أنصتْ ! . لكن عمر أبى أن يسكت أو ينصت واستمر يتكلم . فأقبل أبو بكر على الناس وأشار اليهم بأنه يكلّمهم . ومَنْ كأبى بكر فى هـذا المقام ! . أليس هو الصِّدِّيق صَفِيَّ النبىّ ومن لو اتخذ النبىّ خليلا لاتخذه خليلا ! . لذلك أسرع الناس الى تلبية دعوته وانصرفوا اليه عن عمر . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنه ، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت . ثم تلا قوله تعـالى : ﴿وَمَا محمدٌ إِلاّ رسـولٌ قد خلتْ مِن قَبلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ ماتَ أو قُتِـل انقلبتم على أعقابِكم ومن ينْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فلن يَضُرَّ اللهَ شيئا وسَيَجْزِى اللهُ الشاكِرِينَ﴾[1] . وكان عمر قد أنصت حين رأى انصراف الناس إلى أبى بكر ؛ فلما سمع أبا بكر يتلو هذه الآية خرّ الى الأرض ما تحمله رجلاه موقنا أنّ رسول الله قد مات . وأمّا الناس فقد أُخذوا من قبل بأقوال عمر ، حتى لقد ألفَوْا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبو بكر وكأنهم لم يكونوا يعلمون أنهـا نزلت . وكذلك زايل القلوبَ كلُّ شـك فى أن محمدا قد اختار جِوار الرفيق الأعلى وأن الله قد ضمّه اليه .

من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات

أفكان عمر غاليا حين اقتنع بأن محمدا لم يمت وحين دعا الناس إلى مثـل اقتناعه ؟ كلّا ! وإن العلمـاء ليحدّثوننا اليوم بأن الشمس ستظلّ تتناثر على حِقَب الدهور حتى يجىء يوم تفنَى فيـه . أفيصدّق أحد هـذا الكلام من غير أن تساوره الشكوك فى إمكانه ؟ هذه الشمس التى تُرسل من ضيائها ومن حرارتها ما يحيا العالم به كيف تفنى وكيف تنطفىء ثم يبقى العالم بعـدها يوما ! . ومحمد لم يكن أقل من الشمس ضياء، ولا حرارة، ولا قوّة . وكما أن الشمس مُحْسِنة فقد كان محمد محسنا . وكما أن الشمس تتّصل بالكائنات كلها ، فقـد كان روح محمد يتصل بالكائنات جميعا، وما زال ذكره صـلى الله عليه وسـلم يعطّر الكون كله . فلا عجب اذا اقتنع عمر بأن محمدا لا يمكن أن يموت . وهو حقًّا لم يمت ولن يموت .

أفمات محمد حقا

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

وإذ كان الغد من ذلك اليوم، جلس أبو بكر على المنبر وتقدم ابن الخطاب فتكلّم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "إنّى قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله ولا كانت عهدًا عهده الىّ رسول الله، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبّر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا . وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هدى رسولَه . فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وثانى اثنين إذ هما فى الغار، فقوموا فبايعوه" . فبايع الناس أبا بكر البيعة العامّة بعد بيعة السقيفة .

البيعة العامة بعد بيعة السقيفة

وقام أبو بكر بعد أن تمّت البيعة فألقى فى الناس هذا الخطاب الذى يعتبر آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب . قال رضى الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

خطاب أوّل الخلفاء الراشدين

«أمّا بعد أيها الناس فإنى قد وَليتُ عليكم ولستُ بخيركم . فإن أحسنتُ فأعينونى، وإن أسأتُ فقوّمونى . الصدقُ أمانة، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوىٌّ عندى حتى أُريح عليه حقَّه إن شاء الله، والقوىّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحقَّ منه إن شاء الله . لا يدع قومٌ الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمّهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

وبينما المسلمون يختلفون ثم يتّفقون على بيعة أبى بكر بيعة السقيفة ثم البيعة العامّة، كان جثمان النبى حيث كان على سرير موته يحيط به الأقربون من أهله . فلما تمّت البيعة لأبى بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله كى يدفنوه . وقد اختلفوا فيما بينهم أين يدفن . قال جماعة من المهاجرين : يدفن فى مكة مسقط رأسه وبين أهله . وقال غيرهم : بل يدفن فى بيت المَقْدِس حيث دُفن الأنبياء قبله . وما أدرى كيف قال أصحاب هذا الرأى وبيت المقدس كان ما يزال بأيدى الروم، وكان بين الروم والمسلمين من عداوة منذ مُؤتة وتبوك ما جهّز رسول الله جيش أُسامة للثأر له . ولم يرض المسلمون هذا الرأى ولاهم رضوا أن يدفن النبىّ بمكة، ورأوا أن يدفن

أين يدفن جثمان الرسول

مقالة أبي بكر للأنصار

وكانت هذه روح الأنصار أثناء حياة النبيّ . لذلك لم يكد عمر يسمع هذا الكلام حتى أراد أن يدفعه ؛ فأمسك به أبو بكر مخافة شدّته وقال : على رِسْلك يا عمر ! . ثم قال موجّها كلامه للأنصار : «أيها الناس ! نحن المهاجرين أوّلُ الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دارا، وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة فى العرب ، وأمسّهم رَحِمًا برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقُدِّمنا فى القرآن عليكم؛ فقال تبارك وتعالى : ﴿والسَّابِقُونَ الأوّلون مِنَ المُهَاجِرِين والأَنْصارِ والّذين اتّبعوهم بِإحْسانٍ[1]﴾ . فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار؛ إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء وأنصارنا على العدوّ . أمّا ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهلَ ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعا . فأمّا العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحىّ من قريش . فمنّا الأمراءُ ومنكم الوزراء» . هنالك استشاط أحد الأنصار غضبًا وقام فقال: «أنا جُذَيلُها[2] المُحَكَّك، وعُذَيقُها المُرَجَّب . منّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش» . قال أبو بكر: بل منّا الأمراء ومنكم الوزراء، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيّهما شئتم ؛ وأخذ بيد عمر بن الخطاب و بيد أبى عُبَيْدة بن الجرّاح وهو جالس بينهما . هنالك كثر اللّغط وارتفعت الأصوات وخِيف الاختلاف ؛ فنادى عمر بصوته الجَهْوَرىّ : أُبسط يدك يا أبا بكر . فبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول : « ألم يأمر النبيّ بأن تصلّى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ! فأنت خليفته؛ ونحن نبايعك فنبايع خير من أحبّ رسول الله منا جميعا» . ومسّت هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المسلمين أن كانت معبّرة حقًّا عما ظهر من إرادة النبي حتى هذا اليوم الأخير الذى رآه الناس فيه ؛ فقضى ذلك على ما بينهم من خلاف وأقبلوا فبايع المهاجرون ثم بايع الأنصار .

بيعة أبي بكر بالسقيفة

(١) سورة التوبة آية ١٠٠

(٢) الجذيل : تصغير الجذل وهو أصل الشجرة . والمحكك : الذى تحكك به الإبل الجربى . والعذيق : تصغير العذق (بفتح العين) وهو النخلة . والمرجب : الذى جعل له رجبة وهى دعامة تبنى حولها من الحجارة ، وذلك اذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوفوا عليها أن تنقعر من الرياح العواصف . يريد أنه قد جربته الأمور وله رأى وعلم يشتفى بهما كما تشتفى الإبل الجربى باحتكاكها بالجذل .

رسالةَ ربّه وجاهد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه، وأنه وفَى بوعده، وأمر ألّا نعبد إلا الله وحده لا شريك له . وكان المسلمون يُجيبون عند كل جملة من كلام أبي بكر فى هيبة وخشوع : آمين آمين . فلما فرغ الرجال من صلاتهم وخرجوا أُدخل النساء ثم أُدخل الصبيان من بعدهم . وهؤلاء وأولئك جميعا كلٌّ واجف قلبه محزون فؤاده يَفْرِى الأسَى كبده لفراق رسول الله خاتم النبيين، وتساوره على دين الله أشدّ الخشية من بعده .

من ساعات التاريخ الرهيبة

وإنى لأستعيد الساعة بعد أكثر من ألف وثلثمائة سنة من ذلك اليوم صورة هذا المشهد الرهيب المهوب فتمتلئ نفسى هيبة وخشوعا ورهبة . هذا الجثمان المسجَّى فى ناحية من الحجرة التى ستصبح غدا قبرا والتى كانت الى أمس بساكنها حياة ورحمة ونورا، هذا الجثمان الطاهر لذلك الرجل الذى دعا الناس الى الهدى والحق وكان لهم المثلَ الأعلى فى البِرّ والرحمة والإقدام والهدى وإنصاف المظلوم والانتصاف من كل معتد أثيم، وهذه الجموع تمر به كاسفة البال كسيرة الطَّرْف، وكل رجل وكل امرأة وكل صبيٍّ يذكر فى هذا الرجل الذى اختار جوارَ ربّه أباه وأخاه وصاحبه ووفيَّه ونبيّ الله ورسوله . أيّة قدسيّة تمتلئ بها تلك القلوب العامرة بالإيمان الممتلئة إشفاقا مما يخبأ الغد بعد موت الرسول ! أستعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب فأرانى شاخصا له مأخوذا به ممتلئ القلب من جلال هيبته، أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سبيلا .

تبلبل عقائد المستضعفين

وكان من حق المسلمين أن تُساورهم الخشية . فمنذ ذاع خبر موت النبى فى المدينة وترامى الى قبائل العرب المحيطة بها، اشرأبّت اليهودية والنصرانية ونَجَم النفاق وتبلبلت عقائد المستضعَفين من العرب وهمَّ أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، بل أرادوا ذلك، حتى خافهم عتّاب بن أُسَيْد عامل النبيّ على أُمّ القرى فتوارى منهم . ولولا أن قام سُهَيْل بن عمرو بينهم فقال بعد أن ذكر وفاة النبي : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ؛ فمن رابنا ضربنا عنقه، ثم قال : يأهلَ مكة، كنتم آخر من

بالمدينة التى آوته ونصرته والتى استظلّت قبل غيرها بلواء الإسلام . وتحدّثوا أين يدفن؟ قال فريق منهم : يدفن بالمسجد حيث كان يخطب الناس و يعظهم و يصلّى بهم؛ ورأى هؤلاء أن يدفن حيث المنبر أو الى جانبه . لكن هذا الرأى لم يلبث أن رُفض لِما روى عن عائشة أن النبيّ كان عليه رداء أسود حين اشتدّ به وجعه فكان يضعه مرّة على وجهه و يكشفه مرّة عنه وهو يقول : قاتل الله قوماً اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد ! . ثم قضى أبو بكر بين الناس إذ قال: إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما قُبِض نبىٌّ إلا دُفن حيث يُقْبَض . و بذلك تقرر أن يُحْفَر له مكان الفراش الذى قُبض فوقه .

غسل النبي

وتولّى غسلَ النبيّ أهله الأقربون، وفى مقدّمتهم علىّ بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وولداه الفضل وقُثَم وأُسامة بن زيد . وكان أُسامة بن زيد وشُقْران مولى النبيّ هما اللذان يصبّان الماء عليه وعلىّ يغسله وعليه قميصه ؛ فقد أبوا أن ينزعوا عنه القميص . وكانوا أثناء ذلك يجدون به طِيبا حتى كان علىٌّ يقول : بأبى أنت وأمى ! ما أطيَبك حيًّا وميّتا ! . و يذهب بعض المستشرقين إلى أن هذه الرائحة الذكية ترجع إلى ما اعتاد النبيّ طَوال حياته من التطيُّب حتى كان يرى الطيب بعض ما حُبِّب اليه من هذه الحياة الدنيا . فلما فرغوا من غسله وعليه قميصه كفِّن فى ثلاثة أثواب ثوبين صُحَارِيّين(١) و بُرْد حِبَرة أُدرج فيه إدراجا . ولما تم الجهاز على هذا النحو تُرِك الجثمان حيث كان، وفتحت الأبواب للسلمين يدخلون من ناحية المسجد يطوفون، يُلقون على نبيهم نظرة الوداع ويصلّون على النبيّ، ثم يخرجون وقد هوى الحزن بنفوسهم الى قرار سحيق .

وداع الجثمان الطاهر

وامتلأت الحجرة حين دخل أبو بكر وعمر يصلّيان مع المسلمين لا يؤمّهم فى صلاتهم هذه أحد. فلما استوى الناس بالمكان وقد علاهم الصمت قال أبو بكر: السلام عليك يا رسول الله و رحمة الله و بركاته . نشهد أن نبىّ الله و رسوله قد بلّغ

(١) صحارى : نسبة الى صحار قرية باليمن، وقيل : هو من الصحرة وهى حمرة خفية كالغبرة، يقال ثوب أصحر وصحارىّ .

الى المعترضين ورأى ألا يشتَّت المسلمون وأن يُحتَفَظ بهم فى المدينة مخافة أمر قد يدعو اليهم . لكن أبا بكر لم يتردّد برهة فى تنفيذ أمر الرسول، ورفض أن يستمع الى قول الذين أشاروا بتعيين قائد أسنَّ من أُسامة وأكثر منه فى الحرب دُرْبة . وتجهّز الجيش عند الجُرْف وأُسامة على رأسه، وخرج أبو بكر يودّعه . هنالك طلب الى أسامة أن يُعفى ابن الخطاب من الذهاب معه ليبقى بالمدينة يشير على أبى بكر . ولم تمض عشرون يوما على مسيرة الجيش حتى أغار المسلمون على البَلْقاء وحتى انتقم أسامة للمسلمين ولأبيه الذى قُتل بمؤتة أشدّ انتقام . وقد كانت صيحة الحرب فى تلك الأيام المظفّرة : « يا منصور أمِتْ » . وكذلك نفّذ أبو بكر ونفّذ أُسامة أمر النبي وعاد بالجيش الى المدينة ممتطيا الجواد الذى قُتل أبوه بمؤتة عليه، يتقدّمه اللواء الذى عقده له رسول الله بيده .

الأنبياء لا يورثون

ولما قُبض النبيّ طلبت فاطمة ابنته إلى أبى بكر أن يردّ عليها ماترك من أرض فَدَكَ وخَيْبَر . لكن أبا بكر أجابها بقول أبيها : « نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث؛ ما تركناه صدقة » . ثم قال لها : فأمّا إن كان أبوك قد وهبك هذا المال فإنى أقبل كلمتك فى ذلك وأُنفذ ما أمر به . وأجابت فاطمة بأن أباها لم يُفْضِ اليها بشىء من ذلك، وإنما أخبرتها أُمّ أيمن بأن ذلك كان قصده . عند ذلك أصرّ أبو بكر على استبقاء فَدَك وخيبر وردّهما إلى بيت مال المسلمين .

الميراث الروحى العظيم

وكذلك خرج محمد من هذه الحياة الدنيا لم يترك شيئا من عرضها الزائل لأحد بعده؛ خرج منها كما دخل اليها وقد ترك فيها للناس هذا الدين القيِّم، ومهّد فيها لهذه الحضارة الإسلامية الكبرى التى تفيّأ العالم ظلالها من قبلُ وسيتفيأ ظلالها من بعدُ، وأقرّ فيها التوحيد، وجعل فيها كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وقضى فيها على الوثنية فى كل صورها ومظاهرها القضاء المبرم، ودعا الناس فيها أن يتعاونوا على البرّ والتقوى لا على الإثم والعُدوان، وترك من بعده كتاب الله هدى للناس ورحمة، وكان فيها المثَلَ الأسمى والأَسوة الحسنة . وكان من آخر ما ضربه

أسلم فلا تكونوا أوّل من ارتدّ . والله ليُتِمَّنّ الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لَمـا رجعوا عن ردّتهم .

وقد كان للعرب فى حفر قبورهم طريقتان : إحداهما لأهل مكة يحفرون القبر مسطَّح القاع ، والأخرى لأهل المدينة يحفرونه مقوَّسا . وكان أبو عُبَيْدة بن الجرّاح يَضْرَح كحفر أهل مكة ، وأبو طَلْحة زيد بن سَهْل هو الذى يحفر لأهل المدينـة . وحار أهل النبيّ أىّ الطريقتين يسلكون فى حفر قبره . فبعث عمّه العباس رجلين يدعو أحدهمـا أبا عبيدة ويدعو الآخر أبا طلحة . فأمّا المبعوث الى أبى عُبَيْـدة فلم يعـد به وجاء المبعوث الى أبى طلحة به ، فلَحَد لرسـول الله على طريقة أهل المدينة . فلمـا كان المساء وبعـد أن مرّ المسلمون بالجثمان الطاهر وودّعوه الوداع الأخير اعتزم أهل النبيّ دفنه ، فانتظروا حتى مضى هزيع من الليل وفرشوا القبر برداء أحمر كان النبيّ يلبسه ، ثم أنزله الذين تولَّوْا غسله إلى المقر الأخير لرفاته وبنوا فوقه باللبن وأهالوا التراب فوق القبر . قالت عائشة : ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المَسَاحى من جوف الليـل ، وقالت فاطمة مثل هذا القول . وكان دفنه ليلة الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأوّل ، أى بعد يومين من اختياره الرفيق الأعلى .

دفن النبي

عائشة وحجرة القبر

وظلّت عائشة من بعد ذلك تعيش بمنزلهـا فى الحجرة المجاورة لحجرة القبر سعيدة بهذا الجوار الكريم . ولمـا مات أبو بكر دُفِن الى جوار النبي ، كما دُفن عمر الى جواره من بعدُ . ويروى أن عائشـة كانت تزور حجرة القـبر سافرة الى أن دُفن عمر بها إذ لم يكن بها الى يومئذ غير أبيها وزوجها . فلما دُفِن عمر كانت لا تدخل إلا محتجبة لابسة كامل ثيابها .

إنفاذ جيش أسامة

ولم يكد المسـلمون يفرغون من جِهاز رسـول الله ودفنه حتى أمر أبو بكر أن ينفذ جيش أُسامة لغزو الشام تنفيذًا لمـا كان قد أمر رسول الله به . وقد أبدى بعض المسـلمين من الاعتراض على ذلك ما أبدَوْا أيام مرض النبي . وانضم عمر

خاتمـــة فى مبحثين

١ — الحضارة الإسلامية كما صوّرها القرآن

خلّف محمد هـذا الميراث الروحى العظيم الذى أظلّ العالم ووجّه حضارته خلال عدة قرون مضت ، والذى سيظلّه من بعـدُ ويوجّه حضارته حتى يتم الله فى العالم نوره . وانمـا كان لهذا الميراث كل هـذا الأثر فيما مضى، وسيكون له مثله وأكثر منه من بعدُ، لأنه أقام دين الحق ووضع أساس حضارة هى وحدها الكفيـلة بسعادة العالم. والدّين والحضارة اللذان بلّغهما محمد للناس بوحى ربه يتزاوجان حتى لا انفصال بينهما . ولئن قامت هذه الحضارة الإسلامية على أساس من قواعد العلم وهدى العقل،واستندت فى ذلك إلى ماتستند اليه الحضارة الغربية فى عصرنا الحاضر، ولئن استند الإســلام من حيث هو دين الى التفكير الذاتى والى المنطق التجريدى (الميتا فيزيقى) ، إن الصلة مع ذلك وثيقة بين الدين ومقرّراته والحضارة وأساسها . ذلك بأن الإسلام يربط بين التفكـير المنطقى والشعور الذاتى، وبين قواعد العقـل وهدى العلم برابطة لا مفرّ لأهله من البحث عنهـا والاهتداء اليهـا ليظلّوا مسلمين وطيدًا إيمانهم . وحضارة الإسلام تختلف من هـذه الناحية عن الحضارة الغربية المتحكمة اليوم فى العالم، كما تختلف عنها فى تصوير الحياة والأساس الذى يقوم هذا التصوير عليه . وهذا الاختلاف بين الواحدة والأخرى من هاتين الحضارتين جوهرىّ الى الحدّ الذى يجعل أساس كل واحدة منهما نقيض الأساس الذى تقوم عليه الأخرى .

الحضارتان الإســلامية والغربيــة

ويرجع هـذا الخلاف الى أسباب تاريخية أشرنا اليها فى تقديم هـذا الكتاب وفى تقديم طبعته الثانية . فقد أدّى النزاع فى الغرب المسيحى بين السلطتين الدينية والزمنية — وبعبارة هذا العصر : بين الدين والدولة — الى الفصل بينهما والى إقامة

الغــرب وتنازع الدين والدولة فيه

للناس من الأمثلة أن قال للناس يوم كلمهم أثنـاء مرضه: «أيّها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستَقِدْ منّى. ومن كنت شتمت له عِرْضًا فهذا عرضى فليستقد منه، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه، ولا يخش الشحناء فهى ليست من شأنى». وادّعى عليـه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه عوضها، ثم ترك العالم بعد ذلك مخلِّفا هذا الميراث الروحى العظيم الذى ما يزال ينتشر فى العالم حتى يتمّ الله كلمتَه و ينصر دينَه على الدين كله ولو كره الكافرون.

صلى الله عليه وسلم.

فسيظل كلٌّ منا يرقب الفرصة التى يُحسن فيها الاحتيال للحصول على رغيف صاحبه؛ وسيظلّ كلٌّ منا ينظر الى الآخر على أنه خصمه لا على أنه أخوه؛ وسيظلّ الأساس الخُلُقى الكمين فى النفس أساسا حيوانيـا بحتا، و إن بقى كمينا حتى تدفع الحاجة الى ظهوره؛ وستظل المنفعة وحدها قوام هـذا الأساس الخُلُقى، على حين تنزلق عليه المعانى الإنسانية السامية والمبادئ الخُلُقية الكريمة، مبادئ الإيثار والمحبة والأخوّة، فلا يكاد يمسكها ولا تكاد تعلَق به .

وما هو واقع فى العالم اليوم خير مصداق عملى لمـا أذكر . فالتنافس والنضال هما المظهـر الأوّل للنظام الاقتصادى، وهما لذلك أوّل مظهر لحضارة الغـرب . وهما كذلك فى المذهب الفردىّ وفى المذهب الاشتراكى على سـواء . فى المذهب الفردى ينافس العاملُ العاملَ، و ينافس ربُّ المـال ربَّ المـال، والعامل ورب المـال فيه خَصْمان يتنافسان . وأرباب هذا المذهب يرون فى هذا التنافس وهذا النضال كل خير للإنسانية ولتقدُّمها . فهما عندهم الحافز للإتقان والحافز لتقسيم العمل، وهما المعيار العادل لتوزيع الثروة . أمّا المذهب الاشتراكى فيرى فى نضال الطوائف نضالا يفنيها جميعا حتى يُرَدَّ الأمرُ كله للعمال بعضَ ما تحتِّمه الطبيعة . وما دام التنافس والنضال على المـال هما جوهر الحيـاة، وما دام النضال بين الطوائف طبيعيّا، فالنضال بين الأُمم طبيعى كذلك، وللغاية التى يقع من أجلها نضال الطوائف . من ثمّ كانت فكرة القوميات أثرا محتوما بحكم الطبيعة لهذا النظام الاقتصادى . أمّا ونضال الأمم فى سبيل المـال طبيعىّ، أمّا والاستعمار لذلك طبيعىّ أيضا، فكيف يمكن أن تمتنع الحرب و يستقرّ السلام فى العالم ؟ ! لقد شهدنا فى هـذا القرن المتم للعشرين المسيحى ومانزال نشهد البيِّنات على أن السلام فى عالَم هذا أساسُ حضارته حلم َلا سبيل إلى تحقيقه، وأمنية معسولة ولكنها سراب كذوب .

أساس الحضارة الاسلامية

تقوم الحضارة الإسلامية على أساس هو النقيض من أساس الحضارة الغربية . فهى تقـوم على أساس روحى يدعو الإنسان إلى حسن إدراك صلتـه بالوجود

سلطان الدولة على إنكار سلطان الكنيسة . وكان لهـذا التنـازع على السلطان أثره فى التفكير الغربى كله . وفى مقدّمة النتائج التى ترتبت على هذا الأثر ما كان من تفريق بين الشعور الإنسانى والعقل الإنسانى ، وبين منطق العقل المجرّد ومقرّرات العـلم الواقعى المستندة الى الملاحظة المـاديّة . وكان لانتصار التفكير المـادى أثره البالغ فى قيام النظام الاقتصادى أساسا رئيسيّا للحضارة الغربيـة . فقد نشأ من ذلك أن قامت فى الغرب مذاهب تريد أن تجعـل كل ما فى عالمَنا خاضعا لحياة هـذا العالم الاقتصادية ، كما أراد غير واحد أن يضع تاريخ الإنسانيـة فى أديانها وفنّها وفلسفتها وتفكيرها وعلمها بوحى ما كان من مدٍّ أو جزر اقتصادى فى أممها المختلفة . ولم يقف أمر هذا التفكير عنـد التاريخ وكتابته ؛ بل أقام بعض مذاهب الفلسفة الغربيـة قواعد الخُلق على أُسس نفعيـة مادية بحتة . ومع ما بلغته هـذه المذاهب من براعة فى التفكير وقوة فى الابتكار قد أمسكها التطوّر الفكرى فى الغرب فى حدود المنفعة المادية المشتركة ، تُقيم عليها قواعد الخُلق جميعا ، وترى ذلك من المقتضيات المحتومة للبحث العلمى . فأمّا المسألة الروحيـة فهى فى نظر الحضارة الغربيـة مسألة فردية صرفة ، فلا محلّ لأن يُعنَّى الناس أنفسَهم جماعةً بهـا . ومن ثم كانت الإباحة فى العقيـدة بعض ما قدّسه أهل الغرب ، وكانوا أشدّ تقديسا لهـا من تقديسهم الإباحة فى الخُلق ؛ وهم أشدّ تقديسا للإباحة فى الخُلق منهم لحرية الحياة الاقتصادية المقيدة بالقانون تقييدا ينفّذه الجندى وتنفّذه الدولة بكل ما أوتيت من قوة .

الأساس الاقتصـادى للحضارة الغربيـة

قصور الحضارة الغربية عن إسعاد الإنسانية

فى اعتقادى أن حضارة تجعل الحياةَ الاقتصادية أساسَها ، وتقيم قواعد الخُلق على أساس هـذه الحياة الاقتصادية ، ولا تقيم للعقيدة وزنًا فى الحياة العامة ، تقصُر عن أن تمهّد للإنسانية سبيل سعادتهـا المنشودة . بل إن هذا التصوير للحياة لجدير أن يجرّ على الإنسانيـة ما تعانيه من محن فى هذه العصور الأخيرة ، جديرٌ أن يجعل كل تفكير فى منع الحرب وفى توطيد أركان السـلام فى العالم قليلَ الجـدوى غير مرجوّ الثمرة . فمـا دامت صلتى بك أساسُها الرغيف الذى آكل أنا أو تأكل أنت وتَنَازُعُنا عليه ونضالُنا فى سبيله ، قائمةً بذلك على أساس القوّة الحيوانية فى كلٍّ منا ،

لمباحث أكثر استفاضة وعمقا . وإنما يجمل بى قبل ذلك أن أشير إلى أن تاريخ الإسلام خلا من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية، أى بين الدين والدولة، فأنجاه ذلك مما ترك هـذا النزاع فى تفكير الغرب وفى اتجاه تاريخه . وترجع نجاة الإسلام من هـذا النزاع وآثاره إلى أنه لم يعرف شيئا اسمه الكنيسة أو السلطة الدينية على نحو ما عرفت المسيحية . فليس لأحد من المسلمين، ولو كان خليفةً، أن يفرض أمرا على الناس باسم الدين، وأن يزعم أنه قدير مع ذلك على الغفران لمن خالف هـذا الأمر . وليس لأحد من المسلمين، ولو كان خليفة، أن يفرض على الناس غير ما فرضه الله فى كتابه . بل المسلمون أمام الله سواسية لا فضـل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى . ولا طاعة لولىّ الأمر على مسلم فى معصـية ولا فيما لم يأمر الله به . يقول أبو بكر الصدّيق حين خطب المسلمين يوم بايعـوه بالخلافة : "أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم".

لا نزاع فى الاسلام بين الدين والدولة

ومع ما آل اليـه الأمر فى الإسلام بعـد ذلك من ملك عَضُـود، ومع ما قام بين المسلمين من ثورات أهلية، لقد أقام المسلمون على تمسكهم بهذه الحرّية الذاتيـة العظيمة التى قرّرها لهم دينهم . هذه الحرّية التى جعلت العقل حكمًا فى كل شىء، والتى جعلته حكما فى الدين وفى الإيمان نفسه . لقد تمسكوا بهذه الحرّية حتى بعـد أن ادّعى أمراء المؤمنين أنهم خلفاء الله لا خلفاء رسـوله على الأرض، وأنهم يملكون من أمر المسلمين كل شىء حتى الحيـاة والموت . يشهد بذلك ما حدث فى عصر المأمون حين اختُلف على القرآن أمخـلوق هو أم غير مخـلوق؛ فقد خالف الكثيرون رأى الخليفة مع علمهم بما يستهدف له المخالف من عقاب وغضب .

الاسـلام يجعل العقل حكما فى كل شىء

جعل الإسـلام العقل حكما فى كل شىء، وجعله حكما فى الدين وفى الإيمـان نفسه . يقول تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كفروا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بما لا يسمَع إلَّا دُعَاءً ونِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهُـمْ لا يَعْقِلونَ ﴾[1] . ويفسّر الشيخ محمد عبده هذه الآية فيقول :

---

(١) سورة البقرة آية ١٧١

ومكانه منه قبل كل شيء . فاذا بلغ من هذا الإدراك حدّ الإيمان، دعاه إيمـانه إلى إدامة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده ، وإلى تغذية قلبـه وعقله بالمبادئ الساميـة : مبادئ الإباء والأنفة والأخوّة والمحبة والبرّ والتقوى . وعلى أساس هذه المبادئ ينظّم الإنسان حياته الاقتصادية . هذا التدرّج هو أساس الحضارة الإسلاميـة كما نزل بها الوحى على محمد . فهى حضارة روحية أوّلا . والنظام الروحى فيهـا هو أساس النظام التهـذيبي وأساس قواعد الخُلق . والمبادئ الخُلقيـة هى أسـاس النظام الاقتصادى ؛ فلا يجوز أن يضحَّى بشيء من مبـادئ الخلق فى سبيل التنظيم الاقتصـادى .

هذا التصوير الإسلامى للحضارة هو فى يقينى التصوير الجدير بالإنسانية الكفيل بسعادتها . ولو أنه استقرّ فى النفوس وانتظم الحياةَ انتظام الحضارة الغربيـة اليوم إياها لتبدّلت الإنسانية غير الإنسانية، ولانهارت مبادئ يؤمن الناس اليوم بهـا ، ولقامت مبادئ سامية تكفل معالجة أزمات العالم الحاضر على هدى نورها .

والناس اليوم فى الغرب والشرق يحاولون حلّ هـذه الأزمات دون أن يتنبّه أحد منهم ،ودون أن يتنبّه المسلمون أنفسهم، إلى أن الإسلام كفيل بحلّها . فأهل الغرب يتلمسون اليوم جِدّة روحيّة تُنقذهم من وثنيـة تورّطوا فيهـا وكانت سبب شـقائهم وعلّة ما ينشَب من الحروب بينهم ، تلك عبادة المـال . وأهـل الغرب يتلمسون هذه الجِدّة فى مذاهب الهند والشرق الأقصى على حين هى قريبة منهم ، يجـدونها مقرّرة فى القرآن، مصوّرة خير صـورة فيما ضربه النبيّ العربى للناس من مثل أثنـاء حياته .

لست أطمع فى أن أُصوّر هنا هـذه الحضارة الإسلاميـة ونظامها ؛ فهـذا التصوير يقتضى بحثا مستفيضا ويستغرق كتابا فى حجم هذا الكتاب أو أكبر منه . وإنما أريد أن أُجمل صورة هذه الحضارة بعد أن أشرت إلى الأساس الروحى الذى تقوم عليـه ، لعلّى بذلك أُصوّر الدعوة المحمدية فى مجموعها ، وأُمهّد بهـذا التصوير

الى التدبرُّ والتأمّل ليكون إيمانه عن عقل و بيّنة ، وتحذِّره الأخذَ بما وجد آباءه عليه من غير نظر فيه وتمحيص له وثقةٍ ذاتية بمبلغه من الحق .

هذا هو الإيمان الذى دعا الإسلام اليه . وهو ليس هذا الإيمان الذى يسمونه إيمان العجائز ؛ إنما هو إيمان المستنير المستيقن الذى نظر ونظر، ثم فكّر وفكّر، ثم وصل من النظر والتفكير الى اليقين بالله جلّت قدرته . وما أحسب رجلاً نظر بعقله وقلبه ثم لم يهتد الى الإيمان . وهو كلما أنعم نظره وأطال تأمُّله وتدبّره، وحاول الإحاطة بالزمان والمكان وما تشتمله وحدتهما التى لا نهاية لها من عوالم دائمة المَوْر ، شعر بنفسه ذرّةً من هذه العوالم تجرى كلها على سنن تمسكها، والى غاية عند بارئها علمها ، وتيقّن من ضعفه وقصور علمه اذا لم يستعن على إدراك هذا الوجود بقوّة فوق حسّه وفوق عقله تصل بينه و بين هذه العوالم جميعا وتجعله يشعر بمكانته منها . وتلك قوة الإيمان . قوة الايمان

فالإيمان إذًا شعور روحىّ يحسّ به الإنسان يملأ نفسه كلما اتصل بالكون وفنِي فى لا نهاية المكان والزمان، وامتثل الكائنات كلها فى نفسه فرآها تجرى كلها على سنن تمسكها ورآها كلها تسبِّح بحمد ربّها بارئها ومنشئها . أمّا أنه جلّ شأنه ماثل فيها متّصل بها ، أو هو مستقلّ بنفسه منفصل عنها فهو مضاربات جَدَليّة عقيمة تُضلّ ولا تهدى ، وتضرّ ولا تنفع . وهى بعدُ لا تزيدنا علما . ولقد طالما أجهد الكتّاب والفلاسفة أنفسَهم يحاول بعضهم حلّها ، ويحاول بعضهم معرفة جوهر الخالق جلّ شأنه ، فذهب جهدهم عبثا ، وأقرّ بعضهم بأنها فوق ما نُطيق إدراكه . ولئن قَصَر عقلنا دون هذا الإدراك ليكونن هذا القصور أدنى الى تثبيت إيماننا . فشعورنا اليقينى بوجوده جلّ شأنه وبإحاطته بكل شىء علما ، وبأنه الخالق المصوِّر اليه يرجع الأمر كله ، من شأنه أن يُقنعنا بأنا لن نستطيع أن ندرك كنهه على شدّة إيماننا به . واذا كنا حتى اليوم لا نُدرك ما الكهرباء وإن شهدت أعيننا آثارها ، ولا نعرف ما الأثير وإن حكمنا أنه ينقل على موجه الصوت والصورة ، وكانت تكفينا هذه الآثار لنؤمن بالكهرباء وبالأثير، الايمان بالله

«إن الآية صريحة فى أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وأن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن رُبِّى على التسليم بغير عقل، والعمل ولو صالحا بغير فقه، فهو غير مؤمن . فليس القصد من الإيمان أن يذلّل الإنسان للخير كما يذلّل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله، ويترك الشرّ لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرّته» .

وهذا الذى يقوله الشيخ محمد عبده تفسيرا لهذه الآية قد جاء به القرآن صريحا فى آيات كثيرة غيرها . فهو يدعو الناس الى النظر فى الكون ومعرفة أنبائه ليهديهم نظرهم الى وجود الله ووحدته جلّ شأنه . يقول تعالى : ﴿ إنّ فِى خَلْقِ السَمٰوَاتِ والأرضِ واختلافِ الليْلِ والنَّهارِ والفُلْكِ الَّتى تَجْرِى فى البحرِ بما يَنْفَعُ الناسَ وما أنزل اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماء فأَحْيَا بِهِ الأرضَ بعد مَوْتِها وبَثَّ فيها مِنْ كلِّ دابَّةٍ وتَصْرِيفِ الرِّياحِ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بين السماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلونَ ﴾(١) . ويقول تعالى : ﴿ وآيةٌ لَهُمُ الأرضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاها وأخرجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يأكلون . وجعلْنا فِيهَا جَنَّاتٍ من نَخِيلٍ وأعْنابٍ وفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيونِ . ليأكلوا من ثَمَرِهِ وما عَمِلَتْه أيْدِيهِمْ أفَلَا يَشْكُرُون . سبحانَ الذى خلقَ الأزواجَ كُلَّها ممّا تُنْبِتُ الأرضُ ومِنْ أنْفُسِهم ومما لا يعلَمون . وآيةٌ لهمُ اللَّيلُ نَسْلَخ منه النَّهارَ فاذا هم مُظلِمون . والشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لها ذَلكَ تَقْدِيرُ العزيزِ العليم . والقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتّى عاد كالعُرْجُونِ القديم . لا الشَّمْسُ ينبغِى لها أن تُدْرِكَ القمرَ ولا اللَّيلُ سَابِقُ النهارِ وكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون . وآيةٌ لهم أنّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهم فى الفُلْكِ المَشْحُونِ . وخَلَقنا لهم مِن مِثْلِه ما يركَبون . وإنْ نَشَأْ نُغرِقْهُمْ فلا صَرِيخَ لهم ولا هم يُنْقَذُون . إلَّا رحمةً مِنَّا ومتاعًا إلى حِينٍ ﴾(٢) . والدعوة الى النظر فى الكون لاستنباط سننه وللاهتداء الى الإيمان ببارئه يكرّرها القرآن مئات المرّات فى سوره المختلفة . وكلها موجّهة الى قُوَى الإنسان العاقلة تدعوه

(١) سورة البقرة آية ١٦٤ (٢) سورة يس من الآية ٣٣ الى ٤٤

النفس الراضية المطمئنة الى هذا الإيمان لا تستريح إلا فى الدأب لمعرفة أسرار الكون وسننه كيما تزداد اتّصالا بالله . وسبيلها الى هذه المعرفة البحث والنظر فى خلق الله مما فى الكون نظرًا علميا دعا القرآنُ اليه وجدّ المسلمون الأوّلون فيه ، وهو الطريقة العلمية الحديثة فى الغرب . على أن الغاية منه تختلف فى الإسلام عنها فى الحضارة الغربية ؛ فهى فى الإسلام ترمى الى أن يجعل الإنسان من سنّة الله فى الكون سنّته ونظامه ، على حين ترمى فى الغرب الى الاستفادة المادية مما فى الكون . وهى فى الإسلام ترمى أولا وقبل كل شىء الى حسن العرفان بالله عرفانًا كلما ازداد زادنا إيمانًا به جل شأنه . وهى ترمى الى حسن العرفان من جانب الجماعة كلها لا من جانب الفرد وحده . فالكمال الروحى ليس مسألة فردية صرفة ، فلا محلّ لأن يعنّى الناس أنفسهم جماعةً بها ، بل هو أساس الحضارة للجماعة الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها . وواجب لذلك على الإنسانية أن تدأب فى سبيل هذا الكمال الروحى أكثر من دأبها للوقوف على حقيقة المحسوسات ، وأن تجعل من معرفة أسرار الأشياء وسنن الكون وسيلتها الى هذا الكمال أكثر مما تجعل من هذه المعرفة وسيلة للسلطان المادىّ على الأشياء .

الاستعانة بالله للاهتداء الى سنة الكون

ليس يكفى لبلوغ هذه المرتبة من الكمال الروحى أن نستعين بمنطقنا وحده ، بل يجب أن نمهّد لقلوبنا وعقولنا سبيل الوصول الى أسمى ما نستطيع الوصول اليه من هذا المنطق . وانما يكون ذلك بالتماس العون من الله واتجاه الإنسان اليه تعالى بقلبه وروحه ، إيّاه يعبد ، وإياه يستعين ، للاهتداء الى أسرار الكون وسنن الحياة . وهذا هو الاتصال بالله شكرًا لله على نعمته ، ليزيدنا اهتداءً الى ما لم نهتد اليه . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١) . وقال جل شأنه : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ . الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٢) .

(١) سورة البقرة آية ١٨٦ (٢) سورة البقرة آيتا ٤٥ و ٤٦

فما أشدّنا غرورا ونحن نشهد كل يوم من بديع صنع الله اذا نحن لم نؤمن به حتى نعرف كنهه ، تنزّه جلّ شأنه عما يصفون . والواقع فى الحياة أن الذين يحاولون تصوير ذاته جل شأنه هم الذين يعجز إدراكهم عن السموّ الى تصوّر ما فوق حياتنا الإنسانية والذين يريدون أن يقيسوا الوجود وخالق الوجود بمقاييسنا النسبية المحصورة فى حدود علمنا القليل . أمّا الذين أوتوا العلم حقا فيذكرون قوله تعالى: ﴿ ويسألونك عنِ الرُّوحِ قُلِ الروحُ مِنْ أمرِ رَبِّى وما أُوتِيتم مِن العلم إلّا قليلا ﴾ . وتمتلئ قلوبهم إيمانا بخالق الروح وخالق الكون كله ثم لا يزجّون بأنفسهم فى مضاربات عقيمة لا ثمرة لها ولا نتيجة .

الايمان أس الاسلام

ويفرق القرآن بين الإسلام بعد الإيمان والإسلام دون إيمان . يقول تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعْرَابُ آمنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولٰكِنْ قُولُوا أسْلَمْنا ولَمّا يَدْخُلِ الإيمانُ فى قُلُوبِكُم ﴾[1] . فمثل هذا الإسلام إذعان لدعوة الداعى عن رغبة أو رهبة أو إعجاب وتقديس دون امتثال النفس هذه الدعوة وفهمها إياها الى حدّ الإيمان بها . فصاحبه لم يهده الله للإيمان عن طريق النظر فى الكون ومعرفة سننه والاهتداء من هذا النظر وهذه المعرفة الى خالقه ، وانما أسلم لرغبة أو هوى أو لأنه وجد آباءه مسلمين . وهولذلك لم يدخل الإيمان فى قلبه على رغم إسلامه . مِنْ أمثال هذا المسلم مَنْ يُخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضا . وهؤلاء الذين يُسلمون دون إيمان ، و إنما يسلمون عن رغبة أو رهبة أوهوى ، تظل نفوسهم ضعيفة وعقائدهم مزعزعة وقلوبهم مستعدّة للإذعان للناس والخضوع لأمرهم . فأمّا الذين تصل عقولهم وقلوبهم الى أن تؤمن بالله من طريق النظر فى الكون إيمانًا صادقا يدعوهم الى أن يُسلموا لله وحده أمرهم فأولئك لا يعرفون لغير الله خضوعا ولا إذعانا . وهم لا يمنّون على أحد إسلامهم ﴿ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هَدَاكم للإيمان إنْ كُنتم صَادِقين ﴾[2] . فمن أسلم وجهه لله وهو مؤمن فأولئك لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، وأولئك لا يخافون فى الحياة فقرا ولا مذلّة ؛ لأن الإيمان غاية الغنى وغاية العزّة . والعزّة لله جميعا وللمؤمنين .

(١) سورة الحجرات آية ١٤ (٢) سورة الحجرات آية ١٧

التساوى أمام الله

أن نرى مبلغ تساوى الناس جميعا فى هذا الضعف الذى لا يشدّ من أزره أمام الله مال ولا جاه، وإنما يشدّ من أزره الإيمانُ الصادق والخضوعُ لله والبرُّ والتقوى .

شتّان ما بين هذه المساواة التامة الصحيحة أمام الله وبين ما كانت تتحدّث عنه الحضارة الغربية فى العصور الأخيرة من المساواة أمام القانون . ولقد بلغت هذه الحضارة الآن أن كادت تُنكر هذه المساواة أمام القانون، ولا توجب احترامه على طائفة من الناس . شتان ما بين هذه المساواة أمام الله، مساواةً تمسُّها حقيقة ملموسة فى ساعة الصلاة وتهتدى اليها برأيك الحرّ، وبين مساواة فى النضال لكسب المال نضالا يبيح الخديعة والنفاق ثم ينجو صاحبه من سلطان القانون ما مهر فى التحايل عليه وبرع فى حسن العبث به .

هذه المساواة أمام الله تدعو الى الإخاء الصادق لأنها تُشعر الناس جميعا بأنهم إخوة فى العبودية لخالقهم والعبودية له وحده . وهذا إخاء يقوم على تقدير سليم ونظر حرّ وتدبُّر فرضه القرآن . وهل حرية وإخاء ومساواة أعظم من وقوف هذا الجمع أمام الله تعنو له جميعا جباههم، إيّاه يكبِّرون وله يركعون ويسجدون، لا تفاوت فى ذلك بين أحدهم وأخيه، وكلهم مستغفر تائب مستعين، وليس بين أحدهم وبين الله إلا عمله الصالح وما قدم من برّ وتقوى . إخاء هذا شأنه يصفِّى القلوب ويطهِّرها من قَذَى المادة ويكفل للناس السعادة كما يؤدّى بهم الى إدراك سنة الله فى الكون ما هداهم الله بنوره الى هذا الهدى .

الصوم

الناس جميعا ليسوا سواء فى القدرة على ما أمر الله به من التقوى . فقد يُثقل جسمُنا روحَنا وتطغى ماديّتنا على إنسانيتنا إذا لم نُدم رياضة الروح ولم نتوجّه بقلوبنا لله أثناء صلواتنا واكتفينا بأوضاع الصلاة من ركوع وسجود وتلاوة، لذلك وجب جهدَ الطاقة أن نكفّ عما يجعل الجسم يُثقل الروح ويجعل المادية تطغى على الإنسانية . ولذلك فرض الإسلام الصوم وسيلةً لبلوغ مرتبة التقوى . قال تعالى : ﴿ يٰأيُّها الّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عليكم الصِّيَامُ كما كُتِبَ على الّذِينَ مِنْ قبلِكم لعلّكم

الصلاة

الصلاة هى هذا الاتصال بالله إيمانًا به والتماسا للعون منه . وليس القصد منها حركات الركوع والسجود ، وتلاوة ما يتلى من القرآن ، أو تلاوة التكبير والتعظيم لله جل شأنه ، دون أن تمتلئ النفس إيمانًا به والقلب تقديسا له والفؤاد سموًّا اليه ، وإنما القصد منها ومما فيها من تكبير وتلاوة وركوع وسجود الى هذا السموّ والتقديس والإيمان والى عبادته عبادة خالصة لوجهه نور السموات والأرض . يقول تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾(١) . فالمؤمن الصادق الإيمان هو من يتوجه بقلبه الى الله ساعة الصلاة يشهده على تقواه ويستعينه على أداء واجب الحياة ويستمدّ منه هدايته ويستلهمه توفيقه الى إدراك سرّ الكون وسنته ونظامه .

والمؤمن الصادق الإيمان بالله يشعر بنفسه أثناء صلاته ويشعر بها دائما شيئا ضئيلا أمام عظمة الله العليّ الكبير . إننا إذ نرتفع فى طائرة من الطائرات ألفا أو بضعة آلاف من الأمتار نرى الجبال والأنهار والمدن مظاهر صغيرة على هذه الأرض ، ونراها ترتسم أمام باصرتنا وكأنها خطوط مرسومة على خريطة من ورق ، وكأنها قد تساوى سطحها فلا ارتفاع لجبل ولا لبناء ولا انخفاض لبئر ولا لنهر ، ولا شيء أكثر من ألوان تتوالى وتتمازج وتزداد تمازجا كلما ازددنا نحن ارتفاعا . وأرضنا كلها ليست إلا كوكبا صغيرا فى عالم ألوف الأفلاك والكواكب ، وليست الا كمًّا ضئيلا جدًّا فى لا نهاية هذا الوجود . فما أصغرنا وما أضعفنا شأنًا أمام بارئ هذا الوجود ومدبّره جلّت عن أفهامنا عظمته ! . وما أجدرنا ، ونحن نتوجّه بقلوب خالصة الى جلال قُدسه الأسمى نلتمس منه العون لتقوية ضعفنا وهدايتنا الى الحق ،

(١) سورة البقرة آية ١٧٧

قد يبدو غريبا ما أقول من أنا نسترد بالصيام حرية الإرادة وحرية التفكير إذا قصدنا من الصيام إلى ما فيه من خير لحياتنا الروحية . وهو إنما يبدو غريبا لأن التفكير الحديث أفسد فى أذهاننا صورة الحرية حين هدم حدودها الروحية والنفسيّة ثم استبقى حدودها المادّية التى ينفّذها الجندى بسيف القانون . فالإنسان ليس حرًّا بحكم هذا التفكير الحديث فى أن يعتدى على مال غيره أو على شخصه ، ولكنه حرٌّ فى أمر نفسه وإن جاوز فى ذلك كل ما يقرّه العقل أو تُمليه قواعد الُخلق . والواقع فى الحياة غير هذا . الواقع أن الإنسان عبد العادة ؛ فهو معتاد أن يتناول طعامه فى الصباح وفى الظهيرة وفى المساء ؛ فإذا قيل له بل تناولْه فى الصباح وفى المساء فقط اعتبر هذا اعتداء على حريته ، فى حين هو اعتداء على عبوديته لعادته ، إن صح هذا التعبير . ومن الناس من اعتاد أن يُدَخِّن إلى حدّ استعباد التدخين إياه ؛ فاذا قيل له اقضِ نهارك كله لا تدخّن اعتبر هذا اعتداءً على حريته فى حين هو لا يزيد على أنه اعتداء على عبوديته لعادته . ومنهم من اعتاد تناول القهوة أو الشاى أو غيرهما من ألوان الشراب فى أوقات معيّنة له ؛ فاذا قيل له اعدل عن هذه الأوقات إلى غيرها عَدّ هذا الاعتداء على عبوديته لعادته اعتداء على حريّته . وهذه العبودية للعادة مفسدة للإرادة ، مفسدة للفكرة الصحيحة من الحرية فى صورتها الصادقة . وهى بعدُ مفسدة لسلامة التفكير ؛ لأنها تخضعه للتأثر بضرورات الجسم المادّية التى طبعتها العادة فيه . ولهذا يعكُف كثيرون على ألوان مختلفة من الصوم يزاولونها فى فترات من كل أسبوع أو من كل شهر . لكن الله أراد بالناس اليسر ، إذ كتب عليهم الصيام أياماً معدودات يكونون أثناءها جميعا سواء ، وإذ جعل لهم الفدية ، وإذ أعفى من كان منهم مريضا أو على سفر على أن يؤدّى هذا الصيام فى أيام أخر .

ولفرض الصيام أياما معدودات من توطيد معنى الإخاء والمساواة أمام الله ما له من رياضة روحية . فالناس إذ يُمسكون جميعا من مطلع الفجر الى الليل تتم بينهم المساواة كما تتم بينهم فى صلاة الجماعة ، ويشعرون خلال ذلك بإخائهم شعورا يُضعفه

تَتَّقُونَ ﴾[1]. والتقوى والبرّ سـواء . فالبرّ من اتّقى ، والبرّ مَنْ آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وقام بما ورد فى الآية التى أسلفنا .

وإذا كان القصـد من الصوم ألّا يُثقل الجسمُ الروحَ وألّا تطغى ماديّتنا على إنسانيتنا فالوقوف به عنـد الإمساك من الفجر الى الليـل ، والإمعان بعـد ذلك فى الاستمتاع باللّذّات تفويت لهذا القصد . فالإمعان فى الاستمتاع مفسدةٌ لذاته ومن غير صيام ، ما بالك به اذا صام المرء وأمسك طِيلة نهاره عن كل طعام وشراب ولذّة ، فاذا انقضى وقت الصيام أسلم نفسَه لما يحسبها حُرِمت منه أثناء النهار من نعمة . إنه إذًا ليشهد الله على أنه لم يصم تطهيرا لجسـمه وسموًّا بإنسانيته ، ولم يصم لذلك مختارًا إيمـانًا منه بفائدة الصوم فى حياته الروحية ، بل صام أداءً لفرض لا يدرك بعقله ضرورته ، ويرى فيه حرمانا له من حرية سرعان ما يسـتردها آخر النهار حتى ينهمك فى لذّاته استعاضة عمـا حُرِم منه . ومن يفعل ذلك فشأنه كشأن من لا يسرق لأن القانون يحرم عليـه السرقة ، لا لأنه يسمو بنفسـه عنها ويحرّمها على نفسه وعلى غيره مختارا .

الصوم ليس حرمانا

وفى الحق أن النظر إلى الصـيام على أنه حرمان وحدّ من حرية الإنسان نظر خاطئ يجعل الصيام عبثًا لا محل له . إنمـا الصيام طهور للنفس يوجبه العقل عن اختيار من الصائم كى يستردّ به حرية إرادته وحرّية تفكيره ، فاذا استردّهما استطاع السمو بهما الى عليا مراتب الإيمـان الحق بالله . وهـذا هو المقصود بقوله تعالى بعـد ذكره أن الصـيام كُتب على المؤمنين كما كتب على الذين من قبلهم : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِـدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِين يُطِيقونه فِـدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِين فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فهـو خيرٌ له وأن تَصُومُوا خيرٌ لكم إن كنتم تَعْلَمون ﴾[2] .

(١) سورة البقرة آية ١٨٣ (٢) سورة البقرة آية ١٨٤

وما ورد فى القرآن عن الزكاة وعن الصدقة مستفيض قوىّ غاية القوّة . وهو يضع الصدقة فى المكان الأول من فعل الخير الذى يجزى الإنسان عليه الجزاء الأوفى . بل هو يضعها الى جانب الايمان بالله حتى لتشعر بأنها تكاد تعدله . يقول تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثم الجحِيمَ صَلُّوهُ . ثم فى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِراعًا فاسْلُكُوهُ . إِنَّه كَانَ لا يُؤْمِن باللهِ العَظِيمِ . ولا يَحُضُّ على طَعامِ المِسكينِ ﴾ (١) . ويقول جلّ شأنه : ﴿ ... وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ والصَّابِرِينَ عَلَى ما أَصَابَهُمْ والمُقِيمِى الصَّلاةِ ومما رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ ﴾ (٢) . ويقول تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِين يُنْفِقُونَ أموالهم بِاللَّيلِ والنهارِ سِرًّا وعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣) .

أدب الصدقة

ولا يقف القرآن عند ذكر الصدقات ، ومثوبة صاحبها عند الله كمثوبة من آمن به وأقام الصلاة ؛ بل ينظّم أدب هذه الصدقات تنظيما هو السموّ كله . يقول تعالى : ﴿ إن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِى وإن تُخْفُوهَا وتُؤْتُوها الفُقَرَاءَ فهو خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (٤) . ويقول : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ومَغْفِرَةٌ خَيْرٌ من صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذًى واللهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ . يأيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تُبْطِلوا صَدَقَاتِكم بِالمَنِّ والأذى ﴾ (٥) . ويقول جلّ شأنه فى بيان من تكون لهم هذه الصدقات : ﴿ إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ والمَسَاكِينِ والعامِلِين عليهَا والمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم وفى الرِّقَابِ والغارِمِينَ وفى سَبِيلِ الله وابنِ السبيل فَرِيضَةً من اللهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ (٦) .

الزكاة عبادة

الزكاة والصدقة فريضة من فرائض الإسلام ، وركن من أركانه . ولكن أعبادةٌ هذا الفرض ، أم هو أدخل فى الأخلاق وتهذيبها ؟ هو عبادة لا ريب . فالمؤمنون إخوة ؛ ولا يتم إيمان المرء حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه . والمؤمنون يتحابّون

(١) سورة الحاقة الآيات ٣٠ الى ٣٤ — (٢) سورة الحج آيتا ٣٤ و ٣٥
(٣) سورة البقرة آية ٢٧٤ — (٤) سورة البقرة آية ٢٧١
(٥) سورة البقرة آيتا ٢٦٣ و ٢٦٤ — (٦) سورة التوبة آية ٦٠

تفاوتهم فى الاستمتاع بما رزق الله كلًّا منهم من أسباب الاستمتاع فى الحياة . ومن ثم كان الصيام موطِّدا لمعانى الحريّة والإخاء والمساواة فى نفس الإنسان مثلما توطِّدها الصلاة .

إذا أقبلنا على الصيام مختارين مدركين أن أمر الله لا يمكن أن يختلف عن حكم العقل ما أدرك العقل أغراض الحياة فى أسمى صورها ، قَدَرنا ما فى الصيام من تحريراًيّانا من رقّ العادة ، ومن رياضة لإرادتنا وحريتنا ، وذكرنا أن ما يفرضه الإنسان على نفسه بإذن الله من حدود روحية ونفسية لحريته بالتحرير من بعض عاداته وشهواته ، هو خير ما يكفل لتفكيره أن يبلغ مراتب الإيمان العليا . وإذا كان التقليد فى الإيمان ليس إيمانا بل هو إسلام من غير إيمان ، فالتقليد فى الصوم ليس صوما ، ولذلك يعتبره المقلِّد حرمانًا وحدًّا من حريته بدل أن يدرك ما فيه من تحرير من قيود العادة ومن غذاء نفسىّ وروحىّ عظيم .

الزكاة

إذا بلغ الانسان من طريق هذه الرياضة الروحية أن اهتدى الى سنن الكون وأسراره وأن عرف مكانه ومكان بنى الإنسان منه ازداد لإخوانه بنى الإنسان حبًّا ، وتحابّ بنو الانسان جميعا فى الله ، وتعاونوا على البرّ والتقوى ، ورحم قويهم ضعيفهم ونزل غنيّهم لفقيرهم عن حظ من ماله . وهذه هى الزكاة . والمزيد عليها هى الصدقة .

والقرآن يقرن الزكاة الى الصلاة فى كثير من المواضع . وقد تلوت قوله تعالى : ﴿ولٰكنَّ البِرَّ من آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والمَلائكةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّين وآتَى المَالَ على حُبِّه ذَوِى القُرْبَى واليتامَى والمساكينَ وابنَ السبيلِ وفى الرِّقَابِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزكاةَ﴾(١) . ويقول تعالى : ﴿وأقيموا الصَّلاةَ وآتُوا الزكاةَ وارْكَعُوا مع الرَّاكِعينَ﴾(٢) : ويقول جلّ شأنه : ﴿قَدْ أفْلَحَ المُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فى صَلاتِهِمْ خاشِعونَ . والذينَ هُمْ عن اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . والذينَ هُمْ للزَّكَاةِ فاعِلونَ﴾(٣) . والآيات التى تقرن الزكاة الى الصلاة كثيرة .

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ (٢) سورة البقرة آية ٤٣ (٣) سورة المؤمنون الآيات من ١ الى ٤

ولا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنيا وأحسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليكَ ولا تَبْغِ الفسادَ فى الأرضِ إنّ الله لا يُحبّ المُفْسِدِينَ (١) ﴾ .

الحج

هذا الإخاء الإنسانى يزيد الناس بعضهم لبعض محبة . وليس يجوز فى الإسلام أن تقف هذه المحبة عند حدود وطن بالذات ، ولا أن تنتهى إلى حدود قارّة من القارّات ، بل يجب ألا تعرف حدودا أبدا .

لذلك يجب أن يتعارف الناس من أطراف الأرض جميعا ليزداد بعضهم لبعض فى الله محبة ولتزيدهم محبتهم هذه بالله إيماناً . ووسيلة ذلك أن يجتمعوا من أطراف الارض فى صعيد واحد . وخير مكان يجتمعون فيه ، إنما هو المكان الذى انبثق منه نور هذه المحبة ، وهذا المكان هو بيت الله بمكة ، وهذا هو الحج . والمؤمنون إذ يجتمعون فيه وإذ يؤدُّون شعائره ، يجب أن تكون حياتهم أثناءه مثلا ساميا للإيمان بالله وإخلاص القصد فى التوجه اليه . يقول تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ معلوماتٌ فمن فَرَضَ فيهِنّ الحج فلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ فى الحجّ وما تفعلوا من خيرٍ يعلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فإنّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوَى واتَّقُونِ يا أُولِى الألبابِ (٢) ﴾ .

فى هذا الصعيد الذى يحج المؤمنون اليه ليتعارفوا ، وليرتبطوا بأقوى روابط الإخاء فيزيدهم إخاؤهم إيمانا ، يجب أن تسقط كل الفوارق وألا يكون بين هؤلاء المؤمنين جميعا تفاوت ما ، ويجب أن يشعروا بأنهم جميعا أمام الله سواسية ، وأن يتوجهوا اليه بقلوبهم مستجيبين لدعوته ، مؤمنين بوحدانيته ، شاكرين لنعمته . وأيّة نعمة أكبر من نعمة الإيمان به جلّ شأنه ، مصدر كل خير ونعمة ! . أمام نور هذا الإيمان تنقشع أوهام الحياة ويزول باطل غرورها من مال وبنين وجاه وسلطان . وبفضل نوره يصل الإنسان إلى إدراك ما فى الوجود من حق وخير وجمال . وما يجرى عليه الكون من سُنن الله الخالدة لا تحويل لها ولا تبديل . وهذا الاجتماع العام يحقق معانى الإخاء والمساواة بين المؤمنين جميعا فى أوسع صورها وأكثرها سمّوا وصفاء .

(١) سورة القصص آية ٧٧ (٢) سورة البقرة آية ١٩٧

بنور الله بينهم . وفريضة الزكاة والصدقة تتصل بهذا الإخاء ولا تتصل بالأخلاق وتهذيبها ولا بالمعاملات وتنظيمها . وما اتصل بالإخاء اتصل بالإيمان بالله . وكل ما اتصل بالإيمان بالله فهو عبادة . ولذلك كانت الزكاة ركنا من أركان الإسلام الخمسة . ومن أجل ذلك قام أبو بكر بعـد وفاة النبيّ يطالب المسـلمين بأدائها . فلمـا رأى بعضهم النكولَ عنها ، رأى خليفة محمد فى هذا النكول ضعفا فى إيمانهم ، وتفضيلا للمـال عليه ، وخروجا على النظام الروحى الذى نزل به القرآن ، وارتدادًا بذلك عن الإسلام ، فكانت حروب الرِّدّة التى ثَبّت بها أبو بكر رسالة الإسلام كاملة ، والتى بقيت فخرًا له على الأيّام .

المـال والحرص عليـه

واعتبار الزكاة والصدقة فرضا متصلا بالإيمـان ، يجعلهما بعض النظام الروحى الذى يجب أن ينتظم حضارة العالم . وهذا أسمى ما تبلغ اليه الحكمة وما يكفل للناس سعادتهم . فالمـال والحرص عليه ، والاستكثار منه ، واتخاذه وسيلة استعلاء الإنسان على الإنسان ، كان ولا يزال سببا لشقاء العالم ، ومصدرًا للثورات والحروب فيه . وعبادة المـال كانت ولا تزال سبب التدهور الخُلقىّ الذى أصاب العالم ، والذى لا يزال العالم يرزح تحت أعبـائه . والاستكثار من المـال والحرص عليه هو الذى قضى على الإخاء الإنسانى وأقام الناس بعضهم لبعض عدوٌّ . ولو أنهـم كانوا أصحّ نظرا وأسمى تفكيرا ، لرأوا الإخاء أدعى للسعادة من المـال ، ولرأوا بذل المـال للمحتاج أكبر جاها عنـد الله والناس من إذلال الناس لهذا المـال . ولو أنهم آمنوا بالله حقًّا لتآخوا فيما بينهم ولكان أدنى مظاهر تآخيهم إغاثة الملهوف ، وإعانة المحتاج ، ومحو الشقاء عمن تجتز المتربة ويجتز الفقر عليهم هذا الشقاء . وإذا كانت بعض الدول السامية الحضارة فى وقتنا الحاضر ، تقيم شعوبهـا المستشفيات والمنشآت الخـيرية لإيواء البائس ، والبِرّ بالمحروم ، ورعاية الفقير ، باسم الشفقة والإنسانية ، فإن إقامة هذه المنشآت بدافع الإخاء والتحابّ فى الله والشـكر له على نعمتـه أسمى فى الفكرة وأدعى إلى سـعادة الناس جميعا . قال تعـالى : ﴿ وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ

محسورًا . إنّ ربّك يبسُط الرّزق لمن يشاءُ ويقْـدِرُ إنّه كانَ بعِبادِه خبيرًا بصــيرًا . ولا تقْتُلوا أولادَكُم خشْيَةَ إملاقٍ نحنُ نرزُقُهم وإيّاكم إن قتْلَهم كان خِطْـئًا كبيرًا . ولا تقربُوا الزّنَا إنّه كانَ فاحشةً وساءَ سبيلًا . ولا تقتُلوا النّفسَ التى حرّم الله إلا بِالحَقّ ومن قُتِل مَظْلُومًا فقد جَعلْنَا لِوَلِيّه سُـلطانًا فلا يُسْرِفْ في القَتْلِ إنّه كان منصورًا . ولا تقربُوا مالَ اليتيمِ إلّا بالّتى هِىَ أحسَنُ حتى يبْلُغَ أَشُـدّهُ وأوفُوا بِالعَهْدِ إنّ العَهْدَ كان مسئولا . وأوفُوا الكَيْلَ إذا كِلْتم وزِنُوا بِالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيم ذلكَ خَيرٌ وأحْسَنُ تأوِيلا . ولا تقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّــمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ كُلُّ أُولئكَ كانَ عنه مَسْئولا . ولا تَمْشِ فِى الأرضِ مَرَحًا إنك لن تَخْرِقَ الأرضَ ولن تَبْلُغَ الجِبَـالَ طُولا . كُلُّ ذلِكَ كان سَيِّئُهُ عِند رَبِّكَ مكروها ﴾ (١) .

أيُّ سمو بالنفس كهذا السمو، وأيُّ كمالٍ لها كهذا الكمال، وأيّ طهر للذيل كهذا الطهر ! إن كل آية من هـذه الآيات لتقف قارئها أمامها مقدّسا لمـا جمعت بين القوة والروعة وسحر البيان وسمو المعنى والإعجاز فى التصوير. وليت المقام هنا يتسع لهذه الوقفات ! . ولكن كيف يتسع والحديث عما تنطوى عليه هذه الآيات الخمس عشرة جدير بأن يتناول مؤلفا ضخما ! .

القــرآن وأدب النفس

ولو شئنا أن نجىء بطرف ممـا فى القرآن فى أدب النفس، وتهذيب الأخلاق، لا نفسح المجال الى ما لا تنفسح له خاتمة الكتاب . وحسبُنا أن نذكر أنه ما حض كتاب على الخير والفضــل ما حضّ القرآن، وما سما كتاب بالنفس الإنسانية ما سما بها القرآن، وما تحدّث كتاب عن البر والرحمة، وعن الإخاء والمودة، وعن التعاون والوفاق، وعن الصدقة والإحسان، وعن الوفاء وأداء الأمانة ، وعن سلامة القلب وصدق الطّوِيّة ، وعن العـدل والمغفرة، وعن الصبر والثبات ، وعن التواضع والإذعان ، وعن الخير والمعروف ، وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بالقوة والإقناع والإعجاز فى الأداء ما تحدّث القرآن. وما نهى كتاب عن الضعف والجبن،

(١) الآيات من ٢٣ الى ٣٨

قواعد الخلق في الاسلام

هذه قواعد الإسلام وفرائضه كما نزل بها الوحى على محمد عليه السلام . وهى أركان الإيمان كما رأيت فى الآيات التى أثبتناها هنا، وأركان الحياة الروحية الإسلامية. ومن اليسير عليك أن تقدر بعد ذلك ما يمكن أن يقوم على هذا الأساس من قواعد الخُلق . هى قواعد سامية غاية السموّ، بلغت من ذلك ما لا نظير له فى أيّة حضارة من الحضارات ولا فى أى عصر من العصور . وقد نصَّ القرآن فيها على ما يصل بالإنسان الى غاية كماله اذا هو هذّب نفسه على موجبها وأدّبها بأدبها . وهى لم ترد فى سورة واحدة من القرآن، بل وردت متفرّقة فيه، فلا تكاد تتلو سورة منه حتى تسمو بنفسك إلى ذروة من الرقى لم تبلغها حضارة من قبل، ولا يمكن أن تبلغها حضارة من بعد . وحَسْبُك قيام أدب النفس على أساس روحى مصدره الإيمان بالله ورياضة العقل والقلب على هذا الأساس، دون النظر الى أية منفعة مادّية يجنيها الإنسان من وراء التأدُّب بهذا الأدب، لترى رفعة هذه الذروة التى بلغتها .

الرجل الكامل فى القرآن

لقد طالما صوّر الكُتّاب فى مختلف العصور والأمم صورة الرجل الكامل . صوّره الشعراء والكُتّاب والفلاسفة والمسرحيّون، . صوّروا هذه الصورة فى العصور القديمة وما يزالون يصوّرونها حتى اليوم . مع ذلك لن تجد صورة لهذا الرجل الكامل كهذه الصورة الفذّة التى وردت فى سياق سورة الإسراء؛ وهى ليست إلا بعض ما أوحى الله إلى رسوله من الحكمة، لا يقصد بها إلى تصوير الرجل الكامل، وإنما يقصد بها أن يذكر الناس بعض ما يجب عليهم . يقول تعالى : ﴿ وقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وبالوالِدَيْنِ إحساناً . إمّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهما أَوْ كِلَاهُما فلا تَقُلْ لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا وقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كريماً . واخفِضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغيراً . رَبُّكُم أعلَمُ بما فى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فإنَّه كَانَ لِلأوّابِينَ غَفُورًا . وآتِ ذا القُرْبَى حَقَّهُ والمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ ولا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إنَّ المُبَذِّرِينَ كانوا إخوانَ الشَّيَاطِينِ وكان الشيطانُ لِرَبِّه كفورا . وإمَّا تُعْرِضَنَّ عنهم ابتغاءَ رَحْمَةٍ مِن رَبِّكَ تَرْجُوها فقلْ لهم قولاً مَيسورًا . ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

عباده الكذب، ولا يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ما غضبوا هم يستغفرون، يكظمون غيظهم ويعفون عن الناس، يجتنبون كثيرا من الظن ولا يتجسسون ولا يغتاب بعضهم بعضا، لا يأكلون أموالهم بينهم بالباطل ولا يُدلون بها الى الحكام ليأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم، تتنزه نفوسهم عن الحسد وعن الخديعة وعن لغو القول وعن كل منقصة .

وهذه الصفات والأخلاق التى يقوم عليها أدب النفس، ويهذّب الخُلق على مقتضاها، إنما تستند كما قدّمنا إلى النظام الروحى الذى نزل به القرآن والذى يتصل بالإيمان بالله . وهذا هو الأمر الجوهرىّ فيها . وهذا هو مايكفل تمكن هذا النظام الخُلق من النفس وبقاءه مطهّرا من كل دنس، بعيدا عن أن تتسرّب اليه أسباب تفسده . فالأخلاق التى تقوم على أساس من المنفعة وتبادلها يُسرع اليها الضعف ما اطمأنت الى أن هذا الضعف لا يجرّ على منافعها أذى . وهذه الأخلاق القائمة على تبادل المنفعة يغلب فى صاحبها أن يكون باطنُه غيرَ ظاهره، ومكنونُ أمره غير ما يبدو للناس به . فهو يصطنع الأمانة وليس ما يمنعه أن يتخذها ذريعة لتصيُّد المنافع . وهو يتظاهر بالصدق، ولا يصدّه عن مجافاته شيء ما كان فى مجافاته جلب منفعة له . أخلاقٌ ذلك ميزانها ما أسرع ما يضعف صاحبها أمام المُغريات، وما أسرع ما يجرى وراء الأهواء والغايات ! .

النظام الخلق والمنفعة

وهذا الضعف هو الظاهرة البادية للعيان فى عالَمنا الحاضر . فما أكثر ما يسمع الناس بفضائح تقع فى بلد أو فى آخر من بلاد العالم المتحضّر سببُها الحرص على المال وعلى السلطان أكثر من الحرص على الخُلق الكريم وعلى الإيمان الصادق . وكثيرون من هؤلاء الذين ينحدرون إلى مهاوى هذه المآسى الخُلقية، والذين يرتكبون أتعس الجرائم، تراهم أول أمرهم على خُلق كريم . لكن المنفعة كانت أساس هذا الخُلق . كانوا يرون النجاح فى الحياة رهنًا بالاستقامة، فاستقاموا لينجحوا لا لأن الاستقامة متصلة بعقيدتهم فهم يقفون عند حدودها ولو جنت عليهم . فلما رأوا

وعن الاستئثار والحسد، وعن البغض والظلم، وعن الكذب والنميمة، وعن التبذير والبخل، وعن البهتان واللمز، وعن الاعتداء والإفساد، وعن الغدر والخيانة، وعن كلّ رذيلة ومنكر، ما نهى القرآن وبالقوة والإقناع والإعجاز التى نزل بها الوحى على النبيّ العربىّ. وما من سورة تتلوها إلا وجدت فيها من الدعوة الى الخير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والتوجه الى الكمال، ما تسمو به نفسك غاية السمو. اسمع الى قوله تعالى فى التسامح: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (١). ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢). لكن هذا التسامح الذى يدعو القرآن اليه لا يدفع اليه ضعف، وإنما يدفع اليه سموّ فى الخُلق وحرصٌ على استباق الخيرات وترفُّع عن الدنايا. يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (٣). ويقول: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (٤). وهذا صريح فى أن الدعوة الى التسامح دعوة الى الفضل لا شىء من الضعف فيها وإنما هى السموّ النفسانى الذى لا تشوبه شائبة.

هذا التسامح الذى يدعو القرآن اليه عن فضل، إنما أساسه الإخاء الذى جعله الإسلام دعامة حضارته، والذى أراد به أن يكون إخاءً بين الناس كافّةً فى مشارق الأرض ومغاربها. والإخاء الإسلامىّ يتضافر فيه العدل والرحمة من غير ضعف ولا استكانة. وهو إخاء تساوٍ فى الحق والخير والفضل غير متأثّر بالعاجلة من المنافع. بل يُؤْثِر الآخذون به على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. والآخذون به يخشون الله ولا يخشون غيره. وهم لذلك الإباء والأنفة. وهم مع ذلك التواضع الجمّ. وهم الصادقون المُوفون بعهودهم إذا عاهدوا، الصابرون فى البأساء والضرّاء وحين البأس، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنّا اليه راجعون، لا يصعّر أحدُهم خده ولا يمشى فى الأرض مرحا، وقّاهم الله شُحّ أنفسهم، لا يقولون على الله ولا على

(١) سورة المؤمنون آية ٩٦ (٢) سورة فصلت آية ٣٤ (٣) سورة النساء آية ٨٦
(٤) سورة النحل آية ١٢٦

فى التقشف من انصراف عن التفكير فى الكون، وزهد فى العلم بما فيه. وهو لا يرضى أن يسلم الإنسان نفسه للاستمتاع حتى لا يُغرقها فى لجة الترف وينسيها كل ما سواه. بل هو يجعل الناس أُمّةً وَسَطًا ويوجّههم وجهة الفضيلة الخالصة ووجهة المعرفة للكون وكل ما فيه. والقرآن يتحدّث عما فى الكون من خلق الله حديثا يوجهنا الى غاية ما نستطيع معرفته من أمره. فهو يتحدّث عن الأهلّة، وعن الشمس والقمر، وعن الليل والنهار، وعن الأرض وما خلق فيها، والسماء وزينة كواكبها، وعن البحر يُزْجِى الله الفلك فيه لنبتغى من فضله، وعن الأنعام التى نركبها وزينة، وعن كل ما فى الكون من علم وفن. يتحدّث القرآن عن هذا كله، ويدعو الى النظر فيه والى دراسته، والى الاستمتاع بآثاره وثمراته شكرا لله على نعمته. أمّا وقد أدّب القرآن الناس بأدبه ودعاهم الى السعى والى الدأب لمعرفة كل ما فى الكون، فما أجدرهم أن يصلوا من نظرهم من طريق العقل الى غاية ما يستطيع العقل إدراكه؛ وما أجدرهم أن يقيموا نظامه الاقتصادى على أساس فاضل.

القرآن والعلم

النظام الاقتصادى

النظام الاقتصادى الذى يقوم على ما قدّمنا من أُسس خُلقية وروحية، جدير بأن يصل بالناس الى السعادة، وبأن يمحو من الأرض الشقاء. فهذه المبادئ السامية التى يحرص القرآن على أن تحلّ من النفس محل العقيدة والإيمان تأبى على صاحبها أن يرى فى الأرض شقاء أو نقصا يستطيع إزالته ثم لا يزيله. وأوّل ما ينكره مَنْ تأدّب بهذا الأدب الربا أساس الحياة الاقتصادية الحاضرة، ومصدر شقاء الناس جميعا. ولذلك حرّمه الإسلام تحريما قاطعا. يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطه الشيطانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾[1]. ويقول: ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وما آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾[2].

تحريم الربا

تحريم الربا قاعدة أساسية للحضارة التى تكفل للعالم سعادته. فالربا فى أقلّ صوره ضرراً إنما هو اشتراك رجل لا يعمل فى ثمرات عمل غيره لغير سبب إلا أنه أقرضه

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥ (٢) سورة الروم آية ٣٩

الاستهانة بالاستقامة بعض أسباب النجاح فى حضارة هذا العصر استهانوا بها . ومنهم من يظل أمره مستورا عن الناس، فلا تناله الفضيحة ويظل مرموقا بعين الإكبار، ومنهم من ينكشف أمره فيفتضح وتصل به الفضيحة إلى الانتحار أحيانا .

بناء النظام الخُلقىّ على المنفعة يعرِّضه إذًا لهذا البلاء ما بين حين وحين . أما بناؤها على هدى النظام الروحىّ على نحو ما نزل به القرآن، فهو الكفيل ببقائه متينا لا يتسرّب اليه وهن . فالنية التى يصدر العمل عنها هى قِوام هذا العمل والمقياس الذى يجب أن يقاس به . والرجل الذى يشترى ورقة نصيب لبناء مستشفى من المستشفيات لا يشتريها بنيّة فعل الخير وبقصد الإحسان، بل يشتريها طمعا فى الربح . والرجل الذى يعطى لأن سائلا ألحف عليه فى المسألة فأراد التخلُّص منه، ليس كمن يعطى من تلقاء نفسه أولئك الذين لا يسألون الناس إلحافا يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفُّف . والرجل الذى يقول الحق للقاضى مخافة عقاب القانون لشاهد الزور، ليس كمن يقول الحق لأنه يؤمن بفضيلة الصدق . ولن تكون الأخلاق التى تقوم على أساس المنفعة وتبادلها، فى متانة الأخلاق التى يؤمن صاحبها بأنها متصلة بكرامته الإنسانية، متصلة بإيمانه بالله، قائمة فى نفسه على الأساس الروحى الذى يقوم عليه الإيمان بالله .

حكمة تحريم الخمر والميسر

وقد حرَص القرآن على أن يظلّ حكم العقل سليما لا يتسرّب إليه ما يؤثر فى حسن تصوُّره الإيمان والخلق . لذلك اعتبر الخمر والميسر رجسا من عمل الشيطان؛ ولئن كان فيهما منافع للناس لإثمهما أكبر من نفعهما، ومن ثم وجب اجتنابهما . فالميسر يصرف ذهن المقامر عما سواه، ويستنفد من وقته ويُغريه بما يلهيه عن موجب الخلق الفاضل . والخمر تذهب العقل والمال على حدّ تعبير عمر بن الخطاب حين أراد أن يبيِّن اللهُ فيها . وطبيعىٌّ أن يضلّ حكم العقل إذا ذهب أو تغيّر وأن يهوِّن ضلالُه على صاحبه مؤاتاة الدنيَّة بدل أن يسمو عن أن يمرّ به طيف الفاحشة .

هذا النظام الخُلقىّ الذى نزل به القرآن للمدينة الفاضلة، لا يدعو الى حرمان النفس مما خلق الله من أنعم، حتى لا يؤدِّى بها الحرمان الى ما يؤدى اليه الإمعان

أكبر الاثم

ثم كان من أثر ذلك أن تقوم الشحناء بين الناس مقام الإخاء ، وأن تحلّ البغضاء بينهم محلّ المحبة ؛ وذلك مصدر الشقاء ومبعث ما تعانيه الإنسانية فى عصرنا الحاضر من أزمات .

صور أخرى للربا

وإذا كان ذلك شأن الربا فى أقل صوره ضررا ، وكانت هذه بعض النتائج التى تترتب عليه ، فكيف به فى صوره الأخرى حين يكون المقرض أدنى الى الوحش المفترس منه الى الإنسان ، أو حين يكون المقترض فى حاجة الى المال لسبب غير التثمير ! . فقد يكون فى حاجة الى المال لإقامة أوده ولانفاقه فى قوته وفى قوت عياله . حينذاك يكون إنظاره الى ميسرة حتى يتهيأ له عمل يطمئن به الى العيش ويستطيع أن يردّ منه ديونه ، بعض ما توجبه الإنسانية فى أولى مراتبها ، وذلك ما يفرضه القرآن الكريم . أليس الإقراض بالربا فى مثل هذه الأحوال عملا وحشيا ، وجريمة كجريمة القتل سواء ! . وأشنع من هذه الجريمة التحايل من طريق الربا على سلب ثروات الضعفاء الذين لا يحسنون القيام على أموالهم . هذا التحايل لا يقل إثما عن السرقة الدنيئة ، ويجب أن يعاقب من يقدم عليه عقاب السارق أو أشدّ منه .

الربا والاستعمار

والربا هو بعض ما جرّ على العالم مصائب الاستعمار وما أدّى الاستعمار اليه من شقاء . فالاستعمار يبدأ أكثر أمره بطائفة من المرابين أفرادا أو شركات ينزلون بلدا من البلاد يُقرضون أهله أموالهم ، ثم يتغلغلون حتى يصلوا الى وضع أيديهم على منابع الثروة فيه . فاذا أفاق أهله ، وأرادوا الذود عن أنفسهم وأموالهم ، استعدى هؤلاء الأجانب عليهم دولهم ، فدخلت باسم حماية رعاياها ، ثم تغلغلت هى كذلك ، ثم وضعت يدها مستعمرة وفرضت إرادتها حاكمة ، وحرمت الناس حريتهم ، واستولت على الكثير مما رزقهم الله فى بلادهم . بذلك تضيع سعادتهم ويخيّم الشقاء على ربوعهم ، ويمد البؤس يده الى قلوبهم ، ويرين الضلال على عقولهم ، فتضعف أخلاقهم ، ويتضعضع إيمانهم ، وينزلون عن مرتبة الإنسانية الصحيحة الى مكان من الضعة لا يرضاه لنفسه من يؤمن بالله وبأن الله وحده هو الذى تجب له العبادة .

مالا ، بحجة أنه أعان غيره بما أقرضه على إدراك هـذه الثمرات ، وأنه لو لم يفعل لما استطاع هـذا الغير أن يعمل وأن يجنى هـذه الثمرات . ولو أن هذه الصورة كانت وحدها صورة الربا لما كانت مع ذلك مسوّغا له . فلو أن الذى يُقرض المال كان قديرا على أن يُثَمِّره بنفسه لما أقرضه غيره . ولو أنه أبقاه عنده لبقى معطلا لا يؤتى ثمرة ، ولأكله صاحبه شيئا فشيئا . فإذا أراد الاستعانة بغيره فى تثمير ماله مقابل الحصول على حظ من ثمرته لما كانت وسيلة ذلك أن تُفرض لرأس المال فائدة معينة ، وإنما تكون وسيلته أن يشارك صاحب المال من يُثَمِّر هذا المال فى مقابل حصته من الثمرة . فإن ربح المثمِّر كان لرب المال من ذلك الربح نصيبه ، وإن خسر كان عليه من الخسارة نصيبه . فأمّا أن تُفرض لرأس المال فائدة ولو لم يفد من ثمّره شيئا فذلك هو الاستغلال غير المشروع .

الربا فى أقل صوره ضررا

ولا يعترض بأن المال عرض كغيره يؤجر كما تؤجَّر الأرض ، أو كما تؤجر الدابة ، وأن فائدة النقد تقابل إيجار غيره من العروض . فبين المال الذى يصلح للإنفاق كما يصلح للتثمير والذى ينتفع به فى الخير وتجلب به أسباب الإثم ، وبين غيره من الأموال الثابتة والمنقولة فرق كبير . فالإنسان لا يستأجر أرضا أو بيتا أو دابّة أو أيّا من العروض إلا لينتفع به فيما يصلح له ما لم يكن سفيها أو معتوها لا تلزمه تصرّفاته . فأمّا رءوس الأموال فأكثر ما تقترض فى خير الوجوه للتجارة . والتجارة عرضة أبدا للكسب والخسارة . أما إجارة العقار أو المنقول لاستغلاله فقلَّ أن تتعرّض للخسارة إلا فى أحوال شاذّة لا يوضع التشريع العادىّ لها . فاذا حدثت هـذه الأحوال الشاذّة تدخّل المشرع بين الملّاك والمستأجرين ، على نحو ما حدث فى بلاد العالم كله غير مرة ، لرفع الحيف عن المستأجر ، وإنقاذه من أن يأكل المالك ثمرة عمله . فأمّا تحديد فائدة النقد بسبعة أو تسعة فى المائة أو بأكثر من ذلك أو أقل فلا يغيّر من أن المقترض معرَّض لخسارة رأس المال نفسه فضلا عن تعرضه لخسارة عمله . فاذا طولب مع ذلك بالفائدة كان هـذا هو الإثم

قاعدة اشتراكية مقررة

على أن الاتفاق منعقد بينهم على قاعدة اشتراكية مقرّرة اليوم فى أوربا تقضى بأنه يجب على كل إنسان أن يبذل للجماعة كل كفاياته، ويجب على الجماعة أن تبذل لكل فرد منها ما يسد حاجاته . فلكل مسلم حقٌّ فى أن ينال من بيت مال المسلمين ما يكفل حاجاته وحاجات من يعول ما دام لا يجد عملا يرتزق منه، أو ما دام العمل الذى يزاوله غير كاف لرزقه ورزق عياله . وما دامت قواعد الخُلق التى قرّر القرآن هى ما قدّمنا فلن يكذِب أحد، ولن يزعم أحد أنه متعطّل على حين هو فى الحقيقة لا يريد أن يعمل، ولن يزعم أحد أنه لا يجد من عمله ما يكفيه على حين يدرّ عليه الكفاية . وقد كان أمراء المؤمنين فى الصدر الأول يفرضون على أنفسهم أن يتفقّدوا أمور المؤمنين ليبذلوا للمحتاج منهم حقه وليدفعوا عنه عادية الحاجة .

الاشتراكية قوامها الإخاء

ومن ثم نرى أن الاشتراكية فى الإسلام ليست اشتراكية المال وتوزيعه، وإنما هى اشتراكية عامة أساسها الإخاء فى الحياة الروحية وفى الحياة الخلقية وفى الحياة الاقتصادية . وإذا كان المرء لا يكمل إيمانه حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه، فالمرء لا يكمل إيمانه إذا لم يحضّ على طعام المسكين ولم ينفق للخير العام مما رزقه الله سرًّا وعلانية . وكلما ازداد المرء إيثارا على نفسه كان أقرب الى الله وأدنى الى رضاه، وكانت نفسه أكثر طمأنينة وقلبه أشد غبطة . وإذا كان الله قد جعل الناس بعضهم فوق بعض درجات، وكان يبسط الرزق لمن يشاء ويقدِر، فإن الناس لا صلاح لهم إلا اذا وقّر صغيرهم كبيرهم، ورحم كبيرهم صغيرهم، وأعطى غنيّهم فقيرهم، ابتغاء وجه الله وشكرا لله وتحدُّثا بنعمته .

ما أحسبنا فى حاجة الى ذكر ما جاء فى القرآن من تفاصيل النظام الاقتصادى فى المواريث والوصية والعقود والتجارة وما اليها . فمحاولة الإشارة أوجز الإشارة الى ما جاء فيه من هذه الشؤون الفقهية ومن الشؤون الاجتماعية يقتضى عدة فصول كهذا الفصل . وحسبُنا أن نذكر أن ما ورد فيه من ذلك لم يرد الى اليوم ما هو خير منه فى أية شريعة من الشرائع . بل إن الإنسان لتأخذ منه الدهشة كل مأخذ حين يجد

والاستعمار مصدر الحروب، ومصدر الشقاء الذى ينيخ بكلكله على الإنسانية كلها فى هــذا العصر الحاضر . وما دام الربا، وما دام الاستعمار، فلا أمل فى العود الى عهد إخاء ومحبة بين الناس ؛ ولا أمل فى العود الى مثل هذا العهد إلا أن تقوم الحضارة على الأساس الذى جاء به الاسلام ونزل به الوحى فى القرآن .

الاشـتراكية الاسلامية

وفى القرآن اشــتراكية لم تُبحث بعدُ . وهى اشتراكية لا تقوم على أساس من حرب رأس المــال ونضال الطوائف ،شأن الاشتراكية اليوم فى الحضارة الغربية، وإنمــا تقوم على أساس خُلق سام يكفل إخاء الطوائف وتكافلهــا وتعاونها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . ومن اليسير أن يرى الإنسان قيام هذه الاشتراكية على الإخاء فيما فرضه القرآن من زكاة ومن صدقة ، وأن يقدر أنها ليست اشتراكية تسود فيها طائفةٌ طائفةً أو تتحكم بها جماعة فى جماعة . فالحضارة التى صوّر القرآنُ لاتعرف سيادة ولا تحكما، بل أساسها الإخاء الصادق عن إيمان ثابت بهذا الإخاء؛ إيمان يجعــل من التحدُّث بنعمة الله إعطاء الفقير والبائس والمحروم ما يحتاجون اليه من غذاء وكساء ومأوى ودواء وتعليم وتهــذيب، وإعطاءهم ذلك من غير منٍّ ولا أذى . بذلك يزول الشقاء ويتم الله نعمته على الناس وتسودهم السعادة .

لا تلغى التمــلك أطلاقا

والاشتراكية الإســلامية لا تقتضى إلغاء التملك إطلاقا كما تقتضيه الاشــتراكية الغربية . وقد أثبت الواقع فى روسيا البلشفية وفى كل بلاد سادتها الاشتراكية، أن إلغاء التملك إطلاقا أمر غير ممكن . لكن المرافق العامّة يجب أن تكون ملكا عامًّا مشاعا بين الناس جميعا . وتحديد المرافق العامة متروك أمره للدولة . ولذلك وقع الخلاف على هذا التحديد منذ الصدر الأول للإسلام . فكان من بين أصحاب النبى غُلاةٌ فى الاشتراكية يجعلون كل ما خلق الله ملكا مشاعا ومَرْفقًا عامًّا ولذلك يجعلون شأن الأرض وماتحتويه شأن المــاء والهواء لايجوز تملُّك شيء منه . وإنما يقع التملك على الثمرات ينال منها كلٌّ على قدر سعيه ومجهوده . وكان منهم من لا يرون هذا الرأى ويقولون بجواز تملُّك الأرض ويعتبرونها من العروض التى يقع عليها التبادل .

واتبع خلفاؤه الأولون أسوته الحسنة وساروا بهـذا النظام الى حيث يجب أن يبلغ كماله . لكن الدسائس والأهواء ما لبثت بعد ذلك أن طغت شيئا فشيئا على أسسه الصحيحة من طريق الإسرائيليات تارة، ومن طريق الشعوبية أخرى. وكان من أثر ذلك أن عاد الناس شيئا فشيئا الى تغليب المـادة على الروح، والحيوانيـة على الإنسانية، والى الوقوف فى دائرة الحدود التى تقف المدنيـة الحاضرة فيها اليوم، والتى تجرّ على الإنسانية شرّ أهوال الشقاء .

أسـوة محمد

كان محمد خير أسـوة فى تطبيق الحضارة كما صوّرها القـرآن . وقد رأيتَ من ذلك خلال هـذا الكتاب كيف كان إخاؤه لبنى الإنسان جميعا إخاء تاما صادقا . كان إخوانه بمكة متساوين وإياه فى احتمال البأساء والضرّاء، وكان هو أشدّ منهم للبأساء والضراء احتمالا . فلما هاجر الى المدينـة آخى بين المهـاجرين والأنصار فيها إخاء جعل له حكم إخاء الدم . وكان إخاء المؤمنين عامّة إخاء محبّة لإصلاح دعامة الحضارة الناشئة فى ذلك العهد؛ وكان يقوى هذا الإخاء إيمـان صادق بالله بلغ من قوته أن كان محمد يسمو به الى الاتصـال بالله جلّ شأنه . وموقفـه فى غزوة بدر حين ناشـد ربه النصرَ الذى وعده إيّاه وجعـل يستنجزه هـذا النصر ويذكر له أن فئة بدر إن هزمت لم يُعْبَد، مظهر قوىٌّ من مظاهر هذا الاتصال. ومواقفـه فى غير بدر من المواطن تدلّ على أنه كان دائم الاتصال بالله فى غير الساعات التى ينزل فيهـا عليه الوحى . وكان اتصاله هـذا من طريق إيمـانه الصادق إيمـانًا جعله يستهين بالموت ويُقبـل عليه ويتمّناه . فكل صادق فى إيمـانه لايهاب المـوت بل يتمّناه . فلكل أجلٍ كتاب . والناس أينما يكونوا يدركهم الموت ولو كانوا فى بروج مشيَّدة . وهذا الإيمـان هو الذى جعل محمدا يثبُت حين فرّ المسلمون منهزمين عند مابدأت غزاة حُنَيْن ويدعو الناس اليه غير آبه للموت المحيط به وبالعدد القليل الذى ثبتوا معه . وهذا الإيمان هو الذى جعله يعطى عطاء من لا يخشى فاقةً، ويبرّ اليتيم وابن السبيل وكل بائس وكل محروم، ويسمو الى ذروة ما دعا اليـه كتاب الله من فضائل . ذلك كله، واحتذاء المسلمين مثاله فى الصدر الأول، جعل الإسلامَ يُسرع

بعض تفاصيل، كالكتابة فى الدين الى أجل مسمى إلا أن تكون تجارة، وكإرسال الحكمين اذا وقع شقاق بين الزوجين خيفة الفرقة، وكالقيام بالإصلاح بين طائفتين اقتتلوا ومقاتلة الطائفة التى تبغى ولا ترضى الصلح حتى تفىء الى أمر الله، : تأخذ الإنسان الدهشة إذ يرى هذه الأمور و يوازن بينها و بين ماورد فى الشرائع المختلفة فإذا أحسن التشريع ما وافق هذه القواعد التى وضعها القرآن . فلا عجب إذًا — وما ذكرنا عن الربا وعن الاشتراكية الإسلامية هو أساس النظام الاقتصادى المصوّر فى القرآن، وهذه التفاصيل التشريعية هى خير ما وصل التشريع اليه فى مختلف العصور — أن تكون الحضارة الإسلامية هى الحضارة الجديرة بالإنسانية الكفيلة حقًّا بإسعادها.

ما ربما يعترض به الغرب

ربما ذهب بعض كتّاب الغرب بعد اطلاعهم على ما قدّمنا من تصوير القرآن للحضارة وأساسها الى أن طبيعة الإنسان لا تألف هذا النظام الذى يكلّفها من السموّ الى ما فوق فطرتها ما لا تطيق، وأن نظاما ذلك شأنه ليس مقدورا له أن يحيا أو أن يطول بقاؤه . فالإنسان فى رأيهم إنما يحرّكه الخوف والرجاء، وتحركه الأهواء والشهوات، شأنه فى ذلك شأن الحيوان، وهو بعدُ حيوان ناطق . فحمل الإنسانية على الأخذ بنظام كالذى صوّره الإسلام للحضارة أمر غير مستطاع، أو هو على الأقلّ غير ميسور . وغاية ما نستطيع فى نُظُم هذه الحياة للجماعة الإنسانية أن نهذّب الشهوات والمطامع وأن نُحسن توجيه فكرة الخوف والرجاء من الناحية الاقتصادية المادية البحتة . فأما ما وراء ذلك فأمر لا قِبل للجماعة به . ولعل الدليل عندهم على ذلك أن النظام الإسلامى على النحو الذى صوّره القرآن وحاولتُ إيجازه هنا، لم يستقرّ فى الجماعة الإسلامية نفسها إلا أيام النبي وفى الصدر الأوّل . ولو أن هذا النظام كان صالحا للحياة لاستقرّ فى تلك الجماعات الإسلامية الأولى ولانتشر منها فى أنحاء العالم . أمّا ولم يحدث ذلك بل حدث نقيضه فالزعم بأن هذا النظام أجدر بالإنسانية وأكفل بسعادتها زعم لا يصدّقه الواقع .

ادحاض الاعتراض

ويكفى لإدحاض هذا الاعتراض اعتراف أصحابه بأن النظام الإسلامى قام وطبِّق فى عهد النبي وفى الصدر الأوّل. ولقد كان محمد خير أسوة فى تطبيقه .

لن تستطيع مطامع أصحاب المطامع صدّه . ولا يطلب الى هؤلاء العلماء أكثر من أن يكونوا مؤمنين حقا ، يدعون الناس الى الله والى هذه الحضارة مخلصين له الدين حنفاء . يومئذ يسعد الناس بالإخاء فى الله كما سعِدوا به فى عهد النبيّ .

وما كان فى عهد النبي وفى الصدر الأول ، ينهض دليلا على ما قلته فى مقدمة هذا الكتاب من أن البحث العلمى فى الثورة الروحية التى أفاض محمد على العالم ضياءها جدير بأن يهدى الإنسانية طريقها الى الحضارة الجديدة التى نتلمسها . وأنا لا أرتاب فى ذلك لحظة . لكن لعلماء الغرب بعض اعتراضات يبدونها ، ينسبونها الى الروح الذى صدرت عنه فكرة الحضارة الإسلامية ويقيمون على أساسها حكمهم بأن الإسلام كان سببا فى تدهور الأمم التى دانت به . وأهمّ هذه الاعتراضات ما يذهبون اليه من أن الجبرية الإسلامية أضعفت همة المسلمين وقعدت بهم عن الكفاح فى الحياة فهانوا وذلّوا . ودَفْعُ هذا الاعتراض وما يجرى مجراه هو موضوع المبحث الثانى من هذه الخاتمة .

الى الانتشار فى العقود الأولى من السـنين التى تلت اختيار الله نبيَّـه الى جواره ، وينتشر لينشر فى كل قطر رفرفت عليه أعلامه أسمى ما قررته هذه الحضارة ، ولينشئ ذلك من هذه الأمم المنحلّة المتهدّمة شعوبا قوية ودولا ذات بأس تُقبل على العـلم وتصل من طريقه الى الاتصال بكثير من أسرار الكون ، وتبدع لذلك فى الحياة من المنشآت ما تفاخر به هذا العصر الحاضر الذى يزعمونه عصر النور والعلم ، من غير أن يجنى ذلك على سعادة الإنسانية بسبب عبادة المـادة وضعف الإيمـان بالله .

العلماء المضلون

وإنمـا اندست فى الحضارة الإسـلامية أهواء الشُّعوبيـة والإسرائيليات ، كما اندسّت فى غيرها من الحضارات ، لأن طائفة من العلماء الذين يجب عليهم أن يكونوا ورثة الأنبياء قد آثرت السلطان على الحق ، والجاه على الفضيلة ، فاتخذت من علمها وسيلة تضلّل بها سواد الناس وناشئتهم ، كما يضلّل كثيرون من علماء هذا العصر سواد أهله وناشئته . هؤلاء العلماء هم أنصار الشيطان ، وهم لذلك أثقل الناس تَبِعةً أمام الله . وأول واجب على كل عالم مخلص حقا لعلمه ولله أن يحاربهم وأن يسـتأصل بذور فسادهم ؛ لأنهم يفتِنون الناس عن الحق والهدى ويُضلّونهم عن سواء السبيل . واذا جاز أن يكون لهؤلاء العلماء المضلّين مجالٌ حيث يقتتل الدين والعلم على السلطان فى الغرب فلا مجالَ لهم فى البلاد الإسلامية حيث تزاوج الحضارة فيه الدين والعلم ، وحيث يكون الدين بغير علم كفرا ، والعلم بغير دين تجديفا . ولو أن العالَمَ اسـتظل بحضارة الإسلام على ما صوّرها القرآن ولم تجنِ عليه فتوح المغول وغيرهم ممن دخلوا فى الإسلام ولم يعملوا بمبادئه ولا عملوا على نشرها ، بل اتخذوه وسـيلة لحكم سواد المسلمين على مبادئ تناقض مبادئ الإخاء الإسـلامى ، لتبدّل الأمر فى العـالم غير الأمر ، ولنجت الإنسانية من كثير ممـا ترزح اليوم تحته من أهوال الشقاء .

كيف تقوم الحضارة الاسلامية فى عالمنا الحاضـر

وإننى لواثق من أن تسود الحضارة التى صـوّرها القرآن العالم اذا قام جمـاعة من العلماء يدعون اليها على طريقة علمية بعيدة عن الجمود والتعصب . فهذه الحضارة تخاطب القلب كما تخاطب العقل ، وتكفل إقبال الناس من كل الأمم عليهـا إقبالا

وهَلَع تحطّمت أثناءها قلوب أصحابه المحيطين به، أصدر هذا القانون ينبئهم أن لا مفرّ لإنسان من أن يتوفّى فى ساعة أجله، فى فراشه كان أو فى ساحة الوغى .

"أيّة عقيدة يمكن أن يصوِّرها صاحبها أدّق من هذا التصوير ليدفع بها للغزو طائفة من الجنود الجهلاء الأغرار دفعا وحشيا؛ إذ يُقنعهم عن يقين بالفيء لمن يبقى، والجنة لمن يموت! ولقد جعلت هذه العقيدة جند المسلمين لا يكاد يغلبه غالب . لكنها احتوت كذلك السمّ الذى يقضى على سلطانه. فمنذ اللحظة التى كفّ فيها خلفاء النبي عن أن يكونوا غزاة فاتحين، ومنذ أغمدوا سيوفهم بصفة نهائية، بدأت العقيدة الجبرية تعمل عملها الهدّام . فقد أرهف السلم أعصاب المسلمين كما أرهفها المتاع المادّى الذى أباحه القرآن، والذى يفصل فصلا حاسما بين مبادئه ودين المسيح، دين الطهر والإيثار؛ فصار المسلم ينظر الى ما يصيبه من بأساء على أنها بعض ما قدّر الله عليه وما لا مفرّ منه، وما يجب الإذعان له واحتماله ما دام كل جهد وكل حكمة إنسانية عبثا لا نفع له . ولم تكن قاعدة "أعِنْ نَفْسَك يُعِنْك الله" مما يرى أتباع محمد تنفيذه، بل كان عكسها نصيبهم . من ثَمَّ مَحَق الصليب الهلال . وبقاء الهلال الى اليوم فى أوربا حيث كان يوما ما بالغًا غاية القوّة، إنما يرجع الى اختيار الدول المسيحية الكبرى، أو يرجع بالأحرى الى تنافسها . ولعل الهلال باق ليكون دليلا جديدا على أن "من أَخَذ بالسيف فبالسيف يُؤْخذ" .

خطأ هذا الاعتراض

هذا كلام واشنجتون إيرفنج . وهو كلام رجل لم تمكِّنه دراسته من إدراك روح الاسلام وأساس حضارته، فذهب هذا المذهب الخاطئ فى تأويل مسألة القضاء والقدر وكتاب الأجل . ولعل له من العذر أنه وقف فى بعض الكتب الإسلامية على ما جعله يذهب هذا المذهب . فأمّا القرآن فلا تقاس الى جانب ما ورد فيه عبارة "أعِنْ نفسَك يعِنْك الله" من حيث القوّة فى الدعوة الى التعويل على الذات وأن الناس مجزيون بأعمالهم وبالنية التى تصدر هذه الأعمال عنها . قال تعالى : ﴿قُلْ يأَيُّها النَّاسُ قد جاءكُم الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فإنَّمَا يَهْتَدِى

القرآن وإرادة الانسان فى أعماله

٢ — المستشرقون والحضارة الاسلامية

اعتراض المستشرقين

واشنجتون إيرفنج من أعلام الكتّاب الذين فاخرت بهم الولايات المتحدة الأمريكية غيرها من الأمم فى القرن التاسع عشر المسيحى . وقد كتب سيرة النبى العربى فى كتاب عرض فيه هذه السيرة عرضا فيه قوة بيانية تملك قارئه فى كثير من أجزائه، وفيه الى جانب هذه القوّة إنصاف أحيانا وتحامل أحيانا أخرى . وقد وضع للكتاب خاتمة عرض فيها لقواعد الإسلام وما حسبه المصادر التاريخية التى استندت اليها هذه القواعد، وفى مقدمتها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . ثم قال : "القاعدة السادسة والأخيرة من قواعد العقيدة الإسلامية هى الجبرية . وقد أقام محمد جُلّ اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شؤونه الحربية . فقد قرر أن كل حادث يقع فى الحياة قد سبق فى علم الله تقديره، فكُتِب فى لوح الخلد قبل أن يبرأ الله العالم، وأنّ مصير كل إنسان وساعة أجله قد عينت تعيينا لا مردّ له، فلا يمكن أن نتقدّم أو أن نتأخر بأىٍّ من مجهودات الحكمة الإنسانية أو بعد النظر. بهذا الاقتناع كان المسلمون يخوضون غمار المعارك دون أن ينال منهم الخوف . فما دام الموت فى هذه المعارك هو عِدل الاستشهاد الذى يسرع بصاحبه الى الجنة فقد كانت لهم الثقة بالفوز فى حالى الاستشهاد أو الانتصار .

ارفنج والجبرية الإسلامية

" هذا المذهب الذى يقرر أن الناس غير قادرين بإرادتهم الحرّة على اجتناب الخطيئة أو النجاة من العقاب، يعتبره بعض المسلمين منافيا لعدل الله ورحمته . وقد تكوّنت عدّة فِرَق جاهدت وما تزال تجاهد لتهوين هذا المذهب المحيِّر وإيضاحه . لكن عدد هؤلاء المتشككة قليل، وهم لا يعتبرون من أهل السنة .

" وقد أَلهم محمد مذهب الجبرية من وحى الساعة، فكان ذلك إلهاما معجزا لحدوثه فى أنسب أوقاته . فقد حدث توًّا بعد غزوة أُحُد المنكودة التى ذهبت بأرواح عدد غير قليل من أنصاره، ومن بينهم عمه حمزة . عندئذ، وفى برهة وجوم

الآيات وأمثالها، وما تصوّره من صلة وثيقة بين العبد وربه، ودعاهم ذلك الى الظن بأن الإسلام يدعو الى التواكل مع أنه الدين الذى يدعو الى الجهاد والى الاستشهاد والى الإباء والأنفة، كما يقيم حضارته على أساس من الإخاء والرحمة .

والواقع أن هـذه الآيات وما جرى مجراها تصوّر حقيقة علميـة قررتها كثرة فلاسفة الغرب وعلمائه وأطلقوا عليها مذهب الجبرية كذلك، ونسبوا الجبر فيها الى سنّة الكون ومجموع الحياة فيه بدل أن ينسبوها الى الله وعلمه وقدرته . وهذا المذهب الذى تقرّه كثرة فلاسفة الغرب أقل سعة وتسامحا وانطباقا على خير الجماعة الإنسانية من المذهب الفلسفى الذى يستخلص من القرآن الكريم كما سنرى من بعد . وهذه الجبرية العلمية تذهب الى أنّ ما لنا من اختيار فى الحياة إنما هو اختيار نسبي ضئيل القدر، وأن القول بهذا الاختيار النسبي يرجع الى ضرورات الحياة الاجتماعية من ناحيـة عملية أكثر ممـا يرجع الى حقيقة علمية أو فلسفيّة . فلو لم يتقرر مذهب الاختيار لتعـذّر على الجماعة أن تجـد أساسا تقيم عليه تشريعها وحدودها، وتنظم بذلك حياتها، وتفرض به على كل إنسان جزاء تصرفاته جزاء جنائيا أو مدنيا . صحيح أن بين العلمـاء والفقهاء من لا يقيمون أساس الجزاء على الجبر ولا على الاختيار، وإنما يقيمونه على ما يحدث من ردّ الفعل الذى تقوم به الجماعة محافظة على كيانها، كما يقوم الفرد بمثله محافظة على كيانه . وسيان عند الجماعة إذ تقوم برد الفعل هذا أن يكون الفرد مختارا وأن يكون غير مختـار . على أن الاختيار فى التصرف ما يزال الأساس للجزاء عنـد أكثر الفقهاء . ودليلهم عليه أن مسلوب الحرية والاختيار، كالمجنون والصغير والسفيه، لا يجزى عن عمله ما يُجْزَى الرشيدُ الذى يميّز بين الخير والشر . فإذا نحن تخطينا هذه الاعتبارات العملية فى الفقه والتشريع وأردنا أن نخلُص الى الحقيقة العلمية والفلسفية ألفينا الجَبْرية هى هذه الحقيقة . فليس لأحد اختيار للعصر الذى يولد فيـه، ولا للأمة التى يولد من أبنائها، ولا للبيئة التى ينشأ بينها، ولا لأبويه وفقرهما وغناهما وفضلهما ونقصهما، ولا لأنه ذكرٌ أو أنثى، ولا لما يحيط به من أحداث لها، أغلبَ الأمر، الأثر الأكبر فى توجيه أعماله وحياته . وقد عبّر

لِنَفْسِهِ ومَنْ ضَلَّ فإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْها ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ مَنِ اهْتَدَى فإنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ومَنْ ضَلَّ فإنَّمَا يَضِلُّ عليها ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٢] . وقال : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ومَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ومَالَهُ فِى الآخِرَةِ مِن نَصِيبٍ ﴾[٣] . وقال : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[٤] . ومثل هذا فى القرآن كثير . وهو صريح فى الدلالة على أن إرادة الإنسان وعمله هما مصدر مثوبته وعقابه . وقد حضَّ الله الناس أن يسعَوْا فى مناكب الأرض وأن يأكلوا من رزقه ، وأمرهم بالجهاد فى سبيله بآيات قويّة غاية القوة تلوتَ شيئا منها أثناء هذا الكتاب . وهذا لا يتفق وما يقوله إيرڤنج وما يقول بعض رجال الغرب من أن الإسلام دين تواكل وقعود، وأنه يعلِّم أهله أنهم لا يملكون لأنفسهم بعملهم نفعا ولا ضرّا ، فلا فائدة لهم من السعى والإرادة؛ لأن السعى والإرادة معلّقان بمشيئة الله ؛ فاذا سعينا وكان مقدَّرا ألّا يثمر سعينا لم يثمر ، واذا لم نسع وكان مقدَّرا أن نصبح أغنياء أو أقوياء أو مؤمنين أصبحنا كذلك من غير سعى ولا عمل . فالآيات التى قدّمنا تناقض هذا الرأى وتنفيه .

القرآن والقضاء والقدر

أم يعتمد هؤلاء الذين ينسبون تواكل المسلمين فى هذه العصور الأخيرة الى دينهم على ما جاء فى القرآن من آيات القدر كقوله تعالى : ﴿ ومَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾[٥] . وكقوله : ﴿ ولِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٦] . وكقوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾[٧] . وكقوله : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[٨] . إن يكن ذلك ما يعتمدون عليه فقد فاتهم معنى هذه

(١) سورة يونس آية ١٠٨ (٢) سورة الاسراء آية ١٥ (٣) سورة الشورى آية ٢٠
(٤) سورة الرعد آية ١١ (٥) سورة آل عمران آية ١٤٥ (٦) سورة الاعراف آية ٣٤
(٧) سورة الحديد آية ٢٢ (٨) سورة التوبة آية ٥١

ومشيئة الله فيه. ومن يؤمن بهذا ومن يوجّه نفسه وجهته، فلن يصيبه إلا ما كتَبَ الله عليه. فاذا كان قد كتب عليه أن يموت فى سبيل الحق أو الخير الذى أمر الله به فلا خوف عليه، وهو وأمثاله أحياء عند ربهم يُرْزَقون. أيّة دعوة الى الإقدام والى السعى والى الإرادة كهذه الدعوة! وأين فيها مايزعم إيرفنج والمستشرقون أمثاله من تواكل!!

التواكل ليس من التوكل على الله فى شيء. فالتوكل على الله لا يكون بقعود المرء والتخلُّف عن أمر ربه، بل بالعمل الجدّى لما أمر به. وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾. فالعزم والإرادة يجب إذًا أن يسبقا التوكل. وأنت ما عزمتَ ثم توكّلت على الله بالغُ نهاية أمرك بفضل منه. وأنت ما ابتغيت وجهه وحده، وما خشيته وحده، وما سلكت سبيله وحده، مهتدٍ الى الخير بحكم سنّة الله فى الكون التى لا تحويل لها ولا تبديل. وأنت بالغُ هذا الخير أدّى بك سعيك الى النجاح والفوز، أو أدّى بك الى الموت. وما ينالك من الخير فمن عند الله. أمّا ما يُصيبك من مكروه فبما كسبت يداك وباتباعك سبيلا غير سبيل الله. فالخير كله بيد الله، والضلال والشرّ من نزغ الشيطان وعمله.

أمّا علم الله بكل ما يقع فى الوجود قبل أن يبرأ الله الوجود، وأنه جل شأنه ﴿ لَا يَعْزُبُ عنه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ولا أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[١] فيرجع الى أن الله برأ للكون سننا لا تحويل لها ويجب أن تنشأ عنها آثارها. وإذا كان العلماء يذهبون الى ما قدّمنا من أن العلم الواقعىّ يستطيع اذا عرف أسرار الحياة الإنسانية وسننها، أن يعرف ما قدّر لكل فرد ولكل أمة على وجه اليقين، كما يعرف مواقيت الكسوف والخسوف، فإن الإيمان بالله يقتضى حتمًا الإيمان بعلمه بكل شيء من قبل أن يبرأ العالم. واذا كان المهندس الذى يضع «تصميم» دار أو قصر ويراقب تنفيذ هذا التصميم يستطيع أن يعلم مدى ما يعيش هذا البناء وما قد تتعرض له أجزاؤه المختلفة على مضىّ السنين، وكان علماء الاقتصاد يذهبون الى أن السنن الاقتصادية تهديهم على سبيل القطع

(١) سورة سبأ آية ٣

الفيلسوف الفرنسي "هيبُّوليت تِينْ" عن هذا المذهب بقوله : "المرء ثمرة بِيئته". وقد ذهب غير واحد من العلماء والفلاسفة فى تأييد ذلك الى حدّ القول بأن علمنا لو استطاع أن يصل من معرفة سنن الحياة الإنسانية وأسرارها الى مثل ما وصل اليه من معرفة سنن الأفلاك ، لاستطاع أن يحدّد بالدقّة مصير كل فرد وكل أُمة كما يحدّد الفلكيون بالدقة مواقيت كسوف الشمس وخسوف القمر . مع ذلك لم يقل أحد فى الغرب ولا فى الشرق بأن هذا المذهب الجبرى يحول بين المرء والسّعى للنجاح فى الحياة ، أو يحول بين الأمم والوثوب الى خير مكان ، ولم يقل أحد بأن هذا المذهب يؤدِّى الى تدهور الأمم التى تأخذ به . هذا مع أن المذهب الجبرىّ فى الغرب لا تؤيّده فى السعى والعمل آيات كالتى تلوتُ من آيات القرآن عن تَبِعة الإنسان عن عمله ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ . أفلا ينهض هذا وحده دليلا على تحامل المستشرقين الذين يزعمون أن جَبْرِيّة الإسلام قد أدّت الى تدهور الأمم الآخذة به ! .

بل إنّ الجبرية الإسلامية لأكثر حضًّا على السعى الى الخير والفضل والى ابتغاء الرزق من الجبريّة الغربية . فكلتاهما متّفقة على أن للكون سننا لا تحويل لها ولا تبديل ، وأن ما فى الكون جميعا خاضع لهذه السنن ، وأن الإنسان خاضع لها خضوع سائر ما فى الكون . لكن الجبرية الغربيّة تُخضع المرءَ لبيئته ووراثته خضوع إذعان لا محيص عنه ولا مفرّ منه ، وتجعل إرادة الإنسان بعض مايخضع لبيئته ، فلا سبيل له لذلك الى أن يغيِّر نفسه . فأمّا القرآن فيدعو إرادة كل فرد لتتوجّه بحكم العقل الى ناحية الخير ، ويذكر لهم أنه اذا كان قد قُدِّر لهم الخير فبما كسبت أيديهم ، وأنهم لا ينالون هذا الخير اعتباطا من غير سعى .

يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1]. ففى مقدورهم إذًا أن يفكروا وأن يتدبّروا بعد أن هداهم الله بكتبه الى الواجب عليهم ، وبعد أن دلّهم أنبياؤه ورسله على طريق الحق ، وبعد أن دُعوا الى النظر فى الكون وتدبُّر سننه

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

(١) سورة الرعد آية ١١

وبتفكيرنا فيما خلق الله، وبدأبنا فى السعى لمعرفة أسراره . فاذا ظل من الناس بعد ذلك من يشرك بالله، ومن يبغى الفساد فى الأرض، ومن يعميه الاستئثار عن كل معنى من معانى الأخوة، فانما هو المثل الذى يضربه الله للناس ليروا عاقبة أمر الله فيه لتكون لهم العبرة من مثله . وهذا عدل الله فى الناس ورحمته بهم جميعا، لا يحول دونهما ولا يحدّ منهما أن يّضل ضَال فيناله العذاب جزاء ماقدّمت يداه .

ولكن ! لماذا يفكر الناس ولماذا يعملون والموت لهم بالمرصاد، فاذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون؟ ولماذا يفكر الناس ولماذا يعملون وقد كُتِب للسعيد منهم أن يكون سعيدا، وعلى الشقىّ منهم أن يكون شقياً ؟

هذا تكرار للسؤال الذى أجبنا عنه سقناه قصدًا لننظر فى مسألة كتاب الأجل من ناحية أخرى . فما كتب الله إنما هو سنّة الكون من قبل أن يبرأ الله الكون، ومن قبل أن يقول له كن فيكون . ولا أدلّ على دقة هذا التصوير من قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ . ومعنى هذا أن الرحمة صفة لله وسنّة من سننه فى الكون وليست فرضا فرضه على نفسه؛ فالفرض لا يجوز عليه جل شأنه . ويقول تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . فاذا ضلّ قوم لم يبعث الله لهم رسولا قضت سنّة الله ألا يعذّب منهم أحدا . وعلم الله بآثار سنته فى الكون بديهىّ لكل من آمن بأن الله هو الذى خلق الكون . فاذا بعث الله لقوم رسولا ثم قضت سنة الكون ومشيئة الله فيه أن يصرّ إنسان من هؤلاء القوم على الضلال بعد إذ دُعى الى الهدى فإساءته على نفسه وهو لغيره عبرة ومثل .

ومن السذاجة القول بأن هذا الذى ضلّ يجوزى بضلاله قد ظُلِم مادام الضلال قد كُتب عليه . نقول من السذاجة بدل أن نقول من التجديف؛ لأن أبسط قسط من التفكير يهدينا الى أن من ضل يظلم نفسه ولا يظلمه الله . وقد يكفينا فى بيان ذلك مثل الأب البارّ العطوف يُدنى النار من طفله، فاذا أراد أن يمسكها بَعُد بها عنه مشيرا اليه أنها تحرقه . ثم هو يدنيها منه مرّة بعد مرّة، ولا بأس بأن تحترق إصبع الطفل كى يكون له من حسه الذاتى ما ينبهه الى الحقيقة الملموسة التى تظل

من ضل فقد ظلم نفسه

الى معرفة ما ينشأ فى حياة العالم الاقتصادية من أزمة أو رخاء ، فإن مناقشة علم الله بكل صغيرة وكبيرة مما خلق فى الكون تجديف لا يقبله عقل منطق . وهذا العلم لا يصح أن يقف الناس عن التفكير فى ماالهم والعمل جهد الطاقة لاتباع جادّة الحق وتنكُّب طريق الضلال ؛ فعلْم الله غَيْبٌ عليهم . وهم مهتدون آخر الأمر الى الحق ولو بعد حين . والله قد كتب على نفسه الرحمة . وهو يقبل توبة التائب من عباده ويعفو عن كثير . وما دامت رحمته وسعت كل شيء فليس لإنسان أن ييأس من الاهتداء الى الحق والخير ما دام ينظر فى الكون ويتدبر ما فيه . وليس لإنسان أن يقنط من رحمة الله اذا هداه نظره آخر الأمر سبيل الله . وإنما الويل لمن ينكر إنسانيته ويستكبر عن النظر والتفكير ابتغاء الهدى . أولئك يعاندون الله ولا يبتغون وجهه ، وأولئك ختم الله على قلوبهم ، فلهم جهنم ولهم سوء الدار .

أفيرى أولئك المستشرقون سموّ الجبرية الإسلامية وانفساح مداها ! . وهل يرون فساد ما يزعمونه من أنها تدعو الى القعود عن السعى أو قبول المذلة أو الرضا بالخضوع لغير الله ؟ ! ثم هى من بعدُ تجعل باب الرجاء فى مغفرة الله ورحمته مفتوحا دائما لمن تاب وأناب . فما يزعمونه من أنها تدعو المسلم الى النظر لما يصيبه من خيرٍ أو شرٍّ على أنه بعض ما كتب الله له فيقعد لذلك صابرا محتملا الضرّ والمذلة ، بعيدٌ عن الحقيقة فى أمر هذه الجبرية التى تدعو الى دوام الدأب ابتغاء رضا الله ، والى عزم الأمر قبل التوكل على الله . فاذا لم يوفَّق الانسان للخير اليوم ، فليعمل لعله يوفق له غدا ؛ وله من دائم الرجاء فى الله أن يسدّد خطاه وأن يتوب عليه وأن يغفر له ، خير حافز إلى التفكير المتصل والسعى الدائب لبلوغ الغاية من رضا الله ، إياه يعبد وإيّاه يستعين ، منه جل شأنه الهدى ، وإليه يرجع الأمر كله .

ما أعظم القوّة التى تبعثها هذه التعاليم السامية الى النفس ! وما أوسع أُفق الرجاء الذى تفتحه أمامها ! فأنت موفق للخير ما ابتغيت بعملك وجه الله . وأنت إن أضلّك الشيطان مقبولة توبتك ما غالب عقلُك هواك فغلبه وعاد بك الى الصراط المستقيم . والصراط المستقيم هو سنّة الله فى خلقه ، سنّة نهتدى اليها بقلوبنا وعقولنا

يُفسد العضو المريض سائر الجسد فيقضى عليه ، كيف بنا ونحن نرى هذا ألا نعتبر سذاجة بلهاء لا مسوِّغ لها الا الاستئثار الضيق الأفق أن نقف من أمر هذه العدالة عنـد ذواتنا وألّا نعدّيها إلى الجماعة الإنسانية كلها ، وألا نعدّيها أكثر من ذلك الى الكون كله ؟ !

عمل الخير عبادة

وما البرغوث وما الحصاة وما الإنسان الى جانب الكون ! بل ما الإنسانيـة كلها الى جانب الكون ! ؟ هذا الكون الفسيح يحاول خيالنا العاجز تصوير حدوده بالزمان والمكان و بالأزل والأبد و بأمثال هذه الألفاظ التى لا سبيل لنا غيرها الى أن نرسم لأنفسنا صورة من الكون ناقصة غاية النقص ، يتفق نقصها مع ما أوتينا من العلم ، وما أوتينا من العلم إلا قليلا . وهذا القليل قد هدانا إلى أن سنّة الله فى الكون سنة نظام وعدل لا تبديل لها ولا تحويل . وإنما نهتدى إلى هذه السنة وقد جعل الله لنـا السمع والأبصار والأفئدة لنشهد بديع صـنعه ونقف فى الكون على سنته فنسبِّح بحمده ونعمل الخير بأمره . وعمل الخير عن إيمان ، هو أرقى مظهر لعبادة الله لقوم يعقلون .

الموت خاتمة حياة و بدء حياة

فأمّا الموت فخاتمة حياة و بدء حياة . لذلك لا يجزع منه إلا الذين ينكرون الحياة الآخرة و يخشونها لسوء صنيعهم فى الحياة الدنيا . أولئك لا يتمنّون الموت بما كسبت أيديهم ، وإنما يتمنى الموت صدقا المؤمنون حقًّا والذين عملوا فى الدنيا صالحا .

يقول تعـالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَـاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَـلًا وهُوَ العَـزِيزُ الغَفُورُ ﴾ (١) . ويقول جلّ شأنه مخاطبـا نبيَّه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْـلِكَ الخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُـمُ الخَالِدونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـةُ المَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتنَةً وإلَيْنَا تُرجعونَ ﴾ (٢) . ويقول : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحمِلُوها كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْـفَارًا بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ واللهُ لا يَهْدِى القومَ الظَّالِمِينَ . قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إنْ زَعَمْتُمْ أنكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فتمنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا يَتَمنَّونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٣) :

(١) سورة الملك آية ٢ (٢) سورة الأنبياء آيتا ٣٤ و ٣٥ (٣) سورة الجمعة الآيات من ٥ الى ٧

ماثلةٌ أمامه طِيلة حياته . فاذا أقدم بعد رشاده فأمسك بالنار أو ألقى بنفسه فيها فجزاؤه ما يصيبه منها، ولا تثريب على أبيه ولا يطالب أحد الى هذا الأب أن يحول بينه و بينها . كذلك مثل الأب الذى يدل ابنه على مضرّة القِمار أو الخمر ، فإذا بلغ الابن رشاده واجترح ما نهاه عنه أبوه فأصابه الشرّ لم يكن أبوه ظالما إياه، و إن كان فى مقدوره أن يحول بينه و بين ما يصنع . وأبوه أبعد عن ظلمه إن كان فى ترك الابن يجترح من ذلك ما يجترح مُزْدجَرٌ وعبرةٌ لأهله و إخوته . فاذا كان الأهل والإخوة يُعَدّون بالمئات أو بالألوف فى مدينة كثرت فيها أسباب الغواية بطبيعة نواميسها، فمن الخير ومن العدل أن يكون فيما يصيب بعض هؤلاء من الآثار المحتومة جزاء أعمالهم ما تستقيم به أمور هذه الجماعة على أسفٍ منها لما أصاب الظالمين من أبنائها . وهذه أبسط صور العدل على ما نتصوّره فى جماعتنا الإنسانية، فما بالك بها حين نتصوّرها بالنسبة للعالم كله وملايين الملايين من خلائقه فى لا نهايات الزمان والمكان . إن ما يُصيب فردًا أو جماعة بظلمهم فى هذه الصورة التى يكاد يعجز عن تصوّرها خيالنا إنما هو العدل فى أبسط صوره .

مثلنا فى حياتنا الشخصية

لو أننا نسبنا الظلم لأب ترك ابنه الذى ضل يلقى جزاء ضلاله ما دام الضلال قد كُتب عليه، لحقّ علينا أن ننسب الظلم لأنفسنا لأننا نقتل برغوثا يؤذينا اتقاء أذاه وخوفا من عدوى ينقلها الينا قد تكون و بالًا علينا وعلى الجماعة اذا انتقلت منا الى غيرنا؛ أو لأننا نفتّت حصاة فى المرارة أو الكِلَى خيفة ما تجرّه علينا من آلام وشقوة ، أو لأننا نبتُر عضوا من أعضائنا مخافة أن يستشرى منه الفساد الى سائر الجسم فيقتله . ولو أننا لم نفعل لأن ذلك قد كُتب علينا ثم شَقِينا أو هلكنا فلا نلومنّ إلا أنفسنا بما يصيبنا من السوء ما دام الله قد فتح لنا باب الشفاء كما فتح للمذنب باب التوبة . والجاهلون وحدهم هم الذين يقبلون الألم والشقاء زعمًا منهم أنه كُتب عليهم ؛ وذلك حماقة منهم وسخف . فكيف بنا ونحن نرى قتل البرغوث واستئصال الحصاة و بتر العضو المريض عدلًا كل العدل، و إن كان قد كُتب فى سنّة الكون أن يؤذى البرغوث وأن ينقل الى الإنسان العدوى، وأن تُفسِد الحصاة وأن

أحد له مرضا . ومنهم المريض الذى يكافح مرضه ويئن من أهواله عشرات السنين حتى يُرَدّ الى أرذل العمر . وطائفة من الأطبّاء اليوم يقولون إن الإنسان يولد وفى تكوينه جرثومة انتهاء حياته ، وإن الأمد الذى تعمل فيه هذه الجرثومة لِتبلغَ غايتها يمكن معرفته لو استطعنا معرفة الجرثومة نفسها . ومعرفة هذه الجرثومة ليس بالأمر المستطاع . فهى قد تكون مادية فى الجسم كامنة فى عضو من أعضائه الرئيسية أو غير الرئيسية، وقد تكون معنوية فى التفكير متصلة بتلافيف المخ تدفع صاحبها الى المغامرة والى المخاطرة، أو الى الشجاعة والإقدام . والله الذى أحاط بكل شيء علما ، عنده علم الساعة التى تحين فيها منيّة كل إنسان بحكم سنّة الكون التى لا تحويل لها ولا تبديل .

رسل الله من أبناء الشعب

ومن آيات رحمته جلّ شأنه أنه لايعذِّب حتى يبعث رسولا يهدى الناس الى الحق ويبين لهم سبيل الخير . ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة . لكنه يؤخّرهم الى أجل مسمًّى ليسمعوا الى الرسل فيتبعوا الهدى ولا تغرهم الحياة الدنيا بزخرفها . ولم يبعث الله رسله من الملوك ولا من الأغنياء وذوى الجاه ولا من العلماء، وإنما بعثهم من أبناء الشعب . فإبراهيم نجّار وأبوه نجّار . وعيسى نجّار الناصرة . وغير واحد من الأنبياء كانوا رُعاة غنم ؛ ومن هؤلاء خاتمهم عليه الصلاة والسلام . وإنما يبعث الله رسله من أبناء الشعب ليدلّ عباده على أن الحقيقة ليست فى ملك الأغنياء ولا الأقوياء، بل فى ملك من يبتغى الحق لوجه الحق وحده . والحقيقة الأزلية الخالدة أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم؛ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ولا تُجْزَوْنَ إلا ما كنتم تكسبون . والحقيقة الكبرى أن الله حق، لا إله إلا هو .

الموت خاتمة حياة وبدء حياة؛ خاتمة الحياة الدنيا وبدء الحياة الآخرة . ولسنا نعلم من أمر الحياة الدنيا إلا قليلا . لسنا نعلم إلا ما تتصل به حواسّنا وترشدنا اليه عقولنا وتكشف لنا عنه قلوبنا . أمّا الحياة الآخرة فلا علم لنا من أمرها الا ما علّمنا الله منه . وسنن الكون فيما غَيْبٌ علينا، علمُه عند عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .

ويقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

هذه الآيات قوية غاية القوة تنقض ما يقال عن دعوة الجبرية الإسلامية للقعود وعدم السعي . فالله خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملا . وعملهم في الحياة ، وجزاؤهم عنه بعد الموت . فاذا لم يعملوا واذا لم يمشوا في منا كب الأرض ويأكلوا من رزق الله ، واذا لم يَصَّدَّقوا مما آتاهم الله ، واذا لم يؤثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، عصوا الله ، وكان من يفعل ذلك كله أحسن منهم عند الله عملا وأحسن في الآخرة جزاء ومثوبة . والله يبلونا في الحياة بالخير والشرّ فتنة . وعلينا أن نميّز بعقولنا بين الخير والشرّ . فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . ولئن لم يصبنا إلا ما كتب الله لنا ليكونن ذلك أشدّ إمعاناً بنا في سبيل الخير لنرى الخير . وسواء علينا بعد ذلك أَختارنا الله اليه أقوياء عاملين مجاهدين ، أم رُدِدنا الى أرذل العمر لكيلا نعلم من بعد علم شيئا . فليس مقياس الحياة عدد السنين التي يقضي المرء فيها ، وإنما مقياسها ما يقوم به الإنسان فيها من أعمال باقيات صالحات . والذين يتوفّون في سبيل الله أحياء عند ربهم ، وهم أحياء بيننا بذكرهم . وكم من أسماء باقية على مرّ الدهور والقرون لأن أصحابها وهبوا أنفسهم ومجهوداتهم للخير ، فهم بيننا معشر الأحياء وإن كان الله قد اختارهم إليه منذ مئات السنين .

﴿ فإذا جاء أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ساعةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ هذا حق ، وهو وحده الذي يتفق مع سنّة الكون . فللإنسان أجل لا يعدوه . كما أن للشمس وللقمر مواقيت للكسوف والخسوف لا تتغير ، لا تستقدم ولا تستأخر . وهذا الأجل المحتوم أدعى الى أن يسارع الإنسان الى الخيرات وأن يعمل صالحا وأن يبذل في ذلك كل جهده ؛ فهو لا يدري متى تكون منيّته ؛ فاذا جاءت فجزاؤه ما قدّم . وإن أمامنا كل يوم لدليلا على أن الأجل قَدَرٌ لا مفرّ منه . فمن الناس من يأتيه الموت فجأة ولا يعرف

(١) سورة الأنعام آية ٦٠ .

وانفساح مداها وعمقها قد بلغ الغاية من كل ما نعرف من نظريات حتى اليوم، وأنها تفسح الطريق الى ما قد يسمو اليه الفكر الإنسانى من بعد .

وأُريد قبل أن أبدأ هذا الإيضاح الوجيز أن أُثبت هنا ملاحظتين أرجو ألّا ينساهما فى هذا المقام أحد . أولاهما أننى لا أقصد من ذلك الى معارضة نظرية مسيحية . فما جاء به عيسى قد أقره الإسلام كما ذكرت غير مرة فى غضون هذا الكتاب . وإنما جاء الإسلام جامعا ومتوِّجا للنبوات والرسالات التى سبقته . ولقد أثبتت الأناجيل قول المسيح لأصحابه : «ما جئت لأنقض الناموس ولكن جئت لأُكمله» . كذلك أثبت القرآن إيمان المسلمين بإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين من قبل . وانما جاء الإسلام مكملا لما أرسلهم الله به، مصححا لما حدث من تحريف أتباعهم الكلم عن مواضعه . والثانية أن المذهب الفلسفى الإسلامى الذى استنبطته من القرآن قد سبقنى اليه غيرى ولكن على نحو غير النحو الذى أقرره اليوم ؛ وانما اهتديت فى هذا النحو بهدى القرآن ونهجت فيه نهج الطريقة العلمية الحديثة . فإن وفقنى الله للصواب فله جل شأنه الفضل والمنة . وإن جفانى التوفيق فى شىء منه كان من أكبر التحدُّث بنعمة الله أن يهدينى أولو العلم الى ما جفانى التوفيق فيه .

وأوّل ما يقرّره القرآن أن لله فى الكون سننا ثابتة لا تحويل لها ولا تبديل . والكون ليس أرضنا وما عليها وكفى، ولا هو محصور فيما يقع عليه حسنا من كواكب وأفلاك، وإنما الكون مجموع ما خلق الله من محسوس وغير محسوس، حاضر وغيب . وحسبُكِ أن تتصوّر هذا لتدرك حقا أننا لم نؤت من العلم إلا قليلا . فهذا الأثير بيننا وبين الكواكب، وهذه الكهرباء التى تملأ الأثير وتملأ أرضنا، وهذه الأبعاد الشاسعة التى تفصل بيننا وبين الشمس وما هو أبعد من الشمس من أفلاك، وما وراء هذه الأفلاك التى تبعد عن الشمس بألوف السنين الضوئية، ثم ما وراء ذلك من لا نهايات لا سبيل لخيالنا أن يحيط بها وعند الله علمها — هذا كله يجرى على سنّة ثابتة لا تتغير . وما نعرفه من هذا كله معرفة علمية، على حدّ تعبيرنا اليوم، قليل يختلط فيه الخيال بالواقع، ثم يتضاءل الواقع الى جانب الخيال حتى يبلغ

فحسبُنا ما ذكر الله فى كتابه العزيز من أمرها وأنها دار الجزاء، ولنُعِدّ أنفسنا فى الدار الدنيا بعملنا و بعزمنا أمورنا و بتوكلنا بعد ذلك على الله لهذا الجزاء العدل ؛ فأمّا ما وراء ذلك فأمره لله وحده .

أفيرى الذين يلفُّون لفَّ واشنطون إيرفِنج من المستشرقين وغير المستشرقين مبلغ خَطَئهم فى تصوير الجبرية الإسلامية؟ ! . إننا لم نثبت هنا شيئا غير ما ورد فى القرآن الكريم ؛ لأننا لا نريد أن نضع الأمر موضع مجادلة فى آراء المتكلمين والمتصوِّفة وغيرهم من فِرَق المسلمين وفلاسفتهم . و إيرفِنج أبلغ خطأ حين يزعم أن القضاء والقدر وكتاب الأجل إنما نزل ما نزل من القرآن فيه بعد غزوة أُحُد ومقتل حمزة سيّد الشهداء فيها . فمن الايات التى اقتبسنا هنا آيات مكية نزلت قبل الهجرة وقبل أن تبدأ غزوات المسلمين . و إنما يقع إيرفِنج ومن على شاكلته فى هذا الخطأ لأنهم لا يعنُّون أنفسهم ببحث مسألةٍ هذا مبلغ خطرها بحثا علميا دقيقا ، بل يصوّرون لأنفسهم عن الإسلام الفكرة التى تتفق مع ميولهم المسيحية ثم يلفِّقون لها الدليل بما تهوى أنفسهم ظنًّا منهم أَن دليلهم يُقنع قرّاءهم ثم لا يفنِّده من بعدهم أحد .

الفكرة الفلسفية فى الجبرية الإسلامية

ولو أدرك المستشرقون الجبرية الإسلامية على نحو ما صوّرناها هنا لقدّروا فكرتها الفلسفية البالغة غاية السموّ، العميقة غاية العمق، والتى تصوّر الحياة تصويرا يصف أدق النظريات العلمية والفلسفية التى وصل اليها التفكير فى مختلف عصوره، وما ناله فيها من تطوُّر وتقدّم . وهذه الفكرة الفلسفية الإسلامية فكرة توفيقية لا تضيق بالجبرية العلمية، ولا بالعالم كإرادة وتمثُّل، ولا بالتطوّر المنشئ (١)، بل هى تسلك هذه المذاهب جميعا فى نظامها على أنها بعض سنن الكون والحياة . ولئن لم يتّسع هذا المقام لبسط هذه الصورة لأُحاولنّ مع ذلك إيجازها بكل ما أستطيع من دقة و وضوح . وأحسب الذين يتلون ما أكتب يوافقوننى على أن سموّ هذه الفكرة

(١) الجبرية العلمية، والعالم كارادة وتمثّل، والتطوّر المنشئ، مذاهب فلسفية غربية يقول بأولها الفلاسفة الواقعيون، (Positivistes)، و يقول شوبنهور بالثانى، و يقول برجسن بالثالث، ولا يتسع المقام لشرحها .

ما أقام الناس من الآثار ما له أيام السلم أكبر الفائدة . فلولا الديناميت لتعذّر شق الأنفاق ومدّ السكك الحديدية خلالها، ولتعذّر الكشف عن المناجم التى تحتوى أثمن الكنوز وأنفس الأحجار والمعادن . والغازات الخانقة التى يلقى المحاربون قذائفها على الوادعين من أبناء الأمة التى تحاربهم ، والتى تعتبر لذلك عارا وشنارا على الإنسانية ومظهرا من مظاهر وحشيتها وجبنها ، هذه الغازات تصلح فى السلم لأغراض نافعة أعظم النفع، منقذة للإنسانية من كثير من الأمراض المعدية وأهوالها . فمن هذه الغازات ما تنقّى به المياه من المكروبات الضارة كغاز الكلور، ومنها ما يصلح فى حياة السفن إذ يقتل بعضه الجرذان فيها، ويدل بعضه على مواطن الغازات الأخرى التى تعرّض حياة المَلّاحين للخطر .

وقديمًا خُيِّل الى الناس أن من الحشرات والطيور والحيوان ما لا فائدة قط من وجوده، ثم تبين لهم بعد البحث والدرس ما لهذه الحشرات والطيور والحيوان من فائدة للإنسان، حتى لقد صدرت فى ممالك مختلفة قوانين تحمى هذه الخلائق من القتل أو الصيد تقديرا لخيرها للإنسانية . والذين درسوا هذه الخلائق قد لاحظوا أنها أشدّ حرصا على مسالمة الحياة المحيطة بها فى حدود الاحتفاظ بوجودها كى تقوم بقسطها من الخير الذى فُطِرت على القيام به ، وأنها لا تؤذى إلا دفاعا عن نفسها حين يهاجمها مهاجم أو يُغريها مُغْرٍ بالأذى .

أعمال بنى الانسان

وأعمالنا نحن بنى الإنسان ليست خيرا كذلك لذاتها، ولا شرًّا لذاتها، بل للغاية التى توجَّه اليها والأثر الذى يترتب عليها . أليس القتل إثما محرّما ! لكن الله مع ذلك إذ يحرّم القتل يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ . والقتل بالحق لا إثم فيه . ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ . والجلّاد الذى يقتل مجرما حكم عليه بالقتل، والرجل الذى يقتل نفسا دفاعا عن نفسه، والجندى الذى يقتل دفاعا عن وطنه ، والمؤمن الذى يقتل حتى لا يفتنه أحد عن دينه ، هؤلاء جميعا لا يرتكبون إثما ولا معصية حين يقتلون . هم إنما يؤدّون لله حقا فرضه الله عليهم ولهم عنه جزاء المحسنين. وما يقال فى القتل يقال كذلك فى غيره من الأعمال المتداولة

غاية الضآلة ، ثم يبقى هذا الواقع مع ذلك غاية ما نعلم وما تقيم عليه أقيستنا وما نقرّر على ضوئه ما نسميه سنن الكون والحياة . ولو أننا أردنا أن نطلق للخيال عِنانه لنتصوّر ضآلة هذا الذى نعرف لانفسح أمامنا مجال الأمثال بما يضيق عنه هذا المقام . افترض مثلا أن أهـل المرِّيخ أقاموا عندهم " مذيعا " قوّته مائه مليون كيلوات ليسمعونا أهلَ الأرض ما يدور عندهم وليُرُونا إياه من طريق (التليفيزيون) أتُرانا بعد ذلك نستطيع أن نمسـك علينا عقولنا ؟ والمرّيخ ليس أبعـد الكواكب عنا ولا أشـدّها ازورارا عن الاتصال بنا .

وهذا الكون الذى لم نؤت من علمه إلا قليلا يؤثّر كلُّ ما فيه فى وجود أرضنا وما عليها . فلو أنّ واحدا من هـذه الأفلاك اختلف بقَدَرٍ من الله مداره ، لتغيّرت سنة الكون ولتغيرت لذلك حياتنا ، حياتنا القصيرة الضئيلة المتأثرة بكل ما حولنا ، وبأتفه ما حولنـا . وهى أكثر تأثّرا وخضوعا بطبيعة الكون لعظائم ما فى الكون وجلائله . وهى فى تأثُّرها ذاك قد تسلك سبيل الخير وقد ترغب عنها . وهى فى سلوكها هذه السبيل وفى رغبتها عنها لاتندفع فى هذه او تلك من الناحيتين بحكم ما يؤثر فيها من عوامل الحياة وحده ، بل بحكم استعدادها كذلك لتلقِّى آثار الحياة ، وسلطانها على ذاتها فى تلقِّى هذه الآثار . وربّ عامل معيَّن أثر فى نفوس كثيرين آثارا مختلفة ، فاندفعت كل واحدة منها الى ناحية ، كانت إحداها الفيصل بين الخير والشر ، ثم كانت سائرها درجاتٍ نحو الخير ودرجاتٍ نحو الشر .

فما فى الحياة من خير أو شرّ إنما هو أثر لما يقع بين عوامل الحياة والنفس الإنسانية من تفاعل . ومن ثم كان الخير والشر بعض ما فى الكون من آثار سننه الثابتة ، وكانا لذلك من مستلزمات وجوده ، كما أن السالب والموجب من مستلزمات وجود الكهرباء وكما أن وجود بعض المكروبات من مستلزمات الحياة لجسم الإنسان . الخير والشر

وليس شىء شرًّا لذاته ولا خيرا لذاته ، بل للغاية التى يوجَّه اليها ، وللأثر الذى يترتب عليه . فما يكون شرًّا أحيانا يكون ضرورة ملحّة وخيرا محضا أحيانا أخرى . ومن المدمِّرات التى تستعمل فى الحروب لإهلاك ملايين بنى الأنسان وتخريب أبدع

اليه، ومايزداد بازدياد مجهودنا للكشف عنه. والخير قوام الكون، ولكن الشرّ يغالبه فيه ويكاد يتغلّب عليه أحيانا. ومغالبة الخير للشرّ هى هذا التطور المنشئ الذى خطا بالكون و بالإنسانية خطوات واسعة حتى بلغت من طريقها الى الكمال ما بلغته اليوم.

التطور الروحى فى الحياة

وأنت ترى أن هذا التصوير ينطوى على فكرة التقدّم الى الكمال كخير ما عرف التفكير الفلسفى تصويرا من نوعه. يدلّك على ذلك، فضلا عما سبق، تصوير القرآن للتطوّر الروحى فى الحياة منذ خلق الله الأرض ومن عليها. فقد خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش. أفهذه الأيام الستة من أيامنا على الأرض أم هى أيام يصح فيها قوله تعالى: ﴿ وإنّ يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدّون ﴾؟ ليس هذا محل بحثنا وإن وجدت فيه نظريةُ التطوّر، وأنه بعض سنة الله فى الكون، مجالا للقول فسيحا. وخلق الله آدم وحوّاء وقال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى. ولم يردّ إبليس عن إبائه أن علّم الله آدم الأسماء كلها. قال تعالى: ﴿ ويا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجنّةَ فكُلا مِنْ حيثُ شئْتُما ولا تقربا هٰذهِ الشّجرةَ فتكُونا مِنَ الظّالمينَ. فوسوسَ لهُما الشّيْطانُ ليُبدِىَ لهُما ما وُورِىَ عنْهما مِنْ سوْآتِهما وقالَ ما نهاكُما ربُّكما عنْ هٰذهِ الشّجرةِ إلّا أنْ تكُونا ملَكيْنِ أوْ تكُونا من الخالدينَ. وقاسمهُما إنّى لكُما لمنَ النّاصحينَ. فدلّاهُما بغُرورٍ فلمّا ذاقا الشّجرةَ بدتْ لهُما سوْآتُهُما وطفقا يخْصفانِ عليهما منْ ورقِ الجنّةِ وناداهُما ربُّهما ألمْ أنْهكُما عنْ تلْكُما الشّجرةِ وأقُلْ لكُما إنّ الشّيْطانَ لكُما عدُوٌّ مبينٌ. قالا ربّنا ظلمْنا أنْفسنا وإنْ لمْ تغْفرْ لنا وترْحمْنا لنكُوننّ من الخاسرينَ. قال اهْبطُوا بعْضُكُمْ لبعْضٍ عدُوٌّ ولكُمْ فى الأرْضِ مُسْتقرٌّ ومتاعٌ إلى حينٍ. قال فيها تحْيوْنَ وفيها تمُوتُون ومنْها تُخْرجُونَ. يا بنى آدمَ قد أنزلنا عليكم لباسًا يُوارى سوْآتكُمْ وريشًا ولباسُ التّقْوى ذٰلكَ خيْرٌ ذٰلكَ منْ آياتِ الله لعلّهُم يذّكّرون. يا بنى آدم لا يفْتننّكُمُ الشّيْطانُ كما أخْرجَ أبويْكُم منَ الجنّةِ ينْزعُ عنْهما لباسهُما ليُريهُما سوْآتِهما إنّهُ يراكُمْ هُو وقبيلُهُ منْ حيْثُ لا ترونهم إنّا جعلْنا الشّياطينَ أولياءَ للّذين لا يؤْمنُونَ ﴾ (١). وهبط آدم وحوّاء من الجنة بعضُ

(١) سورة الأعراف الآيات من ١٩ — ٢٧

بين الخير والشر . فالعالم الذى يكتشف بعض المدمِّرات للدفاع عن وطنه أو لما تفيد هذه المدمرات العالم حين السلم، وصانع الأسلحة وكل عامل وكل إنسان على الأرض، إنما يعمل الخير أو يرتكب المعصية حسب الوجهة التى يولِّى وجهه شطرها والأثر الذى يترتب على عمله .

هذه إرادة الله وهى سنّته فى الكون . ولما كان قد خلق الناس بعضهم فوق بعض درجات فى الاستعداد لإدراك هذه السنّة، فجعل منهم من يحصرون كل نشاطهم فى البقعة التى ينشئون فيها وفى تثميرها والقيام عليها، ووهب آخرين موهبة الصناعة، وجعل لغير هؤلاء وأولئك من المواهب فى الأعمال والفنون والعلوم ما لا يتيسّر لهم معه الاهتداء الى هذه السنّة، ولما كانت معرفتها أساسية للإنسان كى يهتدى فى الحياة، فقد وهب أفرادا موهبة النبوّة واصطفى آخرين لرسالاته ليبيّنوا لنا الخير والشر، ووهب آخرين مواهب العلم والمنطق ليكونوا ورثة الأنبياء فيهدونا الى ما يجب علينا أن نعمله وما يجب علينا أن نتجنبه، وركّب فينا قوى العقل والعاطفة لندرك ما يُلْقَى الينا من التعاليم فنروض أنفسنا برياضتها كى نحسن التوجه فى الحياة الى الخير وكى نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . فاذا التبس الأمر مع ذلك على بعض الناس فارتكبوا المعصية بجزتهم الجماعة عن معصيتهم، احتفاظا بكيانها أن تجنى هذه المعصية عليه، لم يكن ذلك سَدًّا بينهم وبين التوبة والأوبة الى الحق . فمن ارتكب الخطيئة أو الإثم بجهالة ثم حاسب نفسه وغيرّما بها وعاد الى الله طائعا منيبا، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وتاب عليه . ومن ثم كان للخاطئ والآثم أن يستفيد من عِبَر الأيام وأن يطهِّر قلبه وأن يرجع الى طريق الحق تائبا فيقبل الله منه إنه هو التوّاب الرحيم .

باب التوبة

هذا التصوير للحياة يوفِّق ما بين مذاهب فلسفية شتّى يحسب أصحابها أن لاسبيل الى التوفيق بينها . فهو صريح فى أن الوجود إرادة . ﴿ إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَيْءٍ إذا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . والكون يمثّل مايقع عليه الحس وما ينقطع الحس دونه . وللكون سنن ثابتة نستطيع فى حدود علمنا الواقعىّ أن نقف منها على مايهدينا العقل

وفريقاً يقتلون . لكنّ جمودهم تزعزع بتواتر الرسالات التى كانت بذوراً صالحة أبطأ نباتها ؛ لكنها تركت مع ذلك أثرها . وهل ذهبت كلمة الحق ضياعاً أو هباء فى يوم من الأيام ! . ولئن دفع الغرور الناس لينأَوْا بجانبهم عنها وليستهزئوا أكثر الأمر بصاحبها لقد كانوا يستعيدونها اذا خلَوْا الى أنفسهم يسائلونها عن مبلغ الحق فيها . وكان الذين يدركون ما تنطوى عليه من حق قلّةً وكانوا يستكبرون .

كانت مصر على عهد الفراعنة يؤمن كهنتها بالوحدانية و يعلّمون الناسَ غيرها و يعدّدون لهم آلهتهم . وإنما دعاهم الى ذلك حرصهم على الاحتفاظ بسلطانهم على الناس وجاههم فيهم ؛ حتى لقد حاربوا موسى وأخاه هارون حين جاءا يدعوان فرعون الى الله و يطلبان إليه أن يرسل معهما بنى إسرائيل .

ويذكر القرآن نبأ هؤلاء الأنبياء الذين تعاقبوا على الإنسانية أجيالاً طوالا فظلّت ممعنة فى الضلال إلا قليلا هدى الله الى الحق . وفى قصص الأنبياء ظاهرة يقف عندها النظر . ويحسُن بنا ، لبيانها ، أن نرجع الى عهد موسى وعيسى وما كان بعدهما من رسالة محمد عليه السلام .

حكم العقل والإيمان بالخوارق

هذه الظاهرة هى الانفصال أو ما يشبهه أول الأمر بين حكم العقل ومنطقه والإيمان القائم على المعجزات والخوارق . فقد آزر الله كلًّا من أنبيائه بمعجزة لقومه حتى يصدّقوه ، ولم يصدّقه مع ذلك منهم إلا قليل . لم تكفهم عقولهم ومنطقها ليدركوا أن الله خالق كل شىء وأنه الملك الحق لا إلٰه إلا هو . ولما قضى الله أن يبعث موسى من مصر ، خرج منها قبل بعثه خائفاً يترقّب حتى ورد ماء مدين وتزوّج من أهلها . فلما أذن الله له أن يعود ﴿...نُودِىَ مِنْ شاطئِ الوادِى الأَيْمَنِ فى البُقْعَةِ المُبارَكَةِ من الشَّجَرةِ أَنْ يامُوسَى إنِّى أنا اللهُ ربُّ العالمين . وأَنْ أَلْقِ عصاكَ فلمّا رآها تَهْتَزُّ كأنّها جَانٌّ وَلّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعقِّبْ يا مُوسَى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إنَّكَ مِنَ الآمنِينَ . اُسْلُكْ يَدَكَ فى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بيضاءَ من غيرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إليك جَنَاحَكَ من الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ من رَبِّكَ إلى فرعونَ ومَلَئِهِ إنَّهم كانوا قوماً فاسِقين ﴾ [1] . ولم يؤمن سحرة فرعون

(١) سورة القصص الآيات من ٣٠ الى ٣٢

ذريتهما لبعض عدوٌّ . هبطوا يجاهدون فى الحياة بما وهبهم الله من قوة، وتتعاقب فيها أجيالهم حتى تتم كلمة ربك .

القسوة والتعصب أول الأمر

وكانت القسوة وكان التعصب ، أوّل مظهر لحياة الإنسان على الأرض . يقول تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ آدَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قال لَأَقْتُلَنَّكَ قال إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المتَّقين . لئن بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى ما أنَاَ بباسِطٍ يَدِىَ إليكَ لأقتُلَكَ إِنِّى أخافُ اللهَ ربَّ العالمين . إِنِّى أُرِيد أَنْ تَبُوءَ بإِثْمِى و إِثْمِكَ فتكونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وذٰلِكَ جَزاءُ الظَّالمين. فطَوَّعَتْ له نفسُه قَتْلَ أخيه فقتَلَه فأصبحَ منَ الخَاسِرِينَ . فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ قال يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذا الغُرابِ فأُوارِىَ سَوْأَةَ أَخِى فأَصْبَحَ مِنَ النَّادمين . مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إسرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أو فَسَادٍ فى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَاسَ جميعًا ومَنْ أَحْيَاهَا فكأنَّما أَحْيا النَاسَ جميعًا ولَقَدْ جَاءَتْهُم رُسُلُنَا بِالبيِّناتِ ثم إنّ كثيراً منهم بعد ذٰلِكَ فى الأَرْضِ لَمُسْرِفونَ﴾(١).

وظاهر ما فى قتل الأخ أخاه من استئثار وحسد وقسوة طبع وغلظة كبد . لكن الأخ التقىّ الذى يخاف الله لم يُرِدْ، حين قال له أخوه : لأقتلنّك ، أن يستغفر اللهَ له ، بل قال له : إنّى أريد أن تبوء بإثمى و إثمك فتكون من أصحاب النار . وهذه غلبة الطبيعة الإنسانية ومنطق القصاص على السموّ الروحى و جمال العفو .

وكثُر بنو آدم على الأرض وأرسل الله اليهم النبيّين مبشِّرين ومنذرين . لكنهم أصرّوا على ضلالهم و بقيت حياتهم الروحية جامدة وقلوبهم مُقفلة . أرسل نوحا الى قومه فنادى فيهم : أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ؛ فكذّبه قومه وما آمن معه إلا قليل . وتواترت النبوّات بعد نوح وتواترت الرسالات بالدعوة الى الله وحده ؛ فتغلّب جمود الناس عليها وقعدت عقولهم دون إدراكها واتخذوا من مظاهر الخلق آلهة . وكلما جاءهم رسول من عند ربهم ففريقاً كذّبوا

(١) سورة المائدة الآيات من ٢٧ الى ٣٢

النضوج ما يجعله وحده قديراً على إدراك الحقيقة العليا فى أمر الخالق جلّ شأنه وأنه أحدٌ صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد .

العلوم العقلية

فى هذا الزمن الذى جاء فيه موسى وعيسى، كانت علوم مصر الفرعونية وفلسفتها وتشريعها قد انتقلت الى اليونان والى رومية، وغزت بسلطانها و بمنطقها الأفكار، وأوحت الى الفلسفة اليونانية والى الأدب اليونانى خير ما فيهما . وكانت يقظة العقل ومنطقه قد نبّهت الناس الى أن الخوارق لا تنهض بذاتها دليلاً عقليا على شىء . وكان من أثر ذلك أن جعلت الفلسفة اليونانية من جوارها للمسيحية فى مصر وفلسطين والشام ما عدّد مذاهب المسيحية ، على ما أشرنا اليه أثناء هذا الكتاب . وقد كتب الله فى سنّته أن يكون منطق العقل تاج هذه الحياة الإنسانية ، على ألّا يكون منطقا جافِيًا خاليا من العاطفة ومن الروح، بل على أن يكون منطقا توفيقياً، ينتظم العقل والعاطفة والروح جميعا حتى يستطيع اكتناه غاية ما تستطيعه الإنسانية من أسرار الكون. وكذلك كتب الله فى لوح هذا الوجود أن يقوم نبىّ الإسلام داعيا الى الحق بمنطق العقل تؤازره العاطفة والروح، وأن تكون معجزة هذا المنطق البالغة فى الكتاب الكريم الذى أوحاه الى نبيه؛ به أكمل الله للناس دينَهم وأتمّ عليهم نعمته، و به توج الرسالات وختَمها . و إنما كان ذلك بعد هذا المجهود العظيم المتصل الذى قام به الأنبياء والرسل و وجّهوا به الإنسانية فى تطوُّرها الروحى حتى بلغت الدعوة الإسلامية الى صفاء التوحيد والى الإيمان بالله وحده .

ولِتكمل هذه العقيدة أُحيط الإيمان بها بما ذكرنا من فرائض فى المبحث الأوّل من هذه الخاتمة . وليصل المؤمن الى الذروة منها يجب أن يدأب للوقوف على سنّة الله فى الكون دأباً يتصل حتى يبعث الله الأرض ومن عليها . وهذا ما بدأ به المسلمون فى الصدر الأوّل وفى العصر الذى تلاه حتى آن للزمن أن يدور دورته .

هذه الحجج التى قدمت تدْحض ما أوّل به المستشرقون الجبريّةَ الإسلامية ، وما أوّلوا به ما جاء فى القرآن عن القضاء والقدر وكتاب الأجل . وهى تُثبت بوجه

بدعوة موسى حتى لَقِفتْ عصاه ما صنعوا . إذ ذاك أُلقى السحرةُ سُجَّدًا قالوا آمنّا بربِّ هارون وموسى . ومع ذلك ظلّ بنو إسرائيل فى غيِّهم حتى قالوا لموسى أَرِنَا اللهَ جَهْرةً . ولمّا قُبِض موسى عادوا يذكرون عبادة العجل . وجاءهم أنبياؤهم من بعد موسى يدعونهم الى الله فقتلوهم بغير حق . فلما عادوا من بعد ذلك الى ذكر الله انتظروا أن يقوم فيهم نبيّ يردّ اليهم مُلْكا يحكمون به العالم حكما زمنيًّا .

ليس هذا الحادث بالبعيد عنا فى ظلمات التاريخ . فهو لا يرجع الى أكثر من خمسة وعشرين قرنا . وهو مع ذلك صريح فى الدلالة على غلبة منطق الحس على منطق العقل، والتصوُّرِ المادى على التصوّر الروحى . وبعد أن انقضت عليه خمسة قرون أو ستة جاء عيسى يدعو قومه الى الله يؤيّده الله بروح القُدس من عنده . ولمّا كان عيسى يهوديا، حسِب اليهود أوّل ما نُمِى اليهم خبره، أنه نبيّهم المنتظر ليردّ الى أرض المَعَاد مُلْكَها المضاع . وكانوا أكثر لهفةً على هذا الملك بعد أن طال عليهم حكم الرومان وقسوتهم . على أنهم انتظروا ليتبينوا الحق من أمر عيسى . أفتُراه خاطبهم بمنطق العقل وحده ؟ كلّا ! بل كانت المعجزة طريقه إلى إقناعهم . ولئن صحّت الرواية المسيحية لقد كان تحويله الماء خمرا فى عُرْس "قانا الجليل" أوّل ما لفت نظر الناس اليه . ومن بعد ذلك كانت معجزة الأرغفة والسمكات ومعجزات إبراء المرضى وإحياء الموتى هى التى طوعت له أن يقوم بتعليم الناس من طريق القلب والعاطفة دون أن يكون للعقل ومنطقه الحظ الأوّل فى تعاليمه . لكن هذا الحظ كان مع ذلك أوفر من حظّ مَنْ سبقه من الرسل . كانت تختلط فى تعاليمه دعوة العاطفة الى الرحمة والمغفرة والمحبة بدعوة عقلية غير مدعمة بالدليل المنطقىّ الى ملكوت الله . فاذا تسرّب الشك الى النفوس فى أمر هذه الدعوة العقلية أذِن الله بمعجزة جديدة تزيد الناس بالمسيح تعلُّقا وعليه إقبالا . وكان من معجزاته إبراءِ الأبرص والأكمه وإحياء الميت أن بلغت بمن اتّبعوه فى تعلُّقهم به مدًى بعيدا، حتى حسبه بعضهم ابن الله وحسب آخرون أنه الله تجسَّد على الأرض ليفتدى خطايا البشر . وهذا صريح فى الدلالة على أن منطق العقل لم يكن الى ذلك العهد قد بلغ من

الذى يضحى بعقله وبكرامته وسط صحب يسخرون منه حين يحسب أنه سيِّدهم لأنه يبعثر بينهم ماله، وإلا أمثال هؤلاء من المأفونين الذين يخدعهم المظهر عن الحقيقة واليومُ عن الغد . والذين يسعون لزينة الحياة من مال وبنين وينسون ما سواهما ليسوا أقلّ من هؤلاء أفناً وحمقا . فالمال والبنون زينة . أمّا جوهر الحياة فالباقيات الصالحات من أعمال الخير . ولهذه الباقيات الصالحات يجب أن نبذل من السعى والجهد أكثر مما نبذل لزينة الحياة من مال وبنين .

أرأيت سموَّ الغاية التى تصوِّرها هذه الآية من الذكر الحكيم ؟ فأنت اذا بذلت جهودك ودمك فى سبيل الزينة، وجب أن تبذل روحك وقلبك فى سبيل الجوهر، ووجب أن تخضع الزينة للجوهر، ووجب لذلك أن تجعل كل حياتك وكل مالك وكل بنيك مقصودا بها هذا الجوهر من الباقيات الصالحات؛ فهى خير عند ربك ثوابًا وخير أَمَلًا .

كيف انقلب تفكير المسلمين

كيف انقلب الأمر فى تفكير المسلمين من هذا المنطق السليم الواضح الى اعتقادات لا تتفق معه فى شىء ؟ أشرنا الى ذلك لِمامًا فى البحث الأول من هذه الخاتمة حين أشرنا الى تبدُّل الأمر عند المسلمين بحكم الغُزاة الذين توالوا على الأمبراطورية الإسلامية منذ انتهاء العهد العباسى، كما أشرنا فى تقديم هذه الطبعة الى ما كان من تبدُّل الأمر من الشورى فى الصدر الأول الى الملك العضود أيام الأمويين، فإلى الحق الإلهى" أيام العباسيين . وندع الكلمة الآن فى شىء من تفصيل ذلك الى المغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده؛ إذ يقول فى كتاب الإسلام والنصرانية ما نصه :

أقوال الشيخ محمد عبده

"كان الإسلام دينا عربيًّا، ثم لحقه العلم فصار علما عربيّا بعد أن كان يونانيا، ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الإسلام سبيلا الى ما كان يظنه خيرا له . ظن أن الجيش العربى قد يكون عونًا لخليفة عَلَوِى"، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم، فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيّا من

لا يحتمل أيّ ريب، أن الإسلام دين سعى وكفاح وجهاد فى نواحى الحياة الروحية والعلمية والدينية والدنيوية جميعا، وأن الله كتب فى سنّة الكون أن الإنسان إنما يُجْزَى بعمله، وأنه جلّ شأنه لا يظلم أحدا ولكن النـاس أنفسَهم يظلمون . وهم يظلمون أنفسهم حين يظنون أنهم يصلون الى رضا الله بالقعود والتواكل باسم التوكل على الله .

المال والبنون والباقيات الصالحات

ومع أن هذه الحجج دامغة فى الغرض الذى سقتها له ، فإننى لا أستطيع أن أغفل حجة أخيرة أعتبرها بالغة . تلك هى الحجة المستفادة من قوله تعالى : ﴿ المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خيرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[1] . فليس شىء فى الحياة يحفزنا للعمل والسعى كما يحفزنا كسب الرزق وطلب المال . ففى سبيل المال ينفق الأكثرون من الناس أعظم الجهد ويقومون بما يفوق الطاقة أحيانا . ونظرةٌ يلقيها الإنسان على عالمنا الحاضر تنبئ عما يبذل هذا العالم من دأب ومشقّة ومن سلم وحرب ومن ثورات واضطرابات فى سبيل المال . فى سبيله تُقلَب الملوكيات جمهوريات ، وفى سبيله تُراق الدماء وتزهق الأنفس . والبنون ! أفلاذ أكبادنا التى تمشى على الأرض . أيّة مشقة لا نحتملها من أجلهم وأيّ مُرٍّ لا يحلو مذاقه ما دام يؤدّى إلى طمأنينتهم وإلى كفالة رخائهم ومجدهم ! ! كل عسير يصبح فى جانب سعادتهم يسيرا ، وكل صعب يصبح فى سبيل رضاهم سهلا . بل إن من الناس لَمَن يستهين فى سبيل المال والبنين بما يحسبه مستحيلا عليه لولا المال ولولا البنون . ومن الناس من يُبالغ فى ذلك حتى لَيضحِّى فى سبيله بهناءته بل بحياته .

مع ذلك فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا . وليست الزينة شيئا الى جانب الجوهر . ولا يضحِّى بالجوهر فى سبيل الزينة إلا الجهلاء والحمق : إلا المرأة التى تستهين بصحتها لتظهر جميلة سويعةً أو سويعات من زمان ، وإلا الشابّ المغرور

(١) سورة الكهف آية ٤٦

الفكر وتجمد العقول. ثم بثُّوا أعوانهم فى أطراف الممالك الإسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يُقنع العامة بأنه لا نظر لهم فى الشؤون العامة، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فُرِض فيه النظر على الحكام دون من عداهم؛ ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو متعرِّض لما لا يعنيه ؛ وأن ما يظهر من فساد الأعمال، واختلال الأحوال، ليس من صنع الحكام وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان ؛ وأنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك الى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصّة نفسه . ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك وفى الموضوعات والضّعاف ما شدّ أزرهم فى بثّ هذه الأوهام . وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلِّين، وتعاون ولاة الشرّ على مساعدتهم فى جميع الأطراف، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم، وغُلًّا للأيدى عن العمل . والعامل الأقوى فى حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة فى الدين وموافقة الهوى . أمورٌ إذا اجتمعت أهلكت . فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ؛ ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال .

"هذه السياسة، سياسة الظلمة وأهل الأثرة، هى التى روّجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات ، وأخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات. فكلّ ما تراه الآن مما تسميه إسلاما فهو ليس بإسلام، وإنما حفِظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج، ومن الأقوال قليلا منها حرِّفت عن معانيها . ووصل الناس بما عرض على دينهم من البِدع والخرافات الى الجمود الذى ذكرته وعدّوه دينا . نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه . فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام وإنما هو شىء آخر سمّوه إسلاما"(١) .

(١) الإسلام والنصرانية من صفحة ١٢٢ الى ١٢٥

الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه، ويصطنعها بإحسانه، فلا تساعد الخارج عليه ولا تُعين طالب مكانه من الملك . وفى سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك . هنـالك استعجم الإسلام وانقلب عجميا .

" خليفةٌ عباسىّ أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه، وبئس ما صنع بأمته ودينـه . أكثرَ من ذلك الجنـد الأجنبىّ وأقام عليه الرؤساء منه ؛ فلم تكن إلا عشـية أو ضحاها حتى تغلّب رؤساء الجنـد على الخلفاء واستبدّوا بالسلطان دونهم وصارت الدولة فى قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقـل الذى راضه الإسـلام والقلب الذى هـذّبه الدين ، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهـل يحملون ألوية الظلم . لبسوا الإسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شىء الى وجدانهم ؛ وكثير منهم كان يحمـل إلٰهه معه يعبده فى خلوته، ويصلى مع الجمـاعات لتمكين سلطته . ثم عدا على الإسـلام آخرون كالتتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره . أىّ عدوّ لهؤلاء أشدّ من العلم الذى يعرِّف الناس منزلتهم ويكشف لهم قبح سيرهم ! فمالوا على العلم وصديقه الإسـلام ميلتهم . أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة، وحملوا كثيرا من أعوانهم أن ينتظموا فى سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ليُعَدّوا من قبيـله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغِّض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه . ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقـوى وحماية الدين . زعموا الدين ناقصا ليكملوه ، أو مريضا ليعلِّلوه، أو متداعيا ليدعموه، أو يكاد أن ينقضَّ ليقيموه .

" نظروا الى ما كانوا عليه من نخفخة الوثنية ، وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية، فاستعاروا من ذلك للاسلام ماهو براء منه. لكنهم نجحوا فى إقناع العـامة بأن فى ذلك تعظيم شـعائره ، وتفخيم أوامره . والغوغاء عون القائم، وهم يد الظالم؛ نخلقوا لنـا هذه الاحتفالات، وتلك الاجتماعات ؛ وسنُّوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرّق الجماعة، وأركس الناس فى الضلالة؛ وقرّروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدّم ، وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف

والقرآن فى هـذا وفى الدعوة اليه أبلغ ما عرف البشر . وقد تلا القارئ من ذلك عند الكلام عن الزكاة وعن الصدقة ما يغنينا عن معاودة القول فيه . وحسبُنا ردًّا على إيرفنج وأمثاله أن القرآن دعا الى قصد السبيل فى كل شيء .

من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ

بقيت العبارة الأخيرة من كلام إيرفنج . هذه العبارة التى يعيِّرنا الغرب بمثلهـا على حين هى عار الغرب ووصمته وجرثومة القضاء على كبريائه وعلى حضارته . يقول إيرفنج : « إن بقاء الهلال حتى اليوم فى أوربا حيث كان يومًا مّا بالغًا غاية القوة، إنمـا يرجع الى اختيار الدول المسيحية الكبرى ، أو يرجع بالأحرى الى تنافسها . ولعل الهلال باقٍ ليكون دليلا جديدا على أن : « مَنْ أَخَذ بالسيف فبالسيف يُؤْخَذ » .

«من أَخَذ بالسيف فبالسيف يؤخذ» . هذه آية الإنجيل يوجهها إيرفنج باسم المسيحية الى الإسلام . ياعجبا ! لعل لإيرفنج من العذر أنه قالها منذ قرن مضى حيث لم يكن الاستعمار الغربىّ فى تعبيرنا ، المسيحىّ فى تعبيره ، قد بلغ من الشره والجشع ومن الأخذ بالسيف ما بلغ اليوم . لكن المـاريشال اللِّنْبِي الذى استولى على بيت المَقْدِس فى سنة ١٩١٨ باسم الحلفاء قد قال مثل هذه العبارة إذ نادى عند هيكل سليمان : «اليوم انتهت الحروب الصليبية» . وقال الدكتور بيترسن سميث فى كتابه عن سيرة المسيح : «إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حربًا صليبية ثامنـة أدركت المسيحية فيها غايتها » . ولقد يكون من الحق أن هـذا الاستيلاء لم ينجح بجهود المسيحيين ، وإنمـا نجح بجهود اليهود الذين سخّروهم ليحققوا حلم إسرائيل القديم فيجعلوا من أرض المعاد وطنا قوميا لليهود .

الاسلام لم يأخذ بالسيف

«من أَخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ» . لئن صدقت كلمة الإنجيل هذه على قوم لهى أشدّ ماتكون صدقا اليوم على أوربا المسيحية . أمّا الإسلام فلم يأخذ بالسيف، ولن يؤخذ لذلك بالسيف . وأوربا المسيحية قد أخذت بالسيف فى هذا العصر الأخير إمعانًا فى الإباحية والترف مما ينسبه إيرفنج باطلا للإسلام والمسلمين . أوربا

مذهب المتأخرين من المسلمين

هذه الحال التى صوّرها الشيخ محمد عبده أدّت الى ذيوع مبادئ متناقضة نشرها أصحابها على أنها من الإسلام وأنها بعض ما أمر به الله ورسوله . من هذه المبادئ مذهب الجبرية الذى صوّره المتأخرون تصويرا يخالف ما جاء فى القرآن . فقد رأيت تصوير القرآن لهذا المذهب فيما سبق . أمّا أولئك المتأخرون فدعوا الى القعود والاستسلام، وقالوا إن العيش ليس بالسعى ولا التدبير، وإنما هو بالرزق وبالتقدير، دون أن يكون لعمل الإنسان فيه فضل . وهذه جبرية مخطئة أتاحت لبعض أهل الغرب أن يتّهم الإسلام بها باطلا من غير حق . ومن هذه المبادئ مذهب ازدراء المادّة وعدم الأخذ منها بأىّ نصيب . وهذا مذهب الرواقيين اليونانيين، وهو مذهب انتشر فى بعض العصور عند طوائف من المسلمين مع مخالفته لقوله تعالى : ﴿ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنْيا ﴾ . ومع هذه المخالفة كان لهذا المذهب أدب مترامى الأطراف فى العصر العباسىّ وما بعده . والقرآن إنما يدعو الى قصد السبيل؛ فلا يرضى هذا الحرمان، كما أنه لا يرضى الإباحية التى زعم إيرفنج أنها غمست المسلمين فى الترف وصرفتهم عن الجهاد، وهوت بالأمم الإسلامية الى حيث هى اليوم .

الإسلام والمسيحية وقصد السبيل

ويزعم الكاتب الأمريكى أن المسيحية تدعو الى الطهر والإيثار على نقيض ما يتقوله هو على الإسلام . ولست أُريد أن أوازن بين الإسلام والمسيحية فى هذه المسألة لأنهما فيها متفقان غير مختلفين . وكثيرا ما تجرّ الموازنة الى جدل وتنابز لا خير للمسيحية ولا للإسلام فيه . لكنى ألاحظ، وأقف عند الملاحظة، أن بين سيرة عيسى عليه السلام وما ينسب الى المسيحية من دعوة الى الرواقية والإمعان فى الزهد اختلافا بيّنا . فلم يكن المسيح رِواقيًّا؛ بل كانت أولى معجزاته أن أحال الماء خمرا فى عرس "قانا الجليل" حيث كان مدعوّا، وحيث أراد ألا يُحْرَمَ الناسُ الخمرَ بعد نفادها . وهو لم يكن يأبى دعوة الفريسيين الى مآدبهم الفخمة ولا كان يأبى على الناس أن يستمتعوا بأنعُم الله . وسيرة محمد فى ذلك أشدّ إمعانا فى قصد السبيل . صحيح أن عيسى كان يدعو الأغنياء الى البرّ بالفقراء ومحبتهم من غير منٍّ .

سلطانه . لذلك تعاقبت على أممه دول حكمتها وقهرتها وتحكمت فيها ؛ فلم يغيِّر ذلك من إسلامها ولا غيّر من إيمانها . وما تزال أوربا اليوم تحكم الشعوب الإسلامية وتتحكم فيها ، ولن يغيِّر ذلك من إيمانها بالله شيئا . فأمّا الذين يأخذون المسلمين اليوم بالسيف فمصيرهم ، كى تصدق عليهم كلمة الإنجيل ، أن يؤخذوا بالسيف جزاء وِفاقا .

عصبة الأمم الاسلامية

ردّ النبي الأمراء الى إماراتهم والملوك الى ممالكهم . ولقد كانت بلاد العرب فى آخر عهده عصبة أمم عربية إسلامية ، ولم تكن فيها مستعمرة خاضعة لمكة أو ليثرب . كان العرب يومئذ جميعا سواسية أمام الله فى إيمانهم المتين به . وكانوا جميعا يدا واحدة على من اعتدى عليهم أو حاول فتنتهم عن دينهم . وظلّت الأمم الإسلامية من بعد ذلك والى عهد الانحلال عصبة أمم إسلامية ، مقرّ الخليفة فيها هو مقرّ العصبة . لم تستأثر دار الخلافة بالسلطة الروحية ولا استأثرت بالعلم ونوره ؛ بل كانت كل الأمم الاسلامية لا تعرف سلطة روحية غير أمر الله . وكانت العواصم الإسلامية كلها عواصم للعلم والفن والصناعة ؛ وظل ذلك شأنها حتى تغير المسلمون للإسلام وأنكروا مبادئه الكريمة ونسوا أُخوّة المؤمنين ونسوا أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه . هنالك غلَب عليهم الاستئثار . وهنالك لعبت السياسة المدمِّرة أدوارها فصار السيف حكما . ومن يأخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ . لذلك نهضت أوربا المسيحية منذ القرن الخامس عشر الميلادى الى حياة روحية جديدة ، ربما كانت تفيد العالم حقًّا لولا أن أسرع اليها الفساد الذى لم يكن منه بدٌّ بسبب تفرُّق المسيحية شِيعا . على أنها فى فترة النهوض هذه واجهت الأمم الإسلامية التى نسيت الإسلام فأخذتها بالسيف وظلت ممعنة فى أخذها به ، ثم جعلته بينها و بين الأمم الإسلامية حكما . ومتى حكم السيف فقل على العقل وعلى العلم وعلى الخير وعلى المحبة وعلى الإيمان بل على الإنسانية نفسها العفاء .

وحكم السيف العالم اليوم هو سبب هذه الأزمة الروحية والنفسية التى يجتازها العالم ويئن من هولها . وقد آمنت الدول التى تحكم العالم بالسيف أثناء الحرب

المسيحية تقوم اليوم بالدور الذى قام به المغـول والتتار حين اتّشحوا ظاهرا برداء الإسلام ثم فتحوا الممالك دون أن يعبئوا بتعاليم الإسلام فيها فخفقت عليهم وعلى المسلمين الكلمة، وكان هذا التدهور والانحلال الذى أصاب الشعوب الإسلامية . وأوربا المسيحية اليوم أقلّ فضـلا من أولئك التتار والمغول . فالممـالك التى فتحها هؤلاء سرعان ما دخلت فى الإسلام حين رأت عظمته وبساطته. أما أوربا فلا تغزو لتنشر عقيدة ولا لتدعو الى حضارة . هى إنمـا تريد استعمارا وتريد أن تجعل من العقيدة المسيحية مطيّة هـذا الاستعمار . لذلك لم تنجح الدعاية التبشيرية الأوربية لأنها دعاية غير مخلصة. وهى لم تنجح ولن تنجح فى الأمم الإسلامية خاصة لأن عظمة الإسلام وبساطته وأخذه بحكم العقل والعلم لا تجعل لأية دعاية دينية أملًا فى النجاح بين أبنائه .

« مَنْ أَخَذ بالسيف فبالسيف يؤخذ » . هذا حق . وهو إن انطبق على المتأخرين من المسلمين الذين غزوا ليفتحوا الممالك وليستعمروا لاليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم، لهو اليوم أشد انطباقا على هذا الغرب الذى يغزو و يفتح ليذل الشعوب ويستعمرها . فأمّا المسلمون الأوّلون من عهد النبي وخلفائه ومن جاءوا بعـدهم فلم يغزوا للفتح والاستعمار، وانما غزوا دفاعا عن عقيدتهم حين هددتها قريش وحين هددها العرب، ثم حين هددها الروم وهددها الفرس . وهم فى هذا الغزو لم يفرضوا على أحد دينهم . فلا إكراه فى الدين . وهم فى هذا الغزو لم يقصدوا الى الاستعمار؛ فقـد ترك النبي ملوك العـرب وأمراءها على إماراتهم وممالكهم؛ إنما أرادوا حرية الدعوة للعقيدة . ولمـا كانت العقيدة الإسلامية قوية بالحق الذى تنادى به، قوية بأنها لا تجعل فضـلا لعربى على عجمى إلا بالتقوى، وبأنها لا تجعـل لغير الله على الإنسان سلطانا، أسرعت الى الانتشار فى ربوع الأرض كلها كما تسرع كل حقيقة صادقة الى الانتشار. فلما جاء المتأخرون ممن دخلوا فى الإسلام وغزوا للفتح وأخذوا بالسيف أُخذوا من بعد ذلك بالسيف. لكن الإسلام لم يأخذ ولن يؤخذ بالسيف. هو لم يأخذ بالسيف شـيئا قط؛ بل اسـتولى على العقول والقـلوب والضمائر بقوّة

الناس التسامح وتسود بينهم المودّة، ويومئذ يتخاطبون بلغة غير التى يتخاطبون اليوم بهـا، ويتبادلون الثقة فيما بينهم وإن بعـد بينهم المزار، ويعملون الخير جميعا لوجه الله، ويومئذ تنتفى الخصومة والبغضاء وتعلو كلمة الحق ويسود السلام الوجود كله ويرضى الله عن الناس ويرضون عنه .

السمق فى التسامح أساس السلام

يقول تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَـوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُم عِنـدَ رَبِّهِم وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) . أرأيت فى باب التسامح أفسح من هـذا الأفق ! ! من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم، لا فرق بين المؤمنين ومن لم تبلغهم دعوة الإسلام على حقيقتها من غير تشويه من اليهود والنصارى والصابئين (٢) .

(١) سورة البقرة آية ٦٢

(٢) روى الطبرى فى تفسير هذه الآية : أن الذين آمنوا هم الذين صدقوا رسول الله، والذين هادوا هم اليهود، وإنما سموا اليهود من قولهم إنا هدنا اليك أى تبنا . والنصارى هم أتباع عيسى؛ وتسميتهم النصارى هى فى قول نسبة الى الناصرة وهى القرية التى ولد بها عيسى بفلسطين . وفى قول آخر لقول عيسى : ومن أنصارى الى الله، فسمى أنصاره نصارى . والصابئون هم فى رأى : الذين يعبدون الملائكة، وفى رأى آخر: قوم يقولون لا إله إلا الله وليس لهم كتاب ولا نبى ولا عمل إلا قول لا إله إلا الله، وفى رأى ثالث : إن الصابئين لا دين لهم . وفسر ابن جرير الآية بأنه تعالى يعنى بقوله : (من آمن بالله واليوم الآخر) من صدق وأقر بالبعث بعد الممات يوم القيامة وعمل صالحا فأطاع الله فلهم أجرهم عند ربهم، أى فلهم ثواب عملهم الصالح عند ربهم . وأما قوله : (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فانه يعنى به جل ذكره، لا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وعيشها عند معاينتهم ما أعد الله لهم من الثواب والنعيم المقيم عنده . وقد أورد ابن جرير بعد ذلك أن هذه الآية نزلت فى نصارى هدوا سلمان الفارسى الى دينهم وذكر له أحدهم أن نبيا سيظهر فى بلاد العرب ودله على أمارات نبوته ونصح له أن يتبعه إن لحقه . فلما أسلم سلمان وذكر للنبي أمر هؤلاء النصارى قال له النبي : هم يا سلمان من أهل النار، فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية (إن الذين آمنوا والذين هادوا الخ) . وفى رأى : أن الله نسخ هذه الآية بقوله : (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) . لكن ابن جرير يضيف : إن الذى قلنا من التأويل الأول أشبه بظاهر التنزيل لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان بعض خلقه دون بعض منهم . والخبر بقوله من آمن بالله واليوم الآخر عن جميع ما ذكر فى أول الآية . وربمـا أمكن القول تأييدا لرأى ابن جرير فى تأويل الآية : (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) أنها إنمـا تنصرف الى المسلمين الذين يبتغون غير الاسلام دينا بعد أن ولدوا فى الاسلام أو آمنوا به . فأما من ولد غير مسلم ولم تبلغه رسالة الدعوة الاسلامية على حقيقتها ومن غير تشويه فشأنه شأن الذين سبقوا رسالة محمد أو عاصروه ولم يعرفوا رسالته على حقيقتها . (راجع تفسير الطبرى الجزء الأول صفحة ٢٥٣ الى ٢٥٧) .

الكبرى الماضية، أى منذ عشرين سنة ، بهذه الحقيقة ، فأرادت أن تقر حكم السلام فى العالم، وأقامت عصبة الأمم لتحقيق هذه الغاية . وعهدة هذه العصبة تتلخص كلها فى قوله تعالى : ﴿ وإنْ طَائِفتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فإنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ الله فإنْ فَاءتْ فأَصْلِحُوا بينَهما بِالعَدْلِ وأَقْسِطُوا إنّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ . إنَّما المُؤْمِنُونَ إخْوةٌ فَأَصْلِحُوا بين أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ لعلّكم تُرْحَمُونَ ﴾ [1] .

روح السلام فى العالم

لكن روح السلام لم تسد العالم بعدُ؛ لأن أساس الحضارة الغالبة فيه هو الاستعمار ، الاستعمار القائم على أساس القوميات وتنافسها ومحاولة كل دولة قوية استغلال الدول الضعيفة . ومن حق كل أمة مغلوبة على أمرها ، بل أول واجب عليها ، أن تعمل لتحطّم نير الغالب . ولذلك كان الاستعمار بذرة الثورة والحرب ونواتهما . فما بقى الاستعمار فلن يكون للسلام الغَلَب ولن تضع الحرب أوزارها إلا ظاهرا ، وستظلّ الأمم ينظر بعضها إلى بعض نظرة التوجُّس والحذر ، بل نظرة التربُّص للاغتيال . وأنّى يكون سلام وهذه النفسية باقية ! إنما يكون السلام يوم يغيِّر الناس فى مختلف أمم الأرض ما بأنفسهم ، ويوم يؤمنون بالسلام إيمانا حقّا ، ويقيمون على أساسه تعاليمهم ، ويجمعون أمرهم بإخلاص على الوقوف فى وجه كل محاول تعكير صفوه .

وإنما يكون ذلك يوم لا يكون الاستعمار أساس حضارة العالم ، ويوم يرى الناس جميعا فى مختلف بقاع الأرض أن واجبهم الأوّل أن يُعين قويُّهم ضعيفَهم ، وأن يرحم كبيرهم صغيرهم ، وأن يهذّب عالمهم جاهلهم ، وأن ينشروا لواء العلم فى نواحى الأرض جميعا ، حرصًا على أن يسعد الناس به ، لا على أن يُتَّخذ أداة لاستغلال الشعوب باسم العلم ، وباسم الصناعة التى تستفيد من العلم .

يوم يؤمن العالم كله بهذا المبدأ ، ويوم يشعر الناس جميعا بأن العالم كله وطن لهم ، وبأنهم جميعا إخوة يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه — يومئذ يسود بين

(١) سورة الحجرات آيتا ٩ و ١٠

قال شيئا . لكن ألفا وثلاثمائة وخمسين سنة انقضت وما يزال بلاغ محمد عن ربه آية الحق والهدى . وبحسبنا على ذلك مثلا واحدا نضربه : ذلك ما أوحى الله إلى محمد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين . انقضت أربعة عشر قرنا لم يقل أحد خلالها إنه نبيٌّ أو إنه رسول رب العالمين فصدّقه الناس . قام فى العالم أثناء هذه القرون رجال تسنّموا ذروة العظمة فى غير ناحية من نواحى الحياة فلم يوهب أحدهم هبة النبوّة والرسالة . ومن قبل محمد كانت النبوات تترى والرسل يتتابعون ، فينذر كل قومه أنهم ضلوا ويردّهم إلى الدين الحق ولا يقول أحدهم أنه أرسل للناس كافة أو أنه خاتم الأنبياء والمرسلين . أمّا محمد فيقولها فتصدّق القرون كلامه . ما كان حديثا يُفْتَرَى ولكن تصديق الذى بين يديه وهدى ورحمة للعالمين .

وغاية ما أرجو أن أكون قد وُفِّقت لما قصدت إليه من هذا البحث ، وأن أكون قد مهدت به السبيل إلى مباحث فى موضوعه أكثر استفاضة وعمقا . ولقد بذلت من الجهد فى ذلك ماوسعته طاقتى ومايسّره الله لى . و﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[1] .

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦

ويقول جل شأنه : ﴿ وإنّ من أهلِ الكتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ باللهِ وما أُنْزِلَ إليكم وما أُنْزِلَ إليهم خاشعينَ للهِ لا يَشْتَرُون بآياتِ اللهِ ثمناً قليلاً أُولئك لهم أجرُهم عِندَ ربِّهم إنّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ ﴾[1] .

أين هذا مما يسود العالم اليوم باسم الحضارة الغربية من تعصُّب للقومية وللدين وما يجرّه هذا التعصب من حروب وكوارث! .

هذا الروح السامى فى تسامحه هو الذى يجب أن يسود العالم إذا أريد أن تستقر فى العالم كلمة السلام ليسعد الناس به . وهذا الروح هو الذى يجعل كل دراسة لحياة من أوحى الله هذا الكلام اليه دراسة علمية خالصة لوجه العلم وحده جديرةً بأن تجلو أمام العلم من المسائل النفسية والروحية ما يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التى تلتمسها . وكل تعمق فى هذه الدراسة يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمنا أن لا سبيل إلى تعليلها تعليلا علميا ثم إذا مباحث علم النفس تفسّرها وتجلوها واضحة للتعقلين . فحياة محمد ، كما رأيت ، حياة إنسانية بلغت من السموّ غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه القدر أن يحاول بلوغ الكمال الإنسانى من طريق الإيمان والعمل الصالح . وأىّ سموّ فى الحياة كهذا السموّ الذى جعل حياة محمد قبل الرسالة مضرب المثل فى الصدق والكرامة والأمانة ، كما كانت بعد الرسالة كلها التضحية فى سبيل الله وفى سبيل الحق الذى بعثه الله به ، تضحية استهدفت حياته من جرائها للموت مرات ، ذلك بعد أن أغراه قومه ، وهو فى الذروة منهم حسبا ونسبا ، بالمال وبالملك وبكل المغريات . حياة محمد وسموها

بلغت هذه الحياة الإنسانية من السموّ ومن القوة ما لم تبلغه حياة غيرها ، وبلغت هذا السموّ فى نواحى الحياة جميعا . وما بالك بحياة إنسانية اتصلت بحياة الكون من أزله إلى أبده ، واتصلت بخالق الكون بفضل منه ومغفرة . ولولا هذا الاتصال ، ولولا صدق محمد فى تبليغ رسالة ربه ، لرأينا الحياة على كر الدهور تنفى مما

(١) سورة آل عمران آية ١٩٩

وأرسل إلىّ بعض الأصدقاء مؤلفات لهم راجعتها واستعنت بهـا . من ذلك كتاب صديقى الفلسطينى الأستاذ محمد إسـعاف النشاشيبى (الإسلام الصحيح) . ومنهـا كتابان للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، أحدهما (مفتاح كنوز السنة) الذى ترجمه عن المستشرق فنسنك ثم أكمله، والآخر (تفصيل آيات القرآن الحكيم) الذى وضعه على نظـام المستشرق چول لابوم . وهـذا الكتاب الأخير جم الفائدة لكل من أراد الرجوع الى القرآن فى مباحثـه ، فهو يجمع ما جاء فى الكتاب فى كل موضوع جمعا دقيقا نظـامه غاية الدقة . وقد رجعت فيما خلا ذلك الى كتب أخرى أضفتها الى سجل المراجع .

ومنذ بدأت هذه الطبعة بمطبعة دار الكتب المصرية رأيت رجال الدار جميعا يبدون من العناية بالكتاب ما لا يبدى إنسان أكثر منه لو أن الكتاب كان كتابه . كان ذلك شأن مدير الدار محمد بك أسـعد برّاده ، ومدير المطبعة الأستاذ محمد نديم، وشأن القسم الأدبى كله بدار الكتب برياسة الأستاذ أحمد زكى العدوى . وكم من مرة شاركنى رجال هذا القسم الأدبى فى تحقيق بعض مسائل اختلفت عليها كتب الحديث وكتب السيرة كى نصل الى غاية ما يستطاع من الدقة والضبط . وكم من مرة اشتركنا فى تحقيق لفظ من الألفاظ، أو تركيب من التراكيب من حيث اللغة وعلومها، لننفى كل دخيل من الكتاب ما استطعنا الى ذلك سبيلا . والقسم الأدبى هو الذى وضـع من هوامش الكتاب التنبيه الى مواضع الآيات من سور القرآن، وشرح بعض الألفاظ اللغوية التى رآها فى حاجة الى الشرح .

وقد تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأسـتاذ الأكبر الشيخ محمـد مصطفى المراغى فاطّلع على ما جدّ فى هذه الطبعة من فصول .

تقـــدير وشكـر

نوهت فى آخر الطبعة الأولى لهذا الكتاب بما بذله لى حضرة صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا مدير بنك مصر وشركاته من مختلف صور العون، فكان له فضل معاونتى أكبر المعاونة فى الإسراع إلى إصدار الكتاب وفى أن أجعل من نسخ تلك الطبعة العشرة الآلاف ألفًا للجمعية الخيرية الإسلامية . ونوهت كذلك بتأنق محمود بك خاطر مدير مطبعة مصر تأنقا أظهر الكتاب لقرائه فى خير ثوب له . وذكرت معاونة الأستاذ عبد الرحيم محمود المصحح بدار الكتب فى تصحيح الكتاب وضبط الأعلام والآيات فيه، كما ذكرت ما للأساتذة الخطاطين محمد حسنى، وسيد إبراهيم، ومصطفى بك غزلان من فضل فى تنسيق صحفه الأولى ، وما للأساتذة : إبراهيم الابيارى أفندى ، وعبد الحفيظ شلبى أفندى ، والشيخ أحمد عبد العليم البردونى، وعلى أحمد الشهداوى أفندى، المصححين بدار الكتب، من مجهود فى وضع فهارسه . وأشرت إلى الأستاذ على فوده الذى كان عونى وعون الأستاذ عبد الرحيم محمود فى التصحيح . واعتذرت لسائر من عاونونى عن عدم ذكر أسمائهم مخافة أن يجنى النسيان على بعضهم . و إنى لأ كرر لهؤلاء جميعا الشكر اليوم لمناسبة صدور هذه الطبعة الثانية .

وقد تواتر العون منذ ظهور الطبعة الأولى إلى أن تمت هذه الطبعة الثانية من كثيرين لا أنسى لهم فضلهم . فقد تفضل الأستاذ الشيخ أحمد مصطفى المراغى المدرّس بكلية اللغة العربية بالأزهر فراجع الكتاب فى نسخته الخاصة و بعث بها إلىّ وعلى هوامشها بعض ملاحظات لغوية أخذت بالكثير منها فى هذه الطبعة . كذلك أرسل إلىّ غير واحد مثل هذه الملاحظات فأعرتها ما هى جديرة به من العناية .

فهـارس الكتاب

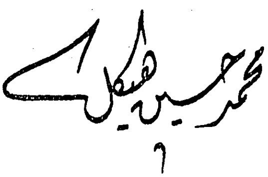
فهـــرس الأعـــلام

(١) فى ص ٢٥٥ : «الحضرمى» وهو تحريف .

أما العنـاية بالطبع و إخراج الكتّاب لقرائه على ما يرونه من دقة وتأنق فيرجع فضلها الى الأســتاذ محمد نديم مدير المطبعة والى أعوانه من رجال الفن فى الطباعة . وهم فى ذلك إنمـا يعملون بقوله عليه السلام « إن العبد إذَا عمِـل عملاً أحبَّ الله أن يتُقنه » .

ولئن ذكرت ما أعاننى به رجال الدار وغيرهم لأشكرهم عليه ولأقدّره لهم ليكونن كل شكر وكل تقدير دون مجهودهم قدرا . فليتولَّ الله جزاءهم عن حسن صنيعهم . وعنده جل شأنه حسن الجزاء .

وأحمد الله وأرجو أن يوفقنا للخير ولحسن أداء واجبنا فى الحياة .



فهـــرس القبـــائل

(و)

(ى)

(ت)

(ث)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

فهـــــرس الأماكن

فهرس الغزوات والأيام والبيع

فهـــــرس الكتب

الفصل الثانى — مكة والكعبة وقريش :

الفصل الثالث — محمد : من ميلاده إلى زواجه :

الفصل الرابع — من الزواج الى البعث :

الفصل الخامس — من البعث الى إسلام عمر :

فهـــرس الموضـــوعات

تقـــديم الكتاب :

تقـــديم الطبعة الثانيــــة :

الفصل الأول — بلاد العرب قبل الإسلام :

الفصل العاشر — هجرة الرسول :

الفصل الحادى عشر — أوّل العهد بيثرب :

الفصل الثانى عشر — السرايا والمناوشات الأولى :

الفصل الثالث عشر — غزوة بدر الكبرى :

الفصل السابع عشر — أزواج النبي :

الفصل الثامن عشر — غزوتا الخندق و بنى قريظة :

الفصل التاسع عشر — من الغزوتين الى الحديبية :

الفصل الرابع عشر — بين بدر وأحد :

الفصل الخامس عشر — غزوة أحد :

الفصل السادس عشر — آثار أحد :

الفصل الخامس والعشرون — حنين والطائف :

الفصل السادس والعشرون — إبراهيم ونساء النبي :

الفصل السابع والعشرون — تبوك وموت ابراهيم :

الفصل الثامن والعشرون — عام الوفود وحج أبي بكر بالناس :

الفصل المتم للعشرين — عهد الحديبية :

الفصل الحادى والعشرون — خيبر والرسل الى الملوك :

الفصل الثانى والعشرون — عمرة القضاء :

الفصل الثالث والعشرون — غزوة مؤتة :

الفصل الرابع والعشرون — فتح مكة :

كمل طبع (الطبعة الثانية) من كتاب " حياة محمد "
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ١١ ذى القعدة
سنة ١٣٥٤ (٤ فبراير سنة ١٩٣٦) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

الفصل التاسع والعشرون — حجة الوداع :

الفصل المكمل للثلاثين — مرض النبى ووفاته :

الفصل الحادى والثلاثون — دفن الرسول :

خاتمـــة فى مبحثين

(١) الحضارة الإسلامية كما صوّرها القرآن :

(مطبعة دار الكتب المصرية ٢٨/١٩٣٥/١٠٠٠٠)

(مطبعة دار الكتب

REDUCT

RATI

14:1

UCTION
ATIO
4:1

200 mm

150 mm

100 mm

A3

A4

A5

1.0 mm ABCDEFGHIJKLMNOPQRSTUVWXY abcdefghijklmnopqrstuvwxyz1234567

1.5 mm ABCDEFGHIJKLMNOPQRSTU abcdefghijklmnopqrstuvwxyz123

2.0 mm ABCDEFGHIJKLMNOPQRS abcdefghijklmnopqrstu 1234567890

2.5 mm ABCDEFGHIJKLMNOPQR abcdefghijklmnopqrs 1234567890

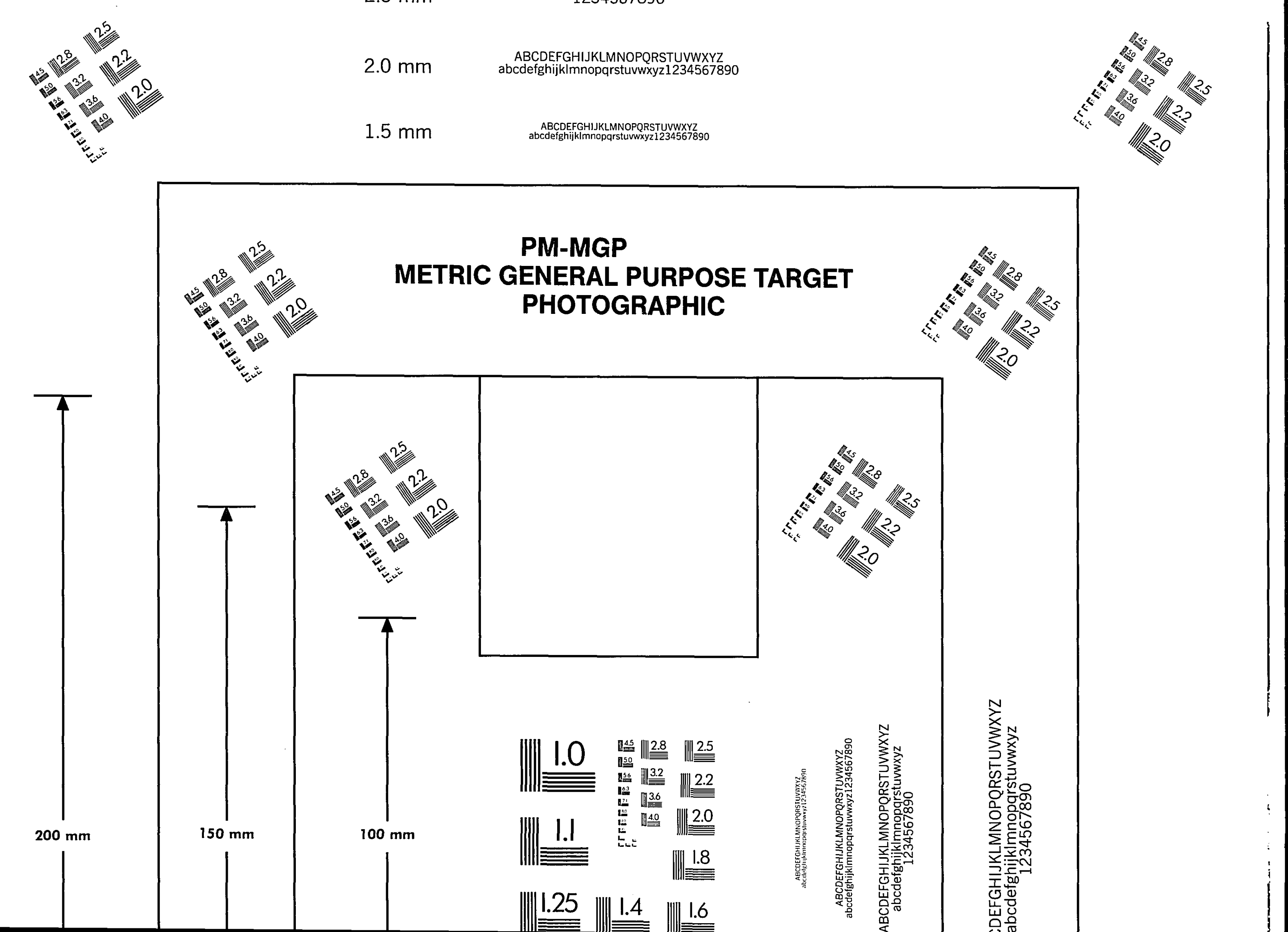
PRECISION℠ RESOLUTION TARGETS

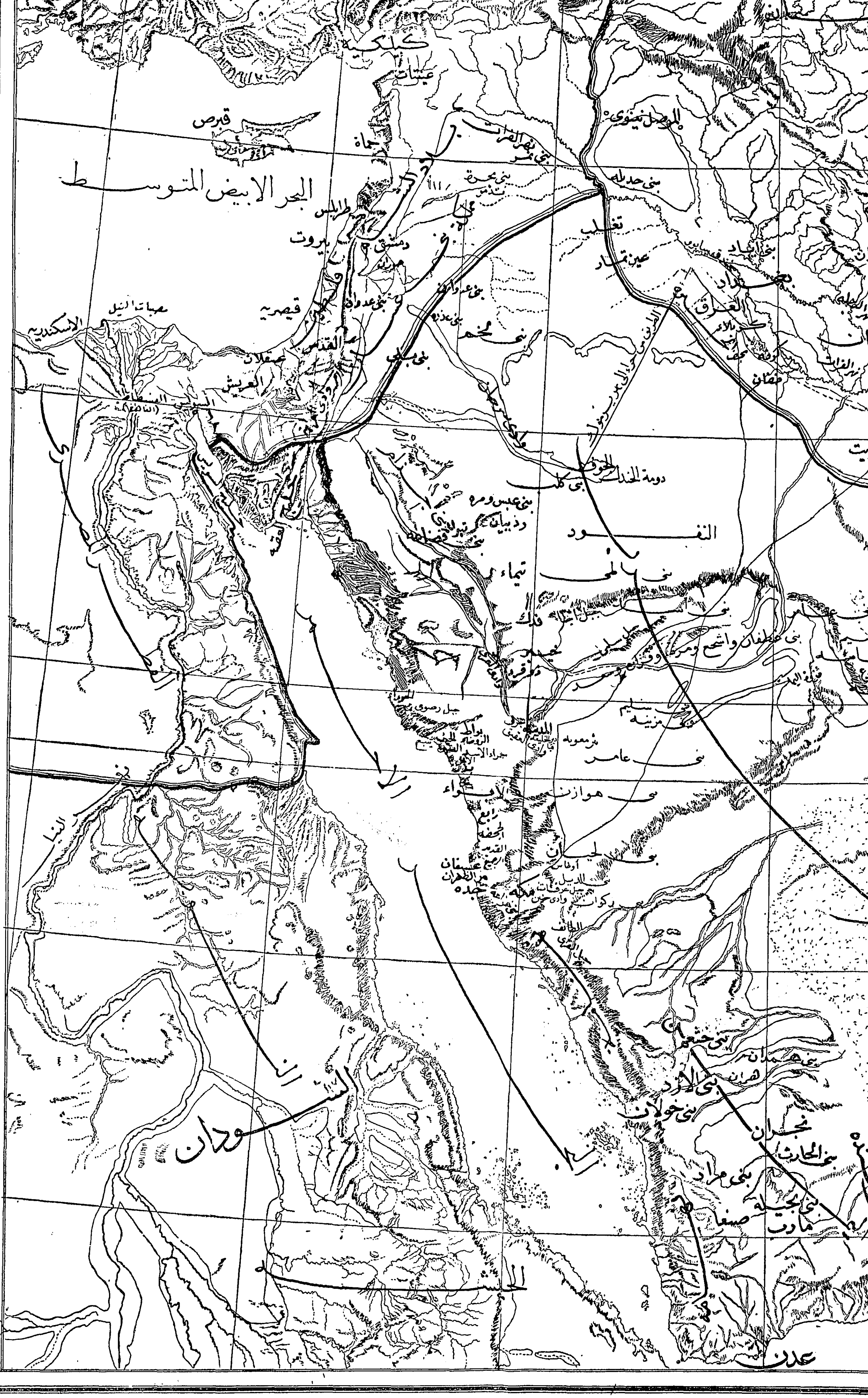
A&P International
2715 Upper Afton Road, St. Paul, MN 55119-4760
612/738-9329 FAX 612/738-1496

4.5 mm
ABCDEFGHIJKLMNOPQRSTUVWXYZ
abcdefghijklmnopqrstuvwxyz
1234567890

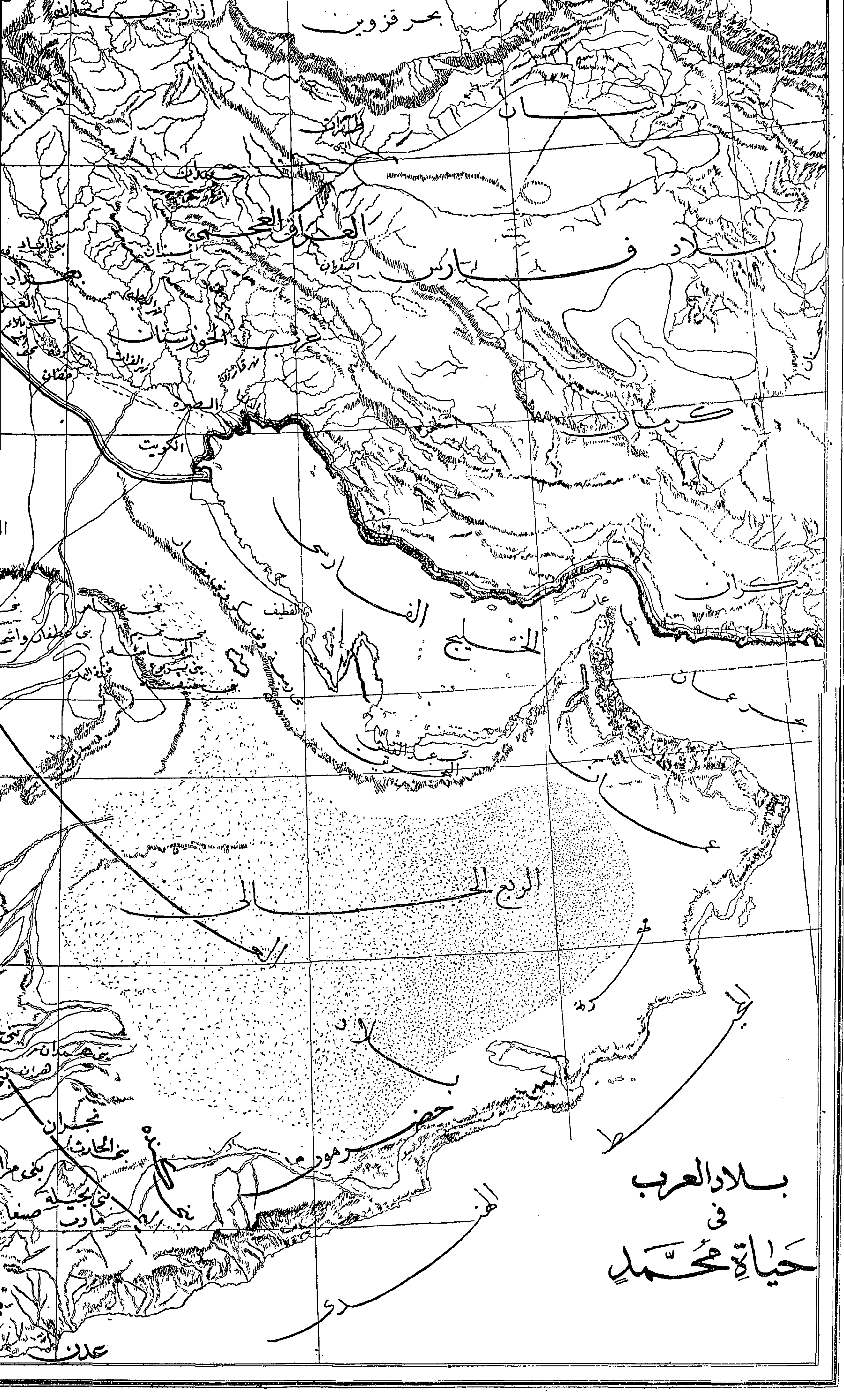
3.5 mm
ABCDEFGHIJKLMNOPQRSTUVWXYZ
abcdefghijklmnopqrstuvwxyz1234567890

3.0 mm
ABCDEFGHIJKLMNOPQRSTUVWXYZ
abcdefghijklmnopqrstuvwxyz1234567890

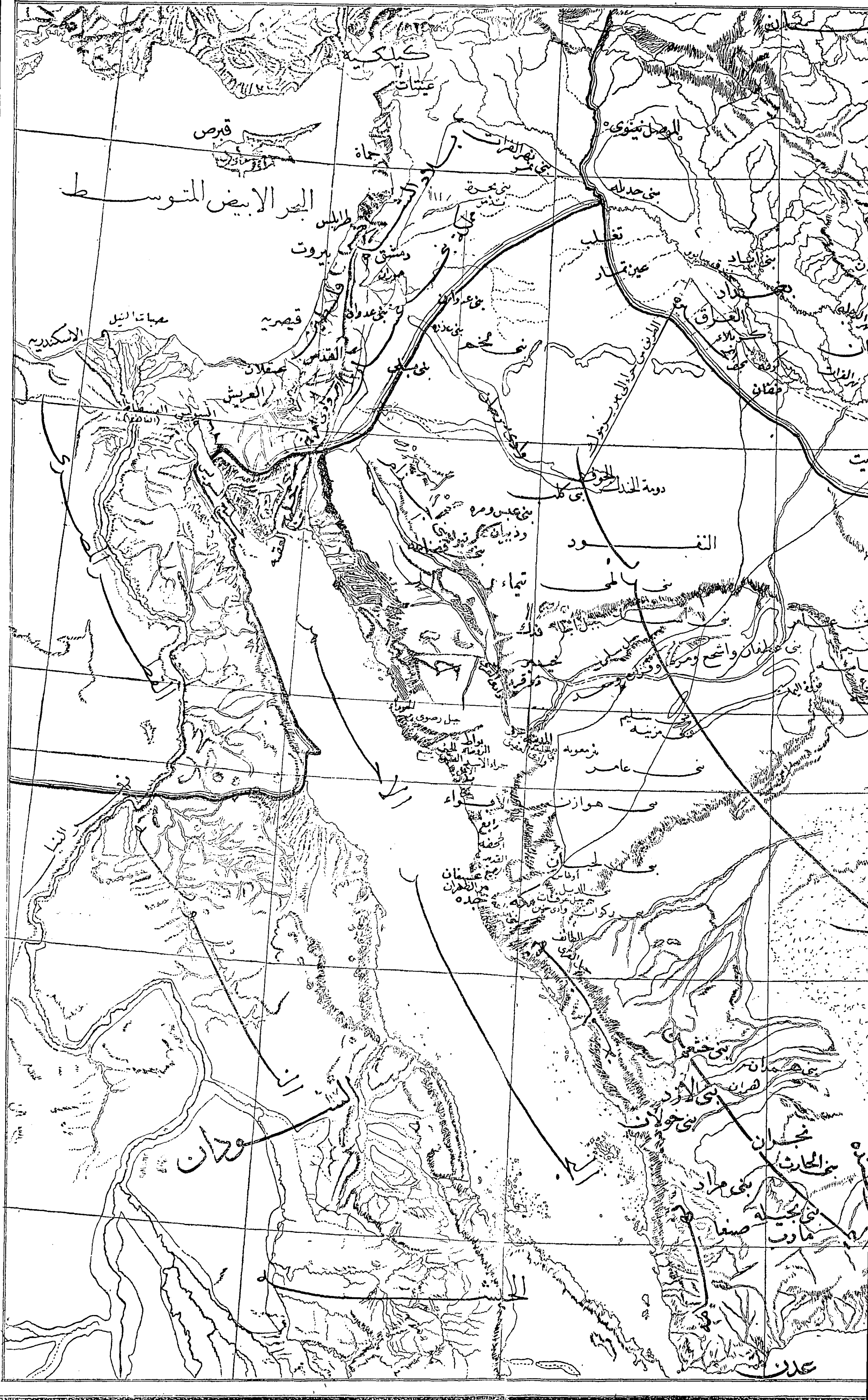

PM-MGP
METRIC GENERAL PURPOSE TARGET
PHOTOGRAPHIC
2.0 mm
ABCDEFGHIJKLMNOPQRSTUVWXYZ
abcdefghijklmnopqrstuvwxyz1234567890
1.5 mm
ABCDEFGHIJKLMNOPQRSTUVWXYZ
abcdefghijklmnopqrstuvwxyz1234567890
200 mm
150 mm
100 mm
ABCDEFGHIJKLMNOPQRSTUVWXYZ
abcdefghijklmnopqrstuvwxyz1234567890
ABCDEFGHIJKLMNOPQRSTUVWXYZ
abcdefghijklmnopqrstuvwxyz
1234567890



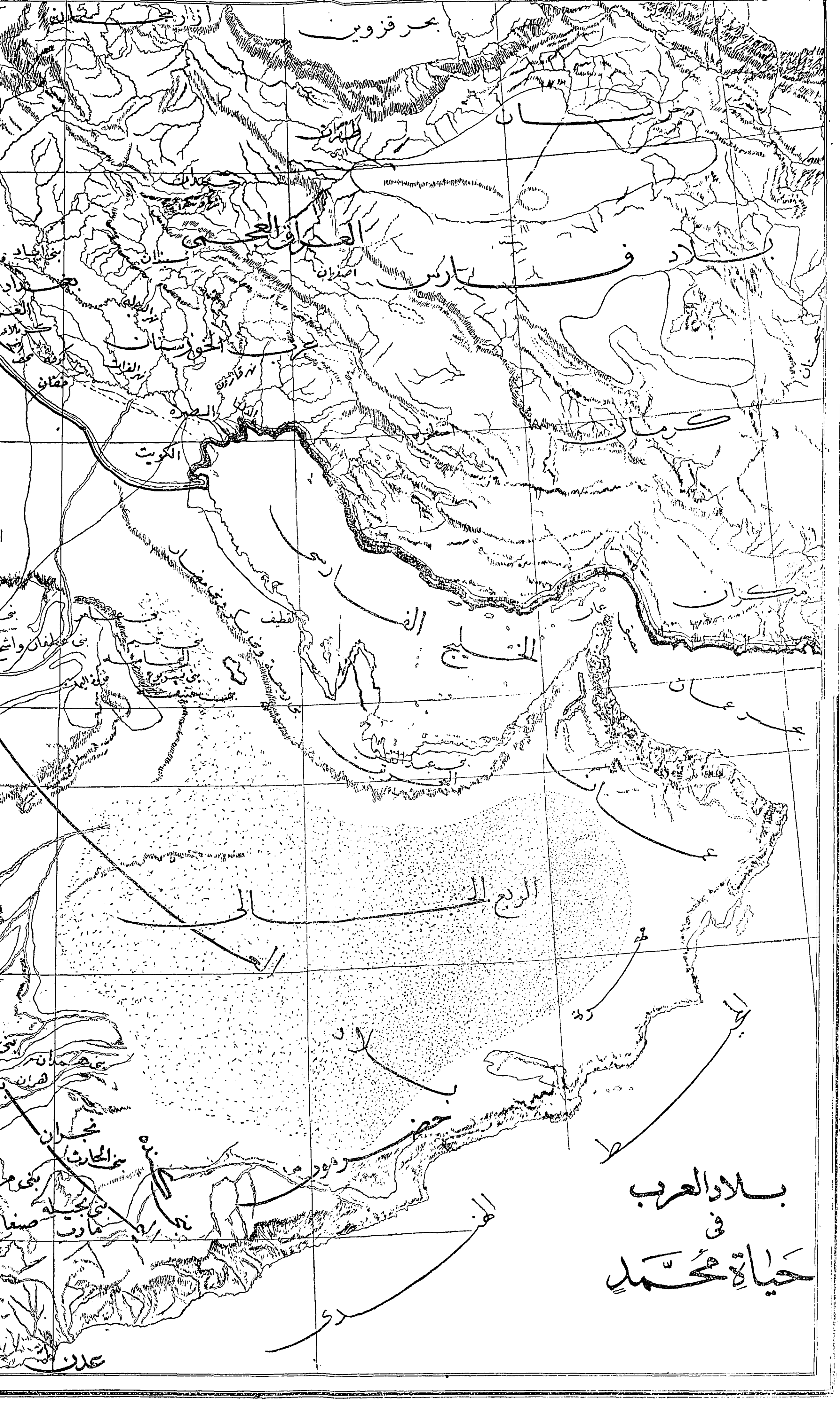
البحر الابيض المتوسط
قبرص
حماة
طرابلس
بيروت
دمشق
قيصرية
الاسكندرية
عسقلان
العريش
القدس
الموصل نينوى
تغلب
عين تمار
بغداد
العراق
دومة الجندل
بنى كلب
النفود
تيماء
فدك
خيبر
المدينة
بنى عامر
هوازن
الابواء
رابغ
الجحفة
عسفان
مكة
جده
الطائف
بنى خثعم
بنى الازد
بنى خولان
نجران
بنى الحارث
بنى مراد
صنعا
مارب
عدن
السودان



بلاد العرب
في
حياة محمد
بحر قزوين
همدان
العراق العجمي
بلاد فارس
بغداد
البصرة
الكويت
كرمان
مكران
الخليج الفارسي
القطيف
بحر عمان
عمان
الربع الخالي
حضرموت
نجران
عدن



كيليكية
عينتاب
قبرص
حماة
البحر الابيض المتوسط
طرابلس
بيروت
دمشق
قيصرية
الاسكندرية
عسقلان
القدس
العريش
الموصل نينوى
تغلب
عين تمار
بغداد
العراق
كربلاء
الكوفة
دومة الجندل
بنى كلب
النفود
تيماء
فدك
خيبر
المدينة
مزينة
سليم
بنى عامر
هوازن
الابواء
رابغ
الجحفة
عسفان
جده
الطائف
بنى خثعم
بنى همدان
بنى الازد
بنى خولان
نجران
بنى الحارث
بنى مراد
صنعاء
مارب
عدن
السودان
الحبشة



بحر قزوين
همدان
العراق العجمي
اصفهان
بلاد فارس
كرمان
مكران
البصرة
الكويت
القطيف
الخليج الفارسي
الربع الخالي
حضرموت
نجران
مأرب
صنعاء
عدن
بلاد العرب
في
حياة محمد

REDUC

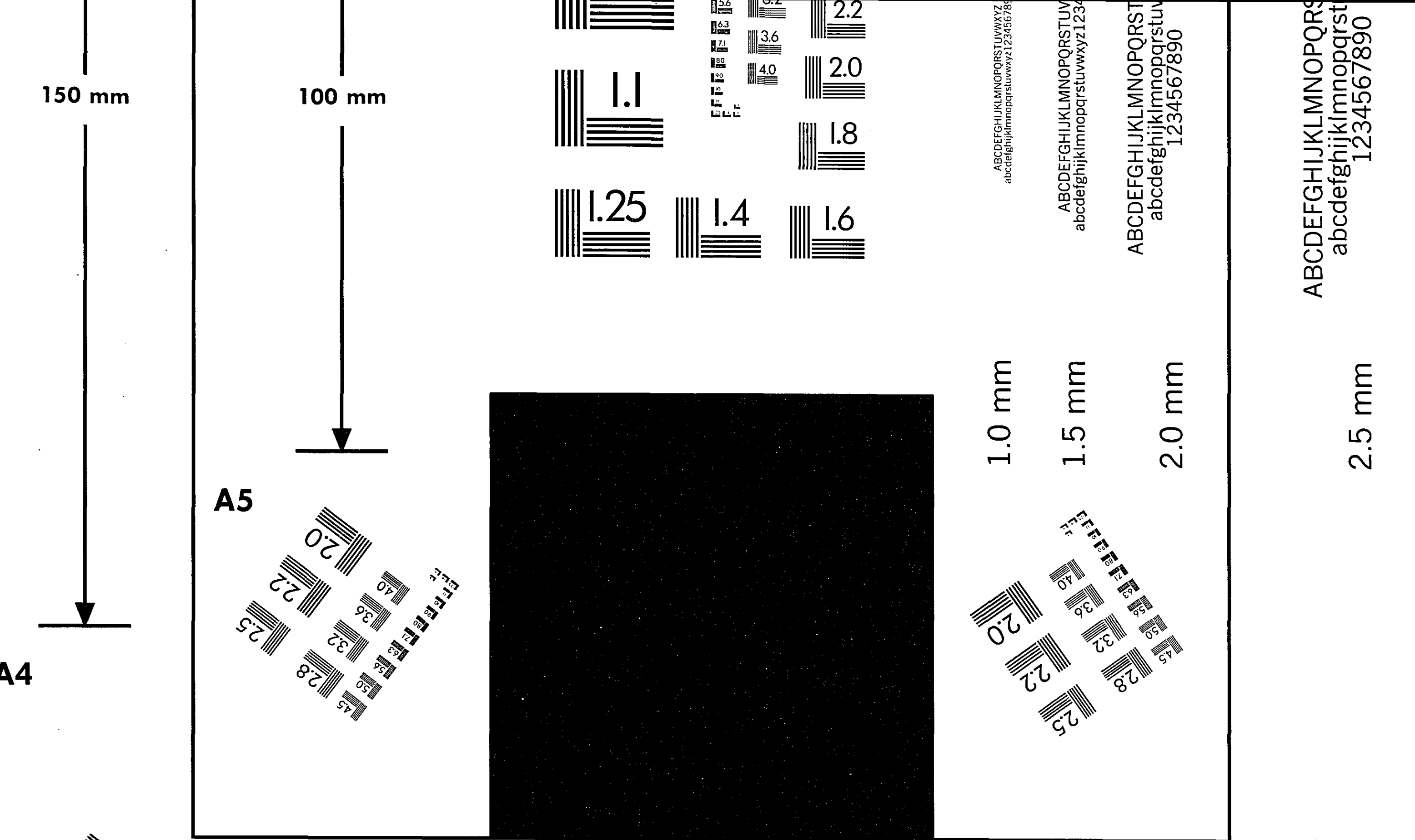
RAT

10:1

UCTION

ATIO

0:1



PRECISION℠ RESOLUTION TARGETS

A&P International
2715 Upper Afton Road, St. Paul, MN 55119-4760

PM-MGP
METRIC GENERAL PURPOSE TARGET
PHOTOGRAPHIC

150 mm

100 mm

MNOPQRSTUVWXYZ
qrstuvwxyz1234567890

MNOPQRSTUVWXYZ
rstuvwxyz1234567890

MNOPQRSTUVWXYZ
nnopqrstuvwxyz
567890

INOPQRSTUVWXYZ
nnopqrstuvwxyz
567890